
لوكاز هيرزويز
ألمانيا الهتلرية
والمشرق العربى
ترجمة
أحمد عبد الرحيم مصطفى
تقديم
عبد الخالق محمد لاشين
المركز القومى للترجمة
ميراث الترجمة
2133



يوضح هذا الكتاب بالتفصيل علاقات ألمانيا الهتلرية بالعالم العربى، مستنداً إلى المادة الوثائقية التى لم تستغل من قبل على هذا المدى الشاسع. وهو يبين الخطأ الرئيسى الذى تردى فيه هتلر حين اتبع إستراتيجية عسكرية قصيرة النظر، بتركيزه كل جهوده على خطة "برباروسا" الخاصة بالهجوم على الاتحاد السوفيتى، وتجاهله إمكانيات الثورة فى العالم العربى ضد الاستعمار الغربى. كما أن هذا الكتاب - من ناحية أخرى - يوضح موقف القادة العرب والرأى العام العربى من المشروعات والدعاية النازية، ويقدم للقارئ العربى عرضاً ممتعاً لموضوع كان فى الماضى القريب موضعاً لكثير من التساؤلات.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

ألمانيا الهتلرية والمشرق العربي

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2133
- ألمانيا الهتلرية والمشرق العربى
- لوكاز هيرزويز
- أحمد عبد الرحيم مصطفى
- عبد الخالق محمد لاشين
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
The Third Reich & the Arab East
By: Lukasz Hirszowicz

Original edition published by University of Toronto Press,
Toronto, Canada

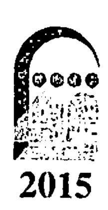
شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ألمانيا الهتلرية والمشرق العربي

تــــــأليف: لوكـــــاز هيرزويـــــز

ترجمـــــــة: أحمـــد عبـــد الـــرحيم مـــصطفى

تقـــــديم: عبـــد الخـــالق محمـــد لاشـــين



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيرزويز، لوكاز
ألمانيا الهتلرية والمشرق العربي / تأليف: لوكاز هيرزويز، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، تقديم: عبد الخالق محمد لاشين.
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٥٢ ص، ٢٤ سم
١ – ألمانيا – تاريخ – الحروب النابليونية (١٧٩٠ – ١٨١٥)
(أ) مصطفى، أحمد عبد الرحيم (مُترجم)
(ب) لاشين، عبد الخالق محمد (تقديم)
(ج) العنوان ٩٤٣,٠٧

رقم الإيداع: ٢١٦٤٥ /٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 937 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

عبد الخالق محمد لاشين

الكتاب الذي نقدمه اليوم: للمؤلف البولندى لوكاز هيرزويز، تحت عنوان "الرايخ الثالث – ألمانيا تحت حكم النازية – والعالم العربي. أعدها المؤلف كدراسة علمية نشرت أولاً باللغة البولندية بوارسو عام ١٩٦٣. ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ونشرت في لندن عام ١٩٦٦، بعد أن زودها المؤلف بمادة علمية جديدة مستقاة من مصادر جديدة من دور الحفظ والأرشيف البريطاني وغيره.

تقع الدراسة – بالإنجليزية – في أربعة عشر فصلاً بالإضافة إلى تقديم وخاتمة ومصادر. وقد تُرجمت في نصها الإنجليزي إلى اللغة العربية لأول مرة في لغة عربية مُبينة قام بها المؤرخ المصري البارز والعالم الأكاديمي المَرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، ونشرتها دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ ضمن سلسلة "مكتبة التاريخ العربي الحديث". تلك السلسلة التى أنشأها العالم الاقتصادي المرموق المرحوم الأستاذ الدكتور إسماعيل صبري عبدالله – وزير التخطيط الأسبق – عندما تولى الأشراف على دار المعارف في مرحلة من تاريخها، نشرت خلالها مجموعة من الدراسات والمؤلفات والترجمات التاريخية العلمية الهامة والقيمة، تناولت جوانب عديدة من تاريخ مصر والعالم العربي الحديث والمعاصر، بفضل تعاون منشئ هذه السلسلة مع نفر من الأكاديميين

والمثقفين المصريين والعرب بحثًا وتأليفًا وترجمةً ونشرًا، بغرض كشف النقاب عن جوانب هامة وجديدة في التاريخ العربي، وكمحاولة لتأصيل الكتابة التاريخية العلمية، وتذكير العرب بتاريخهم وتنمية وعيهم بذاتهم، باعتبار أن التاريخ هو علم الوعي، للنهوض في سبيل تحرير إرادتهم وصنع حاضرهم، بعد أن خطت المنطقة على درب الاستقلال والتحرر من التبعية والوقوع تحت ربقة الاستعمار الغربي فترة ليست بالقليلة.

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب وأهمية الموضوع الذى طرقه المؤلف وتناوله بالدراسة، وربما كانت كذلك السبب من وراء ترجمته ونشره ضمن هذه السلسلة المذكورة. والكتاب الذى نحن بصدده جديد في موضوعه، فريد في بابه من حيث تناوله علاقة ألمانيا بالمنطقة العربية من خلال الوثائق الألمانية وغيرها؛ منذ قيام الدولة الألمانية الموحدة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧١) ومدى اهتمامها بالدولة العثمانية – صاحبة السيادة على معظم دول المنطقة – وبدايات نمو المصالح الألمانية فيها والسياسات التى انتهجتها تجاه بلدان وولايات العالم العربي منذ ذلك التاريخ وما تلاه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية؛ عندما انهار الرايخ الألماني الثالث بانهيار الحكم النازي ووقعت ألمانيا ذاتها تحت وطأة احتلال القوى الكبرى والدول المنتصرة في الصراع العالمي؛ وقسمت أراضيها إلى دولتين: غربية وعاصمتها بون؛ ووضعت تحت الاحتلال والسيادة للدول الغربية، وأخرى شرقية وعاصمتها برلين وخضعت للسيطرة السوفيتية. بل وكان قد تم تقسيم برلين، عاصمتها التاريخية، إلى قسمين شرقي وغربي فصل بينهما جدار سميك عرف بجدار برلين ظل قائمًا حتى عامي ١٩٨٩/١٩٩٠ عندما انهار المعسكر الشرقي وسقط النظام السوفيتي، وأعيد توحيد الألمانيتين في دولة واحدة.

والكتاب يتناول بالدراسة الفترة التى خضعت فيه ألمانيا للحكم النازى بقيادة أدولف هتلر منذ عام ١٩٣٣ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ وسقوط هتلر والنازية. وإن كان المؤلف قد قدم لذلك باستعراض عام للفترة السابقة ومنذ توحيد ألمانيا عام ١٨٧١. ونظرًا لأن ألمانيا الموحدة وإلى حد كبير لم تكن أبدًا قوة احتلال في العالم العربي منذ ظهورها كدولة موحدة – لأسباب عدة – فضلاً عن أنها لعبت دورًا مناوئًا ومنافسًا للقوى الاستعمارية الغربية في بلدان العالم العربي حين تقاسمت فيما بينها احتلال معظم دوله؛ فقد وقر في ذهن المواطن العربي عمومًا أن ألمانيا دولة غير استعمارية، بدأت تثير أعجاب الكثيرين من العرب وخاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وكذلك بفضل ما أحرزته من تقدم علمي وتكنولوجي إلى غير ذلك. وما اشتهر عن الألمان من دقة وانضباط واحترام شديد للعمل... كما قد يرجع ذلك الإعجاب في بعض جوانبه إلى قدرة الألمان ونجاحهم في إعادة بناء قوتهم بشكل مُثير ومُبهر خلال فترات وجيزة بعد الهزيمة والانهيار الذى منيت به ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وما نجم عنه من تمزيق لأراضيها وفرض تعويضات باهظة على الألمان وكذلك فرض قيود ثقيلة ومجحفة على صناعاتهم مدنية كانت أم عسكرية. ربما أن كل ذلك عُدَّ – في رأي الكثير من المؤرخين – مسئولاً عن ظهور ونمو النازية في ألمانيا والتي نجحت في ارتقاء السلطة وسدة الحكم عام ١٩٣٣. ولربما قد يتكرر ذلك المشهد مرة أخرى بعد الانهيار الثاني لألمانيا بنهاية الحرب العالمية الثانية وما حلّ بها من دمار وخراب ، ومن هنا سيستمر هذا الإعجاب بالألمان لدى قطاعات من أبناء العالم العربي وغيرهم لفترات متكررة وحقبة ليست بالقليلة.

وربما أن مثل ذلك الأعجاب من جانب العرب سيحظى به شعب آخر ودولة أخرى خلال النصف الأول من القرن العشرين وأعني به الشعب الأمريكي والولايات المتحدة الأمريكية، ذلك البلد الذى نال استقلاله وأقام نظامه ودولته الفدرالية بنهاية القرن الثامن عشر وظل لفترة ليست بالقليلة بعيدًا عن ممارسة أى دور احتلالى أو استعماري تقليدي في منطقتنا العربية(*)؛ على النحو الذى تعرض له من بلدان ودول أوربا الغربية؛ انجلترا وفرنسا بخاصة. ولقد تبدل الحال إلى عكس ذلك – تقريبًا – بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وبروزها كقوة عظمى سعت إلى وراثة الاستعمار الغربي الأوربي؛ وإن بأساليب جديدة تتناسب وروح العصر الجديد وسيادة مرحلة الاستقلال والتحرر الوطنى بحصول الكثير من بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها وتحررها من ربقة الاستعمار الغربي القديم وبروز قوة الاتحاد السوفيتي كقوة عظمى دعمت هذه الروح التحرية التى برزت وتدعمت خلال هذه المرحلة من التاريخ الإنساني. ومنذ ذلك فصاعدًا تبدلت صورة الإعجاب بالولايات المتحدة الأمريكية إلى نقيضها تمامًا، للدور والأساليب التى مارستها مع شعوب وبلدان عالمنا العربي في سعيها إلى دعم استقلالها وتحررها. فضلاً عن الموقف الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أهم المشكلات التى واجهت شعوبنا العربية بقيام الدولة العبرية واستلاب فلسطين وما حظيت به تلك الدولة الغاصبة من دعم

(*) إلا في ضربها للأساطيل البحرية للأسرة القرمانية في ليبيا في البحر المتوسط خلال الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر بحجة ما سمته "القرصنة البحرية". نغمة عتيقة أطلقها الاستعمار مساوية لنغمة "الإرهاب" المعاصرة.

مُطلق وكامل سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا من جانب الولايات المتحـدة الأمريكيـة بحيث جعلت منها قوة عصية على العرب، وراحت تلهب بها ظهور العـرب دولاً وشعوبًا وأنظمة؛ فتبدلت صورة ذلك الأعجاب القديم للولايات المتحدة إلى صـورة نقيضة تمامًا جسدت به وجه "الرجل القبيح" وسياسة "العصا الغليظة" لدول وشعوب الأمة العربية بأسرها.

وإذا كان ذلك قد حدث مع الولايات المتحدة الأمريكية فـي منطقتنـا؛ فـإن صورة الاعجاب القديمة للألمان شعبًا ودولة – ظل إلى حد كبير قائمًا حتى نهايـة النصف الأول من القرن العشرين تقريبًا بشكل أو بآخر. وذلك برغم ما ساهمت به ألمانيا – سواء بشكل مباشر أو غير مباشر – في تعقيد المـشكلة – بـل المأسـاة الفلسطينية – سواء في توسيع حجم الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين بـسبب الاضطهاد الألماني لليهود مرتين في فترتين مختلفتين؛ الأولى فـي أعقـاب قيـام الدولة الألمانية الإتحادية عام ١٨٧١ في ظل سياسة بسمارك تجـاه اليهـود ومـا عرف آنذاك "بحركة الكفاح الثقافي" لفرض الثقافة الجرمانية على اليهود ومقاومتهم لها، والثانية تجسدت في ظل سيطرة السلطات النازية منذ عام ١٩٣٣ ومـا تلاهـا وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية والسياسات التى انتهجها النازيون تجاه اليهود مما دفع الكثيرين منهم إلى الفرار خارج ألمانيا وتعرض الباقين أو الكثيرين منهـا إلى التنكيل شأن غيرهم من أقليات أخرى غير جرمانية. والأمر الأكثر إثـارة أن ألمانيا ساهمت للمرة الثالثة لاحقًا في تعقيد المشكلة الفلسطينية وتعاظم حجم وقـوة الدولة العبرية لاحقًا منذ قيامها عام ١٩٤٨ بل وحتى وقت قريب جدًا – بل وربما

حتى الآن – لخضوع الألمان للابتزاز اليهودى بفضل مبدأ التعويضات الهائل الذى أجبرت ألمانيا على تحمله والوفاء به لليهود وللدولة العبرية بشكل أو بآخر مدفوعة وملاحقة بما قيل عنه مركب الذنب الذى تسببت فيه "المحرقة النازية" لليهود خلال سنى الحرب العالمية الثانية، وتحملت عبء دفعه ألمانيا والشعب الألماني – وربما لازالت حتى الآن، سواء في شكل أموال ونقود سائلة، أو في شكل عتاد ومعدات وتجهيزات – مدنية وغير مدنية – فضلاً عن الخبرات والتعاون العلمي الواسع والتكنولوجي مع الدولة العبرية.

والكتاب الذى تحت أيدينا الآن يتناول بالدراسة علاقة ألمانيا والألمان بالعالم العربي خلال الفترة التى سادها تيار الاعجاب العربي بالألمان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. والذى تبدي في صور وأشكال عديدة لأفراد وتنظيمات وقادة وساسة في كثير من أرجاء العالم العربي.

وقد تناول المؤلف دراسته بروح علمية أكاديمية رصينة. اعتمد فيها على أوثق المصادر الأصلية المتاحة وأهمها الوثائق الألمانية الرسمية في الأرشيفات الألمانية أو فى تلك التى استولى عليها الحلفاء والمنتصرون، وكذلك على الوثائق البولندية والبريطانية وغيرها من الوثائق الهامة والرسمية وثيقة الصلة بموضوع الدراسة سواء وثائق إيطالية أو فرنسية أو أمريكية أو غيرها. هذا بالإضافة إلى ما تيسر له من مؤلفات ومذكرات وكتابات عربية لبعض الشخصيات العربية التى كانت لها صلات أو علاقات وثيقة بالساسة والسياسة الألمانية خلال فترة الدراسة. ولهذا جاءت الدراسة أكاديمية من الطراز الأول؛ تميزت إلى حد ليس بقليل بالدقة والموضوعية.

ومن بين أبرز الموضوعات التى تناولها المؤلف بالدراسة في فصوله الأربعة عشر: ألمانيا والدولة العثمانية. ألمانيا وفلسطين والمسألة الفلسطينية، ألمانيا والدولة السعودية، ألمانيا والبلدان العربية: سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والسعودية عند اندلاع الحرب العالمية الثانية.ألمانيا والعراق والثورة العراقية ورشيد الكيلانى. ألمانيا ومعارك الحرب في سوريا. ألمانيا وقيادة الثورة الفلسطينية والحاج أمين الحسيني. ألمانيا والحرب في مصر والوجود البريطاني والنظام المصري القائم. ألمانيا ومعارك الشمال الأفريقي وخاصة في تونس والحركة الوطنية بها والحبيب بورقيبة. وغير ذلك الكثير من الموضوعات والقضايا الهامة؛ تمثل رؤية هامة وجديدة من خلال الوثائق الألمانية بخاصة.

ويمكن القول أنه على الرغم من مرور فترة ليست بالقليلة على إعداد هذه الدراسة ونشرها في لغتها الإنجليزية فإن ما ورد بها من حقائق وتحليلات حافظت إلى حد كبير على رصانتها ودقتها، ولم يطرأ عليها – في الكثير من جوانبها – ما قد يعيد النظر جذريًا فيما تناولته من وقائع وتحليلات؛ خاصة وأنه لم يكتب على حد علمي إلى الآن دراسة جديدة تناولت موضوع مؤلفنا هذا على شموله واتساعه للعلاقات الألمانية مع الكثير من البلدان والشعوب العربية؛ الذى تناوله هذا الكتاب. اللهم إلا بعض الدراسات هنا وهناك التى تناولت دراسة علاقات محددة بين ألمانيا ودول عربية بعينها؛ أو فترات مغايرة لبلد أو آخر مع ألمانيا والشعب الألماني(*).

(*) ومنها دراسة د. وجيه عتيق؛ السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية الألمانية ١٩٥٢ – ١٩٦٥، دار النهضة العربية، ١٩٩١. وهي دراسة لفترة لاحقة حول علاقات مصر الثورة بألمانيا الاتحادية (خلال فترة تقسيم ألمانيا).

وأنى لأرجو أن يثير إعادة نشر هذا الكتاب من جديد الفضول والاهتمام لدى الباحثين والأكاديميين العرب للقيام بدراسة العديد من الجوانب والقضايا الكثيرة والمتشابكة التى أثارها هذه الكتاب؛ وليفتح شهية الباحثين في اقتحام موضوعات مُماثلة أزاح الكتاب عنها بعض غموضها... كما آمل أن يسد فراغًا هامًا وهائلاً لدى القارئ العام وغيره في تأصيل فهم الدور الألماني والعلاقات الألمانية مع بلداننا العربية: أحزابًا ومؤسسات ونظم وشركات وغيرها. خاصة بعد أن أصبحت ألمانيا تشكل إحدى القوى الكبرى الفاعلة في التجمع الأوربي المعاصر، وعلى صعيد القوى العالمية المعاصرة.

والله من وراء القصد،،،

تصدير

يتناول الكتاب الذى نقدمه إلى قراء العربية موضوعاً هاماً من موضوعات التاريخ العربى المعاصر ، لم تتسن حتى الآن دراسته بصورة شاملة . فأسرار سياسة الريخ الثالث إزاء العالم العربى لم يسبق لها أن كشفت بمثل هذا التفصيل الذى يستقى أسانيده من المادة الوثائقية التى أنفق المؤلف جهداً كبيراً فى الإفادة منها بحيث أجاب على كثيرمن التساؤلات التى أحياناً ما كانت تجول بخاطرنا إزاء نقاط مثل: حركة رشيد عالى الكيلانى فى العراق بالريخ الثالث ؛ علاقة ألمانيا الهتلرية ببعض الشخصيات المصرية — إلى غير ذلك . والترجمة التى نقدمها إلى قراء العربية مترجمة بدورها عن الأصل البولندى . وأرجو أن يؤدى نشر هذا الكتاب باللغة العربية إلى تحقيق الهدف المتوخى منه .

والله ولى التوفيق

حدائق شبرا فى أغسطس ١٩٦٨

أحمد عبد الرحيم مصطفى

المختصرات

A.A. Auswärtiges Amt. = وزارة الخارجية الألمانية

A.P.A. Aussenpolitik Amt. = مكتب السياسة الخارجية بالحزب النازى

D.F.C.A.A. La délégation française auprès de la Commission allemande d'armistice = الوفد الفرنسى لدى لجنة الهدنة الألمانية

D.G.F.P. Documents on German Foreign Policy, Series D, London and Washington.

D.Z.A. Deutsches Zentralarchiv Potsdam = German Central Archives in Polsdam; German Democratic Republic.

FRUS Papers relating to the Foreign Relations of the United States, Government Printing Office, Washington.

I D D I I Documenti diplomatici Italiani, Rome.

I M T International Military Tribunal, Trial of the Major War Criminals before the International Military Tribunal, Nuremberg; 1945 — 1946. 42 Volumes, Nuremberg, 1947—9.

O K W Oberkommando der Wehrmacht = القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية

N S D A P الاسم الألمانى الكامل للحزب النازى

Pol. VII.
القسم السابع بإدارة الشئون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية واختصاصه شئون الشرق الأوسط

R A M Reichaussenminister = وزير الخارجية الألمانية

R M V P Reichsministerium für Volksaufklärung und Propaganda
وزارة الريخ لشئون التعليم والإرشاد القومى

M/N
الوثائق التى استولى عليها الحلفاء الغربيون ، وهى الآن فى قبضة حكومة ألمانيا الاتحادية .

المقدمة

لم يتسن بحث موضوع هذا الكتاب حتى الآن بحثاً شاملا . فقد كانت بعض الجوانب ، أى اتصالات ألمانيا النازية بالزعماء العرب ، موضوعاً للنشر والدعاية فيما بين عامى ١٩٤٥ ــ ٨ ، وقد أشارت إليها الصحافة العربية فى بعض المناسبات فى السنوات الأخيرة . والعلاقات الألمانية ــ العراقية فى عامى ١٩٤٠ ــ ١ ، التى أشار إليها مجيد خضورى بصفة جزئية فى كتابه :
Independent Iraq : 1932-58 إنما هى استثناء بهذا الصدد .

والكتاب الذى نقدمه إلى القراء يعتمد على الوثائق الألمانية ، وخصوصاً الملفات والقرارات التى أصدرتها وزارة الخارجية الألمانية والوثائق التى استولى عليها الحلفاء الغربيون والوثائق التى أعادها الاتحاد السوفييتى إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وسجلات محاكمات نورمبرج والمجموعات المنشورة من الوثائق الأمريكية والبريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، كما يقوم على المذكرات الأوربية والعربية . هذا إلى أننى قد أفدت من المادة المكتوبة الموجودة والمنشورات الرسمية التى تتصل بمراحل مختلفة من العمليات الحربية والعلاقات الدولية والمواقف الداخلية فى البلدان التى نتناولها فى هذا البحث .

وإننى إذ أقدم هذا الكتاب إلى القراء أود أن أعبر عن شكرى لكل من سهلوا مهمة بحثى وساعدونى على إعداد الكتاب ونشره . .

فأولا وقبل كل شىء أجد من واجبى أن أشكر معهد الدراسات التاريخية بالأكاديمية البولندية للعلوم وبوجه خاص مديره بروفسور تاديوز مانتوفيل Tadeus Manteuffel الذى ساعدنى على كتابة بحثى ووفر لى الظروف المناسبة للانتهاء منه . وإننى أدين بالكثير لكلية سانت أنتونى بأكسفورد ولمديرها مستر ديكن Deakin للمساعدة المادية والتنظيمية فيما يتعلق بالاطلاع على الوثائق الألمانية التى استولى عليها الحلفاء وتقديم التسهيلات العظيمة التى توفرها المكتبات البريطانية ، وبخاصة

مكتبة بودليان بأكسفورد ومكتبة المعهد الملكى للشئون الدولية . كما أدين بوجه خاص للبروفسور ألبرت حورانى بأكسفورد والبروفسور م. لاشز Lachs بوارسو والبروفسور باجوسكى Pajewski بپوزنان والبروفسور بيوارسكى K. Piwarski بكراكاو لمساعدتهم ونصائحهم وتشجيعهم . كما أشكر س. هـ. فون C.H. Fone مدير مكتبة وزارة الخارجية البريطانية وقسم الأبحاث بها ومعاونيه وموظفى دار وثائق Public Record Office لندن الذين سهلوا لى الاطلاع على الوثائق الألمانية التى تم الاستيلاء عليها.

كما أشكر من صميم قلبى البروفسور لوتزكه Lotzke مدير الأرشيف المركزى الألمانى Deutsches Zentral Archiv ببوتسدام ومعاونيه الذين ساعدونى على الاطلاع على المادة الخاصة بالعهد الهتلرى التى أمكن الحصول عليها . وأقدم وافر شكرى لموظفى مكتبة المعهد البولندى للشئون الدولية، ومكتبة اللجنة المركزية للتحقيق فى الجرائم الهتارية ؛ والمكتبة العسكرية المركزية ؛ ومكتبة معهد الدراسات التاريخية التابع لأكاديمية العلوم البولندية ومكتبة وزارة الخارجية البولندية . كما أشكر السيدة شارزينسكا K. Skarzynska التى أعانتنى على نقل الأسماء العربية .

وتختلف الطبعة الإنجليزية بعض الشيء عن النص البولندى ؛ إذ قد توافرت لى وثائق جديدة كثيرة ، وبخاصة فيما يتعلق بالخطط العسكرية الألمانية .

وإلى جانب ما سبق أن سجلته من شكر يسعدنى أن أعبر عن امتنانى لمستر إلى كدورى Elie Kedourie الذى اقترح ترجمة الكتاب ونشره باللغة الإنجليزية، كما أشكر مستر ولتر لا كير Walter Z. Laqueur الذى أعاننى بآرائه القيمة .

ل . هـ .

الفصل الأول

الدول الكبرى والمشرق العربى

تستند أصول الأحداث التى يعرض لها هذا الكتاب إلى عاملين لم يحل اختلافهما دون تلاقيهما وتشابكهما فى كثير من الأحيان : وهذان العاملان هما المنافسة التى نشبت بين الدول الكبرى وأوقعت الإنسانية فى حربين عالميتين ؛ ورغبة الشعوب المستعبدة فى رفع نير السيطرة الأجنبية .

وفى الفترة التى يتناولها هذا البحث اتضحت المنافسة بين الدول الكبرى التى خرجت صفر اليدين من التسابق الاستعمارى — أى ألمانيا وإيطاليا واليابان — لإعادة تقسيم العالم . وكانت النتيجة المعروفة لهذا الاتجاه هى احتلال اليابان لمنشوريا والتدخل الدولى فى شئون إسبانيا والاعتداء الإيطالى على الحبشة والقضاء على استقلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا . وغزو بولندة وكارثة الحرب العالمية الثانية .

وهذا الكتاب يعرض لسياسة أهم الدول التى خرجت صفر اليدين من المنافسة الاستعمارية — أى ألمانيا النازية — إزاء العالم العربى .

توسع الدول الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية

كانت بلدان العالم العربى لفترة طويلة هدفاً للتغلغل الأوربى الذى بدا فى أشكال مختلفة . وفى القرن التاسع عشر . أى فى الفترة التى كانت الدول الأوربية خلالها تسيطر على العالم بأسره تقريباً ، كان العالم العربى داخلا فى نطاق الإمبراطورية العثمانية . على الأقل من الناحية الرسمية ، فى الوقت الذى كانت فيه الدول الكبرى تؤثر تأثيراً حاسماً فى اقتصاديات هذه البلدان وحياتها السياسية والثقافية . فما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا تسيطر تماماً على مصر ، وفى الشاطئ العربى للخليج كان نفوذ حكومة الهند البريطانية لا يقل عن نفوذ سلطان تركيا . وفى عام ١٩١٢ احتلت إيطاليا ليبيا على أثر حربها مع تركيا . وبحلول بداية القرن العشرين

كانت مصالح كل دول أوربا تقريباً قد تعارضت فى بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية . كما انضمت الإمبراطورية الألمانية إلى الدول التقليدية التى كانت قد دخلت حلبة المنافسة على الإمبراطورية العثمانية : أى إنجلترا وفرنسا وروسيا .

وقد اتخذ التغلغل الغربى فى الإمبراطورية العثمانية أشكالا مختلفة ؛ فإلى جانب الحقوق المستمدة من الامتيازات الأجنبية والقروض المقدمة للإمبراطورية التركية ، وامتيازات مد واستغلال السكك الحديدية ، والاستثمارات المالية فى المشروعات المحلية ، وإدارة البنوك الأجنبية — إلى جانب كل ذلك كانت البعثات التبشيرية والمدارس والمستشفيات المسيحية على جانب كبير من الأهمية . هذا إلى « حماية » الدول الكبرى لقطاعات مختلفة من السكان المحليين . فقد كانت فرنسا تخلع حمايتها على الموارنة فى لبنان ، وكانت روسيا ترعى العقيدة اليونانية الأرثوذكسية كما كانت بريطانيا ترعى الدروز واليهود . وفى سوريا ولبنان كانت فرنسا تفرض سيطرتها على المناطق التى كانت موضعاً للاستثمارات المالية ولمد السكك الحديدية والتعليم والثقافة . ولكن دولا أخرى كانت تتمتع أيضاً بنفوذ قوى : فمثلا لا يمكننا أن نتجاهل البعثات التبشيرية الأمريكية والجامعة الأمريكية فى بيروت ، وهى الجامعة التى أنشأتها البعثة البرسبيتيرية الأمريكية فى عام ١٨٨٦ .

وفى بداية القرن العشرين طرأ تغير على العلاقات الدولية نتيجة للتوسع الألمانى غطى على المنافسة التقليدية التى بدأت فى القرن السابع عشر بين فرنسا وإنجلترا وروسيا بسبب اتجاه كل منها إلى فرض نفوذها وسيطرتها على الإمبراطورية العثمانية . فمنذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٢ نما تصدير رأس المال الألمانى إلى الإمبراطورية العثمانية حتى بلغ ما يقرب من ٥٠٠ مليون مارك — وبالإضافة إلى الدين الألمانى الضخم ، أصبح مجموع الممتلكات الألمانية حوالى ١٠٠٠ مليون مارك . وكان الألمان يبدون نشاطاً واسعاً فى مد السكك الحديدية ، وفى ٢٥ نوفمبر ١٨٩٩ حصلوا على امتياز مبدئى من السلطان لما سمى بسكة حديد بغداد ، التى كان من المتوخى أن تربط هامبورج وبرلين ، وفيينا ببغداد والخليج العربى عبر الآستانة . وكان من أهداف مد هذا الخط الحديدى استغلال المواد الخام وأهمها القطن وبترول شمالى العراق . ولما كانت البنوك الألمانية الكبرى

ومصانع الأسلحة قد ازداد اهتمامها بتركيا ، فقد كان من المستحيل اتباع السياسة البزماركية الخاصة بعدم الاهتمام بشئون الشرق الأدنى . ولهذا واصل الألمان دعم نفوذهم السياسى فى الآستانة . أما السلطان عبد الحميد فقد رحب بازدياد النفوذ الألمانى فى إمبراطوريته على أمل أن يستغل الخلافات الناشبة بين الدول الأوربية . وفى عام ١٨٩٨ أدى القيصر الألمانى وليم الثانى فريضة الحج فى فلسطين ثم زار دمشق حيث أعلن أن بإمكان مسلمى العالم البالغ عددهم ٣٠٠ مليون نسمة أن يركنوا إلى صداقته .

وفى البداية رأت بريطانيا أن التغلغل الألمانى فى الإمبراطورية العثمانية ومشروع سكة حديد بغداد يوازنان النفوذ الروسى والفرنسى . هذا إلى أن فكرة تحالف ألمانيا وإنجلترا ضد فرنسا وروسيا كانت حينئذ موضع ترحيب شديد لدى الدوائر الحاكمة فى إنجلترا ؛ على أن المنافسة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا قد خفت حدتها على أثر عقد الوفاق الودى فى عام ١٩٠٤ والاتفاق الإنجليزى — الروسى فى عام ١٩٠٧ ؛ على حين أن خطط ألمانيا الخاصة بمد سكة حديد بغداد وفرض نفوذها على الشرقين الأدنى والأوسط كانت مثاراً للنزاع مع بريطانيا حتى قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى. حقيقة أن بريطانيا وألمانيا وتركيا قد توصلت إلى عقد عدد من الاتفاقيات فى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ تتناول مشكلات المواصلات والحدود ، إلا أن نشوب الحرب قد حال دون تنفيذ هذه الاتفاقيات . ومنذ ذلك الوقت أصبح تقرير مستقبل الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية مرتبطاً بالنزاع المسلح بين الدول لا بالمفاوضات .

خطط تقسيم الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى

ارتبط مصير البلدان العربية طيلة ربع قرن بنتيجة الصراع المسلح الذى نشب خلال الحرب العالمية الأولى والمساومات الدبلوماسية والوعود والاتفاقيات السياسية المتصلة بها . وظلت هذه الأحداث تسيطر على العلاقات السياسية ، كما أثرت فى أفكار معظم الزعماء العرب خلال هذه الفترة .

ومن المعروف أن تركيا كانت حليفة لدول الوسط أثناء الحرب العالمية الأولى . لهذا فإذا ما كانت علاقة الصداقة التقليدية مع الباب العالى قد أملت على إنجلترا أن تتوخى الحرص فى علاقاتها مع الزعماء القوميين العرب ، فإن سياسة التحالف معهم لم تلبث أن أصبحت من الملامح الرئيسية للدبلوماسية البريطانية .

وقد بدا هذا قبل كل شيء فى إقامة علاقات بين ممثلى إنجلترا وبين حاكم مكة الشريف حسين بن على المنتمى إلى الفرع الهاشمى . وفى البداية كان الساسة البريطانيون شديدى التخوف من أن يلقى إعلان سلطان تركيا للجهاد استجابة واسعة المدى لدى الرعايا المسلمين التابعين لدول الوفاق . ومن المحتمل أن الإنجليز كانوا يهتمون بأن يجتذبوا إلى صفهم بعض الزعماء المسلمين الذين كان يمكنهم — إلى حد ما — أن يقللوا من أثر الدعوة إلى الجهاد . وبعد ذلك أصبح الهدف الرئيسى للسياسة البريطانية هو دفع العرب إلى إعلان الثورة ضد تركيا — وقد نجحوا فى تحقيق هذا الهدف . وفى أواسط عام ١٩١٦ حاربت قوات عربية يقودها الأمير فيصل ، أحد أبناء الحسين ، القوات التركية فى شبه الجزيرة العربية ثم فى الشمال . وفى عام ١٩١٨ استولت قوات فيصل على دمشق .

وترجع أصول علاقات إنجلترا مع الحسين إلى الوعود السياسية الغامضة نسبياً التى قطعها سير هنرى مكماهون ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، فى رسائله إلى حاكم مكة . حقيقة أن إنجلترا قد وعدت العرب فى هذه الخطابات بالاستقلال ، إلا أن مدى سيادة الدولة العربية المتوخى إنشاؤها ومساحتها كانتا موضعاً لكثير من التحفظات . وبمعنى أكثر تحديداً نجد أن مكماهون قد وضع فى عين الاعتبار المصالح الفرنسية على شواطئ البحر المتوسط والمصالح البريطانية فى جنوبى العراق وعدن ، ولهذا استبعد هذه المناطق من الوعود البريطانية . وقد بدأ تبادل الخطابات بين الشريف حسين ومكماهون فى ١٤ يولية ١٩١٥ .

وفى ربيع عام ١٩١٦ تم الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا وروسيا حول مستقبل الإمبراطورية العثمانية . فكان من نصيب روسيا أراض شاسعة على مضيقى البحر الأسود وفى شرق الأناضول . وطبقاً لما عرف باتفاقية سايكس — بيكو تقرر تقسيم أملاك السلطان فى البلاد العربية على الوجه التالى : توضع المنطقة الحمراء

تحت السيطرة البريطانية المباشرة ، والزرقاء تحت الحكم الفرنسى المباشر . والبقية التى تتضمن ساحل فلسطين حتى نهر الأردن ، تحت إشراف دولى ، وفى الأراضى الباقية تقرر تشكيل دولة أو دول عربية تقسم إلى مناطق نفوذ (ب) بريطانية و (ا) فرنسية (طبقاً لتلوين وتحديد الأراضى المعنية على خريطة ملحقة) .

وقد أمكن التوصل إلى هذه الاتفاقية بعد مساومات حادة جرت بين دول الوفاق. ورغم ذلك فقد وجدت قوى فى داخل بريطانيا و بين الإنجليز العاملين فى الشرق الأدنى حاولت إلغاء هذه الاتفاقية وتوسيع النفوذ البريطانى على حساب فرنسا .

وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧ وجه وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور خطاباً إلى لورد روتشيلد عرف باسم وعد (أو تصريح) بلفور . وقد نتج هذا التصريح عن مفاوضات جرت بعض الوقت بين المنظمة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية . وعلى حين أن الحكومة البريطانية قد وعدت بمساندة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فإنها تحفظت بقولها إنها لن تتخذ فى فلسطين أى خطوات قد تمس الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود أو حقوق السكان اليهود فى البلدان الأخرى أو وضعهم السياسى . وحين أقرت الحكومة البريطانية وعد بلفور كانت تأمل أن تحصل على مساندة اليهود الروس والأمريكان للوفاق ، وأن تجد فى نفس الوقت حجة لفرض سيطرتها الاستراتيجية على المنطقة الهامة التى نص اتفاق سايكس بيكو على أن تكون من نصيب فرنسا أو على أن توضع تحت إشراف دولى .

وهكذا كانت الحكومة البريطانية باتباعها سياسة ذات عدة أوجه ومتناقضة ظاهرياً ، تمهد لسيطرتها على المشرق العربى فى المستقبل . وبطبيعة الحال كان من المقيض لمصر ، بما فيها منطقة قناة السويس ، أن تكون حجر الزاوية لهذه السيطرة . وبعد دخول تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر وبذلك أقرت الوضع الذى كان قائماً منذ عام ١٨٨٢ .

ولما كان الألمان قد تحالفوا مع تركيا فى ذلك الوقت ، فقد كانت تعوزهم فرص النشاط السياسى المستقل والمنفصل فى العالم العربى ، بالرغم من سعيهم خلال الحرب إلى إثارة العرب ضد دول الوفاق . وكان من أهداف تحالفهم مع تركيا (٢ أغسطس ١٩١٤) إثارة حركة الجامعة الإسلامية التى كانت تتمشى مع هدف السلطان حين أعلن الجهاد . وكان الألمان يسعون إلى استغلال حركة

الجامعة الإسلامية فى توجيه ضربة إلى نقط الارتكاز البريطانية فى مصر والهند .
ولكن لم تنجح المحاولات التى بذلت لدفع المصريين إلى الثورة ضد بريطانيا ، ولهذا فشل الهجوم التركى – الألمانى على قناة السويس . وبالإضافة إلى ذلك كانت لبريطانيا قوات عسكرية كبيرة فى مصر ، ولما كانت تخشى ميل قطاعات واسعة من السكان إلى تركيا ، فإنها قامت بنقل الجيش المصرى إلى السودان . وفى شبه الجزيرة العربية حاول الألمان أن يستميلوا إلى صفهم ابن سعود والشريف حسين . وقد أحرزوا بعض النجاح مع ابن سعود فى البداية ، بعد أن توصلوا إلى عقد هدنة بينه وبين ابن الرشيد أمير شمر الموالى للأتراك . ولكن جرى اجتماع فى أواخر عام ١٩١٥ بين ابن سعود وسير پيرسى كوكس ، ترتب عليه التوصل إلى اتفاق بين الطرفين ، وحصول الحاكم الوهابى على معونة بريطانية واستئنافه نشاطه الحربى . كما أن دول الوسط لم تنجح فى المحاولات التى بذلتها للحصول على مساعدة الحسين والحيلولة دون تحالفه مع بريطانيا .

ومن العوامل التى أدت إلى فشل ألمانيا أن حكومة القيصر التى تحالفت مع رجال جمعية تركيا الفتاة الحاكمين فى الآستانة لم يكن باستطاعتها أن تنافس انجلترا حين وصل الأمر إلى بذل الوعود للقادة العرب . ولم يقيض للعلاقات بين القوميين العرب وزعماء جمعية تركيا الفتاة أن تسير فى طريق الانسجام . فباستثناء فترة قصيرة فى عام ١٩٠٨ أدت الثورة فى خلالها إلى أن عمت الحماسة الإمبراطورية العثمانية بأسرها ، اتخذ رجال جمعية تركيا الفتاة موقفاً معادياً من مطالب القوميين العرب الخاصة بالاستقلال الذاتى واللامركزية . وفى الواقع أن هذه المطالب كانت تخفى أحياناً الرغبة فى الانفصال عن أوتوقراطية رجال تركيا الفتاة والاتجاه إلى الدول الأوربية الغربية . ورغم وجود بعض القوات الألمانية فى البلدان العربية ، ورغم أن الضباط العرب كانوا يكنون احتراماً للجيش الألمانى والعسكرية الألمانية ، فإن التحالف بين تركيا وألمانيا قد حال دون تلاقى القوميين العرب مع ألمانيا .

ولكن لم يكن ممكناً أن تمثل التشكيلات القومية فى ذلك الوقت المجتمع العربى بأسره ، إذ لم تقبل الفكرة القومية التى نادت بها التنظيمات السرية العربية

واعتنقها الشريف حسين وأبناؤه سوى أقلية صغيرة من السكان العرب فى بلدان الهلال الخصيب ، لعب فيها العرب المسيحيون دوراً هامًّا . وبقى عدد كبير من العرب المسلمين مخلصين للسلطان وللدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية .

ولما كان الألمان حلفاء للإمبراطورية الإسلامية ، فلم يكن باستطاعتهم أن يستجيبوا لفكرة استقلال العرب ، كما لم يكن باستطاعتهم أن يساندوا آمال الزعماء العرب فى قيام دولة عربية مستقلة . ورأى الشريف حسين وأبناؤه فى التحالف مع إنجلترا الاحتمال الوحيد لتحقيق خططهم الطموحة . لهذا فإن الحسين لم يقطع علاقاته بإنجلترا حين وصلته أخبار المعاهدات السرية الهادفة إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية بين دول الوفاق ، وهو مالم يعد سرًّا فى أواخر عام ١٩١٧ حين نشر البلشفيك معاهدات القيصر السرية بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية . كما أن وعد بلفور لم يؤثر فى ميل حكام مكة إلى بريطانيا .

تقسيم الأراضى العربية بعد الحرب العالمية الأولى

انتهت الحرب العالمية الأولى ، كما هو معروف بانتصار بريطانيا وفرنسا . وكان من نتيجتها انهيار الإمبراطورية العثمانية وسيطرة القوات البريطانية والفرنسية والعربية المتحالفة على كل المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والخليج العربى ، وهى المنطقة التى تقطنها شعوب تتكلم اللغة العربية . حينئذ لم تعد ألمانيا تشكل إحدى القوى ذات الأثر فى الشرقين الأدنى والأوسط — فقد أرغم الألمان ، طبقاً لمعاهدة فرساى (١٩١٩) ، على التخلى عن ممتلكاتهم فيما وراء البحار وعن كل حقوقهم وامتيازاتهم الخاصة فى البلدان التابعة للدول الأوروبية ومنها مصر ، كما فقدت ألمانيا كل امتيازاتها وممتلكاتها فى الإمبراطورية العثمانية وفى بلغاريا . وبعد الهزيمة لم يبق لألمانيا سوى قسط قليل من نشاطها الاقتصادى الواسع ونفوذها السياسى فى الشرقين الأدنى والأوسط .

وتأثر وضع فرنسا فى شرقى البحر المتوسط تأثراً قويًّا بحاجتها إلى الحصول على مساندة بريطانيا لسياستها إزاء ألمانيا بوقوع الأراضى العربية قد وقعت بالفعل فى أيدى القوات العسكرية البريطانية . ولم ينته النضال بين الحليفتين

حول تقسيم الأملاك العثمانية إلا بمؤتمر سان ريمو (٩ — ٢٦ أبريل ١٩٢٠) . ووافقت حكومة باريس على احتفاظ البريطانيين بالموصل التى وعدت بها فرنسا طبقاً لاتفاقية سايكس — بيكو . وفى مقابل هذا التراجع احتفظت فرنسا بقسط من بترول هذه المنطقة ، وحصلت على المساندة فيما يتعلق بالمسائل الألمانية . كما كان على فرنسا أن توافق على السيطرة البريطانية على فلسطين التى كان من المتوخى أن تصبح منطقة دولية بمقتضى اتفاقية سايكس — بيكو .

وكان العرب هم الذين دفعوا ثمن الاتفاق الإنجليزى — الفرنسى الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من نظام العلاقات الدولية فى أعقاب الحرب . وكانت الإجراءات الجديدة تختلف عن اتفاقية سايكس — بيكو من حيث إنها لم تميز بين المناطق التى ظلت تحت الحكم البريطانى والفرنسى المباشر وبين مناطق النفوذ التى كان من المتوخى أن تقوم فيها منظمات الدولة العربية . وكانت الحكومة العربية التى أقامها فيصل بن الحسين فى دمشق هى أكبر ضحايا هذا النظام — وقد قضى الفرنسيون على هذه الحكومة فى يولية ١٩٢٠ ، واحتلت قوات الجنرال جورو كل المنطقة التى تشغلها سوريا ولبنان الحاليتان .

وقبيل نهاية الحرب وفى أعقابها ظهرت قوى جديدة على مسرح التاريخ فرضت على الدول الاستعمارية القديمة أن تغير أساليب حكمها . فحين استولى البلشفيك على السلطة فى نوفمبر ١٩١٧ اطرحت الحكومة الجديدة السياسات الاستعمارية القديمة التى سار عليها النظام القيصرى ، كما تخلت عن كل المزايا التى تمتعت بها فى البلدان الآسيوية المجاورة . وعلى العكس من ذلك نجدها تساعد شعوبها فى نضالها ضد السيطرة الأجنبية — وعلى سبيل المثال لعبت دوراً هاماً جداً فى انتصار الحركة الكمالية وظهور تركيا الجديدة . كما رفعت حكومة موسكو شعار « السلام دون ضم أراض أو تعويضات » وطالبت بحق الأمم فى تقرير المصير . كما وجد هذا الشعار مساندة من جانب وودرو ولسون الذى كان حينئذ رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية .

وفى ظل هذه الظروف ظهر نوع جديد من السيطرة الأجنبية على شكل انتدابات

توزعها عصبة الأمم . فطبقاً لاتفاقية سان ريمو أصبحت سوريا ولبنان خاضعتين للانتداب الفرنسي على حين انتدبت بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وقد نصت المادة ٢٢ (فقرة ٤) من ميثاق عصبة الأمم على أن تقدم الدولة المنتدبة المساعدة والنصيحة للبلدان الواقعة تحت الانتداب إلى أن تصبح جديرة بالاستقلال .

وقد شغلت فلسطين وضعاً خاصًّا فى نظام الانتداب . فانتداب بريطانيا كان يلزمها بتطبيق وعد بلفور ، أى « بإقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ». وقد توصل زعيم المنظمة الصهيونية — وايزمان — إلى اتفاق حول هذه المسألة مع فيصل الذى وافق فى ٣ يناير ١٩١٩ على وعد بلفور بشرط أن تتحقق مطالب الحسين بن على الخاصة باستقلال العرب — ولهذا فإن إسقاط حكومة فيصل فى دمشق كان يعنى إلغاء توقيعه على تلك الاتفاقية . ومنذ البداية نمت معارضة العرب الفلسطينيين لمبادئ نظام الانتداب ، وثبت عدم إمكان التوفيق بين أهداف الصهيونية اليهودية وبين أهداف القومية العربية . ولهذا بقى نظام الحكم البريطانى المباشر فى فلسطين منذ أن تم احتلال البلاد فى عامى ١٩١٧ و١٩١٨ إلى أن انسحبت بريطانيا منها فى عام ١٩٤٨ .

أما شرق الأردن التى اقتطعت من فلسطين فى مؤتمر القاهرة الذى انعقد فى مارس ١٩٢١ بناء على نصيحة ونستون تشرشل — الذى كان حينئذ وزيراً للمستعمرات — فقد تحولت إلى إمارة يحكمها عبد الله بن الحسين . وبمعاونة الأمير أقامت بريطانيا نظاماً يقوم على الحكم غير المباشر فى هذه البلاد التى كانت مساحتها كبيرة نسبيًّا (٩٠ ألف كيلو متر مربع) وإن كان سكانها — ومعظمهم من البدو — قليلين وغير متركزين فى مناطق آهلة بالسكان . وكان الحكم البريطانى فى شرق الأردن يرتكز على أمير مطواع يتلقى إعانة سنوية من الخزانة البريطانية ومقيم بريطانى فى عمان كان لبعض الوقت تابعاً للمندوب السامى فى القدس ، وجيش صغير وإن يكن يتميز بالكفاءة ، يقوده ضباط من الإنجليز . ولم تطرأ تغييرات هامة على هذا الوضع إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقع جزء كبير من العراق تحت الحكم

البريطانى ، وفى عام ١٩٢٠ نشبت فيه ثورة وطنية كبرى . وقد تمخض مؤتمر القاهرة الذى سبقت الإشارة إليه عن إقامة البريطانيين لنظام حكم غير مباشر فى العراق الذى توج عليه الأمير فيصل ملكاً . وفى عام ١٩٢٥ أقيم برلمان يتكون من مجلسين وجعلت الحكومة مسئولة أمامه . ولكن البرلمان لم يمثل سوى الطبقات العليا الضيقة من المجتمع العراقى ، وإن لم يمثلها بقدر كبير من الأمانة ، فى الوقت الذى ضمت كل الوزارات مستشارين بريطانيين . وما حل عام ١٩٣٢ حتى كان الانتداب البريطانى قد انتهى وأصبح العراق أول بلد عربى يسمح له بدخول عصبة الأمم ، وإن تكن بريطانيا قد ظلت تباشر نفوذها . وقد نصت معاهدة عام ١٩٣٠ على قيام تحالف وثيق بين الطرفين وتبادل المساعدة فى حالة نشوب الحرب ومنح عدد من الامتيازات لبريطانيا — ومن ذلك قاعدتان جويتان فى الحبانية على بعد بضعة كيلو مترات إلى الغرب من بغداد ، وفى الشعيبة بالقرب من البصرة التى هى الميناء الوحيد للعراق ، وحق استخدام الموانى والمطارات والسكك الحديدية — إلى غير ذلك . كما تمتعت بريطانيا بنفوذ ضخم فى مجال الاقتصاد . وفى ظل هذه الظروف لعب السفير البريطانى دوراً استثنائياً فى نظام البلاد السياسى . على أن الطبقة الحاكمة فى العراق قد تمتعت بعد عام ١٩٣٢ بحرية تفوق ما تمتعت به شبيهاتها فى أى بلد عربى ، ربما باستثناء العربية السعودية واليمن. وهكذا أصبح العراق المتخلف معقلاً للقومية العربية قبل عام من اندلاع الحرب العالمية الثانية .

وبالإضافة إلى البلدان التى أصبحت بريطانيا منتدبة عليها ، فإنها سيطرت على مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية .

وقد أدى النضال المصرى فى سبيل الاستقلال ، وهو النضال الذى وصل ذروته فى ثورة ١٩١٩ ، إلى أن أصدرت بريطانيا تصريحاً من طرف واحد فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وفى هذه الوثيقة أعلنت بريطانيا نهاية الحماية التى كانت قد استمرت من الناحية الرسمية منذ عام ١٩١٤ ومنحت مصر وضع الدولة المستقلة ذات السيادة ، وإن تكن قد احتفظت لنفسها بالإشراف الكامل فيما يتعلق بالمحافظة على سلامة المواصلات الإمبراطورية والدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أو تداخل بالذات أو بالواسطة ، والمحافظة على مصالح الرعايا الأجانب وحقوق الأقليات فى مصر وكذلك فيما يتعلق بشئون السودان . وفى الواقع أن سيادة مصر

كانت محدودة جداً ، لأن القوات البريطانية ظلت معسكرة فى البلاد ، فى الوقت الذى شغل فيه الموظفون البريطانيون الوظائف الهامة . وقد لعب رأس المال البريطانى دوراً رئيسياً فى الحياة الاقتصادية المصرية ، وإن يكن الرأسماليون من رعايا الدول الأخرى ، وبخاصة فرنسا ، قد قاموا بنشاط ضخم . على أن فترة ما بين الحربين قد شهدت نمواً منتظماً فى رأس المال المحلى ، كما شهدت نمو هيئة محلية من الموظفين المسلمين المصريين وطبقة مهنية ، وهيئة ضباط فى الجيش — إلى غير ذلك .

وبعد محاولات كثيرة غير ناجحة وقعت فى النهاية معاهدة مصرية إنجليزية فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ . فمنذ أواخر عام ١٩٣٥ ، حين تقدم الساسة المصريون إلى المندوب السامى البريطانى بالتماس لاستئناف المفاوضات ، حدث تطور فى الموقف السياسى نتيجة للعدوان الإيطالى على الحبشة . وعمت مصر موجة من القلاقل السياسية . وقد أدى التوسع الإيطالى من ناحية إلى ميل الحكومة البريطانية إلى التساهل ، ومن ناحية أخرى إلى جعل المفاوضين المصريين أكثر استعداداً للموافقة على المطالب البريطانية . وبرغم أن المعاهدة قد تضمنت بعض التنازلات الرسمية التى زادت فى مكانة مصر ، إلا أنها نصت على بقاء الحاميات البريطانية . يضاف إلى ذلك أن مصر قد التزمت ، فى حالة نشوب الحرب أو خطر الحرب الداهم ، بمساعدة بريطانيا بمنحها حق استخدام المطارات والموانى ووسائل المواصلات واتخاذ الإجراءات القانونية والإدارية اللازمة للدفاع عن المصالح البريطانية . ولم يقيض لوضع بريطانيا فى مصر أن يتغير تغيراً جذرياً إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وفى شبه الجزيرة العربية بدا وضع بريطانيا على الوجه التالى : فقد كان ملك إنجلترا ، وإمبراطور الهند ، يعتبر صاحب الحماية على الأراضى الواقعة على طول الخليج العربى والمحيط الهندى — أى الكويت وقطر ، وعمان المتصالحة ، وسلطنتى مسقط وعمان والمناطق القريبة من مستعمرة التاج البريطانى فى عدن . وكان نائب الملك فى البحرين يمثل السلطة العليا التى تشرف على مجموعة كاملة من المقيمين البريطانيين والوزراء والمستشارين الذين كانوا يوجهون سياسة المشايخ والسلاطين الخارجية ويباشرون نفوذاً قوياً فى حياة هذه البلدان . وبرغم أن بريطانيا وألمانيا والولايات

المتحدة لم تعترف بوضع بريطانيا فى بعض هذه البقاع إلا أن ذلك لم تكن له قيمة كبيرة من الناحية العملية . وكان الأسطول البريطانى والقوات الجوية البريطانية يسيطران تماماً على الموقف وكان كل رئيس محلى يفكر فى التمرد، لا يتوقع إلا أن يصطدم بالقوات المسلحة البريطانية .

وكانت العربية السعودية هى أكبر دولة فى شبه الجزيرة ؛ وكانت قد تمخضت عن الحروب التى شنها عبد العزيز بن سعود الذى بدأ حياته باللجوء إلى أمير الكويت ، وفى أوائل القرن العشرين نجح فى استرداد موطنه الأصلى فى نجد ، وفى عام ١٩١٣ استولى على الحسا ، وبعد سنوات قليلة من القتال سيطر على كل شبه الجزيرة باستثناء اليمن والمناطق البحرية التى سبقت الإشارة إليها . وكان انتصار ابن سعود على الشريف حسين فى عامى ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ذا أهمية خاصة : إذ أنه مكنه من السيطرة على البقاع الإسلامية المقدسة فى مكة والمدينة .

وكان ابن سعود قبل الحرب العالمية الأولى قد أجرى اتصالات مع بريطانيا ؛ وفى عام ١٩٢٧ وقع معاهدة مع الحكومة البريطانية ، ورغم أن بريطانيا لم تحتفظ بأى قواعد عسكرية فى أملاك ابن سعود ؛ أو تتمتع بأى امتيازات سياسية ، إلا أن نفوذها كان قوياً — فقد كانت بريطانيا تفوق أى دولة أخرى فى المجال الاقتصادى فى العربية السعودية ، وكان تأثيرها قوياً فى المحيطين بالملك مباشرة ؛ وكانت السيطرة البريطانية على البحر الأحمر والخليج العربى حاسمة ؛ فقد كانت تعنى التحكم فى المواد الغذائية اللازمة للعربية السعودية ، واعتماد ابن سعود على المعونة المالية البريطانية وتفوق بريطانيا فى الأراضى العربية المجاورة . ولم يتضح ضعف مركز بريطانيا فى العربية السعودية إلا قبيل الحرب ، حين اكتشفت الشركات الأمريكية البترول هناك .

وكان اليمن هو البلد الوحيد فى شبه الجزيرة العربية الذى لم يدخل فى نطاق القالب العام للسيطرة البريطانية . ففى خلال الحرب العالمية الأولى ساند إمام اليمن تركيا ، ثم أثار نزاعاً مع بريطانيا لعدة سنوات حول المناطق الداخلية فى عدن الواقعة تحت الحماية البريطانية . وفى عام ١٩٢٦ عقد الإمام معاهدة صداقة مع إيطاليا جددت فى عام ١٩٣٧ ، وفى عام ١٩٢٨ أقام علاقات سياسية مع الاتحاد

السوفييتى . على أنه قد ثبت عجز قواته المسلحة أمام الطائرات البريطانية ، كما حلت بها الهزيمة فى حرب عام ١٩٣٤ مع ابن سعود . حقيقة إن النفوذ الإيطالى قد اشتد فى اليمن ، كما يتضح من معاهدة ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ ، ولكن لم تكن لذلك أهمية كبيرة . وفى ١٦ إبريل ١٩٣٨ أجرت بريطانيا وإيطاليا اتفاقية تعهدتا بمقتضاها بألا تحصلا على مراكز ممتازة ذات طابع سياسى ، فى العربية السعودية واليمن . وأياً كان تطبيق هذه الاتفاقية فى أماكن أخرى وبخصوص مسائل أخرى فقد ثبت أن مركز إيطاليا فى اليمن والعربية السعودية شديد القلق .

وكانت المنطقة التى تسيطر عليها فرنسا فى الشرق العربى أضيق بكثير من المنطقة التى كانت تسيطر عليها بريطانيا . وقد سبق أن رأينا أنها كانت تشمل سوريا ولبنان اللتين كانت السيطرة الفرنسية عليهما تستند إلى الانتداب الذى أعطته لها عصبة الأمم . وكان هذا الانتداب يشبه الانتداب البريطانى على فلسطين وشرق الأردن والعراق من حيث إنه كان يلزم الدولة صاحبة الانتداب بإعداد البلد المنتدبة عليه للاستقلال . ولهذا فإن الانتداب من هذا النوع كان يتضمن منح بعض الامتيازات للقوى الوطنية المحلية . على أن كثيراً من الساسة الفرنسيين كانوا يعارضون فى منح بعض التنازلات المحدودة إذ كانوا يخشون ردهد فعل مثل هذه السياسة فى الأملاك الفرنسية فى شمالى إفريقيا . وأحياناً ما كان المندوب السامى الذى رأس الحكومة فى سوريا ولبنان رجلا عسكرياً ، وكان فى قبضته مجلس الوزراء الذى كان يضم موظفين فرنسيين يشغلون مراكز رئيسية فى إدارات الأمن العام والتعليم والآثار والأشغال العامة والإشراف على البدو . كما كان يشرف على الجمارك والبريد والطرق والمواصلات ، فضلا عن الحامية التى كانت تضم قوات من المستعمرات وقوات فرنسية والقوات المحلية التى أطلق عليها اسم القوات الخاصة (وإن كانت هذه الأخيرة تختفى حين يكون المندوب السامى مدنياً) . وكانت السلطات المحلية التى أقامها الفرنسيون لا تعدو أن تكون دمى . وقد ساندت حكومة باريس الاتجاهات الانفصالية بارتكانها على الأقليات ومحوها الطابع القومى لسوريا ولبنان — كما كان هذا هو الهدف من تقسيم البلدين إدارياً إلى عدد من الدويلات : كلبنان واللاذقية وحلب ودمشق وجبل الدروز ، بالإضافة إلى سنجق الإسكندرونة

الذى وضع له نظام خاص . وفى عام ١٩٣٦ اقترحت حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا عقد معاهدة مع سوريا ولبنان على نمط المعاهدة الإنجليزية العراقية والمعاهدة الإنجليزية — المصرية . ولكن الحكومة اليسارية فى فرنسا لم تستمر طويلا فى الحكم ، فلم تتحقق هذه الفكرة . ولم تضعف قبضة فرنسا على سوريا ولبنان إلا فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وهكذا نكون قد قدمنا صورة تقريبية لحدود وحكومات بلدان المشرق العربى فى فترة ما بين الحربين . وكانت هذه الأوضاع امتداداً للنظام الذى قام على أساس معاهدة فرساى فى أوربا . كما كانت تتضمن جزءاً من النمط العام للسيطرة الإنجليزية الفرنسية . وفى نطاق هذا الإطار لم تكن توجد بالفعل أى بلدان مستقلة فى نصف الكرة الأرضية الشرقى خارج حدود أوربا—إذ لم يوجد بلد لم يكن تابعاً بصورة أو أخرى لدول الوفاق المنتصرة وعلى رأسها فرنسا وإنجلترا ودول أوربا الغربية الصغرى المتصلة بهما .

كما امتدت السيطرة البريطانية والفرنسية على المشرق العربى إلى المجال الاقتصادى . ومن المعروف أن المسألة الرئيسية فى هذا المضمار كانت تتصل باستخراج البترول ، وكانت تكمن وراء القرارات السياسية الأساسية فى الشرقين الأدنى والأوسط . ولكن كان على رأس المال البريطانى والفرنسى والهولندى أن يوافق على اشتراك الولايات المتحدة فى التنقيب عن البترول . وقد نصت اتفاقية « الخط الأحمر » الموقعة فى عام ١٩٢٨ على عدم إمكان المساهمين الحصول إلا على امتيازات مشتركة على أساس النسبة المئوية من الحصص المنصوص عليها . وقد حددت المنطقة التى تضمنتها هذه الاتفاقية فى الخريطة المرفقة بخط أحمر يضم تركيا والبلاد العربية فى آسيا ، باستثناء الكويت وقسم صغير من تركيا على حدود جمهورية الآجار السوفييتية المتمتعة بالاستقلال الذاتى . وكانت الحصص المنصوص عليها هى : ٢٣,٧٥ ٪ لشركة البترول الأنجلو — إيرانية — ٢٣,٧٥ ٪ لشركة شل الملكية الهولندية — ٢٣,٧٥ ٪ للشركة الفرنسية للبترول — ٢٣,٧٥ ٪ لمؤسستى روكفلر (ستاندرد أويل أوف نيوجرسى وسوكونى فاكوم)— ٥ ٪ لشركة جلبنكيان . وقد نظمت هذه الاتفاقية بشكل ما المسائل الناتجة عن انتصار دول

الوفاق لأنها كانت فى الوقت الذى وقعت فيه تتعلق ببترول العراق فى المحل الأول — وكان من المفروض أن ربعه تابع لرأس المال الألمانى طبقاً لاتفاق تم توقيعه قبل نشوب الحرب مباشرة . وبعد الحرب وضعت فرنسا يدها على نصيب ألمانيا المنهزمة ، ولكن أرغمت الشركة الأنجلو — إيرانية ، تحت ضغط حكومة الولايات المتحدة ، على تحويل نصف نصيبها إلى ترستات روكفلر . ورغم أن اتفاقية الخط الأحمر قدمت تنازلات لرأس المال الأمريكى الكبير ، فإنها دعمت هيمنة بريطانيا البترولية فى البلدان العربية. ولم يعكر هذه الهيمنة شئ خلال فترة ما بين الحربين ، رغم أن الامتياز الذى حصلت عليه شركة كالتكس الأمريكية فى العربية السعودية قد حجب التغيرات التى طرأت بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد أدى تفوق النفوذ السياسى البريطانى إلى تحديد فرص الدول الأخرى فى مجالات المعاملات المصرفية والتأمين والاستثمارات الأجنبية والتجارة . وقد أثر معظم هذا فى الولايات المتحدة التى بلغ نصيبها من الواردات المصرية فى عام ١٩٣٧ ما مقداره ٦,٥ ٪ ومن الواردات الفلسطينية ٦,٩ ٪ لذا كانت الفرص قليلة أمام التغلغل الاقتصادى الألمانى والإيطالى .

وقد انعكس قالب العلاقات الدولية السياسية والاقتصادية هذا فى وجهات نظر الدوائر الحاكمة العربية فى مختلف البلدان وفى ألوان تقاربها السياسى . وكانت آمال الصفوة فى الأحزاب الوطنية الكبرى قد تدنت إلى الرغبة فى الحصول على أحسن المراكز فى نطاق النظام الذى أوجدته الدول الحاكمة . ومن الواضح أن سياسة فرنسا قد أثارت من المعارضة أكثر مما أثارته السياسة البريطانية ، وذلك بحكم أن فرنسا كانت أقل استعداداً لتقديم تنازلات . كما أن كثيراً من الوطنيين السوريين كانوا يعلقون آمالهم على مساندة بريطانيا .

ولم تلعب المسائل الاقتصادية دوراً صغيراً فى العلاقات بين الطبقات المالكة فى سوريا وبين فرنسا . وهكذا على سبيل المثال ، كانت سوريا مرتبطة بالفرنك الفرنسى غير المستقر ، مما جعل مركزها فى السوق العالمى غير مرض . وكان أنصار الوحدة العربية بالضرورة خصوصاً — عن اقتناع — للأوضاع القائمة فى الشرق الأدنى ولكن قطاعات هامة من الحركة الداعية إلى تحقيق الوحدة كانت لوقت طويل

تتوقع من بريطانيا على الأقل أن تساعدها مساعدة جزئية فى تحقيق أهدافها .

وفى ذلك الوقت انطبعت الأحزاب الوطنية الكبرى – كالوفد فى مصر والكتلة الوطنية فى سوريا – بطابع عام يقوم على مصالحة الغرب والتكيف لوجوده . وكان يشارك فى هذا الاتجاه كبار الساسة العراقيين من الجيل القديم : كنورى السعيد وجميل المدفعى وغيرهما . وكان فيصل ملك العراق الذى حظى بكثير من احترام الوطنيين – ممثلا قوياً لهذا الاتجاه السياسى الذى كان نابعاً عن تقدير واقعى للموقف . وكان ثمة مجموعات مختلفة من الأقليات تمثل اتجاهاً أكثر ميلا إلى الغرب بعكس الأحزاب الوطنية الكبرى .

إيطاليا وألمانيا فى المشرق العربى

وما حلت أواسط الثلاثينات حتى كان الموقف السياسى قد بدأ يتغير فى بعض البلدان العربية . وكان هذا التغير راجعاً إلى عدة أسباب ، فى مقدمتها التغيرات التى طرأت على مجال العلاقات الدولية بين القوى السياسية العالمية وضعف نفوذ بريطانيا وفرنسا نتيجة لمهادنتهما المتكررة للدول المعتدية . وبدأ ينمو لدى بعض التشكيلات الوطنية اتجاه يقوم على التقارب إزاء هذه الدول ، على حين أن بعض اتجاهات روما وبرلين الفكرية بدأت تجتذب كثيراً من الأنصار حتى من بين الساسة الذين كانت عقولهم تميل إلى المصالحة . وفى العراق بوجه خاص اتخذ الوطنيون ، وبخاصة أنصار الوحدة العربية ، مواقف متطرفة تتسم بمعاداة بريطانيا بشكل أكثر وضوحاً . وفى فلسطين ربط الحاج أمين الحسينى ، زعيم حزب الحسينى ذى النفوذ ، مصيره بإيطاليا . وفى الوقت ذاته بدأت تظهر مجموعات بنت وجهات نظرها على أفكار نازية – فاشية : فقامت فى مصر جماعة مصر الفتاة الفاشية التى أطلق عليها اسم حزب القمصان الخضر الذى كان يتزعمه أحمد حسين ، وأنشئ حزب الفتوة فى العراق ، وظهر فى لبنان وسوريا الحزب القومى السورى الذى كان يتزعمه أنطون سعادة . وكان ظهور هذه الجماعات يمثل ظاهرة أوسع نطاقاً ، هى السخط المتزايد على سياسات الدول الغربية ومثل الديمقراطية البرلمانية

التى كانت تؤمن بها هذه الدول . كما نمت ضد هذه الاتجاهات جماعات تقليدية محافظة — منها جماعة الإخوان المسلمين — لها أفكارها الخاصة ، التى لعبت دوراً هاماً فى ثورة فلسطين التى نشبت فيما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ .

وكانت إيطاليا لفترة طويلة قد لعبت دوراً هاماً فى شئون البلدان العربية . ففى العصور الوسطى نشطت بعض المدن الإيطالية فى الاتجار مع بلدان شرقى البحر المتوسط . وكانت توجد فى مدن كثيرة جاليات إيطالية كبيرة ومدارس ومستشفيات وكنائس وأديرة وإرساليات دينية . وفى عام ١٩١٢ ، فى أعقاب الحرب الإيطالية التركية ، أصبحت ليبيا مستعمرة إيطالية ، مما جعل إيطاليا جارة مباشرة لمصر التى كانت أهم بلدان الشرق الأدنى الواقعة تحت السيطرة البريطانية ، كما أصبحت تجاور الممتلكات الفرنسية فى شمالى إفريقيا . وحين وضعت إيطاليا يدها على جزر الدود يكانيز نتيجة لنفس الحرب ، أصبحت تتمتع بوضع استراتيجى هام على شواطئ آسيا الصغرى . وبالإضافة إلى ذلك فإن المستعمرات الإفريقية التى حصلت عليها فى أواخر القرن التاسع عشر جعلتها جارة لبلدان شبه الجزيرة العربية وبخاصة اليمن .

وحين دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوفاق كانت تتوقع توسيع أملاكها إلى حد كبير فى الشرق الأدنى — فقد نص ميثاق لندن الذى وقعته بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا فى ٢٦ بريل ١٩١٥ على أن تضع إيطاليا يدها بعد كسب الحرب على جنوبى غربى الأناضول ، مع حقها فى إدارة واحتلال الأراضى الواقعة شمال منطقة نفوذها . وفى عام ١٩١٧ وقع رؤساء وزراء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا اتفــاق سان جان دى موريين St. Jean-de-Maurienne الذى جعل نصوص ميثاق لندن أكثر تحديداً وخصص لإيطاليا مقاطعات إزمير وأنطاكيا وقونية ، بالإضافة إلى جنوب غربى الأناضول . وإلى جانب ذلك فقد حصلت إيطاليا بمقتضى معاهدة سيفر الموقعة فى ٢٠ أغسطس ١٩٢٠ والاتفاقية الإنجليزية الفرنسية —الإيطالية الموقعة فى الوقت ذاته ، تقريباً على نفس الأراضى التى وعدها بها ميثاق لندن واتفاقية سان جان دى موريين . لكن كما هو معروف نجحت حركة التحرير الوطنى التركية التى تزعمها مصطفى كمال باشا فى إلغاء القرارات

التى نصت عليها معاهدة سيفر . ولهذا فإن الحرب العالمية الأولى لم تتمخض عن زيادة فى أملاك إيطاليا فى الشرق الأدنى . ثما كانت مكاسب إيطاليا فى إفريقيا قليلة ، تقتصر على توسيع لا قيمة له لحدود ليبيا والصومال الإيطالى . وحين نقارن مكاسب إيطاليا بالمناطق الشاسعة التى حصلت عليها بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأدنى وإفريقيا ، نجدها ضئيلة — ومن هنا شعرت إيطاليا بأنها قد خدعت ولحقت بها الإهانة ؛ فكان ذلك من الأسباب التى دفعت إيطاليا وهى دولة خرجت صفر اليدين من مجال الاستعمار — إلى محاولة تغيير الأوضاع القائمة فى البحر المتوسط .

على أن الفرص ظلت قليلة لفترة طويلة أمام التغلغل الإيطالى فى البلدان العربية . ذلك أن تنكيل إيطاليا بالسكان العرب فى ليبيا قد نفر شعوب البلدان العربية من الإيطاليين ، على حين أن العدوان الإيطالى على الحبشة قد أثار المخاوف فى الشرقين الأدنى والأوسط . وكان الزعماء العرب على علم بخطورة التغلغل والاستعمار الإيطاليين . وحين أثارت الحكومة التركية مسألة العدوان الإيطالى فى عصبة الأمم قابل العرب موقفها باستجابة واسعة النطاق . ولكن كان للموقف الدولى منطقه الداخلى الخاص — فقد كانت لظهور إيطاليا ، بوصفها دولة كبرى انعكاسات فى البلدان العربية ، من حيث شراء الأسلحة والاستعانة بالمدربين ، الجويين الإيطاليين ، وبعض الاتصالات الشخصية التى كان يجريها الزعماء السياسيون والدينيون مع الدوائر الإيطالية . وقد سبق أن أشرنا إلى ازدياد النفوذ الإيطالى فى اليمن . ولما كانت حكومتا العراق والعربية السعودية تميلان إلى تخفيف اعتمادهما على بريطانيا ، فإنهما اتجهتا إلى تقوية علاقاتهما بإيطاليا ، وبخاصة فيما يتعلق بالحصول على الأسلحة — إذ أن القدرة على الحصول على الأسلحة كانت شرطاً ضرورياً فى العراق والعربية السعودية للمحافظة على الاستقرار الداخلى بل على تمامية أراضى الدولة ، بحكم أن القبائل كانت لديها كميات كبيرة من الأسلحة ، وبالتالى كانت تستطيع أن تنظم أعمال التمرد . وفى نفس الوقت أدى التوسع الألمانى والإيطالى إلى ازدياد ضعف قدرة بريطانيا على تزويد البلدان العربية بالأسلحة (وبخاصة الأسلحة الحديثة : كالطائرات والدبابات والمدافع المضادة للطائرات وللدبابات ، بالإضافة إلى آخر أنواع الأسلحة التقليدية) إذ أن حكومة لندن كانت تبدى قلقاً إزاء سد مطالبها الخاصة . وفى ظل هذه الظروف أخذت

العربية السعودية والعراق تبحثان عن الأسلحة فى الخارج ، وكان الإيطاليون أكثر من غيرهم استعداداً لتزويدهما بالأسلحة ، كما كانوا يتقدمون بأحسن الشروط — إذ أنهم كانوا يودون توسيع نفوذهم السياسى والاقتصادى عن طريق بيع الأسلحة وتدريب الضباط العرب . وكانت إيطاليا مصدراً هاماً لتزويد العرب بالطائرات ، ثم جاءت تشيكوسلوفاكيا التى أخذت تزودهم بالبنادق الصغيرة والمدفعية الثقيلة والذخيرة .

وكانت علاقات إيطاليا الاقتصادية بالبلدان العربية وبعثاتها التعليمية ونشاطها الدعائى واسع النطاق — ومعظمه كان يعتمد على محطة إذاعة بارى — مصدر قلق شديد للبريطانيين والفرنسيين .

• • •

طرد الألمان من الشرق الأدنى فى عام ١٩١٨ بعد أن حلت بهم الهزيمة . وفى عهد جمهورية ڤيمار كاد النشاط السياسى الألمانى فى البلدان العربية أن يكون معدوماً . حقيقة كان يوجد بعض الألمان الذين استقروا فى بعض البلدان ، إلا أنهم لم يتم استغلالهم من الناحية السياسية فى أثناء تلك الفترة . وفى عام ١٩٢٦ أصبحت ألمانيا عضواً فى عصبة الأمم ، وبإمكانها — رسمياً — أن يكون لها صوت مسموع فى المسائل المتصلة بسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وشرق الأردن ، باعتبارها بلداناً خاضعة لنظام الانتداب . ولكن جمهورية ڤيمار لم تفد من هذه الإمكانيات المحدودة نسبياً ، إذ كان أهم مايعنيها أن تستعيد وضع ألمانيا فى أوروبا وأن تلغى القيود التى فرضتها عليها معاهدة ڤرساى . لهذا كان من الطبيعى أن تتجنب القيام بنشاط سياسى فى البلدان الخاضعة للسيطرة البريطانية والفرنسية . كما سارت ألمانيا فى نفس هذا الاتجاه لبعض الوقت بعد سقوط جمهورية ڤيمار .

وبالإضافة إلى ذلك لم تكن لدى جمهورية ڤيمار الوسائل المادية اللازمة للحصول على نفوذ سياسى فى بلدان الشرق — فقد اختفى الأسطول الألمانى الذى لعب دوراً كبيراً خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، وصفيت الاستثمارات الألمانية فى البلدان الخاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وتضاءل الاهتمام بالتوسع الاقتصادى فى العالم العربى . وقد اشترت مصر ، التى كانت من أهم

العملاء التجاريين لألمانيا فيما بين عامى ١٩٢٥ و ١٩٣٠ ، بضائع ألمانية بمعدل سنوى قيمته من ٦٠ إلى ٨٠ مليون مارك ، فى الوقت الذى بلغت فيه واردات ألمانيا من مصر ما يقرب من نفس الرقم . وفى خلال الأزمة الاقتصادية العالمية هبطت صادرات ألمانيا إلى مصر بشكل مخيف يفوق بكثير نسبة هبوط الواردات. وفى أواخر سنوات ما قبل الحرب كانت قيمة صادرات ألمانيا إلى مصر أقل بكثير منها فيما بين عامى ١٩٢٤ — ١٩٢٨ ، إذ بلغت حوالى ٤٠ مليون مارك سنويًّا . وكانت واردات ألمانيا من مصر على نفس المستوى . ولما كانت لألمانيا تجارة واسعة فيما وراء البحار ، فإنها أفادت كثيراً من قناة السويس (فى عام ١٩٢٩ بلغت حمولة سفنها التجارية ١٦,٥٪ من مجموع الحمولات المارة بالقناة ، وفى عام ١٩٣٦ بلغت ٨,٩٪) . كما كان الألمان مهتمين بالقطن المصرى .

وكانت كمية تعامل ألمانيا التجارى مع بلدان المشرق العربى الأخرى قليلة . فقد وصلت الصادرات الألمانية إلى سوريا ولبنان قبل الحرب العالمية الثانية إلى ما مقداره ٥ إلى ٦ ملايين مارك سنويًّا ، على حين تراوحت قيمة الواردات ما بين مليون ومليونى مارك . وقد صدر الألمان إلى العراق فى عام ١٩٣٧ ما بلغت قيمته من ٦ إلى ٧ ملايين مارك ، ووصل هذا الرقم فى عام ١٩٣٨ إلى ما بين ٨ و٩ ملايين مارك . وبلغت الواردات من العراق فى عام ١٩٣٧ ما مقداره ١,٩ مليون مارك و ٤,٢ ملايين مارك فى عام ١٩٣٨ . وقبل عام ١٩٣٧ كانت كمية التعامل التجارى الألمانى مع العراق من الضآلة بحيث لم تسجل فى الإحصائيات الرسمية . وباستثناء سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية كان الميزان التجارى بين ألمانيا والبلدان العربية لصالح ألمانيا .

وفى أثناء الثلاثينات كانت ألمانيا تحتل المكان الثانى فى تجارة مصر الخارجية ، ولكن النسبة المئوية لتعاملها التجارى كانت أقل بكثير من نسبة تعامل بريطانيا . وكان الموقف مشابهاً فيما يتعلق بتجارة ألمانيا مع فلسطين ، ولكنها كانت نسبيًّا فى أسفل قائمة التجارة الخارجية مع سوريا ولبنان والعراق . وحين نقارن تجارة ألمانيا مع تركيا وإيران — حيث كان نصيبها آخذاً فى الزيادة السريعة خلال الثلاثينات (حوالى ٥٠ ٪ من كمية تجارة تركيا الخارجية)— بتجارتها مع البلدان

العربية ؛ نجد هذه البلدان لا تلعب دوراً هامـًّا فى الاقتصاد الألمانى سواء فى عهد جمهورية فيمار أو فى العهد النازى . ولم تكن فرصها لتوسيع اتجارها مع هذه البلدان تدعو إلى التفاؤل .

ونحن نكرس اهتماماً خاصـًّا لمسألة التجارة الخارجية لأن ألمانيا كانت تبحث فى البلدان العربية أولاً وقبل كل شىء عن أسواق لبضائعها . ومما له أهمية خاصة ما كان من نشاط الشركة البريطانية للتنقيب عن البترول التى حصلت فى عام ١٩٣٠ على امتيازات خاصة بالتنقيب عن البترول واستخراجه فى العراق فى المناطق التى لم تكن داخلة بالفعل فى نطاق امتياز شركة بترول العراق . وبإمكاننا أن نستنتج من الوثائق المتعلقة بنصيب الشركات الألمانية فى هذا المضمار أن ألمانيا لم تكن تهتم كثيراً بالبترول أو بالاستثمارات الخارجية باعتبارها مصادر للربح المالى أو للأرباح التجارية . وحين اشتركت فى هذه الشركة كانت تركز آمالها على الحصول على طلبات جديدة للتجهيزات ، وأن تحصل بوجه عام على أسواق إضافية كبيرة الأهمية بالنسبة إلى الشركات الألمانية . ولما كان الألمان عاجزين عن التغلب على مصاعب التمويل ، فإنهم تخلوا فى عام ١٩٣٦ عن نصيبهم فى الشركة البريطانية للتنقيب عن البترول . واقتدى بالألمان الإيطاليون الذين كانوا أكثر نفوذاً ، فوقعت الشركة فى يد شركة بترول العراق .

كما كان البحث عن الأسواق والسعى الدائب وراء الحصول على العملة الأجنبية من الأسباب التى أدت إلى محاولة أخرى للقيام بنشاط اقتصادى فى العراق — أى مفاوضات ١٩٣٧ الخاصة بتزويد العراق بالأسلحة — وعلى أثر انقلاب ٢٩ أكتوبر ١٩٣٦ قامت حكومة فى العراق كانت أكثر تصميمـًا على إحراز نصيب أوفر من الاستقلال عن بريطانيا وبناء جيشها بصورة أسرع . ولهذا فقد يبدو أن الظروف كانت فى صالح التغلغل الألمانى سياسيـًّا واقتصاديـًّا . ولكن على الرغم من أن إيطاليا كانت تحاول استغلال الظرف لعرض الأسلحة على العراق بمقتضى قرض يسلم على آجال قصيرة ، والقيام بتدريب الضباط الجويين العراقيين دون مقابل ، فإن السلطات الألمانية خففت من حماسة شركاتها وكبحت جماح مبعوثها فى بغداد دكتور فرتز جروبا Fritz Grobba . وقد أوضح كبار المسئولين أن الأرباح الاقتصادية الكبرى وحدها — كالدفع نقداً بالعملة الأجنبية — هى التى ستقنع

الحكومة الألمانية بالموافقة على تصدير الأسلحة إلى العراق . ولكن الحكومة العراقية لم تكن على الإطلاق فى وضع يمكنها من أن تقوم بإجراء صفقات كبيرة مع ألمانيا ، وذلك بسبب المعارضة البريطانية .

ورغم ذلك فى ظل الظروف الصعبة التى كانت تواجهها السوق العالمية ، نجد أن الفرص الصغيرة فى البلدان العربية قد لعبت دوراً ما فى خطط بعض المؤسسات الألمانية . وفيما يتعلق بالترستات الكبرى — كأوتو وولف وراينمتال بورسيج Rheinmetall-Borsing وفروستال Ferrostaal وبنك درسدن وكروب وغيرها ، نجد أن اهتمامها بالأسواق العربية يبدو من المحاولتين اللتين سبقت الإشارة إليهما فيما يتعلق بالعراق . كما أن مؤسسات ألمانية صغرى أخذت تبحث عن أسواق فى الشرق الأدنى — وكان هذا الاهتمام منصباً على صغار منتجى الأسلحة الذين استطاعوا أحياناً أن يعقدوا صفقات صغيرة[١].

وقد سبق أن لاحظنا أن التغلغل الاقتصادى الألمانى فى الشرق الأدنى قد اصطدم بمعارضة الدول المسيطرة على هذه المنطقة . فقد أكد الوزير الألمانى المفوض فى القاهرة ، كما أكد مدير فرع بنك درسدن فى العاصمة المصرية أكثر من مرة ، أن صفقات على مدى واسع لا يمكن التوصل إليها إلا بموافقة إنجلترا . وقد جرى تقدير مشابه للموقف فى العراق — فقد رؤى أن الموقف سيكون مخالفاً فيما لو كانت البضائع الألمانية من نوع أحسن من البضائع الإنجليزية ، أو لو قامت المؤسسات الألمانية بدور المنفذ للعقود التى تجريها المؤسسات البريطانية الكبرى. ورغم عدم تشجيع المسئولين الحكوميين ، فقد أصرت المؤسسات الألمانية على إجراء الصفقات . وفى عامى ١٩٣٧ — ١٩٣٨ بذلت المؤسسات الألمانية جهوداً لإجراء عقود مع مصر لتزويدها بالعتاد الحربى ومنحها امتياز استخراج خام الحديد فى أسوان والقيام ببناء مصانع حربية ومصانع للسماد وإنشاء مؤسسات كهربائية . وقد نشأت هذه المحاولات بوجه عام . ولعبت البضائع الألمانية التى كانت رائجة فى الأسواق التركية

---

(١) انظر مجموعة Handel mit Kriegsgerät Yemen. DZA Potsdam, A. A. . وهناك بضع وثائق فى هذه المجموعة تتعلق بمحاولات الحكومة اليمنية أن تشترى أسلحة بولندية استولى عليها الألمان فى سبتمبر ١٩٣٩ .

والإيرانية دوراً أقل أهمية فى البلدان العربية . وبهذا الصدد نجد أن موقفاً استثنائياً قد ظهر فى فلسطين ، ولكن لأسباب أخرى سنتناولها فيما بعد ؟

وكان من المتوقع فى ظل هذه الظروف أن تتخذ ألمانيا بعض الإجراءات السياسية إما إزاء الدول ذات النفوذ أو إزاء الدوائر المحلية ، وأنها ستحاول توسيع علاقاتها الاقتصادية . ومن المعروف أن حكومة هتلر ألحت بإصرار متزايد فى التقدم بمطالبها لدى الدول صاحبة المستعمرات لكى تحملها على تقدير مصالح ألمانيا على أساس إعادة تقسيم الأسواق ومناطق النفوذ . ولكن ليس ثمة ما يدل على أن هذه المطالب كانت تتصل بالبلدان العربية [١] . وكان ممثلو ألمانيا فى البلدان العربية ، وبخاصة فى العراق وبدرجة أقل فى مصر ، يكرسون معظم اهتمامهم إلى حد كبير لوجهات نظر الشخصيات السياسية الحاكمة ، وكانوا يعتقدون أن الزعماء العرب الذين يميلون إلى ألمانيا سيكونون أميل إلى المؤسسات والبضائع الألمانية . ولكن إمكانيات ألمانيا فيما يتعلق بالتدخل السياسى والتأثير على مجرى الأحداث لم تكن كبيرة جداً . وكانت لدى الإيطاليين فرص أحسن للتجاوب مع التطورات السياسية فى المشرق العربى . ورغم ذلك فإن أسس السيطرة البريطانية والفرنسية لم تواجه أى أخطار جدية :

على أنه يجدر القول بأن عدم وجود أى احتمالات حقيقية للحصول على نفوذ سياسى فى البلدان العربية أو للاهتمام الجدى بالتعاون الاقتصادى معها لم يكن يعنى أن الإمبريالية الألمانية كانت غير مهتمة تماماً بهذه البلدان . فبعد وصول هتلر إلى الحكم ، وبخاصة فى خلال السنوات الثلاث التى سبقت الحرب ، كان بالإمكان أن نلمس ازدياد اهتمام ألمانيا بصورة واضحة بالشئون العربية والإسلامية . وقد وجد ذلك صداه فى ظهور عديد من المنشورات الخاصة بهذه المسائل . كما اتضح الاهتمام بأهمية الشرق الأدنى من الناحية الاستراتيجية . فقد نشطت الجمعيات التى كانت تهتم بالشرق ، وأخذت الحكومة تهتم بتنظيم الطلبة

---

(١) توجد فى مجموعة Handel mit Kriegsgerat Agypten, DZA Potsdam, No. 68425 عدة وثائق تدل على أن محادثات جرت فى ربيع عام ١٩٣٧ بين ممثل المؤسسات الألمانية وبعض موظفى الحكومة البريطانية — وهذه الوثائق تتصل ببيع الأسلحة إلى مصر . وقد استمرت المفاوضات خلال ربيع عام ١٩٣٨ ، ولكنها لم تتمخض عن أى نتائج .

العرب الذين كانوا يدرسون فى ألمانيا . وأصبحت البلدان العربية مسرحاً للدعاية الألمانية . ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتوجه زعيم الشباب الألمانى — بلدور فون شيراش Baldur von Schirach فى عام ١٩٣٧ إلى الشرق الأدنى بصحبة خمسة عشر من رفاقه الذين زاروا معه دمشق وبغداد وطهران ، وأعدت زيارة يقوم بها جوبلز إلى مصر فى أوائل عام ١٩٣٨ — ولكنها لم تتم إلا فى فبراير ١٩٣٩ . ووجدت الدعاية الألمانية ، وبخاصة زيارة فون شيراش ، صدى قوياً فى البلدان العربية ، حيث كان النمط الألمانى للتنظيمات شبه العسكرية والشبابية ، وبعض الشعارات النازية وبخاصة نظرية الزعيم ، موضع شعبية واسعة النطاق . وبطبيعة الحال كان ثمة بون شاسع بين غرس الشعارات الاشتراكية الوطنية والتأثير على السياسة القائمة ، ولكن الألمان استطاعوا أن يلحظوا بعض الإنجازات التى قاموا بها وصمموا على استغلالها فى الوقت المناسب : كإنشاء جماعات وخلايا تميل إلى الفاشية بصورة واضحة [1] ، وإجراء اتصالات مع الزعماء العرب والساسة وأعضاء الصفوة الحاكمة ، وحضور ساسة عرب إلى مهرجانات الحزب النازى التى أقيمت فى نورمبرج — إلى غير ذلك . وقد أدى كل ذلك إلى قلق الدول المهيمنة على الشرق الأدنى بصورة لا مبرر لها .

وكانت بعض الدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية تطالب بتوسيع النشاط الألمانى فى البلدان العربية ، ومن بين من عبروا عن وجهات النظر هذه ألفرد روزنبرج ومكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى ، وهو المكتب الذى كان روزنبرج رئيساً له . ويمكن أيضاً القول بأن نشاط البنوك الألمانية وممثلى المؤسسات الصناعية الكبرى لم يتمش مع حجم التجارة فى ذلك الوقت . ففى العراق — على سبيل المثال — كان حجم التبادل التجارى صغيراً ، وإن يكن يتضمن تشكيلات واسعة تدخل فيها كثير من المؤسسات الألمانية . وقبل الحرب كان الألمان ينظرون إلى العراق باعتباره ذا إمكانيات لاحد لها ، ومما أكد هذه النظرة نمو صناعة البترول وأهمية العراق فى مضمار المواصلات العالمية .

---

(١) على أن الألمان لم يعتبروا هذه الجماعات ركيزة لهم .

وكان على حكومة الريخ الثالث أن توجه اهتمامها إلى الشرقين الأدنى والأوسط وذلك بسبب توسعها المتزايد فى أوربا وازدياد أهميتها العالمية وازدياد توتر العلاقات بين الدول الكبرى . وقد تزايد اتجاه الحكومة الألمانية إلى اتخاذ موقف سياسى من الشئون العربية على أثر التطورات التى مرت بها فلسطين .

الفصل الثانى

ألمانيا النازية

وتقرير لجنة پيل

نشوب الثورة العربية فى فلسطين

كانت فلسطين تشغل وضعاً استثنائياً فى المشرق العربى : فقد وضعت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تحت انتداب بريطانيا العظمى الذى كان الهدف الرسمى منه هو إقامة وطن قومى لليهود فى تلك البلاد . وكانت هجرة اليهود إلى فلسطين وشراؤهم الأراضى يشكلان عنصراً سياسياً كان بمثابة جزء لا يتجزأ من الانتداب . وفى خلال العشرينات وفد إلى فلسطين حوالى ٨٠,٠٠٠ يهودى بقصد الإقامة الدائمة فيها وبلغ عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين ١١,٣٠٠ فى عام ١٨٣٢ أخر سنوات جمهورية ڤيمار — وحينئذ كان عدد اليهود يبلغ ثلاثة أمثال ما كان عليه فى عام ١٩١٨ ، فقد وصل هذا العدد إلى ٢٠٠,٠٠٠ كانوا يشكلون ٢٠ ٪ من السكان وارتفعت نسبة ملكية اليهود للأراضى فى نفس الفترة إلى الضعف ولكنها لم تشكل سوى ما يقرب من ٤ ٪ من مجموع مساحة الأرض .

وكانت كل البلدان العربية الأخرى مشغولة بمشاكلها الداخلية الخاصة وبسياسات الدول الإمبريالية فى منطقة البحر المتوسط على حين أن الموقف الأوربى ، وبخاصة فى وسط أوربا ، كان له أثر قوى جداً فى أحوال فلسطين . فقد اندفع اليهود إلى الهجرة نتيجة لصعوبة الوضع الاقتصادى والسياسات القومية التى كانت تتبعها البلدان التى تضم أعداداً كبيرة من اليهود كبولندة ورومانيا . وقبل الحرب العالمية الأولى كان الاتجاه الرئيسى للهجرة اليهودية صوب الولايات المتحدة ، وبعد الحرب ضعفت إمكانيات مثل هذه الهجرة إلى حد كبير .

وقد أصبحت الصلة بين وضع فلسطين والأحوال السائدة فى وسط أوربا قوية بوجه خاص بعد أن وصل النازيون إلى الحكم فى ألمانيا واتبعوا سياسة شديدة العداء لليهود . وفى بلدان أخرى أخذت العناصر الفاشية المحلية والعناصر المعادية للسامية ترى فى ألمانيا نموذجاً للدولة التى وضعت حلاً للمسألة اليهودية ؛ فسعت إلى تدعيم سياسات حكوماتها المعادية لليهود .

وكان هدف السياسة النازية فى بداية الأمر هو إرغام اليهود على مبارحة ألمانيا . حينئذ كانت فلسطين تستوعب قسطاً كبيراً من الهجرة اليهودية : ففيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ هاجر إلى فلسطين ١٧٥,٠٠٠ يهودى كان ربعهم فقط من اليهود الألمان [١] . وكان مرجع ضعف الهجرة إلى فلسطين قبل الأزمة العالمية هو طابعها الارتيادى فى ذلك الوقت لا العراقيل التى كان يضعها الإنجليز . ولكن الموقف تغير تماماً خلال الثلاثينات حين اعتبر زعماء الوكالة اليهودية الحصة البريطانية غير كافية .

وقد حكمت بريطانيا فلسطين بنفس الطريقة التى حكمت بها مستعمرات التاج التابعة لها . وكانت إدارتها تستند إلى المبدأ الخاص بالالتزامات المتساوية والمتكافئة طبقاً للانتداب إزاء اليهود (إقامة وطن قومى لليهود) و إزاء العرب (الدفاع عن حقوق العرب الفلسطينيين) [٢] . وكان هذا المبدأ قد تبلور استجابة لاحتجاجات العرب الفلسطينيين على الاستعمار اليهودى والسيطرة البريطانية . على أن الموقف العام فى البلدان العربية قد جعل استدامة السيطرة المباشرة على فلسطين أمراً صعباً — فقد أقام البريطانيون فى البلدان الأخرى حكماً غير مباشر يقوم على الاتفاق مع الطبقات الحاكمة المحلية . وبعد انتصار الجبهة الشعبية فى فرنسا كثر الكلام عن قرب إجراء تغييرات فى سوريا ولبنان ، الهدف منها توسيع صلاحيات السلطات المحلية .

وكان مرجع ازدياد الهجرة اليهودية هو نمو الحركة اللاسامية فى أوربا ، الأمر الذى أثار معارضة متزايدة من جانب العرب . وقد أدت السيطرة اليهودية فى كثير من المجالات الاقتصادية (مع قدرة العرب على الشراء التى قدرت بما يتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ من مجموع قدرة البلاد) إلى خشية العرب أن تتفوق أعداد اليهود فى النهاية ، إذ أن الهجرة اليهودية قد زادت على نسبة المواليد العرب فى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ :

(١) فيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٧ اتجه ثلث اليهود الذين هاجروا من ألمانيا إلى فلسطين ، واتجه ثلث آخر إلى ما وراء البحار ، والثالث إلى بلدان أوربية أخرى.

(٢) انظر الكتاب الأبيض الذى أصدره لورد باسفيلد Passfield فى عام ١٩٣٠ . وكان لمبدأ الالتزامات المتساوية إزاء اليهود والعرب فى فلسطين أثر كبير على السياسة البريطانية منذ بداية نظام الانتداب.

J. Marlowe : The Seat of Pilate. An Account of the Palestine Mandate, 1960, pp. 87-109.

وحين انتهى عام ١٩٣٥ كان التوتر فى فلسطين قد تزايد على أثر اقتراح إنشاء مجلس تشريعى حسب رغبة الحكومة البريطانية التى ما لبثت أن تخلت عن هذه الفكرة إزاء الضغط اليهودى . وقد ترتبت على غزو إيطاليا للحبشة ، الذى أدى إلى ضعضعة هيبة بريطانيا بوجه عام ، ردود فعل اقتصادية خطيرة فى فلسطين. فقد اشتدت طلبات سحب العملة من البنوك وحدث تدهور عام فى النشاط الاقتصادى واستفحلت البطالة . وتزايد عنف الدعاية المعادية لبريطانيا التى كان مصدرها محطة الإذاعة الإيطالية فى بارى . ونشب كثير من المظاهرات والإضرابات الوطنية فى البلدان المجاورة . وفى مارس ١٩٣٦ أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية تأكيدات بأنهما ستنفذان معاهدتين مع مصر وسوريا تعترفان فيهما باستقلالهما . وهكذا اتضحت عملية إجراء تعديل على النظام الذى قام بعد الحرب العالمية الأولى فى كل من مصر وسوريا ولبنان المجاورتين لفلسطين .

وهكذا نكون قد عرضنا للأساس الداخلى والدولى للثورة العربية التى نشبت فى أبريل ١٩٣٦ . وكانت هذه الثورة أخطر من الاحتجاجات السابقة التى قام بها العرب الفلسطينيون ضد السيطرة البريطانية والاستعمار اليهودى لأنها كانت تحظى بمساندة أوسع وأنشط من جانب السكان العرب ولأنها استمرت فترة أطول من الثورات العربية السابقة ولم تنته إلا بعد ثلاث سنوات . وقد اتخذت هذه الثورة فى البداية شكل إضراب عربى استمر فترة طويلة . وصاحبته فى كثير من الأحيان هجمات على اليهود . وقامت « اللجنة العربية العليا » بتنظيم الثورة ، وكانت تستند إلى تحالف بين الأحزاب العربية وبين جماعات يتزعمها مفتى القدس الحاج محمد أمين الحسينى . وقد طالبت اللجنة بوقف الهجرة اليهودية وتحريم شراء اليهود للأراضى واستبدال حكومة الانتداب بحكومة وطنية مسئولة . وكما حدث فى عامى ١٩٢١ و ١٩٢٩ حين قام العرب بالثورة ، أرسلت الحكومة البريطانية لجنة خاصة إلى فلسطين ، كانت هذه المرة على شكل لجنة ملكية أوضح تشكيلها أن السلطات البريطانية تهتم اهتماماً كبيراً بقضية فلسطين . وقد صرح أنتونى إيدن — الذى كان حينئذ وزيراً للخارجية — لريبنتروب فيما بعد بأن قضية فلسطين كانت من أصعب المشاكل التى واجهتها الإمبراطورية .

تقرير اللجنة الملكية

وقد وصلت اللجنة [١] إلى فلسطين فى ١١ نوفمبر ١٩٣٦ ، واستمعت إلى مندوبى الحكومة وإلى اليهود بالإضافة إلى العرب الذين قرروا فى النهاية أن ينهوا مقاطعتهم لها . وفى ٧ يولية ١٩٣٧ انتهت من وضع تقريرها الذى جاء على شكل وثيقة أساسية تميزت بالوضوح و بموضوعية تحليلها للموقف فى فلسطين . وقد اقترحت اللجنة إنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى قسمين : دولة يهودية تشغل حوالى خمس فلسطين ، ودولة عربية تضم بقية فلسطين وإمارة شرق الأردن ، على أن تبقى منطقة صغيرة ، وإن تكن على جانب كبير من الأهمية ، تحت الانتداب البريطانى الدائم . وقد تسربت إلى الجماهير بعض الأنباء الخاصة باللجنة الملكية التى أصبحت لعدة أسابيع موضعاً للشائعات السياسية قبل أن يصبح التقرير رسمياً .

وكان للثورة العربية فى فلسطين وتقرير اللجنة الملكية أثر هام فى البلاد وفى كل المشرق العربى ، إذ أنها أكدت تضامن البلدان العربية . وقد صرح مصدر عربى بمايلى [٢] : « فى خلال هذه الثورة اتضح العطف التام من جانب العالم العربى بأسره على عرب فلسطين للمرة الأولى . فقد تشكلت فى المدن الكبرى فى العالم العربى لجان للدفاع عن فلسطين ، وجمعت الأموال وتقدم المتطوعون بأسمائهم للانضمام إلى النضال المسلح . وفى أواخر النضال كان يتم توجيه الثورة فى الواقع من سوريا ولبنان والعراق ، وكانت بمثابة بؤرة لكل الحيوية السياسية

---

(١) تكونت من : إيرل بيل ، وهو سياسى محافظ شهير كان قبل ذلك سكرتيراً للشئون الهندية (رئيساً) ، وسير هوراس همبولد ، وهو دبلوماسى وسفير سابق فى برلين وسير لورانس هاموند الذى كان فى الماضى حاكماً لإحدى مناطق الهند ، وسير موريس كارتر القاضى السابق بمحكمة كينيا العليا ، وسير هارولد موريس الذى كان من قبل كبيراً للقضاة فى محكمة المنازعات الصناعية ، وبرفسور سير رجنالد كوبلاند المؤرخ والخبير بشئون إدارة المستعمرات . « وكانت هذه اللجنة قوية بشكل غير عادى ، إذ تألفت من شخصيات هامة على خبرة عظيمة »

John Marlowe : Rebellion in Palestine, London, 1946, p. 173.

(٢) The Arab Office, The Future of Palestine, Geneva, 1947, pp. 43-44.

للعالم العربي وفاق تشجيعها لحركة الوحدة أى عامل آخر » . وأهم المؤتمرات العربية التى انعقدت خلال تلك الفترة ، مؤتمرا بلودان (يولية ١٩٣٧) والقاهرة (نوفمبر ١٩٣٨) اللذان كانا يسعيان إلى تحقيق الهدف الواضح الخاص باتخاذ إجراءات لمواجهة الخطر الصهيونى .

وقد أدى تقرير اللجنة الملكية إلى ازدياد النشاط السياسى فى العالم العربى — فقد عارضت معظم الحكومات والأحزاب العربية خطة التقسيم . ورغم أن معظم القادة لم يستقروا على قرار ، فإن الرأى العام الذى كانت تسيطر عليه الاتجاهات القومية لم يترك لهم سوى مجال ضيق للمناورة .[١] . ويبدو أن التقسيم وجد قبولا فى البداية من جانب قطاع هام من الحكومات العربية ومن المعتدلين من عرب فلسطين . وحين طلبت اللجنة العربية العليا من الحكومات العربية أن تعارض خطة التقسيم لم تصادف رد فعل إيجابى إلا فى سوريا والعراق . وقد رفض رئيس الوزراء المصرى ، مصطفى النحاس ، الإدلاء بأى تصريح ، على حين تهرب عبد الله أمير شرق الأردن وابن سعود ملك العربية السعودية ويحيى إمام اليمن . ورغم ذلك فلم يجرؤ على تأييد اقتراح التقسيم سوى الأمير عبدالله . وفى عام ١٩٣٩ وجهت الدعوة الرسمية لعقد مؤتمر فى لندن هدفه مناقشة قضية فلسطين .

وفى خلال تلك الفترة جرت تغيرات هامة مست السكان اليهود فى فلسطين . فقبيل الثورة كان يعيش فى فلسطين ٤٠٠,٠٠٠ يهودى كانوا يتمتعون باستقلال ذاتى واسع النطاق : إذ كانت لهم إداراتهم المركزية والمحلية المتعلقة بشئون حكمهم ، كما كانت لهم مدارسهم وخدماتهم الاجتماعية . وكانت احتكاكاتهم بالمجتمع العربى حينئذ محدودة ، برغم كونها ضرورية من الناحية الاقتصادية [٢]. ومما زاد

---

(١) أدلى وزير خارجية الأفغان إلى وزير إيطاليا المفوض فى كابول بالتصريح التالى . ورغم أن التصريح جاء فى مناسبة أخرى هى تنازل فرنسا لتركيا عن لواء الإسكندرونة ، فإنه يستحق الالتفات . فقد صرح الوزير الأفغانى بما يلى : « لاشك أن جماهير البلدان العربية قومية الطابع . أما الطبقات الحاكمة فإنها تميل إلى إنجلترا من حيث المبدأ لأنها تأمل بمساعدتها أن تحافظ على مزاياها التى تصعب المحافظة عليها بغير ذلك . ولا يمكن أن نتوقع من هذه الطبقات سوى كلمات كثيرة وقليل من النشاط المحدود » .
(IDDI, Series 8, vol. XII, Rome, 1952, no. 446).

(٢) كان السكان اليهود يعتمدون بوجه خاص على ما يزودهم به السكان العرب من المنتجات=

فى عرقلة هذه الاحتكاكات الإضراب العربى والثورة والنضال الذى اتخذ شكل حرب عصابات . ولكن المجتمع اليهودى أمكنه أن يفى بمطالبه ، إذ أن هذه الأحداث جعلته أكثر استقلالا واكتفاء ذاتيًّا . وكانت اللجنة الملكية ، كما سبق أن رأينا ، هى التى اقترحت إنشاء دولة يهودية . وقد قدم اقتراح اللجنة فى الوقت الذى تزايدت فيه إجراءات اضطهاد اليهود فى أوربا ، ونشأت فيه القومية اليهودية فى فلسطين . لهذا كان لابد أن يؤدى إلى رد فعل سياسى قوى من جانب اليهود سواء داخل أو خارج فلسطين . وقد عبرت أغلبية الحركة الصهيونية عن استعدادها لقبول اقتراح التقسيم ، ولم تصر إلا على إجراء بعض التعديلات الإقليمية . على أن بعض الدوائر الصهيونية وغير الصهيونية ذات النفوذ عبرت عن معارضتها القوية لخطة تقسيم البلاد وخلق دولة يهودية . وقد لعبت هذه المعارضة دوراً كبيراً فى شل جهود اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية التى كانت تميل إلى التقسيم .

ووجدت الحكومة البريطانية نفسها ، فيما يتعلق بفلسطين ، فى موقف صعب ملىء بالتناقضات والأخطار . حقيقة أن المصالح الإمبراطورية البريطانية قد أملت عليها ضرورة مواصلة إقامة علاقات حسنة مع العرب ، إلا أنه طالما لم تهاجم أى من الدول الكبرى الأوضاع القائمة فى شرقى البحر المتوسط ، لم يكن من الممكن أن يكون ضغط الساسة العرب على الحكومة البريطانية فعالاً . وكان من الممكن موازنة هذا الضغط بضمان الدول استقرار اليهود فى فلسطين وبالنفوذ الذى أحرزته الوكالة اليهودية فى عدة بلدان . وقد ظل هذا العامل كما هو عليه حين بدأت دولتا المحور توسعهما . ولكن كان من الطبيعى أن تكون الحكومة البريطانية أكثر عطفاً على المطالب العربية ، وبخاصة مالم يهدد منها السيطرة البريطانية على فلسطين . ومن ناحية أخرى فإن تأزم الموقف الدولى لم يكن ليترك مجالاً لتخلى إنجلترا عن حكمها لفلسطين . ومما يجدر ذكره أن سيطرة بريطانيا على الأراضى المتاخمة لقناة السويس من جهة الشمال كانت تحتل مكاناً هامًّا فى خطتها الخاصة بخلق وطن قومى لليهود

= الزراعية . وكان العمال الموسميون العرب العاملون فى مزارع الحمضيات يلعبون دورا هاما . وكان هناك ميناءان ، هما ميناء يافا العربى وميناء حيفا الذى كان يضم خليطاً من الجنسين وكان على جانب كبير من الأهمية .

فى فلسطين . وقد قوى ازدياد الملاحة والمواصلات الجوية من شأن الاعتبارات التى سبقت الإشارة إليها . وفى نفس الوقت ازداد النقد العلنى لمنح تنازلات على حساب اليهود ، خاصة وأن مشكلة الهجرة اليهودية قد ازدادت حدة . وتمثلت نتيجة هذه الرغبات والالتزامات المتناقضة أولا فى تقرير اللجنة الملكية ، ثم فى كثرة تذبذب السياسة البريطانية : من قبول اقتراح تقسيم فلسطين إلى رفضه من أساسه :

مصالح ألمانيا فى فلسطين

ومما لاشك فيه أن الدور الذى لعبته ألمانيا النازية ونشاطها فى المجال الدولى قد أوجدا مناخاً مناسباً للثورة العربية فى فلسطين . كما أن اتجاهها اللاسامى العنيف قد قوى مركز اليهود فى تلك البلاد بالشكل الذى تعارض مع أهداف النازيين . وقد أدخل النازيون فى بداية حكمهم عدداً من الإجراءات التى سهلت هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين . وقد جرى اتفاق بين الوكالة اليهودية وبين سلطات الريخ نصت على السماح لليهود الألمان بأن ينقلوا معهم جزءا من أملاكهم على شكل بضائع تم إنتاجها فى ألمانيا[1]. وقد أنشئت لهذا الغرض منظمة اسمها هاڤارا (بمعنى النقل) منحت احتكاراً فعليًّا لاستيراد البضائع الألمانية إلى فلسطين . ونتيجة للاتفاقية ازدادت الصادرات الألمانية إلى فلسطين من ١١,٤ مليون مارك فى عام ١٩٣٢ إلى ١٦,٧ مليون عام ١٩٣٣ ، ثم إلى ٣٢,٤ مليونا فى عام ١٩٣٧ . وحين نضع ذلك فى نسب مئوية نجد أن الصادرات قد ازدادت من ١٠٪ خلال السنوات السابقة لوصول النازيين إلى الحكم إلى ١٦٪[2] . وفى خلال نفس الفترة

---

(١) وجهت كثير من الدوائر اليهودية نقداً شديداً إلى هذه الاتفاقية ، إذ أن المنظمات اليهودية أعلنت مقاطعتها للبضائع الألمانية فى عام ١٩٣٣ .

(٢) طبقاً للمادة التى نستقيها من مكتب الريخ للإشراف على تبادل العملة الأجنبية ، بلغ نقل رأس المال اليهودى من ألمانيا إلى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ما مقداره ٧٠ مليون مارك ، كان ٢٣ مليوناً منها من منطقة السار . وطبقاً للمعلومات التى نستقيها من الوكالة اليهودية بلغ تصدير رأس المال اليهودى من ألمانيا إلى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ما مقداره ٤ ملايين جنيه استرلينى ؛ =

استمر هبوط الصادرات من فلسطين إلى ألمانيا [١] . وقد هاجمت الدوائر الحكومية الألمانية الاتفاقية التى أجريت مع هيئة هاڤارا ، فقد اتهمتها بأنها كانت تعنى تصدير البضائع الألمانية دون مقابل من العملة الصعبة . ولكن رؤى فى نهاية الأمر أن الاتفاقية ضرورية للتعجيل بالهجرة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وفى الواقع أن نقل الأملاك اليهودية عن طريق هيئة هاڤارا قد أدى إلى وقوع معظم أملاك اليهود فى يد الريخ الثالث. ومن المحتمل أن « الخسارة فى العملة الأجنبية » ، التى كان يقال إن الاقتصاد الألمانى يتحملها ، كانت قليلة جداً — إذ أن اتفاقية هاڤارا حرمت تصدير البضائع التى يقوم إنتاجها على مواد خام أجنبية ، أو التى كانت تستدعى مزيداً من إنفاق العملة الأجنبية .

وليس من المعروف ما إذا كانت الحكومة النازية قد توقعت أن تؤدى سياستها المعادية لليهود وازدياد الهجرة إلى فلسطين إلى نشوب الثورة العربية . ولم يقم الألمان بتنظيم الثورة ، كما أنه ليس ثمة دليل على أنهم مدوا لها يد المساعدة فى البداية . على أن الإيطاليين أبدوا اهتماماً بالبلدان العربية لبعض الوقت ، ومن المحتمل أنهم أقاموا علاقة مع الرجل الذى كان بسبيل البروز باعتباره زعيم عرب فلسطين دون منازع : الحاج محمد أمين الحسينى مفتى القدس [٢]. ولكن مما لاشك فيه أن الألمان هم الآخرين — شأنهم فى ذلك شأن الإيطاليين — كانوا يرغبون فى الإفادة من الموقف فى فلسطين لكى يوجهوا ضربة إلى هيبة إنجلترا العالمية . وبدا أن قضية

= وبلغ رقم رأس المال المصدر من بولندة إلى فلسطين ٦و٧ ملايين . ومما يثير الالتفات أن الحكومة البولندية هى الأخرى قد بحثت احتمال إدخال إجراءات شبيهة بتلك التى نصت عليها اتفاقية هاڤارا .

(١) كانت نسبة تبادل المارك الألمانى إلى الجنيه الفلسطينى (= جنيهاً استرلينياً) هى : فى عام ١٩٣٢ / ١٤و٧٥ ماركاً ، فى عام ١٩٣٣/ ١٣و٩ ماركاً ، فى عام ١٩٣٧/ ١٢و٣٥ ماركاً .

(٢) اشتد انزعاج إنجلترا من نشاط العملاء الإيطاليين فى البلدان العربية . وفى ١٦ أبريل ١٩٣٨ أمكن الوصول إلى اتفاقية بين بريطانيا وإيطاليا ، تعهد تشامبرلن بمقتضاها بالاعتراف بضم إيطاليا للحبشة فى مقابل انسحاب القوات الإيطالية من إسبانيا وليبيا ووقف الدعاية المعادية لبريطانيا فى الإذاعات الموجهة إلى البلدان العربية . وقد ظهرت النبذة التالية فى مذكرة بريطانية خاصة بتنفيذ هذه الاتفاقية : « لو نشطت إيطاليا بالصورة التى نشطت بها قبل توقيع الاتفاقية الإنجليزية — الإيطالية ، فأغلب الظن أن الموقف فى فلسطين كان سيزداد خطورة »

(British Documents on Foreign Policy, 3rd Series, Vol. III, London, 1950, No. 326 of October 2nd, 1938).

فلسطين تتمشى مع حاجيات وأهداف الدعاية النازية . فمن ناحية أدى اضطهاد اليهود فى ألمانيا وبلدان أخرى ، حيث ازداد نشاط اللاساميين من السكان الوطنيين تحت تأثير الأحداث التى جرت فى ألمانيا ، إلى إجبار اليهود على طلب تأشيرات دخول إلى فلسطين وازدياد جهود الصهيونيين للحصول على حصص أكبر للهجرة . ومن ناحية أخرى نجد أن الدعاية النازية المعادية لليهود قد جرت فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه نظرية القوميين العرب المرتبطة بالزعم القائل بسيطرة اليهودية العالمية على اقتصاد العالم وسياسته ، وبالمؤامرة البريطانية — اليهودية لانتزاع فلسطين من سكانها .

حقيقة أن الألمان حتى ربيع عام ١٩٣٩ لم يستغلوا الإذاعات اللاسلكية التى هى أنجح وسائل الدعاية فى المشرق العربى ، إلا أنهم لجئوا إلى طرق أخرى متنوعة : كتزويد الصحافة العربية بنشرات إخبارية ، ودفع أجور الإعلانات الخاصة بالاتصالات الشخصية وتشجيع الرحلات إلى ألمانيا والدراسة فيها . ويكفى أن نلقى نظرة إلى الصحافة العربية فى ذلك الوقت لكى نتبين زوايا وأسس الدعاية التى أخذتها عن النازيين . فمثلا نجد فى مايو ١٩٣٧ ، بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى أن الأعلام الألمانية والإيطالية قد علقت ، كما علقت صورتا هتلر وموسولينى ، هذا برغم أن العرب قد تظاهروا فى عدة أماكن فى عام ١٩٣٥ احتجاجاً على العدوان الإيطالى على الحبشة .

وهكذا كان بالإمكان أن نلمس فى فلسطين النفوذ المتزايد لدولتى المحور قبل صدور تقرير لجنة بيل . ولوحظ أيضاً أن الألمان والإيطاليين قد قاموا بمحاولات معينة للإفادة من الصعاب التى كانت تواجهها إنجلترا فى فلسطين . وقد أدى تقرير پيل إلى تحسين فرص السياسة الألمانية وسهل عمل الطابور الخامس فى فلسطين وفى بلدان أخرى فى المشرق العربى . فقبل هذا التقرير توقع العرب أن أحداث فلسطين وأثرها فى العالم العربى والإسلامى بأسره مما سيرغم بريطانيا على تقديم تنازلات بعيدة المدى لمطالب العرب . وقد أدت مقترحات لجنة پيل إلى تعدل الموقف ، فقد أخذ الساسة العرب حينئذ يبحثون عن طرق جديدة للحد من ضعف مركز العرب فى فلسطين . حينئذ كان يكفى اتخاذ موقف واضح ضد

التقسيم والقيام بحملة دعائية . على أن مما يجب الاعتراف به أن هذه الظروف المواتية لم تؤثر تأثيراً كبيراً فى وجهة نظر الحكومة الألمانية .

وكانت للألمان مصالح فى فلسطين ، أهمها المستعمرات والجاليات القائمة هناك . وفى عام ١٩٣٧ كان يقيم فى فلسطين بصفة دائمة حوالى ٢,٠٠٠ من ألمان الريخ (الآريين)[1]ــ وكان معظمهم يقيمون فيما سمى بالمستعمرات الألمانية فى القدس ويافا وحيفا ، وكذلك فى المستعمرات الريفية : سارونا وڤلهلما وفالدهايم وبيت لحم . وكان معظمهم أعضاء فى « جمعية المعبد» Tempel Gescellschaft التى تأسست فى ورتمبورج فى عام ١٨٦١ . وكانت بضع مئات من الألمان من اللوثريين ، على حين كان عدد الكاثوليك قليلا جداً ، ومعظمهم من الرهبان الذين كانت لهم كنائسهم ومدارسهم الخاصة التى جرت العادة على أن يستعملها أيضاً السكان المحليون ، وأغلبهم من العرب . وفى عام ١٩٣٧ كان الألمان الفلسطينيون واقعين تماماً تحت سيطرة منظمات الحزب النازى المحلية التى كانت تعتبر المستعمرت الألمانية مواقع أمامية للريخ الثالث. وقد جرى تثبيط العودة الدائمة إلى ألمانيا ،وحرم بيع الأراضى وبخاصة لليهود . وبلغت مساحة الأراضى التى كان يمتلكها الألمان فى فلسطين ٤٣ كيلو متراً مربعاً كانت تقوم على ٢٦ كيلو متراً مربعاً منها مستعمرات ريفية ، بالإضافة إلى كيلو متر مربع ونصف فى المدن الثلاث المشار إليها و ١٢,٥ كيلو متراً مربعاً موزعة على ١٣ قرية عربية .

وكانت العلاقات بين المستعمرين الألمان وبين اليهود الفلسطينيين حسنة قبل وصول هتلر إلى الحكم ، ثم ازداد سوؤها بمضى الزمن . وقد تأثرت المستعمرات

---

(١) يرد فى تقارير القنصل العام الألمانى دول Dohle (القدس ٢٢ مارس ١٩٣٧) أنه كان يقطن فلسطين ٢,٠٠٠ ألمانى . وطبقاً لمعلومات الوكالة اليهودية كان يوجد ٢,٠٠٠ ألمانى . ولكن هذا الرقم لا ينطبق إلا على الفترة التى سبقت نشوب الحرب مباشرة ، حين بارح كثير من الشبان الألمان فلسطين للانخراط فى الخدمة العسكرية ، وقد عمل كثيرون منهم أثناء الحرب فى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية فى فرقة المهمة الخاصة المسماة براندنبورج .

ويذكر شمت أنه كان يوجد ١,٨٠٠ ألمانى فى فلسطين .

(H.D. Schmidt: The Nazi Party in Palestine and the Levant. International Affairs, 1952, pp. 460-9).

على أن هذا الرقم ينطبق على العشرينات .

والمشروعات الألمانية كثيراً بالمقاطعة اليهودية ، وبوجه عام نجدها ترحب بالثورة العربية ترحيباً مشوباً بالعطف : فقد اقتنع الألمان بأن ازدياد نمو الجالية اليهودية فى فلسطين سيجعل حياتهم أصعب ، وأن حلاً لقضية فلسطين فى صالح اليهود سيرغمهم على مبارحة البلاد . وقد فكر بعضهم بالفعل فى الرحيل، واشتروا أراضى فى البلدان العربية المجاورة وفى قبرص . وقد كتب قنصل الريخ العام فى القدس مايلى : « يجب أن يكون من الواضح أن حل مسألة فلسطين لصالح اليهود وحدهم سيرغم المستعمرين الألمان على الهجرة وسيجعل المؤسسات الألمانية تغلق أبوابها » . وبعد تقرير پيل خشى المستعمرون الألمان أن تقع مستعمراتهم القائمة على المنطقة الساحلية المنخفضة وفى الجليل ، داخل حدود الدولة اليهودية .

ولما كان النازيون قد اتبعوا سياسة تقوم على طرد اليهود ، فإنهم لم يهتموا لفترة طويلة بمصالح المستعمرين الألمان فى فلسطين . وأهم من هذا أن الاتفاق على أن ينقل إلى فلسطين جزء من أملاك اليهود الألمان قد وضع فى يد شركة هاڤارا احتكار استيراد البضائع الألمانية . ومن الواضح أن هاڤارا كانت تسعى إلى إفادة الهيئات والمشروعات اليهودية لا المستعمرين الألمان . وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب الذين كانوا يشترون بضائع ألمانية كانوا فى وضع مشابه لوضع المستعمرين الألمان .

نذر التحول فى سياسة ألمانيا

حتى أواسط عام ١٩٣٧ لم يحمل شىء الزعماء الألمان على الاهتمام بشئون فلسطين : سواء فى ذلك أهدافهم السياسية أو نجاحاتهم الدعائية المحتملة فى البلدان العربية أو مصالح المستعمرين الألمان فى فلسطين . ولم تنشأ الرغبة فى تقدير الموقف تقديراً جيداً إلا بعد انتشار أخبار التقسيم وخلق دولة يهودية . ذلك أن خطط لجنة بيل أوضحت أن اللاسامية الأوربية ، وبوجه خاص اللاسامية الألمانية ، كان عليها أن تواجه نتائج غير متوقعة تماماً . وكان قيام دولة يهودية بالذات من هذه النتائج غير المتوقعة . ويمكننا أن نستدل من الوثائق التى فى متناول أيدينا على أن هذا الوضع هو الذى دفع السلطات الألمانية إلى اتخاذ قرارات سياسية جديدة .

وفى أول يونية ١٩٣٧ بعث فون نيوراث — وزير الخارجية الألمانية — بتعليمات خاصة إلى السفارة الألمانية فى لندن وإلى القنصلية الألمانية العامة فى القدس وإلى البعثة الدبلوماسية الألمانية فى بغداد . وفى الثانى والعشرين من نفس الشهر أرسلت وزارة الخارجية الألمانية رسالة دورية إلى ممثلى ألمانيا فى الخارج . وكانت كل من الوثيقتين تتناول قضية فلسطين . وقد جرى إرسال هاتين الرسالتين قبل وضع تقرير بيل ، ورغم ذلك فقد علقتا بالفعل على فكرته الأساسية : أى تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية .

وقد أعلنت الوثيقتان أن علاقة ألمانيا بشئون فلسطين كانت حتى ذلك الوقت تتصل باعتبارات السياسة الداخلية . وهكذا جاء فى أولى الوثيقتين السابق ذكرهما مايلى : « حتى ذلك الوقت كان الهدف الأول من سياسة ألمانيا اليهودية هو تشجيع هجرة اليهود من ألمانيا بالقدر المستطاع . وإننا فى سبيل تحقيق هذا الهدف نقوم ببذل تضحيات حتى فى سياسة تداول النقل الخارجى » — وتمضى الوثيقة قائلة : « إن إنشاء دولة يهودية أو كيان سياسى يسيطر عليه اليهود فى ظل الانتداب البريطانى ليس فى مصلحة ألمانيا ، لأن الدولة الفلسطينية لن تستوعب يهود العالم ، ولكنها ستقيم مركز قوة جديد لليهودية العالمية فى ظل القانون الدولى ، بشكل يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة إلى الكاثوليكية السياسية أو موسكو بالنسبة إلى الكومنترن » .

وهناك إيضاح آخر للسبب الذى دعا ألمانيا النازية إلى اتخاذ موقف سلبى من الخطة القاضية بإنشاء دولة يهودية فى الرسالة الدورية التى وجهتها وزارة الخارجية الألمانية وجاء فيها : « وفى الحقيقة .. إن مصلحة ألمانيا تقتضى جعل اليهود متفرقين — إذ حين لا يوجد على الأرض الألمانية أى فرد من الجنس اليهودى ؛ لن تكون المسألة اليهودية قد حلت بالنسبة إلى ألمانيا . ولكن تطورات السنوات الأخيرة أوضحت أن اليهودية العالمية ستكون دائماً بالضرورة العدو الأيديولوجى ، وبالتالى العدو السياسى ، لألمانيا الوطنية الاشتراكية . ولهذا فإن المسألة اليهودية هى فى نفس الوقت إحدى المشكلات شديدة الأهمية بالنسبة إلى سياسة ألمانيا الخارجية » .

وتمضى تعليمات فون نيوراث فتقول : « ولهذا فإن لألمانيا مصلحة فى تقوية العالم العربى ؛ وذلك لموازنة احتمال ازدياد سطوة اليهودية العالمية » .

ويرتبط بهذا أن وزارة الخارجية الألمانية أصدرت تعليماتها إلى السفارة الألمانية في لندن (وحينئذ كان فون ريبنتروب سفيراً) لكي تنقل إلى الحكومة البريطانية مصلحة ألمانيا في المسألة الفلسطينية وموقفها السلبي من إنشاء دولة يهودية في فلسطين : « ونحن لا نعتقد أن إقامة دولة يهودية في فلسطين سيساند الجهد المبذول لتهدئة الموقف الدولي » .

وقد تلقى مبعوث ألمانيا إلى بغداد — فرتزجروبا — تعليمات تقتضي « وجوب التعبير بشكل أوضح من ذي قبل عن تفهم ألمانيا لأماني العرب القومية ، ولكن دون الإدلاء بأي وعود محددة » . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على كل البعثات الدبلوماسية الألمانية أن تقدم تقارير تحتوي على ملحوظاتها الخاصة بأي نشاط في صالح إقامة دولة يهودية .

وقد احتوت كل من تعليمات ڤون نيوراث والرسالة الدورية التي بعثت بها وزارة الخارجية الألمانية على التحفظ الهام الآتي : « لا يجب أن يكون من المتوقع أن يؤثر التدخل الألماني المباشر بالضرورة في تطور القضية الفلسطينية » .

كما يمكننا أن نتبين من وثائق أخرى أن وزارة الخارجية الألمانية لم تكن تؤمن بقدرة ألمانيا على الحيلولة دون تنفيذ المخططات البريطانية في فلسطين . وكانت مسألة تقسيم فلسطين قد اعتبرت في البداية وكأنها قد حسمت ، وفي مناقشة جرت بين ڤون نيوراث والقائم البريطاني بالأعمال في ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧ ، ذهب وزير الخارجية الألمانية إلى حد إثارة مسألة الضمانات اللازمة للمستعمرات الألمانية في فلسطين في حالة تنفيذ التقسيم .

وكان يجب أن تكون النتيجة المنطقية لاتجاه ألمانيا السلبي إزاء إنشاء دولة يهودية هي تغيير سياستها إزاء الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتحويل رأس المال اليهودي من ألمانيا . وتبين التعليمات التي وجهها فون نيوراث في أول يونية أنه كان من المتوخى اتخاذ قرارات بشأن هذه المسائل فيما بعد . وعلى الأكثر نجد أنه بحلول بداية عام ١٩٣٧ كان قد بدأ تبادل الرأي في وزارة الخارجية الألمانية ووزارة الشئون الداخلية ومركز الريخ للتخطيط الاقتصادي وبنك الريخ ووزارة الشئون الاقتصادية وإدارات الحزب الوطني الاشتراكي (ومعظمها في مكتب نائب الفوهرر

ومكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى وفى منظمة الشئون الخارجية) حول مسألة مصير الهجرة اليهودية فى المستقبل . وقد طالب دول Dohl القنصل العام فى القدس، بإجراء تعديل جذرى فى سياسة ألمانيا ، ووضع تقريراً مفصلا أورده الخطوط الرئيسية للأسباب التى يراها ، ثم قدم هذا التقرير إلى الهيئات الدبلوماسية الألمانية وإلى الإدارات المركزية . وحين بدأ عام ١٩٣٨ كان دول لايزال يشكو من أنه لم تتخذ أى خطوات سياسية أو اقتصادية بصدد المسائل المتعلقة بالهجرة اليهودية وتحويل رأس المال اليهودى إلى فلسطين . كما أنه أشار إلى احتمال اتخاذ العرب موقفاً سلبيًّا من ألمانيا نتيجة للسياسة المتبعة . وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من موظفى منظمة الشئون الخارجية بالحزب النازى قد عبروا عن معارضتهم للسياسة المتبعة .

وفى خلال شهرى يولية وأغسطس ١٩٣٧ عقدت عدة مؤتمرات حضرها ممثلون عن الهيئات المختصة . وفى المؤتمر قدم طلب بإيقاف الهجرة اليهودية ونقل رأس المال اليهودى إلى فلسطين ، واقتبست تعليمات فون نيوراث الصادرة فى أول يونية وأوضح أن العمل على استمرار حالة تشتت اليهود يفوق فى أهميته العمل على طردهم من ألمانيا . وقد ذهب أنصار هذا الرأى إلى أن ثمة بوادر لقيام دولة يهودية نتيجة لهجرة اليهود إلى فلسطين بمساعدة المال الألمانى ومعارف اليهود ومهارتهم التى حصلوا عليها فى ألمانيا . وأشير إلى زعم الإضرار بالاقتصاد الألمانى الناتج عن تحويل رأس المال الألمانى وأبرزت بقوة النتائج الاقتصادية والسياسية لهذه الأوضاع ؛ وذهب بعض المعادين للهجرة إلى أن من الممكن التوصل إلى ازدياد هجرة اليهود الألمان لا بالمساندة الرسمية وجعل تحويل رأس المال فى حيز الإمكان، بل «بتنمية الحافز الموجود لدى اليهود بخصوص الهجرة » أى بالإمعان فى اضطهادهم والافتيات على حقوقهم .

ولكن المعارضة الموجهة إلى تحريم الهجرة وتحويل العملة كانت لا تقل عن ذلك قوة . وقد أثارت هذه الناحية هى الأخرى مناقشات حادة من وجهة النظر النازية بطبيعة الحال. وقيل أولاً وقبل كل شىء إنه إذا لم يكن باستطاعة اليهود أن يهاجروا إلى فلسطين ، فإن أمر هتلر الخاص بفرض أقصى درجات الهجرة لن ينفذ .

فقد ذهب أنصار هذا الرأى إلى أن فلسطين كانت آخذة فى استيعاب اليهود من المتيسرين والفقراء والشباب، على حين وجد اليهود الأغنياء ملجأ فى المدن الكبرى : نيويورك ولندن وأمستردام وجوهانسبرج وغيرها . وإلى جانب ذلك فإن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لم تكلف الألمان كثيراً — فقد كان تحويل الأملاك اليهودية إلى فلسطين لا يضر بالاقتصاد الألمانى بصورة خاصة ، إذ أن هذا التحويل كان على أى حال يتناقص باستمرار — بل إن تصدير البضائع الألمانية عن طريق مؤسسة هاڤارا قد وفر العمل للعمال الألمان . وقد عبر البعض — ومعظمهم من رجال وزارة اقتصاد الريخ — عن مخاوفهم من أن يقوى إلغاء « هاڤارا » المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية — فقد أكد معارضو تحريم الهجرة اليهودية إلى فلسطين أنها أقل إضراراً بألمانيا . وكتب أحد موظفى وزارة الخارجية الألمانية : « إننى أعلم من خبرتى الخاصة مقدار عدم ترحيبنا بتدفق المثقفين اليهود » ، وأشار إلى أن هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة وتركيا وإيران قد أثر فى الحياة الثقافية بالشكل الذى قوى الشعور المعادى لألمانيا ، وأن المهاجرين اليهود إلى أمريكا اللاتينية قد جروا على ألمانيا كثيراً من الأضرار الاقتصادية والدعائية والسياسية . ولكن هذا الموظف ذهب إلى أن اليهود فى فلسطين منطوون على أنفسهم ، وليس بإمكانهم أن يلحقوا الضرر بالريخ الثالث . وبالإضافة إلى ذلك فإن معارضى منع الهجرة ذهبوا إلى أن الهجرة اليهودية لا تؤدى بالضرورة إلى قيام دولة يهودية فى فلسطين ، وأن إيقاف الهجرة من ألمانيا لا يمكن أن يعرقل قيامها بأى حال من الأحوال ، بحكم أنه سيؤدى إلى تزايد الهجرة من بولندة ورومانيا . وكان من رأى فون هنتج Von Hentig الذى كان حينئذ رئيساً للشعبة السياسية السابعة (التى كانت تختص بشئون الشرقين الأدنى والأوسط) ، وكان بعد الحرب سفيراً لجمهورية ألمانيا الاتحادية فى جاكارتا — أن يهود هذه البلدان كانوا أكثر استعداداً لاتخاذ موقف عدائى من ألمانيا ، ولم يكونوا يكترثون بالاعتبارات التى حالت دون مصارحة اليهود الألمان للريخ الثالث بالعداء . كما ظهرت وجهة نظر تذهب إلى أن تحريم سلطات الريخ للهجرة ومواصلتها فى نفس الوقت سياسة ألمانيا المعادية لليهود كانت لا تعرف بوجه عام ما يجب عليها عمله إزاء اليهود الذين كانت تنزل بهم إلى مستوى الفقر

وتجعل منهم عبئاً على حكومة الريخ .

وفى النهاية توجد إشارة إلى قرار هتلر الخاص بتوجيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين حيث يمكن محاربة اليهود بصورة أنجح ، ومن المحتمل أنه لم يوجد مثل هذا القرار الرسمى والنهائى[1]_ إذ أن مسائل الهجرة وتحويل رأس المال كانت بحاول عام ١٩٣٨ لاتزال موضعاً للنقاش . ولكن ما حل ذلك الوقت حتى كانت مناقشة هذه المسائل قد أضحت لا معنى لها إلى حد كبير ، بحكم أن السلطات البريطانية كانت قد تخلصت عن فكرة التقسيم وحددت هجرة اليهود إلى فلسطين إلى حد كبير . ورغم ذلك فإن الحكومة الألمانية تنازلت فى حالات خاصة ، فسمحت بالهجرة القانونية وغير القانونية إلى هذه البلاد حتى السنوات الأولى من الحرب . وبدا اتجاهان للاسامية الألمانية فى المناقشة التى سبقت الإشارة إليها ، كما اتضحا فى السياسة العامة للنظام النازى قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . وكان أحد هذين الاتجاهين هو طرد اليهود من ألمانيا ، أما الاتجاه الثانى فكان يسعى إلى استغلال المسألة اليهودية فى سياسة ألمانيا الداخلية وفى المجال الدولى . وفى هذه المناقشة كان يوجد أساس ما حدث فى المستقبل من ظهور « الحل النهائى » للمشكلة اليهودية .

محاولة العرب ضمان مساندة ألمانيا

وبإمكاننا أن نستنتج بسهولة أن معارضة ألمانيا لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين بعد تقسيمها لم تكن تتصل بقضايا الشرق الأوسط ، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة إلى الدول الأوربية العظمى الأخرى : ويتضح مما سبق أن ذكرناه أن الألمان ، فى نظرتهم إلى الموقف فى فلسطين فى عام ١٩٣٧ ، ولدرجة كبيرة فى عام ١٩٣٨ ، لم يعيروا التفاتاً كبيراً لآمال العرب . ويبدو فى ذلك الوقت أن الألمان ، على الأقل من الوجهة الرسمية ، لم تكن لديهم فكرة سياسية عما يجب عليهم عمله فى البلدان العربية . حقيقة أن مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى حاول

---

(١) انظر مذكرات كلوديوس (برلين ٢٧ يناير ١٩٣٨) ، حيث يوجد تعليق بخط اليد كتبه فايزساكر Weizsacker : « يجب أن يكون هذا لدينا كتابة . إن أى مناقشة لن يكون لها أى مغزى » .

إقامة علاقات مع البلدان العربية ، إلا أن الخطوة التى اتخذها لم تساندها الأجهزة الحكومية فى ذلك الوقت . ومما له دلالته أن ممثلى مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى ناصروا إيقاف الهجرة أثناء المناقشة الخاصة بتحريم الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وبعد أزمة ميونيخ أثيرت مسألة السياسة الخاصة بالبلدان العربية بصورة مخالفة تماماً ، ولكن لعبت الشئون العربية دوراً ثانوياً حين كانت مقترحات بيل قيد البحث بصورة نهائية .

على أن هذه الفترة كانت شديدة الأهمية بالنسبة إلى تطور سياسة ألمانيا فى المشرق العربى — فقد وفرت خطة تقسيم فلسطين للنازيين فرصاً أخرى للنشاط وإن تكن على مدى متواضع فى البداية ، فخطة التقسيم وموقف ألمانيا منها ، مما أوجد مجالا معيناً للاتصالات .

وفى ١٥ يولية ١٩٣٧ قابل دكتور جروبا ، المبعوث الألمانى فى بغداد ، حكمت سليمان رئيس وزراء العراق فى ذلك الوقت ، الذى عبر عن أمله فى أن يبذل الألمان كل ما فى وسعهم للعمل على فشل خطط اللجنة الملكية . وربما كانت هذه الخطوة التى اتخذها زعيم هوجم لبروده إزاء الوحدة العربية تعنى التمهيد لمفاوضات أكثر تحديداً — إذ فى اليوم التالى زار جروبا عضوان فى اللجنة العربية العليا الخاصة بفلسطين هما عونى بك عبد الهادى ومعين المهدى . وقد طالبا بشدة بأن تهتم حكومة الريخ بقضية فلسطين وتساند عرب فلسطين على حين عبر عبد الهادى عن رغبته فى زيارة برلين فى أقرب وقت ممكن[1] .

وكان رئيس وزراء العراق يود من الألمان أن يساندوا الحملة التى شنت ضد التقسيم وذلك على شكل تصريح مناسب يدلى به أحد زعماء الريخ . كما أشار إلى أنه كان مقيضاً للعراق أن يشن حملة ناجحة ضد إنشاء دولة يهودية لو لم يكن خاضعاً للضغط الاقتصادى البريطانى ، وأن حصول العراق على قرض من جهة أخرى غير بريطانيا سيساعده كثيراً . فحكومة حكمت سليمان ، التى قامت نتيجة للانقلاب العسكرى الذى قاده بكر صدقى فى عام ١٩٣٦ ، كانت

---

(١) زار عونى بك عبد الهادى ألمانيا فى عام ١٩٣٩ بعد انعقاد مؤتمر لندن الخاص بفلسطين ، وأغلب الظن أنه نزل ضيفاً على إدارة الشئون الخارجية بالحزب النازى .

تمثل اتجاهاً معادياً لبريطانيا ، على عكس معظم حكومات العراق . ولكن هذه الحكومة لم تستمر طويلا .

وفى ١٦ يولية زار الحاج أمين الحسينى ، مفتى القدس ورئيس اللجنة العربية العليا ، ودول قنصل ألمانيا العام. ومن المحتمل أن هذا الاتصال كان يمثل الاحتكاك الرسمى الأول بين المفتى وأحد ممثلى الريخ الثالث. وقد قيض لهذا الشخص فيما بعد أن يلعب دوراً رئيسياً فى تنفيذ الخطط الألمانية . وأكد المفتى عطفه على « ألمانيا الجديدة » ، وعبر عن أمله فى أن تساند العرب باتخاذ موقف فى الصحافة أو إبداء المعارضة بشكل آخر للآمال الصهيونية فى فلسطين . كما رجا الألمان أن يقيموا اتصالات مع مندوبه الموثوق به الذى كان عليه أن يتوجه إلى برلين . وفى مرة أخرى طالب المفتى بالتدخل الألمانى لدى الحكومة البولندية لكى تتخذ موقفاً أكثر تمشياً مع آمال عرب فلسطين [1] — إذ أن الحكومة البولندية قد اتخذت موقفاً إيجابياً إزاء تقرير بيل على أمل أن تضاعف الهجرة اليهودية . وكانت خطة اللجنة الملكية موضوعاً لمحادثات مع دول أخرى منها الولايات المتحدة [2] .

وفى سبتمبر توجه الوطنيون السوريون إلى القنصل الألمانى فى بيروت — سيلر Seiler ورجوه أن يقدم أسلحة وذخيرة للثورة العربية فى فلسطين ، التى قيض لها بعد بضعة أشهر أن تنشب بقوة متجددة للحيلولة دون تقسيم البلاد [3] . وتوقع سيلر

---

(١) تقرير نائب القنصل الألمانى دتمان Dittmann (القدس فى ١٠ أغسطس ١٩٣٧) . وقد بلغ المفتى دتمان بوجهة نظر اللجنة العليا وفحواها أن عرب فلسطين يواجهون تهديداً شديداً من ناحية بولندة . وذكر أن الدكتور وايزمان ، رئيس الوكالة اليهودية ، كان يزمع التوجه إلى وارسو ليضمن مساندة الحكومة البولندية لخلق دولة يهودية فى فلسطين . وقد وجه الحاج أمين رسالة إلى الحكومة البولندية جاء فيها أن قدرة استيعاب الدولة اليهودية ستكون ضعيفة ولن تكون عاملا فى حل المشكلة اليهودية فى بولندة . وأشار إلى نضال بولندة القوى ضد التقسيم ، وعبر عن أمله فى أن يبدى البولنديون فهماً لنضال العرب ضد انتزاع أجزاء من بلدهم . وقد حاول الصهيونيون أن يحصلوا على مساندة بولندة الدبلوماسية .

(٢) فى ذلك الوقت كانت حكومة الولايات المتحدة واقعة تحت ضغط المؤسسات البترولية التى طالبتها بعدم مساندة الأهداف الصهيونية فى فلسطين .

(٣) سيلر إلى هننج (بيروت فى ٢٣ سبتمبر ١٩٣٧) . ويشير سيلر فى هذا الخطاب إلى « لجنة الوطنيين السوريين الخاصة بفلسطين » . ومن الواضح أنه كان يعنى اللجنة السورية للدفاع عن فلسطين التى كان رئيسها نبيه العظمة .

طلبات كثيرة مماثلة من جهات متعددة ، نظراً للقرارات التى اتخذها مؤتمر جميع العرب الذى انعقد فى بلودان واشتركت فيه « لجان الدفاع عن فلسطين » .

وقبل ذلك ، أى بعد نشر تقرير بيل ، رجت بغداد برلين أن يحظى ممثل العراق فى عصبة الأمم بمساندة ونصيحة القنصل الألمانى فى جنيف أثناء مناقشة العصبة لخطة تقسيم فلسطين . وقد انشغل هذا القنصل بشئون عصبة الأمم فى نطاق مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى .

وفى ٥ نوفمبر ١٩٣٧ جرت مناقشة فى بغداد بين المبعوث الألمانى جروبا والسكرتير الشخصى للملك آل سعود ، الشيخ يوسف آل ياسين ، الذى أوضح أن الملك ابن سعود يتوقع من ألمانيا أن تقوم بخطوات للحيلولة دون قيام دولة يهودية فى فلسطين .

وفى نوفمبر وديسمبر ١٩٣٧ زار برلين الدكتور سعيد عبد الفتاح إمام العضو بالنادى العربى بدمشق وكان يمثل مفتى فلسطين وكثيراً من المنظمات الوطنية السورية . واقترح الدكتور إمام على السلطات الألمانية اتفاقاً خاصًّا تقدم ألمانيا بمقتضاه تعضيدها « الأيديولوجى » لممثليه (بإبداء العطف) ومساعدتها المادية (عتاد لحركة التحرير العربية يدفع ثمنه فيما بعد) والدعائية أيضًا . وفى مقابل ذلك يتعهد رؤساء الدكتور إمام بالترويج للتجارة الألمانية فى العالم العربى ــ الإسلامى وبحث الناس على صداقة ألمانيا (وهو ما يعتبر مجدياً فى حالة نشوب الحرب) . وبنشر الأيديولوجية الاشتراكية الوطنية بين العرب والمسلمين بوجه عام ، وبمقاومة الشيوعية ومقاطعة البضائع اليهودية ومواصلة النشاط الإرهابى فى الممتلكات الفرنسية ، وشن هجوم على مشروع إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، ونشر التعليم والثقافة الألمانيين ، واستعمال رأس المال والمساعدة الفنية الألمانيين دون غيرهما . وسيتضح من عرضنا أن هذا الاتفاق كان من المتوخى أن ينطبق على فلسطين وسوريا ولبنان .

وهكذا توقع الزعماء العرب فى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والعربية السعودية أن تتخذ ألمانيا موقفاً نشطاً إزاء قضية فلسطين . كانوا يطالبون ، أولا وقبل كل شىء ، بالمساندة السياسية إما على شكل تصريح يدلى به أحد كبار المسئولين أو بمعارضة

عامة لقيام الدولة اليهودية . ولا تفصح وثائق قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى عن مطالب مشابهة من جانب مصر [١].

ولكن الحكومة الألمانية لم تكن على استعداد لاتباع الخطة التى طالب بها الزعماء العرب وفضلت العمل بطرق سرية . وحين طالب رئيس وزراء العراق بأن يدلى أحد كبار المسئولين بالحكومة الألمانية بتصريح يتصل بهذا الموضوع ، كان رد مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى سلبياً ، مبرراً ذلك بعدم وجود موقف عربى موحد إزاء تقرير بيل . ولكنه وافق على أن يمد قنصل الريخ فى جنيف يد المساعدة إلى المبعوثين العراقيين لدى عصبة الأمم حين تناقش قضية فلسطين ، وإن تحفظ بقوله : إن التعاون يجب أن يبقى فى طى الكتمان .

دوافع ألمانيا السياسية

كيف يمكن تفسير الموقف الرسمى الذى اتخذه الريخ الثالث فى عامى ١٩٣٧ – ١٩٣٨ ؟ يبدو أن كلا من الرغبة فى التوسع فى الأراضى التى كان من المتوخى أن تكون من نصيب الغرب وسياسة النازى الخاصة بمعاداة اليهود كان من الواجب أن تدفعا ألمانيا إلى استغلال الفرص التى سنحت لها بفضل الموقف فى فلسطين على وجه أحسن .

ومن المحتمل ، أولا وقبل كل شىء ، أن النظام النازى لم يكن يشعر بالقوة الكافية التى تمكنه من مواجهة بريطانيا وفرنسا بصدد ادعاءاتهما الاستعمارية والمجال الحيوى فى أوربا ، وكذلك بصدد أسواق البحر المتوسط ومناطق النفوذ الواقعة على شواطئه – إلى غير ذلك. ذلك أن أهداف ألمانيا الرئيسية كانت مقصورة على أوربا . وكان من رأى هتلر أن « من الأفضل البحث عن مواد خام فى أوربا لدى جيران الريخ المباشرين لا فيما وراء البحار » وأن أكبر خصوم الإمبراطورية (البريطانية) هم منافسوها لا البلدان المحتلة . وتتضح وجهة النظر هذه من موقف

(١) من المحتمل أن المسئولين فى الحكومة المصرية لم يتجهوا إلى ممثلى الريخ الثالث بصدد هذه المسألة ، على حين نستشف أن المعارضة المتطرفة – كمصر الفتاة – قد اتصلت بقسم الشئون الخارجية بالحزب النازى لا بالممثلين الدبلوماسيين .

النازى من القومية العربية . فلم يوجد فى قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى سوى عدد قليل ممن كانوا شديدى التقدير لإمكانيات حركة القومية العربية . وقد وردت التقارير من السفارات والمفوضيات والقنصليات الألمانية فى شتى أرجاء العالم بأن اهتمام الحكومات العربية بالإبقاء على علاقات حسنة مع بريطانيا قد أدى إلى حد كبير إلى شل مقاومتها لخطط تقسيم فلسطين . وقد أشارت هذه التقارير إلى عدم اكتراث الناس فى لبنان ومصر بقضية فلسطين . كما كانت الدوائر الحاكمة فى ألمانيا على علم بموقف عبد الله أمير شرق الأردن الذى صرح علناً لمراسل ألمانى (شفارتز فون بِرك Schwartz von Berk) بأنه فى صف التقسيم . وقد أدت الصراعات الداخلية التى كانت تعصف بالعالم العربى إلى أن بعض الزعماء العرب قد نشروا ما مفاده أن ملك العربية السعودية قد باع نفسه للبريطانيين بصورة نهائية وأنه على استعداد لقبول كل ما يقترحونه . لذا لم يقتصر قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى على مجرد التهرب من تقديم رد واضح حين اصطنع حجة عدم وجود موقف عربى موحد إزاء تقرير بيل . فبإمكاننا أن نستنتج أنه قد سيطرت عليه فكرة أن المعارضة العربية لا يجب أن تؤخذ مأخذاً جدياً ، وأن الزعماء العرب — باستثناء مفتى القدس ورئيس وزراء العراق حكمت سليمان — لم يستقروا على موقف بصدد خطة التقسيم . وكان من رأى رجاله أن الدوائر السياسية ذات الرأى الحاسم فى البلدان العربية كانت ترغب فى تجنب الدخول فى صراع جدى مع بريطانيا برغم انتشار المعارضة فى العالم العربى لقيام دولة يهودية . لهذا ذهب فون هنتج إلى أن العرب « متنبهون تماماً إلى أن إنجلترا تعتقد أن المسألة من الأهمية بحيث يجب عليها أن تفرض وجهة نظرها بقوة السلاح دون أى عوائق » . وتغلبت وجهة النظر هذه ، على الأقل فى الفترة التالية مباشرة لنشر تقرير بيل . وحين أصبحت معارضة الزعماء العرب أكثر وضوحاً لم يخف كثير من المسئولين الألمان دهشتهم .

ورغم أنه كان من الواضح فى البداية أن الحكومات العربية مستعدة للموافقة على الخطة البريطانية ، فإنها أخذت تغير موقفها الذى لم تعلنه رسمياً على أى حال خوفاً من الرأى العام . وربما كان موقف هذه الحكومات متأثراً تأثراً قوياً بصلابة موقف الحاج أمين الذى لم يكن يشارك كثيراً من الزعماء العرب — الذين كانوا مترددين

فى معارضة بريطانيا — شكوكهم . وكانت تقف وراء الحاج أمين هيئات غير حكومية قامت فى معظم البلدان العربية لمساندة عرب فلسطين .

كما رأى بعض الدبلوماسيين والساسة الألمان أن من الضرورى فيما يتعلق بآسيا وإفريقيا ، أن يعمل حساب لسلامة المواطنين الأجانب ، وأنه قد يسهل تحول القومية الصاعدة فى البلدان العربية إلى كراهية وعنف ضد الأجانب بوجه عام ، برغم أنها كانت موجهة ضد الدول المتصارعة . كما كانوا يخشون أن يكون للقلاقل السياسية التى يثيرها الوطنيون أثر سلبى على التجارة الألمانية .

وأيًّا كان الأمر ؛ فعلينا أن نبحث عن تعليل آخر لتحفظ ألمانيا . ومما لاشك فيه أن السياسة الألمانية إزاء تقسيم فلسطين كانت تحددها العلاقات الإنجليزية — الألمانية فى المحل الأول .

وبإمكاننا أن نورد وجهات نظر عامة لتدعيم وجهة النظر هذه . فقد كان هتلر يرغب فى الحصول على « مجال حيوى » فى أوربا ، كما كان مهتمًّا بأن يحمل بريطانيا على أن تسمح له بحرية العمل فى وسط وشرق أوربا — وقد طالب بهذا فى أكثر من مناسبة فى محادثاته مع ممثلى الحكومة البريطانية . كما لابد أنه كان على علم بمدى حساسية الدوائر السياسية البريطانية إزاء كل محاولة للمساس بالأوضاع القائمة فى البحر المتوسط — فقد أكد الساسة البريطانيون فى تصريحاتهم الرسمية الأهمية الكبرى التى كانوا يعلقونها على هذه المنطقة . ففى ٥ نوفمبر ١٩٣٦ صرح أنتونى إيدن — الذى كان حينئذ وزيراً للخارجية — بأن « حرية المواصلات فى هذه المياه — البحر المتوسط — من المصالح الحيوية بكل معنى الكلمة بالنسبة إلى الكومنولث والأمم البريطانية » — وكثيراً ما نجده يشير إلى هذا التصريح فى المستقبل . ورغم أن الحكومة البريطانية كانت لا تهتم بمصير النظام الجمهورى فى إسبانيا ، فإنها كانت شديدة الاهتمام بكل ما يتعلق بشواطئ هذه الدولة وحدودها البرية وبطرق التجارة الواقعة على طول سواحل شبه جزيرة أيبيريا .

وفى نوفمبر ١٩٣٧ أكد هتلر لهاليفاكس أن الخلاف الوحيد بين لندن والنظام النازى يرتبط بمسألة المستعمرات الألمانية السابقة . ولكنه حين أثار مسألة الحصول

على مقابل لهذه المستعمرات في المستقبل ، وجد لزاماً عليه أن يصرح بما يلي :
« وعلى أى حال فإن ألمانيا لن تقنع بالحصول على مستعمرات سواء فى الصحراء — الكبرى — أو على سواحل البحر المتوسط » . وفى المحادثة التى جرت بين هتلر وهندرسون فى ٣ مارس ١٩٣٨ أكد مستشار الريخ من جديد أن ألمانيا لم تتدخل فى شئون الإمبراطورية البريطانية . بل إن رودلف هيس قد ذهب فى اتصالاته بممثلى الحكومة البريطانية فى عام ١٩٤١ إلى أن هتلر كان على استعداد لعقد صلح مع بريطانيا بشرط أن تطلق يده فى أوربا ، وعرض مقابل ذلك عدم تعرض ألمانيا بأى شكل لمناطق النفوذ البريطانية (١). وكانت تكتيكات هتلر تقوم على تحذير خصومه المحتملين ، لهذا كان يتوخى الحذر فى خطته السياسية فى منطقة البحر المتوسط خوفاً من رد فعل بريطانيا . كما أن مما له مغزاه أن ألمانيا النازية قد اعترفت بالبحر المتوسط باعتباره مجالاً للمصالح الإيطالية وذلك منذ بداية تقاربها مع روما . ولما كان هتلر يرى أن « أكبر أعداء الإمبراطورية البريطانية هم خصومها لا البلدان المحتلة » ، فقد كان عليه أن يضع فى عين الاعتبار بصورة متزايدة وجهة نظر إيطاليا باعتبارها دولة اصطدمت ببريطانيا فى البحر المتوسط .

وقد يبدو أن التدخل الألمانى فى الحرب الأهلية الإسبانية فى عام ١٩٣٦ يناقض النتيجة التى توصلنا إليها سلفاً . ولكن يجب أن نذكر كيف فهم هتلر المغزى السياسى للتدخل الألمانى فى إسبانيا بحلول نهاية عام ١٩٣٧ . وفى المؤتمر الذى انعقد فى ٤ نوفمبر ١٩٣٧ (الذى يمكن أن نعيد تشكيل محاضره على أساس بروتوكول هوزباخ الشهير) اتضح أن هتلر لم يكن مهتماً بأى شكل بانتصار فرانكو انتصاراً تاماً — فقد كان يعول على أن يطول أمد الحرب الإسبانية ، وأن تتحول إلى نضال مسلح بين إنجلترا وفرنسا من جهة وبين إيطاليا من جهة أخرى. فمثل هذا الصراع كان من الممكن أن يعود بالفائدة على الألمان ، بأن يسمح لهم

(١) فى ذلك الوقت لم يتقدم هيس إلا بتحفظ واحد بصدد العراق حيث وقع انقلاب يميل إلى الفاشية فى ربيع عام ١٩٤١ . انظر ما يلى : الفصلان السادس والثامن .

بحل مشكلتى النمسا وتشيكوسلوفاكيا بطريقتهم الخاصة، على حين لم يكن بالاستطاعة أن تؤدى المساعدة الفعالة لعرب فلسطين إلى نتائج مشابهة .

كما أن العوامل الأخرى التى دفعت ألمانيا النازية إلى التدخل فى إسبانيا لم يكن لها ما يماثلها فى الموقف القائم فى المشرق العربى . فمن المعروف أن الريخ الثالث قد برر تدخله فى إسبانيا رسمياً بالحاجة إلى « الدفاع عن أوربا ضد البلشفية » . ولكن كان من الصعب تفسير الوضع فى فلسطين بصورة مشابهة . كما أن فرص إحراز السيطرة على المواد الخام لم تكن فى المشرق العربى شبيهة بما كانت عليه فى إسبانيا . وفيما يتعلق بالمسألة الاستراتيجية لم تتنبه ألمانيا إلى الأهمية الاستراتيجية الكبرى للقواعد الجوية الإسبانية فى حالة نشوب الحرب مع فرنسا إلا أثناء أزمة تشيكوسلوفاكيا . وتنبه الألمان من جديد لهذه المشكلة أثناء استعدادهم لغزو بولندة . وفى ذلك الوقت أيضاً تنبه الزعماء النازيون للأهمية الاستراتيجية لجيران تركيا الجنوبيين .

اتجاه ألمانيا

لهذا فإن ألمانيا كانت ترى أن المساعدة الفعالة للقوميين العرب — وبخاصة فى فلسطين — لن تؤدى إلا إلى ازدياد توتر العلاقات مع بريطانيا ، ومن ثم اتخاذها موقفاً معتدلا إزاء هذه المسألة . كانت مساعدتها شديدة التواضع ، فى الوقت الذى طلبت فيه من شركائها أن يحيطوا هذه المساعدة بالسرية خوفاً من أن تتسرب أخبارها إلى إنجلترا . كما أن مثل هذه السرية كانت فى صالح كل من ألمانيا وشركائها العرب .

وقد سبق أن ذكرنا أنه كان من المتوخى أن يبقى التعاون بين مندوبى العراق فى عصبة الأمم وبين القنصل الألمانى فى جنيف أثناء مناقشة قضية فلسطين سراً مكنوناً . وفى الواقع أن تعليمات فون نيوراث الخاصة بمساندة القوميين العرب كانت مناورة لا جدوى منها بحكم أن الحكومة الألمانية لم ترسل أى أسلحة إلى الثوار الفلسطينيين . وحين اتخذ قرار فى ٨ أغسطس ١٩٣٣ بصدد استئناف ألمانيا تصدير

الأسلحة ، امتنع قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى عن مساندة تصدير الأسلحة إلى الثوار الفلسطينيين حتى ولو دفعوا ثمنها نقداً . ولكن تبلورت بالتدريج وجهة النظر الخاصة بأن هذا القرار مؤقت . ومن المعلومات المتعددة التى بإمكاننا الرجوع إليها ، نجد أن الطابور الخامس الألمانى لم يعرقل نشاطها ، بل إنه دعمه . ولكن لما كانت السلطات الألمانية تضع العلاقات الإنجليزية — الألمانية فى موضع الاعتبار فإنها لم توافق على التوسع فى تصدير الأسلحة ، ورفضت بشكل قاطع أن ترسل الأسلحة إلى بلدان عبر بلدان أخرى ، لأنه لم يكن ممكناً فى هذه الحالة التأكد من السرية المطلقة . وأرسلت تعليمات بهذا الصدد إلى لندن والقدس وبغداد تطلب من العملاء أن يتجنبوا كل اتصالات خاصة بإرسال الأسلحة إلى الثوار الفلسطينيين فى حالة عدم ضمان السرية التامة . كما حرم على المستعمرين الألمان فى فلسطين أن يقدموا مساعدة أكبر للثورة ، برغم استمرارهم فى تقديم الأموال ومساعدتهم الفنية للثوار .

وبالإضافة إلى ذلك فإن التخوف من إثارة نزاع مع بريطانيا فى البلدان العربية كان واضحاً فى مجالات أخرى غير المسألة الفلسطينية . فحين أثيرت مسألة تقديم الأسلحة إلى العراق أعرب قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى عن بعض التحفظات حول مثل هذه الصفقة ، ومن أسباب ذلك عدم الرغبة فى تسوىء العلاقات الإنجليزية — الألمانية[1] . وحين أثيرت مسألة تقديم البنوك الألمانية قرضاً إلى العراق ، لم يبد بنك درسدن — الذى كان يعتبر فى المقدمة — رغبة فى الاشتراك بسبب معارضة بنك إخوان بيرنج البريطانى الذى كان يقوم بالتفاوض حول هذه المسألة . وقد ساند قسم العلاقات الخارجية بالحزب النازى وجهة نظر البنك الألمانى ، على اعتبار أنه كان يرى أن الاصطدام بإنجلترا بسبب القرض المقترح ، أو بسبب عقد اتفاقيات أخرى مع العراق ، أمر غير مرغوب فيه لأسباب سياسية . وقد وقف الرأسماليون الألمان والحكومة موقفاً مشابهاً بصدد صفقات معينة كان من المتوخى إجراؤها مع مصر . وكان من رأى قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى أن ضرب إنجلترا بإيطاليا أهم من تغلغل ألمانيا فى العراق . وقد نصحت

---

(١) سحبت هذه الاعتراضات ولكنها مالبثت أن بدت من جديد .

مذكرة مايو ١٩٣٧ بوجوب قيام إيطاليا ببيع الأسلحة إلى العراق بدلا من ألمانيا ، وذلك بسبب ماقد تؤديه مثل هذه الصفقة من تعكير للعلاقات الألمانية — البريطانية .

وقد أكدت مذكرة أخرى بتاريخ آخر يولية ١٩٣٧ أن ألمانيا تستطيع بهذا الشكل أن تحقق نفس النتائج السياسية دون أن تتعرض لأى خطر. ومما يجب أن نذكره أنه كان مقيضاً لهتلر بعد عدة شهور — أى فى ٥ نوفمبر ١٩٣٧ — أن يحدد بصورة مماثلة هدف ألمانيا الرئيسى فى إسبانيا : أى الرغبة فى ضرب دول أوربية أخرى بعضها ببعض بالشكل الذى يدفع بها إلى الدخول فى الحرب .

ورغم ذلك فإن قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى رأى احتمال القيام بعمل مشترك مع إيطاليا لمساندة آمال العرب . فإيطاليا هى الأخرى عارضت خطة تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية — ولم تكن مدفوعة إلى ذلك باعتبارات لا سامية ، بل بخوفها من أن يؤدى التقسيم إلى تقوية مركز بريطانيا . فقد توقع الفاشيون فى إيطاليا أن تصبح الدولة اليهودية ركيزة قوية لإنجلترا فى البحر المتوسط الذى كان الإيطاليون يرغبون فى تحويله إلى منطقة نفوذ لهم وحدهم .

وكان ثمة اعتراضان على التعاون مع إيطاليا اعتبرهما قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى حاسمين .. فقد رؤى أولا أن العمل المشترك من شأنه أن يفيد مصالح إيطاليا وحدها ، لأنه سيقوى مركزها فى البحر المتوسط ولا يعود على ألمانيا بأى فائدة . كما رؤى أنه سيغضب بريطانيا التى كانت شديدة القلق لتوسع إيطاليا فى هذه المنطقة . ورأى مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى أن بإمكان قضية فلسطين أن تلعب دوراً معيناً فى مفاوضات ثلاثية ألمانية — بريطانية — إيطالية، تتمشى مع مصالح ألمانيا . ولكن المحادثات لم تجر على الإطلاق . ومن المعروف أن إنجلترا وإيطاليا حاولتا فى عام ١٩٣٨ أن تنهيا خلافاتهما الخاصة بالبحرين المتوسط والأحمر . ولكن هذه المحاولات كانت ثنائية .

وكان بإمكان ألمانيا أن تؤثر على بولندة ورومانيا بالطرق الدبلوماسية لكى تعدلا عن مساندة خطط اللجنة الملكية فى عصبة الأمم . كما كان من الممكن

عرقلة الجهود اليهودية لدى الدول الأجنبية . ولكن هذا الاقتراح ووجه أيضاً بالمعارضة .

وبقيت مسألة الدعاية الإذاعية الألمانية الموجهة إلى المشرق العربى. وقد أثار الدكتور إمام هذه المسألة بالذات فى برلين . وكان من رأى السفارات والمفوضيات والقنصليات الألمانية أن هذا النوع من الدعاية أمر مرغوب فيه . ولكن منذ البداية انتصر الرأى القائل بإيقاف الإذاعات العربية الموجهة من ألمانيا ، وذلك بسبب الخلافات الإيطالية — البريطانية التى لعبت فيها الإذاعات الموجهة من محطة بارى دوراً هاماً . ورغم أن المكتب السياسى السابع كان يحبذ توجيه هذه الإذاعات ، إلا أن رئاسة إدارة الشئون الخارجية بالحزب النازى رفضت هذا الرأى[١]. وفى هذه المسألة أيضاً عرقلت الاعتبارات الخاصة بالعلاقات الإنجليزية — الألمانية نشاط ألمانيا —، ولم تبدأ برلين إذاعاتها اللاسلكية إلا فى عام ١٩٣٩ ، حين قل اهتمام النازيين تدريجياً بالشكليات بعد ميونيخ ، واندفعوا صوب الحرب بشكل أكثر وضوحاً .

وملخص القول أن العوامل التالية لعبت دوراً حاسما فى سياسة الريخ الثالث إزاء المسألة الفلسطينية فى عامى ١٩٣٧ — ١٩٣٨. فمن ناحية كانت توجد اللاسامية ، ومن ناحية أخرى كانت ثمة اعتبارات ترتبط بالعلاقات الألمانية — البريطانية . وكانت الشئون العربية ذات أهمية ثانوية بالنسبة إلى النازيين ، رغم أنهم كانوا يرغبون فى نفس الوقت فى التعاون مع العرب لمصلحة كلا الطرفين ، على أن يكون هذا التعاون فى طى السرية المطلقة . وبوجه عام لم تتعد مطالب العرب من ألمانيا مسألة تقسيم فلسطين . ولهذا فإن الساسة العرب كان من النادر أن يثيروا مسألة الهجرة اليهودية من ألمانيا[٢] . وقد ابتعدت جريدة الجمعية الإسلامية عن هذا النمط حين كتبت فى ٩ يناير ١٩٣٨ — متأثرة بنوع من عدم الرضى عن تحديد تصدير الحمضيات الفلسطينية إلى ألمانيا وانخفاض الأسعار — أن كثيراً من العرب يعتبرون

---

(١) ولكن وزارة الدعاية اتخذت خطوات مبدئية فى نفس الوقت لبدء الإذاعات العربية .

(٢) كتب قنصل ألمانيا العام دول — فى تقريره المؤرخ ١٤ يناير ١٩٣٨ — أن علاقة السكان العرب بالريخ الثالث ستتعرض لتغيير جذرى فيما لو أثار الزعماء العرب مسألة الهجرة اليهودية من ألمانيا .

ألمانيا صديقة للعرب ، وأن هذه الصداقة قد تكون ناتجة عن كره الألمان لليهود ، وأن سياسة ألمانيا المعادية لليهود قد تسببت فى شدة تدفق المهاجرين من اليهود الألمان على فلسطين ، وأن هذا هو الخير الذى قدمته ألمانيا للعرب .

وبعد انعقاد مؤتمر ميونخ بوقت قليل ، حين تبينت الدوائر الحاكمة فى البلدان العربية خطورة الصراع الإنجليزى – الألمانى ، صرح وزير خارجية العراق – توفيق السويدى – للمبعوث الألمانى جروبا بأن الإجراءات التى اتخذتها ألمانيا ضد اليهود كان لها أثر سيئ على عرب فلسطين [1] .

وفى عامى ١٩٣٧و ١٩٣٨ لم يلتفت حكام ألمانيا إلى مزايا التعاون مع القوميين العرب . ولم تكن الدوائر العربية ذات النفوذ – ربما باستثناء حزب الحسينى الفلسطينى – تميل إلى ربط أنفسها بخصوم بريطانيا بصورة وثيقة ، إذ أن هذه الدوائر كانت تعتبر إنجلترا أقوى دولة فى العالم . على أن الاتصالات التى جرت فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ نتيجة لاحتمال تقسيم فلسطين كانت بداية طيبة للنشاط الألمانى على مدى أوسع .

---

(١) تقرير جروبا (بغداد فى ١٦ نوفبر ١٩٣٨) . وكان توفيق السويدى يضع نصب عينيه أحداث خريف عام ١٩٣٨ ؛ حين نظم النازيون مذابح منظمة ضد اليهود، وأحرقوا البيع وسرقوا ونهبوا مخازن اليهود (وهو ما سمى باسم ليلة الكريستال Kristallnacht) وارتكبوا أعمالا إرهابية أخرى ، منها طرد اليهود البولنديين القاطنين فى ألمانيا بالجملة .

الفصل الثالث

نتائج أزمة تشيكوسلوفاكيا والاتفاق مع تركيا

ازدياد توتر العلاقات الدولية والموقف فى المشرق العربى

حين ازداد توتر الموقف الدولى ضعفت — أو اختفت — العوامل التى حملت زعماء الريخ الثالث على اتباع سياسة متحفظة إزاء البلدان العربية . وبحلول صيف عام ١٩٣٨ كان الألمان قد أعدوا شحنات أسلحة لإرسالها إلى فلسطين عن طريق العراق والعربية السعودية بالاتفاق مع حكومتيهما[١] . كما يبدو أنهم أخذوا يمولون الثوار الفلسطينيين . وفى نفس الوقت أدت مسألة تزويد مصر بالأسلحة إلى تقوية الصلات بين الألمان وبين الدوائر العسكرية المعادية لإنجلترا ودوائر القصر[٢] . وبعد ميونخ طرأ تغير نهائى على مسلك الجاليات الألمانية فى فلسطين : منظمة الحزب النازى التى ركزت جهودها فى القيام بنشاط غير شرعى وساعدت بالفعل الجماعات العربية التى اشتركت فى الحرب الأهلية .

وفى نفس الوقت كان الحلفاء الغربيون — الذين ألمت بهم هزيمة كبرى فى

---

(١) مذكرات فون هنتج (برلين فى ٢٨ فبراير ١٩٣٩) . انظر أيضاً

E. Dekel: SHAI, The Exploits of the Hungarian Intelligence, N.Y., 1959, pp. 231-6.

وقد نشر ديكل عدداً من الوثائق المستقاة من ملفات البوليس الفلسطينى بخصوص تهريب الأسلحة من ألمانيا . وأولى هذه الوثائق مؤرخة ١٧ سبتمبر ١٩٣٨ .

(٢) انظر مجموعة Handel mit Kriegsgerat Agypten, DZA, AA. 68425

فى أغسطس ١٩٣٨ زار ألمانيا عباس حليم وعزيز على المصرى — مفتش عام القوات المسلحة المصرية (الذى تطلق عليه الوثائق الألمانية لقب المهندس المعمارى) — الذى طار إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى — وأجريا مفاوضات فى عهد وزارة حسن صبرى باشا .

أوربا – مصممين على تدعيم مركزهم فى المشرق العربى . فقد صممت بريطانيا على سحق الثورة العربية فى فلسطين ، فى الوقت الذى كانت فيه على استعداد لتقديم تنازلات كبيرة للعرب . وبرغم أنها أبدت فى عام ١٩٣٦ بعض الاستعداد لتعديل وضع سوريا ولبنان بحيث تصبحان دولتين مستقلتين مرتبطتين بمعاهدات مع فرنسا ، إلا أن حكومة باريس تخلت عن هذا الاتجاه فى ذلك الوقت . وفى البداية أجلت فرنسا إبرام المعاهدات الجديدة وأرغمت الحكومة السورية فى نوفمبر ١٩٣٨ على الموافقة على بعض التعديلات التى كانت فى صالح دولة الانتداب . على أن حكومة باريس تقدمت فى مايو ١٩٢٩ باقتراحات جديدة يتبين منها أن فرنسا لم تكن راغبة – على الأقل فى ذلك الوقت – فى التخلى عن سيطرتها على سوريا ولبنان منذ البداية . وكانت ثمة معارضة قوية فى فرنسا ، وبخاصة من جانب جماعات يمينية ، لتوقيع معاهدات مع سوريا ولبنان . ومما يوضح قدرة هذه الجماعات على أن تجتذب إلى صفها كثيراً ممن ساندوا المعاهدات فى الماضى ما كان من سوء الموقف الدولى وما ترتب عليه من ازدياد تردد الحكومة والرأى العام فى قبول أى تغييرات قد تؤدى إلى إضعاف سلطة فرنسا فى البلدان التابعة لها .

وكانت قضية سنجق الإسكندرونة ترتبط بمسألة المعاهدات . وكان السنجق يشكل جزءاً من الأراضى التى انتدبت عليها فرنسا ، وإن تمتع بوضع شبيه بالاستقلال الذاتى بسبب ارتفاع نسبة الأتراك . وحين أثيرت مسألة عقد معاهدات مع سوريا ولبنان فى عام ١٩٣٦ ، كانت الحكومة التركية ترغب فى الحصول على ضمانات إضافية للأتراك القاطنين فى السنجق مدعية أنهم يشكلون أغلبية . وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ أقيم نظام جديد فى السنجق أبقى على ارتباطه بسوريا فى مجالات الجمارك والعملة والشئون الخارجية وحدها . ودخلت القوات التركية إلى السنجق فى ٥ يولية ١٩٣٨ بالاتفاق مع فرنسا . وحينئذ أجرى استفتاء وتم ضم السنجق إلى تركيا فى العام التالى .

ووافقت فرنسا وإنجلترا على التخلى لتركيا عن السنجق . برغم أن ذلك كان ضد روح الانتداب وحرفه – إذ أنهما اعتبرتا مساعدة تركيا أمراً لا غنى لهما عنه .

وفى ٤ يولية ١٩٣٨ — عشية يوم دخول القوات التركية إلى السنجق — تم فى أنقرة توقيع معاهدة صداقة بين فرنسا وتركيا بالأحرف الأولى . وحينئذ تم فى باريس توقيع تصريح بتبادل المساعدة (فى ٢٣ يونية ١٩٣٩) يشبه التصريح الإنجليزى — التركى الصادر فى ١٢ مايو ١٩٣٩ . وكانت الموافقة على ضم السنجق هى شرط توقيع التصريح . ووجه التخلى عن السنجق، كما كان متوقعاً ، باحتجاجات شديدة من جانب الوطنيين السوريين وحكومات العراق ومصر والعربية السعودية . كما احتجت إيطاليا وألمانيا اللتان كان هذا الإجراء موجهاً ضدهما . ولكن لم يمكن لشئ من هذا كله أن يحول دون ضم هاتاى ، وهو الاسم الذى أطلقته تركيا على السنجق .

وقد دفع تدهور الموقف الدولى إنجلترا وفرنسا إلى زيادة قواتهما العسكرية فى الشرقين الأدنى والأوسط إلى حد كبير ، وبخاصة فى مصر وفلسطين وسوريا ولبنان ، وبذلك قللتا من احتمال القيام بأعمال معادية لبريطانيا . وإذا ما كان الهجوم السياسى الذى شنه المحور قد أدى إلى تقديم تنازلات لعرب فلسطين ، فقد ترتبت عليه نتائج سياسية فى بلدان أخرى .

كما لم يكن باستطاعة ألمانيا أن تحصل على ترضية كبيرة من تطور المواقف السياسية الداخلية فى البلدان العربية . وقد جرى تعديل وزارى فى مصر عام ١٩٣٩ — إذ تولى وزارة الحربية حسين سرى باشا بدلا من حسن صبرى باشا . وعلى حين أن حسن صبرى كان يميل إلى أن يطلب من ألمانيا أسلحة تفى بحاجات مصر العسكرية ، فإن حسين سرى كان ضد التغلغل الاقتصادى الألمانى . وكلما ازداد الخوف من نشوب الحرب ازداد النفوذ البريطانى . وكان هذا بوجه خاص هو الوضع بالنسبة إلى مصر ، حيث اشتد إحساس المصريين بالخطر الإيطالى[1] منذ الهجوم على الحبشة .

وفى فلسطين ازداد وضوح ملل الناس من الثورة التى استمرت وقتاً طويلا ، وكان على حزب الحسينى أن يضاعف لجوءه إلى العنف ضد خصومه العرب .

---

(١) رسالة أوف — فاشندورف (القاهرة فى ١٨ فبراير ١٩٣٩) كتب أوف فاشندورف فى نوفمبر ١٩٣٧ مايلى : « يبدى المصريون كثيراً من الرضى بالتحالف مع إنجلترا » .

وقد أمكن تجنب خطر تقسيم فلسطين لأن الحكومة البريطانية تخلت عن توصيات لجنة بيل فى عام ١٩٣٨ . وقبلت الحكومة البريطانية ما قررته لجنة وودهيد من حيث إن خطط لجنة بيل كانت غير عملية من الوجهة الفنية (١١ سبتمبر ١٩٣٨) وأعلنت أنه قد تقرر عقد مؤتمر مائدة مستديرة ثلاثى : بريطانى — عربى — يهودى فى لندن . وقد أدى هذا إلى تشجيع حزب النشاشيبى — خصم حزب الحسينى فى فلسطين — الذى كان يميل إلى التعاون مع بريطانيا . وحين ثبت فشل مؤتمر لندن (٢ فبراير — ١٧ مارس ١٩٣٩) أصدرت بريطانيا كتاباً أبيض فى ١٧ مايو ١٩٣٩ وعد بإيقاف الهجرة اليهودية بعد خمس سنوات ، وتحديد شراء اليهود للأراضى وإقامة دولة فلسطينية فى غضون عشر سنوات .

وفى سوريا ولبنان تصدت الصحافة المسيحية لألمانيا خلال أزمة سبتمبر ١٩٣٨ . والتزمت الصحافة الإسلامية الصمت ، وإن يكن ضم منطقة السوديت قد أثار مخاوف بعض الدوائر العربية التى اعتقدت أنه إذا كان باستطاعة إرادة أقلية تستند إلى حماية دولة قوية أن تفرض وجودها فى أوربا فإن من الممكن أن يتكرر ذلك فى العالم العربى . ولم يكن المشرق العربى يفتقر إلى مشكلات الأقليات : فهناك اليهود فى فلسطين والأكراد فى سوريا والعراق والأتراك فى الإسكندرونة — إلى غير ذلك . وقد شكا ممثلو ألمانيا من أن « السلم الجنسى الذى وضعه هتلر » ، والذى كان يخصص للعرب إحدى الدرجات الدنيا ، كان له أثر سيئ فى الشرق الأدنى . ووصل الأمر بهتلر إلى حذف نظريته عن السلم الجنسى من ترجمة كتاب كفاحى التى كان من المتوقع صدورها .

كما كان من الممكن تبين تغير فى الاتجاه فى العراق ، حيث أقام مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى اتصالات قوية مع عدد من الشخصيات الكبرى وحيث نشطت جماعات قومية عربية ذات أيديولوجية فاشية . وفى أكتوبر ١٩٣٨ توجه توفيق السويدى — وزير خارجية العراق — إلى لندن ، وقد لعبت زيارته دوراً هاماً فى التمهيد لمؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى لندن لبحث القضية الفلسطينية . وقبل أن يبارح السويدى لندن أدلى بحديث لمجلة « بريطانيا العظمى والشرق "Great Britain and the East" » أشار فيه إلى شدة اهتمام العراق بمشكلة

فلسطين وأكد أن العراق حليف لبريطانيا وأنه على استعداد لمساعدتها حين تدعو الحاجة ، وصرح بقوله : « وفى الواقع أننا منذ وقت قريب كنا على استعداد تام — فيما لو دعت الحاجة — لأن نلعب دورنا وننفذ كلمتنا » .

وكان هذا التصريح يناقض التأكيد الذى أدلى به رئيس الوزراء العراقى جميل المدفعى للمبعوث الألمانى جروبا فى ٢٨ سبتمبر ١٩٣٨ — أى فى الوقت الذى كان فيه التوتر فى أوربا قد بلغ ذروته . فقد أعلن رئيس الوزراء العراقى فى ذلك الوقت أن من المحتمل أن يلزم العراق الحياد فى حالة نشوب الحرب بين ألمانيا وإنجلترا ، وأنه بسبب تعاطفه مع ألمانيا سينتهز كل فرصة توفرها المعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا لتأجيل اتخاذ أى إجراءات ضد الريخ .

ومن المحتمل أن دكتور جروبا قد صدق هذا التأكيد ، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى قد اتبع نفس الخطة . فالعراق كانت تربطه ببريطانيا معاهدة صداقة وتبادل مساعدة كانت تلزم حكومته بأن تقدم لحليفتها أى مساعدة ترغب فيها . وكانت بريطانيا تضع يدها على القواعد الجوية فى الحبانية والشعيبة ، وكان باستطاعتها أن تؤثر فى السياسة العراقية بطريقة غير مباشرة خلال بعض الأشخاص الموالين لها . ففى أواخر عام ١٩٣٨ كان من غير المحتمل أن تجرؤ الحكومة العراقية على معارضة إنجلترا علناً فى حالة نشوب الحرب ، ومن المحتمل أن كل ما كان باستطاعتها عمله هو أن تحاول تخفيف أعباء تعهداتها .

وبرغم ذلك فإن جروبا طالب بإيضاح على أثر نشر تصريح توفيق السويدى . وقبل أن يعود الوزير كان أعضاء فى الوزارة لا يودون أن يصرحوا بشىء محدد . وبعد أن عاد السويدى أوضح المسألة لجروبا على الوجه التالى تقريباً : يقدر العراق تقديراً كبيراً التعاون مع ألمانيا بصدد مشكلة فلسطين ، ولكن كان من الطبيعى وجوب تحديد مثل هذا التعاون حين ترى إنجلترا أنه يضر بمصالحها . ولما كان العراق حليفاً لإنجلترا فقد كان عليه فى حالة الحرب أن ينفذ بالفعل ما ينصح به الإنجليز . ولكن السويدى كان يرى أن من المحتمل جداً أن تقضى

النصيحة بالمحافظة على الحياد . ومن المحتمل أنه حين أشار إلى الحياد كان يريد تخفيف الوقع الذى كان ينتظر أن يحدثه هذا التصريح فى مسالك المبعوث الألمانى . ولكن من المحتمل أنه كان يأمل أن توافق إنجلترا على حياد العراق . وبرغم ذلك لم يساور السويدى أى شك فى أن البريطانيين سيصرون، إذا مانشبت الحرب ، على أن يقطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع أعداء إنجلترا منعاً للتغلغل السياسى والجاسوسية فى المنطقة التى كانت تمر بها القوات البريطانية فى طريقها من الهند إلى فلسطين ومصر .

أما ألمانيا فإنها من ناحيتها كانت مهتمة بحياد البلدان المرتبطة بإنجلترا والواقعة فى أعماق مؤخرة جبهات المستقبل . وكان من شأن هذه البلدن أن تلعب دوراً هاماً من حيث الهيبة السياسية إلى جانب صلاحيتها فى المستقبل كقاعدة مساعدة للقيام بأعمال الجاسوسية والنشاط التخريبى فى مؤخرة العدو . والمراكز الألمانية فى لشبونة وكابول و بانكوك أثناء الحرب العالمية الثانية توفر أمثلة طيبة لهذه المشروعات .

ألمانيا والعربية السعودية

حدث قبيل مؤتمر ميونخ ، حين بحث الاحتمال الخاص بإقامة مركز ما لمساندة الجهد الحربى فى المشرق العربى ، أن اتضح فى برلين أن المراكز الدبلوماسية القائمة فى القاهرة وبغداد لا تفى بالغرض المطلوب ، بغض النظر عن القنصليتين العامتين فى القدس وبيروت اللتين لم تكونا آمنتين . وكانت العربية السعودية هى الدولة الوحيدة المستقلة رسمياً وغير المرتبطة بمعاهدة مع إنجلترا . حقيقة أن اليمن كان لا يرتبط هو الآخر بمعاهدة مع بريطانيا ، إلا أن إيطاليا كانت مهتمة بذلك القطر ، وكان الإمام غير متحمس لإقامة علاقات مع ألمانيا[١] . ولم تكن توجد أى قواعد بريطانية فى العربية السعودية . وبالإضافة إلى ذلك فبسبب وجود الحرمين الشريفين مكة والمدينة فى العربية السعودية .

---

(١) لم تتطور العلاقات بين الشركات الألمانية لصناعة الأسلحة وبين عملائها اليمنيين بشكل يبعث على الرضى .

كان من الممكن أن نتوقع اعتبار الملك ابن سعود سياسة الحياد أنسب شيء إلى بلده فى حالة نشوب الحرب ، وأن بإمكانه أن يجعل وجهة النظر هذه تسود .

ولكن يحتمل أن الموقف تأثر تأثراً حاسماً جداً بنجاح الاتصالات التى أجراها ممثلو ابن سعود مع ألمانيا فى عام ١٩٣٧ بصدد قضية فلسطين . ولما كان الحاكم السعودى غير راض عن كمية ونوع الأسلحة التى كانت تقدمها له بريطانيا ، فإنه أصبح يميل إلى شراء الأسلحة من ألمانيا. ولهذا عبر عن استعداده لإقامة علاقات دبلوماسية معها .

وخلال إقامة الشيخ يوسف آل ياسين – السكرتير الخاص للملك – وممثلين آخرين موثوق بهم فى بغداد (نوفمبر ١٩٣٧) نجدهم يستفسرون مندوبى شركة أوتو وولف عما إذا كانوا على استعداد لتزويد الملك بخمسة عشر ألف بندقية يدفع ثمنها على آجال أو نقداً . وفى نفس العام اتصل – باسم الملك – ممثل آخر لابن سعود ، وهو طبيبه الخاص الشيخ مدحت العارض (وهو سورى من دمشق) بمكتب الشئون الخارجية التابع للحزب النازى . ولكن الألمان نظروا إلى هذه الاتصالات بمزيد من الحذر .

وفى ألمانيا أشارت بعض الدوائر ، ومنها مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى ، الذى كان ينادى بمزيد من الاهتمام بالشئون العربية ، إلى أن ألمانيا لا تستطيع أن تفصح عن إعجابها بالملك برغم كونها لا ترغب فى تنمية علاقاتها الاقتصادية مع العربية السعودية ، وأنها على استعداد للترحيب بممثلى ابن سعود فى مهرجان الحزب المزمع عقده فى نورمبرج . ومن المؤكد أن هذا الحذر ربما أملاه على قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى موقف المعارضة الذى اتخذته وزارة الخارجية إزاء مختلف صفقات الأسلحة الخاصة بالشرق الأدنى ، وهى الصفقات التى اقترحها مكتب روزنبرج .

كما يحتمل أن الألمان كانوا يرغبون فى تجنب اتخاذ أى خطوات من شأنها أن تقوى هيبة ابن سعود الذى أحياناً ما كان يسعى إلى الظهور بمظهر زعيم العالم العربى بصدد قضية فلسطين . فقد كان من المحتمل أن تعنى مساندة ابن سعود إقحام ألمانيا نفسها على الصراعات العربية الداخلية ، بحكم أن الزعماء

السياسيين فى البلدان العربية الأخرى — وبخاصة العراق — كانوا قد حذروا الألمان من ابن سعود واتهموه بالخضوع لبريطانيا والاستعداد لتنفيذ كل أوامرها . بل لقد ذهبوا إلى أن معارضة الملك السعودى لقيام دولة يهودية فى فلسطين لم تكن مخلصة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحكومة الألمانية كانت متحفظة فى علاقاتها مع ممثلى ابن سعود وتمشياً مع سياستها العامة إزاء البلدان العربية . ومن المحتمل أنها لم تكن ترغب فى أن تصبح علاقاتها بذلك البلد القصى الواقع فى شبه الجزيرة العربية من العوامل الإضافية المؤدية إلى تسوىء علاقات ألمانيا ببريطانيا وإثارة شكوك إيطاليا .

وفى أوائل عام ١٩٣٨ زار ألمانيا خالد القرقينى مستشار الملك (وهو ينتمى فى الأصل إلى طرابلس الغرب) . ولم تكن هذه الزيارة هى الأولى التى يقوم بها باسم ملكه لشراء الأسلحة — إذ أنه كان قد زار وارسو فى أوائل الثلاثينات لتحقيق نفس الهدف .

وفى برلين أجرى خالد القرقينى مفاوضات عامة مع الشركات الألمانية لعب فيها مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى دور الوسيط . وقد اقترح شراء بنادق والتقدم بعروض لبناء مصنع طلقات نارية وآخر للسيارات . وعبر عن رغبة مليكه فى توظيف مهندسين وأخصائيين ألمان فى إنشاء الطرق . وقد حصل القرقينى على بعض الوعود بتزويد السعودية بالأسلحة . وهى وعود لم تكن قد نفذت بعد فى صيف عام ١٩٣٨ حين وفد إلى برلين ممثل جديد لابن سعود هو فؤاد بك حمزة (وهو فى الأصل درزى لبنانى) الذى كان حينئذ يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية السعودية . وقد أقام فؤاد حمزة فى برلين حوالى شهر (٢٣ يولية — ٢٧ أغسطس ١٩٣٨) أثار خلاله كثيراً من التساؤلات . واعتقد الألمان أن ملك العربية السعودية كان مهتماً بإقامة علاقات دبلوماسية مع ألمانيا وأنه يرغب فى أن يوجد فى بلاده تمثيل رسمى ألمانى . وثبت أن هذا الاعتقاد كان صحيحاً .

وقد قدم فؤاد بك حمزة للألمان صورة صادقة إلى حد كبير عن موقف

بلاده . وقد أكد أن سيده لم يكن يتمتع إلا بحرية محدودة فى العمل ، وبخاصة فيما يتعلق بإنجلترا . وذهب إلى أن مليكه لم يكن يستطيع أن ينساق وراء صراع مع بريطانيا ، وأن العربية السعودية سترغم على التعاون مع بريطانيا فى ظروف معينة . كما أوضح مسألة العلاقات الإيطالية – السعودية : فلم يمكن بعد التغلب على انعدام الثقة بذلك البلد ، برغم بعض التحسن الذى طرأ على العلاقات بين البلدين وتعليق الملك آماله على تلقى أسلحة من إيطاليا . وأوضح فؤاد تلك الآمال التى كان يعلقها مليكه على ألمانيا باعتبارها دولة ليست لها أية مصالح استعمارية فى العالم العربى ..

كما ناقش مع الألمان عدداً من المسائل العملية . وأمكن الوصول إلى اتفاق مع القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة حول تزويد العربية السعودية بالأسلحة ، وإرسالها – عن طريق السعودية – إلى الثوار الفلسطينيين الذين قدم بعض المال لحسابهم . ولكن يبدو أن هذا المال لم يصل وجهته على الإطلاق .

وخلال زيارة فؤاد حمزة لم تتخذ ألمانيا قراراً حول بيع الأسلحة أو اعتماد تمثيل سياسى فى جدة[1] . ولكن كان لايزال من غير المؤكد ما إذا كانت العربية السعودية ستلتزم الحياد بالفعل فى حالة نشوب الحرب . ومالم يحدث ذلك فلاشك أن ألمانيا كانت ستعتبر تقديم الأسلحة على أساس قروض طويلة الأجل أمراً لا يوجد ما يبرره . وقد رأت القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية أن تزويد ابن سعود بالأسلحة لم يكن كفيلا بتقوية مركز ألمانيا . بل إنه على العكس من ذلك سيكون فى غير صالحها. كما لم يكن من المتوقع أن تصبح الصفقة رابحة من وجهة النظر التجارية . ومن ناحية أخرى كان يخشى فى برلين أن يكون ابن سعود يود إقامة علاقات أوثق مع ألمانيا لكى يخدم هدفه الخاص بضرب البريطانيين والإيطاليين بعضهم ببعض .

---

(١) كان الممثلون الدبلوماسيون فى العربية السعودية يعيشون فى جدة وليس فى العاصمة الرياض حيث كان وجود غير المسلمين أمراً غير مرغوب فيه .

على أن مساعى ابن سعود أرغمت الحكومة الألمانية على الوصول إلى قرار ، إذ كانت تخشى أن يؤدى تجاهله إلى ارتماء العربية السعودية فى معسكر أعداء ألمانيا . وقد واصل موظفو الحزب ، وبخاصة قسم الشئون الخارجية ، ضغطهم فى سبيل القيام بنشاط فى الشئون العربية . وحين أوصل النازيون العالم إلى حافة الحرب فى سبتمبر ١٩٣٨ بإصرارهم على مطالبهم الخاصة بتشيكوسلوفاكيا ، ألح قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى بشدة فى طلب صدور قرار خاص بعلاقات ألمانيا بالعربية السعودية[١] . حينئذ تقرر عدم عقد أى اتفاق حول تقديم الأسلحة بقروض طويلة الأجل ، بل تقرر إقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية ، حتى إذا ما نشبت الحرب « يستطيع مبعوثنا إلى بغداد أن ينسحب إلى بلد محايد » . وفى سبتمبر ١٩٣٨ بلغ قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى الوزيرين المفوضين المصرى والعراقى بأن حكومة الريخ لن تتخذ إجراء انتقامياً حتى لو اضطرت حكومتاهما — إزاء الضغط البريطانى — إلى قطع علاقاتهما الدبلوماسية مع ألمانيا واتخاذ إجراءات ضد الرعايا الألمان .

ومن المحتمل أن القرار الخاص بإقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية لم يتم اتخاذه إلا لأن قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى لم ير أى احتمال آخر لإقامة قاعدة قانونية ترتكز عليها ألمانيا فى حالة نشوب الحرب . ولم تكن لهذا القرار سوى أهمية قليلة فى البداية ، لأن ثمة ما يدل على أن الألمان كانوا لايزالون قليلى الثقة فى ابن سعود . فمثلا وصلتهم أخبار مفادها أن فؤاد بك حمزة عميل بريطانى مأجور[٢] . وبهذا الصدد تم اعتراض شحنتى أسلحة كان قد جرى إعدادهما لكى ترسلا إلى الثوار الفلسطينيين — وكان من المتوخى أن تنقل إحدى

---

(١) كتب فورمان إلى ماليتكه Malletke (٢٩ سبتمبر ١٩٣٨) ما يلى : « أشكرك من كل قلبى على اقتراحك الودى المؤرخ ٢٦ سبتمبر الذى جعلنا بالفعل ننظر إلى المسألة العربية السعودية نظرة أكثر شمولا ، حتى فى خلال هذه الأيام الأخيرة من الأزمة » — فهل يمكن أن يكون هذا تهكما ؟

(٢) يفترض وات D.C. Watt أن المنافسة بين ياسين والقرقينى وحمزة كانت من وراء هذا الاتهام .
Royal Central Asian Journal, April 1963, p. 157.

هاتين الشحنتين عبر العربية السعودية وأن تنقل الأخرى بالاتفاق مع الحكومة العراقية . والذى حدث هو أن البريطانيين استطاعوا بشكل ما أن يحيطوا علماً بأمر هاتين الشحنتين ، مما جعل السلطات الألمانية لا تثق فى الملك ومبعوثيه[١] » .

رحلة جروبا إلى جدة :

فى يناير ١٩٣٩ سعت الحكومة الألمانية إلى تنفيذ القرار الخاص بإقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية . وفى ١٧ يناير طار جروبا إلى جدة عن طريق القاهرة . ومنذ ذلك الوقت كان عليه أن يقوم – بالإضافة إلى مهامه – بدور وزير ألمانيا المفوض فى جدة .

وكانت مسألة العلاقات مع ألمانيا على جانب من الأهمية بالنسبة إلى السعوديين. ولم يكن ثمة كثير من الممثلين الدبلوماسيين المعتمدين لدى العربية السعودية – إذ لم يوجد سوى ٣ دبلوماسيين يعملون فى جدة بصفة دائمة ، هم الوزير البريطانى المفوض (وهو فى ذلك الوقت سير ريدر بولارد الذى أصبح فيما بعد سفيراً لبريطانيا فى طهران) ووزير فرنسا المفوض ووزير إيطاليا المفوض سيلتى Silitti . وكان يمثل هولندة وتركيا والعراق فى السعودية قائم بالأعمال بصفة مستمرة . وكان وزير مصر المفوض فى جدة معتمداً أيضاً لدى بغداد كما كان وزير الأفغان المفوض معتمداً لدى القاهرة ، وكان كثير من نشاط هؤلاء الممثلين الدبلوماسيين يتعلق بشئون الحجاج المسلمين أثناء ترحالهم إلى مكة والمدينة – فقد كان هؤلاء الوزراء المفوضون والقائمون بالأعمال يمثلون إما دولا إسلامية أو إمبراطوريات تضم رعايا مسلمين . وكان ممثل بريطانيا يلعب دوراً سياسيًّا رئيسيًّا ، برغم أن بريطانيا كانت لديها وسائل أخرى مباشرة للتأثير على بلاط ابن سعود . ولما كان النفوذ الإيطالى

---

(١) سأل سفير بريطانيا فى بغداد رئيس الوزراء – المدفعى – عن هاتين الشحنتين . وفى مذكرة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٣٩ كتب فون هنتج ما يلى :

« . . . . . تسربت أنباء الشحنتين – وليس من المؤكد حتى الآن ما إذا كان مرجع ذلك هو ابن سعود . ومن واجبنا أن نتخلى عنهما . »

قد ازداد فى البحر الأحمر فقد أصبحت لممثلى إيطاليا أهمية سياسية أيضاً . وقد نستنتج أن إنجلترا ، التى كانت قد استطاعت بالفعل فى القرن التاسع عشر أن تفرض على الدويلات الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية لشبه الجزيرة معاهدات تحرم عليها أن تكون لها علاقات سياسية خاصة ، كانت مهتمة أيضاً بتحديد اتصالات ابن سعود بالعالم الخارجى . وكانت ألمانيا أولى الدول التى ليست لها مصلحة فى الحج إلى الأماكن المقدسة بحيث لم تكترث بتعيين ممثل لدى ملك العربية السعودية .

وفيما يتعلق بازدياد نشاط الشركات البترولية الامريكية جاءت العلاقات الدبلوماسية بين العربية السعودية والولايات المتحدة فى المقدمة ، وهذا ما أبرزته المؤسسات البترولية التى كانت لها امتيازات هناك . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تساند الاقتراح . وفى أواسط عام ١٩٣٩ قررت حكومة الولايات المتحدة أن ترسل مبعوثاً إلى العربية السعودية . وفى نفس الوقت حصلت شركة كالتكس المعنية بالموضوع على امتياز نهائى باستخراج البترول فى السعودية وازداد عدد الأمريكان بنسبة كبيرة . وبدأت كثير من البلدان تبدى اهتماماً كبيراً بالبترول السعودى . وتوقع ابن سعود أن تمكنه العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا والولايات المتحدة من موازنة النفوذ البريطانى إلى حد ما . ولما كان الملك قد بدأ يلعب دوراً هاماً بالنسبة إلى قضية فلسطين ، فإنه حاول التوسط فى علاقاته الدولية بصورة واضحة .

وفى جدة أجرى دكتور جروبا محادثات مع أعضاء الهيئة الدبلوماسية ، بادئاً بالمبعوث الإيطالى سيلّى . وقابل الملك مرتين ، كما قابل الشيخ يوسف آل ياسين ثلاث مرات فى الفترة ما بين ١٢ و ١٨ فبراير .

ونتيجة لهذه المحادثات توقعت العربية السعودية من ألمانيا أن تقدم لها التعضيد الأدبى والفنى والمادى ، على أن يكون معظمه على شكل دفعات من الأسلحة . كما رأى ابن سعود ضرورة مساندة الألمان للعرب بصدد قضية فلسطين . واقترح عقد معاهدة صداقة دائمة مع ألمانيا واتفاق تجارى لفترة محددة . كما طالب بتعضيد ألمانيا الدبلوماسى لادعاءات السعودية (العقبة ونجران) إزاء دول عربية أخرى .

وقد انصب كثير من الاهتمام أثناء المحادثات على السياسة الإيطالية . ولم ينكر الجانب السعودى عدم ثقته فى إيطاليا وعدم رضاه عن الاتفاقية الإنجليزية الإيطالية الخاصة بالمناطق الواقعة على سواحل البحر الأحمر إلى غير ذلك . ومن الواضح أن ابن سعود رأى أن الاتفاقية تحدد فرص تحركاته السياسية . ومما يجدر ذكره أن الملك السعودى قد احتج بشدة على عقد هذه الاتفاقية وأنه أصدر تصريحاً يتحدى فيه فعاليتها بعد إبرامها . ومن المحتمل أن الأمر قد وصل به إلى الخوف من التقسيم المباشر للبلدان الواقعة على البحر الأحمر ، ومن ثم اتجاهه إلى الخدعة الخاصة بإقامة علاقات مع ألمانيا . وقد أوضح الساسة السعوديون لجروبا أن العرب سيفضلون بريطانيا إذا ما ووجهوا بضرورة الاختيار بينها وبين إيطاليا . وكان مقيضاً للزعماء العرب أن يعيدوا تأكيد ذلك مرات كثيرة خلال اتصالاتهم بألمانيا فى المستقبل .

وفى مقابل تعضيد ألمانيا السياسى والمادى تعهد الملك ومستشاروه بالوقوف على الحياد فى حالة نشوب الحرب . ولقد أشاروا إلى سياسة العربية السعودية أثناء الحرب الحبشية : فبالرغم من الضغط الذى باشرته بريطانيا لم يطبق الملك الجزاءات ضد إيطاليا ، بل باع لها الطعام والأغنام والجمال . وكان ابن سعود من أول من اعترفوا بضم إيطاليا للحبشة[1] . وفى مقابل ذلك باع الإيطاليون الأسلحة إلى ابن سعود بشروط مرضية ، وقدموا له هدايا على شكل عدد من الطائرات ودربوا بعض الطيارين السعوديين على نفقتهم الخاصة وقدموا للعربية السعودية بعثة من مدربى الطيران مجاناً . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه البعثة قد سحبت فى فبراير ١٩٣٩ بناء على رغبة الملك . وبالإضافة إلى ذلك أكد الملك ومستشاروه فى محادثاتهم مع جروبا الحاجة إلى توخى السرية فيما يتعلق ببريطانيا .

وقد كان لزيارة جروبا لجدة أثر حسن عليه . وقد اقتنع بأن ابن سعود لا يمكن أن يكون صديقاً لبريطانيا أو أداة مطواعة فى يدها . وكان من رأيه أن الملك يكره الإنجليز وإن يكن يرى لزاماً عليه أن يتظاهر بصداقتهم . ولما كان جروبا قد

---

(١) فى مارس ١٩٣٧ قابل ابن سعود الوزير المفوض الإيطالى الجديد باعتباره ممثلا لملك إيطاليا وإمبراطور الحبشة ، ولكنه اعترف بالضم بشكل ضمنى فى مذكرته المؤرخة ٢٢ نوفمبر ١٩٣٨ .

أكد من قبل أهمية البلدان العربية والقومية العربية بالنسبة إلى سياسة ألمانيا ، فإنه ضاعف جهوده فى ذلك الوقت لكى تقوم ألمانيا بنشاط فيما يتعلق بالشئون العربية .

وقد اقتنع جروبا من مناقشاته مع ابن سعود وغيره من القادة العرب بأن لدى الألمان فى العربية السعودية وبلدان عربية أخرى فرصاً تفوق فرص إيطاليا التى اعتبرها العرب أضعف من إنجلترا . هذا إلى أن العرب كانوا يخشون المحاولات الاستعمارية التى كانت تقوم بها إيطاليا . وقد أشار جروبا فى تقريره إلى ما رآه المبعوث الإيطالى سيلتى من أن لدى الألمان فى العربية السعودية فرصاً تفوق فرص إيطاليا .

كما استطاع جروبا فى العراق أن يتعرف على علاقات الساسة العرب بإيطاليا ، وبخاصة فى الفترة التالية لميونخ . وفى نوفمبر ١٩٣٨ قدم حكمت سليمان — رئيس وزراء العراق السابق — لجروبا خطة القيام بانقلاب موال لألمانيا وتركيا فى العراق[١] ورأى هذا السياسى الذى نشأ على كره الإنجليز وحب تركيا أن مثل هذا الانقلاب لم يكن ممكناً إلا إذا منحت تركيا ضمانات ضد التوسع الإيطالى — إذ أن الخوف من مثل هذا التوسع قد جعل تركيا تميل إلى الإبقاء على علاقات ودية مع فرنسا وبريطانيا . ولهذا كان من رأى حكمت سليمان أنه إذا كانت ألمانيا تريد أن تجرى تغييراً فى سياسة إيطاليا ، فباستطاعتها أن تعمل على أن تكون لها آثار ناجحة فى العراق أيضاً . وفى فبراير ١٩٣٩ نقد وزير خارجية العراق بالوكالة رستم حيدر — وهو شيعى من أصل سورى — فى محادثة له مع جروبا ، الاتجاه الذى اتخذته الصحافة الألمانية إزاء إيطاليا وسياستها . وقد أكد حيدر أن العرب يشعرون بأن ألمانيا تسند سياسة إيطاليا فى البحر المتوسط ولا تعير التفاتاً للأمانى العربية . وذهب إلى أن الحكومة العراقية غير مهتمة بمصائر تونس أو المستعمرات الإيطالية فى شمالى أفريقيا — ولكنها تهتم بمصير سوريا وفلسطين .

وجاءت دلائل مشابهة من مصر . ففى نوفمبر ١٩٣٨ أشار وزير ألمانيا المفوض

---

(١) ليس من المؤكد إذاً أن اتهام نورى السعيد الذى وجهه فى ٦ مارس ١٩٣٩ — ومفاده أن حكمت سليمان وغيره كانوا يدبرون مؤامرة ضد الحكومة العراقية — كان لا يستند إلى أساس ، وهو ما يذهب إليه مجيد خضورى : (Independent Iraq, London, 1960, 137-40) . انظر أيضاً صلاح الدين الصباغ : فرسان العروبة فى العراق (دمشق ١٩٥٦) ص ٧٤ وما بعدها .

فى القاهرة إلى أن من الممكن دعم اتجاهات مصر الحيادية بالتأثير الملائم على الرأى العام الذى كان من الواضح أن السياسة الإيطالية تقلقه .

ونستنتج من هذا كله أنه كان على الألمان أن يتحملوا نتائج اتجاه العرب السلبى إزاء إيطاليا وأن إمكانيات الألمان فى العالم العربى كانت تستند بطريق غير مباشر إلى موقف الإيطاليين . وسنرى أن موقف إيطاليا كان له أثر مباشر على السياسة الألمانية .

ولم يشارك القسم السياسى السابع ورؤساء قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى آراء جروبا الخاصة بتدعيم العلاقات مع ابن سعود . وقد بلغ قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى جروبا أن ألمانيا لم تكن مهتمة بتوثيق علاقاتها مع ابن سعود بسبب علاقته الغامضة بإنجلترا . وأهم من هذا أن الرسميين فى برلين كانوا يروجون أن ألمانيا لا تستطيع أن تتعهد بتزويد العربية السعودية بالأسلحة لأن بلدان شبه الجزيرة العربية كانت تدخل فى دائرة المصالح الإيطالية . وكان للاتجاه الخاص بمراعاة موقف إيطاليا تأثير أقوى من ذلك فيما يتعلق بعلاقات إيطاليا باليمن . فقد قابلت إيطاليا محاولات ألمانيا التغلغل الاقتصادى فى اليمن بكثير من عدم الرضى . ومن هنا فما حل أبريل ١٩٣٩ حتى ساد الرأى فى قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى بألا مجال لأى تغيير فى السياسة إزاء العربية السعودية[١] .

المفاوضات حول تزويد العربية السعودية بالأسلحة

وبرغم ذلك فقد تغير الموقف بعد وقت قصير لدرجة أن ألمانيا وضعت حداً لترددها إزاء التدخل فى شئون البلدان العربية ، وبخاصة فيما يتعلق بالعربية السعودية . وفى مارس ١٩٣٩ خرق هتلر قرارات مؤتمر ميونخ : فقضى على دولة تشيكوسلوفاكيا الممزقة وتقدم إلى بولندة بمطالب متشددة . وقد أدى هذا إلى تقديم بريطانيا ضمانات لبولندة ، وازدياد تدهور العلاقات الإنجليزية — الألمانية.

(١) وبرغم بعض التردد فإن الحكومة الألمانية قررت فى النهاية ألا تبيع الأسلحة لليمن .

وفى أبريل غزا الإيطاليون ألبانيا . ووجه الرئيس روزفلت رسالة طلب فيها أن تضمن ألمانيا عدم تعرض ٣٠ دولة معينة للعدوان . وفى ٢٨ أبريل ألقى هتلر خطبة عنيفة فى الريخشتاج اشتد فيها فى مهاجمة السياسة البريطانية إزاء فلسطين وتناول سياسات الدول الغربية فى البلدان العربية . حينئذ سارعت إنجلترا وفرنسا إلى التوصل إلى اتفاق مع تركيا . وفى ١٢ مايو صدر تصريح إنجليزى — تركى ، وبعد ستة أسابيع صدر تصريح فرنسى — تركى .

وفى أبريل ١٩٣٩ توجه أوتو فون هنتج — مدير القسم السياسى السابع — إلى فلسطين والعراق[١] بعد زيارة أطول إلى مصر . وقد أدت هذه الرحلة إلى إجراء بعض التغيير فى وجهات نظر الحكومة الألمانية إزاء تدعيم العلاقات مع العربية السعودية[٢] .

ومن الواضح أن فرتز جروبا أثار من جديد — فى رسالة بعث بها فى ٢ مايو إلى قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى — مسألة مطالب ابن سعود ، وذلك بعد أن شعر — على أثر محادثاته مع فون هنتج — بأن ثمة احتمالا لتغير اتجاه ألمانيا إزاء العربية السعودية . وقد أشار من جديد إلى اعتقاده بعداء الملك لإنجلترا من حيث المبدأ ، وأكد احتمال استعمال الأراضى السعودية ذات الأهمية الاستراتيجية فى الحرب القادمة . وفى هذه المرة سمح فورمان لنفسه بأن يقتنع وقد ورد ذلك فى تعقيب بخط يده على هامش رسالة جروبا .

ولهذا فما حل ربيع ١٩٣٩ حتى كان المسئولون بوزارة الخارجية الألمانية قد وافقوا على الأقل لدرجة ما — على وجهات نظر مكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى التابع لروزنبرج ، وبإمكاننا أن نستنتج أسباب هذا التغير من مذكرة هنتج المؤرخة ٢٢ مايو . ففى مذكراته الرسمية حدد فون هنتج الموقف فى الشرقين الأدنى والأوسط على الوجه التالى : (١) لا توجد احتمالات للنشاط الألمانى فى مصر والعراق وفلسطين وسوريا . فمصر والعراق كانتا فى صف إنجلترا ، وكانت

---

(١) لا يشير فون هنتج فى مذكراته Mein Leben, eine Dienstreise (حياتى — رحلة خدمة) ، ص ٣٢٩ ، إلا إلى رحلته إلى فلسطين .

(٢) ادعى جروبا أنه أقنع فون هنتج .

الحركة الوطنية في فلسطين مشلولة ، على حين أن العرب السوريين كانوا عاجزين عن اتباع سياسة مستقلة (ب) لن يكون باستطاعة ألمانيا أن تستعمل الأراضي التركية لمهاجمة المواصلات البريطانية صوب الهند عبر العراق وفلسطين ، وذلك بسبب اتفاق حكومة أنقرة مع الدول الغربية (ج) لم يعد الملك ابن سعود يعتمد على المعونة البريطانية ، إذ أصبح له دخل ثابت يقوم على حصته من شركة كالتكس نظير استغلالها للبترول في منطقة الخليج . (د) ليست لدى إيطاليا فرصة طيبة للقيام بنشاط في العربية السعودية بعد أن رحلت عنها بعثة الطيران الإيطالية .

وفي خلال الحرب العالمية الأولى كان من نتيجة تحالف ألمانيا مع الباب العالي أن توفرت لها فرص النشاط العسكري والسياسي ضد دول الوفاق في الشرق . ولكن حين اتضح — قبيل الحرب العالمية الثانية — أن تركيا على الأقل ستكون محايدة كان من الواجب البحث عن إمكانيات أخرى لضرب المواصلات البريطانية مع الهند من الجنوب . وكان يبدو أن مثل هذا الاحتمال متوفر في شبه الجزيرة العربية . فمثلا كان بإمكان الألمان أن يفكروا في أن يقيموا هناك قواعد تموين للغواصات القادرة على مهاجمة السفن البريطانية في المحيط الهندي والخليج . وإذا كان فورمان قد استجاب لإقناع جروبا له بأهمية العلاقات مع ابن سعود لأسباب سياسية وعسكرية ، وبالحاجة إلى تجنب الارتجال أثناء الحرب ، بل «أن يوطد الآن في هدوء وسلام» مركز ألمانيا هناك ، فمن المحتمل جداً إذاً أنه كان يضع نصب عينيه هذه الفرص .

ولابد أن عقد اتفاق بين الدول الغربية وتركيا قد أيد وجهة نظره هذه ، ويبدو هذا في مذكرات موظفي قسم الشئون الخارجية بالحزب النازي باعتباره السبب الرئيسي في تعديل السياسة الخاصة بالعربية السعودية . فقد اضطرت ألمانيا إلى اتخاذ هذا الموقف بسبب الوضع غير الملائم الذي واجه الرايخ في شرقي البحر المتوسط وفي البحر الأحمر . وتؤكد هذا تقارير السفير الألماني في أنقرة — فون بابن — والسفير البريطاني سير هيو ناتشبل هوجسن Hugh Knatchbull-Hugessen

وقد ذكر أتوليكو Attolico — سفير إيطاليا في برلين — في تقاريره التي أرسلها إلى شيانو أنه برغم أن ألمانيا كانت في وضع يمكنها من الضغط على تركيا ، فمن

المحتمل أن تكون النتائج موضع شك . كان بإمكان ألمانيا أن تستغل إرسال جزء كبير من الصادرات التركية إليها وأن عدداً كبيراً من الأساتذة والخبراء والمدربين الألمان — بما فى ذلك بعثة عسكرية — كانوا يلعبون مثل هذا الدور الكبير فى شئون تركيا المدنية والعسكرية . وبرغم ذلك فقد كان بإمكان إنجلترا أن تحل محل ألمانيا فى المجال الاقتصادى وأن تحل فرنسا محلها فى المجال العسكرى . وفى ظل هذا الوضع ، حددت الحكومة النازية موقفها . إذ أن بريطانيا كانت تجرى وراء « ربط تركيا بسياسة تطويق ألمانيا[1] » وبرغم ضعف احتمال القيام بعمل فعال ضد بريطانيا من المنطقة الواقعة جنوب تركيا ، فقد قررت ألمانيا انتهاز الفرصة .

وأصبح بالإمكان إدراك تغير اتجاه الحكومة الألمانية من العربية السعودية حين قام خالد القرقينى برحلة أخرى إلى برلين فى مايو ١٩٣٩ . وفى هذه المرة أجرى مستشار ابن سعود محادثات ليس فقط مع ممثلى وزارة الدفاع الألمانية ومكتب الشئون الخارجية بالحزب النازى والشركات الألمانية ، بل إنه قابل كذلك كبار قادة الريخ .

وقابل ريبنتروب القرقينى فى ٨ يونية . وإلى جانب تبادلهما الآراء بوجه عام ، ناقشا شحنات البنادق والمدافع المضادة للطائرات والعربات المصفحة ، بالإضافة إلى بناء مصنع للذخيرة فى العربية السعودية . وقد أكد مبعوث ابن سعود أن تحقيق هذه الرغبات التى عبر عنها الملك من شأنه أن يخفف اعتماده على إنجلترا . وعبر ريبنتروب عن عطف ألمانيا على العرب وفوض فون هنتج[2] القيام بمزيد من المفاوضات حول تزويد السعودية بالأسلحة .

وفى ١٧ يونية استقبل هتلر القرقينى فى أوبرسالزبورج . واستفاض الفوهرر فى تعبيره عن عطفه على العرب ، وقال إن هذا العطف قد بدأ لديه أثناء طفولته ،

---

(١) كان من رأى الكلونل رود Rohde — الملحق العسكرى الألمانى بأنقرة — أنه لا يجب فقط اعتبار حلف تركيا مع الدول الغربية ضاراً بألمانيا ، بل يجب أيضاً اعتباره ضاراً بحياد تركيا .

DGFP, VI, p. 406

(٢) أجلت مقابلة القرقينى مع ريبنتروب إلى ٨ يونية بسبب زيارة شيانو والأمير بول الوصى على عرش يوغسلافيا إلى برلين .

وأعلن استعداده لأن يقدم « المساعدة الفعاله » للسعوديين . وقدم القرقيني لهتلر رسالة شخصية من ابن سعود .

وبحلول ذلك الوقت لم يعد واضعو السياسة الألمانية يكترثون كثيراً بتسوىء علاقة ألمانيا ببريطانيا بشكل لا تدعو إليه الحاجة ، ولكن كان عليهم أن يضاعفوا مراعاتهم لوجهة النظر الإيطالية . وكانت قد جرت بالفعل محادثات مع إيطاليا حول مسألة تزويد اليمن بالأسلحة ، وهو ما كانت الشركات الألمانية تزمع القيام به . وفي هذه المحادثات أكد الإيطاليون أن اليمن يقع فى منطقة نفوذهم ، وقطعت المفاوضات بين ألمانيا واليمن برغم التحفظ الألمانى الخاص بأنه لم يكن باستطاعة ألمانيا أن تتخلى عن نشاطها فى اليمن . على أنه لم تترتب على هذا التحفظ أية خطوات محددة من الناحية العملية . وفيما يتعلق بالسعودية اعتبر الألمان توسعهم فى هذا القطر مسألة مفتوحة على الأقل ، برغم اقتناعهم بأن عليهم أن يتصلوا بالحكومة الإيطالية قبل أن يتعاونوا مع ابن سعود بالفعل . ولم يساورهم الشك فى أن إيطاليا لن تبلغ بسرعة بأى صفقة تعقد فى المستقبل مع الملك السعودى »

وخلال الزيارة التى قام بها الكونت شيانو إلى برلين بمناسبة توقيع « ميثاق الصلب » فى ٢١ — ٢٣ مايو ، بلغ فورمان السفير بوتى Btui بأن العربية السعودية قد قامت بكثير من المحاولات لشراء الأسلحة فى ألمانيا ، وأشار إلى مزايا إقامة علاقات ودية مع ابن سعود فى حالة نشوب الحرب . وحين سئل السفير الإيطالى صراحة عن موقف إيطاليا من هذه المسألة أجاب بأن القرارات الخاصة بمثل هذه المسائل كان يتخذها وزير الخارجية شخصياً ، ولكنه أفصح عن رأيه الخاص بوجوب تعهد الشركات الإيطالية بتزويد العربية السعودية بالأسلحة . كما اعتبر بوتى التسابق على كسب ود الملك السعودى أمراً غير مرغوب فيه. وحينئذ وعد فورمان بأن تناقش ألمانيا هذه المسألة مع الإيطاليين بالطرق الدبلوماسية .

وفى ١٠ يونية ، أى مباشرة بعد المقابلة التى تمت بين القرقيني وريبنتروب ، وجه فورمان رسالة إلى سفير ألمانيا فى روما أشار فيها إلى المحادثة التى تمت بينه وبين بوتى وفصل رغبات ابن سعود وأوضح السبب الذى دعا الإيطاليين إلى التخلى عن صفقة الأسلحة المزمع إجراؤها مع السعودية لصالح شركائهم الألمان . وذكر

فورمان بإنهاء البعثة الجوية الإيطالية فى العربية السعودية وأشار إلى المحادثة التى جرت بين جروبا وسيلّى فى جدة وهى المحادثة التى ادعى فيها الأخير أن ألمانيا كانت لديها فرص فى تلك البلاد تفوق فرص إيطاليا . وهكذا اقترح وجوب إعلان إيطاليا ألا دخل لها بالصفقة المزمع عقدها بين ألمانيا والسعودية .

على أن الإيطاليين لم يتحمسوا لاتخاذ موقف نهائى . حين احتمل انهم كانوا غير راغبين سواء فى الموافقة أو فى الرفض لأن الصفقة المعنية كانت صغيرة نسبيًّا . وبعد إنهاء البعثة الجوية لم تتحسن العلاقات الإيطالية ــ السعودية بصورة ناجحة . ثم إن اختيار القرقينى مبعوثاً إلى ألمانيا فى الوقت الذى اتضح فيه توثيق العلاقات بين دولتى المحور ، كان من الممكن تفسيره على أنه يعبر عن اتخاذ الحاكم السعودى موقفاً معادياً من إيطاليا . فالقرقينى كان طرابلسيًّا اشترك فى محاربة الإيطاليين ولم يخف عداءه لإيطاليا أثناء محادثاته مع الألمان .

وجرت محادثات روما على مستوى أدنى . ولم يستطع جوارنا سلى Guarnachelli نائب السفير بوتى ــ أن يقدم لمستشار السفارة الألمانية ــ فون بليسن Von Plessen إجابة واضحة . وبرغم أن جوارنا سلى أبدى تحفظاً فحواه أنه لا يبدى آراء شخصية ، فإنه تكلم عن اهتمام إيطاليا الخاص بالعربية السعودية وللمنجزات الإيطالية الكبرى فى ذلك القطر ، وانتهى بتوضيحه أن إيطاليا ذاتها كانت تتفاوض فى أمر بيع الأسلحة . وقد التقت آراؤه مع الآراء التى عبر عنها بوتى خلال محادثاته مع فورمان .

وفى غضون ذلك قابل هتلر القرقينى . وألحت برلين على سفيرها فى روما لكى يحصل على قرار ، ولكن الإيطاليين أجلوا إجابتهم انتظاراً لوصول سيلّى الذى كان عليه أن يقدم تقريراً عن هذه المسألة . ولم يكن ثمة جدوى لمزيد من الإلحاح . ولم يصل رد إيطاليا حتى ١٤ يولية حين انتهت المفاوضات مع القرقينى من حيث المبدأ ولكن لم يسدل عليها الستار . حينئذ ساد الاعتقاد لدى الرسميين الألمان الذين كان يعنيهم الأمر بوجوب إنهاء هذه الصفقة مع القرقينى دون اعتبار الموقف إيطاليا .

وقدم ماجستراتى لفورمان رد إيطاليا . ولم تكن لدى الحكومة الإيطالية اعتراضات

على الصفقة الألمانية — السعودية المقترحة ، ولكنها لم تكن ترغب إلا فى الإشارة إلى ضرر التنافس بين البلدين فى العربية السعودية . وقد أوضحت الألمان أن شركة سنا SANA الألمانية كانت نشطة فى جدة ، واقترحت أن تفيد ألمانيا من خدمات هذه الشركة فى علاقاتها مع البلدان العربية الواقعة على البحر الأحمر . وبهذا لمحت بوضوح إلى أن هذه البلدان تقع فى منطقة النفوذ الإيطالى من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وقد يكون من المناسب بهذا الصدد أن نلمح إلى تصريح هتلر خلال زيارة شيانو لبرلين — فقد صرح بأنه يعترف بسيطرة إيطاليا على منطقة البحر المتوسط .

وقد رفض فورمان توسط شركة سنا قبل أن يجرى مناقشة أساسية لادعاءات إيطاليا .

كما عبر الكونت ماجستراتى عن اعتراض حكومته على شخصية مبعوث ابن سعود — خالد القرقينى — الذى أبدى عداءه لإيطاليا حين كان لايزال فى ليبيا . وقد هدأ فورمان محدثه بالإشارة إلى اتجاه القرقينى المعادى لبريطانيا ، وأكد له أن السعوديين لن يستعملوا السلاح إلا ضد البريطانيين .

لهذا لم يكن لموقف إيطاليا أى أثر جذرى على مجرى الأحداث خلال المفاوضات التى جرت مع القرقينى . ولم يؤد إلا إلى بعض التأخير فى الوصول إلى اتفاق نهائى . ولكن لا يجب أن نقلل من أهمية هذا الموقف حتى وإن يكن قد اتخذ هذا الشكل: فالمفاوضات قد جرت قبل اندلاع الحرب بوقت قصير ، ولهذا وضعت العراقيل أمام الصفقة . وقد ووجه النازيون باختيار أحد طريقين صعبين فيما يتعلق بسياستهم العربية التى سببت لهم قلقاً شديداً منذ ذلك الوقت . فمن ناحية كان يواجههم كره العرب العميق لإيطاليا الفاشية وهى أوثق حلفائهم ، ومن ناحية أخرى كانوا يواجهون عدم ترحيب إيطاليا بالعمل الألمانى المستقل ، فى تلك المنطقة التى اعتبرتها منطقة نفوذ خاصة بها .

وقد أبدى الألمان استعدادهم لإرضاء ابن سعود أثناء محادثاتهم مع القرقينى . وفى النهاية عرضت ألمانيا قروضاً مقدارها مليون ونصف مليون مارك (١٢٥,٠٠٠ جنيه) لشراء ٨,٠٠٠ بندقية و ٨ ملايين طلقة ولبناء مصنع صغير للخراطيش .

وطالب السعوديون بقرض قدره ٦ ملايين مارك ، كما طالبوا بأن تخصص لهم أسعار خاصة . وبرغم رفض طلب العراق الخاص بشراء أسلحة على أن يتم دفع ثمنها على آجال طويلة ، فإن القيادة العايا للقوات الألمانية المسلحة عرضت فى ذلك الوقت على ابن سعود أن تهديه عدداً من البنادق . ولما كان بعض المسئولين الألمان قد أوضحوا الصعاب التى تعترض إجراء الصفقة ، فقد ساند كاناريس الاقتراح بشدة باسم القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية .

وقد تمت الصفقة فى ١٧ يولية على شكل خطاب وجه إلى القرقينى مكتوباً على ورقة عادية غفل من الإمضاء . وقد اشتملت على ثلاث نقاط هى :

١ — أبدت حكومة الريخ استعدادها للتعبير عن عطفها على العربية السعودية بتزويدها بالبضائع .

٢ — تعهدت حكومة الريخ بأن تقدم لابن سعود هدية قدرها ٤,٠٠٠ بندقية من آخر طراز نصفها من النوع ذى الخزان بالإضافة إلى ٢,٠٠٠ خرطوشة لكل قطعة .

٣ — الموافقة على أن يطلب الملك الأدوات الحربية ، على الحساب ، من المؤسسات الألمانية بما قيمته ٦ ملايين مارك : وتقرر أن يتم الدفع على سبعة أقساط سنوية ، والتزم ابن سعود بأن يدفع القسط الأول عقب تسلمه الشحنة الأولى . وبهذه المناسبة تخلت ألمانيا أيضاً عما اعتادته فترة طويلة من حيث تلقى قسط كبير من الثمن قبل قبول الصفقة . وقد ألحقت بالرسالة قائمة طويلة من المواد الحربية . ومن المحتمل جداً أن جزءاً كبيراً من الأسلحة المهداة كان مخصصاً لفلسطين حيث كانت الثورة قد خمدت .

وكان من الممكن ألا تجرى هذه الصفقة ، إذ نشبت الحرب بعد حوالى ستة أسابيع ، وأصبح تصدير الأسلحة إلى موانى البحر الأحمر من الصعوبة بمكان . هذا بالإضافة إلى التغيرات الأخرى التى طرأت على هذه المسألة نتيجة للحرب .

علاقة ابن سعود بإنجلترا

قد يبدو أن ملك العربية السعودية — بعكس حكومتى مصر والعراق — كان قليل الاهتمام بموقف إنجلترا من اتصالاته بألمانيا . ومما لاشك فيه أن ابن سعود كان يرغب فى استغلال اطراد سوء العلاقات بين إنجلترا وألمانيا . وبرغم ذلك فحين أرسل مستشاره إلى برلين كان يرغب فى ألا تثير هذه الرحلة سوى قليل من الانتباه وأن يحاط ما تقوم به بالسرية . وقد لفت القرقينى نظر الألمان إلى هذا وكرر جروبا ذلك فى رسائله التى بعث بها من بغداد .

ولكن كان من الصعب فى ظروف الموقف الدولى القائم توقع ألا يلاحظ أحد رحلة القرقينى وبخاصة استقبال هتلر له . وقد خصصت وكالة رويتر لهذه الزيارة برقية بتاريخ ١٩ يونية كما أذاعت محطة إذاعة بارى تعليقاً عليها . وذهب الكتاب فى هذه المحطة الإيطالية إلى أن البلدان العربية تعتقد أن هتلر والقرقينى قد ناقشا شئون فلسطين وأن البريطانيين يعلقون أهمية كبرى على الحادثة . وقد نشرت جريدة الديلى إكسبريس اللندنية ما اعتقده مراسلها فى القاهرة من أن القرقينى قد أجرى مفاوضات بصدد امتيازات البترول . وقد نقلت جريدة « المقطم » القاهرية الهامة والمعتدلة وصحيفة « البلاد » البغدادية أخباراً مشابهة . وخشيت الدوائر الحكومية العربية ، وبخاصة فى العراق ، أن تزداد هيبة ابن سعود وأن يقوى مركزه فى العالم العربى .

وفى ٣٠ يونية ساندت جريدة « المراسل الدبلوماسى الألمانى "Deutsche diplomatische Korrespondenz المطالب القومية العربية بصيغة عامة خلال تعليقها على محادثة هتلر — القرقينى .

وكان من الطبيعى أن ينشر القرقينى نفياً لما سبق ذكره — إذ ذهب إلى أنه زار ألمانيا لأسباب تتعلق بصحته . ولكن لم تنته المسألة بنشر هذا النفى من جانب وكالة رويتر ومكتب الاستعلامات الألمانى . واحتج ابن سعود عن طريق مبعوثه فى بغداد على قيام الإذاعة الألمانية بإفشاء خبر زيارة القرقينى ، وأكد الملك أنه يرغب فى المحافظة على صداقة الجميع وأنه لا يود أن يستعمل الألمان . العربية

السعودية ضد إنجلترا . وقد اعتبر هذه الحادثة من الأهمية بحيث فكر (أو على الأقل أخبر الألمان أنه فكر) فى احتمال إلغاء صفقة الأسلحة المعقودة مع ألمانيا . وإن انتقال اعتراضات القرقينى على الدعاية التى قامت بها الإذاعة الألمانية إلى بلدان المشرق العربى لما يلقى ضوءاً كذلك على اتجاه الملك .

ونتيجة لهذه الاحتجاجات رجا الألمان الحكومة الإيطالية أن تتناول صحافتها المسألة بمزيد من التحفظ . كما تجنبت الصحافة الألمانية أى مناقشة مستفيضة لزيارة القرقينى .

ونستنتج مما سبق أن ابن سعود – شأنه فى ذلك شأن الساسة العرب فى بلدان أخرى – كان يتجنب اتخاذ أى اتجاه يؤدى إلى سوء العلاقات بينه وبين إنجلترا ، ولكنه استباح لنفسه أن يعقد صفقة أسلحة سرية مستغلاً بعد بلده وضعف شبكة المعلومات البريطانية فيها . وكان ابن سعود بحاجة مستمرة إلى الأسلحة – إذ كان باستمرار يواجه المشكلة القائمة والخطيرة المتعلقة بالمحافظة على النظام وإرغام السكان على الطاعة . وكان يكفى أن تشعر قبيلة أو أخرى بضعف قوات الملك حتى تتحفز للتمرد .

ومما لاشك فيه أن الاستياء من بريطانيا كان يزداد فى البلدان العربية . فبالإضافة إلى قضية فلسطين كانت توجد الرغبة المتزايدة فى الاستقلال عن الدول الغربية . كما لا نستطيع أن ننكر أن ازدياد ضغط المحور على المجال الدولى قد قوى الاتجاهات المعادية لبريطانيا وفرنسا . ولكن البلدان العربية أبدت حذراً شديداً فيما يتعلق بتقوية علاقاتها بأعداء إنجلترا وفرنسا . ولم ينطبق هذا فقط على اتصالات العرب بإيطاليا التى كانت البلدان العربية تعلم أنها أضعف من إنجلترا وفرنسا والتى أثارت العداء والشك بسبب مشروعاتها الاستعمارية . بل أيضاً على ألمانيا ، برغم أن قوة ألمانيا النازية كانت قد أثارت إعجاب العرب وكذلك الحال بالنسبة إلى هتلر الذى أرغم الإمبراطورية البريطانية ، التى كانت مهيبة الجانب حتى ذلك الوقت ، على تقديم بعض التنازلات . ولكن ألمانيا كانت بعيدة عن العالم العربى حيث كان بالإمكان الإحساس عن كثب بقوة إنجلترا وفرنسا .

وبرغم هذه الظروف غير المواتية فقد استطاع الإيطاليون أن يسجلوا فى البلدان

العربية بعض النجاحات التى كانت ثمرة جهود متواصلة — فقد استطاعت إيطاليا أن تعقد صلات وثيقة مع مفتى القدس والبلاط الملكى المصرى[١].

وقد سبق أن رأينا أن حكومة الريخ قد تجنبت لفترة طويلة القيام بمزيد من النشاط فى البلدان العربية خشية أن يؤدى ذلك إلى إساءة علاقاتها ببريطانيا. ولكن هذا الاتجاه أخذ يتغير حين نشبت أزمة تشيكوسلوفاكيا ، وإن تكن السياسة الجديدة قد تشكلت ببطء ولم تتكشف بكاملها قبل اندلاع الحرب. وكانت الاتفاقية الخاصة بتقديم الأسلحة إلى العربية السعودية من الثمار القليلة الأولى والمتواضعة لهذا الاتجاه الجديد . حقيقة إنها فى ذلك الوقت لم تتعد محاولات القيام بمناورات ، إلا أن ألمانيا ووجهت تماماً بمشكلة جديدة — إذ كان يجب أن تنسجم كل خطوة جريئة بصدد العالم العربى مع وضع إيطاليا .

(١) لاحظ الكونت شيانو فى مذكراته (٢٢ فبراير ١٩٣٩) أن البلاط المصرى قد طلب تعضيد المحور له ضد بريطانيا.

الفصل التاسع

اندلاع الحرب

الحلفاء والبلدان العربية

فى أول سبتمبر ١٩٣٩ غزت ألمانيا بولندة ، وفى ٣ سبتمبر أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا . وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية التى كان مقيضاً للمعارك التى نشبت أثناءها أن تواجه بريطانيا بمشاكل عسكرية وسياسية خطيرة فى الشرقين الأدنى والأوسط . ولكن لم تبد سوى قليل من الصعاب خلال الشهور الأولى من الحرب . وشأن كل البلدان الواقعة تحت الحكم البريطانى أو الفرنسى المباشر ، أصبحت سوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن بصورة آلية طرفاً فى القرارات الدولية التى اتخذتها هاتان الدولتان . فالعراق ومصر كانت تربطهما بإنجلترا معاهدتان تنصان على إمكان استعمال أراضيهما حين يتطلب الموقف . حقيقة إن العربية السعودية لم ترتبط بمعاهدة مشابهة ، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تواجه إنجلترا بالمعارضة الصريحة ، بحكم أن الأسطول البريطانى كان يسيطر على البحر الأحمر والخليج العربى ، وأن بريطانيا كانت لها قواعد جوية فى العراق ومصر وعدن .

ولكن الدوائر السياسية العربية لم تبد كثيراً من الحماسة لقضية الحلفاء . وقد أحس العالم العربى بالارتياح لأن إيطاليا ظلت على الحياد ولأن خطر العمليات الحربية كان بعيداً عن الشرقين الأدنى والأوسط . حقيقة لقدصدرت تأكيدات رسمية بأن العرب يناصرون قضية الديمقراطية وأنهم كانوا يرتبطون بالتحالف المعادى لهتلر ارتباطاً يقوم على الأهداف والمثل المشتركة ، وأن المكان الطبيعى للبلدان العربية يجب أن يكون إلى جانب بريطانيا — إلى غير ذلك . ولكن كان يكمن وراء هذه التأكيدات الحماسية الاعتقاد بأن من الخطأ فى ظل الظروف القائمة أن يتصدى أحد لإثارة غضب بريطانيا أو فرنسا .

وبرغم أن مسرح الحرب كان بعيداً عن شرقى البحر المتوسط ، فإن موقف الحكومات المحلية ونشاط الجماعات السياسية فى المشرق العربى كانا موضع اهتمام إنجلترا وفرنسا . ففرنسا كانت قد حشدت جيشاً كبيراً فى سوريا ولبنان ، تحت قيادة الجنرال ڤيجان ، ولما كانت مصر تشكل القاعدة الرئيسية لكل نظام بريطانيا العسكرى فى الشرق الأوسط ، فقد كانت لموقفها أهمية خاصة . وكما هو الحال بالنسبة إلى فلسطين نجد إنجلترا تحتفظ فى مصر بقوات وافرة العدد ، كما نجدها تهتم إلى حد ما بضمان تعاون القوات المحلية . وكانت أهمية العراق بالنسبة إلى بريطانيا تكمن فى موارده البترولية الكبيرة وموقعه الاستراتيجى قرب آبار البترول الإيرانية مباشرة وعلى الطريق البرى الممتد من رأس الخليج العربى إلى فلسطين . وفى ظل ظروف الحرب كان بإمكان هذا الطريق أن يصبح خط المواصلات الرئيسى بين الهند ومصر وتركيا . وبالإضافة إلى ذلك يجب علينا أن نذكر أن بريطانيا وفرنسا وقعتا فى أكتوبر ١٩٣٩ معاهدة تحالف مع حكومة أنقرة نصت على وقوف تركيا إلى جانبهما فى حالة نشوب الحرب فى البحر المتوسط . وكان خط أنابيب بترول العراق يصب فى حيفا بفلسطين وفى طرابلس بسوريا ، وكان يوجد فى حيفا معمل تكرير جديد . وعلى حين كانت توجد خلافات فى الرأى لدى الدوائر الحكومية والعسكرية البريطانية حول ضرورة إرسال حملة عسكرية إلى فرنسا ، فقد كان ثمة إجماع على الحاجة إلى قوات عسكرية كبيرة نسبياً فى الشرق الأوسط . وفى الواقع لقد وضعت خطة لتدعيم الحاميات البريطانية فى تلك المنطقة قبل نشوب الحرب . وعين الجنرال سير أرشيبالد ويڤل قائداً عاماً للقوات المسلحة المعسكرة فى المنطقة . وكان الدافع وراء كل هذا هو الخوف من زحف إيطاليا من ليبيا ونشوب القلاقل فى البلدان العربية .

ولما تبين رؤساء أركان الحرب البريطانيون أن انتصار ألمانيا على بولندة أمر مؤكد ، فإنهم توقعوا هجوماً ألمانياً فى البلقان. ولهذا ازدات أهمية الشرقين الأدنى والأوسط بالنسبة إلى استراتيجية الحلفاء . وكانت للمسألة أهمية أكبر بالنسبة إلى فرنسا ، لأن الجنرال جاملان رأى من الضرورى خلق جبهات جديدة لتحويل أنظار القوات الألمانية عن الجبهة الغربية ، على حين أن الجنرال ڤيجان — القائد العام

للقوات الفرنسية فى سوريا ولبنان — أدرك الفائدة الكبرى المترتبة على القيام بعمل عسكرى فى البلقان . وكان من المتوخى أن تخدم معاهدة التحالف المعقودة مع تركيا نفس الغرض ، وحين انشغل الحلفاء بمشاكل السياسة البلقانية المترتبة على الحرب السوفيتية — الفنلندية ، رأوا من جديد ضرورة تقوية قواتهم المسلحة فى الشرقين الأدنى والأوسط .

أما فيما يتعلق بالحرب السوفيتية — الفنلندية والعلاقات بين دول أوربا جميعاً فى ذلك الوقت ، فقد وضعت إنجلترا وفرنسا الخطط للقيام بأعمال عدوانية ضد الاتحاد السوفيتى من قواعد تركية . حينئذ ، أى منذ اندلاع الحرب بوجه عام . وفى أثناء الشهور القليلة الأولى من عام ١٩٤٠ بوجه خاص : كان « الخطر السوفيتى الآتى من الشمال » هو الموضوع الرئيسى لدعاية الحلفاء فى الشرقين الأدنى والأوسط . ومما لاشك فيه أن الحلفاء حاولوا إنعاش المعاهدة الموقعة فى سعد آباد فى عام ١٩٣٧ بين تركيا وإيران وأفغانستان والعراق — إذ أنهم كانوا يحاولون استغلال « الخطر السوفيتى » لتقوية نفوذهم لدى الدوائر الحاكمة فى الشرقين الأدنى والأوسط . وبحلول أواسط عام ١٩٤٠ كانت قوات يبلغ تعدادها حوالى ١٨٠,٠٠٠ جندى تعسكر فى هذه المناطق ، وكان حوالى ١٠٠,٠٠٠ منها قوات إمبراطورية فرنسية : على أن هذه القوات ظلت عاطلة ، لأن الدوائر العليا للحلفاء رفضت بصورة منتظمة كل الخطط القاضية بالقيام بعمل فى البلقان . والآن لنا أن نتساءل ، ما هو الموقف فى البلدان العربية وفى فلسطين فى ذلك الوقت ؟

الموقف فى سوريا ولبنان

فى سوريا ولبنان استغل الفرنسيون الموقف لتدعيم سيطرتهم السياسية . فقد أوقف المندوب السامى بيو Puaux الدستور السورى حتى قبل نشوب الحرب . وكرر ذلك بالنسبة إلى الدستور اللبنانى فى ٢١ سبتمبر ، حين ركز سلطة مجلس الوزراء اللبنانى فى يد الوزير عبد الله بيهم ومستشاريه الفرنسيين ، وأعلن أن الحزب الشيوعى والحزب القومى السورى الموالى للفاشية خارجان على القانون . وفى دمشق أغلق

النادى العربى القومى الذى كانت تنفق عليه ألمانيا . وحكم على القادة الشيوعيين والقوميين بالسجن لفترات طويلة . على أن الحكام الفرنسيين اقتصروا على تحديد نشاط الأحزاب الوطنية الكبرى : الكتلة الوطنية وجماعة الدكتور شهبندر . وأعلن معظم الزعماء ولاءهم لفرنسا ، معربين عن تعلقهم بالديمقراطية . ولكن جماهير الشعب كان يتملكها الخوف ، إذ كان الناس لايزالون يذكرون التجربة القاسية التى مروا بها خلال الحرب العالمية السابقة حين تفشى الجوع والأوبئة والفزع . وساد البلاد شك عام فى إنجلترا وفرنسا اللتين لم تحققا وعودهما . وكان يغذى سخط العرب ماكان من خيبة آمالهم فيما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ والتخلى لتركيا عن الإسكندرونة . وكان للثورة الفلسطينية فى سوريا ولبنان رد فعل أقوى منه فى البلدان العربية الأخرى . وغلب على الناس عدم الاكتراث ، ولم يكن يوجد إلا القليل من النشاط السياسى العلنى .

الموقف فى فلسطين

كان موقف عرب فلسطين مشابهاً . فالخراب الذى تسببت فيه الثورة وما فرضته قيادة الثورة على الناس من ضرائب وإجراءات تجنيد، وهجرة كثير من الأغنياء ، ومقاطعة العرب واليهود بعضهم بعضاً ، والانعزال عن الأسواق الأجنبية — كل هذا مما جعل الموقف صعباً بالنسبة إلى كل من العرب واليهود . وكان مرجع شلل الحركة الوطنية العربية هو الانهيار الداخلى ، بالإضافة إلى الهزيمة التى لحقت بالثورة . وحين نشبت الحرب أعلن حزب الدفاع الوطنى (حزب النشاشيبى) وقوفه إلى جانب بريطانيا . وكان الأعضاء البارزون فى حزب الحسينى بالخارج فى ذلك الوقت ، وكان مفتى القدس السابق — الحاج أمين الحسينى الذى بارح البلاد فى أكتوبر ١٩٣٧ يقيم فى بيروت مع عدد من أنصاره من أعضاء اللجنة العربية العليا . وفى أكتوبر ١٩٣٩ انتقل إلى بغداد الحاج أمين وجمال الحسينى وأمين التميمى ، بالإضافة إلى القادة العسكريين للثوار : فوزى القاوقجى وعارف عبد الرزاق والشيخ حسن سلامة . ولم تحصل بريطانيا حتى على مساعدتهم الشفوية خلال الحرب . ولكنها

لم تسع للحصول على مساعدة حزب النشاشيبى ، ربما بسبب جريها وراء السراب الخاص بالوصول إلى تفاهم مع المفتى .

أما بالنسبة إلى الشعب اليهودى فلم يكن ثمة مجال للاختيار فيما يتعلق بالفريقين المتصارعين. فبرغم مواصلة الحكومة البريطانية السياسة التى جاء بها الكتاب الأبيض ، فقد وافق كل اليهود — باستثناء أعداد قليلة فى أقصى اليمين وأقصى اليسار — على تعضيد إنجلترا . وجمعت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والمجلس الوطنى متطوعين للخدمة العسكرية تحت إشراف المنظمات اليهودية أو القيادة العسكرية البريطانية . وقد تجاوب حوالى ٢٥٪ من السكان اليهود . وكان كثير من يهود فلسطين مواطنين بولنديين سجلوا أنفسهم فى القنصليات البولندية خلال الأيام الأولى من الحرب ، مطالبين بالانخراط فى الجيش البولندى . ومما لاشك فيه أن « التعبئة » التى أعلنتها المنظمات اليهودية كانت لها أيضاً أهداف سياسية غير مباشرة . ولقد كانت ثمة أيضاً أسباب سياسية مفهومة من وراء رفض الإنجليز للعروض اليهودية . ولم يسمح سوى لمجموعات صغيرة بالانضمام إلى الوحدات النظامية البريطانية : وحدتان مشتركتان من العرب واليهود ، وكتيبة كلها من الرواد اليهود — وقد بلغ عدد كل هؤلاء ١.٧٠٠ يهودى و ٤٠٠ عربى . وإلى جانب ذلك كانت توجد اتفاقية بين إدارة الأمن البريطانية وبين القيادة العسكرية — التى كانت تشتمل على منظمات عسكرية يهودية غير شرعية — بخصوص الأعمال المحددة المرتبطة بطابع التمويه لدى الاستخبارات سواء فى فلسطين أو فى الخارج . وفى عام ١٩٤٢ لم يتعد التعاون البريطانى — اليهودى هذه الحدود . وظلت العلاقات بين الطرفين قلقة نسبياً لأن الحكومة البريطانية واصلت السياسة التى جاء بها الكتاب الأبيض ، وحين صدرت فى فبراير ١٩٤٠ قوانين تنص على التشديد فى تحديد شراء اليهود للأراضى ، جرت مظاهرات كبرى واصطدامات بالبوليس .

موقف مصر

كان الموقف الداخلى فى مصر ، التى كان المركز الرئيسى للقوات المحتشدة وللقواعد العسكرية ، مصدر صعوبات مستمرة . وكان مرجع ذلك تداخل ثلاث قوى رئيسية هى السفارة البريطانية والقصر الملكى والوفد (الحزب السياسى الوطنى الشعبى) . وبعد نشوب الحرب واصل الملك سياسة إبقاء الوفد خارج الحكم بالاتفاق مع السفارة البريطانية . وحين استقال محمد محمود تولى على ماهر رئاسة الوزراء ، وشكل وزارة ذات طابع وطنى وقفت منها بريطانيا موقف المعارضة . فقد تولى صالح حرب باشا وزارة الدفاع ، وتولى رئاسة أركان الحرب القومى المعروف عزيز على المصرى باشا . وطبقاً لما ذكرته المصادر البريطانية فيما بعد ، أخذ صالح حرب يقيم العراقيل فى وجه التعاون العسكرى بين مصر وبريطانيا . ووفقاً لما ذكره الجنرال ولسون — قائد القوات البرية البريطانية فى مصر — أشاد عزيز على المصرى بالعسكرية الألمانية أمام الضباط المصريين وقلل من شأن القوات البريطانية . فقد كان عزيز المصرى عدواً لبريطانيا ، وكانت له اتصالات بضباط يحيكون مؤامرة ضد إنجلترا . وكان الرأى العام المصرى بوجه عام ضد الاشتراك فى الحرب — وقد ذهب البعض إلى أن مصر كان بإمكانها أن تحافظ على حيادها التام لولا تبعيتها لبريطانيا ، إذ أنهم رأوا أن مصر ليست لها مصلحة فى دخول الحرب . وكان كثير من كبار الزعماء قد عارضوا عقد معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا على اعتبار أنها تربط مصر بإنجلترا بصورة مطلقة حتى قبل اندلاع الحرب[١] . حقيقة إن بعض الدوائر كانت تصب جل اهتمامها على مهاجمة الحكومة المصرية ، إلا أن آخرين كانوا خصوماً ألداء لإنجلترا ، وكان أغلبية الوزراء ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء نفسه ، يعارضون اشتراك مصر فى

---

(١) عبر إسماعيل صدقى باشا الذى كان على جانب كبير من الأهمية والنفوذ ، وأحد أقطاب الصناعة ، عن هذا المعنى خلال مناقشات برلمانية جرت فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٨ .

الحرب [١]. ولم يقف فى صف إعلان الحرب على ألمانيا فى ذلك الوقت سوى أحمد ماهر شقيق رئيس الوزراء .

وفى ٣ سبتمبر قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا واعتقلت الرعايا الألمان . وأعلنت إيطاليا ومصر أنهما دولتان غير محاربتين .

وبرغم أن ثمة أدلة على أن بريطانيا كانت تهدف إلى ماهو أبعد من ذلك ؛ فإن هذا الموقف لم يكن ضد مصالحها الإمبراطورية . وقد بلغ تعداد الجيش المصرى فى سبتمبر ١٩٣٩ أربعين ألف مقاتل ؛ ومن المحتمل أنه لم يحتل سوى دور تافه فى الخطط البريطانية . وبرغم ذلك فقد كان تعاون مصر العام أمراً هاماً بالنسبة إلى مجهود إنجلترا الحربى — وهذا هو السبب الذى من أجله رأى البريطانيون قبل كل شئ أن يقووا قبضتهم على الإدارة المصرية . ولم تتوقف الإجراءات التى اتخذتها مصر ضد الريخ عند قطع العلاقات الدبلوماسية ورحيل الهيئة القنصلية الألمانية (حوالى ٢٠٠ شخص يتمتعون بالحصانة الدبلوماسية) . واستمر اعتقال الألمان والاستيلاء على بنوكهم ومؤسساتهم بقدر طيب من الكفاءة ، لأن حكمدار العاصمة رسل باشا كان إنجليزياً . ولكن التعاون بين البعثة العسكرية البريطانية وبين القيادة المصرية لم يستمر بصورة مرضية . ونشبت مصادمات كثيرة . وفى أوائل عام ١٩٤٠ أرغم رئيس الوزراء — تحت ضغط السفارة البريطانية — على إقالة عزيز على المصرى من منصبه . ولم يوقف الوطنيون نشاطهم الهادف إلى الإفادة من الموقف الحربى لانتزاع وعد من البريطانيين بصدد المطالب المصرية . ومن هنا وجه رئيس المعارضة الوفدية — النحاس باشا — مذكرة إلى الحكومة البريطانية فى أول أبريل سنة ١٩٤٠ طالب فيها بجلاء القوات البريطانية بعد الحرب ، وبدء المفاوضات حول مسألة السودان ، وأن تعد إنجلترا بتمثيل مصر فى مؤتمر الصلح .

---

(١) يعبر نشر (S.N. Fisher: The Middle East, p. 481) عن رأى مخالف بصدد رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الوقت . وفى أوائل عام ١٩٤١ أخبر الملك فاروق الوزير المفوض للولايات المتحدة فى القاهرة فيش Fish بأن على ماهر كان قد وعد إنجلترا فى مناسبات ثلاث بإعلان الحرب على ألمانيا ، ولكنه (فاروق) منعه من القيام بذلك . ولكن على ماهر كان له تأثير حاسم على الملك الذى كان يعتمد على آرائه اعتماداً يكاد يكون تاماً .

موقف العراق

ومن المحتمل أن مسألة إعلان الحرب على ألمانيا قد أثارت جدلاً أشد فى العراق — فقد اعتقد الموالون لبريطانيا أن من المستحسن دخول الحرب بمجرد اشتراك تركيا التى كانت متحالفة مع العراق بمقتضى اتفاق سعد آباد . ولكن صغار الضباط — الذين كانوا بوجه عام معادين لإنجلترا — كانوا يخشون أن يرسلوا إلى جبهات القتال . وكان بعض الساسة ، وبخاصة رشيد عالى الكيلانى ، يودون الحصول على تنازلات حول فلسطين وسوريا كثمن لدخول العراق الحرب . ولكن حين قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا لم يعد باستطاعة العراق أن يتردد — وفى ٥ سبتمبر حذا حذو مصر . وبارح وزير ألمانيا المفوض ، دكتور جروبا ، البلاد — واعتقل الرعايا الألمان وسلموا للبريطانيين الذين أرسلوهم إلى الهند . وقد هاجم بعض القادة ، من أمثال رئيس الوزراء السابق جميل المدفعى ، تسليم الألمان للبريطانيين ، وأصدر العراق هو الآخر بياناً أعلن فيه أنه دولة غير محاربة .

وصدرت فى مصر والعراق لوائح ومراسيم القصد منها وجوب تأكيد سلامة القوات والمواصلات البريطانية . وكان من المتوخى أن تطبق هذه اللوائح والمراسيم ضد عملاء ألمانيا .

وحين نشبت الحرب أبدى نورى السعيد ، الذى كان حينئذ رئيساً لوزراء العراق ، استعداده لتنفيذ رغبات بريطانيا[١] . ولكن مجلس الوزراء عارضه حين اقترح إعلان الحرب على ألمانيا (سبتمبر ١٩٣٩ وفبراير ١٩٤٠) . وقد أنعش وصول المفتى إلى بغداد الاهتمام بقضية فلسطين . وكانت الحكومة العراقية تمول نشاط الحاج أمين الحسينى . وقد اشتركت مع مجلس الوزراء المصرى فى الاتصال بالحكومة البريطانية حين وصلت مصر والعراق إلى اتفاق مع حزب الحسينى . وقد أدى وجود الفلسطينيين بوجه عام إلى تقوية العناصر المعادية

---

(١) قيل إن السفير البريطانى طالب بأن تسلم قيادة الجيش العراقى إلى ضباط إنجليز ، كما قيل إنه طالب بفرض التعبئة العامة و إرسال القوات العراقية إلى فلسطين ومصر .

لبريطانيا فى العراق ، وهى العناصر التى كانت الفئات التى كانت تتولى الحكم منها عرضة للتمزق بسبب نشوب صراعات حادة . وقد احتلت المسائل الدولية دوراً هامًّا فى هذه الصراعات ، ولكن كانت تغلب على الجميع المصالح الشخصية والشكلية ، على حين أن رجالا اختلفت آراؤهم حول الحرب عملوا معاً فى بعض الأوقات . وهكذا فحين أعاد نورى السعيد تشكيل وزارته فى أواسط فبراير ١٩٤٠ ضم إليها الجنرال طه الهاشمى المعادى لبريطانيا وأشباهه فى الاتجاه الصاغات الأربعة (الذين عرفوا باسم المربع الذهبى) ممن كانوا على اتصال بثلاثة ضباط عظام آخرين كانوا يعارضون سياسة نورى السعيد الموالية لبريطانيا . وبرغم قوة أثر الدعاية النازية ، لم تكن وجهات نظر الجماعات المعادية لبريطانيا قد تبلورت بعد ، وكانوا فى بداية الحرب لا يعرفون شيئاً عن المفاهيم المتطرفة ، وقد اعتبروا الحرب « الفرصة الوحيدة » لتحقيق أمانيهم بخصوص الوحدة العربية ، باعتبارها فرصة « يعلم الله وحده متى تتكرر » ، ولم يستبعدوا عقد اتفاق مع بريطانيا على أن يتم بشروطهم بطبيعة الحال . على أن الحاج أمين الحسينى أبدى وجهات نظر أكثر تطرفاً : فقد اعتبر انتصار بريطانيا ضد مصلحة العرب ، واعترف بضرورة تجنب الاشتراك فى الحرب ضد بريطانيا . ولكنه ذهب إلى أن على العرب أن يقتدوا بالاتحاد السوفييتى واليابان وإيطاليا فيما لو عضدت هذه الدول الألمان ، وأن يقوموا بثورة عامة ضد الحلفاء .

وبرغم ذلك فلم يكن لدى بريطانيا من الأسباب ما يدفعها إلى أن تخشى الموقف فى العراق طالما استمرت الحرب الوهمية .

موقف الملك ابن سعود

لم تقطع العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع الريخ ، ولكنها لم تسمح بوجود وزير ألمانى مفوض فى جدة . وحاول ابن سعود ، الذى كان قد توصل منذ وقت قريب إلى عقد اتفاق سرى مع ألمانيا بخصوص تزويده بالأسلحة ، أن يبرر موقفه لبرلين . وفى ١٥ نوفمبر وجه خالد القرقينى خطاباً إلى ڤورمان رئيس

ألمانيا المتلرية

القسم السياسى بوزارة الخارجية الألمانية جاء فيه أن ابن سعود تلقى بالامتنان والرضى تقريره الخاص بصداقة الفوهرر للعرب واحترامه لهم ، وأرفق به إعلان العربية السعودية موقفها الحيادى وأضاف أن الحكومة السعودية كانت تفكر فى أن تفتح قنصلية فى برلين حين تسنح الفرصة المناسبة[١] .

يضاف إلى هذا أنه حين أرسلت الحكومة العراقية بعثة إلى اليمن فى فبراير ١٩٤٠ وفكر نورى السعيد فى القيام برحلة إلى الرياض فى مارس ، أكدت الحكومة السعودية لوزير إيطاليا المفوض أنها لا تود أن تعدل سياستها لصالح إنجلترا ، وطالبت بأن يذيع راديو بارى أو برلين أن العربية السعودية ترغب فى المحافظة على حيادها التام .

ولم يتمخض ما أملته حكومة الريخ من إقامة بعثة دبلوماسية فى العربية السعودية عن شىء ، فقد فشلت المحاولة الخاصة بذلك فى نهاية عام ١٩٣٩ وبداية عام ١٩٤٠[٢]. وكان ابن سعود يرغب مخلصاً فى التأكد من حسن نية ألمانيا ، ولكنه حاول كذلك أن يتجنب القيام بشىء قد يغضب إنجلترا .

وفى فبراير ١٩٤٠ قدم فش — وزير الولايات المتحدة المفوض — فى القاهرة أوراق اعتماده فى جدة منفذاً بذلك قراراً صدر فى عام ١٩٣٩ بخصوص إقامة علاقات دبلوماسية بين العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية .

وحين بدأت الحرب العالمية الثانية حاولت البلدان العربية أن تحافظ على حيادها ، على أن يكون هذا الحياد من نوع خاص بسبب وجود القوات البريطانية فى مصر والعراق . لهذا لم تف البلدان العربية بكل مطالب الحلفاء ، وإن يكن البريطانيون لم يلحوا كثيراً لأن الحاجة لم تكن تدعو إلى ذلك .

وكان من المشكوك فيه أن يؤدى إعلان الحكومات العربية الحرب على ألمانيا إلى مساعدة إنجلترا كثيراً — إذ لا يجب أن ننسى أن اتخاذ مثل هذه الخطوة لم يكن يجد ترحيباً لدى قطاع كبير من سكان هذه البلدان .

---

(١) رسالة القرقينى إلى سفير ألمانيا فى أنقرة — الرياض فى ١٥ نوفمبر ١٩٣٩. طلب القرقينى أن يرسل إلى فورمان رسالة مرفقة بهذا الخطاب .

(٢) قابل وزير الاقتصاد السعودى — باسم الملك — وزير إيطاليا المفوض ، وقدم له رجاء حكومته الخاص بأنها ستوضح لبرلين أن من المستحسن فى ذلك الوقت أن تتخلى عن فكرة إرسال مبعوث إلى جدة .

وأدت انتصارات المحور إلى ضعضعة هيبة إنجلترا وفرنسا لدى العرب بشكل منتظم : برغم ماكان يبدو من أن معظم الزعماء العرب كانوا مقتنعين فى سبتمبر ١٩٣٩ بانتصار الحلفاء فى النهاية . وبرغم ذلك فإن عدم إمكان البلدان العربية الاعتماد على أى مساعدة خارجية بسبب بعدها عن ميادين القتال مما حتم عليها الاهتمام بعدم إغضاب بريطانيا – وقد لعب ذلك دوراً حاسماً . ومن هنا كان موقف البلدان العربية أسوأ مما كان عليه قبل نشوب الحرب .

ألمانيا والبلدان العربية

أما فيما يتعلق بألمانيا فمن المعروف أن النظام النازى كان يستعد لأن يثنى على غزو بولندة بالهجوم فى الغرب لسحق فرنسا وإرغام بريطانيا على التفاوض للصلح طبقاً لشروط هتلر . فحين جازف هتلر بشن الحرب على إنجلترا وفرنسا كان يعتقد أن ضخامة إمبراطوريتيهما ستكون مصدراً للضعف إلى حدما . وفى مؤتمر القيادة العسكرية الذى انعقد فى ٢٢ أغسطس فى أوبر سالزبورج عبر الفوهرر عن وجهة نظره الخاصة بأن إنجلترا كانت مكتوفة الأيدى بسبب اضطراب علاقاتها مع إيطاليا فى البحر المتوسط ومع اليابان فى شرقى آسيا ومع الشعوب الإسلامية فى الشرق الأوسط . ولكن لا يبدو أن زعماء الريخ كانوا يعتقدون حينئذ أن استغلال إمكانيات الشرق العربى كان يتطلب أن تتخذ ألمانيا إجراءات معينة .

وحين طال أمد الحرب ولم يستطع الألمان القيام بهجوم مباشر على الجبهات الغربية بعد انتصار سبتمبر ، رأوا أنهم مضطرون إلى الاهتمام بحشد الحلفاء لقواتهم فى الشرق الأوسط . وفى ٢٣ نوفمبر أصدر هتلر أوامره إلى جنرالاته بأن يعدوا خططاً مختلفة للعمليات المحتمل القيام بها : ضد بلدان إسكنديناوة والبلقان والشرق الأوسط . وتبين لنا يوميات الحرب التى سجلها الجنرال هالدر أن هيئة الأركان العامة بدأت القيام بدراسة العمليات اللازمة ، بما فى ذلك حشد الإخصائيين فى شئون الشرقين الأدنى والأوسط .

ويبدو أن ثمة ارتباطاً بين العمليات الحربية المتوقعة وبين الحصول على بعض

المواد شديدة الأهمية بالنسبة إلى آلة الحرب الألمانية : خام الحديد من السويد والبترول من رومانيا . وقد رأى الفوهرر فى حشد قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى تهديداً للبلقان وبالتالى لتموين الجيش الذى يلزمه الوقود السائل فى الأحوال العادية . ويتضح لنا من الوثائق بوجه عام أن هدوء الموقف فى البلقان كان من أهداف السياسة الألمانية ، وأن الخوف من تعكير السلام فى هذه المنطقة كان مبعثه ليس فقط توقع هجوم الحلفاء بل موقف دول أوربية أخرى لم تكن مشتبكة حينئذ فى حرب مع ألمانيا هى الاتحاد السوفييتى وإيطاليا . ومن المعروف الآن أن الحلفاء رفضوا خططاً كانت تقضى بإنزال قواتهم فى البلقان ، بل لقد رفضوا الجهود الرامية إلى القيام بعمليات تخريبية فى رومانيا — والسبب الرئيسى فى ذلك هو الخوف من أثر مثل هذه العمليات فى موقف إيطاليا . وبرغم ذلك فقد كان على برلين أن تعمل حساباً لاحتمال القيام بمثل هذه العمليات نتيجة لحشد قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط .

وقد حاول الألمان أن يمنعوا هذا الخطر ، ليس فقط بالقيام بإجراءات نشطة فى البلدان العربية ، وهو مالم يكن فى إمكانهم فى ذلك الوقت ؛ بل بإيجاد تهديد فى أقصى مؤخرة حشد قوات الحلفاء . لهذا حاول الألمان أن يقنعوا الاتحاد السوفييتى باتخاذ إجراءات مضادة ضد حشد القوات البريطانية والفرنسية والتركية فى الشرق الأوسط ، كما حاولوا أن يستغلوا فى دعايتهم تزايد القوات السوفييتية فيما وراء القوقاز ، كما سعوا إلى إيجاد خطر على حدود الهند البريطانية ، باستخدام أفغانستان كقاعدة [1]. وكان الألمان يرغبون فى ضمان مساعدة الاتحاد السوفييتى لهم فى مناوراتهم الأفغانية . وقد أخبر براوشتش — القائد العام للقوات البرية الألمانية — هالدر فى أول يناير ١٩٤٠ أن الريخ كان مهتماً بتوجيه التوسع السوفييتى صوب البسفور وأفغانستان والهند ، مما يؤكد السلام فى البلقان التى كانت ضرورية جداً بالنسبة إلى الألمان . وفى ٦ يناير أعد يودل مذكرة بعنوان « السياسة والمجهود الحربى فى الشرق » وقدم كايتل ، القائد العام للقوات المسلحة

---

(١) نشبت الخلافات حول هذه الناحية بين قسم الشئون الخارجية بالحزب النازى الذى كانت له علاقات بالحكومة القائمة وبين وزارة الخارجية التى كانت تحبذ تدبير انقلاب ينتهى بأن يتولى العرش الأفغانى أمان الله الذى كان قد أرغم على التنازل عن العرش فى عام ١٩٢٩ .

الألمانية ، هذه المذكرة إلى كبار المسئولين فى الريخ .

وتوضح هذه الوثيقة أن يودل كان يرى أن المحافظة على حيدة البلقان فى صالح المجهود الحربى الألمانى ، وذلك منعاً لشغل القوات الألمانية هناك — وكان من رأيه أن من المستحسن إرغام الحلفاء على الاحتفاظ بجيش كبير فى سوريا بإثارة أكبر قدر من المتاعب للبريطانيين فى الهند والبلدان العربية دون استعمال قوات ألمانية كبيرة . وقد استشف يودل أن الغرض الرئيسى من جيش الحلفاء فى الشرق الأوسط هو غرض دفاعى ، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن الداخلى . ولكنه اعترف فى نفس الوقت بخطر فتح البريطانيين لجبهة بلقانية جديدة حين تسنح الفرصة المناسبة . كما رأى أن من الأفضل جداً أن تتحول القوات السوفييتية فى اتجاه جنوبى ، ولكنه كان يشك فيما إذا كان ذلك إجراء عملياً . وبرغم ذلك فإن يوميات هالدر تبين أن أوامر أخرى قد صدرت متضمنة بياناً بخطط العمليات الحربية فى البلقان والقوقاز ومعلومات أدق عن التحركات البريطانية فى الشرق الأوسط .

وعلى ضوء معلوماتنا الحالية عن سياسة ألمانيا وخططها فى فترة ما سمى بالحرب الوهمية ، يتضح لنا أنه لم يكن يوجد أساس للمخاوف البريطانية فى ذلك الوقت بخصوص الهجوم على البلقان وتهديد الشرق الأوسط من الشمال . فالألمان حينئذ لم يكونوا ينوون أن يخلقوا متاعب فى البلقان ، وقد قدروا هم أنفسهم أن موقف السوفييت لا يمكنهم من « خلق متاعب » فى الشرق الأوسط . ولم يحن وقت خطط الحرب النازية فى البحر المتوسط وقناة السويس وبلدان الشرق الأوسط إلا على أثر المقابلة التى جرت بين هتلر وموسولينى فى ممر برنر فى ١٨ مارس ١٩٤٠ حين اتضح احتمال دخول إيطاليا الحرب . وورد ذلك فى تعليمات هتلر الصادرة بتاريخ ٤ أبريل ١٩٤٠ . وهذه التعليمات كانت تقتضى إيطاليا ، فى حالة دخولها الحرب ، أن تشغل القوات البريطانية والفرنسية فى المتوسط وأن تقطع المواصلات هناك بين الشرق والغرب وأن تضع حداً للتفوق البحرى البريطانى فى شرقى هذا البحر ، وبوجه خاص أن تغلق قناة السويس . كما كان على إيطاليا أن تنشط من قواعدها فى شرقى إفريقيا فى القيام بأعمال ضد عمليات نقل الحلفاء فى البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وكان لايزال ثمة بعض احتمال إثارة القلاقل الداخلية فى البلدان العربية . ومما لا شك فيه أن بودل كان يضع هذا فى عين الاعتبار حين كتب مذكرته المؤرخة ٦ يناير . ولكن حين نشبت الحرب ضعفت إلى حد كبير فرص ألمانيا فى القيام بنشاط سياسى وتخريبى وتجسسى . وكان الموقف مختلفاً بالنسبة إلى إيطاليا التى لم تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا فى عام ١٩٣٩ .

وثارت مشكلة بخصوص موقف حكومة الريخ من الدول العربية التى كانت قد قطعت علاقاتها السياسية بألمانيا وكانت من حيث المبدأ حليفة لبريطانيا . وكان يجب بوجه خاص اتخاذ قرار بصدد نوع معاملة رعايا هذه البلدان الذين كانوا يعيشون فى ألمانيا أو فى الدول التى كانت تحتلها .

وقد سبق أن ذكرنا أن وزارة الخارجية الألمانية بلغت وزيرى العراق ومصر المفوضين أن الحكومة الألمانية لن تقوم بإجراء انتقامى إذا ما أرغمت حكومتاهما على اتخاذ إجراءات معينة ضد الألمان فى حالة نشوب الحرب . فى هذه الحالة كان يجب معاملة الدول العربية باعتبارها رهائن فى يد إنجلترا . وبعد عام تقدم الألمان بتأكيد مماثل – بل إن وزير مصر المفوض تسلم هذا التأكيد كتابة . وقد وعد حكام ألمانيا بأنه سيكون بإمكان رعايا مصر – فى حالة نشوب الحرب – أن يبقوا فى ألمانيا وأن يقوموا بأعمالهم العادية دون رقابة من البوليس إلا فى نطاق الحدود التى تنطبق على الرعايا الأجانب .

وكانت وراء كل ذلك أسباب مختلفة . فموقف الحكومة الألمانية العام تجاه العالم العربى قد لعب دوراً بهذا الخصوص ، وذلك بسبب العداء الواضح الذى أبداه العرب لكل من إنجلترا واليهود . ولا يجب أيضاً أن ننسى أن عدداً معيناً من الرعايا الألمان كان يقطن البلدان العربية وفلسطين . وفى مصر كان يوجد فى الأصل حوالى ٢,٠٠٠ ألمانى استطاع حوالى ١,٦٠٠ منهم أن يبارحوا البلاد قبل أو بعد نشوب الحرب بوقت قصير . كما أن عدداً كبيراً من الألمان المقيمين فى فلسطين استطاعوا الخروج تاركين زوجاتهم وأطفالهم والراهبات وأعضاء فى الهيئات الدينية وما يزيد قليلا على ١٠٠ من الرجال اللائقين للخدمة العسكرية . وقد تم القبض على هؤلاء ورحل بعضهم بعد ذلك ، ولم يعد منهم

أحد . وليست لدينا معلومات عن عدد الألمان الذين كانوا يقيمون فى العراق . ولكن لم يبق منهم سوى عدد قليل جداً بعد نشوب الحرب . وربما توقع النازيون أنه سيكون بإمكان الرعايا الألمان فى مصر والعراق أن يقوموا بعد وقت قصير بتنفيذ بعض المهام الموكولة إليهم .

وقد نقض الألمان الوعد الذى قطعوه بعدم القيام بإجراءات انتقامية .

فى مصر تم القبض على حوالى ١٢٠ من الرعايا الألمان فى أوائل سبتمبر ولكن سرعان ما أفرج عن معظمهم وسجن لمدة شهر ما لايزيد على ١٩ منهم . وكان من بين هؤلاء عدد كبير من مسئولى الحزب النازى الذين كانوا يعملون بصفتهم موظفين فعليين أو تحت ستار القنصليات الألمانية أو كمبعوثين خلال الفترة التى بلغ فيها التوتر الدولى أقصاه قبل اندلاع الحرب . وردت ألمانيا على إجراءات القبض هذه بأن حرمت على الرعايا المصريين مبارحة البلاد واحتجزت أعضاء هيئة البعثة الدبلوماسية المصرية ، الذين طلب منهم بعد ذلك أن يسجلوا أسماءهم فى دوائر البوليس وحددت أماكن إقامتهم شأنهم فى ذلك شأن رعايا البلدان التى دخلت الحرب ضد ألمانيا . ولم يسفر تدخل السفارة الإيطالية عن أى نتائج . وحين لم تؤد هذه الإجراءات إلى الإفراج عن النازيين فى مصر شددت الحكومة الألمانية ضغطها على الرعايا المصريين . وتقدمت وزارة الخارجية الألمانية إلى هملر — بصفته قائد قوات العاصمة التابعة للريخ ومدير البوليس — باقتراح يتضمن القيام بعمل انتقامى عند اعتقال الألمان أو القبض عليهم فى مصر وفلسطين واتحاد جنوب شرقى إفريقيا . وذلك بالقبض على عشرة رعايا لكل من هذه الدول . وذكرت وزارة الخارجية الألمانية بوجه خاص اسمى مواطنيين مصريين هامين هما الدكتور حلمى — وكان طبيباً . والدكتور كوتا Cotta رئيس الغرفة التجارية الألمانية — المصرية فى قائمة أسماء من يجب اعتقالهم (برغم أن الدكتور كوتا قد أبدى خضوعاً واضحاً للحكومة الألمانية) . وقد قلت فاعلية هذه الطلبات فيما بعد .

حينئذ بدأ تبادل وجهات النظر بين ألمانيا ومصر عن طريق المفوضية السويدية فى القاهرة (التى كانت ترعى مصالح ألمانيا هناك) والمفوضية الأفغانية فى برلين (التى وافقت على أن تقوم برعاية المصالح المصرية فى ألمانيا) والصليب الأحمر

الدولى فى جنيف. كذلك تدخلت السفارة الإيطالية— التى كانت تهدف إلى تأكيد علاقاتها الودية بالبلاط الملكى المصرى — لدى وزارة الخارجية الألمانية . كما تدخل وزير إيران المفوض فى برلين . وفى ١٢ مايو قرر ريبنتروب فى النهاية أن يطلق سراح المصريين المعتقلين (١) .

---

(١) يبدو أن إطلاق سراح الرعايا المصريين قد تأخر بسبب طيران رودلف هيس إلى إنجلترا . وكان هيس مهتماً بمسألة هؤلاء الرعايا .

الفصل الخامس

سقوط فرنسا

وتصريحا ٢٣ أكتوبر و٥ ديسمبر ١٩٤٠

فى ١٠ يونية ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا ، وبهذا أصبحت البلدان العربية مناطق لخطوط القتال . ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط والشمال الإفريقى مراكز هامة للعمليات الحربية التى استمرت طيلة ثلاث سنوات . وكانت مصر مجاورة للمستعمرة الإيطالية فى برقة وطرابلس ، على حين أن الأملاك الإيطالية على البحر الأحمر — أى الحبشة والصومال — كانت تشكل خطراً ما على شبه الجزيرة العربية والسودان وكذلك على المواصلات البريطانية على طول البحر الأحمر .

وحين دخلت إيطاليا الحرب كانت العلاقات الإنجليزية — العربية تواجه تغييرات هامة . فقد كان للهزائم الأولى التى حلت بقوات الحلفاء : ثم لسقوط فرنسا ، أثر ضخم فى البلدان العربية . واعتبر كثير من العرب النصر المحورى أمراً مؤكداً بعد وقت قصير .

سقوط وزارة على ماهر باشا

حدث تغيير واضح جداً فى إتجاه الدوائر الحاكمة المصرية إزاء بريطانيا فى الوقت الذى تعرضت فيه مصر لخطر الغزو الإيطالى المباشر ، وقوبل طلب بريطانيا الخاص بأن تعلن مصر الحرب على إيطاليا بعدم الاكتراث . ولم توافق حكومة على ماهر باشا ، الذى كان حينئذ زعيماً لأتباع القصر ، إلا على قطع العلاقات الدبلوماسية . ولكن وزير إيطاليا المفوض — ما تزوليني — نباطأ فى الرحيل عن مصر . كما اعترضت اعتقال الإيطاليين المشبوهين بعض الصعاب — وكان يوجد بالبلاد حوالى ٦٠,٠٠٠ إيطالى كان عددهم يزيد كثيراً على عدد الألمان ،

وكانوا أوثق صلة بسكان البلاد . وحدث أحياناً أن أطلق الوزراء سراح المعتقلين .

وماطلت السلطات بوجه عام فى اتخاذ إجراءات ضد الإيطاليين . وحتى قبل دخول إيطاليا الحرب صرح على ماهر (باشا) ،فى رده على استفسار رسمى من لندن ، بأن حكومته ستنفذ كل الالتزامات التى نصت عليها المعاهدة ؛ وذلك فى حالة إعلان إنجلترا الحرب على إيطاليا ، ولكنها لن تعلن الحرب على إيطاليا إلا إذا شنت هجوماً على مصر . وفى أواسط مايو بعث على ماهر برسالة مماثلة إلى وزير إيطاليا المفوض ماتزوليني . ولما كانت القاهرة تود أن تحول دون قيام إيطاليا بأعمال حربية داخل الأراضى المصرية ، فقد كررت هذا التأكيد عدة مرات ، واستغل على ماهر كل الفرص المواتية للتعبير عن كرهه لإنجلترا .

ومن الواضح أن الحكومة المصرية كانت تود تجنب أى إجراءات قد تمس حيدة مصر . وحين دخلت إيطاليا الحرب بالفعل أصدرت الحكومة المصرية تصريحاً غير محدد جاء فيه أنها كانت تدرس الموقف من زاوية مصالح مصر وطلبت من الشعب أن يلتزم الهدوء ويحافظ على النظام . وفى ١٢ يونية قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا ، ولكن رئيس الوزراء أدلى فى نفس اليوم بتصريح فى جلسة مقفلة للبرلمان جاء فيه :

١ ــ أن مصر ستبقى مخلصة لمعاهدتها مع إنجلترا وستقدم كل المساعدات اللازمة ولكن داخل حدود البلاد فقط .

٢ ــ لن تشترك مصر فى الأعمال الحربية إلا

(ا) إذا اعتدت القوات الإيطالية على الأراضى المصرية .

(ب) إذا قذفت المدن المصرية بالقنابل .

(حـ) إذا هوجمت المنشآت الحربية من الجو . وقد تكرر تأكيد هذا الإعلان فى مذكرة بعثت بها الحكومة المصرية إلى روما جاء فيها أن الهجوم الجوى على المنشآت الحربية البريطانية لن يعتبر عملا عدائيًّا موجهاً ضد مصر . وحين أغار الإيطاليون على السلوم ومرسى مطروح ، وسقط بعض الضحايا من المصريين ، أعلن على ماهر فى ١٧ يونية أن هذه المصادمات ستعتبر حوادث حدود من الممكن تسويتها بالطرق الدبلوماسية .

ومن المحتمل أن هذا التصريح قد صدر بالاتفاق مع إيطاليا . وفى الواقع

إن قطاعات واسعة من السكان لم تحبذ إعلان الحرب على دول لمجرد كونها أعداء لبريطانيا . فلو أن مصر أقامت حينئذ أى اتصال مع ألمانيا ، فمن المفهوم أنه كان سيقتصر على وزارة الدفاع الألمانية وليس على مستوى سياسى .

وقد توصل البريطانيون إلى الرأى الخاص بأن الملك ووزارة على ماهر سيتبعون فى أحسن الأحوال سياسة القصد منها طمأنة إيطاليا . وكان لابد لفاروق وأنصاره فى الحكومة أن يدركوا قلة أعداد القوات البريطانية المرابطة فى الشرق الأوسط. وفى ظل هذه الظروف لجأ مجلس وزراء الحرب البريطانى إلى الضغط الدبلوماسى على فاروق . وأجرى السفير البريطانى سير مايلز لامپسون (لورد كيلرن فيما بعد) عدة مقابلات مع المسئولين المصريين وقابل الملك . واستقال على ماهر بعد ذلك بقليل (٢٣ يونية) . وفى ٢٧ يونية عهد الملك إلى حسن صبرى بتشكيل وزارة لم تكن أحسن وزارة ممكنة من وجهة النظر البريطانية . وسحبت الحكومة البريطانية بدورها طلبها السابق الخاص بضرورة إعلان مصر الحرب على إيطاليا . وبإمكاننا أن نستشف الكثير على الأقل من التصريح البريطانى الذى صدر فى ٢١ يونية ١٩٤٠ ؛ وأنكر أى نية فى إرغام مصر على إعلان الحرب إلا إذا تعرضت مصر للهجوم من جانب العدو المشترك . وطبقاً لهذا التصريح لم تكن إنجلترا ترغب إلا فى تنفيذ معاهدة ١٩٣٦ . لهذا طلبت من الحكومة المصرية أن تتخذ إجراءات ضد أى نشاط من شأنه أن يضر بالمجهود الحربى البريطانى (١)

وكررت الحكومة الجديدة تأكيدها بأنها ستعلن الحرب إذا ما هاجمت إيطاليا مصر . وفى ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ عبرت قوات إيطالية الحدود المصرية ونقدمت حوالى ٨٠ كيلومتراً صوب سيدى برانى . ولكن المصريين لم يقوموا بما يزيد على إعلان حالة الطوارئ . واستقال أحمد ماهر ، ممثل السعديين فى الوزارة وزعيم الحزب ، احتجاجاً على عدم إعلان الحكومة الحرب — ومما يجدر ذكره أنه كان منذ البداية ينادى بدخول مصر الحرب إلى جانب بريطانيا . وكان أحمد ماهر مؤمناً بانتصار بريطانيا . وقد أوضح فى خطبة أدلى بها فى ١٩ سبتمبر ١٩٤٠

---

(١) صرح سير مايلز لامبسون لوزير الولايات المتحدة المفوض فى أغسطس ١٩٤٠ بأنه لا يصر على أن تعلن مصر الحرب على المحور .

بأن مصر لن تكون جديرة بالاستقلال إذا لم يشترك المصريون فى الدفاع عن أنفسهم . ولكن أغلبية الساسة المصريين وعلى رأسهم الملك (الذى كان محبوباً فى ذلك الوقت ولعب دوراً رئيسيًّا فى تشكيل السياسة) لم يوافقوا على وجهة النظر هذه . وتهربت الحكومة باستمرار من إعلان الحرب على المحور ، مصطنعة حجة جديدة فى كل مرة ، وأبدت عدم حماستها لقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الدائرة فى فلك المحور الذى كان ممثلوه فى مصر يشكلون مصدراً هامًّا للمعلومات بالنسبة إلى برلين وروما . ولكن بريطانيا كانت لاتزال قانعة بالموقف لكى تتجنب احتمال نشوب أزمة أخطر — فقد كان من شأن هذه الأزمة أن تؤدى إلى شل قوات كبيرة لفترة غير محدودة . وبرغم ذلك فإن تحركات خصوم بريطانيا فى مصر كانت محدودة جدًّا بسبب حشد القوات البريطانية فى البلاد .

قيام وزارة جديدة فى العراق

وكان الموقف مخالفاً فى العراق الذى كان بعيداً جدًّا عن مسرح العمليات الحربية . كانت تعسكر فى العراق قوات بريطانية قليلة نسبيًّا ، معظمها من القوات الجوية . وخلافاً لما كان عليه الحال فى مصر ، كانت القوات البريطانية فى العراق متمركزة فى موضعين فقط : الحبانية والشعيبة . وكان الجيش العراقى أقوى من الناحية العددية (حوالى ٦٠ ألف مقاتل) كما كان مزوداً ببعض الطائرات . وكان النفوذ البريطانى المباشر فى الدوائر الحكومية أضعف منه فى مصر ، بحكم أن العراقيين أمكنهم أن يحرزوا من النجاح قدراً أكبر مما أحرزه المصريون فيما يتعلق بالتخلص من نفوذ المستشارين وكبار الموظفين الإنجليز .

وبدت الأزمات السياسية المتكررة فى البلاد منذ عام ١٩٣٦ فى تدخل الجيش فى الحياة السياسية إلى جانب نواح أخرى . وكان السبب المباشر للأزمة التى نشبت فى أوائل عام ١٩٤٠ هو مقتل وزير المالية حيدر رستم الذى كان من أبرز أعضاء الوزارة . وظل ضباط الجيش من مختلف المشارب يتآمرون حيناً مع أحد الساسة وحيناً مع آخر . وفى أوائل عام ١٩٤٠ كانت هذه المؤامرات تتصل فى المحل الأول بالمشكلات

الداخلية ، ولم تكن تتصل كثيراً بالسياسة العالمية .

وفى ٣١ مارس استقال نورى السعيد وتألفت وزارة جديدة يرأسها رشيد عالى الكيلانى . وفى هذه الوزارة تولى نورى السعيد وزارة الخارجية وتولى طه الهاشمى وزارة الدفاع ، وناجى شوكت العدلية وناجى السويدى المالية وعمر نظمى الشئون الاجتماعية . وقد حكمت هذه الوزارة العراق فى الوقت الذى سقطت فيه فرنسا ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب هتلر .

وبعد أن تولى رشيد عالى رياسة الوزارة ، وكان من أقدم معارضى المعاهدة العراقية — البريطانية ، لم يعلن صراحة مناصرته لإجراء تعديل فى السياسة الخارجية . وقد احتوى البيان الذى قدمه للبرلمان فى ٦ أبريل على بعض التصريحات الغامضة بشأن السياسة الخارجية . ومما جعله يتبع هذا التكتيك أن الرأى العام : وبخاصة الأندية الوطنية المتطرفة المساندة للحكومة ، كانت قد غدت أكثر ميلا إلى المشاعر المعادية لبريطانيا . وقد نما هذا الاتجاه فى الشهور التالية حين كانت دول المحور تحرز نصراً بعد آخر . أما الجماعات المنادية بالوحدة العربية ، وكانت قوية فى العراق ، فقد اشتد ميلها الصريح إلى المحور الذى كان يشبهها فى عدم إقراره للأوضاع القائمة . وفى ظل هذه الظروف كان رشيد عالى قد غدا الناطق بلسان الاتجاه المعادى لبريطانيا .

ومما يبين مدى قوة تأثير هزائم الحلفاء فى الساسة العراقيين أن نورى السعيد ذاته الموالى لبريطانيا أخذ يسعى إلى إقامة اتصالات فى ذلك الوقت مع المحور (١) . وبرغم ذلك فإن نورى السعيد وأمين زكى كانا من حيث المبدأ يميلان إلى مساندة بريطانيا . على حين كان طه الهاشمى وناجى شوكت أميل إلى النازيين . هذا إلى أن مفتى القدس السابق الحاج أمين الحسينى كان عاملا سياسياً هاماً فى البلاد . وقد كتب وزير الولايات المتحدة المفوض فى بغداد مايلى : « أما فيما يتعلق بالمفتى فإن تحرياتى تقنعنى بأنه أكثر الناس احتراماً ونفوذاً فى العراق الآن ، سواء

(١) حداد : حركة رشيد عالى الكيلانى : صيدا ١٩٥٠ ص ١٦ — بابن إلى ريبنتروب ، ٣ أكتوبر ١٩٤٠ . ويناقش مجيد خضورى هذه المسألة باستفاضة فى بحثه التالى :

M. Khadduri; General Nuri's Flirtations with the Axis Powers, in: The Middle East Journal, 1962, pp. 728-36.

فى الدوائر الدينية أو السياسية .. لقد أحرز أنصاراً كثيرين فى سوريا وفلسطين ، وهو الآن يحرز نفوذاً مشابهاً فى العراق . ومن ثم فإنه فى سبيله إلى أن يصبح قوة يجب أن يعمل لها حساب فى العالم العربى » . وفى بغداد أقام الحاج أمين علاقات مع الفئة العسكرية . وكان يؤثر تأثيراً قويًّا فى الأحداث السياسية .

وهكذا انعزلت الفئة الموالية لبريطانيا فى الحكومة . وحين أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا ، رفضت الحكومة العراقية أن تقطع علاقاتها السياسية مع روما ، برغم الجهود التى بذلها السفير البريطانى سير باسل نيوتن (وكان قبل ذلك سفيراً فى براغ) . وقد أفرج بعد قليل عن الإيطاليين المعتقلين الذين لم يكونوا كثيرين وأصبح لهم حق الرجوع إلى بلادهم . واستقال أمين زكى احتجاجاً على ذلك .

وهكذا بقى وزير إيطاليا المفوض جابرييللى فى بغداد ، وبذلك حافظت الحكومة العراقية على احتمال الاتصال بالمحور . وكان لذلك أهمية كبرى ، لأن مناقشة حادة جرت فى مجلس الوزراء على أثر سقوط فرنسا حول الموقف الواجب اتخاذه إزاء إنجلترا . فقد ساد الاعتقاد بأن هزيمة إنجلترا رهن بالمستقبل القريب . ورأى مفتى القدس والفئة المهيمنة المتكونة من ضباط الجيش وأغلبية الوزراء أن من الضرورى الالتزام بموقف الحياد التام إزاء الحرب وتنفيذ الحد الأدنى من الالتزامات التى كانت تنص عليها المعاهدة الإنجليزية العراقية . وقد شجع سقوط فرنسا اللاجئين السوريين فى بغداد وأصدقاءهم العراقيين المناصرين للوحدة العربية . وكانت فكرة القيام بثورات فى سوريا ضد الفرنسيين تجد ترحيباً واسع النطاق فى هذه الدوائر . كما كان المفتى شديد الاهتمام بإشعال جذور الثورة فى فلسطين ، ولهذا أرسل مبعوثيه إليها فى مايو ويونية لتتوية روح أتباعه المعنوية وسبر غور احتمالات الثورة . وفيما يتعلق بكلتا المسألتين : الموقف الواجب اتخاذه إزاء الحرب ، وإشعال الثورة فى سوريا ، كان ضباط الجيش والزعماء المدنيون يريدون أن يجروا مشاورات مع تركيا بصفتها حليفاً للعراق وبريطانيا وباعتبارها دولة مجاورة لسوريا .

زيارة ناجي شوكت لتركيا

وفى ١٩ يونية أعلنت الحكومة العراقية رسمياً أنها سترسل وفداً إلى تركيا التى اشتركت مع العراق فى توقيع ميثاق سعد آباد — لمناقشة بعض المشاكل السياسية العاجلة . وكان الوفد يضم نورى السعيد وناجى شوكت اللذين كانا يمثلان الاتجاهين المتطرفين المتعارضين فى الحكومة واللذين وصلا إلى أنقرة فى ٢٤ يونية حيث استقبلهما وزير الخارجية التركية سراج أوغلو .

وحين دخلت إيطاليا الحرب ، لم تنفذ تركيا التزامها طبقاً لمعاهدة أكتوبر ١٩٣٩ . وبدلا من ذلك نجدها تعلن أنها لن تشترك فى الحرب ، محاولة تبرير موقفها بأنها قد وقعت معاهدة مع كل من إنجلترا وفرنسا ، على حين أن إنجلترا وحدها كانت حينئذ فى حرب مع المحور . ولكن من المعروف أن تركيا كانت تبدى قلقها من التوسع الإيطالى فى شرقى البحر المتوسط ومن ازدياد قوة ألمانيا من الناحية العسكرية . ولم يبد أن باستطاعة الأتراك أن يقدموا للعراقيين نصيحة واضحة خلال هذه الظروف . وإذا ما جاز لنا أن نصدق نورى السعيد نجد أن سراج أوغلو ينصح بضرورة تصريح العراق بأنه لن يشترك فى الحرب ، شأنه فى ذلك شأن تركيا . وبعد أسبوع من المشاورات رجع نورى السعيد وواصل ناجى شوكت تنقله ، فتوجه إلى الآستانة تحت ستار العلاج وقابل ڤون بابن الذى اتصل به عن طريق وزير المجر المفوض زلتان دى ماياسى Zoltan de Mayiassy . وكان شوكت يحمل خطاب توصية من مفتى القدس السابق باسم اللجنة العربية العليا ، وفى هذه الرسالة هنأ الحاج أمين هتلر على انتصاراته ورجاه أن يناقش زعماء الريخ مع ناجى شوكت المسألة العربية ومستقبل فلسطين والتعاون بين ألمانيا والعرب بوجه عام . كما عبر عن أمله فى أن يؤدى انتصار ألمانيا فى النهاية إلى أن يتوصل العرب إلى « الاستقلال والتحرير التامين وأن يحققوا وحدتهم » . وعرض عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الريخ .

وجرت محادثة بين ناجى شوكت وڤون بابن فى ٥ يولية ١٩٤٠ بحضور

سايلر Seiler الذى كان حينئذ قنصلا عاماً لألمانيا فى تركيا . وقد اعتذر شوكت لقطع العراق علاقاته بألمانيا ، وأشار إلى سياسة حكومته فى ذلك الوقت بصدد مواصلة العلاقات مع إيطاليا ، وأكد الاتجاه الوطنى لمجلس الوزراء العراقى ورغبته فى تحرير العراق من السيطرة البريطانية . ورداً على ملحوظة أدلى بها بابن ، وعد المبعوث العراقى بحذر بأن يحارب جيش العراق إلى جانب ألمانيا فى الوقت المناسب . وصرح شوكت بأن بإمكان الألمان أن يبادروا إلى تعضيد قيام حكومة وطنية فى سوريا ، وحذر من احتمال احتلال البريطانيين لسوريا ، وأكد لفون بابن أن ثورة عربية ستنشب فى فلسطين .

وقد تمشى فون بابن مع وجهات النظر السائدة فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، فصرح بأن تطور الموقف فى الشرق الأدنى من اختصاص إيطاليا فى المحل الأول ، وأن الريخ سينقل رغبات العرب إلى روما . ولم ينكر ناجى شوكت خوف العرب من الاستعمار الإيطالى ، وأوضح أن ألمانيا ستستغل نفوذها فى روما للتوصل إلى حلول تتمشى مع مصالح الحركة القومية العربية . كما قدم مندوب العراق اقتراحاً بمواصلة المحادثات فى أنقرة بين وزير العراق المفوض كامل الكيلانى (شقيق رئيس الوزراء) وبين دكتور جروبا . وكان من المتوخى أن يكون الموضوع الرئيسى هو مسألة إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين . كما أثارت الحكومة العراقية هذه المسألة لدى وزير إيطاليا المفوض فى بغداد .

النشاط الدبلوماسى فى بغداد

قامت حكومة بغداد بنشاط دبلوماسى مستمر أثناء إقامة ناجى شوكت فى تركيا . وقد اتفق رشيد عالى مع المفتى ومع الصاغات الأربعة الذين كانوا يشكلون المربع الذهبى . ورجا الجميع وزير إيطاليا المفوض لويجى جابريبلى أن يحمل حكومته على إصدار تصريح تؤكد فيه عطفها على أمانى العرب القومية . وبعد أن وضع جابريبلى نصب عينيه الصراع بين الكتلتين الممثلتين فى الحكومة العراقية أدلى بالتصريح الكتابى التالى :

« كلفنى سمو الكونت شيانو، وزير الخارجية الإيطالية: بأن أبلغ سموكم بأن إيطاليا ، تمشياً مع السياسة التى اتبعتها حتى الوقت الحاضر ، تهدف إلى ضمان استقلال سوريا ولبنان التام وتمامية أراضيهما ، وكذلك الحال بالنسبة إلى العراق والبلدان الواقعة تحت الانتداب البريطانى . ولهذا فإن إيطاليا ستقف ضد أى ادعاءات فى المستقبل من جانب بريطانيا أو تركيا للتوسع الإقليمى سواء فى سوريا أو لبنان أو العراق » .

وفى نفس الوقت اتخذ أغلبية الوزراء العراقيين موقفاً متشدداً إزاء تنفيذ الالتزامات التى نصت عليها معاهدة ١٩٣٠ المعقودة مع إنجلترا ، وحاولوا أن يجعلوا منها أداة للمساومة حول مطالب الوحدة العربية . وكانت بريطانيا من ناحيتها ترغب فى كسب جانب العراق لكى تقنعه بالاشتراك فى الحرب بصورة أكثر فاعلية ، وبوجه خاص لكى يوافق على إرسال بعض قواته إلى مصر .

وفى ٢١ يونية طلب سير باسل نيوتن من بغداد أن توافق على نزول قوات بريطانية فى ميناء البصرة ، كان من المتوخى أن تنقل منها عبر الأراضى العراقية إلى حيفا فى فلسطين . ولما كانت الحكومة العراقية لاتود الموافقة ، فإنها قررت تطبيق المعاهدة الإنجليزية — العراقية بشكل أكثر صرامة [١] . وفى أول يولية وجه العراق مذكرة إلى السفارة البريطانية وافق فيها على نزول القوات البريطانية إلى البصرة ، ولكنه تحفظ حين طلب تحديد عدد هذه القوات والوقت الذى تبقى خلاله على الأراضى العراقية — إلى غير ذلك . وأخيراً تمت الموافقة على إمكان نزول القوات البريطانية إلى أرض العراق ، على ألا يكون لها حق البقاء هناك ، وعلى ألا يكون بإمكانها بأى حال من الأحوال أن تحتشد فى تشكيلات كبيرة .

كما نشط الساسة العراقيون الموالون لبريطانيا والإنجليز المناصرون لاتباع سياسة أميل إلى العرب فى مساومة الحكومة البريطانية بصدد المطالب العربية ؛

(١) لما كانت الحكومة البريطانية واثقة فى قوتها ونفوذها ، فإنها لم تحاول وضع صيغ محددة لمعاهداتها مع البلدان العربية . فقد كانت ترى أن باستطاعتها تفسير النقاط الغامضة بما يتمشى مع رغباتها . وكان هذا أيضاً هو الموقف فيما يتعلق بمسألة تخطيط الحدود الجنوبية للعربية السعودية حيث تقع واحة البوريمى التى هى الآن موضع نزاع . انظر :

J. Rendel, : The Sword and the Olive, London, 1957, p. 83.

وقد أوضح الجانب العراقى أنه على استعداد للتمشى مع رغبات بريطانيا ولكن بشرط أن تستقل سوريا وينفذ الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين ويزود العراق بالأسلحة الكافية . وقد انتشرت أشكال عدة لهذه المطالب حين زار العراق الكولونل نيوكومب S.F. Newcombe وهو من موظفى وزارة الدعاية البريطانية ، وكان قد لعب دوراً فى الثورة العربية التى نشبت إبان الحرب العالمية الأولى . وربما كانت هذه المحاولة هى آخر المحاولات التى قامت بها الحكومة البريطانية لإقناع المفتى السابق وغيره من الزعماء الفلسطينيين المقيمين فى العراق بقبول الكتاب الأبيض الصادر فى ١٧ مايو ١٩٣٩ . وفى المحادثة التى جرت بين نيوكومب وجمال الحسينى (ابن عم الحاج أمين) ونورى السعيد وضعت خطة لإقامة حكومة وطنية فى فلسطين . وفى مقابل ذلك كان على حزب الحسينى أن يتعهد بمساندة بريطانيا فى الحرب ، وكان على العراق أن يعلن الحرب على المحور وأن يعد كتيبتين للاشتراك فى القتال الدائر فى الصحراء الغربية .

وجرت مقترحات عدة حول مسألة سوريا التى انتشرت الإشاعات حول احتمال احتلال الجيش العراقى لها . كما بحث احتمال مطالبة حكومة فيشى بإعادة الأحوال كما كانت قبل يولية ١٩٣٩ حين عطل الدستور السورى .

واحتلت قضية فلسطين مركز الصدارة فى محادثات بغداد . فقد رأى الساسة العرب الموالون لبريطانيا والشخصيات البريطانية الموالية للعرب أن قضية فلسطين هى أساس كل المصائب التى تزعزع العلاقات الإنجليزية — العراقية وتضعفها . ولكن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد لتقديم أى تنازلات أخرى بصدد فلسطين. فقد سقطت وزارة تشامبرلن التى أصدرت الكتاب الأبيض، وكان قد سبق لونستون تشرشل ، الذى أصبح رئيساً للوزارة الائتلافية، أن وجه النقد الشديد إلى هذه الوثيقة . وربما كان العامل الرئيسى الذى أثر فى موقف الحكومة البريطانية هو شدة معارضة سكان فلسطين من اليهود للإصلاح الدستورى الذى نص عليه الكتاب الأبيض . وكان عدم تطبيق هذا الإصلاح هو الذى جعل الصهيونيين لا يقومون بثورة علنية . وفى ٢٩ أغسطس رفضت الحكومة البريطانية مقترحات بغداد[1] .

(١) = G. Kirk, : The Middle East in the War, London, 1954, p. 64.

ولا نعرف ما إذا كان عدم الموافقة على مقترحات بغداد هو السبب الحاسم الذى جعل العراقيين من أنصار الوحدة العربية يبقون على علاقتهم بالمحور ، لأن قضايا أشمل من قضية فلسطين كانت قيد البحث بالضرورة — إذ أن المسألة كانت مرتبطة بوضع بريطانيا فى كل البلدان العربية وليس فى العراق وحده . فنى خلال هذه الفترة الخطيرة التى شهدت انتصارات ألمانية مستمرة وتهديداً مباشراً للجزر البريطانية ولوضع بريطانيا فى الشرق الأوسط أدى ميل الساسة العرب إلى أن يلعبوا على كل من الطرفين إلى مساندتهم لأعداء بريطانيا ولو بصورة جزئية على الأقل . ورأى الساسة العرب أن من المحتمل ، فى ظل الموقف الدولى الجديد ، أن يتم تحرير العراق والبلدان العربية الأخرى وأن تتخذ خطوات صوب الوحدة العربية ، بالتوصل إلى اتفاق مع دولتى المحور . وأياً كان الأمر فإن مفتى القدس لم يعتمد على مفاوضات بغداد ولم يشترك فيها[1] . وفى الواقع أن عثمان كمال حداد — سكرتير المفتى الشخصى — زار فون بابن (بجواز سفر صادر باسم توفيق على الشاكر) قبل حوالى ثلاثة أسابيع من صدور الرد البريطانى على مقترحات بغداد . وزار ناجى شوكت أنقرة مرة أخرى فى أوائل سبتمبر بحجة إجراء فحوص طبية .

مفاوضات حداد مع الألمان

تحدث السكرتير الخاص للحاج أمين إلى فون بابن بصورة أكثر تحديداً من حديث ناجى شوكت فى يولية . وقد أخبر سفير الريخ أن إيطاليا كانت بالفعل قد قدمت للحكومة العراقية تأكيداً مكتوباً يساند استقلال كل البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب أو المفروضة عليها الحماية . وأوضح أن العراق يرغب فى صدور تصريح مماثل من جانب ألمانيا حتى يستطيع بذلك أن ينعش العلاقات الدبلوماسية مع برلين .

= يعزو كيرك رحلة شوكت الثانية إلى أنقرة إلى رفض الحكومة البريطانية لمقترحات بغداد .

(١) بإمكاننا أن نستشف من الوثائق الألمانية ومن محادثة جرت بين المفتى السابق وبين مجيد خضورى فى ٨ مايو ١٩٥٨ أن الحاج أمين كان يعارض إجراء محادثات مع نيوكومب . (Middle East Journal, 1962, p. 331) كما يمكننا أن نستشف من الوثائق الألمانية أن المفتى أعرب عن شكوكه إزاء موسى العلمى الذى اشترك فى هذه المفاوضات .

وقد وعد حداد باسم حكومته بأن يتم إبعاد نورى السعيد عن الوزارة ، وأوضح أن بالإمكان إشعال ثورة فى فلسطين يتم الإعداد لها فى الأراضى السورية ، الأمر الذى من شأنه أن يقدم مساعدة أكيدة للمحور فى نضاله ضد بريطانيا . كما أكد أن الجيش يسيطر بالفعل على العراق ، وأن ثمة اتفاقاً مع ابن سعود بشأن مسائل استقلال فلسطين وتنحية الأمير عبد الله وضم شرق الأردن إلى فلسطين . وكانت قوة الجيش العراقى ومسألة الوحدة العربية موضعاً لمزيد من المحادثات بين حداد وفون بابن [١] . وقد كتب حداد أن العلاقات الإنجليزية العراقية قد تفاقمت لأن العراق رفض السماح للقوات البريطانية بالمرور عبر البلاد فى طريقها إلى الهند . وبإمكاننا أن نتبين أن حداد لم يلتزم الصدق على طول الخط . وبعد أن حصل على إذن ألمانيا توجه إلى برلين عن طريق بودابست بجواز سفر صادر باسم ماكس موللر ، وبقى فى برلين فى بنسيون خاص (٦ شارع ونترفلد) .

وفى أغسطس وأوائل سبتمبر أجرى السكرتير الخاص للحاج أمين فى برلين عدداً من المحادثات مع جروبا وملشرز Melchers وفايزساكر Weizsäcker . وقد قدم نفسه فى المحادثات باعتباره ممثلا للعالم العربى أو على الأقل للمشرق العربى . لهذا نجده يخبر الألمان بوجود لجنة تنسيق لكل البلدان العربية فى العراق تحت قيادة المفتى . ووفقاً لما يذكره حداد كانت هذه اللجنة تتكون من رشيد عالى وناجى السويدى وناجى شوكت وكبار قادة الجيش والنائب يوسف السبعاوى ــ عن العراق ، وشكرى القوتلى وزكى الخطيب وآخرين عن سوريا ، والسكرتير الخاص للملك ابن سعود ، ويوسف آل ياسين ، ومستشار الملك خالد القرقيني عن السعودية ، والمفتى الذى كان يمثل فلسطين . ويذهب حداد إلى أن هذه اللجنة حاولت بعض الوقت أن تتصل بألمانيا ولكن دون طائل . وفى أواسط يونية حاولت اللجنة أن تتصل بالألمان عن طريق الهيئات الدبلوماسية الإيطالية والأمير شكيب أرسلان المقيم فى جنيف وكان على أرسلان أن يخبر الحكومتين الألمانية والإيطالية برغبة العراقيين فى التعاون مع المحور [٢] .

---

(١) عثمان كمال حداد : حركة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤١ ، صيدا ، ١٩٥٠ ، ص ٢٥ – ٢٦ . كان مفهوم الوحدة العربية عند حداد ينصب على تنسيق السياسة الخارجية والدفاع والوحدة الجمركية – إلى غير ذلك .

(٢) لم تتلق الحكومة الألمانية أى رسالة بهذا الصدد .

وجرت محاولة أخرى عن طريق بعثة ناجى شوكت إلى أنقرة .

وقد قدم حداد صورة مشوهة إلى حد كبير للعلاقات القائمة فى داخل اللجنة العربية ، ولا يحتمل أنه قام بذلك بمحض اختياره . والواقع أن مفتى القدس كان يقوم بنشاط واسع فى بغداد ، حيث أقام اتصالات مع شخصيات سياسية هامة وحاول استمالة أنصار الوحدة العربية من العراقيين المعادين لبريطانيا واللاجئين السياسيين السوريين . وكان يحتل المكانة الأولى فى قائمة معاونيه أنصاره الفلسطينيون الذين كانوا يشكلون هيئة أركانه التى تستحوذ على أكبر قدر من ثقته . على أن « حداد » هون من شأن الدور الذى كان يلعبه الفلسطينيون — إذ أنه كان يرغب فى أن يؤكد نفوذ المفتى فى العالم العربى كله . ولنفس السبب ضم إلى اللجنة العربية بسهولة مندوبين عن العربية السعودية ، ربما بدون علمهما . ولم يكن رشيد عالى عضواً فى تلك اللجنة أيضاً (١) .

وقد عبر السكرتير الخاص للمفتى عن شدة رغبة رؤسائه فى صدور وثيقتين متشابهتين أو تضمهما مذكرة مشتركة . وقد أرفق بهما مسودة مثلا هذا التصريح الذى كان يتضمن خمس نقاط :

١ — الاعتراف بالاستقلال التام للبلدان العربية وبخاصة البلدان الواقعة تحت الانتداب أو الحماية الفرنسية أو البريطانية ، والتزام دولتى المحور بعدم لجوئهما إلى وسائل قانونية أو وسائل أخرى للحد من استقلال هذه البلدان .

٢ — الاعتراف بحق البلدان العربية فى الوحدة .

٣ — الاعتراف بحق البلدان العربية فى حل مشكلة اليهود القاطنين فى فلسطين أو فى البلدان العربية الأخرى « بصورة تتمشى مع مصالح العرب القومية والجنسية ومع كل المشكلة اليهودية فى البلدان الخاضعة لألمانيا وإيطاليا » .

٤ — تصريح يفهم منه أن ألمانيا وإيطاليا ليست لهما أطماع استعمارية فى مصر والسودان .

---

(١) Khadduri : Independent Iraq, London, 1960, p. 164.

ولا يشير حداد فى مذكراته إلى هذا الجانب من محادثاته فى برلين انظر ص ٢٥٩ — ٦٠ : ص ٢٦٥ — ٦ .

٥ ـ التعبير عن العطف على البلدان العربية والرغبة فى التعاون الاقتصادى معها[١].

وفى مقابل مثل هذا التصريح وعد حداد باسم حكومته بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ، وعقد اتفاق مع كل من دولتى المحور بخصوص استغلالهما لموارد العراق الطبيعية ، وبخاصة النفط ، وأن تقوم بدور الوساطة بين دولتى المحور والدول العربية الأخرى للوصول إلى اتفاقات مماثلة . وكان من المتوخى أن يخرج نورى السعيد من الوزارة وأن يحل محله ناجى شوكت على أثر إصدار دولتى المحور للتصريح والحصول على موافقتهما على مقترحات العراق . وكان من المتوخى بعد ذلك أن يتم الوصول إلى اتفاق حول تفاصيل التعاون المشترك على أن تجرى المفاوضات فى أنقرة . وكان من المتوخى بعد إعلان المحور لاستقلال سوريا وفلسطين وشرقى الأردن أن تعلن هذه الدول حيادها وأن تنشب الثورات فى فلسطين وشرقى الأردن . ووفقاً لاقتراح حداد كان من المتوخى أن يعد للثورة فى سوريا ، وأن تستعمل بخصوصها الأسلحة المأخوذة من مخازن الجيش الفرنسى التى كانت تشرف عليها لجنة وقف إطلاق النار . وتقرر أن تدفع اللجنة العربية العليا ثلث نفقات الثورات ، المقدرة بثلاثين ألف جنيه استرلينى شهرياً على أن يقسم الباقى بالتساوى بين ألمانيا وإيطاليا . وذهب حداد إلى أن الثوار سيشلون نشاط ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ جندى بريطانى فى فلسطين .وكانت الخطة بوجه عام بسيطة : فقد كان من المتوخى أن تشغل ثورة فلسطين عدداً كبيراً من القوات البريطانية ، على حين يعطل العراق نقل القوات من الهند بحيث يتعدل الموقف فى الصحراء الغربية لصالح إيطاليا . وكشرط أساسى لتنظيم الثورة فى فلسطين كان لا بد أن يتم قبل ذلك إعلان استقلال سوريا وإقامة حكومة وطنية فيها. ومن المعلومات التى توصلنا إليها نجد أن خطط حداد كانت تستند إلى الاقتناع بأن هزيمة فرنسا توفر لدولتى المحور تأثيراً حاسماً على الموقف فى سوريا . وكان

---

(١) يشير حداد فى مذكراته إلى مسودة الإعلان بصورة مخالفة إلى حد ما (المرجع السابق ، ص ٢٩ ـ ٣١) . ونجده يورد بوجه خاص صيغة مخالفة للبند المتصل بالوطن القومى لليهود : تعتبر ألمانيا الوطن القومى لليهود مخلوقاً غير شرعى ، وتعترف بحق العرب فى حل هذه المسألة بشكل مرض وفقاً لأمانى العرب القومية .

استغلال الفرصة لصالح العرب هو الهدف الرئيسى لأنصار الوحدة العربية .

وفى أثناء المحادثات التى جرت بين ناجى شوكت وبين ڤون بابن فى طرابيه نجده يطالب أيضاً بتصريح يوضح أهداف دولتى المحور فى المشرق العربى وعرض تنازلات مشابهة فى مقابل ذلك.

ومما لاشك فيه أن الساسة النازيين لم يخفوا رضاهم عن المواقف المعادية لإنجلترا التى اتخذها مغازلوهم من العرب . وتشير الشواهد الوثائقية إلى أن وزارة الخارجية الألمانية ، على الأقل ، كانت تعلق أهمية حقيقية على العمليات الحربية فى البحر المتوسط ، ولهذا اعتبرت موقف السكان العرب واحتمال محاربتهم لبريطانيا أمراً قليل الأهمية . ولكن البحر المتوسط كان فى عام ١٩٤٠ يقع خارج النطاق العملى لاهتمام الزعماء السياسيين والعسكريين النازيين . وبعد سقوط فرنسا كان هتلر يأمل أن ينهى الحرب بسرعة بإرغام بريطانيا على التسليم . وكانت فكرة القيام بهجوم على الاتحاد السوفييتى قد أصبحت سائدة[1]. وفى الواقع لقد كانت توجد آراء أخرى . وكان يودل يعتقد بوجوب تطبيق استراتيجية تقوم على هجوم غير مباشر على بريطانيا بدلاً من القيام بهجوم مباشر . وكان من رأيه أن أشد ضربة توجه ضد إنجلترا هى إغلاق البحر المتوسط عند قناة السويس وجبل طارق واقترح أن توجه وزارة الدفاع اهتمامها إلى البلدان العربية . ولكن لم يقيض لوجهات النظر هذه — التى عبر عنها بعض القادة العسكريين — أن تخرج إلى حيز التنفيذ . وفى الرسالة التى وجهها هتلر إلى موسولينى فى ١٣ يولية أشار ببرود شديد إلى خطط إيطاليا الخاصة بالقيام بهجوم على مصر وقناة السويس . ولكن حدث فى المؤتمر — الذى لم يلبث أن أصبح شهيراً — المنعقد فى ٣١ يولية فى برجهوف حيث عرض هتلر

---

(١) هناك معلومات وفيرة عن توقيت الهجوم على الاتحاد السوفييتى . ومن أهم المصادر المعروفة جيداً ملحوظات هالدر (بتاريخ ٣١ يولية ١٩٤٠) فى يومياته الخاصة بالحرب . ويذهب إنوفون رنتلن Enno von Rinteln فى كتابه (موسولينى حليفاً (Mussolini als Bundesgenosse) (توبنجن وشتوتجارت . ١٩٥١ ، ص ٥١) أن مساعد هتلر — الجنرال شمونت Schmundt — أخبره فى عام ١٩٤٢ بأن هتلر أمره فى يولية ١٩٤٠ بأن يجد مكاناً مناسباً لمركز قيادته (Wolfschanze) الذى كان يود أن يدير منه العمليات الحربية ضد الاتحاد السوفييتى . انظر أيضاً الدراسة الممتازة :

G.L. Weinberg : Germany and the Soviet Union; 1939-1941, Leyden, 1954.

رغبته فى شن هجوم على الاتحاد السوفيتى فى ربيع عام ١٩٤١ ، أن اقترحت القيادة العليا للجيش الألمانى إرسال قوة مدرعة إلى ليبيا . وقد عقدت هيئات الأركان الألمانية مؤتمرات فى أغسطس وسبتمبر لمناقشة هذه المسألة . ولكن براوشتش كان يعتقد فى ذلك الوقت أن الفوهرر لم يكن يعرف ما يريد القيام به فى شمالى إفريقيا ، وكان هدف هتلر المباشر هو الجزر البريطانية ، ولم يشغل البحر المتوسط ، باعتباره مجالاً للعمليات الحربية النشطة ، مكاناً كبيراً فى خططه . بل إن الألمان كانوا يعتبرون الصحراء الغربية جبهة حربية قليلة الأهمية حتى بعد أن اشتركوا فيها فيما بعد .

وهكذا لم يستطع القادة النازيون أن يقطعوا وعوداً واسعة المدى للعرب وذلك بسبب خططهم الحربية . وكان يبدو أن المزايا المباشرة الكامنة فى تصريح يساند مطالب العرب إنما هى مزايا محدودة . ولكن الريخ كان مهتماً بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، مع المحافظة على حياده الكامل والحيلولة دون تنفيذه لالتزاماته إزاء إنجلترا طبقاً لمعاهدة ١٩٣٠ . ولو أن الحكومة العراقية اتبعت مثل هذه السياسة لأصبحت لها أصداء فى بلدان عربية أخرى ولأثرت فى موقف تركيا التى كان من الممكن أن تشعر بأنها مضطرة لإعادة النظر فى علاقاتها مع بريطانيا نتيجة لتغير الموقف فى العراق المجاور . ولكن الألمان توصلوا من محادثاتهم مع حداد إلى أن العراقيين كانوا يفضلون تأجيل مثل هذه الإجراءات خشية رد الفعل فى لندن إلى وقت يصبح فيه العراق فى وضع يمكنه من المقاومة بمساعدة جيش ألمانى . كما أبدى الألمان اهتماماً بالثورة الفلسطينية التى أكد حداد أنه لا يمكن تنظيمها إلا من سوريا . ولكن السلطة الحقيقية فى سوريا كانت فى أيدى الفرنسيين برغم وجود اللجنة الإيطالية لوقف إطلاق النار فيها . وكان الألمان يخشون أن ينضم الفرنسيون إلى بريطانيا أو إلى ديجول . ومن الواضح أن برلين كانت لا تشعر بضعف إنجلترا الشديد فى البلدان العربية على أثر سقوط فرنسا ومساندة القوات الفرنسية فى هذه المنطقة لفيشى على مدى واسع .

لهذا فإذا كان الألمان بالرغم من ذلك يميلون إلى النظر بعين الاعتبار بشكل جزئى على الأقل إلى المطالب العربية ، فإن مرجع ذلك لم يكن فقط هو الاتجاه

العام إلى مساندة كل الحركات الموجهة ضد بريطانيا ، بل إنها كانت تعكس أيضاً خططاً معينة للمدى البعيد بخصوص العراق . ولم يخف الألمان فى مناقشاتهم مع حداد اهتمامهم بموارد العراق الطبيعية وبخاصة البترول . فمثلا أكد ڤون بابن أن المسألة العربية على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى ألمانيا من زاوية العلاقات بين الدول بعد الحرب . وقد كتب فى ٢٣ أكتوبر مايلى :

« يتضح من السيطرة الإيطالية فى البحر المتوسط بمعنى السيطرة الكاملة على الطريق البحرى المار بقناة السويس صوب أملاكنا فى وسط أفريقيا ، وهى الأملاك الواجب استعادتها ، بالإضافة إلى حاصلات النفط فى الشرق الأدنى — مدى حيوية ضمان الربط على الأقل لطريق برى واحد صوب الخليج مستقلاً عن هذا الطريق البحرى » .

كما أشار ڤون بابن إلى اهتمام ألمانيا بتركيا ، وأكد أن تركيا لابد أن تضطر إلى الارتماء فى أحضان الاتحاد السوفييتى فيما لو أحاطت إيطاليا بأراضيها من كل جانب. وأشار إلى ضرورة القيام بمحاولات لضمان طرق برية عبر البلقان وتركيا صوب الخليج العربى وإقامة علاقات صداقة مع البلدان العربية .

وجهة النظر الإيطالية وتصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠

وفى كل هذه الاعتبارات كان على الألمان أن يضعوا نصب أعينهم خطط إيطاليا الواسعة النطاق للتوسع فى البحر المتوسط .

وحين قابل موسولينى وشيانو هتلر وريبنتروب فى ميونخ فى ١٩ يونية ١٩٤٠ طالباً بنيس وكورسيكا والصومال الفرنسى وتوسيع حدود تونس على حساب الجزائر ، كما طالبا بمالطة ونزع سلاح كل القواعد البريطانية . كما طالب الحكام الفاشست بأن تكون لهم فى مصر والسودان نفس الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها البريطانيون ، وأن يكون لهم ميناء فى مراكش على المحيط الأطلنطى . وأن تضع إسبانيا يدها على جبل طارق . وقبل الألمان هذه المطالب دون أن يلتزموا

بشيء محدد ، ولم يعترضوا إلا على المطالب الخاصة بالجزائر ومراكش . وفى أثناء الزيارة التى قام بها شيانو لبرلين فى ٧ يولية لم يثر مسألة الجزائر ومراكش ، ولكنه أضاف إلى قائمة المطالب الإيطالية مايلي: قواعد استراتيجية فى سوريا وفلسطين وشرقى الأردن ، والاستيلاء على الصومال البريطانى وإفريقيا الاستوائية حتى بحيرة تشاد ، وبريم وسقطرى بالإضافة إلى جزيرة كورفو اليونانية وشمالى إبيروس مع تعويض اليونان بإعادة قبرص إليها. وهكذا كانت مطالب إيطاليا تعنى حكم روما دون منازع للشرق الأدنى بأسره ولشرقى البحر المتوسط والبحر الأحمر . ولم يشأ هتلر أن يقحم نفسه فى مناقشة بخصوص أطماع إيطاليا ، واقتصر على التصريح المحدد الذى جاء فيه أن البحر المتوسط والبحر الإدرياتى كانا منذ أقدم العصور يدخلان فى نطاق منطقة النفوذ التاريخية التابعة لشبه جزيرة الأبنين . كما وافقت الحكومة الألمانية دون نقاش على ادعاءات إيطاليا فى منطقة البحر الأحمر. ومما تجدر الإشارة إليه أن إيطاليا بعد مضى وقت قصير حاولت أيضاً الحصول على موافقة الاتحاد السوفييتى على ادعاءاتها فى البحر المتوسط والمناطق المجاورة .

وفى عام ١٩٤٠ كان لدى هتلر من الأسباب الخاصة ما يدعوه إلى اتباع سياسة حملته على تجنب الالتزام بأى وعود محددة إزاء إيطاليا . فقد كان يهدف إلى التفاوض مع إنجلترا حول عقد الصلح ، وكان يريد أن يحافظ على حرية حركته . على أن وثائق وزارة الخارجية الألمانية توضح أن ألمانيا قررت احترام وجهات نظر حليفتها ، وأنها لم تفكر على أى حال فى أن تقف ضدها بصورة علنية .

وفى عام ١٩٤٠ كانت فى يد إيطاليا أوراق كثيرة رابحة فيما يتعلق بعلاقتها بألمانيا. فأولا كانت توجد قوات مسلحة إيطالية كبيرة فى شمالى إفريقيا لم تكن حاقت بها أى هزيمة كبرى حتى ذلك الوقت . ولما كانت كل من الحليفتين

(١) فى أوائل عام ١٩٤٠ كانت توجد عشر فرق إيطالية فى ليبيا ، وكان من المتوخى أن تضاف إليها خمس فرق أخرى . وفى أوائل يونية ١٩٤٠ قدرت قوات إيطاليا البرية فى ليبيا بتسع فرق نظامية (قوام كل منها حوالى ١٣٫٠٠٠ جندى) ، وثلاث فرق من « القمصان السوداء » وفرقتين من الليبيين (قوام كل منها ٨٫٠٠٠ جندى) ، هذا بالإضافة إلى وحدات وطنية أخرى وتشكيلات حرس الحدود . ووصلت القوة الجوية فى ليبيا وجزر الدوديكانيز إلى ٣١٣ طائرة وفى شرقى إفريقيا إلى ٣٢٥ طائرة .
=Playfair,: The Mediterranean and the Middle East, 1, pp. 92-6.

تكره الاشتراك فى إدارة الحرب ، فلم يكن ثمة فى عام ١٩٤٠ سوى احتمال قليل للتعاون العسكرى بينهما[١] . وقد رفض هتلر اقتراح موسولينى الخاص بضرورة اشتراك القوات الإيطالية فى الهجوم على إنجلترا ، وفى نفس الوقت اقترح أن تساعد ألمانيا إيطاليا فى الهجوم جواً على قناة السويس . ولم يحظ هذا الاقتراح بدوره بموافقة إيطاليا . وللعوامل السابق ذكرها اقترحت القيادة العليا للقوات البرية على هتلر إرسال فيلق مدرع إلى إفريقيا . فوافق على إرسال قوة صغيرة ولواء مدرع ، ولكن إيطاليا عارضت بوجه عام وجود القوات الألمانية فى ليبيا . وطلبت من ألمانيا بدلا من ذلك أن تزودها بالدبابات . وفى خلال مقابلتهما فى ممر برنر فى ٤ أكتوبر وافق موسولينى فى النهاية على اشتراك القوات الألمانية المدرعة والجوية فى القتال فى الصحراء الغربية ؛ ولكن القيادة الإيطالية غيرت رأيها بهذا الصدد فى نوفمبر .

وقد عبرت ألمانيا بالفعل عن موقفها من المطالب الإيطالية فى الإجراءات التنظيمية التى اشتملت عليها اتفاقية الهدنة مع فرنسا . فقد كانت لجان الإشراف التى تشكلت فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش والصومال الفرنسى تتكون من أشخاص إيطاليين ؛ وجعلت تابعة للجنة هدنة تورين ، على حين أن المسائل المتصلة بفرنسا ذاتها كانت من اختصاص لجنة الهدنة الألمانية فى ڤيسبادن .

ومن الممكن اعتبار هذا إشارة إلى مناطق النفوذ فى المستقبل . ولكن هذا التقسيم كان مبدئياً وغير دقيق ، وبخاصة فيما يتعلق بإفريقيا . وقد تم الاتفاق كتابة على أن تخطيط مناطق الرقابة كان لا يعنى بأى شكل تحديد مناطق النفوذ السياسية أو الاقتصادية . والذى حدث بالفعل أن لجان الإشراف الإيطالية لم تحظ بنفوذ كبير ، على حين اضمحل النفوذ القليل الذى كانت تتمتع به نتيجة

= وبلغ مجموع القوات الإيطالية ٢٢٠,٠٠٠ جندى بالإضافة إلى ٨٠,٠٠٠ جندى من الوطنيين فى ليبيا و ٢٠٠,٠٠٠ فى شرق إفريقيا. وكان من رأى وزير أمريكا المفوض «فش» أن إيطاليا متفوقة على إنجلترا براً وجواً فى الرجال والعتاد. وكانت القوات البريطانية فى مصر والسودان لا تزيد على ٩٠,٠٠٠. على أن بعض الضباط الألمان كانوا يعتقدون أن الإيطاليين أقوى عددياً من القوات البريطانية ، وأنهم أقل مستوى فى القتال .Halder, Kriegstagebuch II, Stuttgart, 1963, p. 38 (يوميات حرب) .

(١) شكافون رنتلن Enno von Rintelen – ممثل ألمانيا فى القيادة العليا الإيطالية – أحياناً فى مذكراته من أن كلا من دولتى المحور كانت تقوم بحرب منفصلة .

لتطورات الحرب . وقد حسمت المسائل الأكثر أهمية المتعلقة بشمالى إفريقيا وسوريا ولبنان مع وفد ڤيشى فى ڤيسبادن ، ثم أحيلت إلى تورين للحصول على موافقة إيطاليا . وبدأ المندوبون الألمان يظهرون فى شمالى إفريقيا فى ربيع عام ١٩٤١ .

وتمشياً مع وجهة النظر الألمانية العامة صرح ڤون بابن لناجى شوكت فى يولية ١٩٤٠ بأن المزيد من تحريك الوضع السياسى فى الشرق الأدنى كان فى المحل الأول من اختصاص الحكومة الإيطالية . وقد كتب فورمان ، مدير القسم السياسى بوزارة الخارجية الألمانية ، فى مذكرته المؤرخة ٢١ يولية ١٩٤٠ أن إيطاليا يجب أن تكون لها الأولوية المطلقة فى تنظيم المنطقة العربية وهذا بالتالى يقضى على أي ادعاء ألمانى بصدد قيادة المنطقة العربية أو تقسيم هذا الادعاء مع إيطاليا . فيما يتعلق باتجاه العرب المعادى لإيطاليا تجاهه ينصح بعدم إنعاش أى آمال من الممكن أن تجد تعضيداً من جانب ألمانيا . وكان من رأيه أن البلدان العربية ذات أهمية بالنسبة إلى ألمانيا ، من وجهة النظر الاقتصادية فى المحل الأول ، وخاصة فيما يتعلق بالبترول العراقى والخطوط الجوية العراقية . وبهذا الصدد نجد فورمان يقترح إعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، ولكنه لم يكن يتوقع النجاح . وقد نصح بتنظيم الدعاية الشديدة المعادية لبريطانيا والمعتدلة ضد فرنسا. وتأكد هذا الموقف رسالة دورية وجهتها وزارة الخارجية الألمانية فى ٢٠ أغسطس .[١٣]

وكان من شأن تصريح سياسى له من المدى الواسع ما طالب به الساسة العرب أن يتعارض مع وجهات النظر التى سبقت الإشارة إليها . وقد عبر فون فايزساكر عن ذلك فى تعليقه المكتوب بخط يده على مذكرة فورمان كمايلى : « طالما أننا لانزال نخوض الحرب يجب علينا ألا نخبر العرب إلا بالطرف الذى نحاربه ، أى إنجلترا ، وألا نتحدث إلا عن تحرير العالم العربى دون إشارة مفصلة إلى أى أهداف تتعلق بالمستقبل » وهكذا نجد أن مبعوث ريبنتروب كان يرى الإبقاء على العلاقات مع الزعماء العرب : ولكن دون الارتباط بأى شىء . ولا يجب أن ننسى أن الألمان كانوا فى ذلك الوقت يعولون على إنهاء الحرب بسرعة فى الغرب ، وبالتالى كان يبدو أنهم يرون أن الارتباطات بعيدة المدى مع العرب من شأنها أن تغل أيديهم ، ليس فقط فيما يتعلق بحليفتهم إيطاليا ، بل أيضاً بالنسبة إلى فرنسا وبريطانيا.

ولكن المفتى ورشيد عالى وأنصارهما واصلوا جهودهم . وبعد الحادثة التى جرت بين ڤون بابن وناجى شوكت نجد بابن يطلب من برلين أن تتخذ موقفاً إزاء مسألة التصريح . وحين ازدات الغارات الجوية على إنجلترا فى بداية سبتمبر ، كان من الممكن توقع اشتعال معركة ليبيا فى أى وقت . وفى ٧ سبتمبر أصدر موسولينى أوامر بشن الهجوم دون انتظار لنزول الألمان إلى الجزر البريطانية . وفى ١٣ سبتمبر وصل الإيطاليون إلى سيدى برانى على بعد مسافة قليلة من حدود مصر الغربية . ولكن الإيطاليين لم يستطيعوا الإفادة من ضعف إنجلترا فى الشرق الأدنى فى ذلك الوقت . وبعد قليل أجل هتلر عملية « سبع البحر » إلى عام ١٩٤٠ ، وبلغ الكونت شيانو بهذا القرار فى ٢٧ سبتمبر . وقام كاينل بنقله إلى القيادة الإيطالية العليا فى بداية أكتوبر ، وكان من الواضح أن الحرب ستستغرق وقتاً طويلا .

وقد سبق أن ذكرنا أن السكرتير الخاص للحاج أمين وصل إلى برلين فى أغسطس . وكان الألمان يميلون إلى زيادة نشاطهم فى البلدان العربية نظراً لقرب العمليات على الجبهة الليبية التى رأت الدوائر العسكرية ضرورة اشتراك القوات الألمانية فيها . ولهذا نقل فايز ساكر إلى روما الأخبار الخاصة بأن حكومة الريخ توافق على مقترحات حداد . وقد كتب أنها « ستكون فى ظروف معينة على استعداد لمساعدة (العرب) بأسلحة تم الاستيلاء عليها وبنقود ، ولكنها لن تعمل إلا بالاتفاق مع إيطاليا » . واستطرد قائلا إن على السفير ڤون ماكنزن بالتالى أن يوضح كيفية حكم الكونت شيانو على التعاون مع العرب بوجه عام واحتمالات تنفيذ مقترحات حداد بوجه خاص . وكان من الواجب إحاطة الموضوع كله بسرية تامة بالنسبة إلى المفوضية العراقية فى روما المتصلة بنورى السعيد الميال إلى بريطانيا .

وفى ١٠ سبتمبر قدم فون ماكنزن مقترحات فايز ساكر إلى الكونت شيانو الذى قابلها ببرود شديد . وقد صرح وزير الخارجية الإيطالية بأنه كان لعدة سنوات على اتصال مستمر بالمفتى ، وأن بإمكان المبالغ السرية أن تحكى قصة هذا الاتصال . وشكا من أن هذه « الهدية التى قوامها عدة ملايين » لم يكن لها سوى مقابل تافه اقتصر على بعض الأعمال التخريبية فى خط أنابيب البترول الممتد من العراق إلى موانى البحر المتوسط ، وأنه كان من السهل إصلاح أعمال

التخريب التى تقوم بها العصابات العربية بين وقت وآخر . وبرغم ذلك فقد وعد شيانو بدراسة المقترحات .

وفى ١١ سبتمبر وضع قصر شيجى مسودة مذكرة فحواها أنه ليس من المرغوب فيه أن يصدر تصريح عام يؤيد الاستقلال التام غير المحدود للبلدان العربية وحقها فى الوحدة — فقد ذكرت أن الدول العربية لن تكون فى وضع يمكنها من الدفاع عن استقلالها ، وأن من المؤكد أنها ستقع تحت سيطرة دول أخرى . كما لم يكن من المتوقع أن تكون للتعاون مع العرب أى مزايا هامة بحكم أن العراق لم يكن فى وضع يمكنه من إعداد ثورة خطيرة فى البلدان العربية أو الدفاع عن حياده . ولهذا لم يكن من الضرورى القيام بما هو أكثر من إصدار تصريح شفهى ومد المفتى بالمساعدة المالية .

وبعد ظهر ١٤ سبتمبر جرت محادثة أخرى بين سفير الريخ وبين الكونت شيانو اشترك فيها دينو ألفييرى Dino Alfieri . وكان فون ماكنزن قد أحيط علماً بالفعل بمحادثة فون بابن مع ناجى شوكت الذى جعل اشتراك ألمانيا فى التصريح الإيطالى المكتوب بخصوص استقلال العراق وشرقى الأردن وفلسطين وسوريا شرطاً لإخراج نورى السعيد من الوزارة ولإعداد الثورة فى فلسطين .

ولكن شيانو أنكر أن إيطاليا قدمت مثل هذا التصريح كتابة ، وادعى أن إيطاليا كانت مهتمة بشىء يختلف عن هذا تماماً . وفى يونية ويولية أكد وزير إيطاليا المفوض فى بغداد ما أذاعه راديو بارى عدة مرات من حيث اهتمام إيطاليا بأن تحافظ البلدان العربية على استقلالها أو أن تحصل عليه ، وألا يمس البريطانيون تمامية أراضيها . وأكد شيانو أن المسألة لا تتعلق بأى تصريحات ملزمة ، ناهيك بالتصريحات المكتوبة .

ولكنه ذهب إلى أن إيطاليا كانت على استعداد لتلبية مطالب ألمانيا بخصوص هذه المسألة . وكان من رأيه أن من المفيد التمشى مع بعض المطالب العربية على ألا تتحقق كل رغبات العرب . وشكا من أن إيطاليا كانت قد أنفقت عدة ملايين على المفتى دون الوصول إلى أى نتائج ملحوظة يمكن أن تكون موضع كلام ، ولم يعترف المسئولون الإيطاليون بأن جابربيلى قد أصدر تصريحاً مكتوباً

بصدد السياسة الإيطالية فى البلدان العربية إلا فى أكتوبر ، ولكنهم ذهبوا إلى أنه قام بذلك دون أن تكون لديه تعليمات[١].

وملخص القول أن شيانو لم يتوقع قدراً كبيراً من التعاون مع ساسة بغداد ، ولكنه كان على استعداد لأن يساندهم بصورة معينة ، ولأن تحتوى دعاية المحور على تقدير عام – بل لقد أشار إلى تصريح غامض ما . وكانت لهجته تنم عن عدم ارتياحه الشديد لاهتمام ألمانيا بالشئون العربية وللخطوات التى اتخذتها . وكان الإيطاليون بوجه عام يميلون إلى أن يغضوا من قيمة أى تصريح[٢] . وفى النهاية تمت الموافقة على التصريح الشفهى التالى حول موقفهم من مطالب العرب :

« لقد نظرت ألمانيا (إيطاليا) التى كانت تكن مشاعر الصداقة للعرب ، وتحدوها الرغبة فى أن يتمتعوا بالرخاء والسعادة ويحتلوا بين شعوب الأرض المكانة التى تتناسب مع أهميتهم التاريخية والطبيعية باهتمام مستمر إلى نضال البلدان العربية فى سبيل الحصول على استقلالها . وبإمكان البلدان العربية أن تركن فى الجهود التى تبذلها لتحقيق هذا الهدف على عطف ألمانيا (إيطاليا) التام فى المستقبل أيضاً . وفى إدلاء ألمانيا (إيطاليا) بهذا التصريح، تجد نفسها على اتفاق تام مع حليفتها إيطاليا (ألمانيا) » .

وقد جاء فى مقدمة هذا التصريح الذى أذيع بالراديو أيضاً أنه قد صدر للرد على الدعاية البريطانية التى أساءت تصوير دولتى المحور اللتين اعتبرهما العرب محررتين لهم . ومما تجدر ملاحظته أن هذا التصريح لم يزد على كونه تعبيراً عن العطف . وأن كل ما جاء فى مقدمته قد أضيف « لجعل التصريح متمشياً مع العقلية الشرقية » – وفقاً لتعبير فايز ساكر .

كما لم يكن مقيضاً لموقف إيطاليا من المطالب العربية أن يظل خافياً لفترة

---

(١) ماكنزن إلى وزارة الخارجية (روما فى ٢ ديسمبر ١٩٤٠) . حداد : المرجع السابق ، ص ٤٠ – ٤٤ . ويضيف حداد أن الألمان أخبروه فى ٢٦ أكتوبر بأن الإيطاليين عثروا فى الملفات على تصريح جابرييل المكتوب المؤرخ ٧ يولية سنة ١٩٤٠ .

(٢) حداد : المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٨ . وتوضح رسالة ماكنزن إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢ أكتوبر أن الحكومتين الألمانية والإيطالية كانتا تريدان فى البداية أن يذيع حداد تصريحهما المشترك باللغة العربية .

طويلة . فقد كان حداد على اتصال بناجى شوكت — الذى كان حينئذ فى تركيا وبكامل الكيلانى . ومما زاد فى إضعاف ثقة العرب بالإيطاليين إنكار وزير الخارجية الإيطالية وجود تصريح جابر يبلى المكذوب فقد أوضحت تحفظات إيطاليا على التصريح الذى بلغت أجزاء منه إلى حداد ، ومنها مثلا ما يتعلق بحماية دولة كاثوليكية — أى إيطاليا — للموارنة اللبنانيين من جديد ؛ أهدافها الاستعمارية ليس فقط فى شمالى إفريقيا ، بل أيضاً فى المشرق العربى — كما كان من الصعب إخفاء المفاوضات الجارية بين ألمانيا وإيطاليا واليابان حول تقسيم مناطق النفوذ ، وهى المفاوضات التى تمخضت عن « الميثاق الثلاثى » الموقع فى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠ . وقد وضع حداد فى الاعتبار أن الزعماء الألمان قد اعترفوا بهيمنة إيطاليا على البلدان العربية . وفى أواخر سبتمبر بلغ جروبا بأن من المحتمل أن يفكر العرب فى التقرب من الاتحاد السوفييتى — إذ من المفهوم أن تشكيلهم لجمهورية سوفييتية سيمنحهم من الاستقلال قدراً أوفر مما يحصلون عليه نتيجة لخضوعهم لإيطاليا . ومن المحتمل جداً أن الألمان طمأنوا حداد بصفة غير رسمية ، حين أكدوا له أن الاتفاق الألمانى — الإيطالى حول هيمنة إيطاليا على البحر المتوسط كان مؤقتاً ، وأن الموقف سيتغير حين تنتهى الحرب ، وأن ألمانيا لم تكن تود أن تتخلى عن مشروعاتها وأهدافها فى البلدان العربية . وقد ذكر حداد فى مذكراته أن الألمان استغلوا كل الفرص ليقدموا له هذا التفسير ، وأشاروا إلى عدم ارتياح إيطاليا لخطط الريخ وأوجه نشاطه فى الشرق .

التحفظات العربية

فى ١٨ أكتوبر سلم فايز ساكر نص التصريح إلى السكرتير الخاص للمفتى ، وكلف فون بابن بتقديم نسخة إلى وزير العدلية العراقى ، الذى عاد إلى بغداد فى ٢٨ أكتوبر . وأذاعت محطتا روما وبرلين التصريح باللغة العربية فى ٢٣ أكتوبر ولكنه لم يظهر مطبوعاً . ولم ينشر فى الصحف الإيطالية والألمانية مع التعليقات المناسبة إلا فى بداية ديسمبر ، حين أدى الموقف العام إلى ازدياد اهتمام دولتى

المحور باتخاذ خطوات معينة فى البلدان العربية . وقد حدث هذا بعد مزيد من تبادل الآراء بين الحكومتين الألمانية والإيطالية . وبدا مرة أخرى أن الألمان كانوا أقل تردداً من الإيطاليين بصدد اتخاذ إجراءات خاصة بالشئون العربية . وفى ٢ يناير ١٩٤١ قبل الألمان رجاء الحكومة العراقية الذى عبر عنه كامل الكيلانى فى محادثاته مع ڤون هنتج ، وسجلوا على الورق تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ .

ورأت وزارة الخارجية الألمانية أن من المناسب فى ذلك الوقت أن تؤكد للملك ابن سعود اهتمامها بالمسائل العربية . وفى ٣٠ نوفمبر وجه ڤورمان رسالة إلى خالد القرقينى – مستشار الملك – أشير فيها مرة أخرى إلى أن الريخ يود أن يرسل مبعوثاً إلى جدة[1] . وقد صرح ڤورمان بأن ألمانيا لا ترغب فى حكم البلدان العربية أو اضطهادها ، بعكس إنجلترا ، وأنها « لاترغب فى أن تطبق على العرب مقياساً يختلف عن ذلك الذى تطبقه على الشعوب الأخرى » . وفى النهاية لفت ڤورمان النظر إلى تصريح المحور المشترك وإلى التصريح الذى أدلى به وزير إيطاليا المفوض فى جدة .

ولم يخف السكرتير الخاص للمفتى امتعاضه من نص التصريح حين نمى إلى علمه . وصرح فى محادثة له مع ڤون ڤايزساكر بأن العرب كانوا يتوقعون ماهو أكثر من ذلك – أى الاعتراف باستقلالهم ، وتساءل : لماذا لم تدل ألمانيا صراحة برغبتها فى تحقيق استقلال العرب ، إذا ما كانت ترغب حقيقة فى ذلك ؟ وأوضح أن بإمكان الدعاية البريطانية أن تتهم التصريح بأنه غامض وملىء بالتحفظات . وقد رد حداد على إيضاح ڤايز ساكر بأن ذكره بتجربة العرب مع الوعود البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، مشيراً بوجه خاص إلى اتفاق سايكس بيكو . وعبر عن خوفه من أن يكون من المحتمل وجود اتفاق سرى مشابه بين ألمانيا وإيطاليا فى ذلك الوقت . وحين أنكر ڤايزساكر وجود مثل هذا الاتفاق ، صرح حداد بأنه يود أن يكون التصريح خطوة أولى فى التعاون المشترك ، وأن ازدياد تطور العلاقات قد يكون موضوعاً لمفاوضات تجرى فى المستقبل بين وزيرى ألمانيا وإيطاليا المفوضين

---

(١) أرسل هذا الخطاب عن طريق المدعو قاسم مجيد ، ومن المحتمل أنه عربى سعودى كان يقيم فى برلين .

فى بغداد وبين الحكومة العراقية . وقبل ڤايز ساكر هذا التفسير ووافق على أن من واجب فون بابن أن يبلغ ذلك إلى ناجى شوكت فى أنقرة .

كما وجد خالد القرقنى ثغرات فى التصريح ، وكانت له تحفظات بصدد تأكيد ألمانيا أنها لا ترغب فى حكم العرب ، وأشار فى رده على رسالة فورمان إلى أنه يريد أيضاً أن يتأكد من أن حلفاء ألمانيا لا يريدون ، تحت أى ستار ، أن يخضعوا البلدان العربية لحكمهم . وليس من الصعب أن نستنتج أن الطرابلسى كان يعنى إيطاليا .

وبإمكاننا أن نتبين مدى التحفظات التى ووجه بها تصريح ٢٣ أكتوبر من جانب الساسة العرب العالمين ببواطن الأمور من رسالة بعث بها بعض القوميين المقيمين فى بيروت إلى الحكومة الألمانية (يناير ١٩٤١)[١]. وقد أكدت الفئة التى أطلقت على نفسها اسم « اللجنة القومية العربية فى بيروت » أن أهم ما يطالب به العرب هو إقامة دولة عربية موحدة فى آسيا ، تليها وحدة أخرى تضم مصر بوجه خاص ، وأن العرب كانوا يتوقعون من ألمانيا أن تساند أهدافهم . أما فيما يتعلق بالتصريح فقد وضعت مجموعة بيروت السؤال الآتى : ما الذى تفهمه حكومة الريخ من كلمة « استقلال » ؟ هل كانت تعنى استقلال كل بلد عربى على حدة ، وهو ما اعترف به الحلفاء ، أو هل تعنى الاستقلال المشترك لكل العرب فى دولة ثابتة ؟ وتساءلوا : هل يمكن فهم اصطلاح « استقلال » بنفس مفهوم استقلال ألمانيا ، أو هل هو متعلق بالاستقلال الرسمى الذى يشبه الاستقلال الذى منحته إنجلترا للعرب فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؟ وفى إشارتها إلى العرب ، هل كانت حكومة الريخ لا تقصد إلا عرب غربى آسيا ؟ .وهل كانت تقصد أيضاً عرب شمالى إفريقيا ؟ كانوا يريدون أيضاً أن يعلموا ما إذا كانت حكومة الريخ على استعداد للاعتراف بدولة عربية تضم غربى آسيا ؛ على حين تعترف بالحق فى حسم مستقبل البلدان الأخرى ، وبوجه خاص مصر . وفى النهاية تساءلوا عما إذا كانت ألمانيا تعترف بوحدة السكان فى كل بلد على حدة على اعتبار أن ذلك يعنى القومية

---

(١) رسالة وقعها أسد حازم وأنيس الصغير وأحمد الداعوق وعلى نصر الدين ومحمد على بيهم وقسطنطين جنى . انظر مذكرة جروبا ، برلين فى ١٥ فبراير ١٩٤١ — ٦٤٧ / ٢٥٥٠٥٨ / ٩ .

العربية ، أوما إذا كانت تقبل نظرية الدول الغربية الخاصة بكون التمييز الجنسي والديني يشكل عاملا حاسماً .

ومما لا شك فيه أن برلين لم يكن باستطاعتها سوى تقديم إجابات غامضة ، إن لم تكن كلية ضد أماني العرب القومية . ولكن الألمان لم يجيبوا على الإطلاق على الأسئلة السابقة . فلم يشعروا في ذلك الوقت سواء بالحاجة أو بالرغبة في أن يجعلوا موقفهم أكثر تحديداً . أما إيطاليا فمن الواضح أنها كانت تطمع في التوسع السياسي والاقتصادي وفي أن تفرض استعمارها على منطقة البحر المتوسط – ولا شك أن هذا الاتجاه قد حدد موقفها فيما يتعلق بالمطالب العربية .

وبعد أن حصل حداد على التصريح أنهى بعثته إلى برلين ، وتوجه إلى روما حيث أثار في البداية مسألة تقديم المساعدة المالية والأسلحة للقوميين العرب في فلسطين . وكان من المتوقع في البداية أن ينتظر إجابة المسئولين الإيطاليين ، ولكنه عاد مسرعاً إلى بغداد حين نشبت الحرب الإيطالية اليونانية (٢٨ أكتوبر ١٩٤٠) .

وملخص ما ذكرناه أن تصريح ٢٣ أكتوبر لم يكن يستند إلى أية خطط سياسية أو عسكرية محددة أو فعلية من جانب دولتي المحور بشأن الدول العربية . فحين أصدرت ألمانيا وإيطاليا التصريح كانتا مدفوعتين في المحل الأول بما كانت تتطلبه الدعاية الموجهة ضد بريطانيا بوجه عام . وكان من الواضح أن الحرب لن تنتهي بسرعة وأن مداها سيطول – وكان شمالي إفريقيا قد أصبح مسرحاً للعمليات الحربية . لهذا فإن دولتي المحور لم تجدا من الصواب أن تغضبا أنصارهما العرب . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسألة كانت تتعلق بتسهيل عمل المخابرات الألمانية والعملاء القائمين بتشتيت انتباه الحلفاء في العالم العربي[١] .

---

(١) كان على حداد أن يتلقى من رينتروب رسالة موجهة إلى المفتي ، مضافاً إليها تحذير بأنه لا يجب على اللجنة العربية في بغداد أن تتخذ أي خطوات سابقة لأوانها . كما أنها كانت تتضمن وعداً بأن تبذل حكومة الريخ كل ما يمكنها لمساعدة العراق في حالة نشوب الثورة ضد إنجلترا في العراق (خضوري ، ص ١٨٨) . على أننا لم نعثر على هذه الرسالة التي لا تؤكدها مذكرات حداد .

الفصل السادس

العراق على شفا الثورة

صدر تصريح ٢٣ أكتوبر ، ثم تأكد فى ٥ ديسمبر فى الوقت الذى شهد تطورات هامة على مسرح العمليات الحربية فى البحر المتوسط .

خطط ألمانيا فى البحر المتوسط

فى أواخر أكتوبر ، حين كان هتلر قد تخلى عن فكرة غزو الجزر البريطانية فى الوقت الذى كان فيه عاجزاً عن بدء الحرب ضد الاتحاد السوفييتى فى وقت متأخر من السنة ، نجده يفكر فى احتمال القيام بعمليات حربية فى البحر المتوسط . وطالما كان هتلر يتوقع الانتصار على إنجلترا ، فإنه لم يعر كبير التفات إلى المنطقة التى كان من المفروض أنها مسرح نشاط إيطاليا . وحين بدا لألمانيا أن احتمال القيام بغزو مباشر لإنجلترا والقضاء عليها قد بدأ يضمحل ، أخذت تضع خططاً لمهاجمة المواقع البريطانية فى البحر المتوسط . وفى أواسط أكتوبر رأت القيادة البحرية الألمانية أن القيام بهجوم على الإسكندرية وقناة السويس وتحريك الموقف فى البحر المتوسط بوجه عام قد يقرر مصير الحرب . وفوق ذلك أكدت القيادة البحرية أن السيطرة على الجزء الغربى من البحر لا تكفى ، بل إن الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية تملى أيضاً ضرورة السيطرة على شواطئه الشرقية . وقيل إن رايدر كان قد أخبر هتلر فى ٢٦ سبتمبر بضرورة الاستيلاء على قناة السويس ، على أن تشترك القوات الألمانية اشتراكاً فعالا فى تحقيق هذا الهدف . وساد نفس الرأى فى القيادة العليا للقوات البرية . وكان من رأى هويسنجر Heusinger وباولوس وجيلين Gehlen ضرورة تنسيق اشتراك ألمانيا فى العمليات الحربية فى ليبيا مع الاستيلاء على كريت والقيام بعمليات حربية فى اتجاه بلغاريا وتركيا وسوريا ، أى بالهجوم على قناة السويس من الشمال . وفى ٢ نوفمبر ١٩٤٠ وضع الجنرال هالدر مذكرة بعث بها إلى هتلر زكّى فيها هذه الخطط .

وكانت هذه العملية تحتاج إلى لوائين ميكانيكيين ؛ وكانت فى راى هالدر تحتاج إلى ستة أشهر ، على حين رأى باولوس أنها تحتاج إلى ثلاثة أشهر . وكان من الواجب أن تستخدم فى ليبيا فرقتان مصفحتان وكتيبة ميكانيكية[]، بالإضافة إلى عدد كبير من القوات المتخصصة :

وبرغم أن هذه الآراء لم تجد قبولاً لدى هتلر ، إلا أنه يبدو أنه تأثر بها لدرجة ما . ولا يبدو أن الخطة الاستراتيجية التى سبقت الإشارة إليها كانت تؤخذ مأخذاً جدياً فى الفترة الممتدة ما بين « معركة بريطانيا » التى لم تكسبها ألمانيا وبين الهجوم على الاتحاد السوفييتى :

وكان لوجهات النظر السابق ذكرها أثرها فى القرار الخاص بمساعدة إيطاليا فى شرقى البحر المتوسط . ولهذا أصدر هتلر أمره فى ١٤ سبتمبر ببذل جهود كبيرة لإرسال لواء إلى ليبيا . ولكننا سبق أن أوضحنا أن موسولينى لم يكن يميل فى ذلك الوقت إلى قبول المساعدة الألمانية — إذ كان من رأيه أن من الأفضل فى البداية أن يتم الاستيلاء على مرسى مطروح ، وهو ما كان يعتقد أن من الممكن تحقيقه فى المستقبل القريب . وقبل وقت قصير من غزو إيطاليا لليونان ، كتب الجنرال توما تقريراً عن الموقف فى ليبيا لم يكن مشجعاً . كما أكد توما أن إيطاليا لم تكن ترغب فى المساعدة الألمانية . هذا إلى أن الشكوك كانت تساور الألمان حول إمكانهم تقديم مساعدة عاجلة لإيطاليا .

وفى ٢٤ أكتوبر عبر توما وباولوس وهويسنجر عن رأيهم الخاص بأن على الإيطاليين ، فيما لو قبلوا المساعدة الألمانية ، أن ينتظروا وصول القوات الألمانية قبل أن يستولوا على مرسى مطروح . وكان هذا الرأى مشابهاً أيضاً لرأى هالدر الذى عبر عنه فى المذكرة التى وضعها بتاريخ ٢ نوفمبر . وفى ٤ نوفمبر صرح هتلر بأن القيادة الإيطالية ترغب فى استخدام الألمان باعتبارهم « ضريبة دم » .

وهكذا أدت أسباب عدة إلى أن ينتصر فى القيادة الألمانية الرأى القائل بأن ليس ثمة معنى لنقل القوات الألمانية إلى ليبيا بالسفن قبل الاستيلاء على مرسى مطروح على أية حال : حينئذ بدأ هتلر يفكر فى القيام بعمليات حربية فى غربى البحر المتوسط — فيبدأ بجبل طارق باعتباره الهدف الرئيسى ، ثم يثنى

باحتلال الجزء الغربى من ساحل شمالى إفريقيا. وفى حالة نجاح هذه الخطة لن يصبح البحر المتوسط شرياناً للمواصلات البريطانية ، وسيكون من السهل تدمير كل القواعد البريطانية فى البحر المتوسط .

وقد ناقش هتلر تنفيذ هذه الخطط مع فرانكو فى هندايه (٢٣ أكتوبر ١٩٤٠) ومع بيتان ولافال فى منتوار (٢٤ أكتوبر ١٩٤٠) وأنشأ مكتباً خاصاً لاقتصاديات جيش إفريقيا . وفى ١٢ نوفبر أصدر هتلر تعليماته رقم ١٨ بصدد التعاون الوثيق بين ألمانيا وبين حكومة فيشى الفرنسية ضد إنجلترا ، وبخاصة فى أملاك فرنسا فى شمالى إفريقيا ، وبصدد تنفيذ العملية المشتركة فليث Felix مع إسبانيا للاستيلاء على جبل طارق وطرد القوات البريطانية من غربى البحر المتوسط . كما دعت هذه التعليمات إلى مديد المساعدة إلى إيطاليا فى مستقبل غير محدد ولكنه قريب نسبياً . وهكذا كان على ألمانيا أن تبذل نشاطاً فى البحر المتوسط وفقاً لما عبر عنه العسكريون ، ولكن على أن يكون محور العملية فى شتاء وربيع عام ١٩٤٠ هو الجزء الغربى من هذه المنطقة .

على أن المفاوضات التى جرت فى هندايه ومنتوار لم تتمخض عن أية نتائج محددة ، وتبخرت فى ديسمبر كل الآمال التى داعبت أحلام القيادة النازية فى أكتوبر . وفى أوائل ديسمبر لم يقتصر الدكتاتور الإسبانى على رفض الاشتراك ، بل إنه أيضاً رفض الموافقة على القيام بهجوم ألمانى على جبل طارق . وفى ١٣ ديسمبر كانت قد بدأت إحدى الفترات الدرامية فى تاريخ فرنسا المحتلة ، حين أخرج بتان لافال من الوزارة . وفسرت برلين هذا الحادث تفسيراً صحيحاً إلى حد ما على أنه ضربة موجهة إلى سياسة التعاون على نطاق واسع — وهى السياسة التى وضعت أسسها فى منتوار ، وعلى أنه موجه بالتالى ضد استعمال شمالى إفريقيا الفرنسى فى خطط هتلر الحربية .

ولا شك أن النشاط الألمانى فى غربى البحر المتوسط كان مقيضاً له أن يكون أمراً صعباً جداً فيما لو لم تتعاون حكومتا فيشى وفرانكو .

وقد أملت العراقيل الموضوعة فى غربى المتوسط احتمال إغلاق هذا الشريان البحرى من جهة الشرق — أى من اتجاه قناة السويس . كما أن التطورات التى حدثت

شرقى البحر المتوسط جعلت النشاط السياسى والعسكرى النازى ينتقل إلى هناك .

وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ غزا موسولينى اليونان ، ولكن مجرى القتال تطور بصورة غير مرضية بالنسبة إلى إيطاليا . فقد منيت القوات الإيطالية بخسائر فادحة ، ولم يقتصر اليونانيون على صد الغزاة ، بل إنهم اخترقوا حدود ألبانيا . وفى ليلة ١١ – ١٢ نوفمبر هاجمت الطائرات البريطانية التى كانت تقلها حاملة الطائرات إلسترىوس القاعدة البحرية الإيطالية فى تارانتو وأغرقت بالطوربيد عدداً من السفن الحربية – وقد عدل هذا الهجوم علاقات القوى البحرية فى البحر المتوسط لصالح بريطانيا .

ويبدو من الرسالة الشخصية التى بعث بها هتلر إلى موسولينى فى ٢٠ نوفمبر أنه شعر بالأسف الشديد للكارثة التى حلت بحليفه : فقد اعتبرها ضربة موجهة إلى هيبة المحور ، وعبر عن مخاوفه من أن تمكن الحرب اليونانية إنجلترا من الحصول على قواعد جوية فى اليونان تمكنها من مهاجمة آبار البترول الرومانية وموانى ألبانيا وجنوبى إيطاليا . ولتجنب هذا الخطر اقترح الفوهرر أن يتم الاستيلاء على جبل طارق (وهو ما أصبح مهمة مستحيلة بعد وقت قصير) وعلى مرسى مطروح وإنشاء قاعدة جوية فيها تصلح لضرب الإسكندرية وبث الألغام فى قناة السويس . وكان من المقيض لإغلاق قناة السويس فى وجه النقل أن يصبح أهم إجراء عسكرى ، على حين يؤجل غزو مصر إلى خريف العام التالى . وكتب هتلر أن من الممكن حل مشكلة البحر المتوسط فى ذلك الشتاء باستخدام قوات ألمانية ، على أن تعود هذه القوات فى موعد غايته أول مايو ١٩٤١ .

ثم قرر هتلر فى ربيع عام ١٩٤١ إرسال قوات ألمانية إلى اليونان . ولكنه لم يعدل خطته لكى يقوم بعمليات حربية فى داخل مصر تقتصر على الاستيلاء على مرسى مطروح على أن يتلوه القيام بنشاط جوى . وفى ٥ ديسمبر صرح هتلر لبراوشتش وهالد وبراند بأن ليبيا لم تعد لها أية أهمية عسكرية بالنسبة إلى ألمانيا[١].

---

(١) Halder: Kriegstagebuch, II, Stuttgart, 1963, p. 309.

ولكن يجب أيضاً أن نستشف أن هتلر كان لا يزال يعول حينئذ على تنفيذ عملية « فليث » بمساعدة فرانكو فى موعد أقصاه ١٠ يناير ١٩٤١.

ونحن نرجح ، بناء على رسالة هتلر إلى موسولينى ، أن الفوهرر كان يفكر فى شن هجوم فى البحر المتوسط وغزو الاتحاد السوفييتى باعتبارهما مرحلتين من الحرب تتلو إحداهما الأخرى وتكملها . إذ كيف يمكننا تفسير التاريخين اللذين أشار إليهما هتلر فى ذلك الخطاب : أول مايو ١٩٤١ وخريف ١٩٤١ ؟ وقد نصت التعليمات الصادرة بعد ذلك بصدد عملية (بربار وسا) على أن تبدأ عملية شن الهجوم على الاتحاد السوفييتى فى مايو ١٩٤١ . ومن المعروف أيضاً أن الخطط النازية كانت تنص على انتهاء هذه العملية فى خريف العام نفسه . وهكذا يبدو أن هتلر كان يتوقع فى أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر ١٩٤٠ أن تحتل قوات المحور البلقان بحلول ربيع ١٩٤١ ، وأن تصيب قناة السويس بالشلل ، وتستولى على جبل طارق بمساعدة إسبانيا ، ثم تقوم بعد ذلك بغزو الاتحاد السوفييتى . وحين تنتهى عملية بربار وسا يصبح بحيز الإمكان حسم مسألة البحر المتوسط بصورة نهائية ، وذلك بغزو مصر واحتلال الأراضى التى تسيطر عليها بريطانيا .

هزائم إيطاليا والتعليمات رقم ٢٢

انهارت خطط هتلر خلال المرحلة الأولى لتنفيذها . فبرغم ضعف إنجلترا لم يسفر الهجوم الإيطالى الذى بدأ فى ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ عن أية نتائج . وفى ٥ سبتمبر ١٩٤٠ بلغ تشرشل مجلس العموم بالقرار الخاص بإرسال تعزيزات قوية إلى الشرق الأوسط من إنجلترا التى كانت تواجه حينئذ تهديداً خطيراً من احتمال تعرضها لغزو النازيين . وفى ٩ ديسمبر ١٩٤٠ هاجم الجنرال أرشيبالد ويقل — قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط — الجيش الإيطالى على حدود مصر . وفى غضون أسبوع تم طرد القوات الإيطالية من الأراضى المصرية وأجليت عن السلوم والبردية . وما حل شهر فبراير حتى كان قد قضى على قوات المرشال جراتسيانى : فقد تم تسليم ١٩ جنرالا و ١٣٠,٠٠٠ جندى ، ولم ينج من هذا المصير سوى ٧,٠٠٠ جندى . ووقعت برقة فى أيدى البريطانيين . وهكذا تم الاحتفاظ بالمواقع الإنجليزية فى البحر المتوسط ، وهى المواقع التى كان هتلر يهدف إلى القضاء

عليها خلال شتاء ١٩٤٠–١٩٤١ . وظهر رأى قوى فى إيطاليا ، يسانده جراتسيانى ، كان يتوقع فقدان إيطاليا لكل أملاكها فى شمالى إفريقيا .

وقد صدم هتلر للهزيمة المرة التى حاقت بالمحور فى شمالى إفريقيا ، وهى الهزيمة التى أدت إلى حد كبير إلى التراجع عن الخطط التى أفصح عنها فى رسالته المؤرخة ٢٠ نوفمبر — إذ أن المسألة لم تعد تتعلق باشتراك ألمانيا فى هجوم يتكلل بالنصر ، بل بتلافى آثار الكارثة . وفى ديسمبر طالبت إيطاليا ألمانيا بأن تساعدها ضد اليونان ، كما طالبت بالأسلحة والمواد الخام ، بما فى ذلك مزيد من شحنات الفحم . ومنذ ذلك الوقت اتضحت العلاقة غير المتكافئة بين دولتى المحور بصورة متزايدة . ووافق الريخ على مطالب إيطاليا . ولكنه طالب بتزويد الصناعة الألمانية بالعمال الإيطاليين وبالإشراف على كيفية استخدام مساعدته . ومنذ ذلك الوقت بدأ الخبراء الاقتصاديون الألمان ومندوبو الجستابو والمخابرات العسكرية يحتلون مراكز قيادية فى إيطاليا .

كما جرى تعديل فى العلاقات بين دولتى المحور فى شمالى إفريقيا ذاته — وصرح يودل فيما بعد بقوله : « نظراً لظهور علامات ضعف القوات الإيطالية وبوادر فشلها ، أصبح شمالى إفريقيا أكثر من أى وقت مضى ميدان حرب ألمانى » . وكانت نقطة البدء فى هذا الاعتقاد هى أحداث شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ .

وفى ١٥ نوفمبر ، خلال المقابلة التى جرت بين كايتل وبادوليو ، تقرر تأجيل اشتراك القوات الألمانية فى العمليات الحربية فى إفريقيا بصورة متزايدة حتى يتم الاستيلاء على مرسى مطروح . وفى البداية لم تؤد هزيمة جراتسيانى فى أوائل ديسمبر إلى أى تغيير فى هذا القرار . ولم تطالب القيادة الإيطالية العليا بمساعدة مباشرة فى ليبيا (١٩ ديسمبر) إلا بعد أن استقال بادوليو وتولى رياسة الأركان العامة الكونت أوجو كافاليرو Ugo Cavallero نصير أكبر قدر ممكن من التحالف مع ألمانيا . وفى الوقت نفسه كان الإيطاليون بحاجة إلى أسلحة وعتاد لعشر كتائب ، وإلى مواد خام لصناعاتهم الحربية . وكان على ألمانيا أن ترسل كتيبة مصفحة إلى شمالى إفريقيا على وجه السرعة . فبرغم أن الجيش البريطانى المعسكر فى مصر كان أضعف بكثير من القوات الإيطالية من الناحية العددية ، إلا أنه كان ممكناً ويتكون من

قوات مدرعة قوية . وفى أوائل يناير طالب الإيطاليون من جديد بإرسال وحدة ألمانية مدرعة إلى ليبيا .

وفى رسالة بعث بها هتلر إلى موسولينى فى ٣١ ديسمبر أكد أن إيطاليا ستحصل من ألمانيا على المساعدة التامة . وفى مؤتمر عقده هتلر للتشاور مع قادته العسكريين فى ٨ و ٩ يناير ١٩٤١ ، أشار إلى ضرورة القيام بكل ما يمكن القيام به لتجنب سقوط المواقع الإيطالية ، وأشار إلى أنه سيرسل قوات ألمانية قوية إلى شمالى أفريقيا واليونان لتحقيق هذا الغرض . وقد نصت التعليمات رقم ٢٢ الصادرة فى ١١ يناير على أن من واجب ألمانيا أن تساعد إيطاليا لاعتبارات إستراتيجية وسياسية ونفسيه . وكان الهدف الأول من وراء هذه المساعدة هو الاحتفاظ بطرابلس الغرب . وقد نصت هذه التعليمات على إرسال وحدة ألمانية (رابطة الحرية) إلى أفريقيا حوالى ٢٠ فبراير لمساعدة الإيطاليين على التصدى للقوات المدرعة البريطانية . وكانت المهمة الرئيسية لقوة الطيران (التى كان من المفروض نقلها من النرويج إلى صقلية طبقاً للتعليمات رقم ٢٢) هى التصدى للقوات البحرية البريطانية وقطع الاتصالات بين غربى البحر المتوسط وشرقيه . وكان على القوات الجوية الألمانية أن تهاجم من قواعدها فى طرابلس الموانى وموانى التفريغ الواقعة على سواحل مصر وبرقة[1] . وقد اعتبرت هذه العملية مجرد عملية دفاعية . وكان الألمان يرغبون فى إستخدام قوات صغيرة . وتأكدت هذه القرارات فى مقابلة جرت بين هتلر وموسولينى فى ١٩ — ٢٠ يناير فى أوبر سالزبورج : وكانت القيادة الألمانية مقتنعة بأن الإيطاليين لن يحافظوا على برقة ، وأن لا خوف على طرابلس الغرب ، لأن كل العمليات الحربية هناك قد أوقفت فى مايو بسبب الحرارة الشديدة . وما لبثت أن وردت التقارير من شمالى إفريقيا بأن القوات الألمانية المخصصة لهذا الغرض كانت غير كافية فى ظل الموقف الجديد .

---

(١) يورد هوباتش نص الأمر فى كتابه (أوامر هتلر الخاصة بإدارة الحرب ١٩٣٩ — ٤٥)

W. Hubatsch, Hitlers Weisungen für die Kriegsführung (1939-1945), pp. 93-5.

وفى ٢١ يناير قررت القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة تقديم تاريخ نقل القوات الألمانية إلى شمالى إفريقيا من ٢٠ فبراير إلى ١٥ (نفس المرجع ، ص ٩٦ — ٧) .

وكان من رأى هتلر وجنرالاته أن من المهم جداً المحافظة على الجبهة الأفريقية ، إذ أنهم كانوا يخشون أن يؤدى انهيار إيطاليا نهائياً إلى تمكين البريطانيين من استخدام قواتهم فى ميادين أخرى للقتال .

وفى ٢٢ يناير سقطت طبرق قلعة إيطاليا الساحلية فيما وراء البحار ، وكان الإيطاليون يأملون أن تقاوم حاميتها وتحول دون زحف البريطانيين على بنغازى وأجدابية . وفى مؤتمر عقده هتلر فى ٣ فبراير مع القيادة العليا رأى ضرورة تعديل آرائه السابقة ، وأشار إلى ضرورة إرسال لواء مدرع إلى إفريقيا بدلاً من وحدة تعويق . وكان عليه أن يشجب وجهة نظر براوشتش الخاصة بأن إرسال قوات ألمانية إضافية إلى ليبيا أمر مرغوب فيه . وفى ٢٧ يناير صرح القائد العام للقوات البرية الهتلرية بأنه « لا يمكن المساس ببرباروسا أكثر من ذلك » . وصرح فى مؤتمر انعقد فى ٣ فبراير بمايلى : « وحين نعمل حساباً ختامياً نجد أن برباروسا سوف تفتقدها — أى القوات المدرعة التى كان من المتوخى أن ترسل إلى ليبيا — » .

وبالإضافة إلى اللواء رقم ٥ — مدرعات خفيفة — الذى خصص من قبل ، كان من المتوخى أن يشكل اللواء رقم ١٥ فيلق ألمانيا الإفريقى Deutsches Afrika-Korps .

وتم تبليغ موسولينى بهذا القرار فى ٥ فبراير . وصدر الأمر فى اليوم التالى بتنفيذ العملية زهرة الشمس (Sonnenblume) ، وهو الاسم الذى أطلق على عملية نقل القوات الألمانية بحراً إلى شمالى إفريقيا ، وعين هتلر الجنرال إروين روميل قائداً عاماً لفيلق أفريقيا . وفى محادثة جرت فى ٧ فبراير بين روميل وهتلر ، كلف الفوهرر قائده بمهمة محددة جداً ، وإن تكن على جانب كبير من الأهمية من الوجهة السياسية . فقد كان عليه أن يحول دون ضياع مستعمرات إيطاليا فى شمالى إفريقيا ؛ لأن ذلك من شأنه أن يشكل كارثة بالنسبة إلى روح حليفه المعنوية . وكان من الضرورى جداً أن يحال بين القوات البريطانية وبين الاقتراب من سواحل الأملاك الفرنسية التى كان يشرف عليها الجنرال ڤيجان الذى كان هتلر يشتبه فى كونه على اتصال ببريطانيا . وفى هذه الحالة كان من الضرورى شن هجوم مضاد . وكان على روميل أن يقود قوات ألمانيا وإيطاليا الميكانيكية تحت إمرة القيادة الإيطالية العليا لجبهة شمالى إفريقيا . ولكن كان من المتوخى أن تكون القوات الجوية كلها

خاضعة للقيادة الألمانية التى كان يراسها الجنرال فرولش Fröhlich بصفته قائداً لطيران إفريقيا . وكان لهذه المعارك هدف آخر هو السماح للقوات الجوية الألمانية بمجال أوسع للعمليات فى شمالى إفريقيا .

وحين رست الناقلات الألمانية الأولى فى طرابلس الغرب كان موقف القوات الإيطالية ميئوساً منه فى شمالى إفريقيا وصعباً فى بلاد اليونان . ولم يحدث تغيير فى الموقف إلا فى الربيع حين بدأ روميل هجومه فى الصحراء وحين شن الألمان عملية ماريتا Marita فى البلقان .

الموقف فى البلدان العربية

وحين قرر الألمان الاشتراك فى العمليات الحربية فى شرق البحر المتوسط كان عليهم بالضرورة أن يبدوا اهتماماً أكبر بالبلدان العربية . وقد سنحت للريخ الثالث فرصة طيبة لتقرير مصائر هذه البلدان .

وفى مصر كان يبدو أن الأحوال هادئة ، ولكن لم تنته الصراعات الناشبة فى داخل الطبقة الحاكمة فى مصر حول موقف مصر من الحرب . وفى ذلك الوقت خرجت إلى حيز الوجود مؤامرة عسكرية واضحة العداء لبريطانيا ، وأصبحت أساساً لحركة الضباط الأحرار التى استولت على الحكم فى عام ١٩٥٢ — وكان يرعى هذه المؤامرة عزيز على المصرى ، وهو شخص يكاد يكون أسطورياً فى تاريخ الحركة القومية العربية . وبعد أحداث يونيه ١٩٤٠ كانت البلاد هادئة نسبياً برغم أن المتآمرين دبروا ثورة معادية لبريطانيا فى نوفمبر . وتجمد الموقف فى شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ بسبب الانتصارات البريطانية وضعف إيطاليا ، وضمن تدفق القوات من شتى أرجاء الإمبراطورية البريطانية الأمن والاستقرار .

كما ساد الاستقرار العربية السعودية . فلم يكن لتطورات الحرب سوى صدى ضعيف هناك ، وأبدت الدوائر الحاكمة تحفظاً تاماً إزاء الحرب . ذلك أن اشتداد الهجوم البريطانى فى شرق إفريقيا فى بداية عام ١٩٤١ ، وتصفية إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية فى ربيع العام نفسه وسيطرة الأسطول البريطانى

على البحر الأحمر — كل ذلك حال دون تخلى السعوديين عن موقفهم القائم على الترقب والانتظار .

وفى فلسطين كان الموقف هادئاً على الأقل من الناحية الظاهرية . فى ذلك الوقت كانت الحركة القومية العربية بدون قيادة على حين أن وجود عدد كبير من القوات الإمبراطورية قد منع حدوث أى مصادمات عنيفة . حقيقة لقد نما شعور المقاومة فى ذلك الوقت بسبب ارتفاع الأسعار والبطالة ، إلا أن هذه الصعاب الاقتصادية كان لها أثر آخر : فقد شغلت السكان باهتماماتهم اليومية . ولما كان السكان العرب نهباً لعدم الاكتراث ، فإنهم لم يستجيبوا للتهييج الذى كان الهدف منه إنعاش الثورة التى كان يقوم بها مبعوثو المفتى على حين أن حزب النشاشيبى واليساريين عارضوا صراحة مواصلة النضال المسلح . وقد تعاون السكان اليهود مع إنجلترا فى كل ما يتصل بالحرب ، وحاولوا الإبقاء على نوع ما من الهدنة فيما يتعلق بالشئون الداخلية . ولكن هذه السياسة كانت أحياناً عرضة للسخط والاحتجاجات على عمل أو آخر تقوم به الحكومة .

وساد سوريا اتجاه يقوم على مبدأ « انتظر لترى » ولكن كان بالإمكان أن نستشف خطر القلاقل . وفى نهاية أغسطس وصلت إلى بيروت لجنة إيطالية للإشراف على تنفيذ اتفاقية الهدنة . وتم نقل المندوب السامى الفرنسى بيو Puaux فى نهاية نوفمبر — والسبب الواضح لذلك أنه كان غير راض عن السياسة التى كانت تتبعها حكومة فيشى . وحل محله الرجعى المعروف شياب Chiappe الذى كان متعاوناً مع الألمان — وكان قبل ذلك حكمداراً لبوليس باريس . ولكن قتله الإيطاليون بالرصاص خطأ أثناء هروبه إلى سوريا . حينئذ أصبح هنرى دنتز Dentz مندوبا سامياً ، وقد وصل إلى سوريا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٠ . ولم يكن بيو — الذى انضم إلى فرنسا الحرة فيما بعد — أو دنتز من أنصار ديجول ، واعترفت الإدارة الفرنسية بسلطة حكومة فيشى .

ولم يترتب على انهيار فرنسا أى تغيير فى وضع الشعب السورى أو اللبنانى . فلم يجر كلام حتى عن الإصلاح الدستورى ، على حين لم تكن لدى هيئة الإشراف الإيطالية نية مساندة المطالب السياسية العربية .

وقد قيل بوجه عام إن أعضاء اللجنة الإيطالية فى سوريا كانوا يتصرفون تصرفاً سليماً تجاه الحكومة، ولم تكن للدعاية الإيطالية سوى أهمية قليلة . وقد اتبع الإيطاليون سياسة تقوم على عدم إضعاف القوات الفرنسية فى سوريا ، إذ أنهم اعتقدوا أن من دواعى العقل أن يسمح للحكومة الفرنسية بتحمل مسئولية الموقف الصعب . وحين حاول بعض أعضاء الحزب القومى السورى الممالئ للفاشية ضمان مساندة إيطاليا لنشاطهم ، قوبلوا بالرفض الذى كان مرجعه أن روما كانت تريد أن تستعمر بلدان الشرق الأوسط وبالتالى لم تكن ترغب فى أن تقوم بعمل من شأنه أن يؤدى إلى نمو الحركة الاستقلالية العربية . وقد سجل عملاء ألمانيا ومراقبوها تفشى الاستياء لدى العرب وخوفهم من أن تترك ألمانيا سوريا ولبنان لإيطاليا . لهذا ازداد النفوذ البريطانى فى سوريا ولبنان بصورة ملحوظة ، إذ أن بريطانيا كانت ، فوق كل شىء ، تحظى لدى العرب باحترام يفوق ماتحظى به إيطاليا ، كما أن المشاعر المعادية لإيطاليا كانت أقوى من الشك فى نيات بريطانيا . وبعد سقوط فرنسا تم فصل سوريا عن منطقة الشرق الأوسط التى تسيطر عليها بريطانيا . وقد أدى هذا فى وقت الحرب إلى خلق مصاعب ، وبخاصة فيما يتعلق بمؤن الطعام .

وكان من الطبيعى أن يرغب القوميون العرب فى استغلال ضعف فرنسا لتحقيق أغراضهم . وكان الظرف يبدو مناسباً لذلك بسبب تسجيل ألمانيا نصراً بعد آخر فى أوربا وتشجيع دعاية برلين للنشاط القومى . وفى نفس الوقت كانت تكاليف الحياة آخذة فى الارتفاع ، وكان ثمة نقص فى المواد الأساسية كالكيروسين والخبز والسكر . وكان هذا من وراء المظاهرات الجماهيرية ضد الحكومة التى تحولت إلى اضطرابات فى بداية عام ١٩٤١ . ولم تحل أعمال القمع التى قامت بها السلطات الفرنسية دون نشوب قلاقل جديدة فى أواخر فبراير حين أدت أعمال القمع التى قام بها البوليس إلى نشوب إضراب عام . وفى أوائل مارس ارتفعت أسعار الخبز بنسبة ٥٠٪ مما أدى بطبيعة الحال إلى ازدياد عوامل السخط . وتزعمت الكتلة الوطنية التى كان يرأسها شكرى القوتلى الحركة المعادية للحكومة . كما اكتسحت القلاقل مدن لبنان ، وكان على الجنرال دنتز أن يقدم بعض التنازلات ، وأجبرت الوزارتان اللتان تولتا الحكم على أثر وقف دستورى سوريا ولبنان على الاستقالة وشكلت وزارتان جديدتان

فى أوائل أبريل وأصبح خالد العظم رئيساً للوزارة السورية وألفريد نقاش رئيساً للوزارة اللبنانية .

ولكن التنازلات كانت شكلية، لأن السلطة الحقيقية بقيت فى أيدى الفرنسيين. فقد أبعد زعماء الكتلة الوطنية وغيرهم من الساسة الوطنيين البارزين عن الحكومة . وبإمكاننا أن نستنتج بسهولة أن المظاهرات المعادية للفرنسيين قد أفادت بريطانيا بشكل غير مقصود ، ولكنها لم تكن تتمشى مع مصالح المحور، رغم أن الدعايات الإذاعية الألمانية والإيطالية قد وجدت أرضاً خصبة فى هذا المجال ، كما هو الحال فى بلدان عربية أخرى . وفى محادثات أجراها ممثلو ألمانيا مع الزعماء العرب أوضحوا بشدة عدم رغبتهم فى نشوب أى اضطرابات فى سوريا .

ومن وجهة النظر البريطانية كانت سوريا ولبنان تشكلان خطراً محتملا بالنسبة إلى مراكز بريطانيا فى الشرق الأوسط — إذ فى حالة قيام تعاون أوثق بين المحور وحكومة فيشى ، كان بإمكان هتلر أن يهاجم قناة السويس من الشمال عبر سوريا وفلسطين . وقد وضعت لندن هذا الخطر نصب عينيها ، وأصبح موضع اهتمام كبير من جانب الضباط الذين كانوا يقودون القوات الإمبراطورية فى الشرق الأوسط . وحين خرجت حكومة فيشى من عصبة الأمم فى ربيع عام ١٩٤١ كثرت الإشاعات حول تخصيص قسم من سوريا ولبنان لألمانيا . وكانت تتنازع الألمان مخاوفهم الخاصة بالنسبة إلى سوريا : فقد قلقت وزارة الخارجية الألمانية لانتشار إشاعات كثيرة عن قرب غزو بريطانيا لسوريا ، وشاركها هتلر مخاوفها .

الصراع السياسى فى العراق

واجهت بريطانيا صعوبات خطيرة فى العراق — فقد رفضت حكومة رشيد عالى الكيلانى السماح بحشد القوات البريطانية فى البلاد أو قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا . وبالإضافة إلى ذلك راجت إشاعات فحواها أن الحكومة العراقية كانت تفكر فى استئناف علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا . وفى أكتوبر ١٩٤٠ دخلت القوات الألمانية رومانيا وهاجمت إيطاليا اليونان وأصدرت كل من دولتى

المحور تصريحاً أكدت فيه عطفها على العرب ومساندتها لآمالهم . وكانت لهجة الصحافة العراقية إزاء إنجلترا قد أصبحت أكثر عداء .

وحتى ذلك الوقت كانت بريطانيا تعمل فى العراق عن طريق ساسة عراقيين مخلصين . ولكن طبقاً للمقترحات التى تقدم بها الجنرال ويفل ورؤساء أركان الحرب قرر مجلس وزراء الحرب فى ٧ نوفمبر ١٩٤٠ اللجوء إلى الضغط المالى والاقتصادى المباشر . وتقرر فى الوقت نفسه إرسال بعثة إلى العراق برياسة شخصية معروفة جيداً وتحظى بقسط وافر من الاحترام هناك . وطبقاً للتعليمات التى أصدرتها لندن حذر السفير البريطانى سير باسل نيوتن الحكومة العراقية من أن بريطانيا سترغم على مراجعة موقفها لو استأنف العراق علاقاته بألمانيا . وحين أنكرت الحكومة أنها بيتت مثل هذه النوايا أعلن السفير البريطانى أن لندن لا تكن أى ثقة فى رشيد عالى وأن على العراق أن يختار بينه وبين صداقة بريطانيا[١] . وفى ٢٩ نوفمبر ساندت وزارة الخارجية البريطانية الموقف الذى اتخذه السفير الذى أجرى محادثات مع وزير الخارجية نورى السعيد والوصى على العرش الأمير عبد الإله ، فى محاولة لتنظيم مقاومة فعالة لرئيس الوزراء . وشكا السفير من أن الحكومة البريطانية لم تحصل على التعاون الذى تعطيها المعاهدة الحق فى ممارسته ، وطالبت بإسقاط رشيد عالى[٢].

وقد اتهم سير باسل نيوتن رشيد عالى باستئناف الاتصالات التلغرافية مع ألمانيا وإيطاليا ، وحمله مسئولية عدم قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا وعدم إيقاف الدعاية الصحفية الموالية لألمانيا والمعادية لبريطانيا ومصادرته النقد الموجه إلى تصريح المحور الصادر فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ وعدم إنكاره الإشاعات المتعلقة بإزماعه إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا . وشكا السفير البريطانى فوق كل ذلك من أن رشيد عالى كان يتبع سياسة حيادية بدلاً من السياسة القائمة على صداقة بريطانيا ، بل إنه تجنب الاعتراف علناً بتحالف العراق مع إنجلترا . وكان من رأى

---

(١) مذكرة فورمان ، برلين فى ١٢ ديسمبر ١٩٤٠ . نمى إلى علم فورمان عن طريق كيس — الموظف بالسفارة اليابانية — أن العراق رفض طلب بريطانيا الخاص بإبعاد رشيد عالى (انظر خضورى ، ص ١٩٤) .

(٢) مذكرة فورمان ، برلين فى ١١ ديسمبر ١٩٤٠ ، زود كوسملى Cosmelli — الموظف بالسفارة الإيطالية فى برلين — بمعلومات عن العراق . (انظر خضورى : نفس الصفحة السابقة) .

البريطانيين أن تصريح أكتوبر قد صدر بناء على طلب رشيد عالى ، وأن الاتصالات التلغرافية قد أعيدت بناء على طلب فون بابن الذى نقله ناجى شوكت إلى بغداد .

وفى ٥ نوفمبر تحادث بول نابيشو Knabeshue — وزير أمريكا المفوض فى بغداد — مع رئيس الوزراء العراقى ووزير الخارجية باسم كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة . وقد حذر نابيشو العراق من إضعاف تعاونه مع بريطانيا ، وتكلم عن روح المقامرة لدى الحكومة العراقية ، وأكد أن الولايات المتحدة تقدم لإنجلترا كل مساعدة ممكنة دون دخول الحرب ، وأنها ستواصل ذلك . كما حاولت تركيا أن تقنع العراق بتنفيذ الالتزامات التى كانت تفرضها عليه المعاهدة إزاء بريطانيا . ثم رجا رئيس وزراء مصر رشيد عالى ألا يقيم علاقات مع ألمانيا[١] . ولكى يضغط البريطانيون على العراق قطعوا عنه العتاد والأسلحة وأوقفوا حصته من دولارات كتلة الاسترلينى التى كانت تشرف عليها إنجلترا — وقد أدى كل هذا دون شك إلى ازدياد الشعور المعادى لبريطانيا لدى الضباط .

ثم طلب مجلس الوزراء البريطانى من الولايات المتحدة أن توقف وتعترض على كل تصدير للأسلحة إلى العراق ، ووافقت الحكومة الأمريكية .

ورد رشيد عالى على كل الوساطات بأنه لا يكن أى نيات عدائيه لإنجلترا واحتج على كل تدخل فى شئون العراق الداخلية .

وقد صاغ أشد الساسة العراقيين مناصرة لبريطانيا — الجنرال نورى السعيد — بالاشتراك مع رئيس الوزراء مذكرة[٢] أشار فيها إلى أن الإمبراطورية البريطانية لم تكن على الأقل تواجه الانهيار كما كان مفهوماً بعد سقوط فرنسا ، وأنها قادرة تماماً على محاربة المحور . وأوضح المساعدة التى تقدمها أمريكا لإنجلترا ، وحذر من العواقب — وبخاصة من جانب الولايات المتحدة — المترتبة على رفض العراق للتعاون مع إنجلترا . كما أشار نورى باشا إلى أن التعاون مع بريطانيا ومصادقة الولايات المتحدة كانا يتضمنان الوعد الخاص بتحقيق أمانى العرب القومية ، وآمال الفلسطينيين بوجه

---

(١) أخبر رشيد عالى سكرتير المفوضية الإيطالية بذلك فى ٢٠ يناير ١٩٤١ — مذكرة فورمان ، برلين فى ٧ فبراير ١٩٤١ .

(٢) نشرت فى جريدة Iraq Times بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤١ .

خاص . وكان من رأيه أن الميثاق الروسى – الألمانى كان غير طبيعى ومؤقتاً وأن الاتحاد السوفييتى سيحارب فى نهاية الأمر إلى جانب بريطانيا ضد ألمانيا . وطالب بإعلان الحرب على ألمانيا وإرسال فرقتين عراقيتين إلى ليبيا وإيفاد مفتى القدس إلى الولايات المتحدة لتوجيه الدعاية الخاصة بالمطالب العربية . وفى محاولته استمالة قادة الجيش العراقى حاول نورى أن يقنعهم بأنهم سيكونون أول ضباط فى جيش عربى نظامى يشتركون فى حرب حديثة ، وأنهم سيحظون باحترام العرب وحبهم الكبيرين . وخلص إلى وصف براق لزحف القوات العراقية المنتصرة عبر سوريا .

وقد يبدو الآن أن من المحتمل أن آراء نورى السعيد قد تضمنت بعض دواعى الإقناع ، ولكن أهم العوامل بالنسبة إلى أنصار الوحدة العربية فى ذلك الوقت هى أن الحكومة البريطانية لم تبد أى استعداد لتقديم أى تنازلات أساسية وأنها ظلت تأمل فى الواقع أن يؤجل حل كل المشكلات التى أثارت الجدل إلى نهاية الحرب . ولا شك أنه لم يكن من شأن مثل هذا الموقف أن يقنعهم بالتعاون مع بريطانيا . وكان من رأى صلاح الدين الصباغ ، أحد كبار أعضاء « المربع الذهبى » ، أن إنجلترا معزولة وأنها على شفا الخراب . وساد الاعتقاد لدى الوطنيين العراقيين بأن أى خطوة حاسمة يجب أن تؤجل حتى يتضح رأى الاتحاد السوفييتى[١] – إذ يبدو أن الأغلبية كانت تتوقع من الاتحاد السوفييتى أن يقف إلى جانب أعداء بريطانيا[٢].

ورفضت أغلبية الوزارة وجهة نظر نورى السعيد التى لم يوافق عليها أيضاً أغلبية كبار الضباط . لهذا فكر نورى فى الاستقالة من الوزارة ، وتغيب بشكل مثير للالتفات عن مناقشة السياسة الخارجية . ومن المحتمل أنه انسحب من أعمال مجلس الوزراء[٣].

---

(١) الصباغ : فرسان العروبة فى العراق ، ص ١٥٣ – حداد ، ص ٨١ . يذهب حداد إلى أن عدة اجتماعات للزعماء الوطنيين قد جرت فى نهاية عام ١٩٤٠ حين أخذ بوجهة النظر هذه .

(٢) الصباغ ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٩ . ولكن «حداد» يؤكد فى مذكراته أن الزعماء العرب كانوا على بينة من أن العلاقات بين السوفييت والريخ كانت آخذة فى التدهور . (حداد : ٨١ – ٨٢ ، ٨٩ – ٩٠) .

(٣) من الممكن استنتاج ذلك من رسالة بابن (أنقرة ، ٤ يناير ١٩٤١) . وفى هذه الرسالة بلغ فون بابن برلين بالمناقشة التى جرت بينه وبين وزير العراق المفوض فى أنقرة : كامل الكيلانى .

وفى البرلمان — الذى لم يعوزه أنصار إنجلترا — علت بعض الأصوات المحبذة للتعاون مع إنجلترا ، وذلك بعد أن وقعت الهزيمة بالإيطاليين فى الصحراء الغربية . وبرغم ذلك فإن رئيس الوزراء ، تمشياً مع سياسته ذات الوجهين أعلن أن العراق من حيث المبدأ يرغب فى أن يكون بعيداً عن الحرب وفى أن يواصل النضال لتحقيق الأمانى العربية . وقد وضع الإخلاص لالتزامات المعاهدة بعد كل المسائل الأخرى . وجرت خطوة أخرى فى معركة إخراج رئيس الوزراء حين عبر الوصى عن رغبته فى استقالة رشيد عالى[١] . وكان وضع رشيد عالى آخذاً فى التدهور[٢] . وقد حاول وزير الدفاع ، الجنرال طه الهاشمى ، أن يضع حداً للأزمة ، فاقترح أن يستقيل من الوزارة زعيما الفريقين المتناصران أى نورى السعيد وناجى شوكت . وفى ٢١ يناير استقال نورى ، وبعد يومين استقال ناجى شوكت — ومن الواضح أن استقالته كانت راجعة إلى مزيد من الضغط الذى عجل بحدوث أزمة جديدة . وكانت النتيجة أن اعتبر كل الوزراء فى الواقع بمثابة مستقيلين . وإزاء ضغط الصاغات الأربعة عين الوصى وزيرين جديدين فى ٢٨ يناير هما يونس السبعاوى وعلى محمود الشيخ ، وكانت النتيجة هى استمرار وزارة الكيلانى فى الحكم . ولكن حين ووجهت بالمعارضة فى البرلمان طلب رئيس الوزراء من الوصى أن يحل البرلمان . وهرب الوصى من المدينة بعد أن طلب مهلة حتى المساء . ولما كان رشيد عالى قد عجز عن حل البرلمان ، فقد كان عليه أن يستقيل ، وتولى طه الهاشمى رياسة الوزارة بناء على طلب الصاغات الأربعة . وكانت الوزارة الجديدة أكثر حذراً ، ولكنها لم تستمر طويلا . وتدخل الجيش من جديد فى أول إبريل ١٩٤١ ، فسقطت هذه الوزارة وأصبح رشيد عالى من جديد رئيساً للوزراء .

وهكذا لم يحقق التدخل البريطانى — الذى جعل الوصى وغيره من الساسة الموالين لبريطانيا يميلون إلى معارضة رئيس الوزراء خلال الانتصارات التى أحرزها البريطانيون فى ليبيا — النتائج المرجوة . ومما لا شك فيه أن هذا التدخل لم يؤد إلا إلى ازدياد

---

(١) لم يمنح الملك حق إقالة رئيس الوزراء إلا طبقاً للتعديل الذى أجرى على الدستور العراقى ، وهو التعديل الذى تقرر فى ٢٧ مايو ١٩٤٣ (انظر خضورى ، ص ٢٨٩ — ٩٧) .

(٢) كان رئيس الوزراء فى موقف صعب جداً من أسبابه أن دولتى المحور لم تستجيبا له حين طلب منهما المساعدة . وسنفصل ذلك فيما بعد .

توتر العلاقات الإنجليزية — العراقية ، وقد أدى فشله فيما بعد إلى إثارة النقد ، وبخاصة من جانب سير باسل نيوتن . وقد ذكر مؤرخ هذه الفترة — مجيد خضورى « أن الأزمة بين إنجلترا والعراق قد انزلقت ، بصورتها النهائية ، إلى مستوى مجرد إزاحة رشيد عالى من رئاسة الوزارة » ، وأن « من الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى انضمامه إلى المتطرفين » . ووفقاً لما يذكره خضورى لم يكن رشيد عالى بالضرورة يرغب فى إثارة نزاع مع بريطانيا ، ولكن ممثليها فى العراق أمعنوا فى تعقيد الموقف بتزويد لندن بمعلومات خاطئة . وبرغم أن مجيد خضورى يقر فى الطبعة الثانية لكتابه أن رشيد عالى كان من أنصار المحور ، فإنه يكرر وجهة النظر السابقة . وتتهم فرايا ستارك Freya Stark التى كانت فى القاهرة أثناء الأحداث المشار إليها ثم أتت إلى بغداد فى أوائل مايو — السفير البريطانى ، ولو بصورة جزئية على الأقل ، بأنه مسئول عن تطور الأحداث فى العراق ، وتصفه بعدم الكفاءة وبالجهل بالشرق[١] ويشارك مؤلفون بريطانيون آخرون وجهة النظر هذه .

ولا شك أن بإمكاننا القول بأن بريطانيا كانت فى ذلك الوقت تجنى ثمار سياستها العراقية فى فترة ما بين الحربين ، وأن تدخلها فى شئون البلاد الداخلية قد أساء إلى الشعور الوطنى . حقيقة أن باسل نيوتن لم يكن على علم بالشرق ، ولم يضف كونه وزيراً مفوضاً فى براغ أثناء مؤتمر ميونخ شيئاً جديداً إلى سمعته . وبرغم ذلك فمن الواجب أن نقيم الخطوات التى اتخذتها الحكومة البريطانية فى نوفمبر والشهور التالية على ضوء ما هو معروف عن اتصالات رشيد عالى بالمحور والإجراءات الأخرى التى اتخذها والتى سنرى أنها لم تكن خافية على مجلس الوزراء البريطانى .

ولا يمكننا أن نعول على آراء رشيد عالى الشخصية ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يستند إلى خضوع حكومته للمربع الذهبى وبوجه عام للجيش الذى كان فى أيدى الصاغات الأربعة . أما فيما يتعلق بموقف الضباط المعادى لبريطانيا ، فلم يكن باستطاعة الكيلانى أو غيره من أعضاء الوزارة أن يشكوا فى ذلك بأى حال . أما العامل الذى عقد الموقف فهو نشاط المفتى الذى كان يفكر بالفعل فى أواخر عام ١٩٤٠ وأوائل عام ١٩٤١ فى التصدى لبريطانيا بقوة السلاح .

(١) Freya Stark : East is West, London, 1945, pp. 139 and 142.

مطالب رشيد عالى

رحلة حداد الثانية

وبحلول أواسط ديسمبر على أقصى تقدير كانت الحكومة الألمانية قد أصبحت متنبهة إلى رغبة العراق فى المساعدة الاقتصادية والعسكرية وتنسيق النشاط الدعائى . وقد قدمت رغبات العراق إلى وزير إيطاليا المفوض فى بغداد ووصلت برلين بطريق غير مباشر بعد أن تأخرت كثيراً . وجرت المفاوضات حول تسليم الأسلحة والذخيرة فى ديسمبر . كما قدم رشيد عالى إلى القائم اليابانى بالأعمال فى بغداد وإلى الملحق العسكرى اليابانى فى طهران التماسات بطلب العتاد الحربى على أساس تجارى . وكان ما يحتاجه العراق — وفقاً لما كتبته المفوضية الإيطالية كالآتى : ٤٠٠ مدفع ميكانيكى خفيف مع الذخيرة اللازمة لها ، ٥٠ عربة مصفحة خفيفة و ١٠ بطاريات مضادة للطائرات مع الذخيرة والتجهيز ، ومفرقعات وصواريخ مضادة للمدرعات وألغام و ١٠٠,٠٠٠ قناع واق من الغازات ، وأعلن أحد المسئولين أن الجيش العراقى يفضل الأسلحة والذخائر البريطانية التى تم الاستيلاء عليها لأن تجهيزه كان فى الأصل إنجليزياً . ولكنه لم يرفض الأسلحة الألمانية أو الإيطالية[١] . ثم تلقت الحكومة الإيطالية طلباً بتجهيز فرقة عراقية كاملة[٢] ، ولكن ردها كان مشوباً بكثير من التحفظ .

وحين ازداد توتر الموقف السياسى فى بغداد وتفاقم موقف رشيد عالى سعى الوطنيون إلى أن يوضح المحور موقفه من برنامجهم ومن الحصول على الأسلحة . وبعد مشاورات

---

(١) مذكرة فورمان ، برلين فى ٧ يناير ١٩٤١ ، يشير فورمان فى مذكراته إلى تقرير وزير إيطاليا المفوض الخاص بمحادثة له مع أحد صاغات المربع الذهبى الأربعة ، وهوقائد الكتيبة الميكانيكية الثالثة صلاح الدين الصباغ . وقد كتب الصباغ ذاته (المرجع السابق ، ص ١٤٠) أنه كان قد أعد للوزيرين المفوضين الإيطالى واليابانى قائمة محددة بالأسلحة اللازمة لأربع فرق .

(٢) مذكرة فورمان بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٤١ . وقد أخبر حداد فورمان بذلك . على أن الحكومة الإيطالية أنكرت أنها تلقت مثل هذا الطلب (مذكرات فورمان ، برلين فى ٦ مارس ١٩٤١) .

عدة قرروا الحصول على أسلحة ألمانية عن طريق الاتحاد السوفييتى وإيران وإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى وحمله على الاعتراف باستقلال البلدان العربية . كما نوقشت مسألة تنظيم حزب سياسى يسعى إلى تحقيق الوحدة العربية ولكن لم يتسن الوصول إلى قرار نهائى حول هذه المسألة . وقد أدى بطء الاستجابة لمطالب العراقيين أنصار الوحدة العربية إلى سعيهم إلى إقامة اتصالات مباشرة مع برلين وروما . فقد بدأت تنضب الأموال التى قدمت للمفتى خلال زيارة حداد إلى أوربا (أغسطس أكتوبر ١٩٤٠) لهذا اقترحت بغداد على ألمانيا فى ديسمبر ١٩٤٠ أن يقوم السكرتير الخاص للمفتى برحلة أخرى إلى روما وبرلين . وكان على حداد أن يتوقف فى طريقه فى تركيا وسويسرة حيث كان يقيم عدد من أنصار الوحدة العربية المتطرفين . وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٤١ بارح عثمان كمال حداد بغداد مزوداً برسالة من الحاج أمين الحسينى (بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٤١) موجهة إلى « فخامة فوهرر ألمانيا العظمى ، أدولف هتلر ، برلين » .

أما فيما يتعلق بإقامة علاقات مع الاتحاد السوفييتى فقد أرسل رشيد عالى تعليمات رسمية إلى أخيه كامل الكيلانى الوزير المفوض فى أنقرة .

وفى الرسالة التى بعث بها مفتى القدس إلى هتلر أعاد عرض المطالب القومية والشكاوى من إنجلترا وفرنسا . وأشار إلى أن كراهية العرب لإنجلترا كانت « جذورها العميقة مرجعها المصلحة الأساسية والمشاكل الحيوية لا المسائل التى لا جدوى منها والتى لها نتائج سطحية ومؤقتة » . وأكد أن العرب يكنون عطفاً عميقاً على دولتى المحور وأنهم على استعداد للثورة ضد العدو المشترك بمجرد « تخلصهم من بعض العقبات المادية » حتى يصبح بإمكانهم أن يسهموا قدر طاقتهم فى « الهزيمة التى يستحقها التحالف الإنجليزى — اليهودى عن جدارة » . وشكر الحسينى هتلر لتدخله فى المسألة الفلسطينية ، وكتب فى النهاية أنه على وشك إرسال سكرتيره الخاص إلى برلين للتفاوض مع الحكومة الألمانية « باسم أقوى وأكبر تنظيم فى العالم العربى » وباسمه هو أى باعتباره « مفتى فلسطين الأكبر » . وذكر أن العرب على استعداد لحمل السلاح ولكن بشرط أن « تتحقق بعض المصالح ذات الطابع المادى والمعنوى » وأضاف أن العرب كانوا فى ذلك الوقت فى وضع يؤهلهم

لأن يلعبوا دوراً هاماً بشكل استثنائى لأن « الصدفة الجغرافية وضعتهم على مفارق الطرق البرية والبحرية ، وعند النقطة التى تلتقى فيها مواصلات بريطانيا الإمبراطورية » . وكان العرب فى وضع يمكنهم من تهديد طرق المواصلات البريطانية ، بل وقطع الاتصالات بين الهند والبحر المتوسط وتركيا عن طريق الخليج العربى ، ومن أن يجعلوا استغلال بريطانيا لبترول الشرق الأوسط أمراً مستحيلا .

وهكذا قدم المفتى عرضه باسم « أقوى وأكبر تنظيم عربى » ، وهو الاسم الذى أطلقه على مجموعة من السياسيين العرب المعادين لبريطانيا . ولقد طالب بوعود محددة بصدد المساعدة المادية ومستقبل البلدان العربية . وكان سكرتيره الخاص ، الذى وصل إلى برلين فى ١٢ فبراير عن طريق أنقرة وروما ، يحمل مسودة تصريح خاص بهذه القضايا مكتوبة باللغة الفرنسية مثل رسالة الحاج أمين . ووفقاً لما جاء بالمسودة كان من المتوخى أن يشتمل التصريح على ثمانى نقاط هى :

١ — الاعتراف « بالاستقلال التام » للبلدان العربية المستقلة بالفعل : العراق ومصر والسودان (هكذا) والعربية السعودية واليمن .

٢ — الاعتراف باستقلال البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب البريطانى (فلسطين وشرق الأردن) والبلدان التى تشكل مستعمرات أو محميات بريطانية (وقد ورد فى المسودة اسم الكويت ودبى وعمان وحضرموت) .

٣ — تصريح بأن ألمانيا وإيطاليا لن تعترضا على حصول سوريا على الاستقلال التام .

٤ — إلغاء التحفظات على الاستقلال التام لمصر والسودان ، وهو الاستقلال الذى تضمنته المعاهدات المعقودة مع بريطانيا ، مع تحفظ إيطاليا فقط على الحق فى ضمان خطوط مواصلاتها الإمبراطورية عبر السودان بالاتفاق مع مصر .

٥ — تصريح بأن ألمانيا وإيطاليا لن تستغلا أية وسيلة — كنظام الانتداب — من شأنها أن تضعف استقلال البلدان العربية التام .

٦ — الاعتراف بحق البلدان العربية فى الوحدة والالتزام بعدم إيجاد أى عقبة فى طريق البرنامج القومى بهذا الصدد .

٧ ـ التنديد بالوطن القومى لليهود فى فلسطين باعتباره كياناً غير قانونى ، والاعتراف بحق العرب فى حل المشكلة اليهودية وفقاً للأمانى القومية العربية وبنفس الطريقة التى تجرى فى بلدان المحور ، وتحريم كل هجرة يهودية إلى البلدن العربية .

٨ ـ لا ترغب إيطاليا وألمانيا إلا فى أن تتمتع الأمة العربية كلها بالرخاء التام وأن تتبوأ مكانها التاريخى والطبيعى فى مجال حياتها المناسب لها فى نطاق النظام العالمى الجديد وفى تعاون اقتصادى مع دولتى المحور على أساس تبادل المنافع . ومن المرغوب فيه أن تعترف البلدان العربية من جانبها بالحالة القائمة فى كل ما يتعلق بالأملاك والكنائس والبعثات المسيحية ، وحق مختلف الطوائف الدينية المسيحية فى العبادة ، وبالنشاط ذى الطابع الإنسانى (المستشفيات وملاجئ الأيتام ومؤسسات المكفوفين) .

وكانت هذه الوثيقة تختلف بعض الشىء عن المسودة التى اقترحها حداد منذ عدة أشهر . ففيها انقسمت البلاد العربية إلى ثلاثة أنواع : مستقلة ، وواقعة تحت السيطرة البريطانية ، وواقعة تحت الحكم الفرنسى . وفيما يتعلق بالنوع الثالث نصت المسودة إلى أقل التزامات ممكنة من جانب المحور . ومن ناحية أخرى كانت صيغة المسودة غير محددة بشأن الدور الذى تلعبه البلدان العربية فى « النظام الجديد » . ومن الناحية الثالثة كانت المسودة أكثر تفصيلا فى بعض النواحى وتضمنت بعض النقاط قيوداً أكثر تحديداً على سلطة دولتى المحور فى الأراضى العربية فى المستقبل . وكانت هذه القيود تتعلق بالمسائل المرتبطة بالمسيحية فى فلسطين وبالمواصلات الإمبراطورية الإيطالية عبر السودان الذى كانت المسودة واضحة فى الإشارة إليه باعتباره بلداً متحداً مع مصر . ولكن الطريق البحرى المار بقناة السويس والبحر الأحمر ومضيق باب المندب كان يشكل أهم طريق للمواصلات يربط إيطاليا بمستعمراتها فى شرقى إفريقيا ، فإذا ما وضع جنود إيطاليون فى نقاط تسيطر على هذه الشرايين ، حصلت إيطاليا فى مصر والسودان وعلى شواطئ شبه جزيرة العرب الغربية على المواقع نفسها الواقعة فى أيدى البريطانيين .

ووقعت رغبة العرب فى الحصول على الأسلحة والمساعدة المادية ، كما وقعت مطالبهم السياسية ، على أرض خصبة فى برلين فى أوائل عام ١٩٤١ . وقبل ذلك

بشهور قليلة لم تكن ألمانيا أو إيطاليا تميل إلى القيام بهذه المهام، ولهذا قررنا الاقتصار على تصريح ٢٣ أكتوبر . ولكن طريقة تطور الموقف بحلول شتاء ١٩٤٠ — ١٩٤١ واشتراك قوات ألمانيا فى القتال فى جبهة شمالى إفريقيا، مما جعل الألمان ينشغلون بالشئون العربية بصورة أكثر جدية برغم أن هذا ، كما سنرى ، كان يتضمن صعاباً سياسية وفنية لم تكن بالقليلة .

الفصل السابع

الألمان والثورة العراقية

بعثة فون هنتج إلى سوريا

كان الألمان قد استعدوا للتصدى لشئون الشرقين الأدنى والأوسط قبل وصول حداد إلى برلين ببعض الوقت . وبالإضافة إلى ذلك كانت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية قد نشطت فى هذا الجزء من العالم على الأقل منذ أغسطس ١٩٤٠ وذلك بالاتفاق مع وزارة الخارجية الألمانية . وقد ازداد هذا النشاط دون أن تعترضه عوائق فى سوريا ، حيث كانت الظروف مناسبة جداً منذ سقوط فرنسا. ففى بداية خريف عام ١٩٤٠ توجه ألفرد روزر Alfred Roser من موظفى وزارة الدفاع الألمانية إلى سوريا باسم القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية. ومن هناك أرسل إلى برلين تقييمه للموقف ولفرص النشاط فى « المناطق العربية » وفى سوريا بوجه خاص[1]. ولكن هذا لم يكن كافياً لمواجهة الموقف الجديد الذى نشأ بحلول أواخر عام ١٩٤٠ ، ولهذا بدأت وزارة الخارجية الألمانية تخطط سياسة ألمانيا إزاء البلدان العربية . وما حل ذلك الوقت حتى كان بالإمكان ملاحظة تغييرات فى وجهة نظر الموظفين الألمان بمقارنتها بوجهة النظر التى كانت قائمة فى سبتمبر – أكتوبر ١٩٤٠ فى الوقت الذى كان يعد فيه التصريح الألمانى – الإيطالى الذى أعلن فى تلك السنة . وفى المذكرات التى أعدها ڤلهلم ملشرز Melchers – رئيس القسم السابع للتقارير السياسية والذى كان فى عام ١٩٦٢ سفيراً لجمهورية ألمانيا الاتحادية فى نيودلهى – لمؤتمر ٩ ديسمبر ١٩٤٠ الذى عقد فى مكتب الوزير ، قام بتحليل الموقف القائم فى البلدان العربية . وقد أشار إلى التوتر السائد فى سوريا والعراق ، كما أشار إلى كره الشعوب العربية الواضح للإيطاليين وإلى النشاط المتزايد الذى كان يقوم به

---

(١) مذكرات ملشرز ، برلين فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٠ – پالمر إلى وزير الخارجية ، بيروت فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ ، (FRUS) ، كتب « أمضى روزر هنا ثلاثة أسابيع ، ولكن تصرفاته لا غبار عليها ».

البريطانيون والديجوليون . وعبر ملشرز عن مخاوفه من أن يؤدى ضيق العرب بالسلبية الألمانية إلى حملهم على الوقوف فى صف البريطانيين ، وأن ذلك قد يكون له أثر حاسم على نتيجة الحرب فى شرقى البحر المتوسط مما يؤدى بدوره إلى خلق موقف شديد الخطورة فى شمالى إفريقيا . واقترح ألا تكون سيطرة إيطاليا الأساسية على البلدان العربية موضعاً للتساؤل ، وأن على الألمان أن يتعهدوا من جديد بإعداد تصريح مكتوب يتضمن اعترافاً بحقوق العرب والمصريين فى الحرية السياسية وتقرير المصير . وكان من المتوخى أن يشتمل التصريح على وعد بحل المشكلة اليهودية واقتراح بإقامة سوريا كبرى مستقلة . وكان من رأى ملشرز أن من الواجب أن تتجه إلى سوريا بعثة لجنة الهدنة الألمانية . وبرغم تحفظ ملشرز الخاص بأنه « لا يجب المبالغة فى تقدير قوى بناء الدولة بالنسبة إلى العرب من النواحى القومية والحربية والثقافية » ، فإنه كان يأمل أن يثير تحقيق بعض المطالب العربية ولو بصفة جزئية كل العالم العربى وربما شمالى إفريقيا كذلك .

وبحلول أواخر ديسمبر كان فون ريبنتروب قد قرر إرسال مبعوث مسئول وذى خبرة — هو أوتو فون هنتج — إلى الشرق الأوسط فيما كان يعتقد أنها بعثة استعلامات . وطبقاً للتعليمات التى زود بها فون هنتج كان عليه أن يبعث تقريراً عن الموقف السياسى والعسكرى فى سوريا وفى البلدان المجاورة إذا ما كان ذلك ممكناً . وكان عليه أن يتحرى عما إذا كانت القوات البريطانية بالضرورة تهدد سوريا ولبنان ، وعما إذا كانت لدى سوريا وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضد أى غزو محتمل . وكان يتوقع منه أيضاً أن يقرر مدى الحركة الديجولية ونموها فى سوريا ووسائل الدعاية البريطانية وأساليبها ونتائجها . وبوجه عام كان من المتوخى أن تزود بعثة فون هنتج زعماء ألمانيا بالمعلومات اللازمة لتشكيل سياستهم إزاء البلدان العربية . وكان لها هدف آخر هو إحاطة حكومة ألمانيا بإمكانيات العلاقات الاقتصادية ووضع المؤسسات الثقافية الألمانية فى سوريا . وكانت التعليمات تشمل أمراً محدداً من ريبنتروب بتجنب كل ما يمكن أن يفسر على أنه اعتراف بأى اتجاهات موجهة ضد الحكومة الفرنسية أو مساندة لمثل هذه الاتجاهات ، ولكن كان من المستحيل أن يتحقق ذلك من الوجهة العملية . وكان مجرد ظهور

مبعوث ألمانى فى وقت كان فيه العرب ينتظرون على أحر من الجمر نوعاً من التغيير ، كافياً لإثارة الأمل فى حل المشكلات السورية ضد مصلحة فرنسا . يضاف إلى هذا أن فون هنتج لم يحط إقامته فى سوريا بالسرية؛ كما أنه لم يتجنب مقابلة الزعماء العرب .

وكان ما توصل إليه فون هنتج مشابهاً لما توصل إليه روزر . فقد رأى كلاهما أن الإيطاليين لا يحظون بأى شعبية لدى العرب ، فى الوقت الذى تتوافر فيه فرص كثيرة بالنسبة إلى الألمان . وكان المراقبون المستقلون الموجودون فى المنطقة يشاركون هذا الاعتقاد . وفى التقرير الذى بعثه قنصل الولايات المتحدة فى بيروت عن عجز اللجنة الإيطالية للإشراف على الهدنة فى سوريا ولبنان ، ذكر أن الموقف سيشهد تغييراً جذريًّا فيما لو ظهرت هناك لجنة ألمانية . وفى ظل هذه الظروف فرضت فكرة تمثيل الألمان فى لجنة الإشراف الإيطالية نفسها . وكان من رأى هنتج أن من شأن وجود الممثلين الألمان فى اللجنة أن يحمى المصالح الألمانية وأصدقاء ألمانيا السياسيين وعملاءها التجاريين ، فى الوقت الذى يشرفون هم فيه على التجارة مع بريطانيا ويوقفونها فى المستقبل ، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام والمواد الحربية ، و يجمعون وينقلون المعلومات السياسية والحربية ، ويوجهون النشاط المعادى لبريطانيا لدى العرب . ولما كان من الممكن ملاحظة نشاط الديجوليين فى أوساط الموظفين فى سوريا فى أشكال مختلفة ، فقد كان من المنطقى إبعاد أنصار « فرنسا الحرة » عن المراكز الإدارية فى سوريا ولبنان .

وقد أدت التطورات التى حدثت فى العراق إلى أن أصبحت للمسألة أهمية متزايدة باستمرار بالنسبة إلى السياسة الألمانية . وما حلت نهاية عام ١٩٤٠ حتى كانت الحكومة الألمانية قد قامت بعمل تمهيدى فيما يتعلق بالعراق .

مسألة تزويد العراق بالأسلحة

بدأ الألمان تحرياتهم حول الاحتمالات الفنية لتزويد العراق بالأسلحة . واستمرت هذه الجهود بعد سقوط وزارة الكيلانى فى ٣١ يناير ١٩٤١ . ولم يتوقف اتصال العراق بدولتى المحور فى عهد وزارة الهاشمى . وأهم من هذا أن ممثلى

العراق ، وبخاصة فى أنقرة أكدوا للألمان أن حكومة الهاشمى تسير على خطى رشيد عالى[١]. وكان من رأى جروبا ، الذى كان وزيراً مفوضاً فى بغداد لعدة سنوات وكان خبير ألمانيا فى الشئون العربية ، أن حكومة الها شمى تسير فى نفس الاتجاهات الأساسية التى سارت عليها سابقتها ، وإن تكن قد اتبعت أساليب تتميز بمزيد من الحرص . ومن المحتمل أن وزارة الخارجية الألمانية كانت تسلم بوجهات النظر هذه . كما قيم خبراء السياسة البريطانية الموقف تقييما مشابهاً. فاعتبروا رئيس الوزراء العراقى الجديد — بصفته من أنصار الوحدة العربية المتطرفين — متعاوناً مع رشيد عالى ، وأن الحكومة لا تعنى أى تحسن فى الموقف من زاوية علاقاتها مع المحور[٢].

ولم تكن مسألة شحن الأسلحة إلى العراق بالمسألة الهينة . فالعراق بعيد عن البلدان التى تحتلها دولتا المحور ، فى الوقت الذى ارتبطت فيه الإمكانيات الفنية لتسليم الأسلحة بالمشكلات السياسية الأساسية .

أما فيما يتعلق باستلام الأسلحة من ألمانيا فقد كان الطريق البرى عبر الاتحاد السوفييتى وإيران يتضمن أقل الصعاب الممكنة . وقد اقترح صلاح الدين الصباغ — أحد أركان المربع الذهبى — هذا الطريق، لما كان يتضمنه من قلة فرص استرعاء انتباه العملاء البريطانيين . وكانت هذه المسألة هامة بالنسبة إلى كل من ألمانيا والعراق لأسباب واضحة . وفى محادثة جرت بين وزير إيطاليا المفوض ورشيد عالى فى ٢٠ يناير اقترح هذا الأخير شحن الأسلحة من ألمانيا إلى العراق عن طريق رومانيا والبحر الأسود والاتحاد السوفييتى وإيران .

وحين قدم الاقتراح إلى فون ريبنتروب فى أوائل فبراير رأى استبعاد هذا الطريق . ولم يكن السبب الرئيسى لهذا القرار هو خطة مهاجمة الاتحاد السوفييتى فى المستقبل القريب أو عدم الاستعداد لجعل السياسة الألمانية فى « المنطقة العربية » متوقفة على موافقة السوفييت — إذ الواقع أن ممثلى السوفييت صرحوا لشنور Schnurre

(١) رسالتا فون بابن من أنقرة بتاريخ ٤ و ١٣ فبراير ١٩٤١ . ولكن ليس من المعروف ما إذا كانت الاتصالات بين العراق وألمانيا قد جرت على مستوى حكومى فى ذلك الوقت .

(٢) انظر Playfair, op. cit., II, p. 178. ولا يبدو لنا أن هذا التقييم صحيح تماماً، لأن لدينا عدة أدلة على أن الهاشمى كان متردداً — فلم يكن يرغب فى أن يدخل فى صراع مع بريطانيا ، وكان مطيعاً نسبياً للبلاط . انظر صلاح الدين الصباغ : فرسان العروبة فى العراق ، ص ١٥٦ .

فى نهاية عام ١٩٤٠ بأن نقل الذخائر لا يدخل فى نطاق اتفاقية النقل التى تضمنها تبادل الرسائل بين ريبنتروب ومولوتوف فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٩ . لهذا كان بإمكان الألمان أن يستنتجوا أن الاتحاد السوفييتى سيعترض على نقل الأسلحة إلى العراق — إذ كان ضد مصالحه أن يزداد النفوذ الألمانى فى بلد يقع قريباً جداً من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتى (فى الحرب العالمية الأولى عبرت قوات روسية الحدود إلى شمالى العراق) . ولما كان الألمان يودون تحويل انتباه السوفييت إلى حدودهم الجنوبية بكلامهم عن تحديد مناطق نفوذهم فى اتجاه الخليج العربى ، فى نفس الوقت الذى كانوا يعدون فيه لغزو الاتحاد السوفييتى — فلم يكن باستطاعتهم بطبيعة الحال أن يفشوا للحكومة السوفييتية خططهم فى العراق .

وفى المحادثة التى جرت بين فورمان وريبنتروب ، وهى المحادثة التى تم فيها رفض الاقتراح الخاص بشحن الأسلحة عبر الاتحاد السوفييتى ، أصدر ريبنتروب أمره ببذل كل جهد ممكن للقيام بذلك عن طريق اليابان . وحتى ذلك الوقت كان أكبر أنصار هذه الخطة ودعامتها فى طوكيو هم الإيطاليين ، على حين صدرت التعليمات إلى ممثلى الريخ بتفضيل ذلك الطريق . واستمرت المفاوضات بين العراق واليابان حول هذه المسألة من أكتوبر ١٩٤٠ إلى يناير ١٩٤١ حين توقفت . وبعد أن تم التعديل الوزارى فى بغداد رأت وزارة الحرب اليابانية أن مسألة مواصلة المفاوضات غير ذات موضوع ، وذلك برغم استعدادها السابق لتزويد العراق بأسلحة قديمة[1].

وقد تدخل الألمان لدى السفارة اليابانية فى برلين بخصوص هذه المسألة . وذهبوا إلى أن الحكومة العراقية قد أخبرت دولتى المحور بشتى الطرق برغبتها فى الاشتراك فى النضال المسلح ضد بريطانيا ، وأن الحكومة الألمانية قررت مساندة هذه الخطوة فى المستقبل القريب . وحينئذ بدأت السفارتان الألمانية والإيطالية فى طوكيو الضغط على الحكومة اليابانية لتسير فى الاتجاه نفسه . ولكن سرعان ما أضاعت الحكومة اليابانية فرصة تغيير موقفها السلبى حتى بعد رجوع رشيد

---

(١) رسالة بولتز من طوكيو فى ١٩ مارس ١٩٤١ ، وكان من رأى حداد أن الحكومة البريطانية وافقت السلطات العراقية على شراء أسلحة من اليابان (مذكرة فورمان ، برلين فى ٢٦ فبراير ١٩٤١) .

عالى إلى رياسة الوزارة — إذ أن القوات البريطانية كانت قد قامت فى نفس الوقت بسد مدخل ميناء البصرة التى احتلوها فيما بعد .

ثم أثيرت مسألة شحن الأسلحة إلى العراق عبر المجر وتركيا تحت ستار أنها شحنة من المجر لحساب ملشرز وشركاه فى بريمن . ورأى فون بابن استحالة تنفيذ ذلك المشروع — وكان رأيه هذا واقعيًّا فى ذلك الوقت ، أى خلال شتاء عام ١٩٤٠ — ١٩٤١ . فبرغم أن أنقرة كانت تخشى ألمانيا وبالتالى كانت تتجنب توثيق علاقاتها بأعداء الريخ ، فإنها فى الوقت نفسه كانت تتوقع غزو ألمانيا للبلقان وتزايد الخطر على تركيا — وبالتالى لم تكن ترغب فى تسهيل خطط الهتلريين .

وسرعان ما ظهر شكل جديد لخطة تموين العراق عبر تركيا . فقد تم إرسال الشحنات من ألمانيا إلى إيران وأفغانستان عبر تركيا . وقد وعدت السلطات التركية حكومتى هذين البلدين بعدم خلق أى عقبات فى وجه مرور البضاعة المخصصة لهما . وفى الوقت نفسه كان لدى إيران ضمان من بريطانيا بأنها لن تضع العراقيل فى وجه تلقيها البضاعة ثم شحنها عبر العراق . وكانت العلاقات التجارية بين إيران وألمانيا نشطة جدًّا فى ذلك الوقت . وفى ظل هذه الظروف اقترح الأميرال كاناريس خطة لتهريب الأسلحة إلى العراق فى شحنات أجهزة معدنية وجهتها إيران . ولكن فون ريبنتروب رفض هذا الاقتراح .

وبعد ذلك قدم اقتراح بإرسال شحنات الأسلحة المخصصة لإيران أو أفغانستان عبر العراق ، لأن الجيش العراقى كان بإمكانه حينئذ أن يعترض هذه الشحنات ويستولى عليها ، وكان يرجح هذه الخطة أن وزير الاقتصاد القومى فى أفغانستان — عبد المجيد — الذى زار برلين فى بداية مارس ، أوضح أنه على استعداد لمساعدة العراق . وقد بحثت هذه الفكرة مرة أخرى فيما بعد حين كانت ثورة العراق ضد البريطانيين قد بلغت ذروتها . حينئذ تمت خطوات أخرى لتنفيذ الخطة التى سبقت الإشارة إليها .

وقد أبدت كل من وزارة الخارجية والدفاع الألمانيتين اهتماماً كبيراً بمسألة تزويد العراق بالأسلحة وتحريك الموقف فيه . وأقامت القيادة العليا للقوات المسلحة

الألمانية ووزارة الخارجية اتصالا مستمراً بصدد هذه المسألة[١] وطبقاً لما ذكره الجنرال كاناريس أبدت القيادة العليا للقوات البرية اهتماماً كبيراً بالنشاط الألمانى فى العراق وفى المنطقة العربية بوجه عام . وقد عبرت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية عدة مرات – شفهياً – عن رغبتها فى تدعيم النشاط الألمانى فى البلدان العربية وأرسلت مذكرة خاصة بهذه المسألة فى ٥ فبراير[٢] . وليس من قبيل الصدفة أن مثل هذه المؤتمرات المتواصلة الخاصة بمسألة تزويد العراق بالأسلحة والسياسة العربية بوجه عام ، كما سنرى ، قد تمت قبل نشوب الحرب فى البلقان مباشرة . فعلى حين كان الألمان يضعون الخطط المتصلة بنشاطهم فى البلدان العربية كان البريطانيون يعدون لاتخاذ خطوات هامة فى البلقان . ومن الممكن أن نستنتج أنه كما كان واضحاً لبريطانيا أن الألمان سيهاجمون اليونان فى المستقبل ، فلا بد أن الألمان كانو موقنين من أن بريطانيا ستوسع نشاطها الحربى فى البلقان . وعلى أى حال فإن حدوث تحول فى البلدان العربية كان لابد أن يؤدى على الأقل إلى زيادة صعوبة إرسال بريطانيا لقوات مسلحة إلى البلقان .

موقف إيطاليا من تنشيط العمل فى العراق

وكان لا بد أن تهتم السياسة الألمانية بمسألة موقف إيطاليا ، فيما يتعلق بخططها الخاصة بإشعال الثورة ضد البريطانيين فى العراق وتزويده بالأسلحة . وقد سبق أن أشرنا إلى تردد إيطاليا فى إثارة الشعوب العربية ضد فرنسا ، وهو التردد النابع أولا وقبل كل شىء عن البرنامج الاستعمارى الذى وضعته إيطاليا الفاشية[٣] .

(١) اقترحت قيادة وزارة الدفاع الألمانية إقامة اتصال دائم بوزارة الخارجية بصدد المسائل العربية . مذكرة جروبا ، ٩ فبراير ١٩٤١ .

(٢) على أن القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية كانت تنظر إلى المشكلات العربية على ضوء المنافسة الهاشمية السعودية ، واقترحت أولا وقبل كل شىء إقامة اتصالات مع ابن سعود وشحن الأسلحة إليه بالسفن .

(٣) اتخذت الحكومة البريطانية موقفاً مشابهاً فى الهند أثناء الحرب العالمية الأولى إزاء الثورة العربية ضد تركيا . انظر : Ireland, Iraq - A study in Political Development, pp. 100-1.

وأهم من هذا أن الإيطاليين لم يكونوا متحمسين بأى حال من الأحوال للتدخل الألمانى فى شئون شرقى البحر المتوسط . والذى أجبر موسولينى على الموافقة على اشتراك القوات الألمانية المسلحة فى القتال الناشب فى شمالى إفريقيا هو تكرار فشله ، وهذا هو السبب أيضاً فى أن الألمان اضطلعوا بالدور الأكبر فى المعارك التى نشبت فى البلقان. وكان موقف الإيطاليين فى العراق أحسن من موقف الألمان — إذ كانت لإيطاليا مفوضية فى بغداد ، ومن ثم كانت لديها معلومات أحسن وأكثر جدة عن التطورات الجارية . ومما لاشك فيه أن الحكومة الإيطالية زودت الألمان بمعلومات معينة ، ولكنها لم تقم بذلك إلا فى وقت متأخر جداً . وأهم من هذا أن الإيطاليين لم يقوموا بأى مبادرة فى النشاط السياسى المشترك ولم يمكنهم اقتراح الاشتراك فى تمويل الشخصيات العربية وثيقة الصلة بالمحور .

وعلى حين واصلت الحكومة العراقية طلب المساعدة وشكت من أنها لم تقدم لها[1] ، فإن الحكومة الإيطالية وضعت مسودة وثيقة باسم حكومتى المحور معاً لإرسالها إلى الزعماء العرب فى بغداد . وتكشف هذه الوثيقة بصورة أكيدة عن أن الإيطاليين أبدوا تردداً بصدد الاتجاهات المعادية لبريطانيا فى العراق . وقد نصح واضعو الوثيقة العرب قبل كل شىء بأن يتوخوا الحرص وأكدوا أن دولتى المحور لم تكونا تريدان من العراق ، لو توقع أن ترسلا إليه المساعدة الحربية فى المستقبل ، أن يتخذ موقفاً من شأنه أن يشجع البريطانيين على احتلال البلاد . ومن ناحية أخرى نجد أن صيغة المساعدة فى الوثيقة قد وضعت بشكل غامض أبعد مايكون عن التحديد ، إذ ذكرت الوثيقة أن الألمان والإيطاليين لا يرغبون فى الاضطلاع بالمسئولية إلا بعد تحريات توضح كل العوامل التى تدخل فى الموضوع ووفقاً لأساليب ومبادئ سياساتهم التى يمكن الاعتماد عليها . وقد اقترح الإيطاليون أن يحيطوا الساسة العرب علماً بأن حكومتى المحور ستبدآن المشاورات لبحث إمكانيات إرسال كمية محدودة من الأسلحة إلى العراق وبدء العلاقات التجارية . ومن ناحية ثالثة نجد أن الوثيقة رفضت دون مواربة كل الشروط السياسية التى وضعها الزعماء

(١) فى محادثة جرت فى ٢٠ يناير ١٩٤١ بين رشيد عالى وسكرتير المفوضية الإيطالية شكا رشيد عالى من عدم رد حكومتى المحور على هذا الطلب ، وأن ذلك كان من المصادر العامة لصعوباته الداخلية (مذكرات ڤورمان — برلين فى ٧ فبراير ١٩٤١) .

العرب : فقد أوضحت أنها ضد إقامة حكومة وطنية فى سوريا وأعلنت العزوف عن منح العراق ضماناً بحيدة تركيا وإيران[1] . ووصل الأمر بقصر شيجى إلى عدم اعتبار تكرار الصيغة العامة التى احتواها تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ أمراً مناسباً ، أما الناحية الإيجابية فى الوثيقة الإيطالية فقد اقتصرت على التصريح بأن انتصار المحور وحده هو الذى سيحرر بلدان الشرق الأوسط من السيطرة البريطانية . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسودة الإيطالية عبرت عن الأمل الخاص باستمرار حكومة رشيد عالى فى الحكم ، وأن يكون باستطاعتها أن تحول دون تحول العراق إلى قاعدة للعمليات الحربية الموجهة ضد دولتى المحور .

ولم يكن بالإمكان اعتبار محتوى هذه الوثيقة بأى شكل مشجعاً للعراقيين من أنصار المحور . وقد نصح واضعوها الزعماء العرب بالفعل بمواصلة مساومة البريطانيين وانتظار يوم النصر النهائى « للنظام الجديد » . وأوضح الإيطاليون للألمان أنهم لا يرغبون فى الضغط الشديد على رشيد عالى لكى يثور ضد بريطانيا ، فقد كان دخول العراق أسهل بالنسبة إلى الجيش البريطانى منه بالنسبة إلى المحور . ولهذا كان من المحتمل أن يؤدى تحدى العراق الصريح إلى تعزيز هيبة بريطانيا . وبرغم أن هزائم الإيطاليين فى شمالى إفريقيا جعلتهم يخشون أن تحل بهم هزائم أخرى فى البلدان العربية ، فلا يبدو أن ثمة سبباً آخر للصيغة المفرطة فى السلبية التى وضعوا بها وثيقتهم سوى الإيضاح الذى قدموه للألمان . وقد أدت المعارضة الألمانية إلى عدم إرسال هذه الوثيقة .

ووجدت أحداث العراق أصداء متنوعة فى برلين . ومن المؤكد أن الألمان كانوا يودون استغلال الفرص التى أتيحت لهم فى العالم العربى ، دون أن يتبينوا طريقة استغلالها والوقت المناسب له . وبعد تكرار فشل الإيطاليين فى البلقان وشمالى إفريقيا ، لم يعد لدى الألمان أى اتجاه لتجنب النشاط السياسى من جانبهم فى « المناطق العربية » . فبدأت تظهر تأكيدات فى الوثائق الألمانية بأنه لا يجب أن يكرس اهتمام كبير بوجهات النظر الإيطالية كما كان الحال فى الماضى ، وأن

---

(١) قدم رشيد عالى والصباغ هذه المطالب فى محادثات أجراها مع وزير إيطاليا المفوض . وليس من الصعب التحقق من أنه كان لا يجب أن يجىء أى رد ، حتى ولو كان سلبيا ، بهذه الصياغة الشديدة التى وضعت بها مسودة التعليمات الإيطالية إلى جابرييل .

يستمر الاعتراف الرسمى بأولويتها ، ولكن على أن يتم حسم مسائل معينة بدون الإيطاليين أو حتى بشكل سرى . وطالب العسكريون بإعادة النظر فى القرار الألمانى الخاص بالسماح لإيطاليا بحرية العمل فى البلدان العربية وأن تشتد ألمانيا فى توجيه النشاط السياسى فى الشرق الأوسط فى المستقبل .

وكان من رأى ريبنتروب وجوب إخطار إيطاليا والاعتراف رسمياً بأولوية مصالحها ، كما رأى فى نفس الوقت أن من واجب الألمان أن يتولوا زمام المبادرة طالما أن الإيطاليين قد فشلوا فى القيام بأى نشاط فى البلدان العربية . واقترح وجوب بحث الشئون العربية بالاشتراك مع القيادة العليا للقوات المسلحة ، ووجوب تزويد مفتى القدس بالأموال دون اتفاق سابق مع إيطاليا[١]. وفيما يتعلق بتزويد العراق بالأسلحة ، كان موقف ألمانيا يقوم على إبعاد إيطاليا عن الصفقة كلية ، على الأقل فى البداية[٢] حين تتخذ القرارات السياسية بشأن المسألة .

وقد فهم حداد خلال رحلته الثانية إلى برلين أن العرب سيفيدون من هزائم إيطاليا . ودون فى مذكراته أن الألمان طلبوا منه أن تقدم السلطات العراقية أجوبة غامضة على أى تساؤلات يتقدم بها الإيطاليون فى المستقبل بصدد علاقاتهم بألمانيا ، وأن يؤكدوا لهم أنه لم يمكن التوصل إلى أى نتائج محددة .

وهكذا أخذ الألمان يمسكون بزمام المبادرة فى العالم العربى دون اكتراث بشركائهم. وفى حالة انتصار المحور كان بإمكان هذه المبادرة وهذا النشاط أن يعيدا تقسيم مناطق النفوذ بين الحليفين لصالح ألمانيا ، خاصة وأن هذه المسألة لم تحسم نهائياً فيما بينهما. وهذا بالضبط هو ما كان يخشاه الإيطاليون . وكانت هذه المخاوف وخطط إيطاليا الاستعمارية من وراء السلبية والحرص غير العادى اللذين أبدتهما الحكومة الإيطالية بصدد الشئون العربية ، لا « إمكان الاعتماد السياسى عليهم » وهو ما فاخروا به .

---

(١) قبل ذلك جعل ريبنتروب دفع المال للمفتى متوقفاً على موافقة الحكومة الإيطالية ، ولكن قصر شيجى لم يستجب للاستفسارات التى قدمتها ألمانيا بصدد المسألة .

(٢) فى ١٥ فبراير طلب فورمان من القائم الإيطالى بالأعمال فى برلين — باسم ريبنتروب — أن يتجنب وزير إيطاليا المفوض فى بغداد اتخاذ خطوات جديدة بصدد تقديم الأسلحة حتى تبحث الحكومة الألمانية احتمالات تصديرها . وحينئذ فقط كان يجب أن تثار هذه المسألة فى بغداد لا باعتبارها مسألة تتعلق بألمانيا وحدها ، بل باعتبارها مسألة تتعلق بالمحور — أى بالاشتراك مع الإيطاليين . وفى ٢١ فبراير ١٩٤١ كرر فورمان طلبه الخاص بعدم تكرار جهود ألمانيا بهذا الخصوص .

ومن هنا فإن قيام حكام ألمانيا باتخاذ المبادرة فى البلدان العربية كان يفرض عليهم أن يرجهوا اهتمامهم إلى عدد من المشكلات ، وعلى رأسها ردود الفعل المحتملة لمثل هذه المبادرة بالنسبة إلى العلاقات الألمانية — الإيطالية . فإلى أى مدى كان يجب على الحكومة الألمانية أن تعمل حساباً لمصالح إيطاليا ونواياها ولالتزاماتها هى ؟ وإلى أى مدى كان بإمكان الألمان أن يقوموا بنشاط منفرد ؟ وما تأثير مثل هذا النشاط على موقف إيطاليا ؟ كانت هذه الأسئلة ملحة بوجه خاص ، لأنها كانت تتضمن العلاقات مع القوميين العرب والنشاط الدعائى الذى كان يقوم به المحور .

وبعد الاتصالات التى أجراها الزعماء العرب مع دوائر المحور نجدهم يصرون أولا وقبل كل شيء على صدور تصريح يساند مطالبهم بالاستقلال وارتباط الدول العربية باتحاد فدرالى . ولكن خطط الحكومة الإيطالية الاستعمارية جعلتها تتجنب إعطاء ضمانة محددة بالاستقلال العربى وترفض مساندة المطالبة بالوحدة العربية . ولم يطرأ تغيير على وجهة النظر الإيطالية بهذا الصدد منذ صدور تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ . وفى أوائل مارس أكد السفير بوتى Buti لفون ماكنزن — المبعوث الألمانى إلى وزارة الخارجية الإيطالية — أن تصريح وزير إيطاليا المفوض جابربيلى — الذى أدلى به لرشيد عالى فى بغداد فى يولية ١٩٤٠ ، والذى أشار إليه مبعوثو المفتى وأنصار الوحدة العربية من العراقيين ، كان تصريحا خاصا . وكان من رأيه أنه لم يتم التعبير عن الموقف الرسمى إلا بمقتضى تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ [١] . وقد قيل هذا فى الوقت الذى كان فيه السكرتير الشخصى للحاج أمين الحسينى يبذل جهوداً فى برلين للحصول على مساندة ألمانيا لأمانى العرب . وكان معنى إيضاح بوتى أن الحكومة الإيطالية لا تود أن تتعدى هذا التصريح .

مذكرة فورمان المؤرخة ٧ مارس ١٩٤١

وبعكس الموقف الذى تم اتخاذه قبل عدة أشهر ، تقرر فى برلين فى أوائل عام ١٩٤١ عدم ترك المبادرة الوحيدة فى الشئون العربية فى أيدى الإيطاليين . فماذا إذن كان موقف ألمانيا الجديد إزاء مطالب العرب السياسية ؟

---

(١) فى أثناء المفاوضات الخاصة بمسألة التصريح فى يولية وأغسطس ١٩٤٠ ، حين أشار حداد وناجى شوكت إلى تصريح جابربيلى ، لم ينكره قصر شيجى بهذا الشكل .

فى محادثة جرت بين فورمان والسكرتير الخاص للمفتى فى ٢٦ فبراير انحاز فورمان بصورة جزئية إلى وجهة النظر الإيطالية، وذكر أن من الصعب فى ظل الظروف القائمة قبول مسودة التصريح الذى اقترحه الحاج أمين الحسينى . وحين طلب من فورمان أن يمعن فى تحديد طبيعة الصعوبات ، أشار إلى المطالب العربية الخاصة بمسألة سوريا : وذهب إلى أن الإدارة الفرنسية فى سوريا ستنحاز إلى ديجول فيما لو وجدت مساندة من جانب حكومة الريخ .

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد . فبحلول نهاية فبراير كانت وزارة الخارجية الإيطالية قد بدأت تنشط فى بحث المشاكل المتصلة بحكومة الريخ فى العالم العربى . وقد أصدر ريبنتروب أوامره إلى فورمان — وكيل وزارة الخارجية ورئيس القسم السياسى بها — بوضع الخطط المتعلقة بالخطوات التى ستتخذها ألمانيا بعد ذلك فى البلدان العربية وأن يهتم اهتماماً خاصًّا بمشكلة « كيف نعالج هذه المشكلة فيما يتعلق بهدفنا الخاص بإنزال الهزيمة بإنجلترا ؟» وفى ٧ مارس وضع فورمان تقريراً مفصلا يحتوى على اثنى عشر ملحقاً[1]. وبعد أن أقر كبار المسئولين بوزارة الخارجية مذكرة فورمان ، نجدها تحدد المقترحات السياسية التى لم يتم التعبير عنها من قبل إلا فى مذكرات غير محدودة وضعها موظفو ومديرو وزارة الخارجية والقيادة العامة للقوات المسلحة . ووفقاً لأوامر ريبنتروب المباشرة كانت دعاية الريخ وأوجه نشاطه الإعلامى فى المشرق العربى توجهها اعتبارات متعلقة بوجهة النظر الإيطالية ؛ أما الآن فقد أشار فورمان إلى أن على الألمان أن يوسعوا مجال نشاطهم بهذا الشأن فى نفس الوقت الذى كانوا يحاولون فيه التغلب على تردد الحكومة الإيطالية وتحفظها.

---

(١) مذكرة فورمان الصادرة فى برلين بتاريخ ٧ مارس ١٩٤١ . وكانت ملاحق المذكرة كالآتى : ١ — خريطة للبلدان العربية ، ٢ — مادة إحصائية عن أربعة عشر بلداً عربيًّا من الخليج العربى إلى المحيط الأطلنطى ، متضمنة فيما تضمنته عدد السكان بوجه عام والسكان العرب بوجه خاص ٣ — بيانات عن معاهدات الشرقين الأدنى والأوسط ٤ — مذكرات جروبا بتاريخ ٥ مارس ١٩٤١ حول أهمية البترول العراقى بالنسبة إلى إدارة الحرب فى الشرق الأوسط ٥ — مذكرات عن مفتى القدس ٦ — مذكرات عن الدعاية الألمانية فى البلدان العربية ٧ — نص تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ ٨ — نص مسودة التصريح التى قدمها حداد وترجمتها الألمانية ٩ — مسودة التعليمات الإيطالية الموجهة إلى جابرييلى الوزير المفوض فى بغداد ١٠ — رسالة آبتز المرسلة من باريس بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٤١ وبها ملخص لوجهة نظره بصدد التصريح ١١— مسودة الرد على رسالة المفتى إلى هتلر ١٢ — مذكرات ريكن المؤرخة ٦ مارس ١٩٤١ بصدد تزويد العراق بالأسلحة . وقد أشرنا فيما سبق إلى الملاحق ٧ ، ٨ و ٩ ، ١٢ .

ولكن بقيت مشكلة ما إذا كان من الممكن إصدار « تصريح سياسى حول بلاد العرب الكبرى » . وكان من رأى فورمان أنه لا يوجد أى اعتراض على هذا التصريح السياسى من زاوية المصالح الألمانية وحدها . « وإذا ما وضعنا نصب أعيننا كره العرب للإنجليز والإيطاليين ، سيكون من السهل بالنسبة إلينا بالتأكيد أن نحصل على مركز قوة فى إمبراطورية عربية كبرى». وفيما يتعلق بوجهات النظر الإيطالية ضد المطالب العربية ، كان من رأيه أن بعض الناس قد يساورهم الشك فيما إذا كان العرب قد نضجوا إلى الدرجة التى تمكنهم من إقامة واستدامة مثل هذه الدولة ، خاصة وقد كان ثمة إجماع على أنها ستكون ضعيفة من وجهة النظر العسكرية . وخلص فورمان إلى أن كل هذا لا يجب أن يعترض إعطاءهم مثل ذلك التصريح فى ذلك الوقت .

وكانت ثمة مذكرة أخرى ترجع إلى هذه الفترة كانت تحبذ الاعتراف باستقلال البلدان العربية وحقها فى الوحدة على شكل اتحاد فدرالى . وكان من رأى واضعها أنه لن يكون باستطاعة ألمانيا أن تحشد العرب ضد بريطانيا بدون هذا التصريح ، وأن على الألمان بوجه عام أن يجابهوا الإمبريالية البريطانية بفكرة القومية وسياسة « المجال الحيوى » .

وكان من رأى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ، وهو ما بدا فى المذكرة التى وضعتها بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤١ ، أن من الضرورى الاعتراف « باستقلال البلدان العربية باعتباره من أهداف المحور المتصلة بالحرب » . وأكدت أن الوضع مناسب لألمانيا فيما يتعلق بالعرب — أى أنها تستطيع « بضمير سليم » أن تعد بكل ما يريدونه « بصدد حل المسألة اليهودية فى فاسطين». على أن القيادة العايا للقوات المسلحة رأت أن من الواضح من وجهة نظرنا أن مسألة إقامة إمبراطورية عربية كبرى تمتد من الخليج عبر ساحل البحر المتوسط إلى البحر الأحمر (ربما تحت حكم ابن سعود) لم تنضج بعد لاتخاذ قرار[1] .

---

(١) مذكرة القيادة العليا للقوات المسلحة بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤١ . وكان من رأى القيادة العليا للقوات المسلحة أن الأحوال لم تنضج بعد حيث تسمح بقيام الوحدة العربية ، وأن المنافسات الداخلية بين العرب كانت قوية جداً .

وكان من رأى فورمان أن مصدر الصعوبات هو أن الألمان كان عليهم أن يعملوا حساباً لوجهات نظر ومصالح دول أخرى أولها إيطاليا التى كانت كما رأينا تعترض باستمرار على إصدار تصريح واضح بصدد استقلال العرب واتحادهم الفدرالى . وقد أشار فورمان إلى أن الحكومة الإيطالية ، التى كانت حتى ذلك الوقت غير مستعدة لمناقشة الشئون العربية مع ألمانيا ، لم تبدأ فى تعديل موقفها بشكل معين إلا منذ وقت قصير . فقد بدأت تزود ألمانيا بمعلومات أسرع وأدق من ذى قبل . وكان من المعتقد أن قصر شيجى قد أرسل حداد إلى برلين بوحى إرادته الخاصة . وكان من رأى فورمان أن من الضرورى ، من حيث المبدأ ، مناقشة المسألة مع الإيطاليين وتحقيق أهدافهم فى البلدان العربية ، ولكن الوقت المناسب لتبادل وجهات النظر هذه لم يكن قد حان بعد .

وكان هذا تصريحاً سياسيًّا بعيد المدى . فحتى ذلك الوقت كانت حكومة الريخ على علم بادعاءات إيطاليا وحقوقها ، فامتنعت عن النشاط فى المناطق التى كانت تعتبر من اختصاص إيطاليا ، برغم أنها لم تلزم نفسها نهائيًّا بتحديد مناطق النفوذ الخاص بكل منهما . واقتصر الألمان على قبول مطالب إيطاليا بوجه عام . وكان الموقف بهذا الشكل فى يولية ١٩٤٠ . وكان تقسيم مناطق النفوذ ، بالشكل الذى حدده الميثاق الثلاثى ، ذا طابع عام — فلم يمس تحديد مناطق النفوذ الألمانية والإيطالية ، ولم ينص إلا على اعتراف اليابان بزعامة ألمانيا فيما يتعلق بإقامة « النظام الجديد » فى أوربا واعتراف الألمان والإيطاليين بأولوية اليابان فى شرقى آسيا . وقد يبدو للوهلة الأولى أن وجهة النظر الألمانية ، كما عبرت عنها مذكرة فورمان ، لم تقدم شيئاً جديداً بمقارنتها بموقف ألمانيا فى عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . فى عام ١٩٤٠ امتنع الألمان عن القيام بأى نشاط فى البلدان العربية وأعطوا الإيطاليين مطلق التصرف هناك . ولكن بدأ الألمان ينشطون فى أوائل عام ١٩٤١ دون أن يتفاهموا مع الإيطاليين بصورة خاصة . وكان من رأيهم أن مناقشة إيطاليا حول هذه المسائل سابقة لأوانها ، لأن ألمانيا كانت تتوقع تغييرات أساسية لصالحها فى توازن القوى . ولم يكن من الممكن لاتفاقية عقدت

أثناء الحرب أن تضع فى عين الاعتبار مثل هذه التغييرات ، وكان على الألمان أن يقروا الادعاءات الإيطالية بدرجة تفوق ما كان يسمح به توازن القوى القائم .

وقد اعترف الألمان بأن توازن القوى فى معسكر المحور كان يتغير بسرعة فى صالحهم ، ولهذا لم تكن لديهم أى رغبة فى إجراء أى تحديد نهائى لمناطق النفوذ فى المستقبل . وكان من رأيهم أن كل المناقشات الدائرة فى ذلك الوقت حول مستقبل « المناطق العربية » سيكون لها أثر سلبى على التحالف الإيطالى — الألمانى . ولهذا فبرغم قرار الألمان الخاص بأن يلعبوا دوراً أكثر فاعلية فى الشئون العربية ، لم يكن باستطاعتهم إصدار التصريح بعيد المدى المرغوب فيه .

ووفقاً لتقديرات رئيس القسم السياسى كان يجب أيضاً النظر بعين الاعتبار إلى مصالح دولة أخرى هى فرنسا . وقد عبر سفير الريخ فى باريس آبتز — فى رسالته المؤرخة ٢٨ فبراير — عن الشعور الخاص بأن الوعد الألمانى العلنى بخصوص مسألة الدولة العربية الكبرى سيؤدى إلى النمو السريع للحركة الديجولية فى سوريا . وكان من المتوقع أن يعتبر بيان مثل هذا الوعد مخالفاً لشروط اتفاقية إطلاق النار التى كانت تلزم حكومة فيشى بالمحافظة على النظام فى المستعمرات الفرنسية والبلدان الواقعة تحت انتداب فرنسا[1] . كما كان فورمان يخشى انتشار الديجولية وإضعاف سياسة التعاون داخل فرنسا وفى إمبراطوريتها الإفريقية .

وقد أشار إلى أنه طالما يضم التصريح الخاص ببلاد العرب الكبرى سوريا أيضاً ، فإنه سيناقض ما كانت تنادى به السياسة الألمانية بصدد عدم كون الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية موضعاً للمساومة فى ذلك الوقت . ويجب أن نعترف ، من وجهة النظر الألمانية ، بأن سياسة عدم الافتيات على الإمبراطورية

---

(١) عرض آبتز فى رسالته وجهات نظر الخبراء الفرنسيين فى الشئون الإفريقية ، الذين عبروا عن مخاوفهم من أن ظهور دولة عربية كبرى قد يؤدى إلى ردود فعل لدى السكان الزنوج ، ويثير صراعات اجتماعية وجنسية صعبة فى أفريقيا التى تعتمد عليها أوربا اقتصادياً . وحين أشار آبتز إلى وجهة النظر هذه كان يود إبراز الآثار السلبية — من وجهة نظر أنصار « الفكرة الأوربية » — لحركة توحيد البلدان العربية ، خاصة وأن ألمانيا كانت قد فكرت بالفعل فى عام ١٩٤٠ فى إقامة إمبراطورية استعمارية ألمانية فى وسط إفريقيا .

الاستعمارية الفرنسية كان لها ما يبررها تماماً . وكان من الصعب جداً أن يتم الاستيلاء على الأملاك الفرنسية فيما وراء البحار ضد رغبة السلطات الفرنسية ، إن لم تثبت استحالتها ، وذلك بسبب ضعف الأسطول الألماني. فعلى سبيل المثال نجد أن الألمان طالبوا فرنسا فى يولية ١٩٤٠ بعدة تنازلات فى شمالى إفريقيا رفضها پتان . والحق أن استمرار سيطرة فيشى على الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية — دون شك إلى أن يعاد توزيع المستعمرات فيما بعد الحرب — كان حجر الزاوية فى العلاقات الفرنسية — الألمانية .. ولعدة أسباب كان من المستحسن عدم إثارة هذه المسألة ألبتة ، لأنها لم تكن تقتصر فقط على العلاقات مع حكومة فيشى . وكانت إثارة المنازعات حول أملاك فرنسا فيما وراء البحار تنذر بهبوب عاصفة لا يمكن تجنبها ، وذلك بسبب ادعاءات إيطاليا فى شمالى إفريقيا الفرنسية . لهذا خلص فورمان إلى أن الوقت لم يحن بعد لأن تدخل العلاقات الفرنسية فى التصريح الخاص ببلاد العرب الكبرى .

حقيقة لقد تم المساس بمبدأ المحافظة على الأوضاع القائمة فيما يتعلق بإمبراطورية فرنسا الاستعمارية — إذ أن اليابانيين كانوا يباشرون نفوذاً وسيطرة متزايدين فى الهند الصينية. إلا أن الألمان لم تكن لديهم وسائل القيام بعمل مضاد لهذا التطور ، فى الوقت الذى لم يكونوا يرغبون فى إغضاب حليفتهم فى الشرق الأقصى .

كما دخلت العلاقات مع تركيا فى مسألة التصريح. ولهذا أفهم جريد Gerede — سفير تركيا فى برلين — ألمانيا أن حكومته مهتمة بمستقبل البلدان العربية ، وأنها تطالب « بالتعاون » بصدد هذه المسألة . وقد نصح ڤون بابن حكومته بمناقشة المسائل العربية مع الحكومة التركية التى كانت لها ادعاءات فى سوريا ؛ وأوضح أن من الممكن أن ترضى تركيا بوعد بحلب والمناطق المجاورة لها فى مقابل خدمات معينة تقدمها للمحور . هذا إلى أن المنطقة التى يوجد بها البترول فى منطقة الموصل كانت موضعاً للنزاع بين إنجلترا وتركيا خلال العشرينات . وكان الساسة العرب على علم بمطامع تركيا ، وكان بعضهم يخشون التعاون بين ألمانيا وتركيا . لهذا لم يكن بإمكان دولتى المحور أن تعدا بالتخلى لتركيا عن الأراضى التى كان يعتبرها العرب ملكاً لهم ، دون أن يجازفوا بفقدان نفوذهم فى العالم العربى. ومن ثم لم يستطع

الألمان أن يناقشوا الشئون العربية مع تركيا – فى هذه الحالة كان عليهم أن يحددوا موقفهم من ادعاءات أنقرة .

وفى النهاية انتقل المسئول الهتلرى فورمان إلى مسألة العلاقات مع الاتحاد السوفييتى .

الشرق الأوسط وعملية بربا روسا

كان يكيف العلاقات السوفييتية – الألمانية فى ذلك الوقت قرار هتلر الخاص بمهاجمة الاتحاد السوفييتى . ففى ديسمبر ١٩٤٠ أصدر تعليماته رقم ٢١ ، المعروفة باسم عملية بربا روسا التى كانت ملخصاً للخطط الحربية التى سبق له وضعها . وفى يناير ١٩٤١ أعدت الأوامر لتشكيلات حربية كبيرة بالقيام بالهجوم المرسوم . وفى خلال شهرى فبراير ومارس وضع الأركان الألمان مسودة أوامر موجهة إلى مختلف جيوش الميدان ، ووضعت التفاصيل لاشتراك فنلندة ورومانيا فى الحرب ضد الاتحاد السوفييتى . وقد انعقد مؤتمر فى ٥ ديسمبر ١٩٤٠ حدد منتصف مايو ١٩٤١ للهجوم على الاتحاد السوفييتى ، على أن يسبقه احتلال بلغاريا والهجوم على اليونان . وبعد أن كانت خطة شن الحرب على الاتحاد السوفييتى قد اكتملت منذ يولية ١٩٤٠ فإنها بذلك دخلت مرحلة الاستعدادات المحددة .

وعلى أساس هذه الخطة الأساسية ، اتخذ الألمان الخطوات السياسية والعسكرية فى البلدان المجاورة للاتحاد السوفييتى : ١ –الاتفاق الألمانى الفنلندى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٤٠ بخصوص نقل القوات الألمانية والعتاد الحربى ٢ – ضمان عسكرى لرومانيا ووضع قوات ألمانية على أراضيها فى أول أكتوبر ١٩٤٠ ٣ – خطة اختراق القوات الألمانية حدود بلغاريا (وقد نميت هذه الخطة إلى علم ستالين فى يناير ١٩٤١) . وقد أثارت هذه الخطوات معارضة واحتجاجات قوية من جانب الحكومة السوفييتية .

وجعل هتلر قرار وأمر الهجوم على الاتحاد السوفييتى سراً دفيناً– بل إن كبار موظفى وزارة الخارجية لم يحاطوا بهما علماً بصفة رسمية ، بل إن بعضهم أخذوا المقترحات التى قدمت أثناء محادثات مولوتوف فى برلين مأخذ الجد . وفى هذه المحادثات اقترح

هتلر وريبنتروب على مولوتوف تقسيم مناطق النفوذ بحيث كان على الاتحاد السوفييتى أن يوجه اهتمامه إلى البلدان الواقعة على حدوده الجنوبية فى مناطق المحيط الهندى والخليج العربى . ومما تجدر ملاحظته أن هتلر أصدر أمره فى التعليمات رقم ١٨ الصادرة فى ١١ نوفمبر ١٩٤٠ — قبل يوم من وصول مولوتوف إلى برلين — بوجوب فعالية كل التعليمات الشفهية الخاصة بالاستعدادات للحرب فى الجبهة الشرقية ، بغض النظر عن نتائج المحادثات التى ستجرى مع رئيس الوزراء السوفييتى . وفى الواقع أنه لم يكن ليمكن لهذه النتائج أن تعتبر مرضية بالنسبة إلى الحكومة النازية ، لأن مولوتوف أصر على أن يقدم هتلر وريبنتروب توضيحات وأن يتعهدا بالتزامات من شأنها أن تطمئن الاتحاد السوفييتى بصدد مسألة رومانيا وفنلندة وبلغاريا وبوغازى البحر الأسود .

ومما لا شك فيه أن ألمانيا كانت تهدف إلى تحويل انتباه الاتحاد السوفييتى عن الاستعدادات الألمانية الجارية على حدوده المباشرة ، والإيقاع بين الحكومة السوفييتية وبريطانيا التى كانت حينئذ الدولة المسيطرة على مناطق المحيط الهندى والخليج العربى . وتتضح هذه الاستراتيجية فى الوثيقة التى عنوانها « الحاجة إلى العمل فى الجنوب الشرق العربى وفى إيران » . وقد صممت هذه الوثيقة خطة لإثارة الثورة فى إيران على أيدى المتطرفين من أنصار المحور الذين كانوا على اتصال بولى العهد — شاه إيران الحالى . وكان من المتوخى أن تؤدى هذه الثورة إلى دخول القوات السوفييتية إيران من الشمال ودخول قوات بريطانية من الجنوب ، ووقوع الاصطدام بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا — وهو ما كان الألمان يعولون عليه كثيراً . على أن فورمان كان يرى غير ذلك . فقد اعتبر الشرق الأوسط — على العكس — مسرحاً للاتفاق بين بريطانيا والاتحاد السوفييتى . وبالإضافة إلى ذلك فإن رأى فورمان كان وثيق الارتباط بخطة مهاجمة الاتحاد السوفييتى . ولكنه رأى من الضرورى اعتبار العراق دولة من دول الخليج ؛ وذلك لكى يواصل الألمان جهودهم الخاصة بتوجيه انتباه السوفييت صوب الجنوب .

وفى ملحوظات فايز ساكر على مذكرة فورمان نجده يدلى بالرأى التالى حول علاقة السياسة العربية بالعلاقات الألمانية — السوفييتية (وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه المسألة هى الوحيدة التى أثارها مع ريبنتروب) — فقد كتب مايلى : « إننى

أجد المذكرة واضحة جداً وقيمة . و بالإضافة إلى ذلك فإننى أود أن أقدم التعليقات العامة الآتية فيما يتعلق بها : حيث تتوقف كيفية استغلال الحركة العربية على أحسن وجه ضد إنجلترا على مشكلة ألمانيا الكبرى — روسيا .

« (ا) إذا لم نكن بحاجة إلى إبداء اهتمامنا بروسيا، فإن الخطة التى وضع تفاصيلها هرفورمان هى الخطة الصحيحة . ومن الواجب كبح جماح سياسة إيطاليا بصدد العرب ، وهى سياسة ضيقة الأفق . فى رأيى أن إجراء مباحثات مع الأتراك ، وفق ما يقترحه هرفون باپن ، سيغضب العرب . لهذا . يبقى تقديم بعض الأسلحة وإنفاق بعض الأموال و بذل بعض الكلمات المعسولة — ولا يجب أن نبالغ فى أثر ذلك على البلدان العربية .

(ب) فى المنطقة العربية لا يهدد إنجلترا سوى دخول دولة عظمى معادية — بمعنى عدم تقييد حركة روسيا فى هذا الاتجاه ، بالتمشى بعض الشيء مع الاقتراح السوفييتى المقدم فى نوفبر من العام الماضى .

« ..توجد عوامل طيبة أخرى فى صف هذا الاتجاه . على أنه يجب تنفيذه بتفصيل أكبر بهذا الصدد ، إذا لم تكن قد اتخذت بالفعل قرارات عسكرية من نوع مخالف تماماً » .

وألحق فايزساكر بهذه الملحوظات الرسالة التى بعث بها الكونت فون در شولنبرج Von der Schulenberg — سفير ألمانيا فى موسكو — بتاريخ ٢٦ نوفبر ١٩٤٠ التى تناولت باختصار أمانى السوفيت فى منطقة الخليج العربى .

ومما لا شك فيه أن فايزساكر كان مصيباً فى إشارته إلى أن سياسة ألمانيا فى البلدان العربية — شأن سياستها فى البحر المتوسط — كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة العلاقات الألمانية السوفييتية . فقد علم بصفة غير رسمية أنه قد تم اتخاذ قرارات عسكرية من نوع مخالف تماماً . كما لابد أنه قد نمى إلى علمه أن الرسالة الصادرة من موسكو بتاريخ ٢٦ نوفبر ١٩٤٠ كانت تعنى أن الحكومة السوفييتية لم تسحب اعتراضاتها على سياسة هتلر الخاصة بالبلقان وفنلندة ، وأن الألمان لم يستطيعوا قبول المقترحات التى تضمنتها الرسالة . يضاف إلى ذلك أنه لا بد كان على بينة من أن حكومة الريخ لم تجب على المقترحات الواردة فيها .

وربما كان فايزساكر يرغب فى أن يوضح أن من شأن الهجوم على الاتحاد

السوفييتى أن يقضى على احتمال قيام الإمبريالية الألمانية الفاشية بهجوم مباغت على البلدان العربية[١] .

قرار ريبنتروب ـ رسالة فايزساكر إلى مفتى القدس السابق

وبعد أن وزن فورمان كل المسائل التى كان على الحكومة الألمانية أن تبحثها ، خلص فى مذكرته إلى أنه « يبدو من الصعب على أى حال إصدار تصريح يساند إقامة اتحاد فدرالى على مستوى العالم العربى كله ، وهو الاتحاد القائم على اتفاق مع إيطاليا ويخرج فى جوهره عن تصريحنا السابق » .

ومن المحتمل أن من بين الأسباب التى دعت فورمان إلى اتخاذ هذا الموقف أنه لم يقدر فرص العمل ضد بريطانيا فى البلدان العربية تقديراً كبيراً . وكان يتفق مع فون فايز ساكر بهذا الصدد . وكان من رأيه أن البلدان العربية فى آسيا بعيدة عن متناول المحور طالما بقيت تركيا على الحياد ، فلم يكن بإمكان الألمان إلا أن يلجئوا إلى الغارات الجوية ، التى كان من الممكن أن تكون مهمة صعبة فى أحسن الأحوال ، على حين أن عملا آخر غير عسكرى ضد بريطانيا كان من شأنه أن يكون قليل الأهمية . وفيما يتعلق بالعراق كان موقف فورمان يتمشى مع تقدير إيطاليا ، فقد كان من رأيه أن أثر ثورة عراقية علنية سيكون قصير المدى وقد يؤدى إلى تقوية هيبة بريطانيا . على أن الموقف كان مقيضاً له أن يتغير بوجود القوات الألمانية « على الجسر الأرضى للعرب » أو بانهيار المقاومة البريطانية . وفى هذه الحالة كان من الممكن أن يشكل الوطنيون العراقيون عاملا مساعداً كبيراً بالنسبة إلى الألمان ، وذلك بقيامهم بتدمير المطارات البريطانية ومهاجمة خطوط المواصلات البريطانية والوحدات البريطانية المعزولة وشرقى الأردن وفلسطين .

وخلص فورمان إلى مايلى : «وفى ظل هذه الظروف يجب أن تكون سياستنا قائمة

---

(١) يقتبس فايز ساكر جزءاً من الوثيقة المعنية بمثابة إيضاح لمعارضته للعدوان على الاتحاد السوفييتى .

على الإبقاء على قوة ثقة العراق .. لكي يوجه العراق ضربته حين يجعل الموقف العسكرى والسياسى بأسره مثل هذا العمل أمراً مرغوباً فيه » .

وهناك تفسير مختصر آخر لهذه النظرية كالآتى : لا يجب أن تنشب ثورة العراق العلنية ضد إنجلترا حتى تسنح الفرصة المواتية للنجاح . وحتى يتم ذلك يجب أن تبقى الرغبة فى النضال حية . وبإمكاننا أن نشك فى أن الفرصة ستكون مواتية بعد الانتصار على الاتحاد السوفييتى .

ولكن من المحتمل أن ثمة تفسيراً مخالفاً تماماً لذلك . فقد كان حكام ألمانيا يرغبون فى أن يبرروا الحرب ضد الاتحاد السوفييتى قبل أن تتم هزيمة بريطانيا . على أنه يبدو من المؤتمر الذى انعقد فى ٣ فبراير ١٩٤١ أنه كان بإمكان الألمان فى هذه الحالة أن لا يستطيعوا سوى أن يخصصوا لجبهة شمالى إفريقيا قوات وعتاداً بكميات غير كافية — ومن ثم استغلال القوى المعادية لبريطانيا فى البلدان العربية سواء أثناء أو بعد أن أصبحت لحرب البلقان أهمية تفوق ما كان لها حتى ذلك الوقت . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بإمكان الألمان فى الشرقين الأدنى والأوسط أن يحتلوا آبار البترول ومعامل تكريره التى كان من الممكن أن يثبت أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى قدرتهم على إدارة الحرب وإلى قوة الريخ الهتلرى فى المستقبل . ويحتمل جداً أن يكون هذا رأى فون ريبنتروب الذى لم يبن قراره على حرص موظفى وزارة الخارجية الألمانية على تقدير الموقف تقديراً مشوباً بالحرص وقد أمر بما يلى : « يجب أن نسعى إلى تحديد تاريخ مبكر (للثورة فى العراق) بالتشاور مع الإيطاليين » . وترتب على هذا أن الألمان كانوا يميلون إلى أن تنشب الثورة فى العراق فى المستقبل القريب ، وأنه كان عليهم أن يوجدوا الطرق والوسائل لمساندتها . وعلى هذا الشكل فهمت وزارة الخارجية صيغة ريبنتروب .

ووفقاً لمذكرة فورمان كان من الضرورى بذل وعد سياسى ما للعرب ، على حين أن ريبنتروب — الذى كان شديد الاهتمام بالحاجة إلى القيام بنشاط فى البلدان العربية — لم يضع خططاً لتقديم أى مقترحات بصدد هذه المسألة . ولما كان التصريح قد تمت صياغته بعد وضع كل الاعتبارات السابقة موضع الاعتبار ، فإنه كان إلى حد ما خيراً من التصريح الإيطالى الألمانى الصادر فى خريف عام

١٩٤٠ ، ولكن لم يصل به الأمر إلى الاقتراب مما كان يطلبه العرب . وكان من المفروض أيضاً أن يبقى فى طى الكتمان . وقد قرر الألمان أن يصدروه على شكل رسالة من الوزير فايزساكر إلى مفتى القدس السابق :

« إن ألمانيا ، التى لم يسبق لها أن امتلكت أرضاً عربية ، ليست لها أطماع فى المنطقة العربية . وهى ترى أن العرب ، وهم شعب له حضارة قديمة ، وقد أبدوا كفاءة فى النشاط الإدارى وأثبتوا مالهم من فضائل عسكرية ، قادرون تماماً على أن يحكموا أنفسهم . لهذا فإن ألمانيا تعترف باستقلال الدول العربية التام ، أو بالمطالبة بالحصول عليه حيثما لم يتحقق هذا » .

وبعد أن أكد فايز ساكر أن العرب والألمان يواجهون نفس الأعداء — أى الإنجليز واليهود — أعلن فى رسالته إلى مفتى القدس السابق أن الحكومة الألمانية على استعداد للتعاون مع العرب ولأن تمدهم بالمساعدة العسكرية والمالية حين يضطرون إلى محاربة البريطانيين تحقيقاً لأهدافهم القومية . وأشار فايزساكر فى الوقت نفسه إلى أن الإيطاليين قد أحيطوا علماً بفحوى الرسالة وأنهم يوافقون عليه .

وهكذا اختلفت لهجة رسالة الحاج أمين الحسينى عن التعليمات الصادرة إلى الوزير المفوض جابريلى . وقد بذل جهداً خاصاً لصياغة الرسالة فى أشد لهجة . ولكنها لم تكن مشجعة للعرب بوجه خاص. وفيما يتعلق بمسألة من الأهمية بمكان بالنسبة إلى العراق — كمده بالأسلحة — تضمنت الرسالة مجرد وعد بأن هذا سيتم بمجرد العثور على الطريقة المناسبة . وفى محادثة جرت بين حداد وفورمان أثار حداد مسألة المساعدة المالية فى حالة نشوب الحرب مع إنجلترا ، وطالب — باسم الحكومة العراقية — بمبلغ مليونى جنيه شهرياً لتغطية الفراغ الناتج عن ضياع المورد الذى تدفعه بريطانيا للعراق. ولكن فورمان لم يقدم وعداً محدداً، حقيقة أنه اتخذ موقفاً إيجابياً فى المذكرة حول زيادة المبلغ بحيث يغطى شراء الأسلحة ، إلا أنه رأى عدم ضرورة الالتزام بدفع ١٠,٠٠٠ جنيه شهرياً بانتظام لمفتى القدس . وكان قد طلب من كل من الحكومتين الألمانية والإيطالية أن تدفعا له هذا المبلغ . على أن فورمان اقترح مبلغاً إجمالياً قدره ١٠٠,٠٠٠ مارك ألمانى — ووافق ريبنتروب على هذه التسوية .

قرارات أخرى

الدعاية ، وزارة الدفاع ، سوريا

وقد أقرت وزارة الخارجية الألمانية المقترحات العملية الأخرى التالية :

فيما يتعلق بالمسائل العربية العامة يركز الألمان معظم جهودهم على الاتصال بالحاج أمين الحسينى . وكان من المتوخى التوسع فى العلاقات مع ابن سعود والحكومة العراقية والزعماء الوطنيين السوريين . وقد قام فون هنتج بكثير من الاتصالات أثناء زيارته لسوريا ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليقين بصدد استطاعة القوميين القيام بأى إجراء ناجح ، وذلك بسبب المنافسات الشخصية والانقسامات وعدم وجود زعامة موحدة . وكان موظفو وزارة الخارجية الألمانية متنبهين إلى الحاجة إلى تجنب الصراعات مع مفتى القدس ، وهى الصراعات التى كان من الممكن أن تترتب على تعاونهم مع الساسة السوريين[١] .

وقد تقرر توسيع نطاق الدعاية الألمانية فى البلدان العربية . وحتى ذلك الوقت كانت برلين تقدم ثلاث إذاعات يومية باللغة العربية الفصحى لمدة ٩٥ دقيقة باستثناء البرامج الموجهة إلى المغرب[٢] ، بالإضافة إلى إرسال تمائم وبطاقات

---

(١) كان للحاج أمين الحسينى أنصار ومنافسون فى سوريا ، وبوجه خاص من بين الوطنيين الفلسطينيين المقيمين فى المهجر فى سوريا ولبنان . وهكذا أصر المفتى – على سبيل المثال – على ألا يقيم الألمان أى علاقات مع موسى العلمى (الذى ترمز إليه تقارير وزارة الدفاع الألمانية باسم جورج) وعلى أن ينظموا كل المسائل المتعلقة بسوريا مع شكرى القوتلى .

(٢) وجهت محطتا إذاعة برلين وباريس إذاعات باللغة العربية المغربية ولغة القبايل . وكانت إذاعة باريس تهدف إلى خلق الشعور بأن الإذاعات يقوم بها فرنسيون . كما عكست الإذاعة الموجهة إلى بلدان المغرب التناقض الداخلى الكامن فى السياسة الألمانية : فقد كان على حكومة هتلر باستمرار أن تحسب حساب وجهة النظر الفرنسية ، ولكن كان عليها فى نفس الوقت أن تسمح لقومية المغرب بأن تعبر عن نفسها . وكان المسلمون المتعاونون مع جهاز الدعاية الألمانية يودون أن تشتد لهجة الدعاية الموجهة إلى بلدان المغرب . وفى سجلات إدارة الدعاية توجد رسالة من باريس بتاريخ ١٧ إبريل ١٩٤١ جاء فيها : « طبقاً للقرارات التى اتخذت أخيراً على أعلى المستويات ، من الضرورى أن يعمل حساب للمصالح الفرنسية بوجه خاص . وتأتى الصعوبات المرتبطة بذلك من أن الوطنيين فى شمال إفريقيا يحاولون باستمرار أن يضمنوا دعايتنا اتجاهات معادية للفرنسيين » . ومما يثير الانتباه ما نلحظه من أن الألمان وضعوا فى أوائل عام ١٩٤٠ خطة لتوجيه الدعاية إلى الجنود المراكشيين فى سوريا من محطة إذاعة لودز (بولنده) . ولكن سرعان ما تخلوا عن هذه الفكرة لأن السلطات فى سوريا كانت تحرم استعمال أجهزة الراديو ذات الموجة القصيرة .

بريدية وكتيبات . وقبل أن تدخل إيطاليا الحرب استخدم الألمان الطرق الإيطالية وأرسلوا شحنات عن طريق ليبيا وإيران . ولكن لم يكن مفتوحاً أمامهم فى بداية عام ١٩٤١ سوى الطريق الأخير . وكانت تصدر طبعة عربية من جريدة « الإشارة » الخاصة بالقوات المسلحة الألمانية ، وكانت تمول المجلة القومية التى كانت تظهر فى جنيف تحت عنوان « الأمة العربية La Nation Arabe » ، وكان يصدرها الأمير شكيب أرسلان باللغة الفرنسية.[1] . وكانت الصحف العربية فى إسبانيا ومراكش الأسبانية وأمريكا الجنوبية تزود بالمعلومات والمقالات . كما أرسلت المادة الدعائية إلى المؤتمر القومى العربى فى بوينس آيريس . وكانت محطة إذاعة الريخ تنشر مجلة « بريد الشرق » التى كانت تصدر كل أسبوعين ، وكانت مساهمة وزارة الخارجية الألمانية فى هذا العمل مقصورة على توفير المادة وتنظيم التوزيع . — وكانت الصحافة العربية تتاقى المقالات ، على حين كان لوكالتى DNBوTransozean مندوبون فى بيروت . وكانت الصحف ترسل بالبريد من ألمانيا إلى إسبانيا ومراكش الإسبانية ومراكش .

ولابد أن موظفى هتلر اعتبروا الإذاعات اللاسلكية أهم نوع فعال من الدعاية بالنسبة إلى البلدان العربية — فقد قرروا أن يقدموا خمسة برامج يومياً وأن يزيدوا وقت الإرسال إلى ٢٠٥ دقيقة . وبالإضافة إلى القرار الخاص بتوسيع نطاق النشاط الألمانى تقرر تقوية النفوذ الألمانى فى مجال الصحافة العربية فى سوريا بإيفاد مراسلين إلى هناك وتزويد جريدة النهار البيروتية بإدارة للأخبار وتجهيزات هامة . كما تقرر تزويد عدد كبير من الصحف السورية بصور فوتوغرافية ونشرات أخبار ، بالإضافة إلى إقامة اتصال تلغرافى بين أنقرة وبيروت مرتين فى الأسبوع . وكان من المتوخى أن تتلقى دور السينما فى بيروت ودمشق وحلب أفلاماً ونشرات أخبار ألمانية .

وتقرر توسيع نشاط الجاسوسية والجاسوسية التخريبية التابعة لوزارة الدفاع الألمانية . ولكن كان من المتوخى أن تقتصر هذه الأخيرة على فلسطين وشرق الأردن ومصر . أما فيما يتعلق بالعراق فقد تم الاعتراف باحتمال تخريب المنشآت

---

(١) لعبت هذه المجلة — شأنها فى ذلك شأن صاحبها وناشرها — دورا هاماً فى حوليات الحركة القومية العربية .

البريطانية هناك . وقد سبق أن رأينا أن نشاط وزارة الدفاع الألمانية لم يكن واسعاً من قبل فى هذه البلدان ، وذلك وفقاً للأوامر المباشرة التى أصدرها ريبنتروب. ولكن الأميرال كاناريس رجا ريبنتروب أن يزوده بتصريح عام مكتوب لكى يقوم بنشاط هناك . ورفض ريبنتروب هذا الطلب ، وطلب أن يحاط علماً بخطط النشاط ، وقرر أن تبقى تفاصيل نشاط وزارة الدفاع الألمانية خافية على الإيطاليين .

وعلى أثر المحادثات التى تمت بين فورمان والأميرال كاناريس والصاغات لاهوزن Lahoosen وبيكنبروك Piekenbrook وستولز Stolze وضعت الأميرالية وثيقة بعنوان : « خطط نشاط إدارة الشئون الخارجية لوزارة الدفاع الألمانية فى الشرق الأدنى » ، وكانت تتناول المهام الثلاث الآتية الخاصة بوزارة الدفاع الألمانية فى إدارة المعلومات السرية وأعمال التخريب والقلاقل :

(أولا) وضع كاناريس خطة لإقامة جهاز للمخابرات السرية فى الشرق الأوسط كله ، مع الاهتمام بالأهمية الخاصة للمعلومات الواردة من تركيا وسوريا ومصر والعراق (ونحن نعلم من مصادر أخرى أن الأميرال بدأ فى ذلك الوقت يرسل عملاء إلى العراق) .

(ثانياً) اقترح القيام بأعمال تخريبية معظمها فى فلسطين ، ومن المحتمل أنه كان يعول على تعاون المفتى . وفى التقرير الذى أعده وزير الدفاع ليقدمه لريبنتروب ، وضع خططاً لتخريب محطات توليد الطاقة ومحطات المياه وخط أنابيب كيركوك — حيفا[1] ومصانع ومنشآت عامة كمستودعات المياه ومحطات توليد الكهرباء — إلى غير ذلك . ووضع كاناريس خططاً لتدمير خطوط تموين القوات البريطانية فى حالة اتخاذ بريطانيا إجراءات ضد العراق .

(ثالثاً) اقترح إثارة قلاقل ضد البريطانيين فى فلسطين وشرق الأردن . وقد اعتقدت قيادة وزارة الدفاع أن مثل هذه القلاقل ستنشب بطريقة آلية بمجرد توافر الأسلحة . واعتقد كاناريس أن مثل هذه الشحنات من الأسلحة ستكون ممكنة

---

(١) لم يكن تخريب خط أنابيب البترول ذا فاعلية كبيرة — إذ كانت تجرى فيه إصلاحات سريعة بصورة غير عادية . وكانت لخط أنابيب كيركوك — حيفا خمس محطات للضخ : اثنتان منها فى شرق الأردن وثلاث فى العراق . ولم تكن الشعبة الأخرى من خط الأنابيب التى تنتهى عند طرابلس تعمل فى الفترة الممتدة من سقوط فرنسا إلى احتلال القوات البريطانية والديجولية لسوريا ولبنان .

حين يتم احتلال القوات الألمانية لتراقيا وثغر سالونيك — ومن هناك سيكون من الممكن إرسال شحنات من الأسلحة إلى فلسطين عبر المياه الإقليمية التركية . ولكنه لم يتبين أى احتمال مباشر لتقديم المساعدة للثائرين على إنجلترا فى العراق، وكان متشككاً بصدد إرسال قائد القوات الجوية فلمى Felmy إلى هناك سراً . وقد وعد كاناريس بسند جهود وزارة الخارجية الألمانية بتزويد العراق بالأسلحة عبر اليابان إذ كان لوزارة الدفاع الألمانية عملاء من بين شخصيات تحتل مناصب هامة فى اليابان وفى السفارة اليابانية فى برلين . ولكن الألمان لم يقتصروا على اليابان — إذ أنهم واصلوا جهودهم كذلك لشحن الأسلحة إلى العراق عبر تركيا ، تحت ستار بضائع مرسلة إلى إيران وأفغانستان .

وقد جرت اتصالات مستمرة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الألمانيتين بخصوص شئون الشرق الأوسط . وفى الإدارة السياسية لوزارة الخارجية الألمانية عهدت هذه المسائل إلى ملشرز ، بشرط أن ينضم إليه جروبا أيضاً إذا مست الحاجة .

وفيما يلى القرارات الخاصة بسوريا :

(أولا) يقوم التمثيل الألمانى فيها على شكل هيئة اتصال مع اللجنة الإيطالية للإشراف على وقف إطلاق النار فى سوريا ولبنان . وقد أمر ريبنتروب بتوخى العناية فى إرسال رجال هدفهم جس النبض توطيداً لمركز إيطاليا فيما يتعلق بالنواحى السابق ذكرها ، دون أن يفشى اسم المرشح الألمانى لتولى رياسة هيئة الاتصال . وكان المرشح هوفون هنتج .

(ثانياً) تقرر الاشتراك مع الإيطاليين فى طلب إبعاد حكومة فيشى لستة أشخاص فى الإدارة السورية اعترض عليهم الألمان . وكان هؤلاء الأشخاص هم : كونتى Conti مدير القسم السياسى للجنة الفرنسية العليا وروجية شمبار Ruger Chambard رئيس قسم الصحافة والرقابة وسبيرو رئيس مكتب التموين (وكان هؤلاء الثلاثة يشغلون مناصب وزارية) وكابتن ماير Meyer ضابط الاتصال المسئول عن شئون القبائل البدوية ، وفوكنو Fouqueneauld مدير بوليس منطقة دمشق وكابتن بلوندل Blondel رئيس الخدمات الخاصة فى منطقة العلويين (أى اللاذقية فى شمال غربى سوريا) — وكان هؤلاء جميعاً مكلفين بإقامة علاقات مع بريطانيا والاتصال بالقادة البريطانيين .

وهكذا تقررت أسس السياسة الخاصة بالبلدان العربية ، واتخذت خطوات هامة بصدد المسائل التفصيلية . وإذا مارئى أن الألمان حتى ذلك الوقت لم يقوموا بالفعل بأى نشاط فى البلدان العربية بسبب احتمال حدوث رد فعل عدائى من جانب الإيطاليين ، فيجب الاعتراف بأن الموقف أصبح مختلفاً اختلافاً جذرياً . ولكن من الواضح أنه لم يكن بإمكان القرارات الألمانية أن تساير التطور السريع الذى طرأ على الموقف فى البلدان العربية ، وبخاصة فى العراق .

الفصل الثامن

نشوب الثورة فى العراق

انقلاب بغداد

فى أواخر شهر مارس نشبت أزمة سياسية فى العراق ، لم يمكن تسويتها هى الأخرى بالطرق الدستورية ، مما أدى إلى حدوث انقلاب عسكرى آخر . وقد سبق أن أشرنا إلى أن نفس الصاغات الأربعة — أعضاء المربع الذهبى الذين ساندوا ترشيح الجنرال طه الهاشمى منذ شهرين — عادوا فأطاحوا بوزارته فى أول إبريل وتولى رشيد عالى رياسة الوزارة من جديد .

ومن الناحية الداخلية نجد أن الأزمة قد نجمت عن استمرار ضعف الثقة وتوتر العلاقات بين الوصى والصاغات الأربعة ، وكان الوصى شديد الرغبة فى تحطيم قبضة الصاغات على الجيش .

وكان مقيضاً للتناقضات الكامنة فى وضع طه الهاشمى أن تبرز للعيان أثناء رياسته للوزارة — فقد كان أخاً لياسين الهاشمى ، رئيس وزراء العراق فى عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ — وقد أطاح به الانقلاب العسكرى الذى قام به الجنرال بكر صدقى . وقد تبنى ياسين آراء الوحدة العربية ، وخلع عليه نشاطه السياسى لقب « بسمارك العرب » . وكان رشيد عالى الكيلانى وزيراً للشئون الداخلية فى وزارته ، وكان طه الهاشمى يشارك أخاه وجهات نظره الخاصة بالسعى إلى تحقيق الوحدة العربية ، كما كان يبدى عطفاً شديداً باستمرار على الصاغات الأربعة الذين أعتبرهم تلامذة له . هذا إلى أنه كان شديد الإعجاب بألمانيا وجيشها . وربما كان هذا هو السبب الذى دعا كلا من ألمانيا وبريطانيا إلى اعتبار وزارة طه الهاشمى استمراراً لوزارة رشيد عالى ، وإن تكن أكثر منها حرصاً بقليل .

وفى الوقت نفسه كان طه الهاشمى على علاقات قوية بنورى السعيد أكبر ممثلى المعسكر الممالئ لبريطانيا والذى أحياناً ما ساند رئيس الوزراء فى السياسة

التى اتبعها . لهذا كانت تبدو التناقضات أحياناً بين آرائه وأعماله السياسية . وكان من رأى موريس بيترسن Petersen — الذى كان سفيراً لبريطانيا فى العراق قبل سير باسل نيوتن — أن طه الهاشمى محدود الذكاء . على أنه يبدو أن مركز الهاشمى لم تحدده فقط اتجاهاته الشخصية ، بل أيضاً — بدرجة غير قليلة — الاتجاهات السياسية فى العراق ، وهى اتجاهات لم تكن ناضجة بحكم أنها لم تكن قد تشكلت بعد .

وإزاء ضغط الوصى ، قام طه الهاشمى بعد توليه الحكم بمحاولات يشوبها الخوف لإغراء بعض أعضاء المربع الذهبى بالانتقال من بغداد إلى حاميات فى الأقاليم . ثم استشف الصاغات الأربعة ، فى اجتماع لكبار ضباط الجيش انعقد فى منزل طه الهاشمى فى أواخر فبراير ، أن رئيس الوزراء كان يضع خطة لقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا . وبحلول نهاية شهر مارس كانت العلاقة بين الهاشمى والضباط الأربعة قد تغيرت تماماً — إذ أن الوصى كان قد أغراه بنقل كامل شبيب ، أقل الضباط الأربعة أهمية ، إلى منصب آخر (٢٦ مارس ١٩٤١) . وأجبر الصاغات الأربعة رئيس الوزراء على إلغاء الأمر ، وحينئذ عرفوا أن الوصى هو أكبر خصومهم وأنهم لا يستطيعون الاعتماد على الهاشمى .

وكان على الوصى ، إذا أراد أن يصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، أن يحطم المربع الذهبى . ولكننا سنرى أن زمام المبادرة لم يكن فى يده تماماً بخصوص هذه المسألة . ولما كان الصاغات الأربعة متنبهين للموقف فإنهم عدوه مؤامرة ضد الحكومة بالتحالف مع المتطرفين من الساسة المدنيين [١] .

وفى ٢٨ فبراير تقابل صلاح الدين الصباغ وفهمى السعيد ومحمود سلمان (من أعضاء المربع الذهبى) ورشيد عالى الكيلانى ويونس السبعاوى وناجى شوكت والحاج أمين فى مقر الأخير (شارع الزهاوى فى بغداد) . وقد أقسم كل الحاضرين على القرآن واتخذ كل منهم اسم جده باعتباره اسماً تآمرياً مستعاراً [٢] . واختير الحسينى رئيساً للجماعة لأنه كان وثيق الصلة جداً بالمربع

---

(١) انظر S.H. Longrigg: Iraq, 1900 to 1950, p. 287. وكان رشيد عالى وأتباعه يريدون أن يظهروا علناً تحت اسم « حزب الشعب » .

(٢) وفقاً لتقرير شوكت الذى احتوته رسالة بعث بها إلى الحاج أمين فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٢ =

الذهبى ، كما كان واسطة الاتصال بين رشيد عالى وجماعة العسكريين . وقرر المتآمرون عدم السماح بأى تنازلات جديدة لبريطانيا أو بقطع العلاقات مع إيطاليا . وصمموا على أن يطردوا من البلاد أبرز الساسة الموالين لبريطانيا ، وأن يسقطوا طه الهاشمى إذا رفض الموافقة على النقاط السابق ذكرها ، وتشكيل وزارة جديدة برياسة الكيلانى . وهكذا تشكلت لجنة سرية كانت تجتمع بكثرة ، وأعدت للقيام بانقلاب . وبعد أن نجح الانقلاب كانت هذه اللجنة تناقش كل المسائل الهامة الخاصة بسياسة الحكومة .

وقد قرر المتآمرون أن يقوموا بالانقلاب فى يوم ٣١ مارس وهو يوم انتهاء الدورة البرلمانية . وفى مساء يوم أول إبريل وضع الجيش فى حالة طوارئ ، وسلم إنذار إلى رئيس الوزراء وحوصر قصر الوصى . ولم يكن فى نية طه الهاشمى أن يتعاون مع رشيد عالى وهرب الوصى من بغداد بمساعدة وزير أمريكا المفوض . وفى البداية توجه إلى البصرة ، وحين صدر أمر رشيد عالى بالقبض عليه ، اختبأ فى سفينة بريطانية راسية فى شط العرب ، ثم توجه إلى عمان حيث انضم إلى عمه عبد الله أمير شرق الأردن . كما لجأ إليها عدد كبير من الساسة العراقيين الموالين لبريطانيا : نورى السعيد وجميل المدفعى وعلى جودت وآخرون . وفى ظل هذا الموقف لم يكن ثمة أى احتمال رسمى لإقامة حكومة دستورية فى العراق . وكان على رشيد وأصدقائه أن يقيموا حكومة للدفاع الوطنى وأن يطبقوا عدداً من الإجراءات غير الدستورية .

=ويناقش صلاح الدين الصباغ (فرسان العروبة فى العراق ، دمشق ، ١٩٥٦ ، جـ ٣ ، الفصل الثانى عشر ص ٢١٨ – ٢٠) الاجتماع الذى انعقد فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ . على أن الصباغ لا يعطينا أسماء المشتركين فى الاجتماع ، بل مجرد الأسماء المستعارة : مصطفى (المفتى) ، عبد العزيز (رشيد عالى) ، أحمد (ناجى شوكت) ، رضوان (الصباغ) ، فرهود (يونس السبعاوى) ، جاسم (فهمى السيد) ، فارس (محمود سلمان) . ووفق ما يذكره المفتى وما ورد فى رسائل شوكت كان الاسم المستعار لفهمى السيد «نجم» . وفى رأينا أن هذا الاجتماع كان أول اجتماع تلتقى فيه هذه المجموعة من المتآمرين .

الأسباب الدولية للانقلاب

لا يمكن أن يكون تفسير أحداث العراق أنها لا ترجع إلا إلى تعقد السياسة الداخلية العادية بشكل أو آخر فى دولة حديثة تعوزها تقاليد الحكومة الدستورية . وفى الواقع أن الانقلاب قد تم فى فترة شهدت تطورات هامة جداً بالنسبة إلى الحرب كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسياسات دولتى المحور وخصومهما .

فقد شهد شهر مارس ١٩٤١ نشاطاً سياسيًّا وحربيًّا كبيراً للألمان فى البلقان . فالقوات الألمانية كانت قد دخلت رومانيا منذ أكتوبر ١٩٤٠ . وفى أول مارس تم احتلال بلغاريا التى انضمت إلى الميثاق الثلاثى . وأدى الضغط على يوغوسلافيا إلى سقوط حكومتها وانضمامها كذلك إلى الميثاق الثلاثى فى ٢٤ مارس . ولكن خصوم المحور أسقطوا حكومة كفتكوفتش Cvetovic, بعد ثلاثة أيام. وفى ٦ إبريل هاجم هتلر يوغوسلافيا واليونان . وفى شمالى إفريقيا شهدت هذه الفترة قيام السلاح الجوى الألمانى بنشاط متزايد ، كما شهدت نجاح أول هجوم مضاد قام به (٣١ مارس) . أما فيما يتعلق بمعسكر خصوم المحور فقد زار وزير الخارجية البريطانية ، أنتونى إيدن ، البلقان والشرق الأوسط فيما بين ١٩ فبراير ونهاية مارس . وكان من مهامه تسوية مسائل العراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية . وفى ٦ مارس ١٩٤١ قابل توفيق السويدى — وزير الخارجية فى حكومة الهاشمى — إيدن فى القاهرة . ويمكن أن نستنتج من تقارير مختلفة أن المحادثات لعبت دوراً كبيراً فى وقوع الانقلاب المعادى لبريطانيا فى العراق .

وقد أبلغ كامل الكيلانى — وزير العراق المفوض فى أنقره وأخو رشيد عالى — فون بابن فى أوائل إبريل بأن الصاغات الأربعة قد دبروا انقلاباً بسبب سخطهم على الامتيازات التى منحها توفيق السويدى لإنجلترا . ووردت أخبار مماثلة فى رسالة بعث بها السكرتير الخاص للمفتى إلى وزير الخارجية الإيطالية فى ٣ إبريل بصدد التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية تم الوصول إليها بين إيدن ووزير خارجية العراق .

كما بلغت مصادر سرية وزارة الخارجية الألمانية بمعلومات تتعلق بفحوى المحادثة التي جرت بين السويدي وإيدن . وقيل إن الوزيرين ناقشا المسائل الآتية : قطع العلاقات الدبلوماسية بين العراق وإيطاليا — احتلال القوات البريطانية لبعض المناطق في العراق — نشاط الوكالات السياسية البريطانية ومراكز تجسسها ودعاياتها — ضم الوزارة لثلاثة أو أربعة وزراء من أنصار بريطانيا . وقد ذكر وزير اليابان المفوض في بغداد أن الإنجليز يطالبون باستقالة وزارة طه الهاشمي وتأليف وزارة موالية لبريطانيا . وقد بلغ القائم المجري بالأعمال في القاهرة حكومته بأن إيدن طالب أيضاً باعتزال عدد كبير من كبار الضباط العراقيين ، وأن هذا الطلب كان السبب المباشر للانقلاب . وأبرق وزير إيطاليا المفوض في بغداد في ٤ إبريل أن إيدن اقترح قيام الجيشين البريطاني والعراقي بعمل مشترك ضد سوريا ولتحرير الإخوة السوريين ! ووفقاً لما يذكره جابر بيلي ، وافق السويدي والوصي على هذا الاقتراح برغم توفيره حجة لدخول القوات البريطانية إلى العراق .

كما قدم ممثلا أمريكا في القاهرة وبغداد تقارير عن محادثات إيدن — السويدي وذكرا أن السويدي توجه إلى القاهرة بدعوة من إيدن — وقيل إن محادثاتهما تناولت التعاون ، أو بالأحرى عدم وجود تعاون ، بين العراق وبريطانيا وتدخل العسكريين في السياسة وقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا . ولا تؤكد التقارير الأمريكية بصورة مباشرة أن إيدن طالب بإجراء تعديل وزاري وبفصل عدد من الضباط . وتذهب هذه التقارير إلى أن توفيق السويدي اعترف بالصعاب التي كان يتضمنها قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا ، وأنه رفض أن يحدد موعداً لقيامه بتنفيذ هذا الإجراء ، إذ كان من رأيه أن التغلب على معارضة قادة الجيش العراقي كان يستلزم بعض الوقت . وكان من رأي وزير الخارجية البريطانية أن من الأسهل بالنسبة إلى الجماهير أن تقبل تقديم تنازلات لبريطانيا فيما لو طبقت نصوصاً معينة إضافية من الكتاب الأبيض ، ولو سمحت للقادة الفلسطينيين بالعودة .

ونحن نجد تأكيداً لهذه الروايات في مذكرات صلاح الدين الصباغ (أحد الصاغات الأربعة) التي نشرت في عام ١٩٥٦ بعد وفاته بعنوان « فرسان العروبة

فى العراق . وهو يذكر أن طه الهاشمى صرح أثناء مناقشة جرت بينه وبين كبار ضباط الجيش (ومحادثتنا هذه كانت ناتجة عن اجتماع عقد بين توفيق السويدى وزير خارجية العراق ومستر إيدن وزير الخارجية البريطانية) بأن على العراق أن يبدى الطاعة لما تريده إنجلترا ، وأن هذا هو ما طلبه إيدن . ويذكر الصباغ أن إيدن أصر على قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا وعلى السماح بحشد الجيوش البريطانية فى العراق . ويقال أيضاً إنه عبر عن عدم رضى حكومته بوجهات نظر قادة الجيش . ويبدو لنا كذلك مما ذكره الصباغ أن توفيق السويدى أبدى كثيراً من التشدد خلال المناقشات التى جرت فى إبريل بين المتآمرين وحكومة طه الهاشمى ، على عكس رئيس الوزراء .

ونحن نستنتج من هذه الروايات ، التى لم يؤكدها أى مصدر بريطانى معروف ، أن مرجع الانقلاب هو الاتفاق بين أنتونى إيدن وتوفيق السويدى . وقد خشى أعضاء المربع الذهبى وحلفاؤهم المدنيون أن تؤدى هذه الاتفاقية إلى النزول بهم إلى الدرك الأسفل فى أحسن الأحوال ، وإلى اشتراك العراق فى الحرب إلى جانب بريطانيا التى كانوا يعتبرونها عدوة لهم ، ويعتقدون أنها فى الجانب الخاسر . وعلى أى حال فإن المحاولة التى جرت فى ٢٦ مارس للإطاحة بكامل شبيب (وكان السويدى قد عاد إلى بغداد فى ١٧ مارس) قد أكدت مخاوف المربع الذهبى .

ويشير السكرتير الخاص للحاج أمين فى الرسالة التى وجهها إلى وزير الخارجية الإيطالية إلى سبب آخر للانقلاب : «إزاء الأخبار المواتية عن محادثات برلين التى كان باستطاعتى أن أنقلها ، قرر الجيش العراقى أن يستولى على الحكم ويعهد إلى الكيلانى بتشكيل وزارة جديدة» .

ومن الطبيعى أن يشير حداد إلى محادثاته فى برلين على اعتبار أنها من أسباب الانقلاب . ومما لاشك فيه أنه كان يود من الطرف الآخر أن يدين له أدبياً ، فيدفعه بذلك إلى بذل مزيد من الجهود لمساعدة العراق . على أن من المحتمل أن تصريحه لا يخلو من أساس — فقد كان على المربع الذهبى ورشيد عالى أن يركنوا إلى جهة ما فى تدبيرهم الانقلاب الثانى . وكان الكيلانى من ناحيته يعلم جيداً رأى الإنجليز فيه والطريقة التى سيقابلون بها الأخبار الخاصة بأنه طرد الوصى —

ركيزة النفوذ البريطانى — خارج البلاد وأنه أصبح مرة أخرى رئيساً للوزراء . ويحتمل أنه كان يعول على المساومة الدبلوماسية ، ولكننا نستشف أيضاً أنه كان يراوده الأمل فى أن يستطيع العراق مقاومة البريطانيين وأن المحور لن يرفض تقديم المساعدة له . وقد أدت الأخبار التى بعث بها حداد من برلين إلى تقوية اعتقاد رشيد عالى وحلفائه بأن لدى المحور قوة ضخمة ، وأن انتصار دوله أمر مؤكد . ولكن حتى لو أمكننا أن نستشف أن لرشيد عالى وجهات نظر أكثر حذراً بصدد التطورات المباشرة للأحداث فى العراق ، فمما لا شك فيه أن شركاء رشيد عالى العسكريين كانوا كبيرى الثقة فى قوة ألمانيا ، على حين أن تطورات الحرب فى إبريل ١٩٤١ كانت تعزز تقديرهم للموقف [١].

وأرادت الحكومة الجديدة أن تخلع على الأوضاع الناتجة عن الانقلاب صبغة قانونية . وفى ١٠ إبريل انعقد البرلمان ، وحضر الجلسة ٩٤ من الأعضاء البالغ عددهم ١١٨ — وحينئذ كانت تعوز خصوم المربع الذهبى القوة والشجاعة اللازمتان لظهورهم . وكان من الواضح أن أعداء الانقلاب تم عزلهم وأدى القبض على عدد من كبار الموظفين ، بما فيهم متصرف البصرة ، إلى تخويف أنصار بريطانيا . ووفقاً لاقتراح تقدم به الكيلانى خلع البرلمان الأمير عبد الإله وحل محله فى منصب الوصى الشريف شرف أحد أعضاء الأسرة المالكة . وكان الشريف شرف قد اشترك فى الثورة العربية الأولى التى نشبت خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان شخصية محببة ولكن لم يكن على جانب كبير من الأهمية .

---

(١) يؤكد حداد أكثر من مرة فى مذكراته أن رشيد عالى والساسة المتعلقين به كانوا يرون أن الموقف فى أوربا غامض ، وبخاصة على أثر تدهور العلاقات الألمانية — السوفيتية ، وأن من المفترض لهذا السبب أنهم كانوا يتبعون سياسة أكثر حذراً إزاء إنجلترا . ولكن صلاح الدين الصباغ يورد فى مذكراته وجهة نظر مخالفة : فهو يذهب إلى أنه هو والزعماء العسكريين الآخرين كانوا على يقين من هزيمة إنجلترا . ونحن أميل إلى قبول مايذكره الصباغ ، وإن كنا لا نستبعد تماما وجود اختلافات معينة بين اتجاهات رشيد عالى واتجاهات المربع الذهبى أو بعض أعضائه . وتبعث مذكرات الصباغ على قدر أكبر من الثقة ويبدو أنها صريحة وأنها كتبت فى أواخر الحرب على أقصى تقدير (إذ أن الصباغ شنق فى بغداد فى أكتوبر ١٩٤٥) . وبالإضافة إلى ذلك فإن اعترافنا بأن حداد كان يتبنى وجهات نظر رشيد عالى وساسة بغداد الآخرين بإخلاص مما يجعلنا نستخلص أنهم من ناحية كانت لديهم معلومات تفوق ما كان لدى معظم الساسة فى ذلك الوقت عن العلاقات الدولية السائدة كما أنهم كانوا يفوقون مثل هؤلاء الساسة فى الفهم ، وأنهم — من ناحية أخرى — كانوا مشبعين بنوع من حب الوطن والمسئولية عن مصير البلاد .

وقد أقر الوصى الجديد استقالة طه الهاشمى وكلف رشيد عالى بتشكيل وزارة جديدة . وتولى رشيد عالى رياسة الوزارة ووزارة الداخلية ، وتولى ناجى السويدى (أخو توفيق) وزارة المالية وناجى شوكت وزارة الدفاع وموسى شهبندر (أحد كبار موظفى وزارة الخارجية وأحد أنصار رشيد عالى) وزارة الخارجية وعلى محمود الشيخ على (وكان محامياً معروفاً ومن المعجبين بهتلر ، كما كان وزيراً سابقاً فى وزارة حكمت سليمان — أى الوزارة التى تشكلت نتيجة للانقلاب الأول) وزارة العدل ، ومحمود على محمود (وزير سابق فى نفس الوزارة) وزارة المواصلات ويونس السبعاوى (أحد زعماء الانقلاب ، وكان محامياً وطنياً معروفاً ترجم كتاب كفاحى) وزارة الاقتصاد ، وتولى رؤوف البحرانى — صديق رشيد عالى — وزارة الشئون الاجتماعية [١] .

وضمنت الوزارة الجديدة مساندة الأندية الوطنية وكثير من زعماء القبائل . كما عبرت الدوائر القومية خارج العراق عن مساندتها لحكومة الكيلانى . وكان هذا ينطبق أولا وقبل كل شىء على سوريا ولبنان حيث كان بإمكان القوميين العرب أن يبدوا وجهات نظرهم بصدد المسألة . وكذلك كان الحال بالنسبة إلى بعض الزعماء المصريين — وبحلول منتصف مايو حاول عزيز على المصرى أن يهرب من البلاد ، ربما إلى العراق .

على أن زمام الموقف لم يكن فى يد العراق أو أى بلد عربى آخر — بل إنه كان فى أيدى الدول الكبرى .

السياسة البريطانية فى العراق (إبريل ١٩٤١)

تم انقلاب العراق فى وقت شهد انتصارات محورية متتالية وتضعضع مركز بريطانيا الحربى . ففى ٦ إبريل قامت القوات الألمانية بمساعدة القوات الإيطالية والمجرية بشن عمليات حربية فى البلقان . وفى ١٧ إبريل سلم الجيش اليوغوسلافى ،

---

(١) M. Khadduri: op. cit., p. 216. — رسالة إيتل من طهران بتاريخ ١٤ إبريل ١٩٤١ ، مذكرات جروبا ، برلين فى ١٤ أبريل ١٩٤١ . قبل ذلك كانت تعوز برلين المعلومات الصحيحة عن تشكيل الوزارة العراقية .

وفى ٢٤ إبريل سلم الجيش اليونانى فى إبيروس. وفى ٢٨ إبريل احتل الألمان أثينا . وانتهت كل عمليات القتال فى البلقان فى أول مايو ، ووصلت القوات النازية إلى البحر الذى تقع البلدان العربية على شاطئه الآخر .

وكان من رأى الدوائر البريطانية والأمريكية أن قصر الوقت الفاصل بين الانقلاب الذى تم فى العراق وبين الهجوم الألمانى على يوغوسلافيا واليونان لم يكن من قبيل الصدفة — بل إن هذه الدوائر اعتقدت أن رشيد عالى قام بتنسيق خطواته مع برلين . ولكن كثيراً من كبار الساسة والقادة العسكريين لم يشاركوا هذا الرأى .

وشنت القيادة الألمانية الجديدة فى شمالى إفريقيا هجوماً على المواقع البريطانية فى العجيلة فى ٣١ مارس وفى ٤ إبريل سقطت بنغازى وفى ١٠ إبريل ظهرت الدبابات الألمانية فى السلوم الواقعة قرب الحدود المصرية . وفى غضون اثنى عشر يوماً كان روميل قد استرجع الأراضى التى استلزم الاستيلاء عليها خمسين يوماً من ويفل . أما طبرق وحدها — التى اشتدت فى الدفاع عنها القوات الاسترالية وكتيبة الجنرال كوبانسكى Kopanski البولندية ووحدات الحرس البريطانى وقوات من جنوب إفريقيا — فقد ظلت تشكل عقبة فى وجه الهجوم الألمانى. ولقد تكبدت بريطانيا فى اليونان وفى الصحراء الكبرى خسائر فادحة فى الرجال والعتاد . وكان الموقف شديد الصعوبة ، وتوقع الرئيس روزفلت انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط . ولكن لم تكن لدى تشرشل النية فى تسليم منطقة كبيرة الأهمية بالنسبة إلى الإمبراطورية — فحشد قوات إضافية هناك ، وطلب من الولايات المتحدة أن تقدم لبريطانيا مساعدات متزايدة .

وفى ظل هذا الموقف أصبح العراق أكثر أهمية من ذى قبل بالنسبة إلى البريطانيين . فموارد العراق البترولية كانت تدعم احتياطيات الوقود الإيرانى . هذا إلى أنه كان طريقاً هامًّا للمرور بالنسبة إلى نقل القوات من إستراليا ونيوزيلندة والهند وشمالى إفريقيا . حقيقة أن تشرشل توقع أن تتحول كل قوة ألمانيا فى القريب إلى اتجاه آخر — أى صوب الاتحاد السوفييتى . إلا أنه كانت توجد عدة دلالات على أن الشرق الأوسط قد يصبح الهدف التالى للهجوم النازى الرئيسى .

ومنذ أواخر مايو أصبحت للبصرة أهمية خاصة بالنسبة إلى الخطط البريطانية باعتبارها الميناء الذى ترد عن طريقه المؤن الأمريكية ، وبخاصة الطائرات .

وبرغم الانتصارات التى حققها المحور ، فإن الجيوش الألمانية كانت لا تزال بعيدة عن العراق الذى كانت القوات البريطانية قريبة منه . لهذا حاول رشيد عالى أن يجد وسيلة للتفاهم مع السلطات البريطانية ، كما حاول — رغم كل شىء — أن يؤجل الصراع المقبل . وكان يعتمد على أن الحكومة البريطانية لن تتجه إلى إغضاب القوميين العرب خوفاً من أن يثير الاصطدام بالعراق رد فعل سيئ ليس فقط فى العالم العربى ، بل بين المسلمين بوجه عام [1]. ومن المعروف الآن أنه كانت توجد خلافات فى الرأى بين الزعماء البريطانيين حول السياسة الواجب اتباعها إزاء العراق فى ذلك الوقت . فعلى حين أن البعض — بما فيهم رئيس الوزراء — كانوا من أنصار التدخل العسكرى ، فإن البعض الآخر — ومن بينهم الجنرال ويفل الذى كان حينئذ قائداً عامًّا للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط — كانوا يرون أن لابد من السعى إلى الاتفاق مع الحكومة العراقية ، لأنه كان من المتعذر فى ذلك الوقت أن يتم فتح جبهة عربية جديدة .

وقد حدث الانقلاب فى الوقت الذى شهد وصول سفير بريطانى جديد هو سير كيناهان كورنواليس الذى كان قد عمل فى وزارة الداخلية فى بغداد منذ قيام العراق الحديث حتى عام ١٩٣٥ حين أبعده رشيد عالى — بصفته وزيراً للداخلية فى وزارة حزب الإخاء الوطنى — عن منصب مستشار الداخلية . ولهذا كان يوجد عداء شخصى بينهما فى عام ١٩٤١ . وقد اعتقد كورنواليس أن رشيد عالى والمربع الذهبى كانوا يحاولون كسب الوقت بالتفاوض مع بريطانيا طالما لم يكن باستطاعة المحور أن يتدخل مباشرة [2] . لهذا فإنه أولا وقبل كل شىء لم يقدم أوراق اعتماده ، مبيناً بذلك أن بريطانيا لا تعترف بالنظام الذى كانت

---

(١) تقرير وزير إيطاليا المفوض فى بغداد بتاريخ ٤ إبريل ١٩٤١ . وتقع المزارات الشيعية المقدسة فى العراق .

(٢) انظر Freya Stark; op. cit., p. 141 . صرح وزير العراق المفوض فى أنقرة لكرول Kroll بأن على حكومته ألا ترتبط بشىء إلى أن يؤدى تطور العمليات فى مصر إلى اتخاذ موقف أكثر تحديداً إزاء إنجلترا . .

شرعيته على الأقل موضع شك[١] . وفى الواقع أن لندن كان لها أنصارها العراقيون المتجمعون فى عمان لتحدى رشيد عالى ، والاستعداد لتشكيل حكومة جديدة معلنين أنهم أنصار الشرعية الدستورية . لهذا اضطر رشد عالى إلى الإلحاح فى طلب الاعتراف ، مما خفف ميله إلى الدخول فى نضال سافر مع بريطانيا . وكان الإنجليز من ناحيتهم يهتمون فى المحل الأول بأن يتجنبوا بقدر الإمكان نشوب المعارضة لإنزال قواتهم فى البصرة ، وبأن يحافظوا على قاعدتيهم الجويتين فى الحبانية والشعيبة وبالحيلولة دون عرقلة وصول البترول عبر أنابيب حيفا .

وكانت القوات البريطانية فى الماضى قد نزلت مرات عدة فى العراق فى طريقها إلى فلسطين ومصر . أما وقد قام المحور بهجومه فى شمالى إفريقيا فقد كانت الحاجة حينئذ أمس من أى وقت مضى لتعزيز القوات البريطانية فى فلسطين ومصر ، بعد أن كان إرسال قوة إلى اليونان قد أنضب مواردها ، خاصة وأن الألمان كانوا قد أسروا عدداً كبيراً منها . وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتمت القيادة البريطانية بحشد قوات فى العراق ، ليس فقط بسبب ظهور اتجاه غير ودى بشكل ملحوظ هناك ، بل لأن التفوق الجوى الألمانى فى بحر إيجه كان يعنى أن خط المواصلات إلى تركيا عبر العراق على جانب كبير من الأهمية .

وكانت الحكومة العراقية منذ البداية تخشى احتلال القوات البريطانية للبلاد أثناء عبورها فيها ، ولم يستطع رشيد عالى بتصريحه علناً فى ٣ أبريل بأنه سيحترم كل التزامات العراق الدولية[٢] أن يمنع نزول القوات البريطانية بطريقة

---

(١) كان من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الكيلانى أن تعترف بريطانيا بحكومته . وقد عرض تنازلات بعيدة المدى للسفير البريطانى ، خلال المساعى الودية التى قام بها إدموندز C.J. Edmonds وجميل مردم ، فى نظير الاعتراف . وكان رشيد عالى على استعداد لأن ينكر علناً وجود اتصالات بينه وبين ألمانيا ، ووعد باتخاذ خطوات نحو قطع العلاقات مع إيطاليا ، وبأن يقبل الأوضاع القائمة فى فلسطين وسوريا إلى أن تنتهى الحرب . ولكن كورنواليس لم يقبل المقترحات ، ربما لأنه اكتشف أن الكيلانى لا يريد سوى كسب الوقت ، (نابيشو إلى وزير الخارجية – بغداد فى ٢ و ٧ و ١٠ إبريل ١٩٤١) ويؤيد الصباغ هذا بشكل غير مباشر وجزئى . الصباغ : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ – ٨ .

(٢) يأخذ حداد نص هذا التصريح الذى أدلى به الكيلانى فى خطاب وجهه إلى الشعب (المرجع السابق ، ص ١٠٢ – ٤) عن العراق تايمز – عدد ٤ إبريل ١٩٤١ . وفى هذا التصريح حدد رشيد عالى برنامج الحكومة على الوجه التالى : محاولة تجنيب البلاد ويلات الحرب – تحقيق رسالة العراق القومية – الارتباط بكل الالتزامات الدولية – مواصلة علاقات الصداقة مع الدول العربية المجاورة .

ناجحة جداً – ولهذا بحث عن حل وسط . وقرر كورنواليس أن يفيد من الموقف ، وبموافقة حكومته طالب فى ١٦ إبريل بأن يؤذن للوحدات الإمبراطورية الإضافية بالتحرك إلى داخل العراق . ثم بلغ كورنواليس الكيلانى بأنه ما أن تتلقى إنجلترا موافقة غير مشروطة على إقامة خط مواصلات عبر العراق ، حتى تقيم مع حكومة الكيلانى علاقات غير رسمية ، ثم تعترف بها رسمياً بعد مرور بعض الوقت ؛ وبلغت وزارة الخارجية البريطانية سفارتها فى واشنطون ، بصدد المحادثة التى تمت بين كورنواليس ورشيد عالى فى ١٦ إبريل ، بأنها على أى حال ستعتبر وجود القوات الإمبراطورية فى العراق من عوامل استقرار الموقف .

وليس من المعروف ما إذا كان الكيلانى قد وافق تماماً على طلب السفير البريطانى . وإذا ما أخذنا بالروايات البريطانية نجد من المرجح أنه وافق[١] .

ولكن المصادر الألمانية والإيطالية (التى تستند إلى محادثات ممثلى العراق مع مندوبى المحور فى بغداد وأنقرة) تذهب إلى أن الكيلانى جعل اتفاقياته غير ملزمة حين ضمنها عدداً من التحفظات والشروط[٢] . وهكذا ذهب العراقيون إلى أن رشيد عالى تمسك باتفاقية ٢٠ يوليه ١٩٤٠ التى نصت على حق إنزال القوات ، ولكنه حرم عليها أن تقيم فى العراق ، كما حرم إقامة معسكرات حربية بريطانية[٣] .

---

(١) وزارة الخارجية البريطانية إلى سفارتها فى واشنطون ، لندن فى ١٧ أبريل ١٩٤١ – كما يذهب خضورى (مرجعه السابق ، ص ٢١٩) – الذى قرأ رسائل كورنواليس أيضاً – إلى أن رشيد عالى قبل مطالب بريطانيا المقدمة فى ١٦ إبريل ، ولكنه عدل موقفه بعد ذلك تحت ضغط الجيش . ويتضح نفس السياق من رسالة وزارة الخارجية البريطانية ومما يذكره خضورى : أى أن رشيد عالى قبل الطلب الخاص بفتح طريق عبر العراق ، طبقاً لنصوص المعاهدة الإنجليزية – العراقية – وحول هذه النقطة فسرت المعاهدة تفسيراً مخالفاً فى لندن وبغداد .

(٢) بسمارك إلى وزارة الخارجية الألمانية ، ١٩ إبريل ١٩٤١ . أيضاً مذكرات من السفارة الإيطالية فى برلين بتاريخ ١٩ إبريل ١٩٤١ ، كرول إلى ريبنتروب ، أنقرة فى ٢١ إبريل ١٩٤١ . على أننا يجب أن نلحظ أن كل هذه المذكرات لم تكتب قبل ١٩ إبريل ، كما ظهرت الروايات المتناقضة حول موقف الحكومة العراقية فى الصحف (رويتر : ١٩ إبريل ١٩٤١ – فرانكفورتر تسايتونج ، ٢٣ إبريل ٤١) .

(٣) ينكر جورج كيرك – فى كتابه The Middle East in the War ، ص ٦٨–٥٩ أن مثل هذا التفاهم قد وجد . وهو يذهب إلى أن الحكومة العراقية قررت فى مذكرة بتاريخ ١ يولية ١٩٤٠ أن تنقض من طرف واحد بعض الالتزامات التى كانت تفرضها المعاهدة الإنجليزية – العراقية .

وبالإضافة إلى ذلك فقد قيل إن الكيلانى اشترط ألا يزيد عدد القوات البريطانية المعسكرة فى البلاد على ٣,٠٠٠ جندى فى وقت واحد[1] . ويذكر نفس المصدر أن السفير البريطانى أبدى عدم رضاه ، ولكن لندن قبلت فى النهاية الشروط السابقة فى ١٨ إبريل .

على أنه مما لا شك فيه أن الحكومة العراقية وافقت فى مذكرتها المؤرخة ١٩ إبريل على نزول قوات بريطانية فى البصرة ، ولكن وفقاً للشرط الخاص بوجوب انتقالها بأسرع ما يمكن إلى الرطبة ، وأن تصرح الحكومة البريطانية مقدماً بأنها لا تنوى مطلقاً أن تنقل قوات أخرى . كما طالبت الحكومة العراقية بألا يزيد العدد الكلى للقوات البريطانية — فى وقت واحد — عن كتيبة مختلطة وألا تنزل وحدات أخرى فى البصرة طالما لاتزال بعض القوات البريطانية فى البلاد .

وفى تلك الأثناء نزلت قوات بريطانية فى البصرة فى ١٧ و١٨ إبريل . وتمشياً مع التعليمات التى أصدرها تشرشل لم يخبر الإنجليز السلطات العراقية بعدد القوات وتحركاتها . ومما يجدر ذكره أن برلين كانت تعوزها أخبار هذه القوات . وفى ٢٣ إبريل ١٩٤١ قدر عدد القوات البريطانية فى العراق بما يتراوح بين ٦٠٠٠ و٧,٠٠٠ . وقد أورد قسم الجيش الأجنبى التابع للأركان العامة لوزارة الدفاع الألمانية أنه قد وصلت إلى العراق فى نهاية إبريل فرقتان هنديتان تعداد كل منهما ١٤,٠٠٠ جندى ، وأنه كان من المتوخى أن تليهما فرقتان أخريان . وقدر الألمان القوات الجوية البريطانية بحوالى ١٦٠ طائرة ، وعلى أى حال فقد كان ثمة شىء واضح هو أن عدد القوات البريطانية زاد على الحد الذى نصت عليه الحكومة العراقية وأن قوات أخرى كانت فى طريقها إلى البصرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يبدو أن بريطانيا أخذت بالتدريج تعدل نواياها بالنسبة إلى العراق بسبب تفاقم موقفها الحربى فى شرقى البحر المتوسط . فى

---

(١) يصور نابيشو المسألة تصويراً مخالفاً حين يذكر (رسالة إلى وزير الخارجية — بغداد فى ٢٩ إبريل) أن الكيلانى لم يكن يرغب فى زيادة عدد القوات الموجودة فى البلاد على ٨,٠٠٠ ولكن لا يوجد تأكيد لرسالة أنقرة (التى ربما كانت تستند إلى ماأدلى به وزير العراق المفوض هناك) بخصوص مرور القوات البريطانية بدون أسلحة .

البداية لم تكن التعليمات المرسلة إلى كورنوليس تتصل إلا بالقوات المارة بالعراق لا بالقوات المعسكرة فيه . وفى ٢٠ إبريل أصدر تشرشل أمره بإبلاغ السفير البريطانى فى بغداد بأن الحكومة البريطانية تود أن تحشد قوات كبيرة فى البصرة ، ولكنها لا تهتم بداخل البلاد ، باستثناء الحبانية . ولكن قيل إن إيدن صرح فى ٢٣ إبريل بأن على القوات البريطانية أن تدافع عن مخزون البترول فى أقصى شمالى العراق . وفى ٢٨ إبريل طلبت السفارة البريطانية إذناً بإنزال قوة أخرى تعدادها ٣,٥٠٠ جندى فى البصرة ، برغم أن القوات التى سبق نزولها لم تبارح البلاد . وبرر السفير طلبه هذا بالحاجة إلى حراسة خطوط المواصلات الإمبراطورية المارة بالعراق . وهكذا بلغ البريطانيون الكيلانى بأنهم يهدفون إلى إعداد طريق حربى دائم عبر العراق . ومعنى كل هذا أن لندن قررت ألا تكترث بالشروط التى قدمها العراق .

المحور ومطالب العراق

أكدت بغداد للألمان حوالى ٢٠ إبريل أن القوات البريطانية لن تبقى فى البلاد . ومن المحتمل أن رشيد عالى وأنصاره أدركوا أنه لا توجد فرصة للحصول على مساعدة من المحور إذا ما اقتنعت دولتاه بأن العراق بلد محتل بالفعل . ولكن المسئولين الأتراك والبعثة الإيطالية فى بغداد أعطوا الألمان فكرة مختلفة تماماً عن المسألة .

حينئذ قررت دولتا المحور اتخاذ موقف رسمى من التطورات التى جرت فى العراق . وقد أعدت الحكومة الإيطالية مسودة مذكرة كان من المتوخى أن يقدمها جابر بيلى إلى الحكومة العراقية — وقد انتقدها الألمان باعتبارها مخيفة جداً . ثم قبل الإيطاليون نص فورمان الذى كان على جابربيلى أن يبلغ الكيلانى طبقاً له — باسم الحكومتين — أنهما تتتبعان أعماله بعطف ، ولكنهما تنصحانه بمقاومة بريطانيا بالسلاح حين يوفر توازن القوى فرصة للنجاح . وقد جاء فى المذكرة أن دولتى المحور تعدان المساعدة الفعالة بالأسلحة والذخيرة والأموال ،

وأنهما تأملان أن تتغلبا على صعاب النقل . وفى الواقع أن الألمان كانوا فى ذلك الوقت يجدون فى البحث عن احتمالات شحن الأسلحة ، وحصل ريبنتروب على وعد من هتلر بأن يضع تحت تصرف العراق أنواعاً مختلفة من الأسلحة .

ورحبت الحكومة العراقية بمذكرة المحور وقبلت عرض الأسلحة والمساعدة المالية . وحين نزلت القوات البريطانية فى البصرة ، قدم رشيد عالى إلى وزير إيطاليا المفوض الأسئلة الآتية : هل باستطاعة العراق أن يعول على المساعدة المباشرة من جانب قوات المحور الجوية ؟ هل باستطاعة المحور أن يبعث بالأسلحة جواً بالشكل الذى حدث فى النرويج ؟ هل باستطاعة العراق أن يعول على المساعدة المالية المباشرة ؟ وبعد عدة أيام تساءلت الحكومة العراقية وقادة الجيش من جديد عن موقف المحور ، ربما تحت تأثير الأخبار الخاصة بأن مزيداً من القوات البريطانية ستصل إلى البصرة ، وأعلنوا أنهم يرون أن إنجلترا كانت تستعد لاحتلال البلاد .

وكانت كل هذه نداءات صريحة إلى المحور بأن يقدم مساعدته ، بما فى ذلك المساعدة الحربية[1]. وفى محادثة جرت فى ٢٣ إبريل بين وزير إيطاليا المفوض وبين رشيد عالى والمفتى ، عبر الأخيران عن ألمهما لعدم تلقيهما المساعدة من قوات المحور الجوية . وهكذا يكون الكيلانى قد طالب بمساعدة المحور حتى قبل ٢٨ إبريل — أى قبل أن تسفر بريطانيا عن رغبتها فى احتلال البلاد . ومن العوامل التى دفعت بريطانيا إلى اتخاذ موقف متشدد من الحكومة العراقية أنها كانت على علم بالروابط القائمة بين رشيد عالى والمحور — فقد عرفت المخابرات البريطانية سر الشفرة التى كانت تكتب بها تلغرافات جابرييلى من بغداد[2]. ولم يعد من

---

(١) تنفى معلوماتنا المستقاة من وزارة الخارجية الألمانية مايذهب إليه مجيد خضورى فى كتابه (لندن ١٩٥١) ص ١٩٥ ، من أن رشيد عالى كلف ناجى شوكت بطلب المساعدة العسكرية من ألمانيا حين زار أنقرة فى مايو . وربما يكون خضورى قد حصل على هذه المعلومات من ناجى شوكت . وتنفى الوثائق الألمانية معلومات أخرى حصل عليها خضورى من هذا المصدر . وفى الطبعة الثانية من كتاب خضورى نجده يقدم رواية مخالفة لهذا الخبر (ص٢٢٩) : «حين حطم السلاح الجوى الملكى قوة رشيد عالى الجوية ، وحين فشل فى إقناع الصاغات الأربعة بقبول الوساطة ، طلب المساعدة الحربية من ألمانيا » . . .

(٢) فك الألمان شفرة بلد ثالث ، مما أوضح أن الإنجليز كانوا يقرءون رسائل وزير إيطاليا المفوض فى بغداد.

الممكن بالنسبة إلى الحكومة البريطانية أن ترى أن مرجع معارضة العراق لإنزال القوات البريطانية هو مجرد مراعاة سيادة الدولة الفتية . كما لم يكن بإمكانها أن تعتبر العلاقة بين الدولتين صراعاً بين الإمبريالية والمشاعر الوطنية فى البلاد :

وفى ٢٨ إبريل قدم وزير إيطاليا المفوض إلى حكومته قائمة مفصلة بمطالب العراق المالية والحربية التى وصلت ٣ ملايين دينار فى الشهر – إذ فى حالة دخول العراق فى حرب مع إنجلترا كان على العراق أن يفقد دخل الجمارك وحصته من البترول ، فى نفس الوقت الذى ينفق فيه مبالغ كبيرة على العمليات الحربية واستمالة القبائل – وقد اقترح الكيلانى أن تضرب طائرات المحور الوحدات البحرية البريطانية فى الخليج العربى وقاعدتى الحبانية والشعيبة. وكان بإمكانها أن تستخدم مطارات الموصل وبغداد ومقدادية والبترول المفروض أنه مخزون فى العراق . كما طلب من المحور أسراباً من الطائرات و ٥٠ سيارة مصفحة خفيفة و ٤٠٠ مدفع مخترق للدروع من عيار ٥٠٠ مصحوبة بـ ٨٠,٠٠٠ خرطوشة و ٦٠ مدفعاً مخترقاً للدروع من عيار ٤٦ ومعها ٦٠,٠٠٠ قنبلة و ١٠,٠٠٠ قنبلة يدوية و ٦٠٠ مدفع رشاش خفيف من طراز ب ٨٠ عيار ٣٠٣ و ٨٤ مدفع آلياً ثقيلاً من طراز فيكرز عيار ٣٠٣ و ٣ ملايين طلقة . وفى هذه المرة لم يطالب الزعماء العرب بأى تصريح من المحور حول مستقبل البلدان العربية ، برغم أن أمانى الوحدة العربية لعبت دوراً هاماً فى الانقلاب العراقى .[٣]

وقد سبق أن أوضحنا أن الألمان لم تكن لديهم ، حين تم الانقلاب ، خطط تفصيلية سياسية كانت أم عسكرية بصدد العراق . حينئذ كانت المسألة مقصورة على الخطط العسكرية – إذ أن الوعود السياسية لم يكن لها وزن كبير منذ انقلاب أول إبريل ١٩٤١ . وبدلا من أن يلعب رشيد عالى والحسينى دور البائعين الذين لديهم ما يعرضونه ، نجدهما فى هذه المناسبة يتحولان إلى شحاذين يطلبان الإحسان . على أن دولتى المحور – وبخاصة ألمانيا – كانتا مشغولتين فى ذلك الوقت فى أماكن أخرى . فالقوات التى غزت يوغوسلافيا واليونان لم تستطع أن تتقدم كثيراً صوب الجنوب أو الجنوب الشرقى لأنها كانت محتشدة على الحدود السوفيتية . وهذا يوضح

إلى حد ما سبب بطء الألمان الشديد فى العمل فى العراق خلال الأسابيع الأولى التى تلت الانقلاب .

وتزودنا يوميات هالدر بفكرة عن الصعاب الكبرى التى كانت تواجهها القيادة الألمانية فيما يتعلق بتخصيص قوات ولو صغيرة لليبيا فى ذلك الوقت . وبرغم ذلك فمن الغريب أن بعض القادة الألمان كان لايزال يراودهم الأمل فى نهاية إبريل فى أن تستطيع الحكومة العراقية تأجيل الاصطدام بإنجلترا إلى أن تتلقى مساعدة كافية من المحور . ومن الواضح أن الألمان كانوا على بينة من أن إنجلترا كانت على علم بعلاقات الكيلانى بالمحور . وربما كان مرجع التأخر فى تقديم المساعدة إلى حد ما هو الخوف من احتمال استسلام الحكومة العراقية ، أو أنها قد تأخرت جداً بسبب تفوق القوات البريطانية فى العراق(١) .

على أن من المعروف أن وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الألمانيتين لم تتوقفا عن دراسة المشكلات العربية ، مما يوضح دون شك أن ألمانيا كانت تهدف إلى أن تستغل جزءاً من صعاب بريطانيا فى البلدان العربية .

مشكلة تزويد العراق بالأسلحة

وظل تزويد العراق بالأسلحة يمثل أكبر مشكلة . وقد سبق أن بينا أن ريبنتروب تغلب على الصعاب السابقة وحصل على موافقة هتلر على تزويد العراق بكل أنواع الأسلحة . وقد وافق كايتل فى الواقع على صفقات الأسلحة المخصصة للعراق(٢) ، كما وافق على تخصيص أسلحة وزارة الدفاع لفلسطين(٣) .

---

(١) مذكرات فورمان ، برلين فى ٢ إبريل ١٩٤١ ، بلغه الكولونل برنكمان Brinkmann – وكان من موظفى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية – أن هذا هو رأى هتلر .

(٢) مذكرات ربكن ، برلين فى ١٧ إبريل ١٩٤١ ، وكان تفصيلها كالآتى : – ١٥٠,٠٠٠ بندقية مشاة عيار ٦,٦ ملليمتر ، إنتاج هولندى مع ٥ ملايين طلقة ، ٦٠٠ مدفع رشاش خفيف عيار ٦,٥ ملليمتر ، إنتاج هولندى مع ٦ ملايين قطعة من الذخيرة ، ٢٠٠ مدفع رشاش ثقيل عيار ٨,٠ ملليمتر مع ٢ مليون خرطوشة ، و ٥٠ مدفعاً ثقيلا قاذفاً للقنابل عيار ٨١ ملليمتر ، إنتاج فرنسى مع ٢٥,٠٠٠ قنبلة ، ١١٠ مدفع خفيف قاذف للقنابل ، إنتاج فرنسى من عيار ٥٠م مع ٧٥,٠٠٠ طلقة .

(٣) مذكرات ربكن ، ملحوظات ديفدسن ، برلين فى ١٩ أبريل ١٩٤١ . تفصيلها كالآتى =

فاعتبارات الهيبة والحاجة إلى مواصلة الحرب ضد بريطانيا جعلت سياسة تقوم على السلبية التامة فى البلدان العربية أمراً غير مرغوب فيه، برغم أن النازيين شعروا بالحاجة إلى حشد كل إمكانياتهم على الجبهة السوفيتية خلال الشهور القليلة القادمة .

ولم تكن بعد قد حسمت مسألة الطريق الواجب استعماله لتزويد العراق بالأسلحة . وبهذا الصدد كان الموقف لايزال كما هو إلى حد كبير منذ بداية مارس . حقيقة أن سالونيك كانت حينئذ فى أيدى الألمان ، إلا أن الميناء لم يكن صالحاً للاستعمال حتى النصف الثانى من مايو أو ما بعد ذلك . وكان من الصعب، حتى فى ذلك الوقت ، العثور على السفن اللازمة لنقل الأسلحة إلى البلدان العربية . واقترحت وزارة الدفاع الألمانية تهريب الأسلحة من الموانى الإيطالية إلى سواحل سوريا ولبنان ونقل شحناتها من هناك باللوريات عبر سوريا إلى العراق . ولكن أصبح من الصعب بعد ذلك بقليل أن ترسل سفينة صغيرة حمولتها ١٦٠ طنا من سالونيك إلى سوريا . وهناك كان على ممثل وزارة الدفاع الألمانية روزر أن يبحث مع شكرى القوتلى — زعيم الوطنيين المحليين — احتمال إنزال الأسلحة سراً وتهريبها إلى فلسطين .

وفى نفس الوقت واصل العراق جهوده للحصول على أسلحة يابانية . وقد أثار المسئولون الألمان هذه المسألة مع السفير اليابانى فى برلين — أوشيما — ومع وزير الخارجية — ماتسوكا — خلال زيارته إلى برلين . ولكن نقل الأسلحة من اليابان القاصية كان يستغرق شهرين . وكانت البصرة — الميناء الوحيد للعراق — فى أيدى الإنجليز . كما أن النقل عبر تركيا ، تحت ستار شحنات بضائع وجهتها أفغانستان

=: ١٥,٠٠٠ بندقية ٨٦ — ٩٣ طراز فرنسى عيار ٨مم مع ١٥ مليون خرطوشة، ٢٠٠ مدفع رشاش خفيف من المدافع التى استولى عليها الألمان طراز ٢٤—٢٩ عيار ٧,٥ مم ٨٠٠,٠٠٠ طلقة و٣٠ مدفعاً قاذفاً للقنابل طراز فرنسى عيار ٥٠ مم مع ١٥,٠٠٠ قنبلة و٣٠٠ مسدس أوتوماتيكى ١٨ —١ طراز ألمانى عيار ٨مم و ٦٠٠,٠٠٠ رصاصة عيار ٩ ، و٢٠,٠٠٠ قنبلة يدوية نورويجية ، ٢٠٠ مسدس للجيب من المسدسات التى استولى عليها الألمان مع ١٠,٠٠٠ طلقة ، و٥٠ منظار ميدان من التى استولى عليها الألمان و١٠٠ بوصلة . وكان طلب وزارة الدفاع الألمانية الأصلى الخاص بفلسطين يزيد على ذلك بعض الشىء وكان يشتمل على أسلحة مخترقة للدروع .

أو إيران ، كان يتطلب أيضاً حوالى شهرين ، كما كان يتطلب تعاون السلطات الأفغانية أو الإيرانية . وقد دعا وزير الاقتصاد الأفغانى — عبد المجيد خان — إلى بودابست ليتباحث معه حول هذه المسألة ، ولكنه حذره من أن ملكه يجب أن يبلغ بأى خطط لنقل شحنات إلى العراق وجهتها أفغانستان .

وطبقاً لأوامر محددة صدرت عن هتلر و ريبنتروب ، ركزت الجهود حينئذ على تزويد العراق بشحنات وجهتها إيران فى الظاهر[1] . وكان من المتوخى إرسال ثلاث شحنات من الأسلحة إلى إيران ، كل منها تحتوى على أجزاء لا على قطع كاملة . وكان من المتوخى بهذا الإجراء أن يتم الاحتياط ضد الاستيلاء عليها واستعمال إحدى الدول الأخرى لها . ولم يكن بإمكان الإيرانيين أن يجهزوا أسلحة صالحة للاستعمال إلا بعد استلام الشحنات الثلاث جميعاً . وقد وصلت الشحنة الأولى ، وبقيت الشحنة الثانية فى جالاتى Jalati ليتم إرسالها إلى إيران ، على حين كان من المتوخى أن تبارح الثالثة ألمانيا خلال بضعة أيام . وكان من المتوخى أن تبقى الثالثة (شحنة ٣ سيارات زنتها ٣٠٠ طن) فى العراق . وبطبيعة الحال كان من المتوخى أن توضع معاً بطريقة مخالفة وأن تشحن من ألمانيا فى قطع كاملة . ولم يعد بالإمكان تغيير الشحنة الثانية ، لأن الإيرانيين كانوا يعلمون فحواها ، وكانوا باستمرار موجودين على مسرح الأحداث . وطرأت صعوبة جديدة حين وافقت السلطات الإيرانية ، وفقاً لطلب مكتب اقتصاديات الأسلحة ، على عدم وجوب إرسال الشحنتين الثانية والثالثة بالسكة الحديدية عبر تركيا والعراق ، بل بالسفن إلى طرابيزون ، ومن هناك باللوريات إلى إيران . وكان الألمان يرغبون قبل كل شىء فى أن يبقوا خططهم سراً عن الإيرانيين . و بهذا الصدد تحادث الملازم لنجنر Lengner — أحد رجال مكتب اقتصاديات الأسلحة — فى ٢٣ إبريل ١٩٤١ مع همايون أحد أعضاء البعثة الدبلوماسية الإيرانية فى برلين ، ووعد بإرسال شحنة الأسلحة الثالثة والأخيرة على جناح

---

(١) وردت فى مذكرات فورمان الملحوظة الآتية التى كتبها ريبنتروب (برلين ، ٢١ إبريل ١٩٤١) : « شاهد الفوهرر المذكرات ، أخبرت فورمان تليفونياً بأن الاقتراح رقم ١ (النقل إلى إيران — لهـ) يجب أن ينفذ فى الحال » .

السرعة . ووعدهما همايون بدوره بأن يعرض على رؤسائه فى طهران مسألة تغيير الطريق المتفق عليه . وربما تم الاتفاق فى النهاية على استحالة إبقاء هذه الخطط سراً بالنسبة إلى الإيرانيين. وحاول إيتل — Ettel — وزير الريخ المفوض فى طهران — الحصول على موافقة إيران على الخطة أو إغرائها بتزويد العراق بالأسلحة بطريقة أخرى . ولكن إيتل لم يتوقع تدبير المسألة بصورة كافية . وأهم من هذا أن الألمان كانوا على يقين من بطء هذه الطريقة فيما يتعلق بشحن الأسلحة إلى العراق فى النهاية .

وأخيراً تقرر نقل الأسلحة جواً وفق ما اقترحه رشيد عالى — إذ فهم الألمان أن باستطاعتهم أن يقدموا المساعدة السريعة عن طريق الجو . وبرغم ذلك كان ريبنتروب يريد إعداد صفقة الأسلحة دون إحاطة القيادة العسكرية ، لأن الجيش لم يبد حماسة كبيرة للقتال فى العراق ، على أن يراجع التفاصيل مع ممثلى القوات المسلحة الألمانية خلال المرحلة الأخيرة . وحاول كبار المسئولين بوزارة الخارجية أن يقنعوا هتلر بأن تشككات الدوائر العسكرية إزاء العمل فى العراق فى المستقبل يستند إلى أساس [١].

وحين سئل جنرال الطيران جشونك Geschonnek عن احتمال مساعدة العراق، رد بإجابة تتضمن نوعاً من التهرب ، فقال إن مساعدة العراق بأسراب من الطيران الألمانى لا محل لها ، لأن المسافة تزيد على مدى طيران الطائرات الألمانية — إذ كان من الممكن استعمال طائرات اليونكرز لنقل الأسلحة ولكن بشرط أن تنزل فى سوريا . فالمدفع من عيار ٤٫٧ مم كان أثقل سلاح من الممكن شحنه بهذه الطريقة . ومن ثم كان بالإمكان تزويد العراق بمدافع خارقة للدروع . ولكن قيادة الطيران الألمانى تحفظت بقولها إن لديها قليلا من الطائرات المستعدة للقيام بمثل هذه المهمة . وحين نضع فى عين الاعتبار تردد السلطات الألمانية فى استعمال المطارات السورية ، فبإمكاننا أن نعتبر هذه الإجابة سلبية أكثر منها إيجابية .

---

(١) فى المذكرات المرفوعة إلى الفوهرر — على سبيل المثال — اعترض ريبنتروب على معلومات القيادة العسكرية الخاصة بعدد القوات البريطانية فى العراق .

ولكى يحرك ريبنتروب المسألة كتب إلى جورنج القائد العام للطيران[1] . ومن المحتمل أن الرسالة أرسلت فى أواخر إبريل .

ونتيجة لكل هذه الجهود عقد مؤتمر فى ٢٤ إبريل جرت فيه مناقشة توقع العمل فى العراق مع قيادة القوات الجوية الألمانية . وقد تم الاتفاق على وجوب تسليم الأسلحة المخصصة للعراق للقيادة الجوية الألمانية فى سالونيك ولكن لم يحدد تاريخ فعلى لتنفيذ ذلك . كما تقرر أن يتم الطيران على طريق سالونيك — العراق دون النزول فى سوريا ، وكان من المتوخى جمع المعلومات عن المطارات العراقية ومؤن الوقود المتوفرة فى أنقرة . وكانت عمليات الشحن تتضمن ١٠٠ طن من الأسلحة يتم نقلها بخمس طائرات تقوم كل منها بعشر عمليات طيران .

وعند هذه المرحلة كان من الواجب عرض الخطة على هتلر للحصول على موافقته . كما أن وزارة الخارجية كانت تود من العسكريين أن يستشيروا هتلر بصدد هذه المسألة ، خاصة بعد أن يقدم كايتل تقريراً . وتدل المكالمات التليفونية التى قام بها المبعوث هيويل Hewell وهيئة أركان الفوهرر[2] على أن هتلر ذاته كان مهتما بمساعدة العراق . وقد زود وزير الخارجية هتلر فى ٢٧ إبريل بمذكرة مستفيضة عن أحداث العراق ، أكد فيها أن تحرك القوات البريطانية على أرض العراق ربما كان الغرض منه الاستحواذ على نقطة وثوب ضد سوريا ومباشرة الضغط على تركيا . وكان من السهل إدراك أن النجاح النهائى للسياسة البريطانية فى تركيا قد لا يكون له أثر قليل على وضع القوات الألمانية التى تحارب الجيش الأحمر . كما بحثت الأركان العامة الإيطالية مسألة مساعدة العراق ، وبخاصة من الناحية العسكرية .

---

(١) لم يمكن العثور على الخطاب سواء فى وثائق وزارة الخارجية الألمانية التى استولى عليها الحلفاء أو فى الوثائق التى سلمها الاتحاد السوفييتى لحكومة ألمانيا الشرقية . وقد أشارت إليها مذكرات كرامارز Kramarz (برلين فى ١٦ مايو ١٩٤١) . ووفقاً لما جاء فى هذه المذكرات أدركت القيادة الجوية الألمانية أهمية مساعدة العراق ، رغم أن الموالين للفاشية فى العراق لم يقيض لهم النجاح المستمر . وقد كتب كرامارز ما يلى : كان الحدث الحاسم بهذا الصدد هو الرسالة الخاصة التى وجهها وزير الخارجية إلى مرشال الريخ (جورنج) .

(٢) تقرير إلى الفوهرر (فينا بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٤١) . كان هيويل ضابط الاتصال بين مركز قيادة هتلر ووزارة الخارجية .

قرار مساعدة العراق

فى ٣ مايو وافق هتلر على اقتراح ريبنتروب وعبر عن رغبته فى عمل كل ما يمكن لمد حكومة الكيلانى بالمساعدة الحربية . كما وافق على نقل بعض الطائرات إلى العراق ، ولكن بشرط أن يتوافر هناك الوقود الكافى لتمكينها من العودة إلى قواعدها[1].

وقد سبقت هذه القرارات قرارات أخرى تتصل باستخدام المطارات السورية كنقط توقف لعمليات الطيران القاصدة إلى العراق . وحتى ذلك الوقت لم يكن ثمة ميل إلى استخدام المطارات السورية ، لأن هذا كان يتضمن موافقة فيشى وإيطاليا . وبرغم ذلك فإن وزارة الخارجية الألمانية عادت من جديد إلى هذه الفكرة على أثر رد الجنرال جشونك . وبالإضافة إلى ذلك فإن إدارة وزارة الخارجية وضعت خطة لتخصيص أسلحة جيش فيجان السابق (وقد تم تخزين هذه الأسلحة فى سوريا تحت إشراف اللجنة الإيطالية الخاصة بالإشراف على الهدنة) للحكومة العراقية ولاحتمال قدوم القوات الألمانية لمساعدة العراق عبر سوريا . وقد قرر الألمان استخدام سوريا كقاعدة لعملياتهم لأن الموقف كان يستدعى العمل السريع ، ولأن الحاول الأخرى كانت تتضمن صعوبات فنية .

وفى ٢٨ إبريل وجه ريبنتروب رسالة إلى القائد العام للقوات المسلحة الألمانية — فيلد مرشال كايتل — اقترح فيها أن تمنح فيشى إذناً باستخدام سبع سفن طوربيد فرنسية وست مدمرات . وفى مقابل ذلك تلتزم فيشى بأن تمون سراً الغواصات الألمانية وبعض السفن التجارية وبأن تنقل الموظفين الفرنسيين فى سوريا والجزائر ومراكش وغربى إفريقيا الفرنسية الذين لم يكونوا موضع قبول لدى الألمان وأن تحول إلى العراق أسلحة من مخازن لجنة الهدنة الإيطالية فى سوريا ، وأن تبذل مساعدتها فيما يتعلق بتزويد العراق بالأسلحة والسماح بنزول الطائرات الألمانية فى طريقها إلى العراق . وكان ريبنتروب يرغب فى أن يسوى آبتز هذه المسائل مع دارلان مباشرة فى باريس . وكان من الممكن أن تتسرب الأخبار فى فسبادن إلى الأميرال

---

(١) مذكرة إلى وزير الخارجية ، برلين بتاريخ ٣ مايو ١٩٤١ . طالب هيويل فى هذه المذكرة بأن يسمح له بالاشتراك فى المناقشات الخاصة بشئون العراق .

ليهى Leahy — سفير الولايات المتحدة — إلى فيشى (وكانت فسبادن مقر لجنة الهدنة الألمانية) . واعتقد الألمان ، ليس دون أساس ، أن تسرب الأخبار كان مرجعه عدم سرية المندوبين الفرنسيين فى لجنة الهدنة الألمانية . كما أن ريبنتروب اقترح بهذا الصدد أن يرسل كايتل مندوباً من القيادة الألمانية العليا إلى باريس . ووافق كايتل فى ٣ مايو ، أى فى نفس يوم موافقة هتلر على اقتراح وزير خارجيته ، وأخبر ريبنتروب بأنه خصص الجنرال فوجل Vogl للقيام بهذه المهمة .

وهكذا تقرر مد العراق بالمساعدة ، برغم تحفظات كبار موظفى وزارة الخارجية الألمانية وشكوك الدوائر العسكرية . ويتضح لنا من وثائق كثيرة أن ريبنتروب كان يود استخدام البلدان العربية كمجال للمنافسة بين وزارة الخارجية وبين العسكريين وبخاصة دوائر وزارة الدفاع الألمانية ، بل وصل به الأمر إلى التفكير فى إنشاء هيئة مخابرات سياسية تختص بوزارة الخارجية . ووافق هتلر على مقترحات وزرائه مع بعض التحفظات ، ويجب أن نضع فى عين الاعتبار أن القرار الخاص بمساعدة العراق قد اتخذ بعد نشوب القتال هناك .

وهناك عامل حاسم فيما يتعلق بقرار النازى الخاص بمساعدة العراق ، هو تصميم الألمان على فتح جبهة فى البحر المتوسط برغم الحرب ضد الاتحاد السوفيتى . وكان من اللازم فتح جبهة ثانوية ، لأن فقدان إيطاليا لشمالى إفريقيا كان ينذر بتغير الشعور الجماهيرى إزاء أكبر حلفاء ألمانيا . وكان يبدو أنه لا يمكن تحقيق الهدف الذى سبق لهتلر أن قرره ، وهو شل القوات البريطانية فى الشرق الأوسط . ولكن لم يكن من الممكن الانسحاب من شمالى إفريقا دون تعريض خطة هتلر الخاصة « بالدفاع عن أوربا Festung Europa » للهجوم من ناحية الجنوب . فمن ناحية كان الألمان يخشون إرسال قوات أكبر إلى الشرق الأوسط ، لأنهم كانوا بحاجة إلى حشد كل إمكانياتهم على الجبهات السوفيتية ، وفى ظل هذه الظروف كان من الممكن أن يكون هناك مجال للقيام بأعمال تخريبية فى العراق ، إن لم يكن الاستحواذ على السيطرة فى تلك البلاد ، أهمية كبرى .

وبالإضافة إلى ذلك كان من شأن مساعدة العراق أن يكون لها أثر هام فى التوسع فى العلاقات مع القومية العربية بحيث تشمل بلداناً عربية أخرى كذلك .

وكان من رأى بعض المسئولين الألمان – من أمثال إيتل الوزير المفوض فى طهران– أن تقديم المساعدة إلى العراق من شأنه أن يثير ثورة عامة ضد السيطرة البريطانية فى الشرق . وقد جرت ألمانيا وراء الوهم الخاص بأن الثورات ستنشب فى فلسطين وشرق الأردن . وبرغم ذلك فالواقع أن أحداث العراق كان لها أثر كبير فى بلدان عربية أخرى . فمثلا قام الزعماء المصريون بمحاولات للاتصال بالمحور نتيجة لهذه الأحداث والانتصارات روميل . وقدم الملك فاروق لهتلر عرضاً بالتعاون بوساطة صهره ذى الفقار بإشاسفير مصر فى طهران . وواصلت وزارة الدفاع الألمانية الاتصالات مع « المهندس » عزيز على المصرى الذى صدرت له الأوامر بالانتقال من مصر إلى بلد يقع تحت سيطرة المحور . وفى العربية السعودية كان من رأى مستشارى ابن سعود أن من الضرورى إقامة علاقات تربط البلاد بالمحور . وكان من الواضح أن تجاهل طلب العراق للمساعدة مما يضعف هيبة ألمانيا فى الشرق . كما أن تقديم مساعدة غير كافية لهزيمة العدو كان بمثابة مضيعة للجهد لن تفيد منها إلا إنجلترا فى الوقت الذى تواجه فيه هيبتها فى هذا الجزء من العالم تهديداً بمثل هذه الخطورة .. وكان الألمان يواجهون فى العراق نفس مشكلة الاختيار التى سبق أن واجهها البريطانيون قبل ذلك بقليل فى اليونان . ولهذا فليس ثمة عجب فى أن يشترط الألمان منذ البداية ، حين وعدوا بمساعدة العراق ، أن تبقى كل العملية سرًّا مكنوناً . ومعنى هذا أنهم كانوا مترددين فى القيام بمثل هذه المهمة غير المؤكدة .

وفى ١٣ مايو ناقش موسولينى وريبنتروب مسألة العراق فى قصر البندقية بحضور الكونت شيانو . وكان ريبنتروب يرغب فى الحصول على موافقة الدوتشى على التعاون مع حكومة فيشى فى سوريا وشمالى إفريقيا . وأشار إلى أهمية ثورة العراق بالنسبة إلى دولتى المحور « إذا ما وصلت إلى العراق شحنة كبيرة من الأسلحة ، يصبح بالإمكان أن ترسل إلى المنطقة قوات جوية تستطيع حينئذ بالعتاد الموجود أن تهاجم الإنجليز ، كما تستطيع فى أحوال خاصة أن تهاجم مصر من الشرق من جهة العراق » .

وقد وافق موسولينى على الحاجة إلى مساعدة العراق ، إذ كان من رأيه أن

فتح جبهة جديدة ضد بريطانيا ، فى الوقت الذى يثار فيه روح العداء للإنجليز بين العرب والمسلمين بوجه عام ، من شأنه أن يعود بالفائدة على المحور . وقد صرح فى المناقشة بأن لدى إيطاليا — على قيد الاستعداد — ٥ طائرات محملة بالأسلحة و ٤٠٠ مدفع رشاش و ٢٠ مدفعاً مضاداً للدبابات ، بالإضافة إلى ١٢ طائرة مقاتلة صدرت إليها الأوامر بالتوجه إلى العراق . على أنه كان من رأى موسولينى أن مساعدة العراق لن تؤتى أكلها إلا إذا تم احتلال قبرص وكريت فى البداية وسمح الفرنسيون للطائرات والقوات بأن تنزل فى سوريا . كما ساند فكرة مهاجمة مصر وأشار إلى احتمال إعداد هجوم عبر تركيا أو حتى عن طريق سوريا لا عبر العراق . ويبدو أن موسولينى كان يفكر فى أهداف فى الشرق الأوسط أكثر أهمية بكثير وأقرب إليه من العراق ، برغم موافقته على مساندة حكومة رشيد عالى . وحين سأل ريبنتروب الدوتشى عن الوقت الذى يستطيع فيه الجيش العراقى التصدى لإنجلترا ، أجاب بأن رشيد عالى يعتقد أنه سيكون بإمكان حكومته أن تقاوم إذا ما تلقت بعض المؤن ، وإلا خمدت مقاومة العراق خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع [١]. ومن المحتمل أن الدكتاتور الإيطالى كان يود أن يؤكد أن قيام المحور بعمل فى الشرق الأوسط أمر لا غنى عنه .

ومما له دلالة بالنسبة إلى هذه المناقشة أن ريبنتروب لم يقتصر فقط على عدم الإشارة إلى الاستعدادات لغزو الاتحاد السوفييتى ، بل إنه أكد أيضاً بالفعل لإيطاليا أن « الفوهرر ... لم يصل إلى أى قرار بأى شكل بصدد المسألة ، وأن القوات الألمانية كان يجرى حشدها على الحدود السوفييتية كمجرد إجراء مضاد لتقوية الجيش الأحمر » . ومن المحتمل أن موسولينى لم يقتنع — إذ أنه أشار بمنتهى الحذر إلى الرغبة فى التعاون مع الاتحاد السوفييتى ، وحذر من أن دخول الولايات المتحدة ضد المحور سيكون أمراً غير مرغوب فيه .

وقد لاحظ شيانو فى يومياته ، بتاريخ ٦ مايو ، أن موسولينى لم يكن على

(١) ثبت أن تصريح موسولينى الخاص بأن الطائرات الإيطالية على استعداد لمساعدة العراق مجرد كلمات جوفاء . (مذكرات شيانو ، ١٩٣٩ — ٤٣ — لندن ، ١٩٤٧ ، ملحوظات بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٤١) .

تفاؤله السابق بخصوص إنهاء الحرب بعد وقت قصير . وعلى العكس كان من رأى شيانو أن الدوتشى سيكون على استعداد لقبول الصلح على أساس حل وسط ، وبخاصة إذا ما وثق من نصيبه من الأسلاب . وعلى أى حال فبإمكاننا أن نستنتج من محادثة جرت بين شيانو وريبنتروب فى ١٣ مايو أن ريبنتروب كان يفضل أن يقنع المحور بالأراضى التى وعدت بها إيطاليا فى شرقى البحر المتوسط ، وأن يتجنب خلق أعداء جدد .

القتال فى العراق

وسرعان ما انجلى الموقف فى العراق . فبعد أن اقتنعت حكومة رشيد عالى اقتناعاً كاملا بأن البريطانيين يودون احتلال البلاد ، قررت اللجوء إلى المقاومة المسلحة . وفى الأسبوع الأخير من إبريل حاول الجيش العراقى منع نزول القوات البريطانية ، ولكنه لم ينجح ، وفى ٢٩ إبريل أرسلت مذكرة إلى بريطانيا تتضمن رفض مطالبها والاحتجاج على أى إنزال جديد للقوات البريطانية . وفى الوقت نفسه صدرت الأوامر إلى القوات العراقية المحتشدة فى معسكر الرشيد جنوبى بغداد بتطويق القاعدة الجوية البريطانية فى الحبانية[١] . وقد نفذ هذا الأمر ٩,٠٠٠ جندى مجهزون بكمية ضخمة من المدفعية[٢] . وفى ٣٠ إبريل أصدر المحاصرون أوامرهم إلى البريطانيين بإيقاف كل عمليات الطيران وهددوا بإسقاط كل الطائرات التى لن تنصاع لذلك الأمر . ورفض القائد البريطانى — فيس مارشال الجو سمارت — الإنذار ، وأعلن أن التدريبات الجوية ستستمر ، وأن كل محاولة للتدخل ستعتبر عملا غير ودى . وبحاول ذلك

(١) بإمكاننا أن نستنتج من مذكرات حداد (ص . ١١) أن الخلاف قد دب بين زعماء الثورة المسلحة حول محاصرة قاعدة الحبانية واحتلالها . ويؤكد الصباغ هذه الحقيقة (ص ٢٢٥) . ووفقاً لما يذهب إليه بعض المؤرخين الإيطاليين كان من شأن احتلال العراق للحبانية أن يسىء إلى وضع القوات البريطانية فى العراق إلى حد كبير .

(٢) يذكر الصباغ (ص ٢٢٥) أن نسبة قوات فهمى — قائد الحبانية العراقى — إلى القوات البريطانية بلغت ١٠ إلى ١ — بما فى ذلك الطائرات . أما نسبة قوات المدفعية فكانت ١ إلى صفر .

الوقت كان قد تم حشد النساء والأطفال البريطانيين فى الحبانية بعد إجلائهم عن بغداد تلبية لأوامر السفير ، على حين صدرت التعليمات إلى الرجال بالتجمع فى السفارة البريطانية والمفوضية الأمريكية[١] .

وفى الساعة الخامسة من صبيحة ٢ مايو بدأت الطائرات البريطانية المقلعة من قاعدة الحبانية ضرب المواقع العراقية ، ورد العراقيون على النار بالمثل . وهكذا بدأت الحرب دون أن يصدر عن أى من الطرفين أى إعلان رسمى . واقتصر الأمر على إعلان رجال الدين المسلمين ، بتأثير من الحاج أمين الحسينى ، الجهاد فى نداء خاص وجهوه إلى الشعب .

ومنذ أواخر أبريل كان التوتر قد ساد منطقة البصرة . وقامت قوات بريطانية باحتلال الميناء ومحطة الكهرباء . وانسحبت القوات العراقية صوب الشمال . ولما كان الوقت حينئذ موسم فيضان نهرى دجلة والفرات ، فإن ذلك حال دون قيام البريطانيين بالتقدم نحو الشمال . وكان خط حديد البصرة — بغداد تحت السيطرة العراقية . وقد قام العراقيون بنقل القاطرات والسفن النهرية إلى الشمال كما قاموا بتدمير الطرق الحديدية وخطوط البرق .

وأرسل رشيد عالى رسالة إلى وزير إيطاليا المفوض فى بغداد بصدد هذه الأحداث موجهة إلى دولتى المحور . وقد جاء فى الرسالة أن الحكومة العراقية اتخذت موقفاً حاسماً من مطالب بريطانيا ، معتمدة فى ذلك على مساعدة المحور ووعود إيطاليا وألمانيا . وفى طلب رسمى للمساعدة ، طالب رشيد عالى بوجه خاص بشحن الطائرات مباشرة وتقديم المعونة المالية وإرسال بعثة عسكرية محورية . وطالب برد عاجل ، وأوضح أنه سيتخذ موقفاً أميل إلى مصالحة بريطانيا إذا لم تصل المساعدة دون تأخير . ولكنه عبر عن شكه الكبير فى نجاح هذه المناورة ، إذ كان يبدو أن البريطانيين يرغبون فى تعقيد الموقف لكى يتسنى لهم احتلال البلاد. وقد أضاف مفتى القدس الذى حضر المحادثة التى جرت مع وزير إيطاليا المفوض : أن مساعدة المحور للعراق سيساعدها على القيام بعمليات تخريبية فى فلسطين وشرق

(١) عن وصف شاهد عيان لمحاصرة السفارة البريطانية فى بغداد انظر كتاب فرايا ستارك الذى سبقت الإشارة إليه . وقد وصلت فرايا ستارك إلى بغداد قبيل عزل السفارة عن المدينة .

الأردن . وقبل يومين كان رشيد عالى قد طلب إرسال ضابط اتصال إيطالى إلى العراق ، ولكن الألمان أقنعوا الحكومة الإيطالية برفض هذا الطلب.

ويبدو أن الزعماء العراقيين كانوا على بينة من تحفظات ألمانيا وترددها . ولكنهم كانوا يرون أنه بمجرد التأثير على الألمان لكى يقوموا بعمل ما ، فإن الاعتبارات المتعلقة بهيبتهم ستزج بهم بشكل متزايد وأعمق فى النضال الناشب فى العراق . وقد أدى تطور العمليات فى البلقان إلى ازدياد آمالهم فى انغمار الألمان بشكل خطير فى شرقى البحر المتوسط وإرسالهم قوات كبيرة إلى سوريا [١] . وكان كل شيء يتوقف على قدرة العراق على الصمود ، فكلما طالت المقاومة ، ازدادت فرص المساعدة المحورية الجدية .

توسط تركيا

وحتى بعد بدء القتال ، حاول رشيد عالى إضعاف عزيمة بريطانيا بالقيام بمناورات دبلوماسية — ومن ثم موافقته على عرض التوسط الذى تقدمت به تركيا .

وكانت الحكومة البريطانية قد طلبت من تركيا التوسط فى أمر نزاعها مع العراق بعد بدء الانقلاب مباشرة [٢] . ولما لم تكن لدينا معلومات بريطانية عن هذه المسألة ، فإن الدافع من وراء هذا الطلب ليس واضحاً تماماً . فنحن لا نعرف على سبيل المثال ما إذا كان يعكس اختلافاً بين أنصار الاتفاق مع الحكومة العراقية وبين أولئك الذين كانوا يدعون إلى التدخل المسلح أو ما إذا كان مناورة القصد منها تأجيل الاصطدام المسلح . وعلى أى حال فإن خطوات التوسط الأولى جاءت من جانب الحكومة التركية ، ولكنها لم تأت إلا بعد بدء الأعمال الحربية فى ٢ مايو ١٩٤١ . وفى هذه الحالة كانت الحكومة التركية تهتم أولا وقبل كل شيء

---

(١) على أن « حداد » (ص ١٢٠ — ١) يذكر أن رشيد عالى كان ينظر إلى هذه المفاهيم بحذر ، وأن وجهة النظر هذه قد أثارت جدلا حاداً بينه وبين صلاح الدين الصباغ .

(٢) يبدو من رسالة فون بابن (أنقرة فى ١١ أبريل ١٩٤١) أنه كان من المفروض أن تطلب الحكومة البريطانية من تركيا أن تقوم بالتوسط قبل مرور أربعة أيام .

بمصالحها التى كانت تهددها تطورات الأحداث فى العراق . ولم يكن الأتراك يهتمون فقط بالمؤن الهامة التى يتم الحصول عليها عبر الخليج (العربى) والعراق ، بل إنهم كانوا يخشون كذلك تطويق قوات المحور لهم . وفى بيان أدلى به إيدن فى مجلس العموم فى ٦ مايو[1] ، صرح بقبوله الرسمى للعرض التركى ، ولكنه لم يسحب أياً من المطالب المقدمة إلى العراق . ومن المؤكد أن هذا الإجراء الذى تم فى ذلك الوقت كان مجرد مناورة ، لأن تشرشل كان قد أبرق منذ يومين إلى ويفل ليخبره بأن لا مجال لقبول الوساطة التركية [2].

كما كان قبول العراق لوساطة تركيا مناورة . وفى يوم ٨ مايو ، حين وصل ناجى شوكت إلى أنقرة ، نجده يتصل بممثل ألمانيا هانز كرول[3] فى أثناء غياب فون بابن . كما أجرى شوكت ثلاث محادثات موسعة مع وزير الخارجية التركى سراج أوغلو . وبسبب المفتى والمربع الذهبى لم يستطع شوكت ، أو لم يرد ، إلغاء طلب تحديد عدد القوات البريطانية المارة عبر العراق وتحريم إقامتها فى البلاد. وقد بلغ كرول بأن أى اتفاق مع إنجلترا فى المستقبل لن يكون سوى هدنة من الممكن استغلالها لتنظيم التعاون السياسى والحربى مع ألمانيا [4] إلى أن يتم استئناف النضال ضد إنجلترا طبقاً لإشارة من برلين . كما تحدث ناجى شوكت عن إقامة علاقات دبلوماسية مع الريخ ، ووعد بعدم قطعها حتى ولو ضرب سلاح الطيران الألمانى المنشآت البريطانية فى العراق . ولم يطلب إلا عدم إنزال ألمانيا أى طائرات فى مطارات العراق خلال اليومين التاليين — أى خلال الفترة التى كانوا يتوقعون أن يتأكدوا فيها مما إذا كان الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا أمراً ممكناً [5] . ويتضح

---

(١) Parliamentary Debates, House of Commons, 5th Series, Vol. 371, Col. 737.
قدم رشيد عالى نفس المعلومات إلى جروبا (رسالة جركة ، بغداد فى ١٢ مايو ١٩٤١) .

(٢) Longrigg: op. cit., p. 293. Church: III, The Second World War, III, p. 227.
رفضت الحكومة البريطانية فى الحال عرضاً بالتوسط تقدمت به تركيا فى ٤ مايو.

(٣) رسالة كرول ، أنقرة فى ٨ مايو ١٩٤١ . أثناء تأليف هذا الكتاب فى عام ١٩٦٢ كان كرول سفيراً لألمانيا الغربية فى موسكو . وقد كتب حداد (المرجع السابق ، ص ١١٩) : أرسلت الحكومة العراقية ناجى شوكت إلى أنقرة حوالى يوم ١٠ مايو لبحث الموقف مع السفير الألمانى ولدفع الحكومة التركية للتوسط حين يقتضى الأمر .

(٤ ، ٥) رسالة كرول ، أنقرة فى ١٠ مايو ١٩٤١ . بلغ ناجى شوكت خضورى بأنه اتصل بفون بابن حين فشل فى الوصول إلى اتفاق (مجيد خضورى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩ — هامش ٢) .

من هذا كله أن الحكومة العراقية كانت ترحب بتأجيل الصراع ، ولكنها لم تفكر فى تغيير اتجاهها السياسى .

وفى ظل هذه الظروف كان مقضيًّا على التوسط التركى بالفشل . ولم يكن من شأن رد برلين أن يجعل العراقيين يتخلون عن الوضع الذى احتلوه حين بدأت المفاوضات — فقد وعد الألمان بتقديم المساعدة المستمرة بشرط أن يحافظ العراقيون على المطارات . وقد صرح ممثلو الريخ بأن كل شىء يتوقف على صمود العراق بقواه الخاصة حوالى أسبوعين . وفى ١٣ مايو وعد فون بابن — الذى كان قد عاد من برلين منذ وقت قصير — شوكت بالمساعدة ، ونصح بعدم التسليم للبريطانيين . ولكنه حبذ مواصلة الجهود الخاصة بالتوسط كسباً للوقت[١]. وربما تكون هذه النصيحة هى التى أدت إلى انتصار المتطرفين : الحاج أمين الحسينى والمجموعة العسكرية ويونس السبعاوى. ورفضت الحكومة العراقية توسط الأتراك . كما لم يكن لنصيحة الحكومة المصرية الخاصة بقبول المطالب البريطانية [٢] أثر أكبر لدى حكومة رشيد عالى .

كما كانت لوزير العراق المفوض فى أنقرة اتصالات مع السفارة السوفيتية . وطبقاً للتعليمات التى أصدرتها له حكومته حاول ضمان مساندة السوفييت للمطالب القومية العربية ، وجعل منها شرطاً لقيام العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولكن الحكومة السوفييتية لم تقبل هذا الشرط . وفى مايو ١٩٤١ سحب رشيد عالى الشرط الذى وضعه ، واعترف الاتحاد السوفييتى بحكومته فى الثانى عشر من ذلك الشهر . ومما له دلالته أن كلا من ألمانيا وبريطانيا عارضت قيام علاقات دبلوماسية بين العراق والاتحاد السوفييتى .

---

(١) فون بابن إلى ريبنتروب ، أنقرة فى ١٣—١٤ مايو ١٩٤١ — بابن إلى ريبنتروب فى ١٣—١٤ مايو ١٩٤١ . ولكن ناجى شوكت نما إلى خضورى أن فون بابن أخبره بأن الثورة العراقية سابقة لأوانها ، وأنه يشك فى المساعدة الألمانية . ويقدم فون بابن رواية مشابهة فى كتابه Der Wahrheit eine Gasse (ظهرت الحقيقة) ميونخ ١٩٥٢ ، ص ٥٣٩ .

(٢) كما يشير خضورى (ص ٢٢٨) إلى نصيحة الحكومة المصرية وملك العربية السعودية بوجوب اتفاق رشيد عالى مع بريطانيا . وقد أشار إيدن فى مجلس العموم فى مايو ١٩٤١ إلى عرض مصر التوسط بين العراق وإنجلترا .

بعثة جروبا

حاولت برلين إقامة اتصال منتظم الهدف منه مساعدة العراق،وكانت حتى ذلك الوقت تعتمد على اتصالات غير دائمة أو تعمل عن طريق الإيطاليين . وقد اقترح إما أن تعطى الحكومة العراقية لبعثها الدبلوماسية فى أنقرة صلاحيات التفويض الضرورية ، أو أن ترسل بعثة إلى بوخارست أوإلى أنقرة بقصد إجراء مفاوضات مع ممثلى ألمانيا . وتم اقتراح إرسال فرتزجروبا بصفته ممثلا لألمانيا وطلب العراق إرساله ليقوم بالاتصال . فقد اعترضت بغداد على إجراء المفاوضات خارج العراق ، واعتبرت أنقرة غير صالحة لهذا الغرض بوجه خاص بحكم أنه كان من المستحيل تجنب الجاسوسية البريطانية هناك . وحين نشب الصراع المسلح قامت بغداد بجهود يائسة للاتصال مباشرة بألمانياعن طريق دوائر عراقية فى بلدان لها علاقات ببرلين. كما كان هتلر مهتماً بأن يكون له شخص على مسرح الأحداث ، وأكد ممثلو ألمانيا فى دول مجاورة للعراق الحاجة إلى مثل هذا التمثيل .

وفى ٣ مايو اقترح ريبنتروب على هتلر وجوب إرسال جروبا ومعه هيئة من الرجال إلى بغداد . وكان اقتراح ريبنتروب ينصب على وجوب إقامة جروبا مركزاً هناك يستطيع أن يكتل كل العالم العربى للقيام بالثورة . كما أنه طالب بالمساعدة الجوية للعراق. وطلب من هتلر أن يصدر الأوامر اللازمة . وقد أشار ريبنتروب إلى أن العمل بالعراق وقيام ثورة عربية عامة من شأنهما أن يقدما خدمة كبرى للزحف الألمانى على مصر . وقد كتب وزير خارجية النازى الكلمات المشجعة الآتية على مسودة الرسالة الموجهة إلى زعيمه : « توضح الأرقام الخاصة بالبريطانيين فى العراق من جديد أنه من الواضح أن وضع إنجلترا اليوم فى قناة السويس لايزال ضعيفاً » . وبرغم ذلك فإنه اقترح ألا تحاط بعثة جروبا إلى بغداد بالعلنية . وفى الواقع أنه أصدر الأوامر بأن تبقى سرية ، وأوصى جروبا

بأن يستخدم الاسم المستعار جركة Cchrcke[1] إلى أن تصله تعليمات أخرى. وتقرر أن تحمل الطائرات الألمانية فى العراق وسوريا شعارات عراقية : وكان من الواضح أن المقصود من هذا الإجراء أن لا يتعرف أحد على الأسلحة الألمانية لكى تتوفر فرص النجاح بصورة مناسبة . وفى ٣ مايو طلب جروبا الأشخاص اللازمين[2] واقترح فورمان أن يقدم له مبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه استرلينى ذهباً[3]. وبارح جروبا برلين فى ٧ مايو ، ووصل إلى حلب فى ٩ مايو بعد أن قطع الطريق عبر فوجيا ورودس . وفى ١٠ مايو وصل إلى الموصل وفى اليوم التالى وصل إلى بغداد ومعه طائرتان مقاتلتان .

وتبعته بعثة جوية معها ثلاث مقاتلات ، وكان يرأسها ابن الفيلد مرشال ، الميجر فون بلومبرج ، الذى قتلته على أى حال رصاصة عراقية أثناء نزوله فى بغداد . وكان من المفروض أن يلى البعثة الجوية سرب جوى ألمانى يتكون من ٢٠ طائرة . أما فيما يتعلق بالطيران عبر سوريا، فقد خصصت بعثة خاصة هناك يرأسها الميجر هانسن من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية .

كما أرسل إلى سوريا رودلف ران ، وهو موظف بسفارة الريخ فى باريس ؛ وكان من المعتقد أن الانقلاب القومى العربى الذى تم فى العراق قد تلقى المساعدة من سوريا بموافقة الحكومة الفرنسية وتعاونها ، وكانت هذه الحكومة باستمرار خصماً قوياً للقومية العربية وللوحدة العربية بوجه خاص . وكانت المفاوضات الخاصة بهذه المسألة قد جرت من قبل بين فيشى وحكومة الريخ فيما كان يسجل أقصى تعاون لبتان مع النازيين .

---

(١) مذكرات فورمان ، برلين فى ٧ مايو ١٩٤١ وبسبب خطأ ربما تم فى محادثة تليفونية ، يعطى فورمان جروبا الاسم المستعار إيركه Ihrcke .

(٢) طلب جروبا أن يرسل معه دكتور ألرخ جرانوف Granow وإيرك هوربنجرو — و.ج. ستيفن (الممثل السابق لمؤسسة أوتووولف فى العراق) بالإضافة إلى بروفسور آدم فالكنشتين (أستاذ الدراسات الآشورية) — وفنيان فى الإذاعة هما إمده Emde وهونتش Hontsch ، وألمانى فلسطينى من فرقة براندنبورج التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية بصفته سكرتيراً خاصاً له . ويتضح لنا من الوثائق أن جرانوف وستيفن قد ذهبا بالفعل ، على حين تحول هوربنجر وهونتش إلى المندوب الألمانى فى سوريا : ران .

(٣) مذكرات فورمان ، برلين فى ٣ مايو ١٩٤١ ، انظر حداد : المرجع السابق ، ص ١١٥ حيث يذكر أرقاماً خرافية (٢٠٠ ألف جنيه ذهباً) .

بروتوكولات باريس

كانت المحادثات قد تقدمت بعض الوقت بصدد مسألة المساعدة الفرنسية المادية لفياق إفريقيا . وفى أواخر إبريل وأوائل مايو طابت برابن موافقة فيشى على استعمال القواعد الجوية السورية ، وأن ترسل إلى العراق الأسلحة المخزونة فى سوريا ولبنان . ولما كان لابد أن تؤدى موافقة فرنسا إلى سوء علاقاتها بإنجلترا والولايات المتحدة ، فقد عاقت دوائر معينة فى ألمانيا وفرنسا آمالا قوية على أن تؤدى هذه المحادثات إلى تقوية التعاون بين فيشى والمحور وتعديل وضع فرنسا السياسى من دولة مهزومة ومحتلة جزئيًّا إلى حليف . ويجب أن نذكر أن هذه الفترة شهدت انتصارات سريعة للمحور فى البلقان ، كما شهدت نجاحات هامة لروميل فى شمالى إفريقيا .

وفى ٣ مايو — أى فى اليوم الذى وافق فيه هتلر على إرسال طائرات إلى العراق ، بعث ريبنتروب تعليمات إلى آبتز . وفى نفس اليوم بلغ ريبنتروب الأميرال دارلان بأن هتلر سيقابله ، وأن ألمانيا على استعداد لتقديم تنازلات إذا ما وافقت حكومة فيشى على أن تخصص للجيش العراقى الأسلحة المخزونة فى سوريا وأن تستعمل الطائرات الألمانية المطارات السورية فى طريقها إلى العراق . وأكد آبتز أن التعاون بين فرنسا وألمانيا فى المستقبل سيتوقف على موقف فرنسا من النقاط السابقة ، وأن هتلر تهمه الأعمال لا الأقوال . وأشار دارلان إلى الصعوبات الكامنة فى اتباع مثل هذه السياسة ، وطالب بتنازلات حقيقية وكبيرة فى مقابل أن ترتبط حكومته بألمانيا بمثل هذا الشكل العميق . وبعد مشاورات تمت فى فيشى رجع درالان إلى باريس فى ٥ مايو بموافقة بتان والوزراء المختصين على الخطط الألمانية ، وأرسلت الأوامر الضرورية فوراً إلى المندوب السامى الفرنسى فى سوريا ، جنرال دنتز ، فيما يتعلق بنزول الطائرات الألمانية[١] . وبسبب الحاجة إلى المحافظة على

---

(١) فى ٦ مايو أرسلت هذه الأوامر من فيشى بالشفرة البحرية . وقد أشار دارلان فى رسالته إلى مناقشة عامة مع ألمانيا ، وركز على أن نجاح المحادثات كان يتوقف إلى درجة كبيرة على ما إذا كان دنتز سيسهل طيران الطائرات الألمانية التى تتوقف فى سوريا . وقد تلق دنتز تعليمات من وزير الحربية ؛ ولكنها لم تكن بعيدة المدى .

السرية ، اقترح دارلان أن يطير المفوضون الألمان والفرنسيون إلى سوريا . وكان عليهم أن ينقلوا إلى الجنرال دنتز ورئيس لجنة الإشراف الإيطالية الجنرال دى جورجيس Giorgis موافقة باريس على تحويل الأسلحة الفرنسية إلى العراق وأن ترسل من سوريا شحنات أخرى إلى العراق ، والسماح للطائرات الألمانية بالنزول هناك فى طريقها إلى العراق . وكان من المتوخى أن يمر المفوضون بصفتهم تجار أسلحة . وقد وعد درالان آبتز بأن يرسل إلى دنتز الأوامر اللازمة ، ولكنه طالب بأن يشرف موظفون فرنسيون على إخراج الأسلحة من المخازن حتى لا تقع فى أيدى الوطنيين السوريين . كما قدم دارلان الشروط الآتية : أن يتظاهر الألمان بأن على الطائرات أن تنزل اضطرارياً فى سوريا ، وأن يكون النزول فى مطار حديث البناء جنوب شرقى الفرات ، وأن يمكن إغلاقه فى وجه المراقبين الأجانب ، ووجوب كون الطائرات دون علامات مميزة ، وعلى الألمان أن يوفروا شحنات البترول . ومن الواضح أن دارلان كان يريد إبقاء المسألة سراً بالنسبة إلى بريطانيا وأن يخفى مسئولية الفرنسيين عن العمليات الجوية الألمانية فى سوريا . ولكن ثبت أن المطار الذى اقترحه دارلان على الفرات بعيد عن مدى طيران الطائرات المخصصة ، إذ كان يقع على بعد ١,٢٠٠ كيلومتر من جزيرة رودس . لذا قام الألمان بعمليات النزول فى مطارات أخرى أيضاً — منها دمشق على سبيل المثال .

ووافق دارلان على تزويد العراق بطائرات استطلاع وطائرات مقاتلة وقاذفات للقنابل وقنابل جوية (من العتاد الحربى الذى تركته اتفاقية الهدنة تحت تصرف فرنسا) ، بشرط أن تفرج ألمانيا عن عدد مماثل من الطائرات والقنابل المحجوزة فى فرنسا . كما وعد بأن يستبعد الموظفين غير الموثوق بهم من سوريا وتونس والجزائر وغربى إفريقيا الفرنسية . وإلى جانب إعادة سبع سفن طوربيد للخدمة ، طالبت فرنسا بتنازلات سياسية : على سبيل المثال خفض تكاليف الاحتلال وتسهيل الانتقال عبر خط التقسيم . وأكد دارلان أن تنفيذ رغبات براين لم يكن يستلزم جهداً قليلا ، وذلك بسبب معارضة بعض وزراء فيشى ، وأشار إلى الحاجة إلى تهدئة الرأى العام الفرنسى . ووافق الألمان على تخفيف قيود الاتصال بين أجزاء

فرنسا المحتلة وأجزائها غير المحتلة[١] . ووعد بالدخول فى مفاوضات حول تخفيف نفقات الاحتلال المتوقفة على عدد من العوامل الاقتصادية. ولكن اعترضت الصعوبات تنفيذ هذا الوعد[٢] كما وافقوا على إدخال تحسينات على تسليح القوات الفرنسية .

وفى ١١ و ١٢ مايو أجرى دارلان محادثات مع هتلر وريبنتروب فى برختشجادن وفوشل ، ولكن جرت بعد ذلك فى باريس مناقشة على مدى أكثر تحديداً بخصوص التعاون العسكرى . ولم تتجاوز المناقشات مستوى المسائل العسكرية الصرف على غير رغبة مساندى التعاون الأوسع . ولم يتم بحث المسائل السياسية . وتتضمن ما يسمى ببروتوكولات باريس الاتفاق الفرنسى الألمانى النهائى . وقد تمت صياغة البروتوكول المتصل بسوريا والعراق فى أمسية ٢٣ مايو ، وفيه التزمت حكومة فيشى بمايلى :

١ ـ أن تتحول إلى العراق ¾ المواد الحربية المخزونة فى سوريا .

٢ ـ الموافقة على نزول الطائرات الألمانية والإيطالية وتزويدها بالوقود ، وأن توضع تحت تصرف سلاح الطيران الألمانى قاعدة خاصة فى حلب .

٣ ـ أن تسمح باستعمال الموانى والطرق والسكك الحديدية لعمليات النقل فى العراق .

٤ ـ أن تدرب فى سوريا جنوداً عراقيين مسلحين بأسلحة فرنسية .

٥ ـ أن توفر للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية كل المعلومات الخاصة بقوة بريطانيا وخططها فى الشرق الأوسط ، مما يتوفر لدى المخابرات الفرنسية .

٦ ـ أن تدافع عن سوريا ولبنان بكل ما يمكنها من قوة . وفى مقابل ذلك وافقت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية على تعزيز القوات الفرنسية المرابطة فى سوريا خارج نطاق الحدود التى وضعتها اتفاقية الهدنة . وبشكل محدد كان هذا

---

(١) كان يدخل فى ذلك السماح للشعب الفرنسى بالقيام بمراسلات بين منطقتى فرنسا على بطاقات بريدية (وكان لا يسمح قبل ذلك إلا ببطاقات عليها نص مطبوع وثلاثة سطور خالية). كما نوقشت مسألة إصدار بطاقات المرور للمشاة ورجال الطيران بنفس العدد الذى كان يسمح به لرجال البحرية ، وتوفير بطاقات المرور فى حالة المرض الخطير أو وفاة الأهل . وقد طالب الفرنسيون بفتح خط التقسيم على مصراعيه أمام البضائع وتبادل العملة .

(٢) من الشروط التى قبلتها حكومة فيشى فى مقابل خفض نفقات الاحتلال تسليم الذهب البولندى المخزون فى أفريقيا .

يعنى : أن تأخذ فرنسا ربع المواد الحربية المخزونة فى سوريا، وأن تنقل إلى سوريا ولبنان ثلاث بطاريات ثقيلة مضادة للطائرات ومعها الذخيرة والطاقم و ٢٤ مدفعاً مخترقاً للدروع عيار ٢٥ مع الذخيرة ، و ٢٤ مدفعاً عيار ٧٥ مع الذخيرة ، وأن ترسل إلى سوريا من شمالى إفريقيا وحدة من الطائرات المقاتلة بعد أن يتم تعزيزها بالرجال والعتاد ، و ٨٠ طناً من قطع غيار الطائرات .

وتم الاتفاق على أن تساعد فرنسا فى نقل هذا العتاد . وكانت هذه التنازلات تتطلب موافقة إيطاليا المسبقة ، وهو ما تم قبل انتهاء المفاوضات الفرنسية — الألمانية. ويمكننا أن نتبين بالفعل ، إلى جانب مسألة المواصلات عبر خط التقسيم ، أن الألمان قاموا فى البداية بعرض المساعدة على فرنسا وهى المساعدة التى مكنتها من محاربة أعداء الريخ ، وذلك فى مقابل المساعدة الكبيرة التى قدمتها فيشى .

ولم تقتصر بروتوكولات باريس على التعاون الفرنسى — الألمانى فى سوريا ولبنان . فقد كانت تنقسم إلى أربعة أقسام كان أحدها يتعلق بمشاكل الشرق الأوسط ، وكان الآخر خاصاً بالتعاون فى إفريقيا : تونس حيث كانت توجد القاعدة العسكرية العامة بنزرت وإفريقيا الغربية الفرنسية (داكار) وإفريقيا الاستوائية . وهكذا كانت أحداث العراق هى السبب المباشر لوضع برنامج واسع النطاق للتعاون الفرنسى — الألمانى . على أنه لم ينفذ من بروتوكولات باريس على طول المدى سوى القسم المتصل بسوريا ولبنان .

بعثة ران

فى ٦ مايو بعد انتهاء المحادثات مع دارلان (فى الساعة العاشرة مساء) — أمر آبتز ران بأن يطير بأسرع ما يمكن إلى سوريا للإعداد لتزويد العراق بأسلحة فرنسية . وقد تلقى ران صلاحيات تفويض من آبتز باسم وزير خارجية الريخ ومن الجنرال فوجل باسم لجنة الهدنة الألمانية . وقد عين دارلان جاك جرار Guérard ممثلا له وزوده بالتعليمات اللازمة للجنرال دنتز والقادة العسكريين الفرنسيين فى سوريا ولبنان. وكان يصحب ران إيتل — فردريش مولها وزن Eitel-Friedrich Mollhausen

ــ وكان من موظفى سفارة باريس ــ بصفته سكرتيراً . وقد طار ران إلى سوريا فى طائرة ريبنتروب (هنكل ١١١) عن طريق برلين وأثينا ورودس حيث قابل جروبا . وفى ١٠ مايو وصل إلى حلب ثم توجه إلى بيروت[١] . وقد خصص لبعثته مبلغ نصف مليون مارك نصفها عملة ذهبية والنصف الآخر بالفرنكات الفرنسية .

وكان على الألمان أن يتخلوا عن فكرة إرسال فون هنتج إلى سوريا ليرأس بعثة الاتصال فى لجنة الإشراف الإيطالية فى بيروت . وكان هتلر قد أخطر بذلك بالفعل . ولكن لما كانت السلطات الفرنسية تشك فى كون فون هنتج من وراء قلاقل مارس وأبريل التى نشبت فى سوريا ، فقد اعتبرت آبتز غير مناسب ، واقترح أن يرافق دارلان فى رحلته لمقابلة هتلر . وترتب على ذلك أن اضطلع العسكريون بمهام بعثة الاتصال الألمانية : الميجر هانسن من الجيش والكولونل رودجر فون ما نتوفل Rodiger von Manteuffell من القوات الجوية[٢]. وكانت مهام البعثة تتضمن الاتصال بلجنة الإشراف الإيطالية . وقد اتخذ مانتوفل قرارات خاصة بطيران الطائرات الألمانية إلى العراق ، على حين أشرف ران وولهاوزن على تقديم الأسلحة وعلى الاتصالات مع الموظفين الفرنسيين ، وأدى هذا إلى الاصطدام بين العسكريين ومندوبى وزارة الدفاع الألمانية من جهة وبين ممثلى وزارة الخارجية الألمانية من جهة أخرى[٣] . وكانت تتمثل فى العسكريين قوة المنتصر ، فقد كانوا يشكون فى الفرنسيين ، كما كانوا على استعداد لمساندة الوطنيين السوريين ، أعداء فرنسا . وكان المدنيون يمثلون مدرسة آبتز وما كان

---

(١) يدعى ران أنه طار إلى حلب فى ليلة ١١ مايو ، وأن المحادثة مع دنتز جرت فى صبيحة يوم ١٢ مايو . وتتفق مادة التقرير مع الرسائل التى بعث بها ران من سوريا والرسائل التى بعث بها جروبا من العراق . لهذا نقبلها ولا نقبل المادة التى جاءت فى كتاب ران (حياة قلقة : Ruheloses Leben) ، دسلدورف ، ١٩٤٩ – التى يحتمل أنها تأملات كتبت من الذاكرة فى معسكرى هوهن ونورمبرج . وقد ذكر دنتز أثناء محاكمته أن ران وجيرار وصلا إلى حلب فى ٩ مايو.

(٢) مذكرات من السفير ريتر Ritter ، برلين فى ٨ مايو ١٩٤١ . عين اللفتننانت شمالز Schmalz – الموظف السابق بوزارة الخارجية – ليكون مساعداً له .

(٣) يتبين لنا من ملحوظات ران أن هانسن اتفق مع عملاء وزارة الخارجية الألمانية . وقد أصبح هانسن بعد ذلك – بصفته كولونل – أحد قادة وزارة الدفاع الألمانية وأعدم رمياً بالرصاص باعتباره أحد المشتركين فى مؤامرة ٢٠ يولية ١٩٤٤ .

يسمى « بالفكرة الأوروبية » أى فكرة إقامة تعاون أوثق مع فرنسا ضد إنجلترا ، وكانوا يضعون نصب أعينهم القوى الاجتماعية والأحداث والشخصيات فى سوريا .

وعكف ران على مهامه بنشاط كبير وقدرة على التصرف السريع . ففى ١٠ مايو قابل دنتز فى بيروت . وحاول تنفيذ تعليمات أبتز — الذى نصح أولا وقبل كل شىء بالتغلب على المقاومة النفسية التى كان يتطلبها التعاون مع ألمانيا — فسعى إلى استمالة دنتز بكشف الفرص العظيمة التى كان يتضمنها تعاون فرنسا وألمانيا ، وساعده فى هذا جيرار مبعوث دارلان . وبعد بعض المساومات[1] ، حدد حجم الشحنة الأولى المتوخى إرسالها إلى العراق : ١٥,٠٠٠ بندقية و ٢٠٠ مدفع رشاش معها الذخيرة الخاصة بها (٦ ملايين خرطوشة و ٨٠٠ حزام من الرصاص) و ٤ مدافع ميدان عيار ٧,٥ و ١٠,٠٠٠ قنبلة — وكل ذلك مع العتاد الاحتياطى الضرورى وقطع الغيار .

وقد نجح ران فى تجميع كل الشحنات فى وقت قياسى . وكان مبعث استعجال الموظفين الفرنسيين هو حاجتهم إلى تقوية قوة حراستهم فى القطاع الشمالى من الحدود العراقية — ولهذا حصلوا على إذن من تركيا بمرور قطارين بعد ساعات قليلة[2] . وقد وصلت الشحنة التى كان يرافقها ران من الحدود العراقية ، إلى الموصل بعد ظهر يوم ١٣ مايو . وفى رحلة العودة شحنت العربات بمواد غذائية إلى سوريا .

وقد اتفق ران مع دنتز على وجوب مبارحة القطارات التالية المحملة بالأسلحة فى ٢٦ و ٢٩ مايو وفى ٣ و ١٠ يونيه . ولم تصل إلى العراق سوى الشحنتين الأوليين اللتين أرسلهما موهاوزن . وكانت تشبه القطارات الأولى فى كونها تحمل شحنات طعام خلال رحلة العودة إلى سوريا ، مما مكن السلطات الفرنسية من توجيه ضربة إلى السوق السوداء وزيادة احتياطيات الحكومة .

---

(١) حاول دنتز أن يقلل المؤن المرسلة إلى العراق إلى أقصى درجة ممكنة . ومن المحتمل أنه كانت لدى ران قائمة بالأسلحة المخزونة تحت إشراف لجنة الإشراف الإيطالية . ولكن يحتمل أن القائمة كانت غير دقيقة .

(٢) يخترق خط حديد بغداد الحدود السورية — التركية شمال حلب ويمتد على الجانب التركى موازياً خط الحدود حتى مدينة القامشلى ، وعندئذ يعود مرة أخرى إلى الأراضى السورية . وعند مدينة تل كوجوك يخترق الحدود العراقية — التركية ، ومن ثم يتجه الخط الحديدى إلى الموصل وبغداد .

وقد تلقى العراق الكمية التالية من الأسلحة عن طريق سوريا : ١٥,٠٠٠ بندقية ؛ ٤ مدافع عيار ٧٥ مم و ٨ مدافع من عيار ١٥٥،طراز ١٧ ، و ٢٠ مدفع رشاش (سبعة منها من طراز ١٩٠٧ وبها روافع) ٣٥٤ مسدساً أوتوماتيكياً الذخيرة: حوالى خمسة ملايين خرطوشة بنادق ومدافع رشاشة ، و٦٥٧ حزاماً بكل منها ٢٤ طلقة ، ٩,٩٩٩ قنبلة عيار ٧٥ مم ، و ٦,٠٠٠ قنبلة (١٥٥مم) و ٣٠,٠٠٠ قنبلة يدوية ماركة و ف ، ٦,٠٠٠ قنبلة زمنية و ٨,٨٥٠ مخزن للمسدسات الآلية وأنواع مختلفة من أجهزة تفجير القنابل ، و ٤ عربات ذخيرة ، و ١٢ تليفوناً و ١٠ كيلومترات من الكابلات ، و٣٠ بطارية بها شحنات احتياطية . و بقى عدد كبير من هذه المواد فى الموصل ، ولكن لم توجد أى دبابة وكانت الحاجة ماسة جداً إلى وجود دبابات . وطبقاً لشواهد فرنسية كان العتاد من نوع ردىء . وقد شكا رشيد عالى بمرارة من أن الأسلحة لا جدوى منها ، لكن لا يمكن أن نستبعد أن الجيش العراقى المدرب على أسلحة إنجليزية لم يستطع باستمرار أن يتوصل إلى كيفية استعمال الأسلحة الفرنسية . هذا هو السبب الذى من أجله طلب العراق مدربين تونسيين ، إذا لم يكن بالإمكان توفير المدربين الفرنسيين .

المعونة الألمانية

وبالإضافة إلى الأسلحة نجد أن الطائرات لعبت دوراً هاما فى القتال الذى كانت تدور رحاه فى العراق . وفى عمليات الطيران الأولى إلى سوريا أرسل سلاح الطيران الألمانى سرباً يتكون من ثلاث طائرات استطلاع يقوده الميجر فون بلومبرج. ولاشك أن مقتله فوق بغداد برصاصة عراقية — وهو ما سبق أن أشرنا إليه — قد جعل الاتصال بالعراق أصعب ، لأن طريق المواصلات بين سوريا والعراق وكيفية عبوره كان قد تم ترتيبها مع فون بلومبرج وحده.وحينئذ تم تعيين الكولونيل يونك قائداً لعمليات سلاح الطيران الألمانى فى العراق — وكان قد زار بغداد فى ١٦ مايو وأجرى محادثات مع رشيد عالى، ورئيس الأركان الجنرال أمين زكى ومدير العمليات الكولونل نور الدين محمود ومحمود سلمان وقائد القوات الجوية

وأحد أعضاء المربع الذهبي . وكان مركز قيادة الكولونل يونك في رودس . وكانت تخضع لأوامره الهيئة التي كانت تضم ٣٣ عضواً والتابعة للكولونل و .فون مانتوفل وقاعدتها مطار حلب ــ وكانت مهمتها تنظيم عمليات الطيران ونقل العتاد . وكانت هيئة مانتوفل تعمل مستترة وراء هيئة الاتصال الألمانية في لجنة الإشراف الإيطالية . وكان من المتوخى أن يكون تحت تصرف قائد عمليات الطيران الخاصة بالعراق سرب من طائرات مسر شمت ـ ١١٠ وسرب من طائرات هاينكل ١١١ — وكان كل سرب يتكون من ١٢ طائرة ، بالإضافة إلى طائرات يونكرز ٥٢ و ٩٠ الخاصة بالتموين . وكانت هذه الطائرات الأخيرة تحمل قنابل ومدافع مضادة للطائرات وأدوات تشحيم بإلى البترول أيضاً إذ لم يكن الألمان في وضع يمكنهم من إنتاج وقود الطائرات محلياً . وفي الواقع لقد اشتركت في العمليات طائرات أقل مما كان مقرراً إذ يحتمل أن الطائرات المخصصة للكولونل يونك كانت من نوع أقل ، وقد كان كثير منها في المطارات السورية[١] . وسنرى فيما بعد كيف كان استهلاك الطائرات المقاتلة مرتفعاً جداً في العراق . وكانت إيطاليا قد وعدت ببيع عشرات من الطائرات ، وبرغم ذلك فإن مساعدتها كانت محدودة جداً .[٢]وقد تسبب نزول الطائرات الألمانية في المطارات السورية في عدد كبير من المصادمات ــ فالفرنسيون كانوا متشددين في عدم تزويدها إلا بالكمية الضرورية من البترول وضرورة مبارحتها بأسرع ما يمكن[٣] ــ كما كانت الاصطدامات راجعة إلى الصلف التقليدي المعروف عن الضباط الألمان .

ويبدا أن المساعدة الألمانية للعراق آخذة في الازدياد . فقد تسلم رشيد عالي من جروبا ، لدى وصوله إلى بغداد في ١١ مايو ، عشرة آلاف جنيه ذهباً (أو ٢٦٤,٦٠٠ مارك وفقاً للسعر الرسمي) كما تسلم المفتي ١٥,٠٠٠ دولار على شكل سندات أو ٦٢,٥٠٠ مارك . وفي ٢١ مايو ، بعد وصول جرانوف ،

---

(١) يبدو أنه لم يصل من طائرات بلومبرج الثلاث إلى بغداد سوى طائرة واحدة .

(٢) يذكر دي تشير (S. de Chair : The Golden Carpet, p. 132) أن سرباً واحداً من المقاتلات الإيطالية كان يعمل في العراق .

(٣) كان على الفرنسيين أن يشحنوا البترول إلى سوريا من أوربا . فقد أوقف البريطانيون تدفق البترول من كركوك إلى طرابلس بعد سقوط فرنسا .

سلم جروبا إلى رئيس الوزراء ١٠,٠٠٠ جنيه أخرى ذهباً ، وإلى الحاج أمين ١٠,٠٠٠ دولار . وطالب رشيد عالى بأن يعطى ٨٠,٠٠٠ جنيه أخر من الذهب ، مما جعل المبلغ يزيد بالفعل على المليون مارك التى حددها ريبنتروب . وقد شحن هذا المبلغ — الذى كانت زنته ٦٤٠ كيلو جراماً من الذهب — بالطائرة من برلين . ولكنه لم يصل إلا إلى أثينا ، لأن الثورة العراقية فى ذلك الوقت كانت قد انهارت . وقد خصصت الحكومة الإيطالية ١٠ ملايين ليرة للعراق . وفى ٢٩ مايو وافقت لجنة التجارة الخارجية على اقتراح عقد اتفاقية مع العراق حول تسليمه مبلغ مليون جنيه ذهباً يتم دفعه فيما بعد — ولكن لم يعد من الممكن تنفيذ هذه المعاهدة هى الأخرى .

ولم يكن ثمة اتجاه إلى تخفيف النشاط النازى فى البحر المتوسط ، برغم أن عدداً متزايداً من القوات الألمانية كان منهمكاً بشدة فى شرقى أوربا . وفى ٢٠ مايو احتل المظليون التابعون للجنرال ستودنت Student جزيرة كريت . وقد اشترك فى هذه العملية قسم كبير من القوات الألمانية والقوات التى نقلت جواً ، فى نفس المرحلة الحرجة التى كانت تمر بها المعركة الدائرة فى سبيل العراق . ورغم ذلك فقد أصدر هتلر أوامره بإرسال بعثة عسكرية إلى العراق يقودها جنرال القوات الجوية فلمى Felmy وكانت تتكون من الكولونل نيدرماير Niedermayer والكابتن كولاس من رجال وزارة الدفاع الألمانية (الذى كان موجوداً بالفعل فى العراق) وآخرين . وكان من المتوخى أن تضم البعثة ضابطاً وصف ضابط وجنديين من كل من الأسلحة التالية : المدفعية المخترقة للدروع والطلائع والكشافة ، والمدفعية الثقيلة والخفيفة المضادة للطائرات والاستطلاع الجوى . كما كان من المتوخى أن ترسل إلى العراق قوة من كتيبة براندنبورج المكافة بمهمة خاصة والتابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية . وكان من المتوخى أن تعمل البعثة بصفتها هيئة استشارية لجيش العراق ، وأن تقيم علاقات فى المستقبل مع القوات المسلحة المعادية لبريطانيا خارج العراق ، بالإضافة إلى جمع المعلومات والحصول على خبرة فى هذه المنطقة . وفى ٢٣ مايو أصدر هتلر تعليماته رقم ٣٠ الخاصة بمساعدة العراق . وقد جاء فى مقدمة هذه التعليمات مايلى :

« إن حركة التحرير العربية فى الشرق الأوسط حليفنا الطبيعى ضد بريطانيا

العظمى – ولهذا فإن لثورة العراق أهمية خاصة : فهى تعزز – خارج حدود العراق – القوى المعادية لإنجلترا فى الشرق الأوسط وتوقع الاضطراب بالمواصلات الإنجليزية وتشغل قوات بريطانية ومجالا للملاحة البريطانية على حساب مسارح أخرى للحرب . لهذا قررت حفز التطورات فى الشرق الأوسط عن طريق تقديم المساعدة للعراق . ولن يتقرر إلا بعد بربا روسا ما إذا كانت ستحل الهزيمة النهائية بوضع إنجلترا بين المتوسط والخليج (العربى) ، فيما يتعلق بشن هجوم على قناة السويس ، وكيف تتحقق هذه الهزيمة » .

ولم تضع هذه التعليمات سوى مهام محددة أمام القوات الألمانية ، مؤجلة القرار النهائى فى الشرق الأوسط ، ولكنها تدل على أن ألمانيا لم تكن تنوى وقف نشاطها فى تلك المنطقة . وأثناء توجه فلمى إلى العراق توقف فى حلب فى ٣١ مايو ، ولكن ما حل هذا الوقت حتى كان متأخراً جداً . وتقرر فى نفس اليوم مد يد المعونة إلى العراق .

العمليات الحربية

لم تنجح ألمانيا فى مد العراق بالمساعدة الحربية ، ومن ثم لم يكن لها سوى الحد الأدنى من التأثير على الحرب فى العراق حيث كان جيشان يواجه كل منهما الآخر : الجيش العراقى الذى وصل تعداده إلى ٦٠,٠٠٠ جندى (طبقاً للرقم الذي أعطاه الكيلانى لوزير اليابان المفوض).[١] وجيش بريطانى . وكان الجيش العراقى يضم أربع فرق إحداها كانت بالشمال فى منطقة الموصل ، والأخرى فى الجنوب فى منطقة البصرة واثنتان حول بغداد وكيركوك . وكانت لدى العراق تشكيلة من الدبابات الخفيفة الإيطالية الصنع (فيات) وتشكيلة من الدبابات البريطانية ماركة كروسلى وحوالى ٦٥ طائرة تضمها ٦ أسراب منها سربان من إنتاج

---

(١) رسالة إيتل ، طهران فى ٢ مايو ١٩٤١ – تتمشى المعلومات البريطانية فى خريف عام ١٩٤٠ مع هذا الرقم فيما يتعلق بقوة الجيش العراقى . وكان هذا الرقم كالآتى : ١٩٠٠ ضابط و٤٣,٠٠٠ جندى – قوات البوليس : ١٣٠ ضابطاً و ١٠,٠٠٠ جندى – القوات الاحتياطية : ٣٠٠ ضابط و٣٢,٠٠٠ جندى .

بريطانى وآخران من إنتاج إيطالى .

وبقى الوضع العسكرى فى الواقع دون تغيير منذ أن نزلت القوات البريطانية فى البصرة . ولم يستبعد حينئذ سوى احتمال وصول الإمدادات عن طريق البحر وبأقل كمية ممكنة على أى حال — ووضعت كتيبة عراقية فى الموقع المناسب . وقد أغرق العراقيون المناطق المجاورة للمدينة ، بحيث وضعت العراقيل أمام تحركات القوات البريطانية ولو بصفة مؤقتة على الأقل . و يجب أن نذكر أن القوات البريطانية قد استلزمتها ٣ سنوات للوصول من البصرة إلى بغداد خلال الحرب العالمية الأولى . وقد أصدر القائد العام للقوات البريطانية فى الهند — الذى كانت قوات البصرة تابعة له حتى ٨ مايو ١٩٤١ — أوامره بالقيام بهجمات عنيفة . ولكن حين تولى الجنرال ويفل القيادة لم يحدد لها سوى مهام محلية . وفى الواقع أنه لا القاعدة البريطانية فى الحبانية ، التى كانت تحاصرها قوات عراقية تفوقها عدداً ، ولا الرعايا الإنجليز المحاصرون فى بغداد فى السفارة البريطانية أو المعتصمون بالمفوضية الأمريكية ، كان باستطاعتهم أن يعولوا على مساعدة الحامية البريطانية فى البصرة .

ولم يستطع الجيش العراقى أن يستغل إمكانياته فى الحبانية [١] . وفى ٢ مايو بدأ البريطانيون قصفاً جوياً للمواقع العراقية. وفى ٦ مايو أخلى العراقيون جزءاً من المرتفعات المشرفة على القاعدة البريطانية ، تاركين كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة والعتاد . وتذكر التقارير الإيطالية والألمانية ، كما تذكر القرائن البريطانية والعربية ، أن الهجوم الجوى أثار رعباً شديداً لدى الجنود العراقيين ، خاصة وأنهم لم تكن تتوفر لهم الحماية القائمة على المدافع المضادة للطائرات [٢]. وفى ٧ مايو قامت الحامية البريطانية فى الحبانية بهجوم مضاد وطردت الجيش العراقى من مواقعه

---

(١) طبقاً لتقارير وزير إيطاليا المفوض فى بغداد (٥ مايو ١٩٤١) ، لم تكن لدى العراقيين عربات مصفحة ، ولم يكن باستطاعتهم اختراق خط الأسلاك الشائكة المكهرب المحيط بالمعسكر البريطانى فى الحبانية وكان على القوات الجوية أن توفر قنابلها. ويذكر هـ.م. ولسون : Eight years Overseas, p. 105 أن الجيش العراقى لم يبد كثيراً من المبادرة واقتصر على قصف المعسكر بطريقة عشوائية من الجو وبمدفعية الميدان . ويلفت الصباغ (ص ٥٥) النظر إلى عدم كفاءة الجيش العراقى .

(٢) أبرق جروبا مايل : لا يمكن إرغام الجيش العراقى على القيام بنشاط طالما أن القوات الجوية الألمانية لا تسيطر على الجو ، وأن الجنود العراقيين لا يستطيعون التصدى للغارات الجوية .ويذهب تشرشل والصباغ هذا المذهب ويبدو من عرض حداد أن الغارات الجوية قد ضعضعت كذلك معنويات قادة الجيش العراقى.

على منحدرات التلال المحيطة بالقاعدة البريطانية ، وبذلك أنهت حصار الحبانية .
ثم بدأت الطائرات المحتشدة هناك قصفاً منتظماً للمطارات العراقية ، تساعدها القوات الجوية التابعة لقاعدة الشعيبة . وقد منيت القوات الجوية العراقية بخسائر فادحة فى الأسبوع الأول، وتم تدميرها تماماً فى الأسبوع الثانى . لهذا ليس عجباً أن يطالب الزعماء العراقيون بالإصرار ، منذ البداية ، بالمساعدة الجوية المحورية ملمحين إلى ما قاساه الشعب بسبب الغارات الجوية البريطانية المستمرة . ومنذ ٦ مايو حثت الحكومة العراقية ألمانيا على إرسال طائراتها فى الحال « لإنقاذ الموقف ».

ولما كانت القوات الإمبراطورية مشلولة فى البصرة ، فقد رأى الإنجليز طريقة أخرى لاستعادة سيطرتهم على العراق . وكان الجانب السياسى من خطتهم يقوم على إرسال جلوب باشا إلى العراق بهدف إغراء أعداء رشيد عالى بالقيام بنضال فعال ضد حكومته ، ولكن لم يكن من المتوقع أن يؤدى هذا إلى نتائج سريعة . ولما كان عدم التأكد من نوايا برلين — العامل الرئيسى فى الموقف — يملى القيام بإجراء سريع ، فقد تقرر إرسال طابور بريطانى من فلسطين بقيادة الجنرال جورج كلارك . وكان من المتوخى أن تقطع هذه القوة الميكانيكية مسافة التسعمائة كيلومتر الممتدة بين حيفا والحبانية فى أقصر وقت ممكن . وكان الطابور يحتوى على وحدتين عربيتين : الفرقة العربية التى كان يقودها ج . ب جلوب وقوة الحدود الأردنية التى رؤى سحبها فيما بعد لأن الجنود تمردوا عند نقطة ضخ البترول رقم هـ — ٣ الواقعة على خط حيفا — كركوك . وفى ١٠ مايو عبرت طلائع قوات الحرس التابعة لقوات كلارك — وكانت جزءاً من طابور كنجستون الطائر[1] — الحدود الواقعة بين العراق وشرق الأردن ، وبعد يومين تلتها القوات الرئيسية . وبرغم ارتفاع مياه نهر الفرات وإغراقه مساحات شاسعة من الأراضى فقد وصل طابور كنجستون إلى الحبانية فى ٨ مايو ، ومن هناك تقدم صوب الفالوجة وبغداد[2] فوق أراض تعلوها المياه وعلى جسور محطمة ، متغلباً على

---

(١) يصف أحد المشتركين فى حملة كنجستون ماقامت به وصفاً براقاً :
Somerset de Chair: The Golden Carpet.

(٢) أبرق جروبا فى ١٩ مايو من بغداد «ضرب السلاح الجوى البريطانى الفالوجة اليوم لمدة ساعات وقد أدى هذا إلى ضعضعة روح حامية الفالوجة المعنوية » .

مراكز المقاومة العراقية أو متفادياً لها .

وفى ٣٠ مايو وصل الطابور إلى بغداد ، وفى اليوم التالى سامت المدينة دون مقاومة ، برغم أن أعداد الجيش العراقى كانت تفرق أعداد القوات البريطانية بكثير [١] . وبرغم أنه كان باستطاعة العراق أن يواصل النضال فى الشمال ، فقد فقدت حكومة الكيلانى أعصابها . وفى ٢١ مايو توجه وزير الخارجية موسى شهبندر إلى طهران . وكان على ناجى شوكت أن يمضى إلى أنقرة ، وأسرع وزير المواصلات محمد على محمود ليتولى وظيفة دبلوماسية فى طهران . وقد سجل القنصل الفرنسى من بغداد فى ٢٣ مايو أن موقف الدوائر العراقية الحاكمة قد تدهور ، وأن مجلس الوزراء كان يقوم باستعدادات للفرار . وطبقاً لهذا المصدر كانت أسرتا رشيد عالى وناجى شوكت فى تركيا بالفعل ، على حين هرب وزير المالية ناجى السويدى ووزير الخارجية شهبندر إلى طهران . وكتب إيتل من طهران تقريراً مشابهاً حول مركز الحكومة العراقية ، وقد أخبر مفتى القدس وزير إيطاليا المفوض بأن عدداً كبيراً من الناس فى العراق كانوا على استعداد للتفاوض مع الإنجليز . وما حل ٢٩ مايو حتى كان كثير من كبار المسئولين العراقيين قد وصلوا إلى طهران ومن بينهم المدير العام للجمارك ومدير الاحتكارات الحكومية ومدير البنك الوطنى — وكانوا كلهم مصحوبين بأسراتهم . وفى اليوم التالى عبر الحدود كل من الكيلانى والحاج أمين الحسينى والشريف شرف ورئيس هيئة الأركان وغيرهم . وهرب من بغداد إلى سوريا عدد كبير من الناس معظمهم من السوريين والفلسطينيين واللبنانيين .

وقد أوضح القتال الذى لم يستمر طويلا أن جيش العراق عاجز عن الصمود أمام الأسلحة الحديثة ، وأنه كان بحاجة شديدة إلى الإمدادات الألمانية ، وبخاصة ما يكفى من القوات الجوية . ولكن يبدو أن الألمان قد تنبهوا لذلك بعد فوات الأوان بقليل . وتدل التقارير الألمانية الواردة من العراق على أنهم أخطئوا تماماً فى تقدير الموقف . وهكذا نجد أن ممثلى الريخ يؤكدون ابراين قبل يوم فقط من

(١) وصف الجنرال كلارك موقف بريطانيا العسكرى فى العراق فى نهاية مايو بأنه سيء تماما — وحين وصلته أنباء سقوط حكومة رشيد عالى ، تقبل الخبر بارتياح شديد .

I.S.O:. Playfair, op. cit., II, p. 192.

سقوط الفالوجة أنه لا يمكن الاستيلاء عليها. وفى ٢٦ مايو كتب مكتب الاستعلامات الألمانى رقم ٣ إلى فايزساكر رأى ممثليه الخاص بأن الموقف فى العاصمة لم يكن خطيراً . وفى ٣٠ مايو كتب جروبا أن الموقف العسكرى قد تحسن نتيجة للهجمات التى قام بها العراقيون و بسبب إغراق الأراضى . ويبدو أن الألمان بالغوا فى تقدير اتجاه البدو وتفسير تعاونهم . وفيما بعد كتب ضابط وزارة الدفاع الألمانية ليفركون Leverkühn الذى كان مقيماً فى إستنبول فى ذلك الوقت مايلى : « بالغت ألمانيا فى تقدير قدرة الجيش العراقى على القتال ، بشكل يفوق الواقع بكثير ، على حين بالغ رشيد عالى والمفتى فى تصوير احتمال المساعدة التى كان وضع الألمان يسمح لهم بتقديمها » .

أما الروايات العربية فتمتلئ بالنقد الشديد الموجه إلى مجرى الحرب فى العراق . فقد نعى صلاح الدين الصباغ هبوط الروح المعنوية فى الجيش وفوضى بعض العناصر وخيانتها ، ولكنه نقد كذلك مجرى العمليات الحربية ، ووجه حداد نقداً شديداً للقيادة العليا العراقية ، وأشار إلى عدم وجود العدد الكافى من الضباط الأكفاء ، وأكد أن وجود الطائرات الألمانية هو وحده الذى قوى روح المحاربين المعنوية بعض الوقت .

والواقع أن الطيران الألمانى قد أصيب بالشلل خلال الأيام الأخيرة من الحرب بسبب الحاجة إلى الإصلاحات والاختبارات ولعدم وجود العدد الكافى من القنابل . ولم تشترك الطائرات الإيطالية إلا بأعداد قليلة جداً وفى الأيام الأخيرة فقط . وكان الوقود شحيحاً طيلة فترة القتال ، وكان البدء بإنتاج البترول الذى لا يشتغل بسرعة أمراً شديد الصعوبة. ولم يمكن إقناع إيران ببيع البترول والشحومات للعراق ، سواء أكان ذلك من بترولها أو من الكميات التى اشترتها من الاتحاد السوفييتى [1]. وقد أكد رئيس وزراء إيران لا يتل أن إنجلترا لابد أن تعتبر هذه الصفقة عملا

(١) كتب ريتر أن الألمان لم يكونوا يرغبون فى أن يقوموا هم أنفسهم بالاتصال بالاتحاد السوفييتى بصدد هذه المسألة لأسباب سياسية . واقترحوا أن تقوم إيران بذلك . وكان من المتوخى أن تتحمل حكومة الريخ كل النفقات .

عدائيًّا ، وأنها قد تؤدى إلى غزو القوات البريطانية أو السوفيتية لإيران[1] وقد صرح متين دفترى بأن على إيران أن تحافظ على حيادها التام إزاء بريطانيا والاتحاد السوفييتى ، طالما أن تركيا لم تنضم إلى المحور بصفة قاطعة . وكان من رأيه أن الكيلانى قد تسرع — إذ أنه لم يكن مستعدًّا للحرب التى لم تكن إيران مقتنعة تماماً بأنها ستنتهى فى صالح العراق .

وكان من السهل تنظيم نقل البترول والشحومات والمواد الحربية عبر تركيا . وكانت هذه المشكلة ترتبط بعقد معاهدة بين ألمانيا وتركيا ، تم توقيعها غداة الهجوم النازى على الاتحاد السوفييتى فى ١٨ يونيه ١٩٤١ . وكان الألمان يريدون أن يلحقوا بهذه المعاهدة اتفاقاً سريًّا يحتفظون فيه لأنفسهم بحق الشحن غير المحدود للأسلحة وغيرها من المواد الحربية عبر الأراضى التركية ، بالإضافة إلى نقل عدد محدد من القوات . وكان ذلك شديد الأهمية بالنسبة إلى ألمانيا بسبب الموقف فى العراق . كما أن المحادثات الفرنسية — الألمانية الخاصة بالتعاون العسكرى جعلت نقل الأسلحة الألمانية والفرنسية إلى سوريا والعراق أمراً ضروريًّا . وفى أواخر مايو كانت مشكلة نقل البترول والشحومات إلى العراق ملحة بوجه خاص .

ومنذ البداية رفضت الحكومة التركية الموافقة على نقل الهيئة الألمانية عبر تركيا . وكان فون بابن يعتقد أن من المؤكد أن توافق تركيا على نقل الوقود والمواد الحربية إلى العراق . ولكن لم يحدث حتى أول يونيه أن وصلت شحنة من البترول إلى حيدر باشا على الشاطئ الآسيوى للبسفور[2] ، وقد وصلت هذه الشحنة إلى سوريا بعد

---

(١) كتبت المخابرات البريطانية تقارير مستمرة فى ذلك الوقت عن إزماع القوات السوفيتية عبور حدود إيران ، واعتبر سومرست دى شير (المرجع المذكور ، ص ١٥٣ — ٤) هذه التقارير مناقضة للأخبار الخاصة بقرب غزو الألمان للاتحاد السوفيتى . فقد كانت الحكومة السوفيتية تخشى تقدم الألمان فى البلقان ومن المحتمل أيضاً أنها كانت تخشى الخطوات التى كانوا يقومون بها فى العراق . وفى ٢٤ مايو جرت محادثات بين داكانوزوف — سفير روسيا فى برلين — وبين فايز ساكر حول أحداث العراق ، وفى ١٦ مايو نقلت الصحافة السوفييتية خبراً عن وكالة تاس ينكر ماذهبت إليه وكالة هافاس وتقارير مراسلى اليونايتدبرس من بيروت عن سماح الحكومة السوفييتية بجمع المتطوعين من الطيارين السوفييت لتعزيز القوات الجوية العراقية . وكانت الرسالة تستمد من راديو بغداد (انظر أيضاً رسالة شولنبرج — موسكو ، فى ١٧ مايو ١٩٤١) .

(٢) إن مايذكره سير هيوناتشبل — هوجسن من أن ألمانيا لم تطلب إلا مرة واحدة نقل القوات والأسلحة عبر تركيا التى رفضت لا يلتزم الدقة .

H. Knatchbull-Hugessen: Diplomat in Peace and War, p. 170 .

أن تأخرت طويلا، كما قام الألمان بعد ذلك بعدة محاولات للحصول على موافقة تركيا على نقل الأسلحة والوقود إلى سوريا — ولكننا سنناقش هذه المسألة فى موضع آخر .

هزيمة رشيد عالى

شهدت أواخر مايو نهاية الحكم الوطنى فى العراق ، كما شهدت نهاية التدخل الألمانى فى البلاد . ففى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٢٩ مايو وصل خبر كاذب عن اقتراب الدبابات البريطانية من بغداد ، مما جعل العسكريين الألمان يفرون من الموصل وكركوك إلى سوريا . وفى اليوم التالى بارح جروبا بغداد إلى الموصل . كما كانت الحكومة العراقية تود أن تنتقل إلى الموصل بعد أن عينت لجنة للأمن العام كان من المتوخى أن تبقى فى بغداد . وفى هذه الحالة أيضاً أدى الخبر الكاذب الخاص باستيلاء البريطانيين على كوبرى بيجى إلى عبور رشيد عالى الحدود العراقية إلى إيران. وبوجه عام فإن المعلومات الكاذبة بخصوص قوة الجيوش البريطانية لعبت دوراً كبيراً فى انهيار الثورة [١].

وشهدت هذه الفترة نشاطاً محموما فى الأركان والوزارات الألمانية ، حيث كان قد صدر قرار بزيادة المساعدة للعراق . وقد سبق أن ذكرنا أن الذهب المخصص للعراق قد أرسل إلى أثينا ، على حين كان الجنرال فلمى والكولونل يونك فى حلب فى طريقهما إلى العراق . وفى ٣٠ مايو أرسلت وحدات جوية جديدة ، وقد ذكر ريبنتروب لجروبا أنه كان من المتوقع أن تصل إلى العراق يوم الأحد أول يونيه . ولكن ثبت استحالة نزول الطائرات المحورية فى الموصل فى ذلك اليوم . وبارح جروبا المدينة يوم ٣١ مايو فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، برغم الأمر الصادر من ريبنتروب بتأجيل رحيله لأن مزيداً من المساعدة كان فى طور الإعداد . وقد هرب من الموصل حاملا خبراً باقتراب الإنجليز ، رغم أنه لم يتم الاستيلاء على الموصل إلا فى يوم ١٣ يونيه .

---

(١) يذكر حداد (ص ١٢٥) أن مثل هذه المعلومات كانت كاذبة وأنه لا يدرى المصدر الذى زود بها القادة .

وهكذا انتهت العمليات الألمانية فى العراق . وكانت للفشل أسباب كثيرة فى مقدمتها أن الهجوم المتوخى شنه على الاتحاد السوفييتى قد منع ريخ هتلر من الاهتمام الكافى بالبحر المتوسط . وكانت القوات الألمانية ، وبخاصة السلاح الجوى ، منهمكة فى اليونان فى البداية ، ثم كانت مشغولة بعد ذلك تماماً فى كريت خلال الأيام العصيبة من الحرب الدائرة رحاها فى العراق . ورغم ذلك فإن الوثائق تشهد على أن إدارة وزارة الخارجية الألمانية كانت تضغط لكى تزج ألمانيا بنفسها فى العراق . ولكن حين نشط النازيون بالفعل فى هذه البلاد كان يبدو أن عوامل كثيرة تقضى على المهمة بالفشل : منها ضعف قدرة الجيش العراقى على القتال — فلم يستطع المقاومة حتى لفترة الشهرين التى قدر أنه سيصمد خلالها ، وذلك رغم قلة أعداد الخصم . والعامل الثانى من عوامل الضعف هو بطء المساعدة الألمانية — إذ أن مساعدة ولو قليلة كان بإمكانها أن تغير موازين الأحداث فى العراق . وثمة عامل مساعد هو برود الفرنسيين والأتراك إزاء خطط ألمانيا فى الشرق الأوسط . وبإمكاننا أيضاً أن نضيف أن تقارير ممثلى ألمانيا فى العراق — مدنيين وعسكريين — . التى لم تنتبه إلى ضعف الجيش العراقى ولم تحذر القيادة فى برلين ، قد ساهمت إلى حد كبير فى إصابة كل نشاط ألمانيا بالفشل . وفى الواقع أن هتلر قد « فاته الأوتوبيس»[1]، فخسر فرصة مواتية للنصر والمكاسب المجزية فى الشرق الأوسط . وحين نضع نصب أعيننا أن سياسة تشرشل واستراتيجيته — فى لندن — قد انتصرتا على سياسة واستراتيجية الجنرال ويفل الرجل العامل فى ذلك الموقع ، نجد أن البريطانيين قد تميزوا بالمبادرة ، وقاموا بعملهم بعزم وتصميم . واعتبر المؤرخ الرسمى البريطانى للحرب ذلك تجربة جديدة لألمانيا .

وتوضح رسالة ريبنتروب إلى جروبا بتاريخ ٢١ مايو حول إعداد مزيد من المساعدة لرشيد عالى أن الانهيار السريع الذى أصاب الحركة المعادية لبريطانيا فى العراق كان يشكل فى ظل هذه الظروف نجاحاً هاماً لخصوم النازية والفاشية فى كل مكان .

---

(١) طبقاً للاصطلاح الذى استعمله تشامبرلن فى خطبة أدلى بها قبيل الهجوم الألمانى على الجبهة الغربية فى ٤ مايو ١٩٤٠ .

الفصل التاسع

ألمانيا ومعارك سوريا

بعد أن انهارت حكومة رشيد عالى، سحب الألمان طائراتهم وبعثتهم العسكرية، وأوقفوا كل تدخل لهم فى العراق . وفى ظل هذه الظروف استمرت بعض محاولات المقاومة بعض الوقت بصورة متقطعة . ولكن معظمها كان ذا أهمية محلية ومقضياً عليه بالإخفاق . على أن النازيين لم ينفضوا أيديهم تماماً من النشاط العسكرى — ومنه مثلا النشاط الذى استمر دون انقطاع فى جبهة شمالى إفريقيا — أو من النشاط السياسى التمويهى الذى كان يتم بمساعدة بعض الدوائر العربية . ولم تنحل البعثة العسكرية التى أرسلت إلى العراق ، ولكنها بقيت تحت اسم سوندرستاب ف، وكانت تعمل فى أثينا تحت رياسة الجنرال فلمى ، وبمرور الزمن تناولت مسائل شرقية أخرى إلى جانب الشئون العربية .

وتقرر فى البداية أن تترك هيئة اتصال مانتوفل فى سوريا ، بالرغم من اعتراضات فيشى . ويجب أن نذكر أن المحور كان أمامه — بعد هزيمة العراق — احتمال ما لاستعمال سوريا التى كانت تحت حكم فيشى ، وإن لم تكن خاضعة تماماً للمحور . وواصلت لجنة الإشراف الإيطالية عملها هناك ، بما فى ذلك تمثيل ألمانيا فيها — وقد أضيف إلى اللجنة الألمانية فى أواسط يونيه الميجر مایر — ركس Meyer-Ricks العضو بهيئة أركان الجنرال فلمى الذى قام بدور الملحق العسكرى .

ألمانيا وفيشى
بعد بروتوكولات باريس

لم يعتمد احتمال النشاط النازى فى سوريا ولبنان على سياسة ألمانيا العربية قدر اعتماده على العلاقات الفرنسية — الألمانية . ولكن الموقف لم يتطور فى صالح الريخ بعد الأخذ ببروتوكولات باريس .

ويجب أن نتذكر أن ألمانيا عرضت فى البداية أن تخفف النصوص العسكرية فى اتفاقية الهدنة فى مقابل التنازلات التى قدمتها فيشى . وقد أشار الفرنسيون بصدق إلى أن هذه التنازلات كانت فى مصلحة ألمانيا وحدها ، لأن التعاون العسكرى بين فرنسا وألمانيا كان لايمكن أن يؤدى إلى سوء علاقات فيشى ببريطانيا. حقيقة أن بروتوكول محادثة دارلان ـ آبتز ، الموقع فى باريس قد أشار إلى الحاجة إلى تقديم تنازلات سياسية كبيرة ، ولكن لم يتم شىء من ذلك أثناء نشوب القتال فى العراق . وكان ثمة ما يقطع بأن هتلر وأقرب معاونيه لم يكونوا على استعداد لتقديم تنازلات جوهرية لفرنسا .

وعارضت مجموعة ذات نفوذ كبير فى حكومة فيشى التعاون العسكرى مع ألمانيا على مدى واسع . وقد جرت جلسة مغلقة لمجلس وزراء فيشى فى ٣ يونية اشترك فيها الجنرال فيجان الذى كان يحكم الجزائر ويتمتع باستقلال كبير . وفى اليوم التالى وصل (بواسون Boisson داكار) أحد الحكام الفرنسيين فى إفريقيا . وقدم دارلان تقريراً عن بروتوكولات باريس ، واحتدمت المناقشة إلى حد كبير جداً[1] وهدد فيجان بالاستقالة . وفى النهاية تقرر فى ٦ يونية أن يطالب الألمان بتقديم ضمانات كتابية لتقديم تنازلات سياسية . ثم أرسلت المذكرة إلى حكومة الريخ متضمنة المطالب الآتية : (١) إعادة سيادة الدولة الفرنسية على كل البلاد على ألا يتضمن خط التقسيم سوى حدود تجمع القوات الألمانية على الأراضى الفرنسية ، (٢) تخصيص وضع خاص للألزاس واللورين إلى أن يتم عقد معاهدة صلح ، (٣) الإفراج بالتدريج عن أسرى الحرب ، (٤) تخفيض نفقات الاحتلال ، (٥) تصريح علنى عن المطالب الألمانية فى الأراضى السورية وفى شمالى إفريقيا وغربيها ، (٦) إلغاء لجان الإشراف فى إفريقيا أو إضعاف اختصاصاتها . وفى ١١ مايو لمح هتلر لدارلان بأن أى تنازلات تقدم لفرنسا يجب

---

(١) اعترف دنتز أثناء محاكمته التى جرت فى ليون فى عام ١٩٤٥ بأن دارلان أخبره فى أول يونية ١٩٤١ بأنه لم يكن يتوقع أى مزيد من التعاون بين فيشى وألمانيا ضد إنجلترا ، إلى جانب الخطوات التى كانت تتخذ بصدد الوضع القائم فى العراق .

G. London : l'Amiral Esteva et le Géneral Dentz devant la Haute Cour de Justice, Lyons, 1945, p. 211

ألا تضعف وضع ألمانيا تحت أى ظرف من الظروف . وكان تسهيل المواصلات على خط التقسيم وإطلاق سراح أسرى الحرب الفرنسيين يعتبران من هذا القبيل . وكان يمكن التنبؤ بأن مصير هذه المطالب هو الرفض . وفى الواقع لقد طال أمد المفاوضات طيلة شهر يونية والنصف الأول من يولية[1] خلال القتال الذى نشب فى سوريا ولبنان — إذ أن القوات الإمبراطورية البريطانية وقوات فرنسا الحرة قامت فى ٨ يونية بعبور حدود المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسى .

وفى ظل هذا الموقف أوقفت فيشى تطبيق بنود بروتوكولات باريس الخاصة بأملاك فرنسا فى إفريقيا . حقيقة أن البروتوكولات لم يتم إلغاؤها ، لأن الاتفاقية الخاصة بمساعدة العراق عن طريق سوريا لم تكن بمثابة أمر واقع . كما أن حكومة فيشى لم تكن ترغب فى اطراح احتمال التعاون فى المستقبل مع ألمانيا فى شمالى إفريقيا وغربيها . إلا أن ألمانيا لم تعد فى وضع يسمح لها بالقيام بمزيد من المبادرة فى سوريا بسبب الجمود الذى طرأ على العلاقات الفرنسية — الألمانية .

ولم يشعر النازيون بضرورة كسر هذا الجمود . ولما كانت تحركهم مفاهيم شوفينية وعرقية (جنسية) ؛ فقد بدا من سلوكهم أنهم يثقون فى فيشى ، وأنهم يمقتونها . وبالإضافة إلى هذا فإن التحالف مع إيطاليا — التى كان من المعروف أن لها ادعاءات بعيدة المدى إزاء فرنسا — كان عقبة كأداء فى طريق اتفاق ألمانيا مع فرنسا . هذا إلى أن النازيين لم يعتقدوا أن النزاع بين فرنسا وإنجلترا ، وهو النزاع الذى كان بالذات هدف تعاون ألمانيا مع فرنسا ، سيحدث على الإطلاق. وكان الهتلريون يعتقدون أن الهجوم على الاتحاد السوفييتى سيحل كل مشاكلهم دون أى حاجة إلى تنازلات أو حلول وسطى . وفى الواقع أن الألمان كانوا يرغبون فى الانسحاب من سوريا بعد سقوط رشيد عالى حتى لايعطوا إنجلترا حجة لاحتلال تلك البلاد . هذه هى الأسس العامة للسياسة الألمانية فى أواخر ربيع وأوائل صيف عام ١٩٤١ . وبرغم ذلك بقيت مشكلة سوريا ، لأن كل حركة تقريباً من جانب الفرنسيين يشتم منها إبقاء سوريا كانت تتطلب مساعدة الألمان

---

(١) انتهت هذه السلسلة من المحادثات الفرنسية — الألمانية بالمذكرة الفرنسية المؤرخة ١٤ يولية ١٩٤١ . وتجددت المحادثات فى أكتوبر ١٩٤١ .

أو موافقتهم . وكان من الصعب التنبؤ بنتائج هذا التعاون الفرنسي ـ الألماني، إذ كان يكمن فى كل المواقف السياسية أو العسكرية القلقة احتمال التطور البرجماسي الذى لا ينطبق دائماً على الأهداف المرسومة .

وقد جعل الفشل فى العراق برلين شديدة الحرص بصدد أى نشاط فى سوريا. وأصدر كايتل أمره بالحيطة المطلقة ، طالما أن المسائل لم توضح مع فيشى ، على حين أمر ريبنتروب الطائرات الألمانية فى سوريا بالامتناع عن مهاجمة القوات البريطانية ، وارتدى الضباط الألمان الملابس المدنية فى شوارع بيروت . وفى أوائل يونية على الأقل اعتقد بعض الساسة والعسكريين الألمان أن البريطانيين سيمتنعون عن استعمال القوات المسلحة وسيحتلون سوريا باجتذاب القوات الفرنسية المعسكرة هناك إلى جانب ديجول . وكان هذا الاستنتاج يستند إلى أن أغلبية الحاميات السورية كانت فى عام ١٩٤٠ ـ بعد سقوط فرنسا ـ تحبذ مواصلة الحرب ضد ألمانيا . والذى أبرز وجهة النظر هذه اعتقاد الحكومة الفرنسية والمخابرات الألمانية أن القوات السورية لايعتمد عليها وذلك بسبب ميولها الديجولية الواضحة . وقد شاركت دوائر بريطانية هامة فى هذا الفهم للموقف فى سوريا ، برغم أن كثيراً من القادة السياسيين والعسكريين لم يوافقوا على ذلك . وكان لهذا الرأى الأخير بعض التسويغ ، ولكن فقدت كل الخلافات فى معسكر الحلفاء بصدد موقف القوات الفرنسية فى سوريا مغزاها ، وذلك بسبب الخوف العام الذى ساد سوريا ولبنان من السيطرة الألمانية .

وكان هذا صحيحاً بوجه خاص بعد احتلال كريت مباشرة ، لأن البريطانيين لم يتبينوا أن الألمان لم يعد باستطاعتهم القيام بعمليات جوية كبيرة بسبب جسامة خسائرهم فى كريت . حقيقة أن القادة البريطانيين توقعوا أن يستهلك النازيون قواهم فى الاتحاد السوفييتى ، إلا أنهم لم يكونوا متأكدين من ذلك تماما. واشتد الخوف من السيطرة الألمانية فى سوريا ولبنان، وذلك بسبب المعلومات التى أدلى بها فان إنجرت Van Engert قنصل الولايات المتحدة العام فى بيروت . وكان هذا القلق هو السبب الرئيسى لعملية إكسبورتر التى قام بها البريطانيون وقوات فرنسا الحرة فى ٨ يونية .

مشكلة المساعدة الألمانية

حين اجتازت القوات البريطانية والديجولية الحدود السورية سحبت هيئة اتصال فون مانتوفل — وقد تم هذا بناء على رغبة دنتز ودارلان — ولكن لم يصدر اعتراض من وزارة الخارجية الألمانية والقيادة العسكرية وهتلر نفسه . وفى نفس اليوم رتب ران وممثل وزارة الدفاع الألمانية رحيل الرعايا الألمان من سوريا ولبنان . ولم يعتقد القادة النازيون — بما فيهم هتلر — أن بإمكان الفرنسيين الاحتفاظ بسوريا ، ولو لفترة قصيرة . وكانت وزارة الخارجية الألمانية والدوائر العسكرية فى برلين ترى أن ألمانيا لن تستطيع تقديم مساعدة عسكرية كبيرة ، على حين كان من شأن المساعدة على مدى قليل أن تثقل كاهل فرنسا سياسيا ، وألا تكون لها سوى ميزة قليلة فى الحرب ضد إنجلترا . كما كان يخشى أن يكون أثر المساعدة الألمانية سلبياً بالنسبة إلى روح القوات الفرنسية المعنوية — وقد انزعج الفرنسيون من احتمال أن يؤدى النشاط الألمانى إلى هجوم بريطانيا على مراكش وأملاك فرنسا الأخرى فى شمالى إفريقيا . وحين كان القتال ناشباً تلقى ران تعليمات من القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية بالامتناع عن تقديم مقترحات للضباط أو الموظفين الفرنسيين حول مجرى الحرب . ومن الواضح أن الألمان لم يريدوا أن يزجوا بأنفسهم فى صراع بين بتان و بريطانيا ، وكانوا يرغبون فى أن يؤكدوا أنهم لن يتحملوا مسئوليته .

ومما لاشك فيه أن النازيين كانوا يهتمون بأن تقاوم قوات ڤيشى لأطول فترة ممكنة ، برغم أنهم لم يعودوا يعدون الحرب فى سوريا جزءاً من خططهم الخاصة بالنزول والهجوم المركز على مراكز بريطانيا فى الشرق الأوسط . وقد صرح ناطق باسم وزارة الخارجية الألمانية قبيل الغزو بأنها مسألة لا تخص إلا إنجلترا وفرنسا . ولكن كان يبدو من ملحوظاته أيضاً أن برلين كانت تتوقع من فيشى أن تدافع عن إمبراطوريتها . وخلال القتال باشر الألمان ضغطاً مستمراً على حكومة فيشى لكى توفر دفاعاً فعالا . كان الحكام الفرنسيون فى سوريا يتحرقون لأن يبدوا للمحور اهتمامهم الشديد بالحرب ضد بريطانيا والقوات الديجولية — إذ من الواضح أنهم كانوا يخشون أن يؤدى استسلامهم فى سوريا إلى ازدياد شك ألمانيا

وإعطاء النازيين حجة للقيام بمزيد من القمع فى فرنسا نفسها . وفى محادثات جرت بين ممثلى ألمانيا وبين فيشى أكدت فيشى أن جيش سوريا ولبنان على استعداد للتضحية بنفسه فى نضال ضد الهجمات الإنجليزية، وذلك برغم احتمال أن يكون ذلك جهداً يائساً، لأنها بإبداء الولاء بهذا الشكل لألمانيا تستطيع أن تحسن وضع فرنسا نفسها وبقية إمبراطوريتها الاستعمارية طوال مدة معاهدة الهدنة وفى معاهدة الصلح . وبمعنى آخر كانت فيشى مصممة على مقاومة الغزو البريطانى لسوريا ، وكانت تعول أن يكافئها الألمان على ذلك .

وفى الوقت نفسه كانت توجد أسباب داخلية لها وزنها أقنعت حكومة فيشى بالمقاومة . فقد كانت سياسة بتان برمتها تقوم على مبدأ الدفاع عن الإمبراطورية. وكان مجرى القتال فى سوريا يدل على رغبة القوات الفرنسية فى المقاومة وهى الرغبة التى ربما قواها الديجوليون الذين كانوا يعملون إلى جانب بريطانيا — فقد كانت فيشى ترى أن الاحتلال البريطانى لأراض فرنسية من شأنه أن يدعم قوة الحركة الديجولية وهو ما كانت فيشى شديدة الرغبة فى تجنبه بوجه خاص .

وعلى أى حال فقد تجددت المحادثات الفرنسية — الألمانية حين بدأ القتال فى سوريا . وعين الأميرال دارلان الربر — أميرال مارزان Marzin القائد السابق للسفينة الحربية ريشيليو — ممثلا خاصاً له فى المباحثات المتعلقة بغزو بريطانيا لسوريا ولبنان . وقد أجريت المحادثات فى باريس ، لأن الألمان كانوا لايثقون فى الجنرال دويان Doyen والكولونل لوربير Lorbeer [١] ، ممثلى فرنسا فى لجنة الهدنة فى فيسبادن . وقد توجه إلى باريس لهذا الغرض كل من الجنرال فوجل ، الذى سبقت الإشارة إليه ، والكولونيل بوهم Bohm والميجر بيركنر Burkner . وفى الوقت الذى بدأت فيه المباحثات حول بروتوكولات باريس ، أوقف الألمان رفض التصريح بتعزيز القوات الفرنسية المرابطة فى سوريا .

وفى مباحثات باريس تقدم الفرنسيون بالمطالب الآتية : تعويض الخسائر فى الرجال والعتاد الحربى ، مما يترتب على القتال ، توفير الإمدادات اللازمة

---

(١) وفقاً لقرار حكومة فيشى الصادر فى أوائل يولية (ربما فى الثالث من ذلك الشهر) استقال الجنرال دويان فى ١٨ يولية بصفته رئيساً للوفد الفرنسى فى لجنة الهدنة الألمانية .

للقوات الجوية فى سوريا ، إصدار أمر بأن تعود إلى العمل مدمرة أخرى من المدمرات الموجودة فى طولون ، توفير الذخيرة للسلاح البحرى الفرنسى ، استعمال طائرات النقل لتوفير الإمدادات الضرورية جداً من الرجال والذخيرة . كما طالبوا بمساعدة مباشرة : هجوم السلاح الجوى الألمانى على حيفا فى فلسطين وعلى السفن الحربية البريطانية العاملة قريباً من سواحل سوريا ولبنان أو التى كان عليها أن تعمل فى هذا الاتجاه . وطالبت السلطات الفرنسية فى سوريا الألمان بضرب تجمعات القوات فى شمالى فلسطين وقاعدة الإسكندرية البحرية ومخازن الذخيرة — إذ أن السفن الحربية البريطانية العاملة فى سواحل سوريا ولبنان قدمت مساعدات كبيرة للقوات البرية وتسببت فى إلحاق خسائر جسيمة بالقوات الفرنسية .

وقد وافق الألمان باختيارهم على المطالب الفرنسية مالم تمس مخازنهم الخاصة أو المواد الحربية التى استولوا عليها ، وتعهدوا بضرب ميناء حيفا والسفن البريطانية ، وبعد ذلك وافق جورنج على توفير غطاء جوى للسفن الفرنسية أثناء توجهها إلى سوريا .

وهكذا كان على القوات الجوية الألمانية أن تقوم بدور مساعد معين فى القتال فى سوريا ، ولكنها فضلت عدم قصر نشاطها على البحر والشاطئ . ويبدو أن الألمان كانوا يتوقعون فى البداية أن يتقدم الفرنسيون بهذا الطلب[1]، وحين لم يتقدموا به ، ولم تطالب فيشى بمزيد من الطائرات[2] ، أقترح الألمان أنفسهم أن يتدخل السلاح الجوى الألمانى وأن يطالب بمطارات تنزل فيها الطائرات الألمانية فى سوريا ولبنان . وقد قدم موعد هذا الاقتراح بحيث لا يتعدى ١١ يونية ، ثم تكرر بعد أيام قليلة .

ومما له مغزاه أن الألمان قد تقدموا بهذا الاقتراح قبل عشرة أيام من هجومهم على الاتحاد السوفييتى ، حين كان هتلر لا يعول على مقاومة الفرنسيين فى سوريا

---

(١) ذكر الجنرال يودل لريتر خلال محادثاتهما الخاصة بسحب القوات الألمانية من سوريا : « طالما أن الفرنسيين لا يأتون بعد أسبوع ويطلبون منا أن نشرك قواتنا من جديد » — مذكرات ريتر — سالزبورج ، ٨ يونية ١٩٤١ .

(٢) برغم التوقعات وفق ما ذكره فون جروت فى مذكراته (برلين ، ١١ يونية ١٩٤١) .

لأية فترة . ولا نستبعد أن مرجع الاقتراح هو تأثير إيطاليا . وفى ٩ يونية وضع الجنرال جورجيس — وهو من رجال لجنة الإشراف الإيطالية فى بيروت — خطة خاصة بتدخل الطائرات الألمانية والإيطالية التى قدمتها روما لبرلين . ومن المحتمل أيضاً أن العرض الألمانى كان يعكس وجهات نظر جورنج ورايدر Räder . وكان هذان الزعيمان النازيان يريان أن فرصة النصر متاحة فى البحر المتوسط ، ولم يكونا متأكدين من نجاح الهجوم على الاتحاد السوفييتى . وربما كان الألمان حين تقدموا بعرضهم يرغبون فى إقناع القادة الفرنسيين بأن يقاوموا إنجلترا مقاومة فعالة . وكان من رأى عملاء ألمانيا فى سوريا أن طول أمد المقاومة الفرنسية من شأنه أن يمكن ويفل من تدبير هجوم ضد روميل فى الصحراء الغربية . وبرغم ذلك فقد نفذت هذه العملية التى أطلق عليها اسم عملية « باتلآكس » ، ثم انهارت فى أواسط يونية . واستبعد احتمال شن هجوم على القوات المحورية فى شمالى إفريقيا خلال وقت قصير .

ومما لا شك فيه أن فيشى وممثليها فى سوريا كانوا يرغبون فى تقديم المساعدة، ولكنهم كانوا يخشون أن يصبحوا موضع شك فيما لو عرف أنهم وافقوا على التدخل الألمانى . وكان من المحتمل أن يكون لتسرب هذا الخبر أثر سلبى على الجنود والضباط الألمان وعلى فرص الاتفاق مع بريطانيا حول سوريا ولبنان . كما كانت فيشى تخشى إغضاب حكومة الولايات المتحدة التى صرحت علناً بأنها تعتبر محاربة البريطانيين فى سوريا خدمة لهتلر . وكانت حكومة بتان شديدة الاهتمام بأثر ذلك على الولايات المتحدة التى أرسلت إلى فرنسا وأملاكها الإفريقية الطعام وسلعاً أخرى لاغنى عنها .

لهذا رفض دارلان عرض ألمانيا الذى قدم عدة مرات ، وفاخر بذلك أمام الأميرال ليهى سفير الولايات المتحدة . وفى ١٤ يونية قدم الجنرال جفريه De Geffrier إلى الألمان من جديد رد فيشى السلبى على مسألة تخصيص مطار خاص فى سوريا للسلاح الجوى الألمانى . وحين سأل رئيس هيئة سلاح الطيران الألمانى فى لجنة الهدنة الألمانية الجنرال دو يان عما إذا كان الفرنسيون على الأقل سيخصصون مطاراً معيناً للطائرات الألمانية التى ترغم على النزول الاضطرارى فى

سوريا ، أجاب (فى مذكرة بتاريخ ١٥ يونية) بأن « الحكومة الفرنسية تأمل أن يقصر السلاح الجوى الألمانى تدخله على أعمال لا تتضمن المجازفة بالنزول فى سوريا ، وذلك لقلة الوقود » . وأضافت المذكرة أن بإمكان الطائرات التى لحق بها التدمير وتلك التى تعترضها حوادث أن تنزل وتحصل على المساعدة ، وأن اتفاقاً خاصاً ليس ضرورياً بالنسبة إلى ذلك . وبرغم ذلك ترك دارلان لنفسه منفذاً للتراجع إذا مادعت الحاجة . ذلك أن بيان فيشى الذى قبلت فيه مساعدة ألمانيا الجوية ورفضت تخصيص مطار ، احتوى على فقرة مضمونها أنه سيسمح بالتدخل المباشر من جانب السلاح الجوى الألمانى فى منطقة القتال حين يطلب دنتز ذلك . ووفقاً لمذكرة ١٤ يونية كان على وزير الطيران فى حكومة فيشى — الجنرال برجريه Bergeret — أن يتوجه إلى سوريا ليبحث الموقف هناك . وكان من الممكن أن يفهم الألمان هذا على أنه يعنى أن الفرنسيين قد يعدلون موقفهم . وقد تردد الجنرال دنتز نفسه بسبب الموقف فى الجبهة وكان الأميرال جوتون Gouton شديد الاستعداد للتعاون مع الألمان ، وباشر الضغط على دنتز لكى يسير فى هذا الاتجاه .

وفى ١٧ يونية وصل برجريه إلى سوريا ، وفى الحال صرح بأن فيشى تأمل أن تتغلب على إنجلترا بقواتها الخاصة . وكان من رأيه أن إرسال تعزيزات إلى القوات السورية أمر حاسم بالنسبة إلى نجاح المقاومة الفرنسية . وكان ذلك يطابق التعليمات التى تلقاها من بتان الذى أخبره هو والجنرال هونتزيجر Huntziger أنه يعارض التعاون العسكرى مع ألمانيا — أيا كان الثمن . ولكن موقف فيشى لم يحدد بهذا الشكل بصورة قاطعة خلال المحادثات التى جرت مع الألمان[1] ، وبخاصة مع آبتز ، ربما لأن دارلان ومعاونيه لم يكونوا يرغبون فى أن يؤثر ذلك تأثيراً سيئاً على مسألة المساعدة العسكرية الألمانية فى المستقبل .

وحين تدهور وضع فيشى العسكرى فى سوريا بحلول نهاية يونية ، طالبت

---

(١) وهكذا صرح آبتز بأن نتائج محادثاته مع حكومة فيشى كانت كالآتى : «تطالب الحكومة الفرنسية بأن يتخذ السلاح الجوى الألمانى كل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل فى سوريا . ولكن الحكومة الفرنسية لاعتبارات خاصة بالدعاية لاترغب فى اللجوء إلى هذا الاحتمال إلا فى حالة الضرورة القصوى» (رسالة آبتز — باريس فى ١٦ يونية ١٩٤١) .

بتدخل السلاح الجوى الألمانى ، برغم أن رجال فيشى كانوا لايزالون غير ميالين إلى السماح للطيران الألمانى بحرية الحركة فى المطارات السورية . وفى ظل هذه الظروف رفض السلاح الجوى الألمانى أن يعمل ضد القوات الجوية البريطانية فى سوريا وفلسطين وشرق الأردن . ولم يستبعد حتى الآن أن الطلب الفرنسى ، الذى قدم هذه المرة خلال المرحلة الأخيرة من الحرب فى سوريا ، لم يكن له سوى أهمية تكتيكية. فمنذ يوم ٢٢ يونية ١٩٤١ — أى منذ بدء القتال على الجبهة السوفييتية — لم يعد الفرنسيون يعتمدون على مساعدة ألمانيا . وحتى ذلك الوقت لم تتخل السلطات الفرنسية فى فيشى وبيروت نهائيًّا عن احتمال الإفادة من المساعدة الألمانية الجوية على نطاق واسع وبخاصة طائرات ستوكا العاملة فى الجبهة .

وقد سبق أن أوضحنا أن فيشى اتخذت موقفاً سلبيًّا فى جوهره من اشتراك السلاح الجوى الألمانى اشتراكاً مباشراً ، لأنها كانت تخشى رد الفعل لدى القوات الفرنسية فى سوريا والولايات المتحدة الأمريكية . وكان التدخل الألمانى وتسليم سوريا للنازيين من الخطوط الدعائية الرئيسية التى كان يلجأ إليها الديجوليان والبريطانيون . وكانت فيشى تخشى أثر هذه الدعاية على القوات الفرنسية التى حاربت بعنف فى ظل ظروف غير مواتية بمحض شجاعتها فى القتال وحسن قيادتها[1]. وربما كانت فيشى أكثر فهماً للحقيقة الخاصة بأن اشتراك القوات الألمانية قد يدفع البريطانيين إلى مهاجمة أملاك فرنسا فى غربى إفريقيا ومراكش. ولهذا السبب امتنعت فرنسا عن أخذ ثأرها بمهاجمة القواعد البريطانية فى جبل طارق وفريتون وباثرست .

وقد أدت المفاوضات وحدها إلى اتفاق هاليفاكس — شيفالييه فى ديسمبر ١٩٤٠[2]، مما أقنع زعماء فيشى دون مواربة بأن بريطانيا ستستخدم كل حجة وكل الإمكانيات لتوسيع الأراضى التى يسيطر عليها الديجوليون . ولا يمكننا أن

---

(١) يذهب الجنرال كاترو فى كتابه Dans la bataille de la Méditerranée, pp. 142-3. إلى أن دنتز لم يستطع استغلال عدد من الاحتمالات خلال القتال ، ولكننا على الأقل نجد أن ثمة شكاً فيما إذ كان بإمكانه — بقواته المحدودة — أن ينفذ كل العمليات التى أشار إليها كاترو .

(٢) وطبقاً لهذا الاتفاق لم تعترض البحرية البريطانية نقل المؤن بحراً إلى فرنسا غير المحتلة وإلى أملاك فرنسا فى شمال إفريقيا .

نتجاهل المنافسات التقليدية بين إنجلترا وفرنسا ، وهى المنافسات التى كان لها مثل هذا الأثر على تفكير بتان ودارلان ودنتز وآخرين ..

وقد ذهب دارلان – وهو ما ذهب إليه فيما بعد المدافعون عن المتعاونين الفرنسيين – إلى أن الخوف من قيام ألمانيا بعمل ضد ممتلكات فرنسا الإفريقية هو الذى أدى إلى التعاون مع ألمانيا . ولكن يتضح لنا من الوثائق الألمانية أن موقف فيشى السلبى من التدخل الألمانى المباشر فى سوريا كان مرجعه الخوف من قيام بريطانيا بعمل عسكرى انتقامى ضد الأملاك الفرنسية ، وعدم استعداد ألمانيا لتقديم تنازلات مناسبة فى مقابل تعاون أقوى . وبعد سقوط نظام فيشى فى سوريا ولبنان حملت نفس العوامل الدوائر الحاكمة فى فرنسا غير المحتلة على الميل إلى اتخاذ موقف حذر فيما يتعلق بتوسيع نطاق التعاون مع الريخ .

تركيا والحرب فى سوريا

لم تقتصر علاقات فيشى بالحكام النازيين على مساعدة السلاح الجوى الألمانى ، أو على « مسألة طائرات ستوكا » ، وهو الاصطلاح الذى يرد فى المؤلفات الفرنسية . بل إنها طالبت الريخ بأن يقدم لها المساعدة الدبلوماسية أيضاً .

وكان احتمال مقاومة فيشى مقاومة فعالة فى سوريا يتوقف إلى حد كبير على تركيا . وكان ضمان الفرنسيين أنهم بنجوة من أى مفاجئات من ناحية تركيا مما يمكنهم من تحويل قواتهم من شمالى سوريا إلى الجنوب ، وبذلك يتسنى تعزيز القوات المشتبكة مع الغزاة البريطانيين والديجوليين . وقد سأل الجنرال دنتز السلطات الألمانية عدة مرات عن مسألة تركيا – فقد كان غير متأكد مما ستفعله الحكومة التركية فى حالة حدوث ارتباكات على حدود فلسطين وشرق الأردن . وقد وصلته هو وران أنباء خاصة بأن الحكومة التركية كانت تحث البريطانيين على احتلال سوريا وقد أفضى دنتز إلى ران بشكوكه الخاصة بأطماع تركيا فى حلب والجزيرة . وأكد الألمان لدنتز فى البداية أن لا أساس للخوف من تركيا . ولكن قبيل نشوب القتال لم تعد وزارة الخارجية الألمانية على بينة من مقاصد أنقرة .

ومن المعروف الآن أن البريطانيين كانوا – فى نهاية يونية – يرغبون رغبة حقيقية فى دفع تركيا إلى احتلال المطارات الواقعة فى شمالى سوريا ، وبخاصة فى حلب ، ولكن الأتراك رفضوا ذلك فى ٢ يونية . وفى محادثات جرت بين الملحق العسكرى الألمانى فى أنقرة وبين رئيس الأركان التركى ، رفض الأخير بشكل قاطع فكرة إرسال القوات التركية إلى شمالى سوريا . ولكن ليس من المعروف أبدد هذا الرد شكوك ألمانيا فى نيات تركيا أم لم يبددها . ومن الواضح الآن أن الأتراك كانوا سيرحبون باحتلال شمالى سوريا ولكن ليس قبل الاتفاق مع كلا الطرفين المتحاربين. وكان معنى التساؤلات الألمانية فيما يتعلق بموقف تركيا فى حالة نشوب القتال فى سوريا – وكانت لدى الأتراك أسباب تدعوهم إلى الاعتقاد بأنه سينشب قريباً – أن برلين لم تكن ترغب فى أن تقوم تركيا بأى إجراء ، وكان الأتراك يودون تجنب نشوب أزمة مع ألمانيا التى كانت قواتها على حدودهم .

وكانت مشاكل التعزيزات والإمدادات ذات أهمية ضخمة فى حالة مواصلة جيش سوريا ولبنان النضال بمساعدة قليلة من جانب ألمانيا . وكان هذا ينطبق بوجه خاص على توفير وقود الطائرات الذى كان يستهلك منه ٢٠٠,٠٠٠ لتر يومياً فى القتال .

وحتى قبل بدء القتال طلب الجنرال دنتز من حكومته أن توفر الإمدادات لطيرانه ، وكذلك أسلحة مضادة للطائرات وأسلحة مضادة للمدرعات . وقد احتل وضع تركيا دوراً كبيراً بهذا الصدد . فالبترول الألمانى كان مخزوناً فى تركيا منذ أوائل يونية – وفى مايو وافقت الحكومة التركية على نقله ، ولم يسحب هذا الإذن بعد نشوب الحرب . وكان من المتوخى أن تعبر حمولة تسعة قطارات تحمل أسلحة مضادة للطائرات وأخرى مضادة للمدرعات ، قارة أوربا إلى سالونيك وأن تتوجه من هناك بحراً وعبر تركيا إلى سوريا . وقد بدأت هذه الشحنات عبور خط التقسيم فى فرنسا فى ١١ يونية . ووصلت الدفعة الأولى إلى سالونيك فى ١٧ يونية . ولكن لم تكن توجد اتفاقية مع تركيا حول نقل المواد الحربية والرجال الذين يستعملونها. وقد رفضت أنقرة طلب القائم الفرنسى بالأعمال الخاص بتمكين القطارات السبعة وهيئة تتكون من ٧٥٠ رجلا من عبور تركيا . وكان من المتوخى شحن الإمدادات

الفرنسية بحراً — وبعد الهجوم على الاتحاد السوفييتى لم يكن بإستطاعة الألمان توفير طائرات النقل— ولهذا كانوا معرضين للهجوم الجوى والبحرى من جانب البريطانيين .

وكان ثمة تأخير أيضاً فى نقل البترول المخزون فى تركيا الذى كانت توجد اتفاقية رسمية بصدده[1]. وقد طلب الفرنسيون من الألمان أن يتدخلوا لدى الحكومة التركية بشأن مسألتى البترول والإمدادات . وساندت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية الطلب ، وبوصول الجنرال برجريه أصبحت مسألة التعزيزات موضوعاً للتفاوض بين فرنسا وألمانيا . وفى ٢٠ يونية طلبت فيشى من لجنة الهدنة الألمانية أن تمكنها من أن تنقل ، عن طريق سالونيك ، ست كتائب مشاة وفصيلة واحدة من الخيالة وأخرى من المدفعية المصفحة ، وأن تتدخل لدى أنقرة لنقلها عبر الأراضى التركية . كما طالبوا بأن تزود بدبابات ماركة سوموا Somua اللازمة لجيش سوريا ولبنان . ورأت لجنة الهدنة أن للطلب ما يسوغه ولكنها لم تستعجل إرسال الدبابات . حينئذ اقترحت فيشى إرسال أربع كتائب من بنزرت إلى سوريا عن طريق البحر ، وطلبت إذن ألمانيا بأن تحرسها سفن حربية فرنسية تقلع من طولون ، بحكم أنها كانت تتوقع صداماً فى البحر المتوسط . وقدم الألمان من ناحيتهم مساعدة كبيرة فى نقل القوات الفرنسية بحراً — وقد تعهدوا — وفقاً للبروتوكولات — بحراسة السفن الفرنسية من سالونيك إلى كاستلورزو القريبة من شاطئ الأناضول ،وكان على الأسطول الفرنسى أن يقوم بالعمل ابتداء من هذه النقطة . وقد سبق أن أوضحنا أنه قد ترتبت على محاولة إرسال الإمدادات إلى جيش سوريا ولبنان عن طريق البحر خسائر ضخمة ، ولكنه لم يبدأ على أى حال إلا حوالى نهاية الحرب فى سوريا .

كما طلبت فيشى من برلين أن تقدم لها المساعدة الدبلوماسية فى الحصول على إذن أنقرة بطيران طائرات نقل فوق تركيا على طريق سالونيك — حلب، إذا أمكن دون أن تعلن عن نفسها أو تبلغ عن مواقعها . وقدم طلب مماثل إلى إيطاليا . وكانت فيشى تود من الإيطاليين أن يساندوا جهودها الخاصة بالحصول

(١) اتهم ران الأتراك بالتخريب بسبب هذا التأخير . وكان من رأى فون بابن أن النقل فى ذلك الوقت كان يتطلب وقتاً طويلا . واعتبر فون بابن الاتهام الخاص بالتخريب غير صحيح . و برغم ذلك وصل البترول إلى سوريا بعد أن قام ران ببعض الخطوات الجذرية .

على طائرات نقل فى تركيا وأن تحصل على مزيد من الوقود هناك . وكان رد لجنة الهدنة الألمانية سلبياً — ولقد سوغت موقفها باعتبارات عملية . على أننا لانستبعد أن يكون السبب الحقيقى للرفض هو المنافسة الصامتة بين ألمانيا وإيطاليا .وكانت أوامر هتلر الخاصة بمساعدة العراق والصادرة فى ٢٣ مايو تعكس بوضوح الرغبة فى وضع إيطاليا فى موضع أدنى فى الشرق الأوسط . كما أن عملاء الريخ أشاروا إلى وجود دعاية معادية لألمانيا فى سوريا ولبنان تمولها إيطاليا وتتم بالاتفاق مع لجنة الرقابة الإيطالية . وبسبب وفاة جيل هنرى — سفير فرنسا فى أنقرة — عهدت المفاوضات الجارية مع تركيا إلى بنوامشان Benoist - Méchin الوزير فى وكالة رياسة مجلس الوزراء الذى قدم إلى أنقرة عن طريق أثينا وحلب فى ٢٤ يونية يرافقه ديفير Dufeur ومدير مكتبه لومبارد . وكان بنوامشان يحمل رسالة شخصية من بتان إلى رئيس جمهورية تركيا عصمت إينونو . وكان الهدف من رحلته هو إجراء محادثات سياسية عامة ، والحصول على اتفاق بشأن مرور البترول والإمدادات إلى جيش سوريا ولبنان ، والمطالبة بثمن جزء من الأسلحة التى باعتها فرنسا لتركيا فى عام ١٩٣٩ لم يكن قد تم دفعه بعد . وبصورة أدق كان الفرنسيون يودون من الأتراك أن يعيدوا ٤٠ دبابة أخذوها من مخازن جيش بتان السورية[١] ، وبعض الأسلحة المضادة للمدرعات . ونفذ بنوامشان التعليمات الصادرة إليه بخصوص العمل بالتعاون مع فون بابن الذى شجعه على أن يعد الأتراك بتنازلات فى شمالى سوريا فى مقابل الدبابات وغير ذلك مما كان الألمان قد قاموا بتسليمه . وبرغم أن تركيا كانت قد وقعت بالفعل معاهدة صداقة مع ألمانيا (فى ١٨ يونية) ، فإنها رفضت الخروج عن نطاق الحياد التام بصدد هذه المسألة — ولم تتم الاستجابة لأى من الطلبات التى تقدمت بها فرنسا باستثناء تسليم البترول ، وهو ما كانت تركيا قد وافقت عليه قبل ذلك بوقت طويل . وبارح بنوامشان تركيا فى ٢ يوليه . وكان من رأى فون بابن أن الانتصارات الألمانية فى الاتحاد السوفيتى من شأنها أن تؤدى إلى تعديل موقف تركيا فيما لو استطاع

---

(١) وصل ران إلى حلب على طائرة بنوامشان . وترد فى مذكرات ران ملحوظة بخط يد كرول بصدد طلب بنوامشان لثمن الدبابات : « اعتبره نعمان (منجى أوغلو) غير جاد بهذا السبب » .

دنتز الصمود لمدة أسبوعين آخرين ، أى طالما توفر الوقود لطائراته . ولكن هذا التوقع كان مصدره الغرور ، فلم تصل إلى سوريا سوى تعزيزات قليلة وصلت متأخرة : ثلث فصيلة من قوات المستعمرات و٣٥٠ جندياً وضابطاً من وحدات مختلفة مضادة للطائرات وعشرة أطنان من الذخيرة .

النشاط الألمانى لدى العرب

وبينما كان معظم نشاط ألمانيا فى الحرب الدائرة فى سوريا منصباً على علاقاتها مع فيشى وعلى الاتصالات الدبلوماسية مع تركيا ، فإن اتصالاتها بالعرب لم تنقطع .

ولقد أصبح للشئون العربية مغزى عملى معين من الناحيتين العسكرية والدعائية أثناء الحملة السورية . وكان الألمان قبل ذلك قد قصروا معظم علاقاتهم مع الدوائر الوطنية السورية على محاولة إشعال الثورة فى فلسطين بمساعدة الأسلحة الواردة من سوريا — وبعد سقوط رشيد عالى فى العراق فكروا فى استعمال العرب فى القيام بنشاط تخريبى فى أنابيب البترول وتدمير محطات الضخ .

وفى أثناء القتال الذى اشتركت فيه القوات الإنجليزية مع القوات الديجولية كان الألمان مهتمين باستمالة السكان المحليين وزج العرب فى الحرب .

ولم يخف الزعماء العرب كرههم لفرنسا وعدم ثقتهم بإنجلترا وتفضيلهم لألمانيا ، حتى خلال محادثاتهم مع قنصل الولايات المتحدة العام . فهم لم يعتبروا الحرب فى أوربا كارثة ، إذ أنهم بنوا آمالهم على إضعاف الدول الغربية . ولقد ضعفت هيبة بريطانيا ضعفاً شديداً بسبب الهزائم التى حلت بها فى جبهات القتال والأعمال التى قامت بها العراق . وفى الواقع أن فترة الحرب فى العراق قد سادتها مظاهرات ضخمة معادية لبريطانيا . حقيقة أن بعض الشخصيات السورية ، واللبنانية بوجه خاص ، كانت لها وجهة نظر مخالفة ، إلا أنها كانت معزولة إلى حد ما فى الدوائر الإسلامية .

ولكن التعاون بين ألمانيا والوطنيين السوريين لم يخل من الصعاب ، بحكم

أن مصالح فرنسا — بصفتها الدولة المنتدبة — كانت تتعارض مع آمال العرب. وكان زعيم الوطنيين السوريين شكرى القوتلى الذى عهد إليه المفتى بالاتصال الرئيسى بمندوبى وزارة الدفاع الألمانية فى سوريا ، يرغب فى أن ينظم تزويد فلسطين بالأسلحة بمساعدة ألمانيا وحدها ودون أى إشراف فرنسى . وكان الوطنيون يأملون بذلك أن يحصلوا على قدر من الأسلحة يمكنهم استعماله فى الوقت المناسب ضد الفرنسيين . وكان الفرنسيون بدورهم يودون أن يتجنبوا مثل هذا الاحتمال — ولما لم يكن ثمة مجال لشحن الأسلحة وراء ظهر فرنسا وبدون علمها وتعاونها ، فقد كان على الألمان فى البداية أن يتخلوا عن فكرة إرسال الأسلحة إلى فلسطين. وبعد نشوب القتال واصل الألمان جهودهم لشحن الأسلحة إلى فلسطين ، وكانوا يتوقعون أن تكون فيشى أكثر ميلا إلى مساندة هذه المهمة . ولكن ماحل ذلك الوقت حتى كان تهريب الأسلحة عبر خطوط الجبهة قد أصبح مهمة صعبة ، وعلى أى حال فقد كان مقضياً على الخطة بالإخفاق فى أحسن الاحتمالات . فإلى حد كبير كان من قبيل أضغاث الأحلام توقع أن يؤدى إرسال كميات من الأسلحة إلى عرب فلسطين إلى إقناعهم بالقيام بالثورة فى الوقت الذى تمتلئ فيه البلاد بالقوات البريطانية .

وكانت برلين أكثر نجاحاً فى تخريب خطوط الأنابيب ومحطات الضخ ، برغم أن إصلاح التخريب الذى كانت تقوم به العصابات العربية المسلحة لم يكن أمراً صعباً .

وأهم ما قام به الألمان بالنسبة إلى العرب فى سوريا هو تنظيم وحدات عربية مقاتلة ، وهو ما تم بموافقة السلطات الفرنسية . وقد تم الاتصال لهذا الغرض بقائد العصابات المشهور فوزى القاوقجى الذى كان قد اشترك فى الثورة العراقية . وبعد هزيمة رشيد عالى كان فوزى يخشى الهرب إلى سوريا حيث كان ينتظره حكم بالإعدام [١]. وفى الوقت الذى كان يريد فيه أن يسلم مع رجاله للبريطانيين

---

(١) كان فوزى القاوقجى يحمل رتبة كابتن فى القوات السرية المساعدة (الأجنبية) فى أوائل العشرينات . وقد ترك هذه القوات وانضم إلى ثورة الدروز (١٩٢٥ — ١٩٢٧) . انظر :

S.H. Longrigg: Syria and Lebanon under the French Mandate, London, 1958, pp. 165-8.

Playfair: op. cit., II, p. 204.

أخبره ضابط فرنسى – بطلب من ران – بإلغاء الحكم بالإعدام ، وأقام معه اتصالات دائمة . ومنذ ذلك الوقت عمل فوزى فى شمال شرقى سوريا إلى أن أصابه جرح خطير فى ٢٤ يونية – وبعد ذلك حملته طائرة ألمانية إلى أثينا ، ثم تشتتت جماعته ، وفى أوائل يولية قرب انتهاء الحرب ، تمت إعادة تنظيم رجال فوزى الذين كانوا يعملون فى حلب فى عصابة سرقة تحت قيادة عارف عبد الرزاق (رفاق قائد العصابات فى السلاح أثناء الثورة الفلسطينية) وسبعة ألمان من رجال الفرقة الأجنبية . وفى ٦ يولية أعلن ران انضمام أعضاء العصابة الذين أدلوا بقسم الانضمام تحت الراية العربية فى وسط حماس ضخم من جانب الجماهير . وكان هناك متطوعون كثيرون للجماعة التى حاربت فى منطقة حلب . وهكذا ظهر ممثل ألمانى ظهوراً قوياً فى مثل هذه المظاهرة المناصرة للعرب باعتباره قائماً بجمع وحدات محاربة تحت الراية العربية فى الأسبوع الأخير فقط من المقاومة الفرنسية فى سوريا . وليس من المعروف أكان ران قد قام بذلك بموافقة برلين . وقد ذكرت التقارير البريطانية أن البريطانيين كانت ترهقهم العصابات العربية على طول خطوط مواصلات الصحراء .

حقيقة أن ممثلى ألمانيا كانوا يريدون من القادة العرب وأتباعهم أن يتعاونوا مع الفرنسيين . ولكن لم يكن مقيضاً لهذا الهدف أن يلقى تجاوباً واسع النطاق . ولم يكن ران من ناحيته يعطف على الحركة القومية العربية قبل قدومه إلى سوريا ، وتدعمت وجهات نظره حين رأى إلى أى حد كان العرب لايريدون مساندة جهود فرنسا الحربية . وفى الواقع أن كثيراً من الزعماء العرب ، بما فيهم مفتى القدس ، كانوا يرحبون بطرد الفرنسيين من سوريا .

وقد كتب ران تقريراً إلى ريبنتروب ذكر فيه بوضوح أنه لاتوجد حركة وطنية فى سوريا . وذهب إلى أن « العناصر التى لها أكبر قيمة من الناحية الجنسية» – أى البدو – لم يكن لديهم شعور وطنى ، على حين يشكل الآخرون خليطاً من الجنسيات والقوميات يأنف منه من يؤمنون بمبادئ الاشتراكية الوطنية . وأشار إلى عدم وجود أى ارتباطات بين أهم الدوائر ، وذهب إلى أنه لم يجد فى سوريا أى عناصر مستعدة للقتال ، وأكد أنهم لابد أن يثبتوا خيانتهم فى ساعات الخطر

— فيهربون أو ينضمون إلى إنجلترا . وشكا من أنه لم تبق سوى « مجموعتين من المجرمين المحترفين والمهربين واللصوص الذين كان يلجأ إليهم الثوار الحقيقيون من أمثال فوزى القاوقجى الذى هو نصف مغامر ونصف بطل قومى » . وكتب ران أنه لايستطيع أن يتعاون إلا مع أمثال هؤلاء الناس . « وبعد محاولات عديدة وصعبة كان على أن أتخلى عن التعاون مع المنظمات الوطنية القديمة ». وأهم وسيلة اتبعها ران مع زعماء هذه المنظمات ومشايخ البدو هى اللجوء إلى التهديدات — فقد هدد كل من يعارض السلطات أو يساعد إنجلترا بإنزال العقاب الشديد به فى المستقبل .

وقد ذهب ران فى تقريره إلى أن أعظم ما قام به هو أن الناس ظلوا هادئين ومنتظمين ، بمعنى أنهم لم يثوروا ضد السلطات والقوات الفرنسية . ولكن هذا لم يكن مرجعه ران — إذ أن العرب كانوا لايعدون أن يكونوا مترددين فى الالتزام بشىء فى مثل هذا الموقف الغامض . فهم كانوا يكرهون الفرنسيين فى الوقت الذى تساورهم فيه الشكوك فى إنجلترا ووعود ديجول — وكانوا يخشون ، فوق كل ذلك ، ما قد تلحقه بهم الحرب من دمار [١]. فقد كان ثمة أمل كبير إلى حد ما فى أن يؤدى انتصار المحور إلى تحسين الموقف ، ولكن هذا كان يوازنه الوعد الذى بذلته إنجلترا بربط سوريا ولبنان بمنطقة الإسترلينى ، الأمر الذى كان من شأنه أن يجد حلا فوريًّا لمشكلة الطعام والأحوال الاقتصادية بوجه عام .

ولم تبد الدوائر الوطنية رضاها عن نشاط ران . فقد حذر عادل أرسلان — أحد الزعماء الوطنيين فى سوريا ولبنان — فى رسالة بعث بها إلى فون بابن من وجهات النظر الزائفة التى كان يروجها ممثلو الريخ فى سوريا تحت تأثير الفرنسيين . وكان بوجه خاص ينتقد ران الذى لم يعد أمره فى مثل هذه الحالة أن يكون منفذاً للمصالح الألمانية . وبطبيعة الحال كان ران مهتمًّا بالتعاون مع السلطات الفرنسية ، لأنه كان يعدها أكبر قوة تتصدى لأعداء الريخ .

ولم يكن الأمر يتعلق بإقامة حكومات وطنية فى سوريا أو فى لبنان ، لأن

(١) أدى الخوف من التخريب الذى تتسبب فيه الحرب إلى مطالبة بعض فئات من الطبقات المالكة العربية بإعلان بيروت مدينة مفتوحة ، وبأن تجرى المفاوضات بسرعة بشأن الهدنة . وقد تم التعبير عن وجهات النظر هذه فى لبنان بصورة أوضح منها فى أى بلد عربى آخر .

هذا كان لا بد أن يتعارض مع السياسة الألمانية وأن يكون له أثر سيئ جداً على مجرى الحرب فى سوريا . بل إن الوعد بالاستقلال كان مستحيلا ، لأن التعليمات رقم ٣٠ – التى حددت الخط العام للدعاية الألمانية فى البلدان العربية – أوضحت ضرورة عدم مهاجمة الحكم الفرنسى فى سوريا ولبنان . وفى ضوء السياسة الألمانية العامة لم يكن بإمكان ران إلا أن يؤكد للعرب عطف المحور على نضالهم فى سبيل الحرية. وحين جمع ران متطوعين ليشتركوا مع فيشى فى محاربة البريطانيين ، أكد للعرب أن ألمانيا ستكافئ الفرنسيين على دفاعهم عن سوريا ، ولكن ليس على حساب العرب . وأضاف أن المناضلين النشطين هم وحدهم الذين سيكون لهم صوت فى إقامة النظام الجديد فى المشرق العربى ؛ ولم يكن ران فى وضع يمكنه من بذل وعود محددة حول مستقبل سوريا ولبنان .

وفى ذلك الوقت أعلن الجنرال كاترو – بإسم الفرنسيين الأحرار – استقلال سوريا ولبنان ، وضمنت الحكومة البريطانية تنفيذ ذلك . وتلا ذلك تصريح أنتونى إيدن الخاص بمساندة لندن لآمال سوريا فى الاستقلال ، وعطفها الشديد، بالإضافة إلى ذلك ، على اتجاه الوحدة العربية . حقيقة إن هذا التصريح تضمن كثيراً من التعبيرات الغامضة والتحفظات بحيث أن العرب لم يثقوا كثيراً فيه ، إلا أنهم لم يحصلوا فى ذلك الوقت على شىء على الإطلاق من ألمانيا . وتبقى الحقيقة الخاصة بأن حكومات وطنية قامت فى سوريا ولبنان فى خريف عام ١٩٤١ ، وأنها اضطلعت بعد سنتين بالسلطات الحقيقية –وكان من وراء ذلك ضغط إنجلترا .

وأهم من هذا أن العرب كانوا يتوقعون أن تحتل القوات البريطانية البلاد . ومن المشكوك فيه أمين شأن الوعود الألمانية أن تعبئ العرب للقتال ؟ وحتى لو تم ذلك فإن أثره على الروح المعنوية الفرنسية لابد أن يكون سلبياً . ولهذا لم تقطع مثل هذه الوعود . ومن الأسلم أن نعتقد أن الحكومة الألمانية كان لا بد أن تعد فيشى بالمحافظة على الأحوال القائمة لو شعرت بأنها مدفوعة إلى اتخاذ موقف عام بصدد سوريا – ولو تم ذلك لاصطدم بآمال العرب .

وقد اتضح بالفعل خلال مفاوضات مايو ١٩٤١ أن ألمانيا لم تكن تنوى – على الأقل فى ذلك الوقت – أن تمس حق فرنسا فى سوريا ولبنان . وكان مرجع

هذا القرار موقف ألمانيا الأساسى الذى كان يقضى بالحيلولة دون أن تصبح الأملاك الفرنسية مجالا للمساومة ما دامت الحرب مستمرة . وقد أثارت فيشى السؤال التالى خلال المفاوضات بصدد المساعدة الألمانية لجيش المشرق : « فى حالة طلب فرنسا للمساعدة . . . هل بإمكان الرد الألمانى أن يتضمن تصريحاً عرضة للنشر بصدد عدم مساس الريخ بحق فرنسا فى سوريا ، بعكس إنجلترا ؟ » . ويجب أن نذكر أن الأمر لم يصل إلى مثل هذا الطلب الرسمى للتدخل الألمانى المسلح– ولكن رأى برلين الخاص بالرد على هذا السؤال يكشف لنا أشياء كثيرة . وقد أعلن وكيل الوزارة – فورمان – ومدير القسم السياسى بوزارة الخارجية الألمانية أن السياسة الألمانية لاتتطلب تصريحاً يفسر على أن يبقى عرب سوريا تحت الحكم الفرنسى لأجل غير مسمى . ولكنه اقترح تصريحاً بهذا المعنى يجىء فيه : « يعترف الريخ الألمانى ، كما تعترف فرنسا ، بحق شعب سوريا فى الاستقلال ، ولكنه يشبه فرنسا فى اقتناعه بعدم إمكان تحقيق الهدف فى الوقت الحاضر ، ولهذا فإن ألمانيا – بعكس إنجلترا – لاتهتم بحقوق فرنسا فى سوريا»[1] . وكان من شأن مثل هذا التصريح أن يتمشى مع موقف فرنسا ، على اعتبار أنه قد نص رسمياً على اعتبار الاستقلال هدف انتدابات الدرجة الأولى . وفى الواقع أن الجنرال دنتز أعلن فى ٢ إبريل ١٩٤١ فى خطاب موجه بالراديو أن فرنسا تواصل الاعتراف بالهدف من الانتداب ، ولكنها ترى استحالة تطبيقه فى ظل الموقف الدولى القائم .

ولم يتيض للتصريح الذى سبقت الإشارة إليه أن ينشر على الإطلاق . ولكنه يعكس موقف حكام ألمانيا . وسنرى أن وجهة النظر هذه ظلت لها فاعليتها بعد هزيمة فرنسا فى المشرق . ولا شك أنها كان لها مغزاها إبان القتال ، لأن القوة الوحيدة فى سوريا التى كان بإمكانها مقاومة الغزو البريطانى هى جيش المشرق التابع لحكومة فيشى . وبالإضافة إلى ذلك فإن القتال فى سوريا قوى آمال ألمانيا فى أن ينشب صراع عام بين فرنسا و بريطانيا – وهو أمل كان باستمرار يراود السياسة الألمانية الخاصة بفيشى .

---

(١) مذكرات فورمان، برلين فى ٢٥ يونية ١٩٤١ . لم تقدم المذكرات لريبنتروب مباشرة ، بل إنها سلمت لآبتز لكى يستعملها فى محادثاته مع ريبنتروب .

القتال والهدنة

كان لابد للقتال في سوريا ، في ظل الظروف القائمة ، أن يتمخض عن هزيمة فيشي . وقبل أن يبدأ القتال كانت قوات الجنرال دنتز البرية تبلغ ١٫٢٥٠ ضابطاً و ٣٢٫٠٠٠ صف ضابط وجندي فيما يتعلق بالوحدات الفرنسية ، و ١٨٫٠٠٠ جندي من أهل البلاد يقودهم ١٤٠ ضابطاً فرنسياً و ٣٠٠ صف ضابط فرنسي ، بالإضافة إلى ٢٨٠ صف ضابط من أبناء البلاد ، وكانت لدىء الجيش البري مدفعية ضعيفة وما يتراوح بين ٩٠ و ١٠٠ دبابة من نوع رديء . ولم تكن لدى هذه القوات أسلحة ميكانيكية كافية ، وكانت تحركاتها محدودة جداً[١] كما كانت تعاني نقصاً في الأدوات الحربية والاحتياطي . وكان لدى القوة الجوية حوالي ٥٠ طائرة حديثة : سرب من قاذفات القنابل ، وآخر من المقاتلات ، وثالث من طائرات الاستطلاع[٢]. وكانت قوة فيشي البحرية ضعيفة إلى أقصى حد ، وكان البريطانيون يتمتعون في هذا المجال بتفوق لاشك فيه[٣]. وكانت هذه القوة تتألف من ٣ مدمرات و٣ غواصات و٤سفن صغيرة كاسحة للألغام وخمس طائرات .

وكانت القوات البريطانية والديجولية تتألف من وحدات استرالية وهندية وفرنسية ، وأخرى فرنسية من المستعمرات . وكان عددها ١٥ كتيبة . ومن المحتمل أنها كانت أضعف من قوات فيشي من الناحية العددية ، كما كان لديها عدد قليل من الدبابات . ولكنها كانت تتمتع بالقدرة على الحركة ، كما كان لديها

---

(١) نصح ران بالاستيلاء على السيارات الخاصة بقصد « مكننة » الجيش – ولكن هذا الاقتراح لم ينفذ .

(٢) وفقاً لما ذكره دنتز لران (رسالة ران بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٤١) . وفقاً لما يذكره بلايفير (المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) كانت قوات فيشي الجوية في سوريا تتكون في البداية من ٦٠ مقاتلة و ٣٠ قاذفة قنابل – ولكن تضاعف عددها في الواقع أثناء القتال بالإمدادات التي أتت من شمالي إفريقيا .

(٣) عرض الأميرال جودتون على ران وثيقة تتضمن قوة الأسطول الفرنسي في سوريا (يوجد النص في رسالة ران المؤرخة ٢٩ مايو ١٩٤١) .

احتياطي أكبر [١]. وحين أوقفت قوات فيشي تقدمها على حدود سوريا ولبنان الجنوبية أحضر البريطانيون قوات من العراق كانت تتكون مما كان يسمى بالوحدات الميكانيكية (هابفورس) التي كانت قد أتت من فلسطين منذ أسبوعين ، ومن فرقة الجنرال سليم Slim الهندية التي هاجمت سوريا من الشرق محتلة تدمر ودير الزور . وكانت القوات البحرية البريطانية تتألف من ثماني سفن حربية : طرادات ومدمرات ، بالإضافة إلى الوحدات الصغيرة . وقد عززت هذه القوة بحيث أصبحت تتكون من ٥ طرادات و ٨ مدمرات . وكان الفرنسيون يكادون يكونون عاجزين أمام قوة الأسطول البريطاني . وكانت قوة بريطانيا الجوية التي عدها رؤساء الأركان في الشرق الأوسط حاسمة بالنسبة إلى العملية إكسبورتر (الاسم الذي أطلق على عملية المشرق) تتكون في البداية من سرب من قاذفات القنابل المتوسطة وآخر من المقاتلات وقوات مشاة مساعدة . وقد ألحق بها فيما بعد سرب من طائرات التوماهوك .

وقام الفرنسيون بعدة هجمات مضادة ، وكان القتال شديداً . وفي خلال المرحلة الأولى (٨ — ١٦ يونية) سجلت القوات — التي كانت تقوم بالهجوم بثلاثة طوابير باتجاه دمشق والرياق وبيروت — بعض النجاح . وفي المرحلة الثانية (١٤ — ٢٢ يونية) شن الجنرال دنتز هجوماً مضاداً وأوقف قوات الحلفاء في كل مكان باستثناء جبهة دمشق . وما حل ذلك الوقت حتى كانت عملية باتلآكس الموجهة ضد روميل قد انهارت ، مما مكن البريطانيين من تعزيز قواتهم في سوريا إلى حد كبير . وحينئذ وجهت قوة هابفورس ضربتها من العراق . وشهدت المرحلة الثالثة (٢٣ يونية — ١٥ يولية) انتصارات بريطانية أنهت القتال. ففي ٢١ يونيه سقطت دمشق ، وبعد معركة استمرت بضعة أيام تراوحت فيها مقاليد النصر والهزيمة سلمت تدمر في ٢٣ يولية . وفي اليوم نفسه سقطت عاصمة منطقة الجزيرة واقتربت القوات البريطانية من بيروت وحلب .

---

(١) لم يكن لدى بريطانيا حين بدأ القتال في سوريا سوى احتياطي صغير ، ولكن تغير هذا الموقف بعد إخفاق عملية باتلآكس في الصحراء الغربية في ١٥—١٧ يونية ١٩٤١. وكانت قيادة فيشي طيلة مراحل القتال مقتنعة بتفوق بريطانيا الضخم ، وهذا دون شك أثر في مجرى الحملة ، وتقدم المطبوعات البريطانية الرسمية عدد الوحدات التي اشتركت في القتال ، دون أن تقدم عدد الرجال . Playfair: op. cit., II, p. 204.

وفى ١٨ يونية اتصل كونتى – رئيس القسم السياسى بدار المندوب السامى الفرنسى – رسمياً بقنصل الولايات المتحدة فان إنجرت ، وطلب منه أن يجس نبض بريطانيا حول شروطها لوقف القتال(١). وفى ١٨ يونية رد البريطانيون عن طريق وزارة الخارجية الأمريكية ، ووعدوا قوات فيشى بأن تحظى بكل المراسيم الحربية ، ولكنهم وضعوا شروطاً متشددة للهدنة . وفى ٢١ يونية قدمت لدنتز الشروط الرئيسية – ولكن فى يوم ٢٥ بلغ كونتى إجبرت أن الحكومة الفرنسية لاترى أن الوقت قد حان لإجراء المفاوضات . وفى ٢٦ يونية اتصل دنتز بحكومته وأوضح لها سوء الموقف العسكرى ، واقترح عليها طلب الهدنة . كما أرسل رئيس مجلس وزرائه كابتن تيزيه Téze ومساعد برجريه كابتن جودلير Gaudillièére باعتبارهما مبعوثين خاصين يحملان رسالة تتضمن مسودة المقترحات التى رأى أن تعرض على البريطانيين فى المفاوضات . وفى ٢٨ يونية قدم مبعوثا دنتز تقريرهما إلى بتان ودارلان . وكان أهم ما يشغل فيشى مسألة إرسال الإمدادات إلى جيش المشرق(٢). وكانت لاتزال تنتظر نتائج بعثة بنوا مشان . ولهذا تقرر إبلاغ السفير الأمريكى بأن فيشى على استعداد لإيقاف إطلاق النار مؤقتاً على الجبهات القائمة التى يجب أن تتحول إلى خط وقف إطلاق النار الفاصل بين الفريقين المتحاربين. وقدمت مذكرة بهذا الصدد إلى الأميرال ليهى فى ٣٠ يونية . ومما يجب ملاحظته أن دنتز اقترح كذلك ، عن طريق مبعوثيه ، أن تحتفظ حكومة فيشى بسيادتها على جزء من الأراضى التى انتدبت عليها فرنسا – أى لبنان(٣).

ومن الواضح أنه كان يهدف إلى أن يسلم للبريطانيين ما كان يعتبره مناطق استراتيجية – بمعنى المناطق المتاخمة للعراق ذات الأهمية فى الدفاع عن قبرص وفى الاتصال بتركيا . ولايمكن أن نقطع إلى أى حد كانت حكومة بتان ، حين اتخذت هذا القرار ، يراودها الأمل فى إنقاذ شىء ما فى المشرق .

كما أنه ليس من المؤكد لأى درجة كانت فيشى متأثرة بالخوف من رد فعل

---

(١) قدم دنتز أثناء محاكمته بيانات مخالفة لذلك .

(٢) فى الشهادة التى أدلى بها جودلير أثناء محاكمة دنتز ذكر أن بتان كان يميل إلى إجراء الصلح ، ولكن دارلان كان يعارض فى ذلك .

(٣) يبدو أن القيادة الفرنسية قبل غزو سوريا لم تضع إلا خطة للدفاع عن لبنان وحده . ولكنها غيرت رأيها – ومن المحتمل جداً أن مرجع ذلك هو تأثير ألمانيا – وفضلت خطة الدفاع عن سوريا كلها .

النازيين إزاء عقد هدنة فى سوريا .[١] وفى ٧ يولية رفض البريطانيون شروط فيشى ، ولكن دنتز تلقى فى مساء ذلك اليوم تفويضاً ببدء المفاوضات . وفى ١١ يولية رفضت فيشى المقترحات البريطانية المضادة ، وبخاصة البند الخاص بالاعتراف باستقلال سوريا ولبنان . وفى نفس الوقت خول دنتز تنظيم كل المسائل المترتبة على الموقف القائم دون إثارة مشكلات سياسية . وأخيراً أرغم الموقف العسكرى دنتز على إرسال ممثل عنه إلى عكا نجح فى إبعاد الديجوليين عن المفاوضات وعدم الاكتراث بويلسون والديجوليين والحصول على شروط فى مصلحة فيشى بخصوص إعادة الفرنسيين من سوريا إلى وطنهم[٢]. وفى ١٤ يولية وقع ولسون والجنرال فرديهاك Verdihac اتفاقية للهدنة لم تتعد الشئون ذات الصفة العسكرية المحضة وتحويل إدارات سوريا ولبنان .

ولم يعترض الألمان على أن تعقد فيشى هذا الاتفاق . ولكن يجب أن نعزو تأخرها فى الموافقة على مفاوضات وقف إطلاق النار إلى رد فعل ألمانيا . وحين سألت فيشى وزارة الخارجية الألمانية عن رأيها بصدد مسألة الهدنة ، حذرتها من غدر البريطانيين ، وإن تكن قد تركت للفرنسيين القرار النهائى . وقد ألقت التوجيهات الصادرة إلى ران بصدد مسألة الهدنة مزيداً من الأضواء على مقاصد ألمانيا — فقد كان عليه أن يقتصر على تزويد دنتز بنصيحة عامة بصدد مسألتين: (ا) فى تلك الظروف لا يمكن الوصول فى المفاوضات إلى اتفاق « يتمشى مع شرف فرنسا » — ولهذا كان من الضرورى اقتراح التسليم دون قيد أو شرط دون تقديم أى التزام سياسى ، (ب) من الضرورى تجنب تقديم أى تنازلات للديجوليين أو الاعتراف بهم . وكانت هذه النصيحة تتمشى مع وجهة نظر فيشى .

وقد أوضحت التعليمات أن ألمانيا ترغب فى تجنب قيام سوابق سياسية فى سوريا ولبنان من شأنها أن تعود بالفائدة ، ليس فقط على البريطانيين والديجوليين ،

---

(١) اعترف بنوامشان أثناء محاكمته (٣ يونية ١٩٤٧) بأن الدفاع عن سوريا كان بالنسبة إلى ألمانيا بمثابة المحك الجدى لعزم فرنسا على المحافظة على بقية إمبراطوريتها .

Aujol: Le Procès de Benoist- Méchin, p. 243.

(٢) أدى هذا إلى إثارة غضب ديجول وسوء علاقاته بالحكومة البريطانية .

Charles de Gaulle: Mémoires de Guerre. L'appel : 1940-42, 1954, pp. 163-75.

بل على العرب أيضاً . وعلينا أن نذكر أن التصريح البريطانى الديجولى المشترك قد أوجد مثل هذه السابقة فى مصلحة العرب الذين أجروا تغييرات هامة فى نظم سوريا ولبنان الداخلية فى الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة .

كما وقف الألمان موقفاً سلبيًّا من طلب تركيا الخاص باحتلال شمالى سوريا إلى خط أبو كمال — طرابلس . وكان رد ريبنتروب كما يلى : إننا نجد أن من دواعى الوفاء من ناحيتنا ألا نقف ضد مصالح فرنسا فى المسألة السورية . ولهذا فلا يمكننا أن نرحب بطلب تركيا الخاص باحتلال شمالى سوريا » .

وعاد الجنود الفرنسيون إلى بلادهم . ومن بين العدد البالغ ٣٧٫٧٣٦ ضابطاً وجنديًّا أعلن ٥٫٦٦٨ انضمامهم إلى الديجوليين . وقد فقد جيش المشرق حوالى ١٫٠٠٠ قتيل على حين جرح حوالى ٥٫٠٠٠ ، ومنى الجانب البريطانى — الديجولى بخسائر مماثلة . حقيقة أن المحور ضاعت منه فرصة استعمال سوريا ، ولكن مما يجدر ذكره أن الألمان لم يبذلوا كل ما فى وسعهم للاحتفاظ بهذا الموقع . والسبب الحقيقى لذلك هو الحملة الروسية وبغض النازيين لفرنسا . حينئذ نشبت أزمة جديدة فى العلاقات الفرنسية — الألمانية على أثر سقوط نظام فيشى فى المشرق . فالحرب مع الاتحاد السوفييتى لم تضع ألمانيا فى موضع يمكنها من مساعدة الفرنسيين فى سوريا حتى بالدرجة التى تسمح بها الظروف السياسية والفنية. فقد رفضت لجنة الهدنة الألمانية أن تقدم لفرنسا دبابات سوموا وطائرات نقل[١] .

ومن المحتمل أيضاً أن الهجوم على الاتحاد السوفييتى قد أثر كثيراً فى العلاقات الألمانية — التركية أثناء الحملة السورية . فالألمان كانوا ينتظرون إحراز نصر حاسم على الاتحاد السوفييتى حتى يضغطوا على تركيا لكى تنضم إلى المحور بصفة

(١) فى ٧ يولية ١٩٤١ كتب الكولونيل لوربيو — أحد أعضاء البعثة الفرنسية فى لجنة الهدنة الألمانية — ما يلى : « . . لا يصل حسن نية لجنة الهدنة الألمانية إلى حد الإفراج عن قسط من المادة التى لا غنى لنا عنها . وليس من الصعب علينا أن نفهم هذا الموقف إذا ما وضعنا نصب أعيننا — بين أشياء أخرى — مدى ضراوة المعارك التى تدور رحاها الآن فى روسيا »

(D.F.C.C.A., IV, Paris, 1957, pp. 608-9).

نهائية . وقد عبرت التعليمات رقم ٣٠ عن الموقف العام للزعماء الألمان : « لن يتقرر إلا بعد بربار وسا هل يتأثر مركز إنجلترا فى المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى — فيما يتعلق بالهجوم على قناة السويس — وينهار نهائياً فى المستقبل . وينطبق هذا أيضاً على كيفية هذا الاندحار » .

الفصل العاشر

اتساع نطاق الحرب

وسياسة النازى العربية

فى ٢٢ يونية ١٩٤١ ، كما هو معروف ، شنت ألمانيا النازية هجومها على الاتحاد السوفييتى بعد أن استغرق الإعداد له عدة أشهر . وفى ديسمبر ، أى بعد أقل من ستة أشهر ، ضربت الطائرات اليابانية القاعدة الأمريكية فى بيرل هاربر وبدأت الحرب فى الشرق الأقصى .

وقد غير غزو هتلر للاتحاد السوفييتى مجرى الحرب العالمية الثانية تغييراً تاما . وعلى طول المدى حددت المعارك الدائرة على الجبهات السوفييتية مصير المعارك فى شمالى إفريقيا . فقد واجهت القوات المحورية مقاومة قوية فى الاتحاد السوفييتى ، وبرغم الانتصارات التى أحرزتها فى البداية ، أصيبت بهزيمة كبرى فى موسكو فى ديسمبر ١٩٤١ وأوقفت تماماً على نهر الفولجا فى نوفمبر ١٩٤٢ . وما حل خريف عام ١٩٤٢ حتى كانت قوات المحور قد فقدت المبادرة سواء فى الجبهات السوفييتية أو فى جبهات شمالى إفريقيا . ومنذ ذلك الوقت أرغمها الضغط السوفييتى والبريطانى والأمريكى على التراجع على طول الخط . وقد أدى التحالف بين هذه الدول الثلاث فى النهاية إلى حلول الكارثة بالمحور .

الموقف العسكرى والسياسى

قبل أن تنشب الحرب الألمانية — السوفييتية كانت بريطانيا فى موقف صعب جداً . وقبل أن يتأكد القادة الإنجليز من الهجوم على الاتحاد السوفييتى كانوا يخشون غزو ألمانيا للجزر البريطانية . كما كانوا يخشون مزيداً من العمليات النازية من البلقان صوب الجنوب الشرقى . وفى ٢٧ مايو أخلى البريطانيون كريت ، وكانت

الدلالات تشير إلى أن قبرص سيتم احتلالها بعد ذلك ، وإلى أن سوريا ولبنان ستتعرضان لغزوات أكبر . وكان يبدو أن خطراً عظيماً يهدد قناة السويس وبلدان الشرق الأوسط . ولكن الموقف بأسره تعدل حين حشد هتلر قواته في شرقي أوربا . . . .

وبعد الاستيلاء على كريت تحولت القوات الجوية الألمانية صوب الشمال لتعزيز عملية « بربا روسا » . وظلت وحدة الطيران رقم ١٠ لعدة أشهر هي التشكيل الوحيد للقوات الجوية الألمانية في البحر المتوسط — وقد انتقل مركز قيادتها من صقلية إلى بلاد اليونان ، وتوزعت على منطقة واسعة تضم شمالي إفريقيا وبحر إيجة. ولما كانت بعيدة عن الجبهة الرئيسية — روسيا — فإن القيادة لم تزودها بالموارد الكافية . وهكذا كانت تحتوى على حوالى ٢٥٠ طائرة صالحة للعمل في أي وقت من مجموع طائراتها البالغ ٤٥٠ . على أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن القوات الجوية الإيطالية كانت تعمل في هذه المنطقة ، ولكن يبدو أنها كانت أضعف من السلاح الجوى الألمانى .

كما سحب الألمان بعض الوحدات من إفريقيا واليونان ، واستبدلوا بها بعض القوات التي أحضروها من صقلية ، مما حسن وضع القاعدة البريطانية في مالطة . وسنرى أن تعزيز القوات الموجودة في شمالي إفريقيا قد تأجل دون أن يوقف .

وقد أثر حشد القسم الأكبر من القوات الجوية الألمانية على الجبهات الشرقية تأثيراً عكسياً على وضع قوات المحور في شمالي إفريقيا . فبعد يناير ١٩٤١ ، حين بدأ السلاح الجوى الألمانى عملياته في البحر المتوسط ، وجد البريطانيون صعوبة كبرى في تموين قواتهم في تلك المنطقة وأرغموا على إرسال القوافل بحراً حول رأس الرجاء الصالح وجواً عن طريق تاكورادى Takoradi على ساحل إفريقيا الواقع على المحيط الأطلنطى . ولما كانت قوة ألمانيا في البحر المتوسط قد ضعفت نتيجة لغزو الاتحاد السوفييتى ، فقد أرسل البريطانيون ثلاث قوافل إلى مالطة لعبت دوراً حاسماً في عمليات القتال التالية . كما تحسن الموقف بالنسبة إلى القاعدة البريطانية في مصر ، إذ أصبح باستطاعتها أن تحصل على المؤن والإمدادات بصورة أسهل . وفي الوقت نفسه أصبحت القوافل المحورية التي تحمل المؤن إلى قوات

المحور فى شمالى إفريقيا أكثر عرضة لهجمات القوات البحرية والجوية البريطانية .
ففى الفترة الممتدة بين يونية وأكتوبر ١٩٤١ تم إغراق قدر ضخم من المؤن المرسلة
إلى شمالى إفريقيا ، مما جعل من الصعب بالنسبة إلى روميل أن يقوم بهجوم فى ذلك
الوقت . بل إن سيركلود أوكنلك ــ الذى تولى القيادة العامة فى الشرق الأوسط بدلا
من ويفل (٣٠ يونية ١٩٤١) ــ قام بالهجوم فى١٨نوفمبر . وبرغم الضغط الذى
كان يباشره تشرشل ومجلس وزراء الحرب فى لندن ، تأجل قرار القيام بالهجوم ــ
وربما كان هذا هو السبب فى أن البريطانيين لم يستغلوا الفرصة فى الجبهة الغربية ،
وهى الفرصة التى وفرها حشد القوات الألمانية فى الاتحاد السوفييتى . ويجب أن
نضيف هنا أن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا فى عام ١٩٤١ تقدمان مساعدة
قليلة للاتحاد السوفييتى ، لأن دوائرهما الحاكمة كانتا تتوقع نصراً ألمانيا سريعاً
يرغم الاتحاد السوفييتى على التقهقر شرقاً إلى مسافة بعيدة ويستبعده باعتباره عاملا
له أهمية عسكرية .

ولهذا ففى الفترة التى أمكن لبريطانيا فيها أن تسترد أنفاسها ، وهى الفترة التى
استمرت ستة أشهر ، استطاعت أن تركز قواتها وتستفيد من المساعدة الأمريكية
فى جبهة شمالى إفريقيا .

ويرجع نجاح بريطانيا فى تدعيم مراكزها العسكرية والسياسية فى الشرق
الأوسط إلى حد كبير إلى التغيير الأساسى الذى طرأ على توجيه الهجوم الألمانى ــ
فقبل عام ١٩٤١ كان الهدف الرئيسى للنازيين هو احتلال إنجلترا ، ومنذ ذلك
الوقت أصبح هذا الهدف هو إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتى . وبعد القضاء على
الثورة الوطنية فى العراق وتصفية نظام فيشى فى سوريا ولبنان جاء دورإيران .
ففى نهاية أغسطس ١٩٤١ دخلت القوات البريطانية إيران من الجنوب ودخلتها
القوات السوفييتية من الشمال . وكان الهدف من هذه الخطوة هو القضاء على خطر
التخريب الألمانى فى إيران وتسهيل إيصال المؤن إلى الاتحاد السوفييتى من الولايات
المتحدة وإنجلترا . وكان قرار بريطانيا الخاص باحتلال إيران ــ وفقاً لما كتبه
تشرشل فيما بعد ــ راجعاً فى أساسه إلى الخوف من هجوم الألمان على الشرق الأوسط
من ناحية القوقاز . هذا بالإضافة إلى أن المملكة المتحدة كانت ترغب فى السيطرة
على كل المنطقة الممتدة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط .

ولم يلعب التغيير الذى طرأ على الموقف السياسى بعد غزو ألمانيا للاتحاد السوفييتى وقيام تحالف مناهض للفاشية دوراً هيناً فى تطور الموقف السياسى فى بلدان البحر المتوسط .

حقيقة أن القوميين العرب ، وبخاصة جناح أقصى اليمين ، قد حصلوا حينئذ على حجة جديدة ضد بريطانيا : تحالفها مع « السوفييت اللادينيين » الذين كان المحور يحاربهم بشجاعة . وكان موقف قسم كبير من طبقة الملاك العرب ممن كانوا يثقون فى انتصار المحور يتميز بالفتور ، إن لم يكن بالعداء ، من التحالف الإنجليزى — السوفييتى . أما الجناح اليسارى الذى كان قبل ذلك يقلل من شأن مدى علاقات اليمينيين بالمحور ، فقد ساند بريطانيا بوضوح فى ذلك الوقت . ولم تكن هذه المساندة قليلة الأهمية بالنسبة إلى فلسطين ومصر وكذلك سوريا ولبنان . فقد أثرت بوجه خاص فى سياسة ونشاطات الاتحادات العمالية التى نمت بسرعة بنمو الطبقة العاملة . فكثير من العرب وجدوا عملا فى المعسكرات الحربية وفى ورش التصليح وغير ذلك من الخدمات الخاصة بالقوات المسلحة — ولهذا فمما لا يتطرق إليه الشك أن القوميين العرب لم ينفضوا عن دول المحور بصورة جماعية إلا فى عام ١٩٤٣ .

وأخذت الدعاية لمصلحة الحلفاء تزداد تحت تأثير الجناح اليسارى وقيادة الشيوعيين . وأخذت تظهر عصابات هدفها مساعدة الاتحاد السوفييتى ، على حين ازداد نشاط اتحادات العمال العربية ونوادى المثقفين التقدمية المعادية للفاشية والمحور[١] .

---

(١) لا يوجد حتى الآن كتاب علمى يناقش باستفاضة الدور الذى لعبه اليسار والشيوعيون فى النضال ضد الفاشية فى الشرق الأوسط . ويخصص ولتر لاكير لهذا الموضوع بعض الصفحات فى كتابه : Communism and Nationalismin the Middle East
الفصول الثالث والثامن والحادى عشر والرابع عشر .

مغزى النضال الدائر
فى البحر المتوسط

هذه هى النتائج المباشرة لهجوم هتلر على الاتحاد السوفييتى . ولكن الآثار الباقية لحشد الجيش الألمانى فى شرق أوربا لم تتضح إلا فيما بعد - فى صيف وخريف عام ١٩٤٢ . على أن الموقف فى البحر المتوسط كان قبل ذلك قد أصبح شديد التعقيد . وكان على البريطانيين أن يواجهوا أخطاراً جديدة ، إذ كانت تنتظرهم هناك نكسات وهزائم جديدة . ولم يكن باستطاعة واضعى استراتيجية هتلر أن يتجاهلوا البحر المتوسط طالما كانت توجد بجبهة إفريقية تشغل قسطاً كبيراً من القوات الألمانية . وكان الجنرال روميل ، القائد العام لهذه القوات ، يتمتع بتأثير على حاشية هتلر ، وقد أبدى الفوهرر اهتماماً خاصا به ، وحتى لو رغب الألمان فى تجميد هذه الجبهة ، فإنهم كانت تعوزهم حرية اتخاذ القرارات فى مواجهة أعدائهم ، ولم يكن ثمة أى شك فى أن فشل هذه الجبهة كان لابد أن يكون له أثر سيئ على روح الإيطاليين المعنوية وكذلك على موقف تركيا وفرنسا ؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن طرد قوات المحور من شمالى إفريقيا كان يعنى أن خطة هتلر الخاصة بالدفاع عن أوربا ستتعرض لتهديد مباشر من ناحية الجنوب .

وحين قرر هتلر مهاجمة الاتحاد السوفييتى كان يأمل أن تستطيع قوات المحور فى غربى أوربا وشمالى إفريقيا الاقتصار على الدفاع فى أثناء القتال الدائر مع الجيش الأحمر[١] . كما كانت القيادة الألمانية تعول على تقديم إيطاليا القوات المسلحة اللازمة وجزءاً كبيراً من العتاد . كما كان يتوقع من الإيطاليين أن يعنوا بالدفاع عن القوافل البحرية المتجهة إلى شمالى إفريقيا ، وكان ذلك من الأسباب

(١) ورد فى الرسالة التى بعث بها هتلر إلى موسولينى فى ٢١ يونية ١٩٤١ مايلى : « إننا لا نفكر بأى شكل فى شن هجوم على مصر قبل الخريف » . و « فيما يتعلق بالحرب الجوية ضد إنجلترا سنلتزم بالدفاع بعض الوقت »

Les Lettres secrètes échangées par Hitler et Mussolini, Paris, 1946, pp. 126-128.

D.G.F.P., XII, no. 660, pp. 1067-8.

التي جعلت هتلر يثني موسوليني عن إرسال قوات كبيرة إلى الجبهات السوفييتية . ولكن الفوهرر عدل رأيه حين ساء وضع قواته هناك إلى حد كبير .

ولم يكن باستطاعة الإنجليز ، حتى لو شاءوا ، أن يجمدوا جبهة البحر المتوسط في غضون الموقف الجديد الذي ظهر . فقد كانت هذه الجبهة هي الوحيدة التي كانت القوات البريطانية تواجه فيها العدو ، هذا بالإضافة إلى النشاط الجوى فوق ألمانيا . وكان تشرشل ومعاونوه يودون الإفادة من انشغال القسم الأكبر من القوات الألمانية في الاتحاد السوفييتي لكي يحسنوا وضع بريطانيا في شمالي إفريقيا إلى أقصى درجة ممكنه . كما كانت ثمة اعتبارات سياسية هامة تملى تحريم هذه الجبهة ، في الوقت الذي طالب فيه الرأي العام باستخدام كل الإمكانيات لمساعدة الاتحاد السوفييتي . فلم يكن من المناسب أن يهزم الجيش السوفييتي الألمان دون أن تشترك القوات البريطانية في ذلك ، على حين أن هزيمة الجيش السوفييتي كانت تعني فقدان إنجلترا فرصة مهاجمة العدو في أنسب وقت — وحينئذ تتعرض الحكومة للهجوم الخاص بأنها لم تعمل شيئاً لمساعدة الاتحاد السوفييتي . ولكل هذه الأسباب ظلت الحكومة البريطانية تضغط على أوكنلك لكي يشن هجوماً . وفي النهاية قام أوكنلك بهجومه في ١٨ نوفمبر ١٩٤١ . وقد أوقعت عملية كروسيدر هزائم شديدة بقوات المحور ، وبحلول أول يناير ١٩٤٢ لم تقم قوات أوكنلك فقط برفع الحصار المفروض على طبرق ، بل إنها تقدمت إلى العجيلة — أي إلى الموقع الذي انتزعه روميل من البريطانيين في ربيع عام ١٩٤١ .ومن أهم أسباب الهزائم الخسائر الجسيمة التي حلت بقوافل نقل المحور المتجهة إلى شمالي إفريقيا .

وهكذا قيض للبحر المتوسط أن يلعب دوراً هاماً في استراتيجية ألمانيا باعتبارها دولة معادية لبريطانيا ومتحالفة مع إيطاليا .

وفي الرسالة التي بعث بها هتلر إلى موسوليني في ٢٠ نوفمبر ١٩٤٠ ، اعتبر العمليات الحربية في البحر المتوسط ومحاربة الاتحاد السوفييتي مرحلتين متتاليتين من الحرب ، كما سبق أن أوضحنا — وفي المؤتمر الذي عقده هتلر مع قادته العسكريين (في ٣ فبراير ١٩٤١ — وقد سبقت الإشارة إليه) أشار إلى جبهة البحر المتوسط باعتبارها جبهة ثانوية تعرقل حشد كل القوات في شرقي

أوربا . وتعتبر التعليمات رقم ٣٠ الصادرة بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٤١ بصدد مساعدة العراق (وقد صدرت فى وقت كان من الواضح فيه أن الهجوم على الاتحاد السوفييتى قد تأجل نتيجة للقتال فى البلقان) — الأحداث فى ذلك البلد مسألة محلية . ويتضح من رسالة هتلر إلى موسولينى المؤرخة ٢٠ نوفمبر ١٩٤٠ أن هتلر كان يود شل القوات البريطانية فى البحر المتوسط قبل مهاجمة الاتحاد السوفييتى . فى حين أنه أشار إلى تأجيل الضربة القاضية واحتلال بلدان الشرق الأوسط حتى خريف ١٩٤١ — أى حتى الموعد الذى حدده لإنهاء الحرب ضد الاتحاد السوفييتى . وقد ورد ذكر هذه الخطة من جديد فى التعليمات رقم ٣٠ .

الخطط الاستراتيجية
التى تلت بربا روسا

وهكذا كانت الاعتبارات الاستراتيجية لدى القيادة العليا فيما يتعلق بحشد القوات الألمانية وقوات الدول الدائرة فى فلكها فى الجبهات الشرقية هى التى أدت إلى إضعاف القوات النازية مؤقتاً فى الشرق الأوسط وإلى القرار الخاص بتجنب التوسع فى النشاط فى تلك المنطقة . ولكن كان من المتوخى طبقاً لهذه الخطط أن تستغرق عملية بربا روسا وقتاً قصيراً . وكان هتلر فى البداية يتوقع أن تستغرق عملية بربا روسا ثلاثة أشهر . وكان من المتوقع بانتهاء هذه الفترة أن تحل الهزيمة بالجيش السوفييتى ويطرد عبر نهر الفولجا وتنتهى خطورته — وكان من المتوخى أن يتم كل ذلك بحلول خريف عام ١٩٤١ . وكان من المتوخى أن تبقى قوات احتلال كبيرة فى الاتحاد السوفييتى ، على أن توجه القوات الرئيسية للعمل ضد إنجلترا . وكان من الواجب فى هذه المرة ، ربما تحت تأثير تجارب معركة كريت ، ألا تركز الاستراتيجية النازية على القيام بغزو مباشر للجزر البريطانية ، بل كان عليها أن تقوم بهجوم غير مباشر يرغم إنجلترا على التسليم قبل أن يحشد الأمريكان كل قواتهم .

وكانت الخطط تعد خلال شتاء عام ١٩٤١ لمتابعة عملية بربا روسا .

وقد كشف هالدر فى يوميات الحرب التى كتبها أن هتلر أصدر أوامره فى أواخر فبراير بإعداد خطط لغزو أفغانستان وإيران والهند ، على أن يسبق ذلك الاستيلاء على الاتحاد السوفييتى . كما أنه فكر فى متابعة بربا روسا بالاستيلاء على جبل طارق ومالطة وشمال إفريقيا الفرنسى ، ثم بمهاجمة مصر بلوائين مصفحين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من المتوخى أن يعاد تنظيم القوات المسلحة على نطاق واسع بعد بربا روسا . وكان من المتوخى إنشاء كثير من الكتائب المدربة تدريباً خاصاً والمصفحة والممكننة ، سواء أكانت من المشاة أم من القوات الجبلية ، على أن تزود بعتاد مدارى . بل لقد قدم اقتراح بتخصيص قوات ميدان لمراكش الإسبانية وشمالى إفريقيا ؛ بما فيه مصر ، والأناضول وأفغانستان[1].

وقد صدرت التعليمات الخاصة رقم ٣٢ بخصوص مجرى الحرب فى المستقبل عشية الحملة الروسية — ١١ يونيه ١٩٤١ . وكان أساس هذه الوثيقة افتراض سيطرة الجيوش الألمانية والإيطالية على كل القارة الأوربية بعد أن يتم تحطيم قوات الاتحاد السوفييتى المسلحة ؛ وحينئذ يكون من الممكن استدراج إسبانيا وتركيا وإيران إلى الحرب فى صف المحور . وكان القضاء على كل خطر كبير من الناحية البرية كفيلا بتمكين ألمانيا من تخفيض قواتها البرية ونقل مركز الثقل إلى القوات البحرية والجوية التى كان من المتوخى أن تلعب دوراً حاسماً فى معركة إنجلترا . وبهذا الصدد كانت التعليمات رقم ٢١ التى كانت تحتوى على التوجيهات الرئيسية الخاصة بعملية بربا روسا تتوقع أن يكون الأسطول هو السلاح الأول فى محاربة إنجلترا ، برغم معارك شرقى أوربا . ووفقاً للتعليمات رقم ٣٢ كانت المهام الاستراتيجية الواجب على الجيش الألمانى أن يقوم بها فى أواخر خريف عام ١٩٤١ وفى شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ كالآتى :

(١) تنظيم واستغلال البلدان التى تم الاستيلاء عليها وشيكاً فى الشرق — (٦٠ فرقة) وأن يعهد بذلك إلى القوات المسلحة والجوية التابعة لدول الحلفاء والدول الصديقة .

(٢) مواصلة الحرب ضد إنجلترا فى البحر المتوسط والشرق الأدنى .

---

(١) هالدر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ (مذكرات ٧ إبريل الخاصة باجتماع مع هويسنجر Heusinger الذى يبدو أنه كان مسئولا عن هذه المسائل) .

(٣) الاستيلاء على جبل طارق وإغلاق البحر المتوسط من ناحية الغرب .

(٤) متابعة « حصار إنجلترا » حصاراً تامًّا بالأسطول الألمانى والقوات الجوية الألمانية ، لشغل القوات البريطانية فى بريطانيا ذاتها والانتهاء بعمليات إنزال فى بريطانيا حين تكون على وشك التفكك والانهيار .

وقد استفاضت التعليمات رقم ٣٢ فى تناول شئون الشرق الأوسط . وكان واضعو الاستراتيجية الألمانية يتوقعون « هجوماً مركزاً من ليبيا عبر مصر ، ومن بلغاريا عبر تركيا ، وربما من القوقاز عبر إيران » . وحتى يتم تنفيذ هذه الخطة كانوا يهدفون إلى : (ا) الاستيلاء على طبرق وتوفير قاعدة للقيام بهجوم على قناة السويس (ب) حشد قوة كبيرة فى بلغاريا فى أسرع وقت ممكن لإجبار تركيا على الاستسلام ولتنظيم هجوم على قناة السويس عبر تركيا وسوريا وفلسطين (وقد بنى مؤلفو هذه التوجيهات الحاجة إلى مثل هذه الحملة على افتراض أن من المحتمل أن يحشد البريطانيون احتياطيات حربية فى منطقة القناة) ، (حـ) فيما يتصل بالعملية التى تتناولها الفقرة (ب) يتم إعداد قوة ميكانيكية لإرسالها من القوقاز إلى العراق ، (د) استغلال حركة التحرير العربية . وقد شكا واضعو هذه التوجيهات من عدم إمكان تحديد تاريخ فى المستقبل القريب لبدء العمليات الحربية فى البحر المتوسط والشرق الأوسط . ولكنهم رأوا أنه سيتم الحصول على أحسن النتائج من القيام فى نفس الوقت بهجوم على « جبل طارق ومصر وفلسطين» وأن التنسيق المطلوب للعمليات الحربية يتوقف أولا على قوة سلاح الطيران الألمانى . واقترح شهر نوفمبر لتنفيذ العملية التى تتضمنها الفقرة(ب) — أى الاستيلاء على طبرق والإعداد للهجوم على قناة السويس . ولهذا نستنتج أنه كان من المتوخى أن تنفذ الخطة برمتها بعد أشهر قليلة .

وكانت هذه الخطة هى سر النشاط المحموم الذى كان يقوم به الأركان الألمان الذين كانوا يعدون خطط الحرب فى المستقبل . وبإمكاننا أن نذكر أن هذه الخطط لم تكن جديدة تماماً : فقد سبق لبراوشتش وهالدر وباولوس أن عبروا عنها فى خريف عام ١٩٤٠ بعد انهيار خطة « سبع البحر » . ولكنها فى ذلك الوقت كانت تقوم على أساس جديد تماماً : أى إحراز النصر على الاتحاد

السوفييتى ، لا الاستغلال الأشمل للتحالف مع إيطاليا للقيام بعمليات أوسع فى البحر المتوسط .

وقد نصت خطة يوليه ١٩٤١ التى وضعتها الأركان العامة الألمانية على الانتهاء من عملية بارباروسا فى الخريف ، وحينئذ يأتى دور الهجوم على إيران فى شتاء ١٩٤١ — ٤٢ وفى نفس الوقت كان على عشر فرق — خمس منها مصفحة وميكانيكية — أن تزحف بموافقة تركيا على سوريا والعراق عبر الأناضول . ولكن فى حالة مقاومة تركيا ، برغم انتصار النازيين على الاتحاد السوفييتى ، كان الأمر يستلزم ٢٠ فرقة ، وكان لايمكن تنفيذ الخطة إلا بحلول ربيع عام ١٩٤٢ .

وبشكل أو آخر كانت خطط مماثلة توجه وضع الاستراتيجية البحرية فيما يتعلق بالحرب . وقد تضمنت خطة ٨ أغسطس ١٩٤١ تعزيز قوات المحور فى شمالى إفريقيا بقصد الاستيلاء على طبرق التى كانت تشكل عقبة فى طريق الهجوم على مصر . وبالإضافة إلى ذلك كان من المتوخى أن يحتل الألمان جبل طارق بالاشتراك مع إسبانيا (العملية فليث) — وكان موعد تنفيذها هو عام ١٩٤١ . وبالإضافة إلى ذلك اقترحت القيادة البحرية القيام بهجوم على سوريا وفلسطين فى اتجاه مصر عبر تركيا ، بالإضافة إلى الهجوم على مصر من ليبيا فى أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ . أما فيما يتعلق بربيع عام ١٩٤٢ فقد وضعت خطط القيام بهجوم من القوقاز فى اتجاه الخليج (العربى) وكذلك العراق وسوريا ومصر . وكان من المتوخى أن تنفذ هذا الهجوم قوة ميكانيكية . وكانت الخطط مبنية على افتراض أن تركيا ستنضم إلى المحور بعد اندحار الاتحاد السوفييتى . ولكن كان يجب تأجيل الهجوم على سوريا عبر الأناضول حتى ربيع عام ١٩٤٢ فى حالة عدم قيام تركيا بذلك . وقد توقع واضعو استراتيجية هتلر أنهم سيحققون أهدافهم فى ٨٥ يوماً إذا ما وافقت تركيا ، وفى ١٤٥ يوماً إذا لم توافق . وكان من رأى القيادة البحرية أن تنفيذ الخطط يتطلب ليس فقط تعاون تركيا . بل أيضاً تعاون فرنسا — إذ أن تنظيم النقل وإعداد قوات المحور إعداداً كافياً كان يتضمن استخدام الأملاك الفرنسية فى إفريقيا .

ولم تشغل البلدان العربية مكاناً ضئيلا فى هذه الخطط . فالتعليمات رقم ٣٢

كانت توقع زعزعة مركز إنجلترا فى الشرق الأوسط إلى حد كبير إذا ما نشبت القلاقل هناك فى الوقت المناسب[1] ودعت إلى تنسيق النشاط الحربى والسياسى والدعائى الذى كان الهدف منه إثارة القلاقل فى البلدان العربية . وكان من المتوخى أن تكون سوندرستاب ف محور هذا النشاط .

وفى ٢١ يونيه ١٩٤١ صدرت تعليمات خاصة بالعمليات إلى سوندرستاب ف ، وقع عليها القائد العام للقوات المسلحة الألمانية كايتل . وقد وضعت الخطوط العريضة للمهام الآتيه : (ا) الاتصال بالقوى المعادية للبريطانيين فى الشرق الأوسط ودفعها إلى اتخاذ إجراءات فى الوقت المناسب لمساندة العمليات الحربية الألمانية (ب) تزويد الجيش الألمانى بمعلومات عن كل بلد فى الشرق الأوسط، (ج) تنظيم تزويد هذه البلدان بالأسلحة ، (د) تدريب قادة وعملاء للقيام بعمليات سرية معادية لبريطانيا ، وخصص للجنرال فلمى خبراء وعملاء مدربون ووضعت خطة لإنشاء وحدة خاصة تتكون من فصيلة مجهزة بأنواع مختلفة من الأسلحة . وكان من المتوخى أن ترسل سوندرستاب ف . هيئة اتصال إلى سوريا[2] حيث كان القتال لايزال دائراً حين صدرت التعليمات وكان عليها أن تقيم اتصالا بالملحقين العسكريين الألمان فى أنقرة وطهران . وكان من المتوخى أن يعمل جروبا بصفته أداة اتصال لحساب وزارة الخارجية الألمانية[3].

وقد ظهرت هذه الخطط فى وقت كان فيه القادة السياسيون والعسكريون فى ألمانيا الاستعمارية قد أثملتهم أنتصاراتهم فى بولندة وفرنسا والبلقان بحيث فقدوا كل تقدير لإمكانياتهم الحقيقية . ولم يقيض إلا لقليل من هذه الخطط أن يرى النور . ويقتصر أمرها على أنها تدل على الأهداف التى بيتها النازيون للبلدان العربية — وسنرى أن إجراءاتهم السياسية كانت تعتمد على هذه الخطط . ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن خطر الهجوم على الشرق الأوسط من ناحية الشمال

(١) بإمكاننا أن نستنتج أن الدرس الذى تلقنه واضعو التعليمات من الثورة العراقية جعلهم يؤكدون الحاجة إلى تنسيق الخطوات المحلية مع العمليات الحربية الألمانية .

(٢) سبق أن ذكرنا أن الكولونل ماير — ركس ، أحد رجال سوندرتاب ف ، وصل إلى سوريا فى أواسط يونيه .

(٣) لم يكن توزيع المسئولية بين سوندرستاب ف ووزارة الخارجية الألمانية يتميز بالوضوح ، حيث تسبب فى صراعات معظمها ذو طبيعة تتصل بالهيبة الشخصية .

كان يمثل كابوساً حقيقياً بالنسبة إلى القيادة البريطانية خلال النصف الثانى من عام ١٩٤١ وقسط كبير من عام ١٩٤٢ . وقد كتب مؤرخ إنجلترا الرسمى ما يلى : « ولكن كانت المسألة إلى أى مدى ستقاوم روسيا ؟ ففى حالة انهيارها ستتوفر قوات كبيرة صالحة للاستعمال فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وسيصبح الشرق الأوسط عرضة للهجوم من اتجاه جديد » . وكان الخطر يتمثل فى أذهان القادة العاملين باستمرار لفترة تزيد على عام . ولن يكون بإمكاننا أن نفهم كثيراً من قراراتهم فهما سليماً إلا فى حالة تحقق هذا الاحتمال . ونحن نعرف الآن أن التهديد لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، ولكن لم يكن من المأمون بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أنه لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، ولم يكن باستطاعة البريطانيين أن يقوموا بالكثير فى التصدى لمثل هذا الهجوم القادم من الشمال . وفى عام ١٩٤٢ كانوا لايزالون يعملون حساباً لاحتمال أن تجدد هجوم ألمانيا على الجبهة السوفييتية سيتلوه هجوم على إيران لم يكن باستطاعتهم أن يقوموا بالكثير لمنع وقوعه . وقد كتب القادة العامون لقوات الشرق الأوسط فى يناير ١٩٤٢ ، معبرين عن رأيهم الخاص بالموقف الذى أوجده ظهور جبهة جديدة فى الشرط الأوسط مايلى : « نحن فى الواقع نعتمد على حدوث هذا الهجوم » . ونحن نعلم أن الهجوم المتوقع لم يحدث ، لأن القوات السوفييتية أوقفت الغزاة برغم آمال المحور ومخاوف الحلفاء .

فشل بربار وسا
والهجوم اليابانى على بيرل هاربر

ونتيجة للمقاومة الصلبة التى أبداها الجيش الأحمر ، لم تستطع ألمانيا النازية أن تحقق الأهداف التى علقتها على الهجوم على الاتحاد السوفييتى ، فانهارت خطة الهجوم على بلدان الشرق الأوسط من الشمال والشرق . ولكن فشل بربا روسا كان له أثر مخالف فى الشرق الأوسط : فقد أبرز مسألة البلدان العربية من جديد قبل الانتصار النازى فى روسيا .

وبموافقة هتلر صدرت مذكرة فى ٢٨ أغسطس ١٩٤١ كان من المتوخى أن توزع على نطاق محدود جداً ، جاء فيها لأول مرة أن الجيش الألمانى قد لايحقق

خلال ذلك العام أهدافه فى الاتحاد السوفييتى – أى الاستيلاء على آبار البترول فى القوقاز وعلى الفولجا وأركانجل ومورمانسك . ومضت المذكرة تقول إن القتال سيستمر فى هذه الحالة خلال عام ١٩٤٢ ، وأن نتائج خطيرة ستتمخض عن ذلك وبوجه خاص بالنسبة إلى الشرق الأوسط. وتوقع واضعو المذكرة فيما توقعوه أن الاتحاد السوفييتى والمملكة المتحدة سيقومان بإجراءات مباشرة فى إيران (وبالفعل عبرت قوات سوفييتية وبريطانية الحدود الإيرانية فى ٢٥ أغسطس) . وكان من المتوقع أن يتأخر الاصطدام بين اليابان وروسيا ، وكان من المحتمل أن لا تدخل تركيا وإسبانيا إلى جانب المحور وأن تواصل فرنسا سياستها القائمة على الترقب الحذر وتحسين وضعها الخاص . ومن ناحية أخرى كان من المتوقع أن تقوى إنجلترا وضعها فى الشرق الأوسط ، فيمكنها بوجه خاص أن تدعم قواتها فى مصر وتستغل مساعدة الولايات المتحدة دون عوائق . وفى حالة عدم قيام ألمانيا بعمل مضاد تقوم إنجلترا بطرد المحور من شمالى إفريقيا وتتحكم فى البحر المتوسط دون منازع . وقد توصل واضعو المذكرة من التحليل السابق إلى النتائج الآتية : لا تزال مهمة ألمانيا الرئيسية هى إنزال الهزيمة بالروس ومن واجبها ألا تقوم بمواجهة بريطانيا إلا بعد دحر الاتحاد السوفييتى . ولكن كان لابد قبل ذلك من تحويل غواصات وكاسحات ألغام وزوارق طوربيد إلى البحر المتوسط ، وكذلك مواصلة «حصار إنجلترا» بكل الوسائل الممكنة . وكان يستحسن لو استطاع الألمان استغلال القواعد الفرنسية والإسبانية – ولكن هذا كان لا يمكن أن يتم إلا بموافقة پتان وفرانكو. وذهب واضعو المذكرة إلى ضرورة توثيق العلاقات السياسية والعسكرية مع فرنسا وإسبانيا ، ولكن على ألا تدخلا الحرب ، لأن ألمانيا لم تكن لديها القوات الكافية لمساعدتهما . ومن ناحية أخرى ستكون لدخول تركيا الحرب ميزة عسكرية كبرى فى أى وقت – وكلما كان مبكراً كان أحسن . وكان من رأى واضعى المذكرة أن اشتراك تركيا فى الحرب سيشغل قوات سوفييتية وبريطانية كبيرة ، ويسمح بسرعة الاستيلاء على منطقة البترول فى القوقاز ، ويضع الألمان فى موضع يمكنهم من مهاجمة مصر عن طريق شرق الأردن فى عام ١٩٤٢ .

وفى بداية سبتمبر حددت هيئتا الأركان الألمانية والإيطالية أوائل نوفمبر ١٩٤١ باعتبارها موعد الاستيلاء على طبرق . ولكن ثبتت استحالة ذلك بسبب الخسائر

الجسيمة التى منيت بها قوافل المحور فى البحر المتوسط . وفى ظل هذا الموقف صدرت الأوامر إلى الفرقة الجوية رقم ١٠ بأن تقوم بحماية القوافل . وبالتدريج تحولت الغواصات الألمانية إلى البحر المتوسط ، وبحلول أواخر ديسمبر بلغ عددها ٢١ غواصة . كما تقرر تحويل الفرقة الجوية رقم ٢ من الجبهة الشرقية والأسطول الجوى رقم ٢ — ولكن هذا لم يتحقق بحلول خريف تلك السنة . وعين كسلرنج قائداً عاماً للجبهة الجنوبية ، ووصل إلى روما فى ٢٨ نوفبر . وطبقاً للتعليمات رقم ٣٨ الصادرة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ كانت مهمته إحراز التفوق البحرى والجوى فى المنطقة الممتدة بين جنوبى إيطاليا وشمالى إفريقيا ، وبهذلك يؤمن مواصلات المحور . كما كان من المتوخى أن يتعاون كسلرنج مع القوات الإيطالية فى شمالى إفريقيا ، وأن يقطع مواصلات بريطانيا فى البحر المتوسط . وقد وجه اهتماما خاصاً إلى الحاجة إلى شل القاعدة البريطانية فى مالطة .

وطبقاً لما نصت عليه التعليمات رقم ٣٢ تلقت قوات المحور فى شمالى إفريقيا بعض التعزيزات فى صيف وخريف ١٩٤١ : فرقة ألمانية أعدت خصيصاً للخدمة فى إفريقيا ، وفرقة إيطالية ميكانيكية ووحدات مدفعية . ولكن لم ترسل دبابات جديدة. ويجب أن نعزو زيادة عددها من ١٨٠ إلى ٢٥٠ إلى إصلاح ما عطب منها . وكان تعيين كسلرنج تتويجاً لسلسلة من الإجراءات العسكرية التى ضخمت دور ألمانيا فى البحر المتوسط وحددت حرية إيطاليا فى العمل بشكل خطير . وقد أشارت التعليمات رقم ٣٨ بوضوح إلى توسيع وضمان وضع ألمانيا الخاص فى البحر المتوسط وحصول الريخ على نفوذ كبير فيما يتعلق بالمزيد من تحريك الموقف فى تلك المنطقة .

وقد تمخضت الإجراءات التى اتخذت على الجبهة الجنوبية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه ، عن أثر مخالف بالنسبة إلى وضع بريطانيا فى شمالى إفريقيا . وبحلول نهاية عام ١٩٤١ برزت أحداث أخرى كان لها تأثير كبير على الموقف فى الشرق الأوسط .

فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ هاجمت اليابان القاعدة الأمريكية فى بيرل هاربر ، واستغل اليابانيون تفوقهم الجوى والبحرى نتيجة لتحطيم الأسطول الأمريكى والسفن الحربية البريطانية قرب الشاطئ الهندى (١٠ ديسمبر ١٩٤١) واحتلوا الفلبين

والملايو وبورما والهند الشرقية البريطانية فى وقت قصير . وبحلول ابريل ١٩٤٢ كان اليابانيون قد وصلوا إلى الحدود الشمالية الشرقية للهند البريطانية . ولمواجهة هذا الموقف أرسل البريطانيون إلى الشرق الأقصى تعزيزات كانت مخصصة فى الأصل للجبهة الإفريقية . ونقل إلى هناك عدد قليل من الوحدات من الشرق الأوسط .

وبازدياد تقدم اليابان فى المحيط الهادى ، ازداد أيضاً ضغط أستراليا ونيوزيلندا على مجلس الوزراء البريطانى لكى يسمح بعودة قواتهما الحربية التى كانت تشكل جزءاً كبيراً من الجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط . وفى النهاية وافقت لندن على ذلك .

عام ١٩٤٢

شهد قسط كبير من عام ١٩٤٢ انتصارات محورية على كل الجبهات . وكان الألمان يعدون لهجوم جديد فى اتجاه قناة السويس ، فى الوقت الذى كانت فيه وكالاتهم العسكرية والسياسية منهمكة فى القيام بنشاط دعائى . وبالإضافة إلى ذلك فقد حفزت الحملة الروسية التوسع فى أوجه النشاط هذه ، ليس فقط فيما يتعلق بالدعاية المعادية للشيوعية ، بل أيضاً فيما يتعلق بالسكان المسلمين . كما أقام الألمان صلات مع الزعيم الوطنى الهندى سبهاس شاندرا بوس Subhas Chandra Bose وكانت هيئـــة سوندرستاب ف ، فى الأصل مهتمة بالشئون العربية ، ولكنها مالبثت أن وسعت مجال عملها بحيث شمل الهند . وكانت توجد خطة تقضى بضم وحدات عربية وهندية — معظمها من أسرى الحرب — إلى القوات الألمانية العاملة فى الشرق الأوسط . وبسبب ازدياد عدد الوكالات المهتمة بمشكلات الشرق الأوسط جرى توزيع العمل فى وزارة الخارجية الألمانية — فوكلت الإدارة العامة للشئون الشرقية إلى إرنست فورمان — وكيل الوزارة ومدير القسم السياسى — وتم تعيين سفير ألمانيا فى نيودلهى فى فترة ما بعد الحرب — ملشرز — مديراً لمكتبه ، كما عين موظف آخر من القسم السياسى السابع — واسمه شلوبيز Schlobies — مساعداً له . وكان على وكيل الوزارة كبلر Keppler ، يساعده كاب Kapp ودكتور تروت زوسولتز Trott zu Solz — المسئول عن

الشئون الهندية والفرقة الهندية — أن يقيم اتصالات مع بوس . وعهدت شئون العراق إلى دكتور فرتز جروبا يساعده فون فالكنشتاين ، كما كان عليه أن يراقب انتظام الاتصالات مع سوندرستاب ف والزعماء العرب : الحاج أمين الحسيني ورشيد عالى الكيلانى وفوزى القاوقجى — وكانوا قد وصلوا إلى أوربا . وكان على فون هنتج[١] أن يهتم بحركة الجامعة الطورانية وبالاتصال بالوطنيين الإيرانيين وخديو مصر السابق عباس حلمى .

وبرغم وجود جبهة فى شمالى إفريقيا ، فإن برلين جعلت القيام بمزيد من النشاط فى العالم العربى متوقفاً على الحملة السوفييتية — أى على القطاع الجنوبى من الجبهة . وقد صرح هتلر فى مقابلة تمت بينه وبين المفتى فى ٢٨ نوفمبر بما يلى : « . . سنصل فى قتالنا . . . إلى جنوبى القوقاز . . . ثم سندق ساعة تحرير العرب . » ويتفق هذا مع تقدير براوشتش للاحتمالات العسكرية . وكان من المعتقد أن ليبيا لايمكنها إلا أن تكون مسرحاً ثانوياً للحرب ، لأن قدرة بريطانيا على حشد التعزيزات والمؤن هناك كانت تفوق قدرة ألمانيا — ولهذا أكد وجوب بناء استراتيجية الريخ على مهاجمة مصر من اتجاهين : الغرب والشمال . ومن النقاط التى وضعت ليسترشد بها هجوم الصيف أن الاستيلاء على تفليس كان يجب أن يسجل نقطة تحول فى سياسة الريخ العربية . فالمحور كان يود أن يعلن من عاصمة جورجيا قيام حكومة عراقية جديدة ، وأخرى لسوريا الكبرى وإيران ، ويدعو العرب إلى رفع لواء الثورة . ومن المحتمل أنه كان من المتوخى أن يكون هذا بمثابة شارة البدء بالنسبة إلى الهجوم عبر تركيا وسوريا وفلسطين .

وفى نهاية نوفمبر ١٩٤١ أخبر هتلر الكونت شيانو بأنه كان يود أن تشترك القوات الإيطالية فى معارك القوقاز وما وراءها . ووعد وزير الخارجية الإيطالية بأن تكون المناطق الواقعة جنوب القوقاز جزءاً من منطقة نفوذ روما[٢] .

---

(١) أصبح فون هنتج فيما بعد ممثلا لوزارة الخارجية الألمانية لدى القوات الألمانية فى القوقاز .

(٢) Ciano's Diplomatic Papers, London, 1948, p. 464.

وقد صرح هتلر بما يلى (وقد ورد ذلك فى مذكرات شيانو) : « ما أن نتغلب على الجبال حتى يجب أن تزداد مساهمة إيطاليا بالضرورة ، خاصة وأن المعركة ستكون حينئذ قد انتقلت إلى قطاع مقيض له أن يشكل جزءاً من مجال إيطاليا الحيوى» . وكان تعليق شيانو أن هذا هو أهم تصريح أدلى له به الفوهرر . ولكن =

ولكن كان من رأى القيادة العسكرية وإدارة وزارة الخارجية أن من المستحيل القيام بهجوم من الشمال فى اتجاه الشرق الأوسط بدون تركيا . وقد ورد فى بحث فورمان المعنون « ملحوظات عن تركيا والمسألة العربية » ما يلى : « بعد أن تم بحث المسائل العسكرية الداخلة فى هذا الموضوع ، ظهر الرأى الخاص بأن من المستحيل تنفيذ عملية " الشرق الأدنى " بدون التحالف مع تركيا » . وبعد اختبار شبكة المواصـلات التى تتجه صوب الجنوب من القوقاز توصـل مؤلف نازى إلى النتيجة الخاصة بأن سكك حديد القوقاز ، باستثناء خط باكو — باطوم ، غير صالحة لعمليات نقل كبيرة جداً ، على حين أن الطرق التى تربط الحدود السوفييتية بتركيا كانت أحسن من الطرق المؤدية إلى إيران وأكثر صيانة منها . ولكنه ذهب إلى أن عملية إنشاء الطرق على نطاق واسع تمت هناك بعد أن اجتازت القوات السوفييتية والبريطانية حدود إيران . كما أشار إلى أن زحف القوات السوفييتية على شمالى إيران قد أوضح أن نقل الآلات الثقيلة أمر ممكن فى الموسم المناسب ، حتى على طرق كانت عادة غير صالحة للنقل العادى .

ولما كان النازيون قد بدءوا بهذه الاعتبارات العسكرية ، فقد كان عليهم — كما سنرى — أن يصلوا إلى قرارات سياسية معينة بصدد البلدان العربية . فمثلا أصبح من الواضح ضرورة النظر إلى مطالب تركيا بعين الاعتبار لأنها كانت شديدة الاهتمام ، بصورة حيوية ، بما يجرى على حدودها الجنوبية . على أن المعروف أن القوات الألمانية لم تصل إلى تفليس على الإطلاق وأن تركيا لم تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا .

وقد أدى دخول ألمانيا الحرب إلى إيجاد عوامل جديدة فى سياسة ألمانيا فى الشرق الأوسط . فلم تنسق القيادة العليا فى كل من الدولتين عملياتهما الحربية ، ولكن لما كان الألمان يهدفون إلى الوصول إلى الخليج (العربى) عبر القوقاز ، ولما كان اليابانيون قد وضعوا خططاً للزحف صوب الهند والقسم الغربى من الخليج (العربى) ، فقد جرى البحث حول احتمال تلاقى قواتهما فى مكان ما على الخليج (العربى) ؟

=لايبدو أن هتلر كان يأخذ هذا التصريح مأخذ الجد (انظر ما يلى) . ولم يرد هذا الوعد فى مذكرات شمت الخاصة بمحادثات هتلر — شيانو التى جرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤١ .

كما أن أركان الحلفاء وضعوا هذا الاحتمال فى عين الاعتبار . وبإمكاننا أن نتبين من تقرير رايدر إلى هتلر بتاريخ ٣ فبراير ١٩٤٢ أن الألمان كانوا يتوقعون أن يعرقل الأسطول اليابانى فى المحيط الهندى مواصلات بريطانيا مع الهند والشرق الأوسط بصورة خطيرة .

وفى أواخر مارس وفى أبريل ١٩٤٢ نشطت البحرية اليابانية فى خليج البنغال وأحرزت تفوقاً بحرياً كاملا فى هذه المنطقة . وتعرضت سيلان للهجوم فى أوائل أبريل — وفى رسالة بعث بها تشرشل إلى روزفلت فى ١٥ أبريل سنة ١٩٤٢ أشار إلى ضخامة أثر هذا الحدث فى الشرق الأوسط :

« إلى أن نستطيع القيام بعمل بحرى ، ليس ثمة ما يحول دون أن يصبح اليابانيون العامل الرئيسى فى غربى المحيط الهندى . وسيترتب على كل هذا انهيار وضعنا فى الشرق الأوسط برمته ، ليس فقط بسبب عرقلة قوافلنا المتجهة إلى الشرق الأوسط والهند ، بل أيضاً بسبب اعتراض المؤن التى نحصل عليها من عبدان والتى بدونها لايمكننا أن نحافظ على مركزنا فى منطقة المحيط الهندى ، سواء فى البر أو فى البحر . وستتوقف كذلك المؤن المتجهة إلى الاتحاد السوفييتى عبر الخليج " العربى " »..

وكان اليابانيون منذ فبراير قد بلغوا حلفاءهم الألمان بأنهم ينوون إنشاء قواعد فى سيلان ومدغشقر . وبإمكاننا أن نستنتج أن الألمان لم يكونوا شديدى الحماسة لاحتمال وجود قاعدة فى مدغشقر[1]— إذ طبقاً لاتفاقية ١٨ يناير ١٩٤٢ كان يجب أن يمر الحد الغربى لمنطقة الحرب اليابانية على طول خط طول ٧٠° شرقاً . وبرغم ذلك فإذا بنينا حكمنا على المحادثة التى دارت بين السفير اليابانى فى برلين وبين ريبنتروب فى ٢٣ مارس ١٩٤٢ ، كان الألمان على استعداد لإقرار هذه الخطوة ، لأنهم رأوا أنها ستسهل عملياتهم فى جبهة شمالى إفريقيا إلى حد كبير . وقد نظرت برلين إلى اقتراب القوات اليابانية من الأراضى العربية بوجه عام بعين الاهتمام . وهكذا بدأ موقف اليابان يلعب دوراً معيناً فى سياسة ألمانيا الخاصة

---

(١) بنى هذا على رد فعل هتلر إزاء تقرير قدمته القيادة العليا للبحرية فى ١٢ مارس ١٩٤٢ . كما يبدو من مذكرات فورمان إلى ريبنتروب أن هذا الاحتمال أثار نوعاً من القلق فى الدوائر السياسية الألمانية .

بالبلدان الغربية إذ بدأت تبرز المشاكل فيما يتعلق بتقسيم مناطق النفوذ فى المستقبل بين الشريكين الأوربيين فى الميثاق الثلاثى وحليفهما الآسيوى.

ومما له مغزاه أن هذه المشكلة برزت فى أوائل عام ١٩٤٢، ثم اختفت فى نفس السنة. وكانت الأهداف الرئيسية لزحف اليابان صوب الغرب هى شن هجوم برى وبحرى فى خليج البنغال، والهجوم على ميناء ومطار كولمبو، وبرغم النصر الذي أحرزه اليابانيون، فإنهم منوا بخسائر فادحة فى هذه العمليات ولم يستطيعوا مواصلة الهجوم — إذ يجب أن نذكر أن جزءاً كبيراً من قواتهم كان مشغولا فى الصين. لهذا لم يحتل اليابانيون سيلان، فى الوقت الذى تحصن فيه البريطانيون فى مدغشقر. وظل الطريق إلى النيل عبر رأس الرجاء الصالح مفتوحاً. وكان على العملاء الألمان فى لورنزوماركيز الواقعة على ساحل موزمبيق — وكانوا قد زودوا برلين بمعلومات عن تحركات السفن البريطانية — أن يواصلوا إبلاغ رؤسائهم بأن القوافل البريطانية واصلت إبحارها إلى مصر على طول ساحل إفريقيا الشرقى. وبالإضافة إلى ذلك فما حلت نهاية عام ١٩٤٢ حتى كان الاندحار على الفولجا والهزيمة فى شمالى إفريقيا قد جعلا النظام ينشغل بمشاكل أكثر أهمية بالقرب من الوطن.

وفى الفترة الممتدة من خريف عام ١٩٤١ إلى خريف عام ١٩٤٢ كان للنجاحات التى أحرزها الألمان على الجبهة السوفييتية أثر كبير على سياسة ألمانيا الخاصة بالعالم العربى — هذا برغم أن الهدف الرئيسى من عملية برباروسا قد انهار من أساسه فى أثناء تلك الفترة. وقد اتضح هذا حتى فى صيف عام ١٩٤٢ حين كان يبدو أن انتصارات روميل تنذر بالاحتلال السريع لمصر.

من طهران إلى برلين

جرت الاستعدادات المباشرة للحرب فى الشرق واشن الهجوم على الاتحاد السوفييتى فى وقت شهد ضعف النشاط الألمانى فى العالم العربى. وبعد الانقلاب الفاشل الذى جرى فى العراق واستيلاء القوات البريطانية والديجولية على سوريا ولبنان أصبح الاتصال بالعرب أكثر صعوبة.

وحتى فى أثناء نشوب القتال فى سوريا ، شعر النازيون بأنه لايوجد هناك زعماء يتميزون بالصلابة والقسوة من أمثال المفتى . وبرغم التطورات السيئة التى أصابت الموقف فى المشرق العربى فى عام ١٩٤١ ، فقد حاول الألمان الإبقاء على الاتصال بالزعماء الوطنيين . وقد أصدر فايز ساكر أوامر خاصة فى أول يونيه جاء فيها أن لامجال للاعتقاد بأن الألمان يتخاون عن أصدقائهم فى وقت الهزيمة ومن الواضح أن الدافع وراء هـذا هو أن مزيداً من تحريك السياسة الألمانية كان من شأنه أن يتعرض للخطر ما لم يقوموا بذلك . وقد راجعت وزارة الخارجية الألمانية احتمال فتح مجال العمل السياسى أمام زعماء الثورة العراقية ، وكانت على استعداد لتمويل القادة العرب الذين لجئوا إلى إيران . وفى ١٢ أغسطس أصدر وكيل الوزارة فورمان أمره إلى ملشرز بأن يدعو إلى برلين مفتى القدس وغيره من كبار زعماء ثورة فلسطين من العرب . ونشطت برلين فى مساعدة الفلسطينيين الذين كانوا يقيمون فى سوريا على الانتقال إلى تركيا التى كانوا يأملون أن ينتقلوا منها إلى بلدان واقعة تحت سيطرة المحور .

على أنه قد ثبتت صعوبة نقل الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى الكيلانى إلى أوربا . فقد كان كلا الرجلين فى عاصمة إيران حيث أصبح موقفهما حرجاً على أثر غزو هتلر للاتحاد السوفييتى . وحتى قبل ذلك الوقت كانا قد منعا من القيام بأى نشاط سياسى نتيجة للضغط البريطانى على الحكومة الإيرانية . وبعد غزو الاتحاد السوفييتى لم تنفك بريطانيا والاتحاد السوفييتى يثيران مسألة النشاط الألمانى فى فارس . ولم يسر الشاه وحكومته لتعرضهم للاتهام بالسماح لأعداء بريطانيا بالقيام بنشاط فى إيران . ويبدو أن السلك الدبلوماسى الألمانى والإيطالى تنافساً فى القيام بمحاولات لجذب الزعيمين العربيين كل إلى بلده (إيطاليا وألمانيا) .

وأصبح وضع نصيرى المحور (الحسينى والكيلانى) قلقاً بسبب ضغط دول الحلفاء ، وكان عليهما أن يفكرا فى كيفية مبارحة إيران على جناح السرعة . ورأت سلطات برلين أن الطريقة الوحيدة لذلك هى عبر تركيا ، كما هو الواقع . على أن الأتراك كانوا مترددين فى منح تأشيرات للرجلين المشاغبين اللذين كانت آراؤهما الخاصة بالوحدة العربية لاتحظى بعطف أنقرة . وتدخل الألمان للحصول على هذه التأشيرات — وليس من المعروف مدى قوة الطلب ، ولكن من المحتمل

أن النازيين الذين كان يسكرهم توقع نصر سريع فى الاتحاد السوفييتى ، لم يتبينوا الخطر الذى كان يتهدد أنصارهم فى إيران[1] . وبإمكاننا أن نفترض أن البريطانيين أبلغوا الحكومة التركية اعتراضاتهم على مبارحة المفتى والكيلانى لإيران. وكانت حكومة لندن تهدف إلى القضاء على حرية حركة هذين الزعيمين العربيين ومنعهما من الوصول إلى أوربا[2] . وبإمكاننا أن نشك فى قيام البريطانيين بمحاولات للتدخل لدى الحكومة التركية فيما يتعلق بالمفتى تفوق ما يتعلق برئيس وزراء العراق السابق .

وفى منتصف يولية حصل الكيلانى على تأشيرة تركية ، وفى ٢٠ يولية بارح طهران وعبر الحدود الإيرانية مع فريق من أنصاره فى ٢٢ يوليه . ولكن لم يمنحه الأتراك تأشيرة مرور ، ثم رفضوا السماح له بمبارحة البلاد والتوجه إلى برلين . على أن الكيلانى نفسه قد ذهب إلى أنه وعد بطريقة ودية بعدم الممانعة فى مبارحته البلاد سراً . وفى ظل هذه الظروف اتخذت وزارة الحرب الألمانية خطوات لإخراجه من تركيا . وقد اتخذت القرارات اللازمة فى ١٧ نوفمبر فى مؤتمر انعقد فى أنقرة حضره فون بابن وموبزتش Moyzich والمبعوث شمت . وفى ٢١ نوفمبر رحل الكيلانى من الآستانة فى طائرة ألمانية . ويذكر لفركون Leverkühn[3] — ممن أعدوا عملية الطيران هذه — أن رشيد عالى بارح تركيا بصفته عضواً فى بعثة صحفية ألمانية قدمت إلى إستنبول فى طائرة ريبنتروب بناء على دعوة من تركيا . وقد بلغ المسئولون الألمان الأتراك بأن البعثة ستتكون من ثمانية أشخاص ، ولكن لم يصل سوى سبعة . وحين رحلت البعثة ، ضمت معها الكيلانى — الذى كان مغطى

---

(١) حداد : حركة رشيد على الكيلانى سنة ١٩٤١ ، ص ١٣٤ — ٦ . ونحن نستقى نفس الانطباع من الرسائل التى بعث بها إيتل من طهران خلال هذه الفترة : من أواخر يونيه إلى أواخر أغسطس ١٩٤١ .

(٢) منذ الشهور الأولى من الحرب قامت الحكومة البريطانية بمحاولات لإغراء زعماء الثورة الفلسطينية بالعودة إلى البلاد .

(٣) ألف ليفركون كتاباً بعنوان « إدارة المخابرات التابعة للجيش الألمانى خلال الحرب » (فرنكفورت على المين ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٧ — ٨) جاء فيه أن الكيلانى استعمل — فى أثناء ركوبه الطائرة — جواز سفر باسم ڤاكرناجل Wackernagel ، وتذكر وثائق وزارة الخارجية الألمانية أنه كان يحمل بطاقة تحقيق شخصية باسم هر ڤورتمان Worthmann .

بضمادات — بصفته العضو الثامن الذى منعه المرض من الاشتراك فى الاستقبالات والرحلات التى نص عليها برنامج البعثة . وبقى وصوله إلى ألمانيا فى حيز الكتمان وظل معتكفاً عدة أيام . ثم أعلن بعد ذلك أنه استطاع الهرب بجهوده الخاصة من تركيا إلى بلغاريا عن طريق البحر الأسود .

وثبت أن الوضع كان أصعب بالنسبة إلى المفتى الذى كانت تحركاته مثار اهتمام أكبر . فإذا ما جاز لنا أن نصدق روايات المحيطين به ، سنجد أن الاهتمام به لم يكن مقصوراً على الألمان ، بل إنه امتد إلى الإيطاليين الذين كانوا يمدونه بالمال لفترة طويلة ، بل إلى البريطانيين أيضاً[1] وأن كل فريق كان مهتماً باجتذابه إلى صفه. فقد وضع البريطانيون خططاً خاصة بالاستيلاء على البلاد[2] ، ومن المؤكد أنهم لم يرغبوا فى أن يبارح المفتى وأنصاره إيران . وعلى أى حال فإن المفتى لم يحصل على تأشيرة تركية . وقد سبق أن ذكرنا أن القوات البريطانية والسوفييتية عبرت حدود إيران فى ٢٥ أغسطس ودخلت العاصمة فى ١٧ سبتمبر ؛ ولكنها لم تتوصل إلى مفتى القدس . وقد قبض البريطانيون على كثير من الزعماء الفلسطينيين العرب ممن هربوا معه من العراق (من بينهم ابن عمه جمال الحسينى وأمين التميمى) واعتقلتهم فى روديسيا الجنوبية . كما قبض على عثمان كمال حداد — السكرتير الخاص للمفتى — وعلى الضباط العراقيين الذين قادوا الثورة . وبعد أن

---

(١) أخبر حداد إيتل بأن نورى السعيد — الذى كان حينئذ سفيراً للعراق فى القاهرة — كان قد كتب إلى الحاج أمين الحسينى ؛ بوساطة ولى عهد مصر الأمير محمد على ؛ مقترحاً الاتفاق مع إنجلترا . وقد زعم نورى السعيد أن إنجلترا لم تكن تستطيع بأى حال من الأحوال أن تقوم بعمل جديد إزاء المشكلة الفلسطينية وذلك بسبب اليهود الأمريكيين ، وأن الأمر لن يكون كذلك فيما بعد الحرب . ولا يمكننا أن نرفض هذا الخبر دون تمحيص إذا ما وضعنا نصب أعيننا الأساليب السياسية التى كانت تتبعها بريطانيا فى إمبراطوريتها بوجه عام وفى البلدان العربية بوجه خاص — هذا برغم أن ازدياد توتر العلاقات بين المفتى والحكومة البريطانية يجعلنا أميل إلى عدم تصديقه. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحاج أمين يهتم بأن يظهر بمظهر الشخص الذى يخطب الجميع وده . على أن عدم إشارة حداد إلى اقتراح رجوع المفتى إلى فلسطين مما يشهد على صدق معلوماته — إذ لم يكن من الممكن توقع تقدم الإنجليز بمثل هذا العرض فى ذلك الوقت . ومن هنا فقد كان الاقتراح البريطانى المزعوم يصل إلى حد عرض بالأمان فى مقابل موافقته على الاستقرار حيثما يشير عليه البريطانيون فى أثناء الحرب وإلى إشارة غامضة إلى المستقبل .

(٢) أطلع السفير المصرى فى طهران إيتل على معلومات أرسلها إليه (الملك) فاروق فحواها أن البريطانيين قرروا احتلال إيران قبل أن يتلقوا خبر الانتصارات الألمانية العظيمة فى الاتحاد السوفييتى (رسالة إيتل ، طهران فى ٣ يولية ١٩٤١ — D.G.F.P., XIII, no.6. pp. 77-78)

أعيد الضباط إلى العراق لم يلبثوا أن نفذ فيهم حكم الإعدام . ولم ينج سوى صلاح الدين الصباغ الذى وصل إلى تركيا فى أبريل ١٩٤٢ – ولكنه شنق فى بغداد بعد أن سلمه البريطانيون إلى الحكومة العراقية فى أكتوبر ١٩٤٥ ؛

وفى البداية لجأ الحاج أمين الحسينى إلى المفوضية اليابانية[١]، وانقطع كل اتصال له بالعملاء الألمان . ثم هرب إلى تركيا متنكراً ، ومن هناك هرب إلى إيطاليا التى وصل إليها فى أواسط أكتوبر . وقد أعدت المخابرات الإيطالية خطة هربه[٢]. وفى ٢٧ أكتوبر استقبله موسولينى .

وهكذا فما حل نوفمبر ١٩٤١ حتى كان كبار الزعماء العرب الموالون للمحور قد استقروا فى أوربا . وقد سبق أن أوضحنا أنه كان من الواضح فى ذلك الوقت أن الحرب لن تنتهى فى الجبهات السوفييتية فى أثناء تلك السنة ، وبالتالى كان الأمر يستلزم اتخاذ إجراءات معينة فى جبهة شمالى إفريقيا . وقد سبق أن أوضحنا أيضاً أن القيادة العسكرية قررت تحريك تلك الجبهة ، ولو بصورة محدودة ، وزيادة اشتراك ألمانيا فى المعركة الدائرة بصدد البحر المتوسط . كما لم يتم التخلى عن الخطط الأكثر اتساعاً بخصوص العمليات الحربية المتجهة من الشمال . وازدادت أهمية الشئون العربية من جديد بالنسبة إلى المحور الذى كان عليه ، بحلول نهاية عام ١٩٤١، أن يتبع خطة جديدة فيما يتعلق بالمشرق العربى .

---

(١) حداد ، المرجع السابق ، ص ١٤١ – رسالة إيتل من طهران بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٤١ . وفى نفس اليوم طلب الحلفاء من إيران أن تغلق المفوضيات الألمانية والإيطالية والمجرية والرومانية وأن تطرد الممثلين السياسيين لهذه البلاد .

(٢) يذكر ليفركون (المرجع السابق ، ص ١٦٧) أن المفتى – الذى ارتدى ملابس خادم وزير إيطاليا المفوض – بارح إيران برفقته . ثم توجه إلى روما بمساعدة ممثل إيطاليا الدبلوماسيين .

الفصل الحادى عشر

تصريحات جديدة بشأن المسائل العربية صيف عام ١٩٤١

فى صيف عام ١٩٤١ احتلت مسألة إصدار تصريح يعترف بالمطالب القومية العربية مكان الصدارة من جديد . حينئذ تناولت الوثائق الألمانية هذه القضية مع مسألة إصدار تصريح بصدد « الهند الحرة » . ويبدو من المحتمل أن العرب القاطنين فى أوربا والمتعاونين مع أجهزة الدعاية الألمانية والإيطالية كانوا يسعون إلى استصدار مثل هذا التصريح . ومن المعروف ــ على سبيل المثال ــ أن فوزى القاوقجى حاول الحصول على مثل هذا التصريح ، كما حاول أن يلفت النظر إلى ضرورة تنسيق الدعاية الألمانية فى البلدان العربية وفقاً لهذا الهدف : ومما يجدر ذكره أن فوزى أصيب بجرح خطير فى سوريا وأنه نقل إلى ألمانيا فى نهاية يونيه . وفى ذلك الوقت كان سبهاس شندرا بوس يسعى إلى استصدار تصريح يساند « الهند الحرة » ــ وكان بوس من زعماء الجناح الراديكالى فى المؤتمر الوطنى الهندى[١] .

وكان لهذه الجهود أثرها على المسئولين والساسة الألمان ــ ولكن وجدت كذلك عوامل موضوعية من وراء اهتمام ألمانيا من جديد بإصدار التصريح . وفى أثناء نشوب القتال فى العراق وسوريا غطت مشاكل أكثر تحديداً على المسألة : تقديم الأسلحة والمساعدة المالية والاتصالات بالبلدان العربية . ومن المحتمل أن الصعاب التى كان يتضمنها إصدار تصريح علنى يساند المطالب العربية كانت قد ازدادت خلال فترات النشاط المتزايد فى البلدان العربية . ولاعتبارات يتعلق معظمها بالهيبة لم تكن ألمانيا

---

(١) وصل بوس إلى ألمانيا فى ٢ إبريل ١٩٤١ . وكانت خطته الأصلية تقضى بإقامة حكومة هندية فى ألمانيا على نمط حكومات المنفى القائمة فى لندن. على أن الألمان كانت لديهم اعتراضات قوية ــ إذ كانوا غير متحمسين لإعلان مثل الهند. ثم تلت ذلك مسألة إعلان « هند حرة » سنتناولها بمزيد من التفصيل فيما بعد . انظر :
D.G.F.P., XII, nos. 257, 300, 323, 425, 553.

تود إقحام نفسها صراحة وبشكل استعراضى بوعود لم تكن نتيجتها مؤكدة . وكانت الحاجة هى التى أملت سياسة عدم الاعتراف بالأمانى العربية ، وذلك للحصول على مساندة إيطاليا وفرنسا وتعاونهما . ولكن لم يكن باستطاعة الألمان، بعد أن حلت بهم الهزيمة فى العراق وسوريا ، أن يقوموا بما هو أكثر من مواصلة الدعاية ، لأن الشرق الأوسط كان قد أصبح منطقة للنفوذ البريطانى وحده . وفى ظل مثل هذه الظروف عادت مسألة التصريح من جديد ، فأصبحت ذات أهمية كبيرة .

وقد نستنتج أن فعالية الدعاية الألمانية كانت تعانى من عدم وجود تصريح أوسع نطاقاً من تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ . ذلك أن دولتى المحور كانتا خلال ربيع وصيف ١٩٤١ تواجهان نشاطاً سياسياً بريطانياً فى المشرق العربى . فقد اعترف الكثيرون فى الدوائر البريطانية فى القاهرة بالحاجة إلى تقديم تنازلات للعرب ، وبخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين – وكانوا يكادون ينظرون إلى هذه التنازلات باعتبارها لازمة لإنقاذ الإمبراطورية البريطانية . وقد وضعت الدعاية البريطانية هذه الاعتبارات نصب أعينها ، فصرحت بأن مبادئ معينة وردت فى الكتاب الأبيض الصادر فى ١٧ مايو ١٩٣٩ قد نفذت بالفعل فى فلسطين ، وأن العراق حافظ على سيادته برغم انتصار بريطانيا على الثوار . ولكن بريطانيا توسعت فى استغلال ضمانها تنفيذ إعلان استقلال سوريا ولبنان الذى صدر عن الفرنسيين الأحرار فى ٨ يونيه ١٩٤١. كما أشارت بريطانيا إلى تنازلات معينة أخرى تزمع تقديمها إلى الوطنيين فى هذه البلاد، وأشارت إلى التصريح الذي أدلى به أنتونى إيدن فى ٢٩ مايو ١٩٤١ وعبر فيه عن عطفه على أمانى العرب الخاصة بالوحدة.

وفى الواقع أن العرب لم يبدوا ثقة كبيرة بالوعود الإنجليزية ، وبخاصة الوعود التى قطعت فى أثناء الحرب فى الوقت الذى ساء فيه موقف بريطانيا وإمبراطوريتها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحرب التى شنها الإنجليز فى العراق والإجراءات التى اتخذها البريطانيون والسوفييت فى إيران كان لابد أن تثير سخط الوطنيين .

وقرر الإنجليز وجوب الرد على الدعاية البريطانية المتزايدة بتصريح أكثر تحديداً من سابقه . ويتضح هذا من بعض التصريحات التى أدلى بها مسئولون فى وزارة الخارجية الألمانية كانوا يتولون إدارة الشئون العربية . وتهمنا بهذا الصدد

المقترحات التى قدمها فايزساكر إلى ريبنتروب فيما يتعلق بدخول القوات البريطانية والسوفييتية إلى إيران . ولمواجهة هذه المناوره اقترح فايزساكر القيام بإجراءات دعائية قوية وإيقاف شحن الأسلحة والقيام باستعدادات لاستلام الألمان الذين أجلوا عن إيران وتركيا . ولكن النقطة الوحيدة التى أبدى حماسة شديدة بشأنها هى إصدار تصريح ألمانى بخصوص الهند والبلدان العربية . وكان فايزساكر يرى أن أحداث إيران قد توفر أحسن فرصة لإصدار مثل هذا التصريح .

وكان من رأى بعض المسئولين النازيين أن ألمانيا سيتوفر لها ، بعد القضاء على نظام فيشى فى سوريا ولبنان ، مزيد من حرية العمل فى البلدان العربية ؛ وبخاصة فى مجال الدعاية . وبالإضافة إلى هذا لابد أن القضاء على حكم فيشى فى المشرق العربى كان يتمشى مع تأزم العلاقات الفرنسية — الألمانية ، أو أنه أدى إليه بدرجة ما .

وفى مجال العلاقات الفرنسية — الألمانية تميز صيف عام ١٩٤١ برغبة برلين فى وجوب تنفيذ حكومة فيشى مانصت عليه بروتوكولات باريس فيما يتعلق بتونس — فقد كانت ألمانيا وإيطاليا مهتمتين باستخدام الموانى التونسية لتموين قواتهما فى شمالى إفريقيا . ولم توافق فيشى موافقة تامة ، مما أثار توتراً وأدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية . وقد أثر ذلك تأثيراً معيناً فى سياسة الريخ العربية . وفى هذا الوقت بالذات (٢٠ يولية ١٩٤١) صدرت تعليمات إلى كل أجهزة وزارة الخارجية الألمانية المهتمة بالدعاية العربية . وقد صرح ريبنتروب بما يلى : « إن الاعتبارات الخاصة بالحكم الفرنسى فى سوريا تملى علينا ضبط النفس بشكل ما مساندة لمطالب العرب .. وقد استبعد سبب هذا التحفظ بانهيار المقاومة الفرنسية لإنجلترا فى سوريا . ولهذا أطلب منكم أن تساندوا بقوة منذ الآن رغبة العرب فى الحصول على حرية غير محدودة فيما يتعلق بتناول المسألة العربية من الناحية الدعائية . ويجب أن تستنير هذه الدعاية بشعار " المحور يحارب من أجل حرية العرب " » . كما نصت التعليمات على أن من واجب الحكومة الألمانية أن تحاول ضمان تعاون إيطاليا فى هذا المضمار .

على أنه كان يجب العدول عن وجهة النظر هذه بعد وقت قصير . وفى

الواقع لم يصدر أى تصريح حول المطالب العربية — إذ كان من الواجب مناقشة مسألة إصدار تصريح جديد مع الحكومة الإيطالية ، وأصبح من المعروف أن روما قد عبرت أحياناً عن معارضتها للوحدة العربية ، وأنها كانت تعارض حتى فى قيام اتحاد فدرالى مخفف ، وأنها لم توافق على اللجوء إلى هذه الشعارات فى الدعاية .

وبعد أن أدلى إيدن بخطبته فى ٢٩ مايو ساد الشعور بأن تصريحاً محوريا يتجاهل المطالبة بالوحدة يضر أكثر مما ينفع . وهذا هو السبب فى أن ريبنتروب لم يوافق على اقتراح فايزساكر الخاص بإصدار تصريح بصدد « الهند الحرة » والاستقلال العربى[1]. وفى نوفمبر ١٩٤١ ، حين كان الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى الكيلانى فى برلين ، كانت هذه المسألة لاتزال موقوفة .

وصول المفتى ومسودة التصريح الإيطالى

وفى ٦ نوفمبر ١٩٤١ سافر المفتى من روما إلى برلين — وكان قد أجرى فى إيطاليا محادثات مع موسولينى وشيانو تمخضت عن اتفاق على إصدار تصريح بصدد المطالب العربية . وكان الإيطاليون قد أعدوا مسودة تضمنت تقديم دولتى المحور « كل مساعدة ممكنة » للبلدان العربية التى تحتلها أو تسيطر عليها إنجلترا فى نضالها فى سبيل الحرية » ، كما تضمنت الاستعداد للاعتراف « بالسيادة الكاملة والاستقلال التام للبلدان العربية فى الشرق الأدنى التى يحتلها الآن أو يسيطر عليها الإنجليز » . كما ساندت القضاء على فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين . وكان على دولتى المحور أن تعقدا ميثاقاً للصداقة والتعاون مع الزعماء العرب فى المستقبل ، وكان من الواجب أن يتم التفاوض بصدد هذا الميثاق بأسرع ما يمكن . كما تضمنت وعداً باحترام سيادة البلدان العربية واستقلالها التى تتمتع بهذا الوضع بالفعل .

---

(١) فى هامش مذكرات فايزساكر لمكتب وزير خارجية الريخ (برلين فى ٢٥ – أغسطس ١٩٤١) هناك تعليق « نعم » على النقطة الرابعة (إيقاف تزويد إيران بالأسلحة) والنقطة السابعة (استخدام السياسة الإنجليزية – السوفييتية إزاء إيران فى الدعاية) – ولكن ليس ثمة تعليق على النقطة السادسة صد رتصريح بصدد مسألتى استقلال العرب والهند) .

وقد تضمن النص الإيطالى نقاطاً أساسية . فأولا وقبل كل شيء نجد أن إيطاليا قد ميزت « البلدان العربية فى الشرق الأدنى» عن البلدان العربية الأخرى. وقد فسرت روما مفهوم « البلدان العربية فى الشرق الأدنى » على أنه يشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، وهى البلدان التى كانت هى على استعداد للاعتراف بها . وأوضحت أن هذا المفهوم لاينطبق على مصر والسودان . ولم يكن من قبيل الصدفة أن الإيطاليين لم يعينوا البلدان التى ينطبق عليها وعدهم ، برغم المقترحات التى تقدم بها الزعماء العرب . ولم يوضحوا بوجه خاص خططهم ونواياهم إزاء بلدان شبه الجزيرة العربية . أما البلدان التى لاتدخل فى « البلدان العربية فى الشرق الأدنى » فإن الإيطاليين ساندوا « تحريرها » من إنجلترا و « استقلالها »[1] .

وقد أشارت المسودة الإيطالية إلى تقديم كل مساعدة ممكنه للبلدان العربية دون حدود — سواء أكانت إنجلترا تحتل هذه البلدان أو تسيطر عليها . ولكن لم تستعمل كلمات « السيادة الكاملة والاستقلال التام » إلا فيما يتعلق « بالبلدان العربية فى الشرق الأدنى » . وكان الوعد باحترام سيادة واستقلال البلدان العربية التى حصلت بالفعل على هذا الوضع — دون صفتى كاملة وتام — ينطبق على مصر. ومن هنا لم تكن المسألة تتعلق فى هذه الحالة إلا باحترام ذلك القدر من السيادة الذى كانت مصر تتمتع به بالفعل .

وقد عبر المفتى عن بعض التحفظات ، وطالب بإجراء تعديل فى بعض الصيغ : بمعنى وجوب امتداد المساعدة إلى البلدان العربية ليس فقط « التى تناضل فى سبيل حريتها » بل فى « نضالها من أجل حريتها واستقلالها التام » . وعلى بلدان المحور أن تعترف « بالسادة الكاملة والاستقلال التام للبلدان التى تتمتع بسيادتها واستقلالها بالفعل » .

ووجه المفتى هجوماً آخر للمسودة الإيطالية لايقل أهمية : فاتهمها بأنها تجاهلت مسألة الوحدة العربية . فوفقاً لما صرح به المفتى كانت الوحدة هى أهم مايتضمنه البرنامج العربى ، ولكن الإيطاليين لم يكونوا على استعداد لقطع وعود بهذا الصدد . وقد رفض شيانو فى البداية مساندة حركة الجامعة العربية ، ولكنه لم يلبث أن وافق

(١) كانت هذه وجهة نظر الإيطاليين فى أثناء مفاوضتهم مع ألمانيا .

على الصيغة الآتية : « حق الشعوب العربية فى الشرق الأدنى فى تحقيق وحدتها وفقاً لرغباتها » — وهى صيغة غامضة بطبيعة الحال . وفى هذه الناحية أيضاً كانت التنازلات الإيطالية (على الأقل فيما يتعلق بالكلمات) تشير إلى « البلدان العربية فى الشرق الأدنى » أى إلى الهلال الخصيب وحده ، وكان على الحاج أمين فى النهاية أن يقبل القيود التى سبقت الإشارة إليها . حقيقة أن الإيطاليين فسروا عدم تحمسهم لمساندة فكرة الوحدة العربية بالخلافات الناشبة بين العرب أنفسهم ، ولكن الانطباع الذى لايمكن تجنبه هو أنهم لم يكونوا يريدون أن يرتبطوا ارتباطاً تاماً بسبب مصالحهم فى بعض البلدان العربية وأهدافهم فيها .

وبطبيعة الحال كان الريخ يرى أن علاقات ألمانيا بإيطاليا تفوق فى أهميتها مطالب العرب القومية . ولهذا ، ففيما يتعلق بالتصريح ، وافقت برلين على رغبات قصر شيجى . ولم تكن إيطاليا تود أن يفهم الزعماء العرب — وبخاصة المفتى — أن ألمانيا أكثر ميلا منها إلى قبول المطالب العربية[1]. لهذا فإن فايزساكر لم يساند التحفظات العربية على المسودة الإيطالية أثناء محادثاته مع المفتى[2] . وهناك عدة أدلة على أن المسئولين الألمان لم يوافقوا على وجهة نظر زملائهم الإيطاليين الخاصة بأنه لايجب أن يحتوى تصريح المحور على أى وعد بمساندة أمانى الوحدة العربية . وقد سجل فورمان أن تصريحاً خاصاً بالمسألة العربية يجب أن يتضمن وعداً باستقلال البلدان العربية ، كما هو الحال بالنسبة إلى اتحادهم الفدرالى ، ولكن كان من رأيه وجوب كون الوعود عامة واحتواء التصريح على تفاصيل خاصة بالنظام الجديد « فى المجال العربى » . وكان من رأيه عدم وجوب إثارة هذه الأمور حتى توجد قوات ألمانية فى الشرق الأوسط . وحينئذ فقط يصبح من الضرورى توضيح مستقبل السياسة العربية لإيطاليا .

ويبدو من موقف المسئولين الألمان من التصريح أنهم لم يكونوا يرغبون فى مثل هذا التوضيح فى ذلك الوقت . فالعلاقات الألمانية — الإيطالية كانت تستند على مبدأ أن نفوذ روما سيتفوق فى البحر المتوسط ، على الأقل فى جنوبيه الشرقى .

---

(١) تقدم بوتى بمثل هذا الطلب فى محادثة له مع فون بزمارك .

(٢) اتسمت المحادثة مع المفتى ببرود لهجتها . ورغم الوعود التى قطعها جروبا فى اليوم السابق ، فإن فايز ساكر تخلى بالتدريج عن طلب الحاج أمين الخاص بمقابلة ريبنتروب .

وكان من رأى النازيين أن الشروط اللازمة لمناقشة جديدة أكثر استفاضة للشئون العربية مع إيطاليا هي وجود قوات ألمانية « في البلدان العربية في الشرق الأدنى » . ولكن فورمان أيضاً كان يعول على اشتراك القوات الإيطالية في احتلال تلك البلدان، فاقترح أن تستفيد ألمانيا في هذه الحالة من كراهية العرب لإيطاليا ، كما وضع فورمان في حسابه احتمال رفض إيطاليا الجلاء عن الأراضي المحتلة . لهذا لم يكن هذا الوقت مناسباً للوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول تفاصيل السياسة العربية . كما لم تكن ثمة دلالات على أن الاتفاق سيتمخض عن أية نتائج إيجابية من وجهة النظر الألمانية . لهذا كان الألمان قانعين بتعديل موقف إيطاليا في أثناء المباحثات واستعدادها للاعتراف بحق العرب في الوحدة .

وكان الاعتراف بذلك الحق ضرورياً لكي يتضمن تصريح المحور ما يوازن الوعود والتصريحات البريطانية . وعلى أي حال فإن تحقيق مطالب العرب كان مسألة تتعلق بالمستقبل ، وفي ذلك الوقت لم يكن له سوى أهمية محدودة ودعائية .

الاعتراضات الفرنسية والتركية

ولم تكن تكفي موافقة إيطاليا على إصدار التصريح لحل المشكلة حلا نهائياً فيما يتعلق بتوازن القوى . كما كان من الضروري عمل حساب فيشي . وكانت تعليمات ريبنتروب الصادرة في ٢٠ يوليه لاتزال نافذة من الناحية الرسمية . وكانت قد حلت محل التعليمات السابقة التي كانت تتضمن عدم اتخاذ أي خطوات ضد السيطرة الفرنسية ، ولكنها لم يعد لها أي نفع لأن العلاقات الفرنسية ـــ الألمانية كانت قد بدأت تتغير في خريف عام ١٩٤١ . وفي نوفمبر وافقت حكومة فيشي نهائياً على إبعاد فيجان عن منصبه في شمالي إفريقيا ، واستؤنفت المحادثات العسكرية الفرنسية ـــ الألمانية . وحين جرى الهجوم البريطاني في الصحراء الغربية (العملية كروسيدر) احتل موقف فيشي من جديد أهمية كبرى في شمالي إفريقيا . وفي رسالة بعث بها آبتز من باريس أشار إلى أن إصدار تصريح في المستقبل يساند المطالب العربية سيكون له أثر سلبي في فرنسا نفسها

وعلى القوات الفرنسية التى قد يطلب منها أن تدافع عن شمالى إفريقيا وغربيها. وأشار إلى ما حدث منذ عهد قريب فى المشرق حيث حارب جيش فيشى الفرنسى البريطانيين. وكان من رأيه أن الدوائر الحاكمة فى فرنسا كانت تضع فى اعتبارها أنه سيكون من المستحيل بعد الحرب تجنب إجراء تغييرات فى وضع سوريا ولبنان. وبرغم ذلك فقد كان من رأيه أن من واجب الألمان أن يستشيروا فيشى حول وضع فرنسا فى المستقبل فى المشرق قبل إصدار التصريح. وخلص أبتز إلى ما يلى : « وبناء على ذلك فإن مصالحنا فيما يتعلق بفرنسا ستحظى بقدر أوفر من الخدمة إذا — على الأقل — اختير تاريخ تال لإصدار التصريح الألمانى — الإيطالى قيد البحث ».

وكانت وزارة الخارجية الألمانية على بينة من الصعاب التى تتضمنها أى محادثة مع فيشى بشأن المسألة . فالألمان لم يكن باستطاعتهم أن يعدوا فرنسا بشىء فيما يتعلق بسوريا ولبنان ، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية . وكان من الصعب طمأنة فرنسا على أنها ستحافظ على وضعها الاقتصادى والمالى السابق ، لأن هذا « سيؤثر فى تسوية مسألة البترول » (أى احتفاظ الفرنسيين بحصتهم من النفط العراقى وخط أنابيب كيركوك — طرابلس) . وأقصى ما كانت ألمانيا على استعداد للموافقة عليه صيغة مبهمة يرد فيها أن «مصالح فرنسا المالية والاقتصادية ستكون موضعاً للاهتمام — ولكن المسألة كانت تتعلق بموافقة فيشى والشروط التى ستضعها .

وقد أوضحت أحداث ديسمبر ويناير كيف كانت نهاية عام ١٩٤١ غير مناسبة من وجهة نظر العلاقات الفرنسية — الألمانية . وفى أول ديسمبر قابل بتان جورنج فى سنت فلورنتين ببرجنديا . وبعد المحادثات التى تمت بين هتلر وبين ريبنتروب وآبتز فى ٥ يناير ١٩٤٢ ، جرت محاولة أخرى لتقريب وجهات النظر الفرنسية والألمانية . وفى مثل هذه الظروف لم يبد الزعماء الألمان رغبة فى تعقيد الموقف بإصدار تصريح يساند المطالب العربية . وبغض النظر عن العوامل الأساسية التى شكلت العلاقات بين برلين وفيشى (وأهمها سيطرة فيشى على شمالى إفريقيا والحاجة إلى أن يعهد لجيشها بالدفاع عن إفريقيا) كانت عوامل ثانوية ووقتية

تفعل فعلها خلال عامى ١٩٤١ و١٩٤٢ ، مثيرة آمالا تتعلق بإيجاد تعاون أوثق .

وقد أثار موقف تركيا صعاباً أخرى ، وكان من الواجب عمل حساب تركيا ، لأن تعاونها فى المستقبل كان عاملا هاماً بالنسبة إلى خطط ألمانيا العسكرية فى الشرق الأوسط . وكان من رأى فون بابن أن صدور تصريح يساند المطالب العربية من شأنه أن يثير سخط تركيا إلا إذا سبقته محادثات تركية — ألمانية وفقاً لميثاق تبادل الرأى المعقود بينهما . وقد نصح بضرورة طمأنة تركيا على أن التصريح المرسوم لن يسىء إلى تسوية القضايا الإقليمية فى المستقبل (وكان الأتراك يطمعون فى حلب وربما الموصل أيضاً) . ولاشك أن فون بابن وضع نصب عينيه أن تركيا كان باستطاعتها أن تستغل مثل ذلك التأكيد لمساومة البريطانيين ، وأن موقفاً قد ينشأ تتنافس فيه ألمانيا وإنجلترا لكسب ود تركيا فى مقابل وعود إقليمية . وكان من رأى وزارة الخارجية الألمانية أن إجراء محادثات مع تركيا حول المسألة أمر سابق لأوانه ، وعارض فى قطع أى وعود . وكان من رأى الألمان أن الوقت المناسب لإجراء محادثات مع تركيا سيحل حين تمتنع عن المراوغة وتنحاز إلى ألمانيا تحت تأثير انتصارات هتلر .

لهذا فإن إصدار التصريح اعترضته صعاب هذه المرة من جانب فرنسا وتركيا أكثر مما اعترضته من جانب إيطاليا . ووصل الأمر بالإيطاليين إلى إقرار الحاجة إلى سرعة إصدار التصريح حتى لا يسبقهم الإنجليز . وفى ٢٢ نوفمبر وافقت روما على نص راجعه الألمان .

موقف هتلر

وفى ذلك الوقت تدخل هتلر شخصياً. فى ٢٨ نوفمبر جرت محادثة لمدة ساعة ونصف بينه وبين الحاج أمين الحسينى بحضور ريبنتروب وجروبا . وربما يكون مما له مغزاه أن هذه المقابلة كانت إحدى المقابلات التى أجراها هتلر وريبنتروب فى الفترة ما بين ٢٥ و ٢٩ نوفمبر مع الزعماء ذوى الميول الفاشية الذين تجمعوا

من عدة بلدان فى برلين بمناسبة تجديد الميثاق المعادى للكومنترن . وتمهيداً لهذه المقابلة قدم ريبنتروب لهتلر مذكرة خاصة فى ١٣ نوفمبر[1] — ومن الواضح أنه قد جرى تبادل شخصى لوجهات النظر بين الفوهرر ووزير خارجيته[2] . كما جرت مقابلة بين ريبنتروب والمفتى فى ٢٨ نوفمبر، قبيل المحادثة التى جرت مع هتلر . وفى خلال محادثات المفتى مع ريبنتروب وهتلر، أكد المفتى أن العرب والألمان أصدقاء طبيعيون بحكم أن الطرفين كانا يحاربان أعداء ثلاثة مشتركين: بريطانيا واليهود والبلشفية . وقد عرض تجنيد فرقة عربية ، ثم وجه المحادثة إلى مسألة التصريح .

وبعد التنديد العادى باليهود الذين اعتبرهم هتلر زعماء للدول التى تقف فى وجهه ، صرح للمفتى بما يلى : « . . . إن مجرد وعد لن تكون له أية قيمة . ولن تكون ثمة قيمة حقيقية إلا لليقين الذى يعتمد على القوات المسلحة المنتصرة » وأضاف بقوله : « إن كسبنا الحرب هو وحده الذى سيؤذن بدق ساعة التحرير التى هى أيضاً ساعة تحقيق أمانى العرب » .

وبرر هتلر موقفه السلبى من إصدار التصريح أولا بالخوف من رد الفعل فى فرنسا . وطبقاً لمذكرات المفتى (ص ٢١٩) الخاصة بالمحادثة ، وهى المذكرات التى تنطبق فى خطوطها العريضة على ما سجله شمت بصدد هذه النقطة ، صرح الفوهرر بما يلى :

« يبدو أن الموقف كالآتى : إننا نشن حرباً ضارية لنفتح لأنفسنا طريقاً إلى شمالى القوقاز . إن الصعاب المرتبطة بهذا تزيد على صعاب النقل المترتبة على تدمير السكك الحديدية والطرق وعلى ظروف الشتاء . فإذا ما جرؤت فى ظل هذا الموقف على إصدار تصريح ينطبق على سوريا كذلك ، فسيشتد ساعد العناصر

---

(١) فى هذه المحادثة صرح ريبنتروب بما يلى : « إن أهم شىء بالنسبة إلى العالم العربى هو صدور تصريح سياسى جديد من جانب دولتى المحور بصدد استقلال البلدان العربية » . وطلب من هتلر أن يستقبل المفتى واقترح إنشاء مجلس للزعماء العرب فى برلين و / أو روما .

(٢) عبر هيول Hewel عن رغبة هتلر فى أن يتحادث شخصيا خلال الأيام القليلة التالية مع ريبنتروب حول المشاكل التى أثيرت فى مذكرته قبل الوصول إلى قرار نهائى . ويرى مؤلف الكتاب أن ريبنتروب كان يميل إلى إصدار التصريح .

التى تساند ديجول فى فرنسا ، مما قد يؤدى إلى نشوب الثورة . وسيقتنع هؤلاء الناس بأن من الأسهل أن ينضموا إلى بريطانيا العظمى . وسيكون انفصال سوريا نموذجاً يحتذى فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية — ومن شأن هذ أن يقوى موقف الديجوليين فى المستعمرات . فإذا ما صدر تصريح الآن ، فستتلوه صعاب فى غربى أوربا بحيث يكون من الضرورى سحب بعض القوات للدفاع ، مما يحول بيننا وبين حشد كل قواتنا فى الشرق » .

وقد أكد هتلر للمفتى أن الحرب التى لاهوادة فيها التى تشنها ألمانيا ضد اليهود كانت تتضمن معارضة نشطة للوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وأن هدفها هو تحطيم العنصر اليهودى القاطن فى البلدان العربية . ووعده بإصدار تصريح حين تصل القوات الألمانية إلى جنوبى القوقاز— وهذا فى رأيه لم يكن يستلزم سوى شهور قليلة . كما صرح هتلر للمفتى بأن الوقت سيحين حين لايقتصر أمره (الحاج أمين) على أن يقدم للعرب تصريحاً محورياً ، بل سيكون له كذلك الرأى الحاسم فى الشئون العربية باعتباره ذا السلطة المطلقة فى التحدث باسم العرب وزعيماً لهم . على أن هتلر اعترض على اقتراح المفتى الخاص بإصدار تصريح سرى ، أو عقد معاهدة سرية — وقد صرح ، وفقاً لما يرد فى مذكرات المفتى ، بأن تصريحاً ينمى إلى علم عدة أشخاص لن يبقى سرًّا مكنوناً . وقد سجل شمت بخصوص هذه المحادثة أن هتلر تهرب بقوله إنه قد أعطى المفتى بالضبط هذا التصريح الخاص . وفى نفس اليوم نقل رنتلن قرار هتلر الخاص بعدم إصدار تصريح إلى فورمان .

وليس من الصعب أن نتبين الدوافع التى حدت بهتلر إلى اتخاذ هذا القرار . وقد لاحظ المفتى أن كلماته كانت تعكس بوجه عام عدم استعداده للإدلاء بتصريحات لن يتلوها عمل مباشر . وفى اليوم التالى اتخذ ريبنتروب نفس الموقف فى محادثة جرت بينه وبين بوبى . وقد أكد وزير خارجية النازى أن تصريحاً لاتسنده القوة اللازمة لوضعه موضع التنفيذ سيكون ضارًّا ، بل إن الألمان غير متحمسين لتوسيع النشاط التنظيمى فيما يتعلق بالهند حتى يتم الاستيلاء على تفليس .

ونحن نستنتج مما سبق أن هتلر ووزراءه لم يعتقدوا أن الوقت قد حان لإصدار

ألمانيا الهتلرية

تصريح ، لأنهم كانو يودون أن يسبقه نصر عسكرى كبير . ولكن مثل هذه الانتصارات لم تتحقق بحلول نهاية نوفمبر . بل على العكس نجد أن الهجوم الألمانى على موسكو قد فشل بصورة قاطعة فى ذلك الوقت ، وكان مقيضاً للجيش السوفييتى أن يبدأ هجوماً مضاداً كبيراً بعد ذلك بوقت قصير – فى ٦ ديسمبر . وكان مركز المحور صعباً فى البحر المتوسط ، وتقهقرت قوات روميل فى الصحراء الغربية تحت الضغط البريطانى . ومما يوضح مدى أثر هذه الأحداث فى مسألة إصدار تصريح أن برلين قررت النظر إلى المسألة على ضوء جديد بعد الهجوم اليابانى على بيرل هاربر .

وكان ما أدلى به هتلر فى محادثته مع المفتى – من أن مثل هذا التصريح سيثير مصاعب مع فرنسا – يعكس أيضاً المخاوف الحقيقية لحكومة الريخ ، ولكن يبدو أنه استبعد وجهات نظر أخرى . فهو لم يشر إلى تركيا التى كان موقفها من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الخطط الألمانية الخاصة بمهاجمة الشرق الأوسط . على أنه كان من الممكن أن يكون من الطبيعى ألا ترد تركيا فى محادثاته مع المفتى ، لأن العرب كانوا على بينة من مطامع تركيا الإقليمية . ومن المحتمل جداً أن هتلر فضل عدم الإدلاء بشىء خاص بتركيا بصدد التصريح ، بسبب أثر ذلك شبه الحتمى على الزعماء العرب . وبالإضافة إلى ذلك ، فلما كان هتلر على بينة من تصريحات بريطانيا المتعلقة بالشئون العربية ، فقد كان باستطاعته أن يفترض أن يثير التصريح الألمانى تسابقاً جديداً بين المعسكرين المتحاربين من أجل كسب ود العرب ، الأمر الذى لن يؤدى إلا إلى خلق مصاعب إضافية للألمان دون أن يحصلوا على ميزات محددة واضحة . وعلى أى حال فقد كان لابد أن يتغير الموقف السلبى من التصريح حين تعبر القوات الألمانية القوقاز ، وبعد ذلك يكون عطف السكان الشديد عاملا له مغزاه . وقد أكد هتلر للمفتى أن ذلك أنسب وقت لإعلان تصريح يساند أمانى العرب .

وقد لجأ ريبنتروب إلى حجة أخرى أثناء المؤتمر الذى عقده مع المفتى – وهى الحجة التى لجأ إليها هتلر بعد ذلك فى أثناء محادثاته مع الإيطاليين فى إبريل ١٩٤٢ – من حيث إن التصريح سيؤدى إلى قيام أتباع المحور فى البلدان العربية بعمل سابق

لأوانه ، وأن البريطانيين قد يقبضون عليهم . ومن الصعب علينا أن نتبين إلى أى حد كانت هذه الحجة تعكس مخاوف هتلر الحقيقية . ولكننا نستنتج من سجلات محادثات المفتى مع كبار القادة النازيين ومن المذكرات الألمانية أنهم كانوا يذكرون جيداً درس الانقلاب الفاشل فى العراق . على أن من الواضح أن هذه الحجة كانت نتيجة لوجهة نظر هتلر الرئيسية : إذا كان التصريح – بالنسبة إليه – عديم الجدوى ، إن لم يكن ضارًّا ، ما لم يؤثر تأثيراً حقيقيًّا على العمليات الحربية. فقد كان بحاجة إلى تصريح يجعل العرب يقدمون المساعدة الحقيقية لجهوده الحربية ، على حين أن قيمة التصريح بالنسبة إلى المفتى كانت تكمن فى أنه يؤدى إلى توطيد مركزه بين العرب ، ويوفر ورقة رابحة فى المستقبل فى تسوية ما بعد الحرب .

ومن المحتمل أيضاً أن تحفظات ذات طابع قانونى – سياسى كان لها أثرها على موقف هتلر السلبي إزاء إصدار التصريح . كان الكيلانى « مهاجراً » وكان الاعتراف بحكومته شبيهاً باعتراف الحلفاء بالحكومة البولندية فى المنفى أو بالهولنديين أو اليوغوسلافيين أو بالبلدان الأخرى الخاضعة للاحتلال الألمانى. ولم يعترف مبدأ النازيين القانونى بحكومات المنفى التى كانت باستمرار موضعاً للسخرية . وقد أبرز إصدار تصريح خاص بالشئون العربية العامة ، الذى كان من المفروض أن يوجه إلى المفتى ، صعوبات أخرى ذات طابع قانونى . فنى مثل هذا التصريح ستعترف ألمانيا بوجود أمة عربية تضم مواطنى عدد من الدول . حقيقة أن دول الوفاق قد وسعت مثل هذا الاعتراف فى أثناء الحرب العالمية الأولى بحيث يشمل البولنديين والتشك ، إلا أن هذه السابقة لم تكن موضع قبول عام . وكان ثمة معنى آخر لمثل هذا التصريح ، هو الاعتراف بالمفتى باعتباره زعيماً لكل البلدان العربية المعنية – فى الوقت الذى تقتصر فيه إدعاءاته الرسمية على زعامة عرب فلسطين ، بحكم أنه كان لعدة سنوات رئيساً للمجلس الإسلامى الأعلى وللجنة العربية العليا .

محاولات أخرى لاستصدار تصريح

لم يضع قرار هتلر حداً لمحاولات الزعماء العرب أو الإيطاليين للحصول على تصريح ، ولم يتخل المسئولون الألمان — الذين كانت تشغلهم مشاكل الشرق الأوسط — عن الفكرة . وفى نفس الوقت وصل الكيلانى إلى برلين ، وباعتباره رئيس وزراء العراق المعترف به ، طلب من ألمانيا أن تعلن موقفها بوضوح من مسألة إصدار التصريح . كما أن مؤتمراً عقده كبار المنفيين العرب فى تركيا فى نهاية أكتوبر ١٩٤١ خوله مفاوضة الألمان . وقد تجاوزت مطالبه حدود العراق بكثير . وفى بداية ديسمبر قدم مشروع معاهدة تعقد بين ألمانيا والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن . وكان من المتوخى أن تشمل هذه المعاهدة فلسطين أيضاً . وقد احتوى المشروع على كل النقاط المعروفة جيداً : النضال ضد إنجلترا ، وإبعاد اليهود عن فلسطين ، والوحدة العربية ، والتعاون الاقتصادى والعسكرى والفنى والثقافى مع دول المحور ، وانضمام البلدان العربية إلى الميثاق الثلاثى (الذى انعقد مؤتمر فخم جداً بشأنه فى برلين فى أواخر نوفمبر) وإلى مؤتمر الصلح القادم . وطلب الكيلانى من المحور ما لا يقل عن الاعتراف « بالاستقلال التام والسيادة الكاملة » لمصر والعربية السعودية واليمن ودول عربية أخرى فى الشرق الأدنى ، وتصريح بصدد الاستعداد لعقد معاهدات معها ، وموافقة ألمانيا على وحدة أو اتحاد بعضها أو كلها .

ومما لاشك فيه أنه لم يكن ثمة مجال لموافقة الألمان على مطالب الكيلانى — إذ أنها تجاوزت كثيراً ما كان المحور على استعداد لأن يعد العرب به ، وكان هتلر قبل ذلك بقليل قد رفض إصدار تصريح للمفتى . وكان الكيلانى يقف على أرض أصلب حين طلب وثيقة خاصة بالعراق — إذ كانت لدى المحور إزاءه بعض الالتزامات الخاصة بالعراق . وبموافقة هتلر وإيطاليا حصل على رسالة رسمية من وزير خارجية الريخ تعده بأنه سيكون رئيس وزراء العراق بعد أن يتم تحريره ؛ وتعبير عن استعداد حكومة الريخ لبدء المفاوضات فى الحال بشأن التعاون فى المستقبل . وبرغم أن الرسالة لم توضح أنها ستحاط بالسرية ، فإن حكومة الريخ

لم تجد داعياً لجعل محتوياتها موضعاً لعلانية واسعة النطاق . ويحتمل أنها كانت لها بعض الأهمية السياسية العامة — وبرغم ذلك فإن تغاضيها عن مسألة الوحدة العربية قد أضعف قيمتها الدعائية إلى حد كبير .

وقد أكدت هذه الرسالة وضع الكيلانى فى ألمانيا بصفة رسمية . وكان العمل الطبيعى الذى كان يجب عليه أن يقوم به هو عقد معاهدة باسم العراق فى أسرع وقت . وأكثر من هذا نجد أن هذه الرسالة قد أكدت بعكس ما سبق أن المفتى ليس له وضع رسمى . ولكن مما لاشك فيه أنه كان أقوى الشخصيتين وأنه كان يتمتع فى العالم العربى بنفوذ أقوى مما كان يتمتع به الكيلانى . كما كان الحاج أمين فى ذلك الوقت يرغب فى الحصول على رسالة تتضمن وعداً من النازى بمساندة قيام سوريا كبرى — وكان من الواجب أن يبقى ذلك فى طى الكتمان . وكان المفتى يريد أن يعترف الألمان بوضعه باعتباره ناطقاً باسم البلدان العربية الشمالية ، وقد صرح بأنه سيحصل على مثل هذا الاعتراف من إيطاليا إذا مارفضت ألمانيا — ومعنى ذلك أنه سيخدم روما وحدها[١] . كما أوضح أنه يهدف إلى استمرار الدعاية المحورية بشرط تلقيه مثل هذا الخطاب أو التصريح . وحظيت مطالبه بموافقة ممثلى إيطاليا الذين كانوا منذ أواخر عام ١٩٤١ فى صف صدور تصريح يسند مطالب العرب ، فى نطاق الحدود التى سبق ذكرها دون شك . وربما كان مرجع اتخاذ الإيطاليين هذا الموقف أنهم تيقنوا من ضرورة اجتذاب الزعماء إلى صفهم ، إلى جانب الحاجة إلى القيام بنشاط دعائى بين العرب .

وكان ثمة مشروع آخر يناصر الوحدة العربية ويتصل بالتصريح المرجو : وهو دعوة مجلس للزعماء العرب . وقد برز هذا المشروع من ثنايا التحفظ على حق كل من الكيلانى والحاج أمين فى التحدث باسم العرب جميعاً . وكان على الزعماء العرب الذين هربوا إلى تركيا أن يضمنوا — بأسماء بلادهم — تنفيذ أى اتفاقات يصل إليها المحور مع المفتى ورشيد عالى[٢] . ولكن لم تتمخض هذه

---

(١) يشهد موقف المفتى على قبوله القيود التى وضعها المحور بصدد خطط الوحدة العربية . ومما يسترعى الانتباه أيضاً أن هذا السياسى الضليع حاول أن يستميل زعماء المحور بمثل هذه الطريقة الفجة حين تم المساس بأطماعه .

(١) كان من المتوخى أن يكون الضامنون هم : ناجى شوكت والدكتور محمد حسن سلمان ، عن =

المحاولة هى الأخرى عن شىء ما .

وفى أواخر عام ١٩٤١ وبداية عام ١٩٤٢ ساندت اليابان فكرة إصدار تصريح. فلما كان اليابانيون يقتربون من حدود الهند : فإنهم اقترحوا أن تدلى الدول الثلاث بتصريح يتعلق بالهند والبلدان العربية . وكانت المسودة اليابانية نداء دعائيًّا أكثر منها وثيقة دبلوماسية ذات التزامات محددة بطريقة أو أخرى . ولكن لم يتحمس الألمان لتدخل اليابان — إذ أن إصدار مثل هذا التصريح بالاشتراك مع اليابان كان يتطلب أولا مناقشة مستقبل الأراضى الواقعة بين المنطقة الأوربية وبين « شرقى آسيا الأكبر » اليابانى . ولم يتخذ الميثاق الثلاثى قراراً بشأن تحديد هذه المناطق ، وكان لكل من الشركاء خططه وآماله الخاصة بهذه البلاد[1] . وفى أبريل، فى الوقت الذى كان من المتوخى فيه أن يتم حسم مسألة مزيد من التقدم اليابانى صوب الغرب فى اتجاه المياه الملامسة لشواطئ إيران وشبه الجزيرة العربية وشرقى إفريقيا ، ألح اليابانيون فى مطالبة ألمانيا باتخاذ قرار بصدد مشروع التصريح . ويبدو أن اليابان كانت تود أن يكون لها رأى فيما يتعلق بالقرارات التى تتخذ بصدد الشئون العربية فى مقابل موافقتها على اشتراك الشريكين المحوريين الآخرين فى القرارات المتعلقة بالهند . وساند الإيطاليون وجهة النظر اليابانية . ويشير شيانو عدة مرات فى مذكراته إلى أن موسولينى كان يهدف إلى مساندة اليابان لكى يوازن بذلك قوة ألمانيا. وربما كان ذلك من الأسباب التى جعلت المندوبين الإيطاليين يؤيدون إصدار التصريح باستمرار . كما كانوا يودون أن يتأكد مستقبلهم فى البلدان العربية بعد انتصار المحور . وقد أثيرت المسألة فى مقابلة جرت فى سالزبورج بين هتلر وموسولينى فى أواخر إبريل وأوائل مايو ١٩٤٢ . ويظهر لنا من تقرير شمت أن ريبنتروب كان يميل إلى صدور تصريح ألمانى يابانى مشترك ، وأن هتلر عارض الفكرة — وكانت النتيجة هى أن القرار جاء

=العراق — الأمير عادل أرسلان عن سوريا — عبدالكريم السبعاوى عن لبنان — إسحاق درويش عن فلسطين — الدكتور أبو غنيمة عن شرق الأردن . وكان معظم هؤلاء وثيق الصلة بالمفتى .

(١) مما يثير الالتفات أن برلين كانت تبحث مسألة الهند قبل دخول اليابان الحرب . كما كان بوس يقوم بدعايته فى برلين بخصوص الاستقلال . وبدأ فى برلين إعداد فرقة هندية من أسرى الحرب الذين وقعوا فى يد المحور . ولم يتجه بوس إلى اليابان إلا فى خريف عام ١٩٤٢ .

سلبياً .. وحاول موسوليني عبثاً — بعد أيام قليلة من اجتماع سالزبورج — أن يقوم بجهود جديدة بصدد إصدار التصريح .

وجرت محاولات العرب الخاصة باستصدار التصريح فى الوقت الذى تمت فيه المحادثات والمساومات التى سبق أن أشرنا إليها . وفى أوائل فبراير ١٩٤٢ توجه الزعيمان العربيان إلى روما بموافقة دكتور جروبا . واستقبل الكونت شيانو الكيلانى فى أول فبراير كما استقبله الملك وموسولينى فى يومى ١٥و١٨ فبراير . ولم يقابل المفتى سوى الملك يوم ١٣ فبراير . وسواء بسبب وضع الحسينى غير الواضح من الناحية القانونيه الرسمية ، أو لأن الإيطاليين كانوا يودون كسب عطف الكيلانى ، فقد قوبل الحسينى ببرود . ومنذ البداية حظى الكيلانى فى روما بمكانة عالية — فقد كانت الاستقبالات وحتى ركوب سيارة تحمل الأعلام العراقية من المستلزمات الظاهرية لوضعه ، مما آلم الحاج أمين . وفى أوائل مارس وصلت إلى روما كثير من الشخصيات العربية ، ومعظمها من العراقيين . وكانت المسائل المتصلة باستصدار تصريح وتوحيد العرب والقتال إلى جانب قوات المحور حية باستمرار . وتلت ذلك مشاورات جديدة مع ممثلى ألمانيا بصدد مسألة النتائج المترتبة على صدور التصريح . وفى هذه المرة تم تخطى سفير ألمانيا فى تركيا بصورة أو أخرى[١].

ولم يطرأ تغيير على رأى آبتز . وفى مذكرات تفصيلية يبدو منها غضب سفير الريخ لعدم تحقيق الوعود المبذولة لفرنسا فى مايو ١٩٤١ ، أعاد عرض وجهات نظره القديمة وأضاف إليها وجهات نظر جديدة . وقد ذهب إلى أن صدور التصريح سيكون له أثر سلبى على القوى التى تدعو إلى التعاون . وكان من شأنه أن يكون له تأثير سيئ على الروح المعنوية لدى فرنسا التى « سيعهد إليها يوماً ما بالدفاع عن مراكش أو داكار فى وجه الهجمات الأنجلو — سكسونية » ، وأن يكون له صدى واسع النطاق لدى عرب شمالى إفريقيا الذين لن يعطيهم الألمان وعداً بالاستقلال مراعاة للمصالح الإيطالية والفرنسية والإسبانية . وعاد آبتز من جديد إلى عرض

---

(١) لم يعثر المؤلف على رأى فون بابن بصدد مسألة التصريح ، سواء فى فبراير أو فى مارس ١٩٤٢. ولا نستبعد أن الألمان كانوا فى هذه الفترة يعتبرونها مسألة رسمية — فلم يرغبوا إلا فى تقديم وجهات نظرهم للعرب وحدهم .

نظريته التي كانت تذهب إلى أن من الواجب خضوع المسائل العربية للمسألة العامة الخاصة بالعلاقات القائمة بين المحور وفيشي . ولكن كانت لرؤساء القنصليات الألمانية في الدار البيضاء والجزائر آراء مخالفة تماماً . وكان من رأى أحدهم أن ردود الفعل التي من شأن هذا التصريح أن يحدثها لدى عرب شمالى إفريقيا لن تكون كبيرة ، وأن الرأى العام سيقر حدودها باعتبارها مسألة تتعلق بالتكتيكات السياسية. ولكنه عبر بالفعل عن خشيته أن يثير التصريح قلقاً لدى الفرنسيين . ولم يصل الأمر بقنصل عام آخر حتى إلى الاعتقاد بأن أثر التصريح في الفرنسيين المستوطنين في الجزائر لن يختلف عنه بالنسبة إلى فيشي التي قوى مركزها في شمالى إفريقيا بعد استدعاء فيجان .

ورأت وزارة الخارجية الألمانية أن الضرر المترتب على إصدار التصريح لن يكون بالغاً ، وأكثر من هذا أنها رأت أن الصعوبات ستزداد بتطور الهجوم الياباني والمبادرة السياسية اليابانية في شئون غربي آسيا وشرقي إفريقيا . ولكنها من ناحية أخرى لم تر ثمة ما يرغم ألمانيا بوجه خاص على إصدار مثل ذلك التصريح ، لأن الموقف الحربي في البحر المتوسط كان قد تحسن ، ولأن انتصارات روميل في شمالى إفريقيا كانت تعلن عن نفسها. حقيقة أن الزعماء العرب طالبوا بتصريح ، إلا أنه كان من الواضح أن من الممكن اقتناعهم بوعود سرية تقدم لهم كتابة(١).

تبادل الرسائل

وفي النهاية اتخذ قرار مطابق لروح ما سبق أن أشرنا إليه . فقد وضع اقتراح رشيد عالى الخاص بعقد معاهدة بين المحور والعراق موضع التنفيذ . وتم الاتفاق على حل هذه المسألة بتبادل للرسائل يحتوى على كل نقاط مشروع الكيلاني . ولم تكن لدى الإيطاليين سوى تحفظات قليلة وافق عليها الألمان . وفي ٢٥ مارس قبل الكيلاني المشروعات التي أعدتها وزارة الخارجية الإيطالية ، وفي ٣١ مارس جرى تبادل رسمي للرسائل بينه وبين الكونت شيانو .

---

(١) نحن نستنتج أن ريبنتروب أصدر أمرا في ٢٣ فبراير بصدد مسألة فرنسا والسياسة العربية ، ولكن [المؤلف] لم يجد هذا الأمر في مجموعة الأوامر .

وقد استهل رشيد عالى رسالته إلى شيانو بتعبيره عن ثقته فى المحور وأهدافه . وأتبع ذلك بتصريح باسم الشعب العراقى جاء فيه أن العراقيين على استعداد لمحاربة بريطانيا ، وأنهم يرغبون فى أن يقوم تعاون وثيق ودائم بين البلدان الثلاثة المعنية . واحتوت الرسالة على الالتزامات التالية :

(ا) الاشتراك فى الحرب إلى جانب المحور حتى يتحقق النصر . ولكن لم يكن لهذا سوى أهمية ضئيلة فى ذلك الوقت . فلم يكن يستطيع دخول الفرقة العربية سوى قليل من العرب ، من أولئك الذين يقيمون فى أراض واقعة تحت سيطرة المحور . ولم تكن لدى العرب بوجه عام ، والعراقيين بوجه خاص ، سوى فرصة ضئيلة للاشتراك فى المعارك . ولم يكن من المقيض لهذا الالتزام أن يصبح على جانب من الأهمية إلا فى حالة دخول المحور العراق .

(ب) إلغاء كل « المعاهدات والمزايا والتنازلات التى كانت تربط العراق ببريطانيا وحلفائها فى مجالات العلاقات بين الدول أو فى العلاقات الخاصة». وكانت هذه النقطة قبل كل شيء تعكس مصلحة المحور فى بترول العراق .

(ج) إقامة تعاون وثيق ودائم بين العراق وألمانيا وإيطاليا . وكان المقصود من هذه النقطة إيضاح التزام العراق بالتقدم إلى هذه الدول بطلب تقديم المساعدة فيما يتعلق بتطوير البلاد وإعادة تنظيم وتسليح جيشها . ومما يجدر ذكره أن العراق كان مرتبطاً بالتزامات مماثلة فى المعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا .

وتقدم رشيد عالى ببعض المطالب التى وجهها إلى دولتى المحور فيما يتعلق بمساندة مطالب العراق فى مؤتمر الصلح القادم . وفيما يتعلق بهذه النقطة انحرفت الرسالة عن مشروع رشيد عالى الذى تضمن إشارة واضحة إلى مساعدة ألمانيا وإيطاليا للعراق فى الحصول على تعويضات من بريطانيا فى مقابل غزوها للعراق فى أبريل ومايو ١٩٤١ . وكان الإيطاليون يفضلون صيغة أكثر عمومية . كما رفض بنفس الصورة طلب الكيلانى الخاص بالتزام المحور بعدم عقد أى معاهدات تتناقض مع فحوى الاتفاق مع العراق .

وتضمن جوهر رسالة شيانو – التى جاءت على شكل رد على رشيد عالى – تأكيداً للالتزامات السابقة . ولكنها نصت على أن الاستقلال التام والسيادة الكاملة للعراق من أهداف المحور ، وأن الحكومتين الألمانية والإيطالية توافقان عليهما موافقة تامة . وصرح شيانو بأن إيطاليا على استعداد للتعاون مع رشيد عالى والشعب العراقى فى تحرير العراق من السيطرة البريطانية ، وتعهد « بتزويد الجيش العراقى والشعب العراقى » ، بالعتاد والأسلحة اللازمة لهذا الغرض . وأكد له شيانو أن إيطاليا على استعداد كذلك لأن تحقق – فى المدى الممكن – رغبات العراق فى مجالات الاستثمار والمساعدات الفنية والأسلحة . وانتهت كلتا الرسالتين بالتحذير من عدم إفشاء فحواهما دون أن يصدر قرار من كلا الطرفين بهذا الصدد .

وفى ١٨ مايو جرى تبادل للرسائل المشتركة فى برلين عن طريق فورمان . وقد وقع هذه الرسائل رشيد عالى وفون ريبنتروب .

وقد أدى هذا التبادل للرسائل ، شأنه شأن الأشكال الأخرى من الاعتراف برشيد عالى من جانب كل من دولتى المحور ، إلى ازدياد غضب مفتى القدس. وقد ازداد التباعد المتبادل بين الزعيمين العربيين ، برغم أن رشيد عالى أثار مسألة تصريح عام باستقلال العرب يقدم للمفتى . وقد قام بذلك فى محادثة له مع ريبنتروب وشيانو فى ٢٥ مارس، حين تم الاتفاق نهائياً على تبادل الرسائل حول العراق . وتشهد محادثة الحاج أمين مع جرانوف Granow على مدى تأثره بما حققه الكيلانى ؛ فقد استعمل ألفاظاً قوية بعد الاتفاق على تبادل الرسائل، وأعلن أنه لن يواصل أوجه نشاطه الدعائى فى صف المحور إلا إذا تلقى رسالة اعتراف . بل لقد وصل به الأمر إلى التهديد بالتقاعد فى إسبانيا أو المجر .

على أن غضب المفتى لم يكن يستند إلى أساس حقيقى ، لأن دولتى المحور لم ترغبا فى محاباة الكيلانى بأى شكل . والواقع أن المحادثات والعمل التمهيدى الخاص بمشروعات الوثائق المتصلة بالمطالب العربية العامة بدأت فى أوائل أبريل وأقرت مطالب الزعماء العرب بهذا الصدد . وقد تم الاتفاق على أن يوجه كل من الزعيمين رسالتين متشابهتين إلى كل من ريبنتروب وشيانو ، على أن يتلقى كل منهما إجابتين منفصلتين . وفى ٢٥ أبريل قدمت مسودتا الرسالتين– اللتين وافقت عليهما

ألمانيا وإيطاليا — إلى رشيد عالى والحاج أمين . ولم يستطع الزعيمان العربيان أن يجريا أى تعديلات فى المسودة . وفى ٢٨ أبريل جرى تبادل الرسائل بينهما وبين ريبنتروب وفى ٣ مايو ١٩٤٢ جرى تبادل الرسائل المتشابهة مع شيانو .

وقد استهلت رسالة المفتى — الكيلانى بالتعبير عن الثقة فى المحور « وأهدافه النبيلة » ، وأكدت أن الشعب العربى على استعداد لأن يحارب العدو المشترك حتى يتحقق النصر النهائى . وكان أهم ما تضمنته مطالبة الحكومتين بأن يصدر تصريح باسم الحكومة الألمانية و / أو الإيطالية يتضمن :

(ا) أنها على استعداد لمساعدة البلدان العربية التى كانت ترزح تحت الحكم البريطانى فى ذلك الوقت .

(ب) أنها تعترف بسيادة واستقلال البلدان العربية فى الشرق الأدنى ، وهى البلاد التى ترزح تحت نير الظلم البريطانى .

(حـ) موافقتها على وحدتها إذا ما كانت هذه رغبة من يشتركون فى ذلك مستقبلا .

(د) مناداتها بتصفية الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

وقد أكدت الإجابة فحوى الرسالة . وهكذا تكون دولتا المحور فى النهاية قد أدلتا بالتصريح المرجو بخصوص المطالب العربية . ولكنه كان بياناً سرياً يحتوى على شرط ينص على عدم إفشائه ، يشبه فى ذلك ما احتوت عليه الرسالة الخاصة بمسألة العراق . كما احتوى على القيود العادية . وهكذا استعملت فقرة « بلدان الشرق الأدنى العربى » محددة المدى الإقليمى للوعود المبذولة لبلدان الهلال الخصيب. واختلفت صيغة « الاستقلال التام والسيادة الكاملة » التى احتوتها الرسالة الخاصة بالعراق عنها فى التصريح الجديد الذى استعملت فيه كلمتا « استقلال وسيادة » دون أن تقرن بهما الصفتان . وقد أثار هذا الخلاف احتمال حدوث تفسير للوعود المتصلة بالتصريح العربى العام . ووفقاً لما اقترحه فورمان جعل توحيد البلدان العربية متوقفاً على موافقة المشتركين[1]. وكان من الممكن لاصطلاح « مشترك » (Beteiligten) أن يشمل فرنسا أيضاً — ومن هنا فإن الالتزامات

(١) أبدى فورمان فى مذكراته شكه فى موافقة المفتى على هذه الصيغة .

التى تعهد بها المحور لم تكن سرية فقط ، بل إنها أيضاً كانت تتصف بالنفاق . ولم يتسم بالوضوح سوى الوعد الخاص بتصفية الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

ويبدو أن المحور لم يعلق أهمية كبرى على هذا التصريح السرى . ورغم أن شيانو يشير فى مذكراته إلى التصريح الخاص بمسألة « البلاد العربية الحرة والهند الحرة » ؛ فإنه لم يشر إلى تبادل الرسائل . ومن الواضح أن المحور لم يكن يتوقع كثيراً من التصريحات . بل إن دولتيه كانتا تعتبران انتصار جيوشهما العامل الحاسم الوحيد . ومن المحتمل جداً أن التصريحات صدرت لتجنب إغضاب الزعماء العرب الذين قد تحتاجان إليهم فى المستقبل - ولكن التصريحات قدمت خدمة نافعة فى ذلك الوقت لأجهزة الدعاية الألمانية والإيطالية .

وكان القادة العرب على بينة من قيود وغموض الوعود التى تلقوها . ولكنهم كانوا يشبهون الشريف حسين فى موقفه من بريطانيا منذ حوالى عشرين عاماً ، من حيث إنهم لم يعولوا كثيراً على الوعود بمقدار ما عولوا على الموقف الموضوعى الذى قد يترتب على انتصار المحور . فهم كانوا بحاجة إلى التصريحات كدليل على ما قاموا به ، لأغراض دعائية ، وأخيراً وليس آخراً كوثيقة تنظم وضعهم السياسى تحت سيطرة هتلر وموسولينى .

وفى ٢ مايو ١٩٤٢ أذاع الحاج أمين ورشيد عالى كلمات من راديو المحور بمناسبة مرور عام على نشوب القتال فى العراق . واستغلا فى هذه المناسبة الوعود التى حصلا عليها بمقتضى الرسائل السرية . ولكن من المشكوك فيه جداً ما إذا كان لكلماتهما أى أثر خاص . وفى هذه المرة أيضاً كان القادة القوميون العرب ، لا الناطقون بلسان المحور ، هم الذين استعملوا فقرات من هذه الرسائل . وبعد شهرين كتب مسئول ألمانى معلقاً على المحادثات التى جرت مع ممثلى اللاجئين العرب إلى إستنبول مايلى : « لم يفهم بوجه عام مغزى كلمات المفتى والكيلانى التى أذيعت فى راديو روما فى ٢ مايو »[1] .

---

(١) أشار سايلر Seiler فى رسالة بعث بها من الآستانة فى أول يوليه ١٩٤٢ إلى محادثة جرت بين جروبا وممثلين بارزين للمنفيين العرب الذين أغرتهم انتصارات روميل فى مصر بطلب إصدار تصريح خاص باستقلال العرب .

الفصل الثانى عشر

الهجوم المحورى على مصر
الموقف الحربى فى ربيع وصيف عام ١٩٤٢

فى الوقت الذى كانت تجرى فيه المفاوضات والمساومة فى برلين وروما فى أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ بصدد صدور تصريح يساند المطالب العربية ، أخذ الموقف العسكرى فى البحر المتوسط يتغير لصالح المحور . حقيقة أن قوات الجنرال روميل واصلت انسحابها إلى مدينة العجيلة حتى ٧ يناير ١٩٤٢ — تحت الضغط البريطانى ، إلا أن الجبهة صمدت هناك . وفى خريف عام ١٩٤١ نقلت القيادة الألمانية عدداً كبيراً من الوحدات البحرية من المحيط الأطلنطى إلى البحر المتوسط ، ثم قامت بعد ذلك بنقل بعض الوحدات الجوية من الجبهة الشرقية . ومنذ ذلك الوقت مكنت هذه الإجراءات ، بالإضافة إلى تعيين الفيلد مرشال كسلرنج قائداً للجبهة الجنوبية ، الألمان من مباشرة تأثير أقوى على العمليات الحربية فى البحر المتوسط .

وما حلت أواخر عام ١٩٤١ حتى أصبح بالإمكان الإحساس بالنتائج ، وذلك حين حدث فى الوقت الذى شهد انتصارات بريطانيا البرية فى الصحراء الغربية أن حلت بها هزائم بحرية خطيرة . فقد أغرقت البحرية الإيطالية كثيراً من وحدات العدو : مثل حاملة الطائرات آرك رويال والسفن الحربية بارهام وفاليانت وكوين إليزابيث — وقد تم إغراق القطعتين الأخيرتين فى ميناء الإسكندرية بطوربيدات بشرية . وفى الوقت ذاته (١٠ ديسمبر) منى الأسطول البريطانى بهزيمة مرة فى الشرق الأقصى . وفى ١٨ ديسمبر و ٥ يناير أرسلت القيادة البحرية الإيطالية وحدات قوية لحراسة القوافل المتجهة إلى شمالى إفريقيا ، مما عزز مركز المحور هناك إلى حد كبير ، ولكن لم يكن بالإمكان مواصلة القيام بذلك نظراً لقلة الوقود . وحينئذ أصبحت مسألة استخدام الموانى التونسية لإمداد القوات الإفريقية على جانب من

الأهمية . وفى ٢٩ ديسمبر ١٩٤١ بعث موسولينى إلى هتلر برسالة أشارت إلى أن قوافل النقل المتوجهة إلى أفريقيا تستلزم كثيراً من البترول ، بحيث أصبح من المستحيل توفير هذا الوقود للجبهة الإفريقية حتى بالكميات التى لايمكن الاستغناء عنها بالنسبة إلى العمليات الدفاعية . وقد أكد أن من المستحيل وضع خطة للهجوم دون تأمين قواعد فى تونس . وكان من رأى الدوتشى أن من الواجب الحصول على هذه القوافل بالاتفاق مع فيشى أو بالقوة . ورفض هتلر فكرة إجراء اتفاق مع فيشى ، لأنه لم يكن يرغب فى قبول الشروط التى كان مقيضاً لبتان أن يقدمها ، وعارض فى استخدام القوة خوفاً من ردود الفعل فى إفريقيا الفرنسية .

وفى ٢١ يناير شن روميل هجوماً مضاداً ، وفى خلال أيام قلائل استعاد قسطاً كبيراً من الأراضى التى انتزعها البريطانيون منه . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى طبرق . وفى ٥ فبراير استولى على مخيلى وتميمى ودعمت الجبهة على هذا الخط حتى أواخر مايو ١٩٤٢ .

وكان الموقف العسكرى على هذا المنوال حين مضت الأركان الألمانية والإيطالية تراجع الخطط الخاصة بالعمليات الحربية فى البحر المتوسط فى المستقبل . وبدا فى المناقشات رأيان مختلفان: فقد كان من رأى القيادة الإيطالية العليا أن الاستيلاء على مالطة هو شرط النجاح فى شمالى إفريقيا ؛ وأن إزالة هذه العقبة التى تعترض الطريق ستؤدى إلى جعل إمداد القوات أكثر انتظاماً وأمناً . ولكن القيادة الألمانية كانت ترى أنه لايمكن شل مالطة إلا بالقيام بنشاط جوى . وفى النهاية وافقت القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة على مساعدة إيطاليا فى غزو مالطة ، وفى ٢٢ أبريل حصل كسلرنج على موافقة هتلر . وبحثت مسألة مالطة من جديد فى اجتماع بين القيادتين العليين الألمانية والإيطالية عقد فى أوبرسالزبورج فى ٢٩ — ٣٠ إبريل . واستقر الرأى على خطة وسط كان قد دافع عنها كسلرنج . وكانت هذه الخطة تستند إلى آراء روميل الاستراتيجية . فقد كان من الواجب تأجيل النزول فى مالطة حتى تتم هزيمة البريطانيين فى الصحراء الغربية ، وذلك للحيلولة دون شن هجوم مضاد بقصد مساعدة المدافعين عن الجزيرة . وفى اجتماع انعقد فى برختشجادن (أول مايو) اتخذ قرار بأن يشن روميل

هجوماً فى نهاية الشهر ، ويستولى على طبرق ثم يزحف شرقاً ولكن دون أن يتخطى الحدود المصرية . وحينئذ يقتصر على الدفاع ، على حين تنصب معظم جهود المحور على الاستيلاء على مالطة (العملية هرقل) . وكان على قوات روميل ألا تقوم بغزو مصر إلا بعد الاستيلاء على مالطة وتأمين خطوط الاتصال . وكان من الواجب بدء عملية هرقل فى يولية ١٩٤٢ ، ولكن تقرر تعديل هذا القرار . وفى الوقت نفسه كانت مالطة هدفاً مستمراً للغارات الجوية التى شنها المحور .

وأدى الهجوم المتواصل على مالطة فى أبريل ومايو إلى تسهيل عمليات النقل الحربى المحورى إلى شمالى إفريقيا . ولكن لم يكن ثمة مجال لحشد قدر أكبر من المؤن ، إذ أن فيلق إفريقيا الألمانى كان وحده يتطلب ٤٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ طن من العتاد شهرياً . وفى ٢٦ مايو استأنف روميل هجومه وسجل كثيراً من الانتصارات السريعة : فى بير حكيم فى ١٠ يونيه ، وفى اشتباك مع الدبابات البريطانية فى العضمة فى ١٢ — ١٣ يونيه ، والاستيلاء على سيدى رزق فى ١٧ يونيه وعلى طبرق فى ٢١ يونيه . وكانت مالطة فى ذلك الوقت على وشك أن تتعرض للغزو .

وفى ٢٢ يونيه صرح الفيلد مرشال الجديد (وكان روميل قد تلقى عصى المرشالية بعد الاستيلاء على طبرق) لڤون رنتلن بأنه كان ضد إيقاف الهجوم[١] وطلب منه أن يبلغ موسولينى والقيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة بذلك . وأكد له أن أهم شيء ليس عدم السماح للبريطانيين بخلق جبهة جديدة . وكان روميل مقتنعاً بتفوقه الكبير على البريطانيين وبأن روح قواته المعنوية ممتازة . وفى طبرق استولى الألمان على قدر كبير من العتاد الحربى ، مما جعل روميل يتحرق لتعقب البريطانيين داخل الحدود المصرية وفتح الطريق إلى الإسكندرية وقناة السويس ، وطلب من هتلر أن يوافق على تحقيق هذا الهدف .

وعلى أية حال فقد اتسم موقف هتلر من عملية هرقل بالبرود — وفى رسالة بعث بها إلى موسولينى فى ٢٣ يونيه ساند طلب روميل الخاص بوجوب إلغاء الدوتشى

---

(١) كتب روميل بعد ذلك : Krieg ohne Hass (حرب بدون كراهية) — هايد نهايم ، ١٩٥٠ ، ص ١٢٦ : « قبل بدء الهجوم كان من الواجب . . . الاستيلاء على مالطة ، ولكن سلطاتنا العليا تخلت عن هذا الهدف لسبب غير مفهوم » .

الأمر الخاص بعدم اجتياز الحدود المصرية . وفى الواقع أن فكرة الوصول إلى قناة السويس كانت شديدة الإغراء بالنسبة إلى موسولينى . وبرغم اختلاف وجهات نظر مستشاريه ، فإنه وافق على رغبة روميل ، وتوجه إلى إفريقيا يوم ٢٩ يونية . وشحن بالطائرة الحصان الأبيض الذى كان من المتوقع أن يمتطيه لدى دخوله العاصمة المصرية . وفى نفس اليوم سقطت مرسى مطروح ، ووصل روميل إلى العلمين فى أول يوليه .

ولكن جيش روميل لم يلبث أن صادف مقاومة بريطانية — بل لقد وصل الأمر بالإنجليز إلى درجة القيام بهجوم مضاد واحتلال بعض الأراضى . على أن الهجوم على الموقع الرئيسى للمحور فى ٢١ — ٢٦ يوليه منى بالفشل . وهكذا واجهت القوات بعضها بعضاً فى العلمين استعداداً للهجوم الذى كان مقيضاً له أن يقرر مصير مصر والبلدان العربية والشرق الأوسط برمته .

وكان مقيضاً للانتصار المحورى فى شمالى إفريقيا أن يكون له أثر ضخم فى مجرى الحرب . فلو تحقق هذا النصر لسيطر المحور على البحر المتوسط وقناة السويس ولأمكنه الحصول على كميات البترول الضخمه الموجودة فى الشرق الأوسط . وهذا بالضبط ما كانت تفكر فيه بعض الدوائر الألمانية ، ومنها — على سبيل المثال — أركان روميل ، حين رسمت خطة الهجوم على مصر .

وفى الوقت نفسه قام الألمان بهجوم على مسافة تبعد عن مصر شمالا مسافة تقرب من ٢,٠٠٠ كيلومتر فى القطاع الجنوبى من الجبهة السوفييتية . وكان مقيضاً لما جرى على هذه الجبهة أن يقرر مصير الحرب العالمية الثانية . وقد سبق أن أوضحنا أن الحكام النازيين ربطوا بين خططهم فى الشرق الأوسط وبين المعارك التى كانت تجرى على تلك الجبهة السوفييتية .

وقد تطور الهجوم على الجبهة الشرقية فى اتجاهين رئيسيين : الشرق والجنوب . وكان هذا الاتجاه الأخير حاسما بالنسبة إلى خطط ألمانيا الخاصة بغزو إيران والبلدان العربية . وتكرر ما حدث فى عام ١٩٤١ ، من حيث تقدم الألمان فى البداية فى وجه مقاومة الجيش السوفييتى . ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ خططهم المرسومة . ففى ٢٣ يوليه سقطت روستوف ، وفى ٢٤ أغسطس تم الاستيلاء على ما يكوب .

وفى ٨ أغسطس دخلت القوات الألمانية مزدوك ، وفى ١٠ سبتمبر وصلت إلى نوفوروسيسك . أما سويندرستاب ف التى كانت معززة بكثير من الوحدات من مختلف الأسلحة ، فقد دخلت مدينة بوديونفسكايا على نهر كوما . وفى ٢٥ أغسطس وصل الألمان إلى نهر الفولجا .

وكان يبدو أن السياسة النازية الخاصة بالبلدان العربية تقترب من لحظتها الحاسمة . ففى إفريقيا كانت قوات المحور تقف على أبواب الإسكندرية . وكان يبدو أن الاستيلاء على مصر قد أصبح وشيكاً – بكل ماله من دلالات سياسية واضحة . ولما كانت مصر موضعاً لاهتمام الإيطاليين ، فإنها أصبحت مسرحاً إيطالياً للحرب ، وكان من واجب القيادة الإيطالية أن تتولى توجيه الاستيلاء عليها . على أن القوات الألمانية لعبت دوراً أكبر فى هذه العملية ، وكانت القيادة الألمانية فى سبيلها إلى الحصول على نفوذ متزايد هناك . ولكن الألمان اعترفوا رسمياً ببلدان البحر المتوسط – ومنها مصر – باعتبارها واقعة فى منطقة النفوذ الإيطالى . وقد أوضحت المفاوضات الخاصة بإصدار تصريح موجه للعرب أن الإيطاليين أبدوا ضبطاً للنفس فى كل ما يتعلق بمصر يفوق ما أبدوه إزاء البلدان العربية الشمالية ، وكان على النازيين أن يعملوا حساباً لكل هذا فى سياساتهم .

الانقلاب فى مصر

سبق أن أوضحنا أن الدوائر الحاكمة فى مصر سعت إلى إقامة اتصالات بألمانيا . وتدل وثائق وزارة الخارجية الألمانية على أن القائم المصرى بالأعمال فى برن – عسل باك – والبرنس محمد إبراهيم والقنصل المصرى العام فى استنبول ، حافظ عمرو ، والسفير المصرى فى طهران (يوسف) ذو الفقار باشا صهر الملك فاروق وآخرين اتصلوا بالهيئات الدبلوماسية الألمانية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر حتى قبل الهجوم على الاتحاد السوفييتى . وجرت اتصالات أخرى فى أكتوبر فى طرابيه حين زار الدكتور سمير ذوالفقار (بك) فون بابن ، وفى نوفمبر ١٩٤١ حين تمت الاتصالات بين وزير مصر المفوض إلى حكومة فيشى ومسئولين آخرين فى المفوضية وبين بعض المسئولين الألمان . وكانت أهم هذه الاتصالات تلك التى

أجراها ذو الفقار (باشا) الذى اتصل — فى أبريل ١٩٤١ — بإيتل وزير ألمانيا المفوض فى طهران ، باسم (الملك) فاروق وبتعليمات خاصة منه. وقد أشار ذو الفقار (باشا) إلى الموقف الذى وضع فيه الضغط البريطانى المستمر الملك . وعبر عن عطف فاروق على هتلر واحترامه له ولألمانيا ، وعن أطيب تمنياته بالانتصار على بريطانيا . وقد صرح بأن الملك وشعبه يودان مشاهدة قوات التحرير الألمانية فى مصر فى أسرع وقت ممكن . ورداً على سؤال إيتل الخاص بموقف مصر من إيطاليا كان رد (ذو الفقار باشا) أن المصريين فى الوقت الذى يحارب فيه الجنود الألمان أيضاً فى شمالى إفريقيا ، قد أيقنوا أن الألمان قد أتوا كمحررين لا كطغاة جدد مثل الإيطاليين .

وفى ٣٠ إبريل ١٩٤١ تلقى إيتل مذكرة موجهة إلى السفير المصرى رداً على رسالة من الملك فاروق . وقد أكد ريبنتروب للملك — باسم هتلر — أن حرب ألمانيا ليست موجهة ضد مصر أو فى الواقع ضد أى بلد عربى ؛ بل ضد إنجلترا وحدها . وجاء فى المذكرة أن دولتى المحور تريدان طرد بريطانيا من أوربا والشرق الأدنى إلى غير رجعة ، وإقامة نظام جديد يقوم على مبدأ المصالح المشروعة لكل الشعوب . وأكد ريبنتروب أن ألمانيا ليست لها أطماع إقليمية فى البلدان العربية ، على حين أن موسولينى وهتلر يرغبان فى أن يتحقق استقلال مصر وكل العالم العربى . وصدرت التعليمات إلى إيتل بأن يطلب من السفير أن يقدم هذا التصريح إلى الملك وأن يبلغه باستعداد ألمانيا لإقامة روابط وتعاون أوثق مع مصر . ولم ينفذ اقتراح ريبنتروب الخاص بالقيام بالاتصالات اللازمة فى بوخارست أو أنقرة ، لأن ذو الفقار (باشا) كان يريد أن يكون هو الوسيط فى المفاوضات والمحادثات . وطيلة عام ١٩٤١ أجرى فاروق اتصالات مع الألمان[١] . وفى نفس الوقت كان الريخ يبدى بعض الثقة بالوفد الذى كان حينئذ يعارض وزارة حسين سرى باشا الموالية لبريطانيا . وحين وصل الوفد بعد ذلك إلى الحكم فى عام ١٩٤٢ سعى

---

(١) فعلى سبيل المثال حذر الملك الألمان — فى رسالة بتاريخ ٢٩ يونيه — من الخطة القاضية باستيلاء القوات البريطانية على حقول البترول فى إيران (رسالة إيتل — طهران فى ٣ يوليه ١٩٤١) —
(DGFP, XIII, no. 66, pp. 77-78).

الألمان إلى إجراء اتصالات معه بصفته أقوى الأحزاب المصرية . وبإمكاننا أن نستشف من محادثة جرت بين إيتل وذو الفقار (باشا) فى ٢ يولية ١٩٤١ ، بطلب من إدارة وزارة الخارجية الألمانية طبقاً لتعليمات خاصة [١]، أن الحكومة النازية كانت مهتمة بمصير عزيز على المصرى وعزام باشا وعلى ماهر باشا [٢]

وفى أكتوبر ١٩٤١ ، اتصل أخو ذو الفقار (باشا) ، دكتور سمير ذو الفقار (بك) ، بفون بابن فى طرابية . وقد قدم نفسه باعتباره مبعوثاً بأمر الملك فاروق كذلك باسم ثلاثة أحزاب مصرية : الوفد والحزب الوطنى والأحرار الدستوريين. وباسم هذا التحالف الغريب طالب بالاستقلال التام لمصر وبتأكيد بألا تقع مصر فى منطقة النفوذ الإيطالى . وطالب بإيقاف قذف القاهرة بالقنابل ، وقدم بعض المعلومات عن مواقع القوات والمنشئات البريطانية فى مصر ، وصرح بأن رئيسه يرغب فى إيجاد الجو المناسب لاحتلال المحور للبلاد ، وأنه سيصل به الأمر إلى العمل على مساعدة قوات المحور إذا ما كان ذلك ممكناً [٣] . على أن الألمان لم يكونوا على استعداد لقطع وعود سواء بخصوص استقلال مصر التام أو بخصوص عدم قذف القاهرة بالقنابل .

كما واصلت دولتا المحور الاتصال بالمصريين المقيمين فى أوربا . فمثلا كانت توجد الجمعية الوطنية المصرية فى أوربا ، وهى الجمعية التى كانت تساندها الحكومة الإيطالية . وكان يرأسها الطيب ناصر . ولكن كانت أهم شخصية مصرية فى أوربا المحتلة فى ذلك الوقت هى خديو مصر السابق ، عباس حلمى الثانى الذى خلعه الإنجليز فى عام ١٩١٤ . وقد ولد عباس فى عام ١٨٧٤ وتلقى

---

(١) كشفت هذه التعليمات أن الخطة القاضية بإرسال هنتيج بصفته مبعوثاً خاصاً لإجراء المحادثات مع ذو الفقار باشا قد ألغيت ، وأنه كانت تسود بدلا من ذلك محاولة حذرة لتقوية الاتصالات مع مصر ، نسبة إلى التطورات السيئة التى جرت فى إيران .

(٢) كان عبد الرحمن عزام أحد أعضاء وزارة على ماهر (باشا) ومن أوثق المتعاونين معه . وقد أقيل من منصبه باعتباره قائداً للجيش المرابط فى مايو ١٩٤١ وفى عام ١٩٤٥ أصبح أول سكرتير عام للجامعة العربية . وهو يشبه على ماهر فى أنه كان من أنصار الملك فى أوائل الحرب .

(٣) كان الوفد يعارض البلاط والوزارة المصرية القائمة التى لعب فيها الأحرار الدستوريون دوراً هاماً . وكان الحزب الوطنى فى ذلك الوقت يشكل هيئة صغيرة معادية لبريطانيا ، كان أهم ما تقوم به هو منافسة أكبر الأحزاب المصرية (الوفد) .

تعليمه فى فينا ، وعاش فى ألمانيا وقتاً طويلا ، وكان صديقاً قديماً لألمانيا ولسلطان تركيا . وكان عباس حلمى الثانى على علاقات وثيقة بكثير من الألمان الذين كانوا يعملون فى تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وفى أثنائها . وكان واسع الثراء وعلى علاقات طيبة برجال الصناعة الألمان ، كما كانت له صلات متعددة بالطبقات الراقية الأوربية وصداقات واسعة فى تركيا [١]. وقد ساند كثيراً من القادة العرب [٢]. وكانت آراؤه تمثل خليطاً من الواقعية السياسية والاستعراض الأرستقراطى. ولم يكن يهتم بحركة الوحدة العربية بل كان يراها وهماً ، وينكر قدرة العرب على تكوين دولة أو على التنظيم والدبلوماسية . وقد أقام عباس حلمى الثانى اتصالات مع وزارة الدفاع ووزارة الخارجية الألمانيتين . ومن المحتمل أن مصالحه المالية فى أوربا لعبت دوراً كبيراً فى علاقاته الودية بالسلطات النازية . وقد تنازل عن العرش المصرى وأصدر تصريحاً بهذا الخصوص فى لوزان (١٢ مايو ١٩٣١) ، ولكنه أوضح فيما بعد أنه يطالب بالعرش لابنه . وكان وجود عباس حلمى فى أوربا من العوامل الهامة التى حملت فاروقاً على السعى إلى إقامة اتصالات بالألمان لكى يؤمن حقوقه العائلية فى حالة انتصار المحور .

وكانت مخاوف فاروق تستند إلى أساس ما — إذ من المؤكد أن عباس حلمى حاول بالفعل أن يحرز ثقة الألمان . وفى أواسط أبريل عبر عن رغبته فى مقابلة ريبنتروب أو أحد الرجال الآخرين فى الدوائر العليا — ولكن ذلك لم يتمخض عن أى شىء فى ذلك الوقت . على أن فون هنتج قدم إلى باريس حوالى آخر يونية ، وهناك تلقى معلومات معينة من الخديو ، كما تلقى منه عرضاً بالتعاون .

ولم تكن وزارة الخارجية الألمانية منذ البداية تنوى مساندة ادعاءات عباس حلمى الأسرية ، ولكنها رأت أن من المستحسن استغلال اتصالاته الواسعة فى الخارج . ولهذا كلفت باريس بمواصلة اتصالاتها به . وظلت هذه العلاقات دون تغيير بعد زيارة عباس حلمى لبرلين (٢٥ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤١) .

ويبدو أن أخبار اتصال عباس حلمى بالألمان ، وربما أيضاً أخبار زياراته

---

(١) وبطبيعة الحال كان أصدقاء عباس حلمى الأتراك من معارضى النظام الكمالى .

(٢) فمثلا كان شكيب أرسلان يتلقى منه أموالا .

لبرلين ، قد أثارت قلقاً فى البلاط الملكى المصرى . وفى ٣٠ يناير ١٩٤٢ طلب سرى عامر (بك) موضع ثقة الملك فاروق — وكانت له ميول محورية — من وزير بلغاريا المفوض أن يدلى بتصريح للألمان فحواه أن الملك وأنصاره يقفون فى صف المحور ، وأنهم لاينكرون ذلك . كما أكد التصريح أن الألمان قد أبلغوا بأن فاروقاً على علم بمؤامرات عباس حلمى الهادفة إلى إضعاف ثقة برلين به وإلى خلعه حين ينتصر المحور فى الحرب [١]. وكان السبب المباشر لهذه الزيارة التى قام بها سرى عامر لوزير بلغاريا المفوض هو قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفيشى . وقد عارض الملك فاروق قطع العلاقات خوفاً من أن يؤثر ذلك على موقفه إزاء الألمان .

ونتيجة لتدخل فاروق ، نصح ريبنتروب بعدم الاتصال بالخديو السابق . حقيقة أن قوى معينه فى وزارتى الخارجية والدفاع الألمانيتين ألغت هذا القرار بعد وقت قصير ، إلا أن عباس حلمى ظل يلاقى صعوبات فى محاولاته إجراء اتصالات سياسية [٢]. وهكذا قرر الألمان ، قبيل الهجوم على مصر ، أن يتعاونوا مع فاروق ، وأن يمتنعوا على أى حال عن تعيين أى مرشح جديد لعرش مصر . كما قررت الحكومة الإيطالية عدم الاتصال بعباس حلمى بصدد الشئون العربية لعلاقاتها الودية بفاروق .

وقد سبق أن ذكرنا أن الحكومة الألمانية تمسكت بوجه عام بالمبدأ الخاص بأن الوقت لم يحن بعد لمناقشة مستقبل الأراضى التى تعتبر داخلة فى منطقة النفوذ الإيطالى . وإن عدم وجود أى أثر فى الوثائق الألمانية لمحادثات مع إيطاليا حول مستقبل مصر لأمر يستحق الالتفات بوجه خاص . ووجدت السياسة الألمانية الخاصة بتأجيل كل القرارات حتى يحين الوقت الذى يسمح بمناقشة صريحة مع

---

(١) ظلت مفوضيات الدول التابعة للمحور فى البلقان تعمل فى القاهرة وقتاً طويلا ، ولكن أوقف حقها فى إرسال رسائل بالشفرة فى أبريل ١٩٤١ . وقد بارح وزير بلغاريا المفوض مصر فى مارس ١٩٤٢ ، وحينئذ فقط وصلت إلى الألمان أخبار هذه الشفرة .

(٢) حرم على عباس حلمى أن يرحل إلى إستنبول ، على وجه المثال ، لمقابلة (ابنه) الأمير عبد المنعم الذى قدم من القاهرة — وكانت وزارة الدفاع الألمانية قد زودته بسلسلة واسعة من الاستفسارات ليدلى بها خلال هذه المقابلة .

إيطاليا تعبيراً عنها فى كثير من الخطوات السياسية التى اتخذت فى عام ١٩٤٢ . على أن الموقف أحياناً ما كان يتطلب قراراً سياسيًّا مباشراً ، كما حدث بالنسبة إلى العلاقات مع الخديو السابق — ولكن فى أغلب الأحوال كانت مسائل ثانوية هى التى تستحق البحث .

الانقلاب فى مصر

وفى الوقت نفسه تعرضت مصر لأحداث سياسية هامة . فحين قطعت وزارة حسين سرى (باشا) العلاقات الدبلوماسية مع فيشى ، طلب الملك فاروق — الذى كان فى ذلك الوقت يبدى استياءه من إنجلترا بصورة أو أخرى — إقالة وزير الخارجية القبطى صليب سامى (باشا). وسوغ فاروق طلبه بأنه كان خارج القاهرة حين جرى قطع العلاقات مع فيشى وأنه لم يستشر . وكان على ماهر وأصدقاؤه هم القوة التى تسند العرش ، وقام الطلبة بمظاهرات فى القاهرة حين ساند حسين سرى زميله وزير الخارجية . وكان السخط متفشياً فى البلاد فى ذلك الوقت بسبب نقص المواد التموينية . وفى الوقت نفسه كان للانتصارات الألمانية فى برقة والهزائم البريطانية والأمريكية فى الشرق الأقصى أثر ضخم على الرأى العام فى المدن . وفى ٢ فبراير استقالت وزارة حسين سرى .

وفى اليوم التالى زار السفير البريطانى ، سير مايلز لامپسون ، الملك قبل أن يجرى مشاورات مع الأحزاب السياسية . وفى ذلك الوقت انتقد السفير البريطانى حسين سرى ، مناقضاً بذلك الرأى الذى كان قد أبداه قبل أيام قليلة وفحواه أن حسين سرى سيستمر فى الحكم . وقد شكا السفير من عجز مجلس الوزراء ، وأفهم الملك أنه يلوم بلاطه على النتائج غير المرضية للسياسة التى كان ينتهجها حسين سرى . وأهم من هذا أنه طلب من الملك أن يعين وزارة بإمكانها أن تستند إلى التأييد الشعبى — أى وزارة يرأسها مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد . وكان معنى ذلك أن تتألف وزارة وفدية ، لأن السفير البريطانى كان على علم بأن الوفد يعترض اعتراضاً تامًّا على تشكيل أى وزارة ائتلافية . ومما يجدر ذكره أن الوفد كان

يساند طلب إعلان القاهرة مدينة مفتوحة ، وكان نقده للسياسة البريطانية فى مصر آخذاً فى الازدياد . ولهذا لا يمكننا أن نخاطر ببناء افتراض حول الأسباب التى دعت إلى تعديل السياسة البريطانية إزاء الحزب. وثمة افتراض منطقى هو أن الإنجليز كانوا يفضلون أن يستبدلوا مجلس الوزراء العاجز القائم على شلة من الباشوات بمجلس آخر يشكله حزب يتمتع بمساندة الجماهير — إذ أن مثل هذه الوزارة كان لا بد أن تكون معادية لإيطاليا . واعتبر البريطانيون موافقتهم على رجوع الوفد إلى الحكم ورقة رابحة بإمكانهم أن يلعبوا بها إلى أقصى حد . وبعد وقت قصير حلت هذه اللحظة . ومن المحتمل أن لندن كانت تود أن تسد الطريق ، بأنجح وسيلة ممكنه ، أمام تشكيل وزارة يسيطر عليها الملك وعلى ماهر باشا اللذان كانا يعتبران بحق أكبر أنصار المحور فى مصر ، وأن تسعى فى الوقت نفسه إلى تهدئة الموقف بتشكيل حكومة وفدية .

وكان رد الملك على احتجاجات السفير البريطانى أنه كان يتشاور مع الزعماء والأحزاب السياسية ، بما فيها الوفد ، لأنه يرغب فى تشكيل وزارة ائتلافية [١] . وبعد ظهر يوم ٤ فبراير حذر السفير فاروقاً مرة أخرى — وجاء تحذيره هذه المرة على شكل إنذار بأنه سيتحمل مسئولية ما يحدث إذا لم يكلف النحاس حتى الساعة السادسة من ذلك المساء بتشكيل وزارة . وحين لم يمتثل فاروق للطلب بحلول الوقت المحدد ، قدم السفير إلى قصر عابدين فى الساعة التاسعة يرافقه القائد العام للقوات البريطانية فى مصر — الجنرال ستون R. G. W. H. Stone — الذى اصطحبته قوة مشاة وثلاث دبابات خفيفة . وبعد ساعة بلغ الملك الأحزاب السياسية بقراره الخاص بتكليف النحاس بتشكيل وزارة . ويمكننا أن نستشف من التقريرات التى فى أيدينا عن هذه الأحداث أن قادة التشكيلات السياسية الموالية لبريطانيا لم يساندوا مطالب السفير البريطانى بأى شكل .

وقد قدمت وزارة الوفد لبريطانيا كل ما كان يمكن توقعه منها فى مصر فى ربيع وصيف عام ١٩٤٢ حين كان موقف الحلفاء سيئاً للغاية ، وفى الوقت الذى

---

(١) عقد الملك مؤتمراً لزعماء الأحزاب السياسية لم يتمخض عن أى نتائج — انظر :
Lugol: Egypt and the Second World War, pp. 311-12.

كان فيه الجميع يكادون يتوقعون انتصار المحور. ومما لا شك فيه أن المسألة لم تكن تتعلق باشتراك مصر فى الحرب اشتراكاً مباشراً.

ما هو موقف دول المحور إزاء هذه الأحداث ؟ لما كانت إيطاليا عدواً قديماً للوفد الذى ارتبط فى عام ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة مع بريطانيا خوفاً من قيام موسولينى بأعمال عدوانية فى إفريقيا ، فقد وقفت من الوزارة الجديدة موقف العداء . وكانت تصل القادة الإيطاليين أخبار تعطيهم صورة ممتازة عن أحداث مصر . فنى ١١ فبراير نشرت وكالة ستيفانى خبراً ذكرت أنها استقته من أحد مراسليها فى لشبونة[١] عن أحداث ٣و٤ فبراير . وكان الإيطاليون يعلمون أن الملك لا يرضى بقيام حكومة وفدية ، إذ أن العداء بين القصر والوفد كان معروفاً جيداً .

ويمكننا أن نستشف من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أن الألمان لم تكن لديهم فكرة عما كان يجرى فى مصر ، لأن كل الاتصالات الهامة كانت قد قطعت[٢]. وكان تفسير برلين بسيطاً : أزيحت وزارة موالية لبريطانيا وتشكلت وزارة وطنية فى مصر على يد حزب كان قد اصطدم أحياناً ببريطانيا . . وتمسكت وزارة الخارجية الألمانية بموقفها الخاص بعدم مهاجمة النحاس حتى بعد نشر الخبر الذى نقلته وكالة ستيفانى . وتم التعبير عن هذا الاتجاه فى التقارير التى نشرتها الصحافة الألمانية بصدد أحداث مصر .

وقد نشرت الصحافة الألمانية سواء قبل الانقلاب البريطانى فى مصر أو بعده ، أخباراً ومقالات تميل إلى الوفد . وكان عنوان التغيير الوزارى فى مصر فى صحيفة فرانكفورتر تسايتونج له مغزاه : « مصر تريد تقرير المصير . ما وراء كواليس التغيير الوزارى » .

---

(١) بهدف إخفاء المصدر الحقيق . وقد نجحت هذه الخطة . انظر :
S. Kirk : The Middle East and the War, p. 208, n. 3.

(٢) قيم ملشرز فى مذكرة له بتاريخ ٥ فبراير وزارة الوفد تقييما حذرا . فكتب ما يلى « لا يجب أن نستنتج من ذلك أن الطريق كان مفتوحا أمام تشكيل وزارة تميل إلى المحور . وقد أوضح الساسة الوفديون أيضاً أنهم يميلون تماماً ، فى ظروف معينة ، إلى التعاون مع إنجلترا » ولكن الزعماء الألمان لم يشاركوا وجهة النظر هذه بالضرورة .

وفى ١٢ من فبراير بلغ مدير مكتب الكونت شيانو السفير الألمانى فون ماكنزن بأن الأخبار التى تنشرها الصحف الإيطالية عن أحداث مصر كانت مبنية على تقارير مستقاة من مصادر موثوق بها محفوظة فى ملفات وزارة الخارجية . وطلب المركيز داجيتا d' Ajeta — أحد مرءوسى شيانو — من الألمان أن يستعملوا هذه المادة . ولكن الصحافة الألمانية تمسكت بالاتجاه السابق الذى اتبعته . وفى محادثة جرت فى ١٥ فبراير بين داجيتا والبرنس بزمارك ، اتهم داجيتا الألمان برفضهم نشر المادة الإيطالية . وقدم ثلاث رسائل لبزمارك حصل عليها الإيطاليون وفكوا شفرتها : رسالة وزير تركيا المفوض فى القاهرة إلى وزارة الخارجية فى أنقرة ، بتاريخ ٣ فبراير ، والرسالة الشخصية التى بعث بها الملك فاروق إلى وزير مصر المفوض فى واشنطون بتاريخ ٦ فبراير ، والبرقية التى أرسلها الملحق العسكرى الأمريكى فى القاهرة — كولونل فللرز B. F. Fellers — إلى وزارة الحربية بتاريخ ٧ فبراير ١٩٤٢ .

ومن الواضح أن إيطاليا كانت شديدة الاهتمام بأن تقف ألمانيا موقفاً مشابهاً لموقفها بصدد أحداث مصر ، وأن تتخذ برلين موقفاً معادياً للوفد . وحين لم تقم ألمانيا بذلك برغم طلب ما كنزن ، شكا الإيطاليون من رفض نشر المادة التى تنتقد الوفد برغم عدائه المعروف للمحور . حقيقة إن الحكومة الألمانية قدرت موقف الإيطاليين فى نهاية الأمر ، إلا أنها ظلت تسعى إلى إقامة اتصالات مع الوفد . وفى التعليمات السياسية التى أرسلها فايز ساكر فى ٢٦ يونية إلى فون نيوراث الأصغر — ممثل وزارة الخارجية الألمانية فى أركان روميل — وضعت صياغة تتصف بالحذر بخصوص موقف ألمانيا من الوفد .

ومن المحتمل أن الحادثة السابق ذكرها جعلت الحلفاء يكتشفون فى النهاية أن المحور أمكنه فك الشفرة الأمريكية التى سجل بها من القاهرة وضع القوات البريطانية وأعدادها وفعاليتها وتحركاتها . ووقعت أوراق الكولونيل فللرز بطريقة ما فى أيدى الخلايا الشيوعية السرية فى برلين ، وهى الخلايا التى أفشتها من إذاعة لها من محطة إذاعة برلين تحت عنوان (وراء كواليس السياسة العالمية) . وكان المحتوى المثير لهذه الإذاعة هو كفاح مراكز التجسس فى الشرق الأوسط . وتم

العمل فى القاهرة ونقلت المحادثة مقتبسات بالنص من تقارير فللرز إلى وزارة الحربية الأمريكية . وبعد يومين تغيرت الشفرة وفصل فللرز [١] .

وتلقى حساسية الإيطاليين الكبيرة إزاء الشئون الإفريقية ضوءاً على مسلكهم ، إذ أنهم قرروا — باتصالهم بسفارة الريخ — أن يكتشفوا تفاصيل الوثائق السرية لمخابراتهم . ومن المعروف جداً ما كان من أثر فقدان الحبشة وهزائم شمالى إفريقيا على الرأى العام . ولما كان موسولينى يرغب فى الاحتفاظ بهذه المنطقة باعتبارها منطقة نفوذ له وحده ، فإنه عارض لفترة طويلة اشتراك قوات الريخ فى القتال فى إفريقيا . وحين بدأت القوات الألمانية فى عام ١٩٤٢ تلعب دوراً كبيراً متزايداً فى الجبهة الإيطالية ازدادت مخاوف إيطاليا بشكل له ما يبرره . ولهذا كان عدم حماسة برلين لاتخاذ موقف ضد الوفد والنحاس باشا موضع شك لدى الإيطاليين — الذين ازدادت مخاوفهم نتيجة لذلك — من أن هتلر قد تكون له خطط سياسية بخصوص مصر . فالنزاع المستمر بين الجنود الألمان والإيطاليين من مختلف الرتب ، والتقليل من شأن دور إيطاليا فى الحرب ، ومسلك روميل الوحشى إزاء الضباط الإيطاليين ، والسخرية من شجاعة الجنود الإيطاليين — كل هذا أثار الزعماء الإيطاليين دون شك وخلق جواً ينمو فيه عدم الثقة وكل أنواع الشكوك .

الألمان ومصر

وبرغم ذلك فإن الألمان أبدوا كثيراً من ضبط النفس فى كل ما يتعلق بمصر . وقد أكد هتلر عدة مرات فى تصريحاته وجوب كون مصر وقناة السويس من نصيب إيطاليا [٢] . وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على أن تكون روما مركز الدعاية

---

(١) يذهب إبلر Eppler فى كتابه (روميل ينادى القاهرة : Rommel ruft Kairo, p. 48) إلى أن وزارة الدفاع الألمانية كانت قد حصلت على الشفرة الأمريكية منذ يولية ١٩٤١ . ويبدو أن افتراض أن الإذاعة كانت مهمة المخابرات السوفييتية (نفس الكتاب ص ٢٩٤) إنما هو افتراض خاطىء بسبب الطريقة التى عرضت بها المادة .

(٢) على أن هذه التصريحات قد تم الإدلاء بها أمام جمهور كبير نسبياً .

الموجهة إلى مصر والبلدان العربية بوجه عام . ووضع المسئولون الألمان مطالب إيطاليا نصب أعينهم حين كانوا يصدرون تعليماتهم . ومن هنا نجد ، على سبيل المثال ، أن ريبنتروب فى تعليماته الخاصة بالدعاية الإذاعية الموجهة إلى مصر : يدعو إلى استعمال مادة قوية ضد البريطانيين وإبراز دور روميل وجيشه . ولكنه تجاهل مسألة استقلال مصر . كما أن تعليمات فايز ساكر إلى فون نيوراث الأصغر صيغت صياغة تتسم بالحذر الشديد . فقد كتب أن بإمكان الألمان ، بالنسبة إلى مصر ، أن يعولوا أولا وقبل كل شىء على الملك الذى كان مقيضاً له أن يلعب دوراً هامًّا فى تطور الأحداث فى البلاد . كما أن من المعروف أن هتلر زود وزارة الخارجية الألمانية بتعليمات خاصة لإقامة اتصالات مع فاروق للحيلولة دون اختطافه بعيداً عن مصر فى حالة هزيمة البريطانيين .

كذلك نجد ، فيما يتعلق بموقف ألمانيا من الوفد ، أن تعليمات فايزساكر كانت متحفظة بشكل مماثل ، وإن لم تكن متمشية تماماً مع موقف إيطاليا . وقد صرح وزير دولة هتلر بأن النحاس (باشا) وحزب الوفد كانا يعارضان الدوائر التقليدية والبلاط ، وأشار إلى العداء التام بين الوفد وإيطاليا . كما أشار إلى أن الوفد ، برغم وطنيته ، كان عليه أن يضع فى عين الاعتبار قوة بريطانيا فى مصر . واستطرد فايزساكر قائلا إنه طالما كان القتال مستمرًّا يكون من دواعى العقل بالنسبة إلى الألمان أن يتوقعوا بقاء موقف الجيش المصرى والقوى السياسية سلبيًّا . وأكد فايزساكر أن ألمانيا لم تهاجم النحاس (باشا) فى دعايتها . ومن هنا يبدو أن التعليمات دعت إلى تقدير موقف إيطاليا فى ذلك الوقت ، ولكن دون أن يؤدى ذلك إلى تعريض حرية ألمانيا فى العمل مستقبلا للخطر بأى شكل من الأشكال .

وبرغم ذلك كان يجب أن يبقى موقف إيطاليا على ما هو عليه على الأقل من الناحية الظاهرية . بل لقد وصل الأمر بالألمان إلى الموافقة على اقتباس المقالات التى كتبها جايدا V. Gayda لصوت إيطاليا فى نشراتهم الدعائية وفى إذاعاتهم . ومما يسترعى الانتباه ما نلحظه من أن المنشورات الإيطالية التى ألقيت على مصر فى ذلك الوقت حملت شعار « البحر المتوسط لشعوب البحر المتوسط » كما حملت مقالات فرجينيو جايدا الدعائية شعار « مصر للمصريين » جنباً إلى جنب مع

شعارات خاصة بصداقة إيطاليا ومصر طيلة ألفى عام .

وقبل الزعماء النازيون دون تحفظ المسودة التى وضعها موسولينى لتصريح محورى خاص بمصر . وفى ٢ يولية قدم الإيطاليون هذا التصريح إلى الألمان وطلبوا منهم أن يبدوا رأيهم بأسرع وقت ممكن . وفى اليوم التالى نشر التصريح دون أن تجرى فيه أية تعديلات — وكان كالآتى :

« فى الوقت الذى تتقدم فيه قوات دولتى المحور المسلحة عبر مصر ، تؤكدان من جديد تصميمهما على احترام وتأكيد استقلال مصر وسيادتها . إن قوات المحور المسلحة تدخل مصر لا باعتبارها بلداً معادياً ، بل لطرد الإنجليز من الأراضى المصرية ومواصلة العمليات الحربية ضد إنجلترا وتحرير الشرق الأدنى من الحكم البريطانى . وتستلهم سياسة دولتى المحور مبدأ : مصر للمصريين .

« وإن مستقبل مصر ، بعد أن تتحرر من القيود التى تربطها ببريطانيا العظمى ، وهو المستقبل الذى قاست البلاد من أجله آثار الحرب المضنية ؛ يستلهم احتلالها مكانها بين البلدان المستقلة ذات السيادة » .

وقد عبر التصريح عن وجهة النظر الإيطالية . فهو لم يحتو على صيغة « الاستقلال التام والسيادة الكاملة » التى وردت فى الرسالة الخاصة بالعراق التى قدمت للكيلانى[1]. كما لم يشر التصريح إلى الأمانى العربية العامة أو إلى المطلب الرئيسى الذى كان ينادى به الوطنيون والملك فى ذلك الوقت : أى وحدة مصر والسودان . ومما له مغزاه أن تعليمات ريبنتروب الخاصة بالدعاية الألمانية فى مصر قد وضعت نصب عينيها مطالب كل العرب .

وقد وضع حد لتراجع ألمانيا أمام وجهة النظر الإيطالية حين تم حسم مسائل محددة . وقد حاول الألمان قبل كل شىء أن يجروا اتصالاتهم الخاصة فى مصر . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه الاتصالات قد جرت مع عزيز على المصرى والمجموعة المتآمرة من ضباط الجيش الوطنيين . ولكن يبدو أن هذه العلاقات انتهت بعد أن فشلت محاولة المصرى الهرب من مصر فى عام ١٩٤١ .

---

(١) ولكن الإيطاليين أصدروا بالفعل فى دعايتهم الموجهة إلى مصر شعار : « المحور يحارب من أجل الاستقلال التام وحرية مصر السياسية وسيادتها » .

ولم يتمخض إنزال عميلين بالباراشوت فوق النيل ، معهما جهاز إرسال ، كان عليهما أن يتصلا بالمؤامرة المعادية لبريطانيا فى مصر — لم يتمخض عن أية نتائج [١].

وفى أثناء تقدم قوات روميل فى الصحراء الغربية ، حاولت برلين أن تتصل بالملك من جديد ، ولم يكن هذا أمراً سهلا — وقد أمضى العملاء الألمان كل يونية على الأقل فى البحث عن الطريقة التى يقدمون بها للملك تصريحاً من هتلر وريبنتروب . وكان من المتوخى لهذا التصريح أن يحذر فاروقاً من المؤامرات البريطانية ، وأن يحتوى على اقتراح خاص بمساعدته على الهرب من مصر إلى مقر قيادة روميل أو إلى جزيرة كريت . وكانوا يودون أن يضعوا طريقة مشاورات مع الملك ، واقترحوا استعمال إذاعات الراديو الموجهة إلى مصر لهذا الغرض . ومما له مغزاه أن القصد من كل هذه المسألة هو أن تنتقل سراً عن طريق الإيطاليين — وقد تم ذلك بالفعل . وتعاون مع الألمان فى هذه العملية كل من الحاج أمين الحسينى ونائب رئيس جماعة « القمصان الخضر » المصرية (مصر الفتاة) — دكتور مصطفى الوكيل .

وفى ٣٠ يونية طار الدكتور مصطفى الوكيل ، الذى كان يحمل جواز سفر باسم حامل حقيبة وزارة الخارجية الألمانية كورت هوفمان Kurt Hoffmann والمندوب شرينر Schreiner ووزير ألمانيا المفوض السابق فى طهران — إيتل — من برلين إلى صوفيا ، ومنها توجهوا بالقطار إلى إستنبول حيث وصلوا فى ٢ يولية . وعملوا بنصيحة زوج أخت المفتى ، إسحق درويش ، اتصلوا بالقنصل المصرى أمين زكى (بك) ، واستطاع أمين زكى (بك) ، الذى كان مزوداً برسالة توصية من السفارة البريطانية ، أن يحصل على مكان فى الطائرة التى كانت تسير على خط أدنة — القاهرة ، وذلك فى يوم ٥ يولية ١٩٤٢ . وفى يوم ٩ يولية وصلت إلى إستنبول إشارة كان قد اتفق عليها — معناها أن الملك قد تسلم الرسالة

---

(١) كان إبلر Eppler أحد العميلين — وقد اشترك فون ستيفن فى ترتيب المسألة . ويشير « الرئيس» أنور السادات فى كتابه Revolt on the Nile إلى اتصاله بهذين العميلين اللذين كانا من رجال وزارة الدفاع الألمانية .

وفى ١٠ يولية بدأت الإذاعة الألمانية الموجهة من برلين إلى مصر ترسل الإشارات المتفق عليها فى الرسالة . وفى ١١ يولية عاد إيتل والدكتور الوكيل إلى برلين[١]. وفى ٢٣ يولية قام إيتل برحلة أخرى إلى إستنبول ، حين عاد أمين زكى من القاهرة ومعه رد شفهى من فاروق الذى شكر هتلر على الرسالة التى بعثها إليه فى العام السابق وعلى التصريح المحورى الخاص بمصر . ولكنه لم يوافق على مبارحة البلاد . وكان على فاروق أن يختبئ فى اللحظة الحرجة التى يخبره الألمان بها ، وبذلك يمنع الإنجليز من أخذه معهم بالقوة .

وفى الوقت نفسه طار ضابط طيار مصرى — اسمه أحمد سعودى حسين — فى ٦ يولية من مصر إلى مقر قيادة روميل ، ولكن أسقطت المدفعية الألمانية المضادة للطائرات طائرته فقتل . وفى اليوم التالى قام صف ضابط جوى اسمه محمد رضوان بعملية طيران مماثلة ، ونجح فى اختراق نطاق المدفعية الألمانية والبريطانية المضادة للطائرات . وقد تم نقله إلى برلين فى ٢٠ يولية ، ولكن يتبين لنا من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أنه لم يأت معه بمعلومات حربية هامة .

وقد بلغ رضوان الألمان بأنه عضو فى تنظيم سياسى سرى يعمل فى مصر عن طريق شبكة من الخلايا الحماسية . وقد كتب أحد موظفى وزارة الخارجية الألمانية[٢] ما يلى : « فى ملحوظات رضوان عن الموقف السياسى فى مصر ، أشار إلى الحاجة الشديدة إلى تزويد الفلاحين والعمال بوسيلة للتعبير ، وكان شديد العنف حين تكلم عن الملك فاروق الذى وصفه بأنه "تركى" لا يهتم فى المحل الأول بمصالح البلاد بل بإثراء نفسه . كما أن الوفد والمدرسة القديمة من الساسة لا يستطيعون إنقاذ البلاد التى يجب، قبل كل شىء ، أن يقوم فيها نظام عسكرى جديد » . ويبدو من التعليقات على المحادثة أن واضعها لم يوافق على وجهات نظر رضوان . ولكننا

---

(١) مما يلفت النظر أن أمين زكى — فى محادثة جرت بينه وبين إيتل فى ٢ يولية ١٩٤٢ — قد استفاض فى الحديث عن مسألة السودان والضمانات الإيطالية الخاصة بمياه بحيرة تانا ، وعبر عن شكه العميق فى إيطاليا .

(٢) قام المؤلف باقتباس هذه الفقرة الطويلة من المذكرة لأنها قد تلقى ضوءاً على وجهات نظر « الضباط الأحرار » المصريين فى ذلك الوقت .

لا ندهش لهذا ، لأن اتجاه ألمانيا العام فى ذلك الوقت كان يقوم على التعاون مع فاروق والهيئات الحاكمة .

وتشير بعض تصريحات رضوان ، التى سجلها مسئولون ألمان ، وأيدها فيما بعد « ضباط أحرار » مصريون (نشرت بعد الانقلاب الناجح الذى قاموا به فى ٢٣ يولية ١٩٥٢) إلى أن الطيارين كانوا مبعوثين عن مؤامرة الضباط . ويذهب أنور السادات [١] إلى أن الضباط الأحرار كانوا على اتصال مباشر بالقيادة الألمانية فى ليبيا ، وأنهم كانوا يعملون بالاتفاق التام مع مركز قيادة روميل . على أن الأدلة التى فى متناول أيدينا تدل على انقطاع الاتصالات بعد محاولة عزيز على المصرى الطيران ، على الأقل لعدم وجود أى اتصال خلال صيف عام ١٩٤٢ . ومن المعروف أن رضوان قد نقل من جديد بحلول أوائل أغسطس إلى إفريقيا ليقوم بمساعدة فيلق إفريقيا بمعلوماته عن الأرض والناس . ولكننا لا نعرف شيئاً عن إقامة اتصالات بين مؤامرة الضباط وبين الألمان .

على أن الصورة لا تكتمل بدون مزيد من الأدلة . فبعد أن عاد أمين زكى (بك) من القاهرة نقل رسالة فاروق الشفهية إلى إيتل . كما أخبره بأن الملك — بعد يوم من تلقى الإخطار الألمانى — أمر طيارين موثوقاً بهما (ضابط وصف ضابط) بالطيران سراً إلى روميل ومعهما خرائط وخططا هامة . وفى حالة وصول الضابط الطيار إلى الخطوط الألمانية ، كان من المتوخى أن يذيع راديو الريخ سورة « الإخلاص » وإذا ما نجح صف الضابط كان من المتوخى أن تذاع سورة « الفلق » . ومما له دلالته أن الألمان لم يحصلوا سواء على خرائط أو على خطط ، ومن الممكن أن نتفهم شدة شكوك الألمان ، ولكن تمت إذاعة سورة الفلق فى أغسطس بعد أن تأخر ذلك عدة مرات .

ومن المشكوك فيه جداً أن الملك كان لديه مايزيد على ما لدى هذين الطيارين . ويبقى لدينا السؤال الآتى : هل قام فاروق حقيقة بإرسال هذين الطيارين ؟ أو أن الأمر لم يكن سوى خدعة للحصول من الألمان على معلومات عن أشخاص قد يكونون غير موالين ، بعد أن عرفت أنباء محاولات الطيران ؟

---

(١) Anwar El Sadat, Revolt on the Nile, p. 34.

مسألة إقامة نظام احتلال

برزت فى ذلك الوقت مسائل على جانب أكبر من الأهمية فيما يتعلق بالاستعدادات لاحتلال مصر . كما لم يقدم الألمان تنازلات لإيطاليا فى هذا المضمار[١] .

ولم تجر برلين محادثات مع إيطاليا حول طبيعة علاقاتهما المتبادلة فى حالة احتلال مصر وحين حدوثه ، لأنها لم تكن مرغمة على القيام بذلك . فلقد كان مركز الألمان قويًا فى شمالى إفريقيا حيث كانت توجد قواتهم — وكان الفيلد مرشال روميل قائداً عامًا للمعارك التى كان الهدف منها احتلال مصر . حقيقة كان من المفروض أن يخضع للقيادة الإيطالية فى شمالى إفريقيا التى كان يرأسها المرشال باستيكو Rastico . ولكن هذا كله لم يتعد حدود الرسميات ، برغم أن القيادة الإيطالية كانت تشرف على مالية قوات شمالى إفريقيا . وفى ظل الظروف القائمة كان الألمان على يقين من أنهم سيتمتعون بسلطة كبيرة وحرية كبيرة فى العمل فى مصر المحتلة ، برغم أنه كان من المتوخى أن تكون منطقة نفوذ إيطالى . وكان من المتوخى أن تتولى إيطاليا الإدارة المدنية التى كان يمكن أن يتضح أنها عبء على المحتل ، لأن توفير الطعام للسكان والمحافظة على فعالية اقتصاد البلاد كانا يتطلبان أولا وقبل كل شىء استيراد المواد الغذائية على نطاق واسع ، وكذلك الوقود والمواد الخام .

وفى النهاية أحس الإيطاليون بصعوبة موقفهم . وقد صاغ موسولينى وشيانو اقتراحاً يتعلق بمسألة إقامة نظام احتلال فى مصر (فى ٢ يولية) . وإذا ما وضعنا نصب أعيننا أن موسولينى كان لبعض الوقت يتوقع كل يوم أن ينتهى القتال بإحراز النصر ، فإن اقتراحه يكون قد تأخر . وقد اقترح أن يتولى روميل رئاسة جيش الاحتلال ، ولكن كان عليه أن يبقى تابعاً للقيادة الإيطالية فى شمالى إفريقيا .

---

(١) اعتقد بعض الكتاب خطأ أن الصعوبات التى أحاطت بإيطاليا وألمانيا والخلافات الناشبة بين الطرفين فى ذلك الوقت جعلت روميل يوقف الهجوم — انظر :

Cambon : Histoire de la régence de Tunis, 1948, p. 277.

وكان من المتوخى أن توكل الحكومة المدنية إلى مندوب سياسى إيطالى — وكان مرشح شيانو لهذا المنصب هو الكونت سرافينو ماتزوليني Serafino Mazzolini وزير إيطاليا المفوض السابق فى مصر الذى كان من المتوخى أن يكون مزوداً بمكتب زميل ألمانى مهمته ضمان الاتصال بقيادة جيش الاحتلال .

وكان موقف الألمان من المقترحات سلبيًّا فى البداية .. فقد وافق هتلر على أن يكون روميل قائداً عامًّا لجيش الاحتلال ، ولكنه رفض اتخاذ قرار بصدد المبعوث السياسى الإيطالى المقترح وممثل ألمانيا المقترح ، وذكر أن المسألة لا تستلزم العجلة . ولكن الرؤساء النازيين وافقوا فى النهاية — تحت ضغط إيطاليا — على تعيين مبعوث إيطالى سياسى . وبلغ ريبنتروب الإيطاليين بأن « مسألة ممثل مدنى ألمانى عاجلة فى الوقت الحاضر . إننا شديدو العزم على أن ننتظر مزيداً من تطور الموقف العسكرى والسياسى فى مصر » . وقد سرت روما كثيراً لموافقة برلين على تعيين مبعوث سياسى إيطالى[1]. وبعد قيام روميل بمهمته ، كان عليه أن يعين فوت نيوراث الأصغر رئيساً لهيئة الاتصال ، ولكن الألمان لم يفصحوا للحكومة الإيطالية عن نيتهم هذه . لهذا اتجه هتلر إلى جعل روميل ممثل ألمانيا الوحيد فى مصر ، مزوداً بكل الصلاحيات اللازمة . والسر فى ذلك هو أنه كان من المتوخى أن تحل المشكلات القائمة بين ألمانيا وإيطاليا فى ذلك الوقت على مستوى سياسى . بعد أن اتضح أن الألمان يتمتعون بالتفوق ، فى الوقت الذى كان فيه من الضرورى أن تراعى أولوية إيطاليا فى مصر والعالم العربى كله . وعلى أى حال فإن هذا القرار يدل على أن الألمان لم يبدوا رغبة فى إقحام أنفسهم أو اضطلاعهم بالمسئولية عن مسائل لا تتصل بالعمليات الحربية فى الوقت الذى يستمر فيه القتال . كما يتضح منها أنهم كانوا يودون أن يكون سجلهم فى مصر واضحاً بحيث يصبح بإمكانهم أن يحسموا المشاكل بطريقتهم حين يحين الوقت — بعد إحراز النصر فى الحرب .

---

(١) صرح شيانو لماكنزن بأن ذلك قد أدخل السرور على قلب الدوتشى (رسالة ماكنزن من روما بتاريخ ٨ يولية ١٩٤٢) .

المسائل الاقتصادية

وقد جرى التعبير عن الاتجاه السابق بشكل أوضح حين أصبح من الضرورى أن تتم الموافقة على اتخاذ الإجراءات الاقتصادية خلال الاحتلال المتوقع لمصر . وكان الإيطاليون شديدى الإحساس بهذه المسائل ، لأنهم كانوا يتوقعون أن يحصلوا على غنائم ثمينة ، وبسبب التجربة التى مروا بها بعد احتلال اليونان التى تفشى فيها الجوع نتيجة للفساد الاقتصادى واستحالة استيراد أى شيء . وكانت روما تود ألا يتكرر نفس الموقف فى مصر خوفاً من ردود الفعل التى قد يحدثها ذلك فى العالم العربى حيث كانت سمعتها — على أى حال — سيئة جداً[1]. وقد أخبر المركيز داجيتا ماكنزن بأن من الواجب إقامة نظام نموذجى بمصر ، لأن الوضع فيها كان لابد أن يؤثر فى العالم العربى بأسره .

وفى مساء يوم ٤ يولية قدمت السفارة الإيطالية فى برلين إلى وزارة الخارجية الألمانية مقترحات موسولينى الخاصة بالمسألة الاقتصادية . وقد وجه دونتشى الفاشية النظر إلى أن مصر ليست بلداً معادياً . بل هى بلد محايد تقوم فيه حكومة مصرية بمهامها برغم الاحتلال ، بحيث لايستلزم الأمر سوى إبعاد كبار الموظفين البريطانيين من عدة إدارات وهيئات حكومية . وكان موسولينى يشبه السلطات الألمانية فى الاعتقاد باحتمال استعداد على ماهر (باشا) لتشكيل وزارة بالاتفاق مع الملك وبمساندة عناصر أخرى موالية للمحور . وقد أصر الدونتشى على ألا يسمح لهذه الوزارة تحت أى الظروف ، بترك الجماهير تشترى كثيراً من البضائع أو تخزنها ، بالشكل الذى يؤثر تأثيراً سيئاً فى الاقتصاد العربى . وقد أشار إلى أنه لايوجد سبب يدعو إلى إغضاب السكان . وأهم من هذا أن الحكومة الإيطالية لم تكن فى وضع يسمح لها بتحمل أعباء التموين والإنفاق على السكان الذين كان عددهم فى ذلك الوقت يصل إلى ١٦مليوناً .

وعلى أساس ما سبق ذكره اقترحت روما : ١ — أن تباشر الحكومة الإيطالية

---

(١) أكد المصريون أكثر من مرة تفضيلهم لإنجلترا إذا ما كان عليهم أن يختاروا بينها وبين إيطاليا . وقد ذكر الكيلانى نفس هذا الرأى لفورمان (مذكرات فورمان — برلين فى ٢٠ يولية ١٩٤٢) .

الإشراف على النفقات الحربية فى مصر ، ٢ ــ ألا تقوم سلطات المحور بأى مشتروات وألا تطالب شراء أى بضائع تزيد على حاجة القوات المعسكرة هناك ، ٣ ــ إقامة هيئة خاصة ألمانية ــ إيطالية لتولى « المشتروات » فى مصر .

ولم يقطع الألمان أى وعد بشأن هذه المقترحات . وقد حول الموظفون النازيون الإيطاليين على روميل ، على اعتبار أن هذه المسائل من صميم اختصاصه ، وأن لديه الرجال المسئولين الذين يعالجونها ولكنهم رفضوا رفضًا باتًا فكرة إقامة هيئة جديدة ، وتمشوا مع تعليمات ريبنتروب ، فتباطأوا فى حسم هذه المسألة .

وفى ٣ يولية أنشأ الإيطاليون هيئة اسمها « صندوق البحر المتوسط الخاص بالاعتمادات المخصصة لمصر Cassa Mediterranea di Credito par l'Egitto » هدفها الإشراف على النفقــات العسكرية . وكان من المنوخى أن تكون كوبونات هذا الصندوق إجبارية حتى تجرى الاستعدادات فى المستقبل لقيام بنك مصر بإصدار العملة . وكانت نسبة تبادل هذه الكوبونات هى ــ ٧٢,٥ ليرة للجنيه المصرى و ٩,٥ مارك للجنيه . وكان من المنوخى أن يتسلم العسكريين الألمان هذه الكوبونات بعد إعداد قائمة مبوبة للنفقات .

وإزاء إصرار الإيطاليين وافق الألمان على عملية « صندوق البحر المتوسط » ، ولكنهم طلبوا أن تزود القوات الألمانية بكوبونات بالكميات المطلوبة ، دون أن يلتزموا بالإفصاح عن الغرض المنوخى منها . كما وافقوا على تحديد سلطة العسكريين فى القيام بمشتروات أو طلبات تموينية للجيش . ولكنهم اقترحوا وجوب ضمان الوحدات الأولى التى تصل إلى أهداف معينه للثروة التى تجدها وأن تقوم الحكومتان بعد ذلك بالبت فى مسألة تقسيمها . ورفض الألمان رفضاً قاطعاً فكرة إنشاء لجنة مشتركة ألمانية ــ إيطالية ، واقترحوا وجوب مناقشة مسألة المشتروات فى مصر فى وقت لاحق .

ومن الواضح أن هذا الرد كان سلبيًا بالضرورة ، برغم موافقتهم على تنفيذ عملية « صندوق البحر المتوسط » . وكان من الممكن أن يؤدى طلب الألمان لاعتمادات ورفضهم كل إشراف إلى استفحال التضخم فى وقت قصير ، فى بلد كانت إيطاليا تتحمل مسئوليته ، وإلى إثقال كاهل الخزانة الإيطالية . وكان

من المتوخى أن يكون معظم « ضمان الثروة » من مهام الوحدات الألمانية التى كانت متفوقة فى تحركاتها ، وكان من المتوقع أن تصل إلى أهدافها بسرعة تفوق سرعة الإيطاليين . وكانت لدى روما أسباب تدعوها إلى الشك فى أن شريكتها ستفيد كثيراً من ذلك . ولم يحظ اقتراح إنشاء لجنة مشتركة ألمانية – إيطالية بقبول برلين ، لأن الألمان كانوا يفضلون عدم تحديد توزيع الأسلاب ، ولم تكن لديهم رغبة فى الاضطلاع بالمسئولية عن الاقتصاد المصرى .

وكانت المفاوضات تجرى فى روما فى ذلك الوقت حول مسألة غنائم الحرب التى كانت مثار خلاف بين الشريكين المحوريين ليس فقط على المستوى الرسمى ، بل بين ضباط وجنود البلدين فى شمالى إفريقيا . وقد اقترح الإيطاليون أن تستولى ألمانيا على غنائم الجبهة الشرقية وأن تستولى إيطاليا على غنائم مصر . وحين ووجه هتلر بهذه المشكلة كان رده أن غنائم الحرب – من حيث المبدأ – يجب أن تكون من نصيب من يستولى عليها ، وأبدت القيادة الألمانية بوجه خاص معارضتها للمطالب الإيطالية ، وكان روميل أشد الناس معارضة ، لأنه شكا من إشراف روما المالى وكان يريد أن يلغيه فيما يتعلق بمصر . وكان هذا الإشراف مبنيًّا على الاتفاق الإيطالى – الألمانى الذى تم فى ١٤ مارس بصدد المخصصات المتبادلة لمؤن القوات . وقد ذهب الإيطاليون إلى أنهم حين وافقوا على تطبيق ذلك الاتفاق على القوات الإيطالية العاملة فى روسيا كانوا يتوقعون أن يكون إجباريًّا بالنسبة إلى القوات الألمانية فى مصر . ولكن الألمان أصروا على وجوب عدم تطبيق هذا الاتفاق على مصر .

وتمسك الإيطاليون بموقفهم ، مشيرين إلى تعليمات موسولينى الخاصة بإنقاذ مصر من الجوع والخراب الاقتصادى اللذين تعرضت لهما اليونان . وبعد أسابيع قليلة أكدوا من جديد تمسكهم بموقف ٤ يولية . وفى مذكرة بتاريخ ٤ أغسطس طلب السفير الإيطالى فى برلين تطبيق اتفاق ١٤ مارس فى مصر ، كما طالب بتطبيق الاتفاق السابق بين القيادات العسكرية على المحافظة على الثروة ، وطالب بإنشاء لجنة مشتركة . واقترح أن يناقش . كلوديوس Clodius وجانينى Giannini هذه المسائل فى مؤتمر يتم عقده فى جزيرة بريونى . ولم تتمخض هذه المناقشات –

التى جرت فى أواخر أغسطس – عن أية نتائج . واقتصرت إيطاليا على الموافقة شفهياً على ألا ينطبق اتفاق ١٤ مارس على مصر . ولكن الخبراء الألمان اعترفوا بأن الصعاب ستعترض الوفاء بهذا الوعد . وفى التقرير الذى كتبه كلوديوس عن هذا الموضوع ذكر أن سلوك الألمان قد أصاب الوفد الإيطالى « بجرح عميق » . وأبرقت سفارة روما أن جانينى – رئيس الوفد الإيطالى – قد رجع من برلين شديد الاستياء بسبب موقف الألمان من مسألة مصر ، وعبر عن مخاوفه من أن لبرلين بعض النيات إزاء مصر ، وأن هذه النيات كانت تحول دون اتسام مناقشاتهم بالصراحة .

ثم أخبر المركيز داجيتا بزمارك صراحة بأن مسلك ألمانيا قد جعل اعترافها بأولوية إيطاليا فى مصر لا معنى له .

وبعد فشل هذه المحادثات رجعت حكومة روما – التى كانت مسألة مصر بالنسبة إليها ذات أهمية من الطراز الأول – من جديد إلى المسائل الاقتصادية المرتبطة بالاحتلال المتوقع . وفى ١٦ سبتمبر قدم دينو ألفييرى – سفير إيطاليا فى برلين – طلباً باستئناف المحادثات حول مقترحات موسولينى ، وأكد أن الدوتشى يعلق أهمية كبيرة على هذه المسائل . وبعد ذلك قدم ريبنتروب مقترحات إيطاليا إلى هتلر الذى أبدى معارضته لتشكيل لجنة إيطالية – ألمانيا مشتركة – وكان ذلك جوهر مقترحات موسولينى [١]. وقد وافقت السلطات الألمانية نهائياً على إقلال الإمدادات فى مصر إلى الحد الأدنى المطلوب لتموين القوات . وسوت مع الإيطاليين طريقة تمويل الجيش الألمانى فى مصر . وإلى جانب ذلك كان على الإيطاليين كذلك أن يقنعوا بالمحافظة على كرامتهم – ولهذا الغرض أصدر الألمان التصريح التالى : « تمشياً مع المبدأ الخاص بأن لإيطاليا الحق فى الأولوية السياسية فى مصر ، تترك حكومة الريخ للحكومة الإيطالية أمر تسوية العلاقات الاقتصادية فى مصر » . وقد عبرت حكومة موسولينى ، التى كانت بحاجة إلى انتصارات لرفع هيبتها ، والتى أقلقها موقف المندوبين الألمان فى المفاوضات ، عن رضاها بالتصريح. ولم يكن باستطاعة الألمان أن يرفضوا الموافقة على اقتراح إيطاليا الخاص

---

(١) كتب فيل Wiehl فى مذكراته بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٤٢ ما يلى : « لن يمكننا أن نتوقع عقد اتفاق دون قبول اللجنة التى يقترحونها (الإيطاليون) » .

بالشئون المالية ، إذ كان من رأيهم أن من الضرورى حسم مثل هذه المسائل قبل أن يتطور القتال على الجبهة المصرية تطوراً واسع المدى . ولكن وقعت أيضاً اتفاقية أخرى فى ٢٠ أكتوبر نصت على عدم انطباق وثيقة ١٤ مارس ١٩٤٢ على مصر. وفى الصيغة النهائية لم تتعهد ألمانيا بأى التزام أيًّا كان إزاء الاقتصاد المصرى .

وتزودنا هذه المفاوضات الإيطالية — الألمانية — بالإضافة إلى ما كان عليه الموقف فى بلدان أوربا المحتلة — بفكرة عما كانت مصر ستتعرض له فيما لو احتلها المحور .

اندحار المحور فى مصر

لايمكننا أن نذهب إلى أن الاتفاقية السابقة قد وضعت حداً للنزاع الإيطالى الألمانى حول مصر . وفى الحقيقة أن هذا النزاع قد انتهى حين تحولت مصائر الحرب . ولما كان روميل على علم بتزايد قوة خصومه ، فإنه واصل هجومه فى ٣٠ أغسطس . ولكن لم يكن باستطاعته هذه المرة أن يعتمد على تفوق أسلحة جيشه ، لأن معظم الناقلات الألمانية المتوجهة إلى شمال إفريقيا كانت قد أغرقت . وأحست الطوابير المصفحة والمدرعة بوجه خاص بنقص الوقود بصورة مزعجة . وحينئذ بدت آثار القرار الخاص بعدم غزو مالطة . فلم تحرز معركة علم الحلفا للمحور أية ميزات — إذ أوقف الهجوم وفقد جيش المحور المبادرة على طول الخط : إذ أن مونتجومرى شن هجومه بالجيش الثامن فى العلمين فى ٢٣ أكتوبر . وتمخضت المعركة الحاسمة التى دارت فى يومى ١ و٢ نوفمبر عن تحطيم فيلق إفريقيا و٤٥٠ من ٦٠٠ دبابة محورية . وفقد جيش المحور ١٠,٠٠٠ قتيل و١٥,٠٠٠ جريح و٣٠ ألف أسير . وفى ٨ نوفمبر نفذت قوات الحلفاء عملية « الشعله Torch » فى الطرف الآخر من إفريقيا ، وبدأت زحفها من الغرب إلى الشرق — وكانت بداية النهاية بالنسبة إلى المحور فى إفريقيا . وحينئذ لم يعد ثمة داع على الإطلاق لإخلاء مصر ، وهو ما كانت القوات والإدارات البريطانية قد استعدت له منذ صيف عام ١٩٤٢ . كما أوقف القصر الملكى ورجال

الدين المسلمون برئاسة شيخ الأزهر استعداداتهم لاستقبال روميل (طبقاً لما ذكره وزير مصر المفوض فى أنقرة) بحفاوة تفوق تلك التى قوبل بها نابليون .

ومن المعروف أن الهزيمة الألمانية فى إفريقيا لم تكن ظاهرة معزولة — ففى الجبهة الشرقية دارت معركة الفولجا منذ أواسط سبتمبر ، ولم يستطع الألمان أن يتغلبوا على مقاومة الجيش السوفييتى ؛ فتوقف هجومهم . وقد أدت المقاومة السوفييتية الصلبة وحشد قوات الريخ فى ستالينجراد إلى إيقاف الزحف الألمانى فى القوقاز بعد الاستيلاء على نوفوروسيسك (١٠ سبتمبر ١٩٤٢) . وفى ١٩ نوفمبر شن الجيش السوفييتى هجوماً مضاداً على الفولجا . وكان معنى هذا أن المحور فقد المبادرة فى كل من الجبهة الشرقية وجبهة شمالى إفريقيا . وفى هذه المرة انتقلت المبادرة نهائياً إلى التحالف المعادى للمحور .

---

(١) رسالة فون بابن ، طرابية فى ٤ يولية ١٩٤٢ (٢٦٦ / ١٧٢٧٢٠) .

الفصل الثالث عشر

الكتيبة العربية
والنزاع بين المفتى والكيلانى

سبق أن تناولنا جهود كل من الزعيمين العربيين للحصول على تصريحات من المحور تساند المطالب العربية ، وذلك لأن الألمان ، وبخاصة العسكريين ، قاموا فى ذلك الوقت بنوع مخالف تماماً من النشاط فيما يتعلق بالشئون العربية .

وحدة التدريب العربية ـ الألمانية

يجدر بنا أن نذكر هنا أن البعثة التى كان من المزمع إرسالها إلى العراق برئاسة الجنرال هلموث فلمى ، لم تندثر ، بل تحولت إلى رأس سونيون بالقرب من أثينا ، واتخذت لنفسها اسم سوندرستاب ف . وكان قائدها الجنرال فلمى قد خدم فى عهد القيصر برتبة مساعد ملازم فى فرقة المشاة رقم ٦١ فى تورون Torun — ومنذ عام ١٩١٢ كان أحد رجال القوات الجوية الألمانية ، وبعد خدمة عسكرية متواصلة فى عهد القيصرية والجمهورية والدكتاتورية النازية ، رقى إلى رتبة جنرال فى عام ١٩٣٩ . وكان من الممكن توقع انتهاء خدمته العسكرية فى ١٢ يناير ١٩٤٠ حين وجهت إليه تهمة المسئولية عن نزول ضابط اتصال مظلى اضطرارياً فى بلد محايد . وكان يحمل على جسمه وثائق سرية برغم الأوامر الصادرة له . ولكن فترة إيقافه لم تستمر طويلا — فقد أعيد إلى الخدمة الفعلية فى ١٢ مايو ١٩٤١ بسبب خبرته فى الطيران ، وهى الخبرة التى حصل عليها خلال تحليقه فوق شبه جزيرة سيناء فى أثناء الحرب العالمية الأولى . ووكلت إليه قيادة بعثة عسكرية كان من المتوخى إرسالها إلى العراق . وفى أواسط يونيه ١٩٤١ أصبح فلمى قائداً عاماً للقوات الألمانية فى جنوبى بلاد اليونان التى كانت من حيث المبدأ منطقة

احتلال إيطالية وإن تكن فيها قطاعات تحت السيطرة الألمانية . كما أصبحت كريت خاضعة لقيادته . وبعد الحرب تمخض نشاط فلمى عن محاكمته أمام محكمة حرب أمريكية ، باعتباره أحد المتهمين فيما سمى بمحاكمة البلقان .

وفى يولية ١٩٤١ أنشأت سوندرستاب ف مجموعة تدريب صغيرة كانت قد وضعت خطة لاستعمالها فيما بعد فى الصحراء السورية . وكانت تتكون من عرب تلقوا دراساتهم فى ألمانيا وعدد صغير من المتطوعين الذين تم نقلهم من سوريا إلى رأس سونيون بعد انهيار جيش الجنرال دنتز . وقد ساعدت سوندرستاب ف حوالى ٣٠٠ من رجال فوزى القاوقجى وعارف عبد الرزاق على الهرب من سوريا إلى تركيا — ولكنهم لم ينجحوا فى الوصول إلى بلاد اليونان . وما حلت نهاية عام ١٩٤١ حتى كانت سوندرستاب ف قد قامت بتدريب ما يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ عربياً . ويبدو أن برلين لم تبلغ الإيطاليين بهذا النشاط الخاص .

وكان الوضع بهذا الشكل حين وصل الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى إلى أوربا . ومن المؤكد أن هذين الزعيمين العربيين كانا يفضلان أن يعمل العرب المنضمون إلى جيوش المحور فى وحدات منفصلة تحت أعلامهم الوطنية ، وأنهما اقترحا إنشاء فرقة عربية كان من المتوخى أن تكون لها أهمية دعائية ضخمة . وكان بإمكانها أن تلعب دوراً هاماً فيما لو قامت قوات المحور العسكرية بالعمل فى البلدان العربية .

وقد قام مفتى القدس بتقديم المقترحات الخاصة بإنشاء فرقة عربية إلى موسولينى وشيانو خلال المحادثات التى أجراها معهما خلال زيارته الأولى إلى روما (أكتوبر — نوفمبر ١٩٤١) . كما قدم هذه الفكرة إلى فايزساكر وريبنتروب وهتلر فى برلين . وقد بحثت وزارة الخارجية مسألة الفرقة العربية فى ديسمبر ١٩٤١ ، وصدر بيان من مركز قيادة هتلر فحواه أن الفوهرر يرغب فى إنشاء مثل هذه الفرقة فوراً . ومن الواضح أنه كان يفكر فى إجراء توسع كبير فى الوحدات العربية الموجودة فى رأس سونيون . وفى الوقت نفسه وضعت خطط لإنشاء فرقة هندية خلال الزيارة التى قام بها سبهاس شاندرا بوس إلى ألمانيا .

وبحلول نهاية عام ١٩٤١ كانت سوندرستاب ف قد اتصلت بالزعيمين

محاولة أن توفر أساساً للتعاون بينهما وبين القيادة العامة . وعرض على الحاج أمين ورشيد عالى عقد اتفاقية عسكرية رسمية كان مشروعها قد نوقش فى يناير ١٩٤٢ . ولكن ذلك لم يتمخض عن اتفاقية رسمية لأن ألمانيا لم تكن تريد الدخول فى خلافات سياسية مع إيطاليا حول هذا الموضوع ، وإن يكن كلا الزعيمين قد وعدا ببذل تعاونهما فى هذا المضمار . وكانا يأملان ، بالاقتناع المباشر واصطناع الضغط الضرورى ، أن يغريا العرب القاطنين فى ألمانيا وفى البلدان المحتلة بالانضمام إلى « وحدة التدريب العربية الألمانية » . وبهذا الصدد كان المفتى فى وضع أحسن من وضع الكيلانى ، إذ لم يكن يوجد جنود عراقيون على جبهة القتال أو فى معسكرات الاعتقال ، كما كان الحال بالنسبة إلى الجنود العرب فى الوحدات الفلسطينية . ولقد أرسل الكيلانى متطوعين قليلين جداً إلى رأس سونيون ، وذهب بعضهم بعد رجوعهم إلى أنهم لايريدون سوى أن يدرسوا فى ألمانيا وأنهم لايرغبون فى أن يصبحوا جنوداً . ومن ناحية أخرى قام المفتى — بالتعاون مع القيادة العليا للقيادة المسلحة الألمانية — بجمع فصيلة من أسرى الحرب السابقين . وقد شكل هؤلاء — مع صف الضباط العرب الذين قامت « سوندرستاب ف » بتدريبهم — الوحدة العربية الوحيدة حتى عام ١٩٤٢ . وفى مايو من ذلك العام كانت هذه الفصيلة تضم ١٣٠ رجلا .

ويكمن السبب الرئيسى لهذا الوضع فى السياسة العربية التى كانت تتبعها ألمانيا وإيطاليا — لأن المحور رفض كل فكرة تقضى بتجنيد العرب فى المستعمرات الإيطالية والفرنسية ، الأمر الذى كان يتناقض مع رغبات المفتى . واقترح تجنيد الأسرى العرب والجزائريين والتونسيين والمراكشيين . ومن ثم نجد أن وكيل الوزارة فورمان يكتب فى مذكرة خاصة بمسألة تجنيد وحدات عربية ما يلى : « نحن نفرق دائماً ، فيما يتعلق بسياستنا العربية ، بين عرب الشرق الأدنى وعرب شمالى إفريقيا . ولا تنطبق سياستنا العربية على المنطقة الواقعة غرب مصر — فنحن لانهتم بتغذية الروح القومية فى شمالى إفريقيا بسبب السياسة التى نتبعها إزاء إيطاليا وفرنسا وإسبانيا » . ولما كان عرب شمالى إفريقيا لا يدخلون فى هذه الخطة ، فلم يكن بالإمكان سوى اجتذاب الأسرى العرب — وكان معظمهم من الفلسطينيين — واللاجئين

من العراق أو سوريا ، وللطلبة العرب الذين بقوا فى أوربا نتيجة لاندلاع الحرب. وبحلول نهاية الحرب كان يوجد حوالى ٩,٠٠٠ عربى فى الوحدات الفلسطينية التى كان يضمها الجيش البريطانى . ولهذا كان يوجد مالايزيد على بضع مئات من الرجال الصالحين فى عام ١٩٤٢ للخدمة فى تشكيلات المحور العربية .

ولم يكن الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى راضيين عن كون المجموعة الموضوعة فى رأس سونيون تشكيلة تدريبية ألمانية — عربية لاتشكيلة تحمل اسم الوحدة العربية القومية . لهذا أطلقنا عليها اسم « المفرزة العربية الحرة » .وفى الوقت نفسه ازدادت المنافسة باستمرار بين الزعيمين — وكان الموقف بهذا الشكل حين اقترح المفتى من جديد على إيطاليا تشكيل فرقة عربية — وقد جرى ذلك بمناسبة رحلته من برلين إلى روما مع الكيلانى (فبراير ١٩٤٢) . ومن الناحية النظرية اتخذت الحكومة الإيطالية موقفاً إيجابيًّا من الاقتراح ، ولكن محك التجربة أوضح أنها لاتنوى تنفيذه . وبرغم أن الإيطاليين أقروا فائدة المشروع ، إلا أنهم جردوه من كل مضمون عسكرى . وبإمكاننا أن نفسر هذا بأن ليبيا أو جاراتها المباشرة كان مقيضاً لها أن تكون الأراضى التى تباشر فيها هذه الفرقة عملها ، وخشيت روما صراحة أن يضعف الاتصال بفرقة عربية روح الناس المعنوية فى المستعمرات الإيطالية ، على حين أنها انزعجت فى الوقت نفسه من أن يشكل الألمان ، لا الإيطاليون ، وحدات عربية .

ومن الواضح أن المفتى عرف كيف يستغل هذه المنافسة ، وأنه حصل على موافقة إيطاليا على تشكيل فرقة عربية تحارب تحت أعلام عربية . وفى ٧ مايو عرض المفتى هذه المسألة على موسولينى[1] ، وبدأ تشكيل الكتيبة العربية فى إيطاليا حوالى الوقت نفسه[2] .

وحين استؤنفت المحادثات بين سوندرستاب ف وبين الحسينى والكيلانى فى أوائل مايو ١٩٤٢ حول مسألة توسيع (وحدة التدريب العربية — الألمانية)

---

(١) أخفى المفتى عن الألمان والكيلانى أخبار هذه المقابلة التى جرت بينه وبين موسولينى .

(٢) نستنتج من نص الوثائق التى تحتويها مجموعة Die indische und" arabische Legion — « الفرقة الهندية العربية » أن ذلك قد جرى قبل وقت قصير من نقل هذه الحقيقة إلى الألمان .

كان كلا الرجلين العربيين غير مستعدين للتنازل . وكان من رأى « سوندرستاب ف» وجوب حسم المسائل السياسية مع الزعيمين العربيين ، ومنها – على سبيل المثال – مشاكل القيادة والشعارات العربية القومية ونص القسم – وغير ذلك . ولكن الزعيمين العربيين أثارا من جديد مسألة عقد ميثاق عسكرى ، وطلبا الاعتراف « بوحدة التدريب العربية – الألمانية » باعتبارها وحدة مستقلة عربية فقط وتحت قيادة عربية . كما أوضحا أنهما لن يشتركا فى المشروع إلا إذا أجيبت مطالبهما . وفى النهاية وعدا بأن توفر الوحدة التى تم تشكيلها فى رأس سونيون أساساً لتكوين وحدات أخرى ، وأنها ستعمل باعتبارها تشكيلات عربية لا ألمانية فى اللحظة التى تدخل فيها مثل هذه الوحدات الأراضى العربية . وعلى أثر هذا التأكيد وعد كلا الزعيمين العربيين بمزيد من التعاون ، ولكن بشرط انتظارها توقيع اتفاقية عسكرية . ولكن ثبت أن تبادل الرأى هذا لم يحل المشكلة . وظلت صعاب جديدة تلوح فى العلاقات بين الزعيمين وسوندرستاب ف . وقد أدى الخلاف الذى اتضح بين المفتى ورشيد عالى إلى زيادة تعقيد الموقف .

الخلافات حول الفرقة العربية

ومن أسباب الخلاف ما جرى بين ألمانيا وإيطاليا من جدل حول مسألة الوحدات العسكرية العربية .

وقد وعد الألمان بعدم تشكيل كتيبة عربية ، ووافقت كل من القيادتين العسكريتين على عدم ظهور مثل هذه الفرقة التى كان ضباطها من العرب ، والتى كانت ترفع علماً عربيًّا ، إلا فى إيطاليا ، وعلى تسليم أسرى الحرب العرب المعتقلين فى ألمانيا (حوالى ٢٥٠) إلى الإيطاليين .

لهذا فإن نشاط سوندرستاب ف أثار مخاوف إيطاليا وجعلها تتدخل باستمرار . وقد أثارت روما أولويتها فيما يتعلق بالشئون العربية ، وأكدت أن على إيطاليا أن تنشئ فرقة عربية على أن تنشئ ألمانيا فرقة هندية . وذكرت الألمان بالاتفاق الضمنى بين دول المحور حول هذه المسائل ، وطلبت أن يتحول كل أسرى الحرب

العرب وكل الآخرين الصالحين للخدمة العسكرية إلى الفرقة . وفى مقابل ذلك تعهد الإيطاليون بأن يسلموا للألمان كل أسراهم الهنود . واتهموا جروبا ، الذى كان يتصل بالمفتى والكيلانى بالنيابة عن وزارة الخارجية الألمانية ، بمحاولة التأثير عليهما ليوجها كل تعاونهما إلى ألمانيا ، ويربطا خططهما بالريخ وحده .

وفى أواخر مايو بدأ تبادل أسرى الحرب الهنود والعرب وفق ما اقترحه الإيطاليون — وقد ثبت أنها عملية مرهقة أدت إلى خلافات مستمرة بين دولتى المحور ، ولم يكن فى الإمكان غير ذلك إزاء عمليتين متعارضتين تقومان على مادة بشرية محدودة جداً . ولما كان المفتى يريد تدعيم قوته فى إيطاليا ، فإنه طلب خمسة « من الملازمين الثوانى العرب القليلين الذين يمكن العثور عليهم » من المجموعة الأولى من صف الضباط العرب والملازمين الثوانى المدربين فى رأس سونيون. ولكنه ووجه بالمعارضة الشديدة من جانب قيادة الجيش الألمانى . وقد حاولت سوندرستاب ف فى ذلك الوقت — بعلم المفتى والكيلانى — أن تجند فى وحدة التدريب العربية — الألمانية مائة آخرين من أسرى الحرب . ولكن الإيطاليين تدخلوا فى هذه المسألة لأنهم كانوا يريدون هؤلاء الأسرى فى مقابل الهنود . وأرغمت سوندرستاب ف على إيقاف تجنيد الأسرى . وحينئذ اتجه عدد قليل من الضباط العراقيين القاطنين فى إيطاليا إلى ألمانيا سراً . ورداً على تدخل إيطاليا ، أخبرها العسكريون الألمان — بموافقة ريبنتروب — بأن وحدة التدريب العربية الألمانية إنما هى وحدة عربية ألمانية . وتمت طمأنة الإيطاليين على أن أعضاء هذه الوحدة سيعملون — عن طريق القوات الألمانية — باعتبارهم إخصائيين إقليميين ، كما كان الحال أحياناً بالنسبة إلى جنود فرقة المهام الخاصة التابعة للقوات العليا للقوات المسلحة الألمانية المسماة براندنبورج . ويجب أن نضيف أن نتائج جهود الإيطاليين كانت متواضعة جداً . فلم يستطيعوا تكوين كتيبة عربية فى إيطاليا . ولم يوافق على الخدمة فى الكتيبة من الأسرى الفلسطينيين الذين سلمهم الألمان سوى ١٨ ، ولم يبق نهائياً من هؤلاء سوى ٨ . وكان العامل الرئيسى الذى يفعل فعله فى هذا المقام

(١) خصص قدر لا بأس به من المراسلات الدبلوماسية فى مجموعة Die indische und arabische Legion لهذه الخلافات .

هو الكره الذى كان يكنه العرب لإيطاليا بسبب خططها الاستعمارية المعروفة .

وعلى أى حال فقد وضعت خطة تقضى على وحدة التدريب العربية — الألمانية بأن تدخل الحرب باعتبارها جزءاً من عمليات الجيش الألمانى فى الشرق الأوسط — شأنها فى ذلك شأن الفرقة الهندية . وكان ذلك يتصل بمخطط سياسى خطير ، لأن القصد من وحدة التدريب العربية — الألمانية هو أن تصبح نواة جيش عراقى كان الألمان يهدفون إلى تشكيله بعد أن تتم لهم السيطرة على العراق . وبالتالى فإن مسألة وحدة التدريب العربية — الألمانية كانت تتصل بخطة عمليات القطاع الجنوبى للجبهة السوفييتية ، وكانت تتضمن بطريق غير مباشر تقسيم مناطق النفوذ فى المستقبل بين دولتى المحور الأوربيتين .

ولهذا كان من المتوخى ألا تلعب وحدة التدريب العربية — الألمانية دوراً كبيراً إلا بعد الاستيلاء على القوقاز وغزو البلدان العربية — وبخاصة العراق — من الشمال . وقد أعد الألمان عدداً كبيراً من الإجراءات السياسية لغزو العراق بعد الاستيلاء على القوقاز — وحينئذ كان على وحدة التدريب العربية — الألمانية أن تدخل فى حيز العمل . وبعد الاستيلاء على تفليس كان من المتوخى أن يوضع الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى الكيلانى مع مكتب جروبا Dienstelle Grobba الذى أعدته وزارة الخارجية الألمانية لتنسيق النشاط العربى . وكان من المتوخى أن يتم إعلان حكومة عراقية هناك برئاسة رشيد عالى ؛ وأن يصدر تصريح فى تفليس حول أهداف المحور الخاصة بالعالم العربى . وبعد الاستيلاء على العراق كان من المتوخى أن يتحول أعضاء مكتب جروبا إلى هيئة المفوضية الألمانية فى بغداد وأن يصبح أعضاء سوندرستاب ف مفتشين فى الجيش العراقى .

ومن الواضح أن العراق لم يظهر بأى شكل فى هذه الخطط باعتباره داخلا فى مناطق النفوذ الإيطالية . وكان من المتوخى أن تحتله القوات الألمانية التى تخضع للقيادة الألمانية بالفعل وبصفة رسمية . وكان الوضع مختلفاً فى شمالى إفريقيا حيث كانت تعمل وحدات إيطالية كثيرة إلى جانب فيلق إفريقيا الألمانى — وكان روميل من الناحية الرسمية تحت إمرة القيادة الإيطالية العليا . وكان الألمان هم الذين يهدفون إلى تنظيم الجيش العراقى — ومعنى هذا السيطرة الألمانية نظراً

للدور الاستثنائى الذى كان يقوم به الجيش والذى ظل يباشره فى تلك البلاد . وفى ظل هذه الظروف كان من المتوخى أن يصبح مكتب جروبا مقيمية أكثر منه مفوضية .

ويتضح لنا من الوثائق أن وزارة الخارجية الألمانية تساءلت رسمياً عما سيكون عليه نفوذ إيطاليا فى العراق فى المستقبل . وكان المسئولون الألمان يميلون إلى تجنب الإفصاح عن شكوكهم مباشرة بصدد مستقبل مركز روما فى بلدان عربية أخرى. ومن المفروغ منه أن قادة الريخ الثالث لم يشاركوا روما شكوكها الخاصة بتبعية العراق لمنطقة البحر المتوسط التى اعترف هتار بأنها مجال إيطاليا الحيوى .

وكان من المتوخى أن يجرى « تبادل صريح للرأى» حول هذه المسألة فى « الوقت المناسب » — أى حين تكون القوات الألمانية داخل هذه المنطقة . فليس عجباً ألا تشتمل الوثائق المتصلة بالبلدان العربية على أى دليل على أن هتلر وعد شيانو بأن تشكل كل الأراضى الواقعة جنوب القوقاز منطقة نفوذ إيطالية : أما العراق فقد تم التسليم باحتمال ضرورة السماح للإيطاليين بالاشتراك فى تسوية بعض مسائله ، ومنها — مثلا — مسألة البترول .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الألمان بدءوا فى صيف عام ١٩٤٢ يشكلون وحدة عربية أخرى فى رأس سونيون — وكانت هذه المرة تضم عرباً من شمالى إفريقيا .

الخلاف حول استخدام
وحدة التدريب العربية الألمانية

فى صيف عام ١٩٤٢ كان الموقف كالآتى : فى جبهة شمالى إفريقيا كانت قوات المحور تقف على أبواب مصر ، وعلى الجبهة السوفييتية كانت تقترب من القوقاز : وكان الوقت قد حان للقيام بنشاط واسع بين العرب واستخدام وحدات عربية شكلتها ألمانيا وإيطاليا . ولكن ذلك الوقت شهد اتضاح الصدام بين الشريكين بعد أن كان مستتراً من قبل . ونشبت بين الزعيمين العربيين الكبيرين منافسة عنيفة كانت أسبابها كامنة فى هذه العوامل .

ودعى المفتى ورشيد عالى مرة أخرى إلى روما لأسباب تتعلق بالهجوم على مصر . وقبل الحاج أمين الدعوة مسروراً ، وبرغم أن رشيد عالى كان متشككا إلى حد ما فى البداية إلا أنه توجه إلى روما أيضاً فى نهاية الأمر . وكان مرجع تردد الكيلانى موقفه من التعاون مع الإيطاليين – إذ كان العرب بوجه عام يمقتون الاستعمار الإيطالى . ومما زاد فى حقد رشيد عالى العلاقات بين المفتى وروما . وبعد قليل بدأ رشيد عالى يصرح باقتناعه بأن أولوية إيطاليا فيما يتعلق بالشئون العربية – وهو ما اعترفت به الحكومة الألمانية – لاتتضمن أية مزايا تشكل خطورة بالنسبة إلى العرب . وكان من رأيه أن على العرب أن يعلقوا كل آمالهم على انتصار ألمانيا فى الجبهة الشرقية وعلى زحف القوات الهتلرية فى النهاية من القوقاز إلى العراق لا على انتصارات المحور فى شمالى إفريقيا. وهناك أسباب تدعونا إلى الاعتقاد بأن دكتور جروبا أيد الكيلانى فى وجهات نظره هذه . وربما كان هذا السبب هو الذى جعله عرضة لهجوم الحكومة الإيطالية ومفتى القدس . ومن الواضح أن جروبا عبر بلهجة حادة إلى حد ما وصريحة جداً عن النوايا السرية للدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية ذات النفوذ . ومما يجدر ذكره أن هتلر هو الذى عبر لشيانو (٢٦ أكتوبر ١٩٤١) عن فكرة استعمال القوقاز بآباره البترولية كرأس حربة للتغلغل فى البلدان العربية .

وعرض المفتى على إيطاليا خدماته بصدد الهجوم على مصر وعبر عن رغبته فى التوجه إلى شمالى إفريقيا حيث كان يريد أن يعمل لحساب المحور فى أثناء الهجوم ، متوقعاً أن يؤدى ذلك إلى إحرازه أهمية فى العالم العربى . ولما كان يتوقع أن يفيد من الانتصارات التى تتحقق فى مصر ، فإنه كان يود اجتذاب العرب المجندين فى رأس سونيون إلى هناك ، ضد رغبات الألمان . ولهذا أحضر إلى روما أحد الملازمين الثوانى العرب الذى كان حينئذ فى إجازة فى برلين . وكان الجنرال فلمى يخشى أن يحاول المفتى اجتذاب عدد أكبر ممن جندوا فى هيئة التدريب العربية الألمانية . ومن ناحية أخرى حاول الكيلانى أن يعود إلى برلين . وكان من رأيه أن المسائل المصرية والنشاط الإيطالى فى هذا المضمار ليست لهما أهمية كبيرة ، وأن تقدم القوات الألمانية فى القوقاز يتطلب الإسراع بالمفاوضات الخاصة بالتعاون

بين ألمانيا والعراق . وفى نهاية أغسطس توجه إلى برلين .

وفى ذلك الوقت نقلت سوندرستاب ف إلى الاتحاد السوفييتى . وبعد أن عززت وتوسعت وزودت بعتاد خاص أصبح اسمها (القيادة العامة ٦٨ للقيام بمهام خاصة (General-Kommando 68 Zur besonderen Verwendung وكانت تابعة للجيش الألمانى المصفح الأول . وكان مركز قيادتها فى بوديونوفسكايا Budionovskaya على نهر كوما . وكان عدد فرقة القيادة العامة ٦٨/ ٦,٠٠٠ رجل ، وكانت تشكيلة ميكانيكية تماماً ، وكانت لديها أسلحة احتياطية تكفى كتيبة كاملة من المتطوعين أو الهاربين العرب . وقد زودت بسبع طائرات للاتصال والمواصلات وتوزيع النشرات . ونقلت وحدة التدريب العربية ــ الألمانية إلى ستالينو ، وكان عليها بعد الاحتلال المتوقع لتفليس أن تتقدم صوب القوقاز وأن تتجه إلى البصرة عبر غربى إيران والعراق .

وبرغم أن المفتى عمل بالفعل مع بعض الخونة المسلمين من القوقاز والتركستان ؛ فإنه قدم مذكرة يعارض فيها إرسال العرب إلى القوقاز وطلب أن يرسلوا إلى مصر وشمالى إفريقيا . وفى الوقت نفسه وجه رسالة إلى مدير المخابرات الإيطالية الجنرال آميه Amé ملخصاً خططه الخاصة بنشاطه فى شمالى إفريقيا . وفى ١٠ سبتمبر قدمت القيادة العليا الإيطالية هذه الرسالة إلى الألمان . واقترح المفتى التوسع فى الدعاية وإنشاء وحدات فدائية عربية ووحدات نظامية تتلقى أوامرها باللغة العربية وترفع علماً عربياً وترتدى ملابس خاصة ، كما اقترح إقامة اتصالات مع المنظمات المصرية وتهريب الأسلحة خلف الخطوط البريطانية . وفى البداية أنكرت السلطات الألمانية على المفتى حقه فى التدخل بشأن طريقة استعمال وحدة التدريب العربية ــ الألمانية . ولكن إلى جانب الاعتبارات العامة نجد موقف القوة العربية قد حمل العسكريين الألمان على التفاوض مع المفتى حول المسألة . وجرت المحادثات فى ١٥ سبتمبر فى روما واشترك فيها الجنرال فلمى والكولونل ماير ركس والكولونل لاهوزن Lahousen والأميرال كاناريس والجنرال آميه . ووعد المفتى بإيفاد مبعوث إلى ستالينو لكى يقوم بتهدئة عرب وحدة التدريب العربية ــ الألمانية ، ولكنه لم يغير موقفه إزاء كيفية استعمال هذه الوحدة .

أما الكيلانى فقد اتبع طريقة مخالفة تماماً كانت تساند موقف برلين بصورة ألمانيا الهتلرية.

قاطعة . وبعد أن أشار الكيلانى إلى ما رأته القيادة العسكرية من أن على العسكريين أن يحددوا مسألة كيفية استخدام وحدة التدريب العربية — الألمانية ، أعلن عدم استعداده للتدخل فى مثل هذه الأمور . كان يريد أن يصبح أكبر أداة فى يد ألمانيا ، على الأقل فى مجال التشكيلات العسكرية العربية . ومن المحتمل أنه وقع بمحض اختياره (فى ١٢ سبتمبر ١٩٤٢) على « الاتفاق مع القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية حول استخدام لواء تحرير العرب » — وطبقاً لهذه الوثيقة جعلت الوحدات العربية خاضعة للجيش الألمانى ، ولم يسمح بتجزئتها ، وكان يجب على القيادة الألمانية أن تقرر استعمالها فى بلد عربى أو آخر . وكان من المتوخى لهذه الوحدات العربية — بعد وصولها إلى وجهتها — أن تسمح بانضمام متطوعين محليين ، على أساس الاتفاق مع البلد المعنى ، وإذا ما وجد جيش وطنى هناك ، كان من واجب لواء التحرير العربى أن ينضم إليه[٢]. وقد تم الاعتراف فى الاتفاقية بعرب شمالى إفريقيا الذين جندوا فى وحدة خاصة أنشئت فى رأس سونيون فى صيف عام ١٩٤٢ باعتبارهم أعضاء فى الجيش الألمانى . وقد أدت هذه الاتفاقية إلى حد كبير إلى تعكير العلاقات بين المفتى والكيلانى ، كما أنها أصبحت عاملا من عوامل النضال بين الرجلين فى أوساط العرب المهاجرين فى أوربا . وأصبح الصراع برمته مقلقاً لبرلين ، ومن المحتمل أن مرجع ذلك هو أن إيطاليا كانت تساند الحاج أمين بصفة غير رسمية .

وقد تأثرت وجهات نظر الكيلانى ليس فقط ببغضه للاستعمار الإيطالى ، بل بموقفه أيضاً باعتباره زعيماً عراقيًّا . فلو أن فكرة الزحف على البلدان العربية عبر القوقاز خرجت إلى حيز التنفيذ ، لشغل العراق مركزاً رئيسيًّا فى المشرق العربى . وفى الوقت نفسه فإن انتصار الهجوم المحورى فى شمالى إفريقيا كان لابد أن يؤدى فى البداية إلى الاستيلاء على مصر ثم على فلسطين وسوريا . وفى هذه الحالة ستكون هذه البلاد مركز اهتمام برلين وروما ، وحينئذ يكون الزعيم العربى هو الحاج أمين الحسينى لا الكيلانى . وقد أدى الخلاف بين وجهة النظر العراقية — التى كان يمثلها الكيلانى — ووجهة النظر الفلسطينية — السورية ، التى كان يعبر عنها المفتى ، إلى تناقض وجهات نظر الزعيمين تماماً فيما يتعلق بمسألة الوحدة

العربية . فقد أصبح مفتى القدس السابق أكبر أنصار الجامعة العربية ، وكان هدفه إقامة دولة عربية عظمى تضم العراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين . ولكنه لم يقف عند هذا الحد — إذ أن طموحه الخاص — بعد تطور الموقف — أدى به بشكل يزداد وضوحاً إلى اعتناق أكثر أشكال الجامعة العربية تطرفاً : حلم بقيام دولة عربية كبرى تمتد من الأطلنطى إلى الخليج (العربى) . ومن ناحية أخرى نجد أن الكيلانى كان فى صف قيام اتحاد فدرالى عربى ، ورأى وجوب تأجيل القرار النهائى حول المسألة إلى وقت يمكن فيه استشارة زعماء كل بلد عربى .

وربما كانت آراء الحاج أمين المتطرفة بشأن الجامعة العربية أكبر أسلحته فى الصراع مع الكيلانى فى أوساط المهاجرين العرب .

وبطبيعة الحال وضع المفتى فى حسابه علاقة إيطاليا الفعلية بالوحدة العربية ، وكان على بينة من موقفها ذى الوجهين من مسألة الاستقلال العربى . ولكنه كان قد ارتبط بإيطاليا لفترة طويلة . وكان متزناً فى تقدير أهمية العلاقات الإيطالية — الألمانية خلال الحرب ؛ ومن ثم اتجاهه إلى إقامة تعاون أوثق مع إيطاليا — برغم الاتجاه العربى السائد .

ويجدر بنا عند هذه النقطة أن ننتقل إلى الإشكالات السياسية الكامنة فى الموقف . فنحن نجد أن نصير الجامعة العربية المتطرف — المفتى — لم يحتقر التعاون الوثيق مع دولة — إيطاليا — كانت عميقة الشك فى كل خطط الجامعة العربية ؛ على حين أن الكيلانى — الوطنى العراقى الذى ربط كل خططه بألمانيا لا بالمحور — نجح فى التأثير على إيطاليا بحيث اعترفت بادعاء العراق فى شط العرب وخوزستان[1] الفارسية . وقد اتضح هذا لأن الإيطاليين كانوا يريدون أن يضموا إلى العراق جزءاً من إيران يحتوى على البترول — إذ كانوا يعدون العراق جزءاً من منطقة نفوذهم فى المستقبل . على أن الألمان تلقوا هذا الطلب ببرود .

---

(١) كان اسمها عربستان ، وقد انتزعتها إيران من الأراضى العربية وحاولت دمجها فى الكيان الإيرانى .
(المترجم)

الصراع فى سبيل القيادة

هذا هو الأساس السياسى للصراع بين المفتى والكيلانى . وقد سبق أن أوضحنا أن العامل الرئيسى للصدام كان النضال فى سبيل الزعامة وإرضاء طموحه الخاص وظمأه للسلطة ، واحتلال المكانة الأولى لدى الحامى الفاشستى .

وكان الموقف من الوجهة الرسمية كالآتى : كانت خطابات شيانو وريبنتروب التى سبق أن أشرنا إليها والتى كانت تحتوى على وعود حكام المحور الخاصة بالمسائل العربية العامة موجهة إلى كلا الزعيمين العربيين . ومن هنا تم الاعتراف بكليهما على قدم المساواة باعتبارهما ناطقين باسم جمهرة العرب . كما تم الاعتراف بالكيلانى رئيساً للدولة العراقية . ولكن هتلر استقبل الحاج أمين الذى بقى لفترة طويلة (حتى صيف عام ١٩٤٢) العربى الوحيد الذى نال هذا الامتياز . وخلال هذه المقابلة قطع هتلر وعوداً معينة أشار إليها المفتى فيما بعد . وطبقاً لهذه الوعود كان من المتوخى أن يحتل الحاج أمين الحسينى المركز الرئيسى فى الأوساط العربية . وفى الواقع لم يكن ثمة شك فى تفوق المفتى شخصيًّا على الكيلانى من حيث مدى قدرته ونفوذه وجرأته .

وقبل أن يتوجه المفتى إلى روما كان قد أكد بشكل قاطع جداً[1] مسألة سلطته السياسية فى كل المسائل العربية ، خاصة فيما يتعلق بالكيلانى الذى كان قد بدأ يعمل لحسابه الخاص ولم يعمل طبقاً لرغبات الحاج أمين . وكانت وجهة نظر الكيلانى أنه — بصفته رئيساً اوزراء بلد مستقل ذى سيادة اعترف المحور به على هذا الأساس — لايستطيع أن يجعل نفسه خاضعاً للحاج أمين .

ولكن المفتى كان لا ينحنى فى طلبه الخاص بالاعتراف به باعتباره الزعيم الأكبر للعرب ، وقد ذهب ، حتى خلال اتصالاته الأولى بالمحور فى أوائل

---

(١) فمثلا كان عباس حلمى يرى أن المفتى « قدير وخطير » وأن الكيلانى وطنى نزيه وإن تكن قدرته قليلة (مذكرات بروفر Prüfer — برلين فى ١٧ يونية ١٩٤٣) .

الحرب ، إلى أنه يتكلم باسم لجنة تمثل كل العرب . وحين كان فى برلين فى نوفمبر ١٩٤١ ، كان قد قدم إلى جروبا تصريحاً يفخر فيه بعلو مركزه فى العالم العربى . ثم جرت بينه وبين إيتل ثلاث محادثات طويلة فى يونية ١٩٤٢ عرض فيها وجهات نظره السياسية وأثار من جديد المسائل التى ناقشها مع جروبا قبل ستة شهور . وكرر نفس الشىء مرة أخرى لفايزساكر وفورمان . ومع بعض الاختلافات فى التفاصيل كانت الأشكال المختلفة لنفس القصة كالآتى : لم يوافق المفتى على تقديم أى تنازلات بصدد مسألة سلطته السياسية ، لأن كل المشكلات العربية كان يجب أن يقررها التنظيم السرى المسمى « حزب الأمة العربية » . وكان هذا التنظيم – وفق قوله – مبنيًّا على مبدأ « الزعيم » باعتباره خلفاً « للفتاة » التى كانت قائمة قبل الحرب العالمية الأولى . وكان من المعتقد أن فيصل ملك العراق كان أول رئيس لهذا التنظيم ، وقيل إن القيادة كانت تتألف من أناس يميلون إلى بريطانيا . وذهب المفتى إلى أن الحزب بدأ يغير اتجاهه تحت قيادة فيصل – فأصبح من الضرورى إبعاد أعضاء من أمثال نورى السعيد ، واكتساب أعضاء جدد بوجه عام . وفى رواية أخرى باهى المفتى بأنه هو الذى أعطى التنظيم طابعاً معادياً لبريطانيا حين أصبح زعيما له . وقبل ذلك كان عضواً عاديًّا لعدة سنوات ، ثم أصبح رئيساً لفرعه فى القدس ، ولم يلبث أن أصبح زعيماً له فى فلسطين . كما أنه روى هذه الأحداث بأشكال تختلف اختلافات قليلة : فذهب مرة إلى أنه قد اختير زعيماً فى بداية ثورة فلسطين فى عام ١٩٣٦ ، ثم ادعى بعد ذلك أن الزعماء العرب قد اختاروه رئيساً فى عام ١٩٣٢ أو أن فيصل منحه المنصب فى نفس العام . وأصر المفتى على أن حزب الأمة العربية هو الذى كان من وراء الاتفاق وأنهى الحرب بين إمام اليمن وابن سعود فى عام ١٩٣٤ وأنه هو الذى أجرى المفاوضات . كما ادعى بالإضافة إلى ذلك أن الحزب كان من وراء أحداث العراق ، وأنه هو أيضاً الذى أقنع ناجى شوكت ورشيد عالى والصاغات الأربعة بالحاجة إلى نضال فعال . كما أنه ذهب إلى أن هذا الحزب هو الذى عين طه الهاشمى رئيساً للوزراء ، وحين أصبح من اللازم استبداله هو (المفتى) – برغم آراء الأعضاء العراقيين فى التنظيم – فرض

تعيين رشيد عالى الذى كان قد انضم إلى التنظيم بهذه المناسبة وأقسم يمين الدخول بناء على توصيته . ووفقاً لما ذهب إليه الحاج أمين كانت للتنظيم فروع فى كل البلدان العربية ، بما فيها العربية السعودية واليمن . وباهى أمام ماكنزن بأن أغلبية المتعاونين مع الملك فى العربية السعودية كانوا تابعين للتنظيم؛ وأن ابن سعود ذاته كان يرى أن مستقبل العرب يتطلب التحالف مع المحور(١). ولقد أصر المفتى على أنه لم يكن ثمة شك على الإطلاق فى أن رشيد عالى كان مرءوساً له من الناحية العسكرية السياسية وأن هذه العلاقة لم تتغير إلا فى برلين حين بدأ الكيلانى يعمل لحسابه الخاص .

وبدأ المفتى يلوم جروبا بعض الوقت فى عام ١٩٤٢ لعدم خضوع الكيلانى وعناده ، ملمحاً بذلك إلى أن منافسه متذبذب وضعيف الشخصية .

واستغل المفتى فى روايته بعض الأفكار السائدة فى أوربا عن البلدان العربية . وهكذا نجده يستغل سمعة المنظمات السرية العربية التى نشطت فى الإمبراطورية العثمانية ، وهى السمعة التى ساهم فى إبرازها الإنجليز (خصوصاً لورنس فى كتابه أعمدة الحكمة السبعة) إلى جانب الدعائيين العرب . كما أشار المفتى إلى الصورة الغربية لحركة الجامعة الإسلامية . وباهى بمركزه السامى فى العالم الإسلامى ، وصور نفسه على أنه منظم ورئيس المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى القدس فى عام ١٩٣١ . ولم يكن على الحاج أمين أن يقنع مستمعيه بأن أفكار الجامعة العربية واسعة الانتشار — فكل من كانوا على أية صلة بالشئون العربية كانوا على علم بذلك .

وسرعان ما اشتد الصراع حول من يتولى القيادة فى المشرق العربى ومن الذى يعترف به المحور باعتباره أداته الرئيسية . فقد استمر تنديد السلطات الألمانية والإيطالية كل منهما بالأخرى . كما استمرت المؤامرات والمنازعات الصاخبة

---

(١) ربما كانت مناسبة هذه المحادثة الرسالة التى بعث بها ابن سعود إلى المفتى ، وهى الرسالة التى أوضح فيها الأسباب التى دعته إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع دول المحور وطلب أن تبلغ صديقتاه (ألمانيا وإيطاليا) بأنه فعل ذلك ضد إرادته ، وأنه لم يكن لهما سوى أحسن النوايا . ويؤكد تونشل أن حاشية ابن سعود كانت تقف موقفاً ودياً من ألمانيا : K.S. Twitchell, Saudi Arabia, p. 166.

بين العرب القاطنين فى أوربا وأقحمت فى ذلك مؤسسات وهيئات محورية مختلفة[1].

وحين اقترب وقت قيام المفتى برحلته إلى شمالى إفريقيا (أواخر يولية ١٩٤٢) أصبح يسعى إلى أن يتم الاعتراف به بصفته زعيم التنظيم السرى العربى الذى بيده توجيه نشاط الحركة القومية العربية . وكان يود أن يواجه المحور بالحاجة إلى اتخاذ قرار ، بالضبط كما فعل فى محادثاته مع الألمان فى خريف عام ١٩٤١ . وكان من المتوخى أن يكون القرار شخصياً هذه المرة ، ولكن كان من المحتمل أن يؤثر تأثيراً خطيراً فى مسألة الوحدة العربية ، لأنه (المفتى) سيصبح الناطق المعترف به باسمها . ولم يكن يقتصر أمر القرار على حسم قضية فى طى المستقبل — فى حالة انتظار المحور على المدى البعيد — بل إنه كان من شأنه أيضاً أن يخلع عليه زعامة العرب الذين يدورون فى فلك المحور ، كما سيعطيه نفوذاً حاسماً على العرب المنفيين فى تركيا[2] ، وبوجه عام على كل من يتلقون منه أموالا . وفى الوقت نفسه قام الحاج أمين بنشاط واسع بين المسلمين ، وباشر كل أنواع الاتصالات ، وحصل على اعتراف العالم الإسلامى خارج نطاق المناطق التى يتكلم أهلها اللغة العربية .

ألمانيا وإيطاليا ومطامع المفتى

وتمشياً مع سياسة الانتظار التى اتبعها الألمان فيما يتعلق بالمسائل العربية ، نجدهم يفضلون المحافظة على الحالة القائمة فيما يتعلق بزعامة أنصارهم العرب ، ويريدون أن يتبينوا ما الذى سيقرره الإيطاليون . وكان من شأن وصول الزعيمين إلى اتفاق أن يريح الألمان الذين كانوا يعولون على أن يقوم الإيطاليون بشىء بهذا الصدد . وقد تمسكوا باستمرار بفكرة ضرورة الإبقاء على كل من

---

(١) تحتوى وثائق وزارة الخارجية الألمانية على كثير من التقارير الخاصة بالتنديدات المتبادلة . وقد ذكر شيانو فى مذكراته (بتاريخ ٢٦ يوليه ١٩٤٢) ما يلى « إن كلا من المفتى والكيلانى يثير منازعات صاخبة وجروبا . . يسكب الزيت على النار » . Ciano's Diary, London, 1948.

(٢) كان كثير منهم يتلقون بانتظام أموالا من المفتى والكيلانى اللذين حصلا عليها من ألمانيا وإيطاليا .

المفتى والكيلانى ، وحاولوا البحث عن صيغة لمصالحة كلا الرجلين . ولكن كانت لديهم فكرة عالية عن الحاج أمين ، ومما لاشك فيه أنهم كانوا سيقرون ادعاءاته فيما إذا كان لابد من الاختيار .

ويبدو مما سبق ذكره أنه كان من مصلحة الألمان أن يساندوا الكيلانى ، وأن من مصلحة الإيطاليين أن يدافعوا عن المفتى الذى ارتبطوا به طيلة هذه الفترة الطويلة . وبالفعل اعتبر بعض المسئولين الألمان المفتى رجل إيطاليا[1] ، على حين أن آخرين — لهم نفوذهم — لم يسلموا بإخلاص مشاعره بإزاء الإيطاليين . وذهب المفتى ذاته إلى أن ميوله إلى إيطاليا كانت من اختراع جروبا . ويحتمل أن الألمان أدركوا ، ليس فقط من اتهامات الكيلانى ، بل من شيانو ذاته ، أن الحاج أمين كان لفترة طويلة يتلقى أموالا من الإيطاليين . على أن برلين كانت تميل إلى الرأى الخاص بأنه كان سياسياً محنكاً يفهم حقائق العلاقات الإيطالية — الألمانية . وبرغم أن الكيلانى كان يوافق بشدة على مسألة وحدة التدريب العربية الألمانية ، فلم يكن باستطاعة الألمان أن يساندوه ضد المفتى بسبب علاقاتهم بإيطاليا . ولم يخف الكيلانى مقته لإيطاليا ، ومن الواضح أنه كان يود أن يفيد من عدم اتفاق شريكى المحور على المسائل العربية ، ولكن الألمان لم يكونوا يرغبون فى إفشاء هذه الحقيقة فى ذلك الوقت . وكان المفتى خبيراً بالتآمر ، فلمح للإيطاليين بمهارة إلى أن الألمان كانوا يتبعون سرًّا سياسة عربية موجهة ضد مصالح إيطاليا . حقيقة أن الألمان تظاهروا بمنح الكيلانى اعترافاً متساوياً (على سبيل المثال حين قابله هتلر فى يوليه ١٩٤٢ بعد إلحاح شديد) إلا أنه كان على المسئولين الألمان المشتغلين بالشئون العربية أن يعترفوا بأن المفتى كان أكثر واقعية وأن أساليبه السياسية كانت أكثر تمشياً مع الاتفاقيات الإيطالية — الألمانية .

ومن المحتمل جداً أن الدوائر الألمانية صاحبة الحل والعقد كانت أميل إلى الاعتقاد بأن المفتى كان الشخص الأقوى ، وأنه أكثر تمشياً مع الفكرة النازية الخاصة بالزعيم . فقد أشاد هتلر — مثلا — « بذكائه غير العادى » الذى جعله « يكاد يتساوى مع اليابانيين » . ومن المحتمل أيضاً أن اتصالات الحاج أمين

---

(١) على سبيل المثال دكتور جروبا (انظر مذكراته ، برلين فى ١٩ يونية ١٩٤٢) .

بقوات العاصفة والجستابو ، وبخاصة الأجهزة التى كانت تقوم بالقضاء على اليهود الأوربيين ، قد أثرت فى فكرة الزعيم الألمانى عنه . كما كانت بعض الاعتبارات الجنسية تزكيه . فى المذكرات التى قدمها لوزارة الدفاع برفسور شرومف Schrumpf — وهو ألزاسى الأصل باشر الطب فى القاهرة فترة طويلة — ذكر أن المفتى كان يمثل جنساً شركسياً : « وكما سبق لى أن ذكرت عدة مرات ، فهو إذن ليس (عربياً) . ولكن على أساس تطبيق قانون مندل والمزايا الوراثية ، بدأ الدم الشركسى يغلب على أسرته — وهذا أمر هام من وجهة النظر السيكلوجية » . هكذا كان استنتاج بيير شرومف — الذى شعر فجأة بشعور الألمانى حين رفض كرسياً فى جامعة باريس إذ اعتقد أن الدم العربى الخالص لايمكن فى أساسه أن يتميز « بمثل هذا الثبات والمثابرة فى النضال ضد الإنجليز واليهود . وأهم من هذا أن الدم القوقازى أو الآرى يجعلنا نتوقع من المفتى أن يبدى فى المستقبل إخلاص الحليف بالصورة التى لا يتميز بها الدم العربى الخالص » .

ومما يجدر ذكره أن تقارير المبعوث الألمانى قد أقرت أيضاً ملامح ذو الفقار باشا وإسحق درويش الجنسية .

ويصف هتلر الحاج أمين ذا اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين وصفاً مخالفاً إلى حد ما فى تفاصيله ، ولكنه يطبق عليه نفس النظرة الجنسية . وفى أول يولية ١٩٤٢ صرح فوهرر الريخ الثالث بأن شعر المفتى الأشقر وعينيه الزرقاوين يعطيان الانطباع بأنه شخص كان فى أسلافه أكثر من آرى وذلك برغم ملامحه الحادة الشبيهة بالفأر ، وأن من المحتمل أن هذه الآرية قد امتزجت لديه بأحسن ما ورثه عن الرومان . وهكذا فإن عطف الزعماء النازيين على المفتى كان يستند إلى أساس قوى ، فمقدرته وإقدامه وكرهه العميق لليهود — كل هذه الصفات كانت موضع تقدير عظيم ، بل إن ملامحه « شبه الآرية » كانت أيضاً موضعاً للتقدير .

وفى ٩ سبتمبر ١٩٤٢ نقلت وزارة الخارجية الإيطالية خبراً إلى السفارة الألمانية فى روما بأن ثمة مشروعاً — ظهر فى أثناء المحادثات التى كانت قد جرت قريباً مع مفتى القدس — باعتراف المحور به كتابة باعتباره زعيماً للتنظيم السرى لكل العرب . وقد اقترح وجوب بحث الإيطاليين هذه المسألة أيضاً عن طريق تبادل

للرسائل بين المفتى والحكومتين ، كما هو الحال بالنسبة إلى التصريح المساند للمطالب القومية العربية . كما بلغوا حليفهم بأن الكونت ڤيتتى Vitetti كان يعد نص الخطابات ، وأنها ستقدم إلى برلين بمجرد أن يوافق عليها شيانو .

وقد اتضحت المقترحات السابق ذكرها خلال مناقشات تنازل فيها الحاج أمين عن بعض مطالبه . كان يريد اعترافاً بأنه القائد الأعلى الوحيد للشئون العربية ، ومن ثم الزعيم الوحيد لكل نشاط المحور فى العالم العربى . ورأى الإيطاليون أن من الصعب قبول هذا الطلب ، لأنهم لم يكونوا يرغبون فى التخلى عن اتصالاتهم الأخرى . فقد كان عليهم بوجه خاص أن يعملوا حساباً لرغبات الزعماء المصريين الملتفين حول الملك فاروق وعلى ماهر (باشا) ، ولكن كان عليهم أن ينظروا بعين الجد إلى تحذير المفتى الخاص بأنه سيواجه صعاباً كبيرة فى شمالى إفريقيا إذا لم يحصل على الاعتراف الذى كان يرغب فيه[1]. ويجب علينا أن ندرك أن الإيطاليين لم يكونوا يقلون عن المفتى نفسه فى الاهتمام بالقضاء على جهود الكيلانى وإخضاعه للحاج أمين .

وفى ١٤ سبتمبر قدم قيصر شيجى إلى سفارة الريخ مذكرة وافق موسولينى على محتوياتها . وقد اقترحت المذكرة الاعتراف بالمفتى باعتباره « الزعيم المسئول لمنظمة الأمة العربية والمتحدث باسم الحركة القومية التى تشكل هذه المنظمة جزءاً منها فى كل البلدان العربية فى الشرق الأدنى » . كما اقترح الإيطاليون أن يوجه المفتى نصوص الخطاب إلى موسولينى وأن يصدر رد الكونت شيانو باسم الدوتشى . وقد لمح كلا النصين إلى أن الاعتراف بالحسينى باعتباره الزعيم الأكبر والوحيد لمنظمة الجامعة العربية أمر تحتمه أوجه نشاطه المتوقعة فى مصر وجبهة شمالى إفريقيا .

ولما كان رشيد عالى على علم بجهود المفتى ، فإنه أخبر الإيطاليين والألمان بأن التنظيم من وحى خيال المفتى . واقترح استقاء معلومات بهذا الصدد من زعماء

---

(١) ربما كان المفتى على حق حين أشار إلى الصعوبات ، لأن شعبيته كانت ضعيفة خارج بلدان الهلال الخصيب .

عرب آخرين ، وبخاصة عادل أرسلان وناجى شوكت . وقد أتلقت ادعاءات المفتى الكيلانى كثيراً ، فحاول أن يثبت أنه زعيم دينى وليس له أى وضع سياسى من أى نوع فى العالم العربى .

ولم يجب الألمان فى الحال على الاقتراح الخاص بالاعتراف بالمفتى باعتباره زعيماً لكل القوميين العرب . وأرسل ريبنتروب إيتل إلى روما ليتحقق من وجود المنظمة المزعومة وأمره بأن يجس نبض قصر شيجى وأن يحصل من الحاج أمين على دليل يؤكد ادعاءاته .

ولم يكن من الممكن بالنسبة إلى رحلة إيتل أن تكون لها أية نتيجة سوى تأكيد ادعاءات المفتى . وربما كان هذا هو هدفها . ولما كانت وزارة الخارجية الإيطالية قد التزمت بالفعل بصدد هذه المسألة ، فمن المؤكد أنه لم يكن يتوقع منها أن تتخلى عن وجهات نظرها أمام إيتل . ولما كان المفتى متآمراً ماكراً ، محاطاً بمجموعة من الرجال المخلصين ، ولما كان لاينورع عن اغتيال خصومه السياسيين ، فقد كان بإمكانه باستمرار أن يقدم دليلا ما ، وكان إيتل ذاته من أنصار المفتى ، ومن المحتمل أن ريبنتروب وفورمان كانا على علم بذلك . ولما كان إيتل نازياً متعصباً ، فإنه لم يتميز بالقدرة على التحليل السياسى المستقل .

وجهات نظر المفتى

بقى إيتل فى روما من ١ إلى ٢ أكتوبر . وقام مع دورتنباخ Dortenbach — وهو موظف كان مختصاً بالشئون العربية فى سفارة ألمانيا فى روما — بزيارة الكونت ڤيتنى الذى أعلن اقتناع الحكومة الإيطالية بوجود التنظيم السرى العربى . وذهب إلى أن الاقتناع يستند إلى تقارير المبعوثين والقناصل الإيطاليين فى البلدان

---

(١) بنينا هذه الفكرة على تقارير إيتل التى كانت تحتوى على تقييم ساذج جداً للمعاهدة الألمانية السوفيتية والتحالف الإيطالى — الألمانى . (انظر أيضاً : حداد : حركة رشيد عالى الكيلانى ، ص ١٣٢ .

Schultze-Hothus, Daybreak in Iran, A story of the German Intelligence Service, London. 1954, pp. 13-15 & 70-7.

العربية لعدة سنوات . وكان من رأى فينتى أن مفتى القدس ما كان ليستطيع النضال ضد الإنجليز واليهود لمدة ٢٠ سنة ما لم تكن لديه مثل هذه المنظمة ، وأن الحكومة الإيطالية تعتقد أن من غير المناسب أن تطلب منه دليلا على وجودها ».

وفى المحادثات التى جرت بين إيتل والمفتى أعاد الحاج أمين عرض مزاعمه التى سبق أن عرضها على فايزساكر وفورمان وجروبا وإيتل ذاته ، وأعلن أن لديه عدداً من التصريحات التى أدلى بها أعضاء فى ذلك التنظيم . وقدم خطابات من ناجى شوكت ، والدكتور فرحان الجندلى ومحمد حسن أبو السعود ومحمد عفيفى ومحمد صبحى أبو غنيمة . وكانت تصريحات أبى السعود والعفيفى متشابهة ». وقد أعلن السورى – الجندلى ، والأردنى – أبو غنيمة – أنهما كانا عضوين لمدة سنوات فى التنظيم السرى وأنهما كانا يعملان وفق أوامر مفتى القدس . وأدلى ناجى شوكت بتصريح طويل (سبق أن ناقشنا فحواه فى الفصل الثامن) . وقد وصف اجتماعا جرى مع المفتى فى بغداد فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ ، وأقسم فيه « رشيد عالى على القرآن الكريم أنه يعلن انضمامه إلى التنظيم وأنه سيكون مخلصاً لبرنامجه وأعضائه طيلة حياته . وأقسم كل الموجودين نفس اليمين » . وقد كتب ناجى شوكت هذا فى رد على رسالة من المفتى طلب منه فيها أن يؤكد ظروفاً معينة تتصل باجتماع جرى بين سبعة زعماء فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ ».

وفى رأينا أن القسم المشترك يوضح أن كل الموجودين وافقوا على القيام بعمل مشترك . ولهذا يبدو أن اجتماع ٢٨ فبراير كان أول جلسة انعقدت بين مجموعة من المتآمرين الذين قاموا بالانقلاب فى العراق ، ولم يكن اجتماعاً بين الأعضاء القدامى للتنظيم الشامل لكل العرب الذى قيل إن رشيد عالى قد انضم إليه بهذه المناسبة باعتباره عضواً جديداً .

كما يذكر صلاح الدين الصباغ – الذى يصف اجتماع ٢٨ فبراير – أن كلا من الحاضرين أقسم « يميناً مغلظاً » . ويعطينا وصفه الانطباع بأنه كان الاجتماع التأسيسى للمؤامرة المعادية لبريطانيا فى العراق .

وفى أحسن الحالات تدل رسالة ناجى شوكت على أنه كان يوجد فى ذلك الوقت تنظيم سرى فى بغداد – أو مؤامرة يرأسها المفتى . ولا تذكر الرسالة شيئاً

عن وجود المنظمة فى بلدان أخرى . ومن المعتقد أن ذلك كان مهمة خطابات الآخرين السابق ذكرهم . وإن شهادة أبى السعود وعفيفى اللذين كانا لفترة طويلة من أنصار الحاج أمين لعلى جانب كبير من الأهمية . فقد ذكرا أنهما - باعتبارهما عضوين فى إدارة « حزب الأمة العربية » - كانا على علم بأن الحزب قرر إعادة تنظيم لجنته التنفيذية فى العراق ، وأن المفتى اشترك فى جلسة بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٤١[1] شهدت ظهور اللجنة التنفيذية ، وفيها أقسم أعضاؤها اليمين . وكان القصد من هذا فى الوقت نفسه توضيح أن القسم العام كان أمراً ضرورياً ، لأن لجنة تنفيذية جديدة للفرع العراقى من المنظمة العربية الشاملة قد تشكلت . وبإمكاننا أن نلحظ بعض التناقضات بين رسالة شوكت ورسائل الفلسطينيين ، لأن الأول لايتحدث عن إقامة لجنة تنفيذية ، بل عن انضمام رشيد عالى إلى المنظمة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد جرت فى الصحف العربية فى عام ١٩٥٧ مناقشة بعض الوثائق الألمانية المتصلة بالصراع بين الحاج أمين ورشيد عالى . وفى محادثات المفتى السابق مع المراسل القاهرى لجريدة الأخبار لم يشر الحاج أمين إلى وجود أى حزب سرى اسمه حزب الأمة العربية ، أو أنه قد أكد لدولتى المحور أن مثل هذا التنظيم كان موجوداً . ومما قاله المفتى نشك فى أن التعاون بين زعماء حركة الجامعة العربية فى مختلف البلدان العربية قد اتخذ شكلا منظماً فى بغداد[2]. وعلى ضوء المقابلة السابق ذكرها يبدو أنه لم توجد فى بغداد عام ١٩٤١ (أو ربما فى عام ١٩٤٠) سوى اتصالات غير وثيقة بين ساسة من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، وأنه لم يكن تنظيماً شاملا لكل العرب ، بل إنه كان يقوم على المفتى

---

(١) (هكذا !) على أننا نعتقد أن هذا الاجتماع قد جرى فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ ، ونحن فى اعتقادنا هذا نتمشى مع ماذكره الصباغ فى مذكراته (فرسان العروبة فى العراق ، ص ٢١٨) ومجيد خضورى (Independent Iraq, 308) . وفى هذه الرسالة لا يعطينا ناجى شوكت التاريخ المحدد ، بل لا يذكر سوى أن الاجتماع تم « فى فبراير » .

(٢) الأخبار فى ٢ سبتمبر ١٩٥٧ ، رقم ١٦٠٨ ، ص ٥ - ٦ . فى المقابلة التى جرت بين المفتى ومراسل هذه الصحيفة ، استعمل الحاج أمين كلمة « لجنة » ولم يستعمل مرة واحدة كلمة « حزب » . وذكر أنه لم تكن توجد فى الواقع مثل هذه اللجنة التى أشارت إليها الوثائق الألمانية ، بل « مجموعة عربية متضامنة » اضطلعت بمهمة تحقيق المطالب القومية العربية .

وبعض الزعماء العراقيين ، ومنهم المفتى وضباط الجيش الذين أعدوا المؤامرة فى فبراير ١٩٤١ .

نتائج رحلة إيتل

بعد أن أنهى إيتل تحرياته انتقل إلى مناقشة تبادل الرسائل الذى كان من المتوخى منه أن يعترف المحور بالمفتى باعتباره زعيماً للتنظيم العربى العام . وتم الاتفاق على أن يوجه الحاج أمين رسائل شخصية إلى شيانو وفون ريبنتروب لا إلى موسولينى وهتلر كما اقترح سابقاً . حينئذ كان من المتوخى أن يتلقى من كل منهما رداً شخصياً . وكان من المتوخى أن يكون نص الردين واحداً ، وكان قد تم بالفعل الاتفاق على نصيهما مع المفتى .

ولم نعثر فى الوثائق الألمانية على تأكيد بأن تبادل الرسائل قد تم . فقد حدث مرة أخرى فى أواسط شهر ديسمبر أن طالب المفتى بالاعتراف ، ولكن سلطات المحور اقترحت حينئذ نص الرسالتين بسبب تغير الموقف العسكرى الذى لم يشجع على اتخاذ قرارات أساسية حول المسائل العربية . وهناك أيضاً دليل ما على أن وزارة الخارجية الألمانية بدأت تقدر ضرر هذا النوع من التدخل فى الشئون العربية الداخلية .

ولهذا يجب أن نخلص إلى أن تبادل الرسائل لم يحدث على الإطلاق . وفى الواقع أن المفتى كان يحتل بالفعل المكان الأول فى سياسة المحور العربية . وحين ضعفت فرص المحور فى البلدان العربية ازداد نشاط المفتى فى مسائل إسلامية أخرى : منها — على سبيل المثال — القيام باتصالات بأنصار المحور فى القوقاز وأواسط آسيا وفى منظمات العاصفة الخاصة بمسلمى البلقان وغير ذلك . وقد كشفت سجلات محاكمات نورمبرج عن الدور الآثم الذى قام به المفتى فى التخلص من اليهود الأوربيين .

وقد أدى إيفاد إيتل إلى روما والقرار الذى اتخذ حينئذ إلى إبعاد دكتور جروبا الذى كان بالفعل قد أعفى من مهامه باعتباره رجل الاتصال بالمفتى ،

وخلعت هذه المهمة على إيتل الذى أرسل فى ١٧ أكتوبر ١٩٤٢ مذكرة مستفيضة إلى ريبنتروب تناولت نتائج رحلته إلى إيطاليا وما انتهى إليه . وبعد أن أوضح إيتل مهام الريخ الثالث فى المشرق العربى على ضوء العلاقات الإيطالية – الألمانية ، وصل إلى عدد من الاستنتاجات الشخصية .

وتدل مذكرات إيتل على تناقض سياسة ألمانيا العربية . فمن ناحية اتضح لإيتل أن إيطاليا لم تكن تحظى بعطف العرب ، ومن ناحية أخرى اعترفت ألمانيا – التى كان لها حينئذ أصدقاء كثيرون من العرب – بهيمنة روما فيما يتعلق بالشئون العربية . ولهذا رأى إيتل أن على ألمانيا أن تظهر بمظهر السمسار الأمين الذى يخطب وده كلا الطرفين ، وأن على الريخ أن يحتل الوضع الرئيسى وأن يتمتع بنفوذ فى الشئون العربية دون أن يمس أولوية إيطاليا . وأكد إيتل أن هذا السبب يجعل من غير الضرورى إبلاغ الشعب العربى بالوعود التى بذلتها برلين للإيطاليين فيما يتصل بالبلدان العربية . وشكا إيتل من أن الكيلانى رفض الاعتراف بهذا الموقف المرباك ، على حين أن مفتى القدس اعتبر التعاون الألمانى – الإيطالى ضرورة مستقلة وعول على الوصول إلى اتفاق مع ألمانيا بعد إحراز النصر ، لأن الريخ حينئذ لن يكون مضطراً إلى الاهتمام بمصالح شريكه الإيطالى .

ويواصل إيتل سلسلة من الاتهامات ضد جروبا : أثر نشاطه السلبى على العلاقات الألمانية – الإيطالية ، وإساءته إلى علاقات ألمانيا بالمفتى ، وأنه كان من وراء الصراع الذى نشب بين المفتى والكيلانى وكذلك الصراع الداخلى الذى نشب بين العرب المنضوين تحت جناح ألمانيا . وقد كتب إيتل إلى وزيره أنه لاخطته السياسية ولا شخصيته تجعلانه صالحاً لمعالجة الشئون العربية . وكان جروبا يطمح إلى تسوية مصير البلدان العربية – باعتباره « مندوبا سامياً » – مع الكيلانى الذى كان خاضعاً له[١] . وفى النهاية اقترح إيتل وجوب تفويض السياسة الألمانية المتعلقة بالشئون العربية إلى بروفر Prüfer الوزير المفوض السابق فى البرازيل الذى كان قد رجع وشيكاً إلى ألمانيا[٢] .

---

(١) يقيم خضورى موقف جروبا تقييماً مشابها (ص ٢٣٩) .

(٢) دخل بروفر وزارة الخارجية الألمانية فى عام ١٩٠٧ باعتباره مترجماً ضليعاً فى قنصلية القاهرة . ثم حصل على درجة أستاذ محاضر متخصص فى اللغات السامية . وقد عمل فى تركيا فى الفترة ما بين=

وفى مذكرات أخرى ، ربما تكون قد كتبت فى ديسمبر ١٩٤٢ ، اتهم المؤلف جروبا بأنه قد تصرف مع المفتى بطريقة تعيد إلى الأذهان أساليب الماسونية التى كان قد شغل فيها مرتبة عالية ولم يتركها إلا فى عام ١٩٣٤ . وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى إيتل أن « المشكلة العربية مرتبطة بالمسألة اليهودية ارتباطاً لاينفصم . فاليهود هم الأعداء الألداء للعرب والألمان على حد سواء . وعلى كل من يشغل نفسه فى ألمانيا بالمشاكل العربية أن يكون عدواً صلباً لليهود عن اقتناع » .

واستبعد دكتور جروبا ودكتور جرانوف من الشئون العربية ونقلا إلى باريس. وقد تم ذلك فى نهاية عام ١٩٤٢ حين كان المحور قد هزم فى العلمين ، وحين كان القتال دائراً فى تونس .

= عامى ١٩١٤ و١٩١٧،ثم عمل فى سفارة الآستانة ، وفى فترة مابين الحربين كان قنصلاً فى تفليس ووزيراً مفوضاً فى أديس أبابا ثم سفيراً فى البرازيل .

الفصل الرابع عشر

فصل ختامى عن تونس

فى نوفمبر ١٩٤٢ انصب اهتمام النازى بالبلدان العربية على تونس . فحتى خريف ذلك العام كانت قوات المحور تقوم بالهجوم . ولكن معركة العلمين (٢٣ أكتوبر) ونزول القوات البريطانية والأمريكية فى شمالى إفريقيا (٨ نوفمبر) وأهم من هذا الهجوم السوفييتى المضاد على الفولجا (١٩ نوفمبر) — كل ذلك كان بداية فترة جديدة من الحرب ، هى الفترة التى شهدت هزيمة المحور . وفى الوقت الذى كان الألمان يقومون فيه بالهجوم نجد أن اهتمامهم قد انصب أولا وقبل كل شىء على البلدان العربية الواقعة فى منطقة السيطرة البريطانية . وقد رفضت برلين رفضاً باتاً احتمال استغلال القومية العربية فى شمالى إفريقيا برغم ما رأيناه من أن هذا الموقف كان له أثر سلبى على السياسة الألمانية فى بلدان آسيا العربية وفى مصر. ومنذ الوقت الذى لجأ فيه الألمان إلى الدفاع فى نوفمبر ١٩٤٢ ، كان عليهم أن يهتموا بتونس ، وهى بلد عربى كانت فيشى تتولى إدارته ، وكان من المتوخى أن تكون تونس بعد النصر من أسلاب إيطاليا . ومنذ أواسط نوفمبر ١٩٤٢ كانت القوات الألمانية والإيطالية تحتل تونس .

احتلال تونس

فى ٨ نوفمبر نزلت فى الجزائر ومراكش قوات بريطانية وأمريكية يقودها الجنرال دوايت أيزنهاور . ولم يطل أمد مقاومة القوات الفرنسية المخلصة لفيشى . وقد استغرق القتال الذى دار على شاطئ مراكش الواقع على المحيط الأطلنطى فترة طويلة وكان أقصر ما يكون فى الجزائر . وقد انضم دارلان — الذى تصادف وجوده فى الجزائر لزيارة ابنه المريض — إلى الحلفاء وتلا احتلال قوات المحور لفرنسا غير المحتلة اتفاق كامل بين أنصار نظام فيشى فى شمالى إفريقيا وبين

القيادة الأمريكية (١٣ نوفبر) . واستبعد مؤقتاً الجنرال ديجول الذى كان فى عام ١٩٤٠ قد نادى بمواصلة القتال ضد المحور . ولم يتم كبح جماح أنصار فيشى فى شمالى إفريقيا إلا بعد مقتل دارلان (٢٤ سبتمبر ١٩٤٢) وانعقاد مؤتمر الدار البيضاء (١٤ — ٢٥ يناير ١٩٤٣) .

ولم يكن الألمان يتوقعون نزول قوات العدو فى شمالى إفريقيا . فبعد أن خدعتهم مخابرات الحلفاء المضادة ، سلموا بأنه ستجرى محاولة للقيام بإنزال القوات فى جزيرة ما فى غربى البحر المتوسط . وكانت برلين تعول لدرجة ما على المقاومة الفرنسية فى شمالى إفريقيا ، ولكن هذا الوهم سرعان ما تبخر . وكان من الضرورى القيام بعمل ما ، وفى ١٠ نوفبر أمر هتلر بإقامة رأس جسر فى تونس .

وكانت الظروف العسكرية والسياسية فى صف اتخاذ مثل هذه الخطوة . فأولا وقبل كل شىء قام الحلفاء بالنزول فى مراكش والجزائر ، ولكنهم تركوا تونس ، مما أطال أمد القتال فى شمالى إفريقيا لعدة أشهر . حقيقة إن قنصل الولايات المتحدة العام دوليتل Dolittle بلغ المقيمية الفرنسية فى تونس (الساعة الثانية من صبيحة يوم ٨ نوفبر) برسالة الرئيس روزفلت الخاصة بنزول الحلفاء فى مراكش والجزائر ورأس بون وتونس ، إلا أن عمليات الإنزال لم تحدث فى الموضعين الأخيرين .

ومن ناحية أخرى نجد أن الإدارة الفرنسية — عسكرية ومدنية — لم تحل دون إقامة الألمان رأس جسر وتوسيعه . وفى نوفبر وافقت فيشى على طيران السلاح الجوى الألمانى فوق فرنسا غير المحتلة وزودته بالمطارات . كما سمحت بنزول الطائرات الألمانية فى تونس وبوجود قوات إيطالية وألمانية فيها . وتمشياً مع أمر الحكومة الفرنسية سحب الجنرال جورج باريه Barré — القائد الفرنسى العام فى تونس — جيشه صوب الجنوب الغربى . وربما كانت قد أربكته الأوامر المتغيرة التى كانت ترد إليه باستمرار من فيشى والجزائر ، وكان متردداً فى اتخاذ قرار سابق لأوانه بصدد الانضمام إلى أى من الجانبين . وكان تعداد الجيش الفرنسى حوالى ٢٥٠٠٠ رجل فى تونس ؛ كان قسط كبير منهم من وحدات المستعمرات . وكانت قاعدة بنزرت البحرية ذات أهمية عسكرية عظيمة ، خاصة وأنها كانت

تحتوى على تحصينات ساحلية قوية وعدد من السفن الحربية . وبعد انسحاب قوات الجنرال باريه احتلت هذه القاعدة قوات بحرية فرنسية يقودها الأميرال دريان Derrien الذى كان مستعداً لأن يصدر أمراً بمحاربة الألمان فى الوقت الذى يسمع فيه بنزول قوات الحلفاء . ولكن المقيم العام الأميرال إستيفا أغراه بسحب الأمر . ومما تجدر ملاحظته أن الجنرالات الفرنسيين فى الجزائر لم يكونوا فى ذلك الوقت قد اتخذوا قراراً نهائياً بالانضمام إلى الحلفاء وفكروا فى احتمال البقاء على الحياد .

هــذا هو الموقف حين وصلت الطائرات الألمانية التى يقودها الكولونل هارلنجهاوزن Harlinghausen إلى تونس فى ٩ نوفمبر فى الساعة الحادية عشرة مساء . وتلا ذلك وصول عدد آخر من الطائرات الألمانية والإيطالية بعد أيام قليلة ؛ وجرى نقل منتظم للرجال والعتاد . ولكن تم ذلك قبل مرور شهر على أساس أن قوات المحور متفوقة على قوات فيشى .

وفى ١٥ نوفمبر وصل رودلف ران إلى تونس مصحوباً بمساعديه . وقد عينه ريبنتروب ممثلا لوزارة الخارجية الألمانية فى شمالى إفريقيا تمشياً مع رغبة القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية وبموافقة هتلر . ولما كان توازن القوى فى غير صالح المحور ، فإن أهم ما كان يعنى « ران » فى الأيام القليلة الأولى هو الحيلولة دون وقوف قوات فيشى فى تونس ضد المحور. ولاشك أن آراءه الشخصية بهذا الصدد كانت أقل أهمية بكثير من سلطة حكومة فيشى . وتمشياً مع رغبة « ران » تدخل «لافال» عدة مرات حين ساءت العلاقات بين جيش الاحتلال والسلطات الفرنسية . لهذا كان أهم ما يهم « ران » تعزيز ولاء الموظفين المحليين لحكومة فيشى التى كانت فى تلك الأثناء قد فقدت ما تبقى لها من سيادة . وكان مهتمّاً بدفع السلطات الفرنسية الرئيسية فى تونس — وبخاصة الأميرال إسيتفاودوريان — إلى إعلان ولائها .

الأميرال إستيفا

ويبدو أن المبعوث الألمانى لم يلق صعوبات كبيرة فى مهمته هذه . فقد كان الأميرال إستيفا – المقيم الفرنسى العام فى تونس منذ يولية ١٩٤٠ ، وكان قد تخطى مرحلة الشباب – رجلا ضعيفاً يعانى من الضغط ومواليا لبتان . وبرغم ذلك فقد كان لدى المحور الكثير مما يؤاخذه عليه . والواقع أن الألمان كانوا يميلون إلى التخلص منه أو على الأقل يتجهون إلى إضعاف صلاحياته فى الأيام الأولى التالية لإقامة رأس الجسر[1] – ولكنهم لم يوافقوا فيما بعد على اقتراح لافال بهذا الصدد . ونحن نستنتج من رسائل ممثلى ألمانيا فى تونس ، وهو ماكشفت عنه محاكمات ليون (١٢ – ١٥ مارس ١٩٤٥) ، أن إستيفا كان محدود الأفق إلى حد كبير ، ولايهتم كثيراً بمصير الحرب بقدر اهتمامه بالمحافظة على سلطة فرنسا فى البلد الذى كلف بحكمه .

وبطبيعة الحال نجد أن احتلال المحور قد أثر فى مركز فرنسا فى تونس ، ومن ناحية أخرى نجد أن الألمان قد صمموا على المحافظة على الأحوال القائمة طالما الحرب مستمرة ، برغم أنهم كانوا قد وعدوا مرسولينى بتونس بعد انتهاء الحرب وإحراز النصر . لهذا كان بإمكان « ران » أن يطمئن الأميرال إستيفا على عدم استمرار الحكم الفرنسى طويلا . وفى أعلى المستويات نجد أن هتلر عرض على بتان الدفاع المشترك عن الإمبراطورية الفرنسية فى شمالى إفريقيا ، وبذلك استبعد احتمال حدوث تغييرات سياسية مباشرة . وكانت مثل هذه التأكيدات والوعود ضرورية لإنقاذ ولاء موظفى فرنسا فى شمالى إفريقيا ، وهو الولاء الذى كان فى طريقه إلى الزوال ، ولإضعاف المقاومة للغزو المحورى . وقد حدد هذا الاتجاه النشاط السياسى الألمانى فى تونس ، برغم أن أهم مالفت النازيون نظر الموظفين الفرنسيين إليه هو خطر القمع والفزع المتزايد فى فرنسا من الردع بسبب

---

(١) اقترح ران ندب الجنرال دنتز – الذى كان يعمل معه فى سوريا – إلى تونس ، ولكن دنتز رفض ذلك .

عدم إخلاص الجهاز الاستعمارى الفرنسى فى إفريقيا .

ولم يتوقع المقيم الفرنسى العام بتاتاً أن تبدى القوات المحورية أى مقاومة . كما أنه لم يكن من بين الساسة المنادين « بالفكرة الأوربية » ممن ربطوا مستقبل بلادهم بانتصار الريخ النازى . ومن المحتمل أن إستيفا لم يتوقع نصراً محورياً — وقد كتب عنه ران ما يلى : « . . . إنه يحاول باستمرار ، بسلبيته واحتجاجاته فى مناسبات مختلفة ، أن يجد لنفسه مخرجاً فى حالة تقدم الأمريكان » . وقد وافق المقيم العام على أن يقدم بالفعل كل ما يطلبه الألمان من خدمات ، ولكنه لم يبد أى مبادرة ، أو على الأقل كان باستمرار لايصل إلى مستوى المطالب النازية . وكان كثير من الموظفين الفرنسيين يمقتون ألمانيا ، أو كانوا يصارحون بديجوليتهم وأحياناً ما لجئوا إلى التخريب[1] . وكثيراً ما تجنب إستيفا ذاته اتخاذ قرارات غير مناسبة ، وفى كثير من الأحيان أغمض عينيه عن اتباع الموظفين والعسكريين سياسة ذات وجهين . وفى ١٣ نوفمبر أطلق سراح كثير من المسجونين السياسيين — ديجوليين وشيوعيين — وسمح لهم بالرحيل إلى الجزائر . وكان قبل ذلك قد أمر بإخراج عربات السكك الحديدية والقاطرات من تونس وتدمير محطة الإذاعة . وقد صدرت هذه الأوامر حين وصلت إلى إستيفا أنباء نزول الطائرات الألمانية فى مطار العوينة بالقرب من تونس . ويتضح من هذه الإجراءات أن إستيفا لم يكن فى نيته أن يقدم للمحور مساندته التامة ، فى الوقت الذى لم يكن فيه مستعداً للاعتراض على احتلال البلاد .

احتلال بنزرت

كان لايزال بالإمكان أن تبدى قوات المحور المسلحة فى تونس مقاومة لبعض الوقت . وتشهد على هذا على الأقل قصة بنزرت التى جعلت القيادة الألمانية تعيش فى قلق مستمر . ففى أواخر نوفمبر ١٩٤٢ أمر الفيلد مرشال كسلرنج — القائد

(١) انظر Rahn, Ruheloses Leben (حياة قلقة) Dusseldorf, 1149 p. 205
« يعلم من عاشوا فى فرنسا فى أثناء الحرب أن بإمكان بيروقراطية مصممة على المقاومة أن تحول الحياة إلى جحيم ، على حين أنهم يصطنعون منتهى اللباقة فى تعليل سلوكهم بالحاجة إلى تنفيذ مهامهم » .

العام للجبهة الجنوبية — باتخاذ إجراءات أمن فى قاعدة بنزرت العسكرية للحيلولة دون انضمام القوات الفرنسية والوحدات البحرية الفرنسية المعسكرة هناك إلى الحلفاء . وكان مرجع هذا الأمر ماكان من توقع الاستيلاء بالقوة على القاعدة وبطاريات السواحل . ولكن الأميرال فايشهولد Weichhold كان لايزال يرى استحالة القيام بذلك بسبب عدم مواتاة توازن القوى . وكان المحور يخشى أن تنفصل حامية بنزرت عن حكومة فيشى . وكان بالإمكان أن يكون مثل هذا التطور قرب آخر نوفمبر شديد الخطورة بالنسبة إلى المحور ، لأن قوات الحلفاء كانت قد وصلت إلى المناطق المجاورة لتونس مباشرة ، وكان « ران » بالفعل قد أرسل موظفيه إلى نابولى ومعهم أجهزة إرسال ومواد شفرة . ولم تعزز قوات المحور مراكزها إلا فى أوائل ديسمبر . ولكن بعض الدوائر الألمانية كانت تعتقد حتى ذلك الوقت أن بإمكانها إقناع القوات الفرنسية بإخلاء بنزرت طوعاً واختياراً فى مقابل إطلاق سراح ما بين ٣٠٠٠٠و٥٠٠٠٠ أسير فرنسى[١]. وفى هذه الحالة كان بالإمكان أن تؤجر لألمانيا السفن الحربية والتجارية الراسية فى بنزرت . وبحلول ٨ ديسمبر شعر النازيون بأنهم من القوة بحيث يمكنهم توجيه إنذار إلى الجنرال دريان بوجوب تسليمهم السفن والبطاريات وكل تسهيلات الميناء والعتاد الحربى على أحسن وجه . وكان الألمان يخشون أن يواجه أسطول بنزرت نفس المصير الذى واجهه أسطول طولون الذى تركه الفرنسيون ولم يسلموه إلى الألمان .

لهذا ضمنوا الإنذار التهديد بتدمير السفن والبطاريات والمعسكرات الحربية بل بالقضاء على كل الحامية فى حالة المقاومة أو إتلاف أو إغراق أى سفينة. وسلم الأميرال دريان[٢]. وهكذا وقعت فى أيدى الألمان كل بطاريات السواحل والمدفعية والترسانة وثلاث سفن طوربيد ومدمرة وتسع غواصات وسفينتا استطلاع وسرح عشرة آلاف جندى منهم ٧,٠٠٠ من جنود المستعمرات . ولكن مما له

---

(١) اتخذ كسلرنج هذه الخطوة يسانده ران الذى أرسل أوثق معاونيه — موهلهاوزن — إلى برلين ليعرض وجهة النظر هذه . وأبدى روميل معارضة شديدة للأخذ بمثل هذا الحل .

(٢) G. London, L'Amiral Estéva et le Général Dentz, . . . etc, pp. 17-18.

وقد جاء فى الاتهام الذى وجه إلى إستيفا ، أن الإنذار قد تم توجيهه يوم ٩ ديسمبر .

مغزاه أن القيادة المحورية لم يكن لديها — بعد هذا التسريح — جنود يكفون لحراسة المنشآت العسكرية فى بنزرت وتونس .

مشكلة المؤخرة

وهكذا لم يكن باستطاعة المحور سوى استكمال احتلال رأس الجسر التونسى فى ٩ ديسمبر . وفى ذلك اليوم تولى القيادة العامة فى تونس الجنرال فون أرنيم بدلا من الجنرال نبرنج Nehring . وكانت ثمة نقطة ضعف هامة فى وضع المحور هى عدم وجود مؤخرة منظمة. وقد سبق أن رأينا أن المقيم الفرنسى العام كان سلبياً وأن الإدارة الفرنسية أحياناً ما أبدت بعض المقاومة وأن السكان كانوا ينتظرون انتظاراً سلبياً — تغييراً فى الموقف الحربى من يوم إلى آخر . وبتزايد عدد قوات المحور وتسريح كل القوات الفرنسية كان مقيضاً لمشكلة خدمة جيش الاحتلال أن تتطلب حلا عاجلا . فقد كان من اللازم استدامة وحراسة التشهيلات العسكرية، وتنظيم شحن ونقل التعزيزات والمؤن وبناء منشآت عسكرية وتحصينات — إلى غير ذلك . كما كان من الضرورى جمع معلومات عن مواقع وتحركات قوات الحلفاء والتأكد من فعالية الهيئات المضادة للجاسوسية وأن يخصص للوحدات مرشدو ميدان — إلى غير ذلك . وأصبح الموقف أكثر صعوبة بسبب الذعر الذى تسبب فيه قيام الحلفاء بعمليات القذف . وهكذا فما حلت أواسط ديسمبر حتى خوف « ران » رؤساءه من خطر الفوضى الناتجة عن نقص الطعام وفرار السكان من المدن . وقد كتب أنه لايوجد ما يكفى من الناس لدفن الموتى ورعاية الجرحى ، وأن ثمة مجاعة وخطر تفشى الأوبئة ، وأن قوات المحور من الضعف بحيث لاتستطيع إيقاف تدفق اللاجئين أو المحافظة على النظام .

ما هى القوات التى كانت فى وضع يمكنها من التعاون مع سلطات المحور لتنظيم المؤخرة وتنفيذ المهام السابق ذكرها ؟ كانت توجد فى تونس ثلاث مجموعات أساسية كان من الممكن أن تكون على جانب من الأهمية : الفرنسيون (أى الإدارة

والسكان المدنيون) والإيطاليون الذين كان بالبلاد عدد كبير منهم ، والعرب الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة والذين كانت لهم قيادتهم الخاصة المستندة إلى باى تونس ، المنصف ، وبلاطه وحزب الدستور الجديد.

وكان أبسط وأنجع طريقة بالنسبة إلى المحور هى الاعتماد على الفرنسيين الذين كانوا يباشرون بعض السلطة وكانت لهم خبرة بحكم تونس . وكان من الممكن أن يؤدى نقل هذه السلطة إلى الإيطاليين أو العرب إلى نتائج سيئة بالنسبة إلى الألمان ليس فقط فى تونس بل فى فرنسا كذلك — إذ كان من شأنه أن يثير السخط لدى أنصار التعاون ، وأن يؤدى فى تونس — على الأقل بصفة مؤقتة — إلى إضعاف مساندة المدنيين لرأس الجسر .

المتعاونون المتطرفون

ووجد الألمان أن من المستحسن الإبقاء على الإدارة الفرنسية والمطالبة بالتعاون باسم « الفكرة الأوربية » . وقد رأوا أن هذه الطريقة تمكنهم من استخدام أنصار بتان بمعنى الكلمة ، وكذلك العناصر الفاشية المتطرفة ، كما كان من الممكن توقع إبداء أنصار دوريو Doriot أو درنان Darnand حماسة للحرب وعطفاً على الألمان يفوقان مايبديه أنصار المرشال العجوز المحافظون . كما كان بإمكان هؤلاء الأشخاص أن يقوموا بالرقابة على الإدارة التى اتهمها الألمان بالسلبية وعدم الإخلاص .

ولهذا السبب ساند الحكام النازيون تجمعات من أمثال الهيئات التالية التابعة لدوريو : « رفقاء فرنسا Compagnons de la France »[1] و « معامل الشباب Chantiers de la Jeunesse »[2] و « هيئة حملة جوقة الشرف Service d'ordre Legionnaire »[3] .

---

(١) منظمة شباب ترعاها فيشى .

(٢) معسكرات شباب فى فرنسا التابعة لحكومة فيشى كانت تقوم مقام الخدمة العسكرية .

(٣) ساعدت « كتيبة الأمن العام » التابعة « لفرقة المحاربين والمتطوعين الفرنسيين » ، وهى منظمة واسعة النطاق كانت متعاونة مع الألمان ، حكومة فيشى وسلطات الاحتلال رسميا على محاربة حركة المقاومة .

وكان المدعو جاك جلبو Gilbaud ، وهو من المتعاونين المتطرفين ، يضطلع بدور هام فى تنفيذ خطط المحور بهذا الصدد — وقد أرسله إلى تونس وزير دعاية فيشى — ماريون Marion — الذى كان قد ارتد عن الشيوعية مثله فى ذلك مثل دوريو وجلبو(١) . وقد وصل إلى تونس فى ٢٣ نوفمبر ، وفى الحال باشر نشاطه . ومن الأعمال التى قام بها جلبو توحيد عدد من منظمات الشباب فى جبهة مشتركة تحت اسم لجنة توحيد العمل الثورى التى كان يتولى قيادتها . وقد أنشأت مجموعة المتعاونين المتطرفين قوة بوليس احتياطى تعاونت مع البوليس الرسمى الذى كانت العناصر المعادية لألمانيا تتمتع فيه بنفوذ عظيم . وقد استولى المتعاونون على محطة إذاعة صغيرة ومجلة أسبوعية « جورنال تونس » ، ووضعوا الخطط لإنشاء فرقهم الخاصة التى كان من المتوخى أن تحارب الحلفاء تحت قيادة الألمان ، كما خدم أعضاؤها الألمان فى مناسبات أخرى متعددة . وبعد احتلال بنزرت قاموا بدعاية واسعة النطاق ، محاولين أن يخففوا وقع الصدمة العامة وإضعاف إرادة النضال . وحاربوا حركة المقاومة ومخابرات الحلفاء وباشروا الضغط على المقيمية العامة . وأهم من هذا كله أنهم ساعدوا الألمان على أن يطهروا جهاز الإدارة التونسية من كل الموظفين (بما فيهم كبار الموظفين) الذين لم يحوزوا رضى المحتل النازى لسبب أو آخر .

وهكذا ساعد الألمان على إنشاء مركز فرنسى — كان ينافس المقيمية — وكان الهدف من ذلك هو توفير فرصة لإثارة الخلاف والإفادة منه . وكان الألمان يريدون أن يخلعوا على هذا الموقف صفة الشرعية — وبناء على طلب « ران » حاولت سلطات الاحتلال فى ديسمبر أن تحصل من حكومة فيشى على أوسع صلاحيات ممكنة لجلبو . وكان هذا فى البداية يتضمن سلطة توجيه الصحافة والإذاعة والمنظمات السابق ذكرها ، بالإضافة إلى جعله ممثلا مباشراً لحكومة فيشى ومسئولا أمامها . وكان من شأن هذا أن يخلع عليه وضعاً رسمياً مستقلا عن المقيمية . وبالفعل حصل جلبو على هذا التفويض الذى كان يتمشى مع مهمته التابعة

---

(١) عرض دوريو أن يساعد قوات المحور فى تونس ، حيث كان يوجد تنظيم تابع له .

لوزارة الدعاية . ولكن التفويض لم يكن فى الواقع كافياً بالنسبة إلى النشاط الواسع الذى توسع على يد هذا الرجل ولجنة العمل الثورى الموحد التى أنشأها . وهذا هو السبب الذى دعا الألمان – بالإضافة إلى ذلك – إلى اقتراح وجوب تعيينه قومسيراً مدنياً له صلاحيات الإشراف على الإدارة الفرنسية وحق اعتماد التقارير التى يرسلها الأميرال إستيفا إلى حكومة فيشى .

وهكذا كان يمكنهم عن طريق جلبو وأعوانه النازيين أن يحصلوا على الإشراف الكامل على الأجهزة الحكومية فى تونس التى بدون ذلك تصبح بعيدة عن متناول أيديهم . وكان الألمان مهتمين بوجه خاص بالإشراف على وسائل الاتصال بين السلطات الفرنسية فى تونس وحكومة فيشى .

ولكن لم يقيض لهذا المشروع أن يخرج إلى حيز التنفيذ . حقيقة أن لافال وافق على الفكرة الأساسية الخاصة بتعيين مندوب (قومسير) مدنى للدولة ، إلا أنه اقترح خلع هذه الوظيفة على رجله البروفسور دفنان Devinant الذى كان من الواضح أن بإمكانه أن يخلف الأميرال إستيفا باعتباره موظفاً ذا خبرة بشئون المستعمرات . ولكن الألمان لم يوافقوا على ذلك ، لأنهم لا يرغبون فى وجود رجل من هذا النوع فى تونس . وقدم ران الاعتراض التالى :

« إننى أنصح بصورة مطلقة بعدم إرسال « دفنان » إلى تونس . فمن واجبنا أن نتجنب وجود رجل نشط هنا ، يثق فيه « لافال » وله وحده خبرة بشئون المستعمرات لأن بإمكان مثل هذا الشخص أن يدافع عن وجهة النظر الفرنسية بصلاحيات أكبر ضدنا وضد الإيطاليين بوجه خاص . . وبرغم ذكاء جلبو ونشاطه ، إلا أنه مشغول كثيراً بالأيديولوجية الأوربية الخاصة باتباع سياسة فرنسية صرفة هنا ، وهو ما لاشك سيقوم به دفنان » .

ولم يكن الألمان مهتمين بتعيين قومسير مدنى وإنشاء مركز حكومى فرنسى إضافى ، بل بتدعيم مركز جلبو الذى كان ران يعده أداة ألمانية نافعة بإمكانها إضعاف مركز فرنسا فى تونس بشكل منتظم . فمثلا فهم جلبو التلميح الألمانى وامتنع عن التحدث عن حقوق فرنسا فى تونس . وكانت لجنته الخاصة بالعمل الثورى الموحد أكثر

خضوعاً للألمان بكثير من فيشى لافال[1]. وكانت نتيجة كل هذه المسألة عدم ندب البروفسور دفنان إلى تونس .

الإدارة الفرنسية

دفع الألمان جماهير المدنيين إلى التعاون بالمساعدة المباشرة التى قدموها للإدارة الفرنسية . وتنفيذاً لطلب الألمان جرت التعبئة فى الخدمات العامة : الغاز ومستودعات المياه ومحطات توليد الكهرباء والمخابز والسلخانات وغير ذلك . وأعدت خدمة عامة خاصة بمكافحة الأوبئة . وبقى الأميرال دريان فى بنزرت المحتلة تلبية لطلب القيادة الألمانية التى رأت أن خدمات الميناء لا يمكن أن تستمر بصورة مرضية بدونه (وكانت هذه المسألة هامة جداً بالنسبة إلى جيش كان يصله جزء من تموينه عن طريق البحر) . وعملت مجموعة صغيرة من الضباط الموالين لحكومة لافال مع دريان .

ولعبت الإدارة الفرنسية دوراً هاماً فى حشد العمال لبناء التحصينات فى رأس الجسر التونسى . وبالاتفاق مع كسلرنج أصدر الجنرال نيرنج فى ٦ ديسمبر أمراً بتعبئة الناس فى الأراضى المحتلة لبناء التحصينات . وجرى اهتمام خاص بتعبئة اليهود للقيام بذلك العمل . فأرغم زعماء الطائفة اليهودية على إعداد مجموعات عمل ؛ وكان من الواجب تحديد أفراد فى كل مجموعة ليتولوا المسئولية عن التعاون مع السلطات الألمانية وليقوموا بتنفيذ الأوامر . وطبقاً لأمر نيرنج كان يجب أن يعامل أمثال هؤلاء الأشخاص باعتبارهم رهائن . وكان على الطوائف اليهودية أن تقوم بتقديم الطعام والأدوات لمجموعات العمل اليهودية بعكس المجموعات الأخرى التى لم يكن عليها أن تقوم بذلك . وعلى حين أن رجال المجموعات الأخرى كانوا يقبضون بعض الأجور ، إلا أن اليهود أرغموا على العمل فى مقابل لا شىء . واستجابة لطلب روما أعفى اليهود من رعايا إيطاليا من هذه السخرة . كما فرض الألمان جزية خاصة على اليهود قيمتها ٥٠ مليون فرنك بمثابة تعويض عن الغارات

---

[1] (١) كتب ران ما يلى : « إذا ما واصلت المقيمية الادعاء بحقها فى الاتصال المباشر بفيشى عن طريق الشفرة ، فمن المحتمل أن تندد بمساعدة جلبو الثمينة جدا بالنسبة إلينا » .

الجوية ، دفع معظمها للعرب .

وحين تقلص رأس الجسر التونسى بحلول أواخر مارس ١٩٤٣ ، اتجه الألمان إلى فرض العمل الإجبارى على الفرنسيين من مختلف الأعمار . وطبقاً لمرسوم أصدرته سلطات الاحتلال ، أصدر إستيفا أمره بتعبئة ثلاث مجموعات من أعمار مختلفة فى ١٢ أبريل . وكان من المتوخى أن تقوم المقيمية العامة بتمويل العمل ، وتم تجنيد وحدة صف الضباط التابعين للقوات الفرنسية الميكانيكية من هيئة حملة جوقة الشرف . وكان التنفيذ الفنى تحت إشراف الجيش الألمانى ومكتب العمل ، على حين كانت لجنة وحدة العمل الثورى مسئولة عن توجيه وتنفيذ الدعاية الخاصة بالتعبئة .

تنظيم الفصائل الفرنسية

تعهدت حكومة لافال ، كما تعهد المتعاونون الفرنسيون ، بإنشاء كتائب الحلفاء . وكان الجيش الفرنسى فى فرنسا ذاتها قد تم تسريحه بعد أن احتلت القوات الألمانية المنطقة غير المحتلة . ولم تبق سوى قوة صغيرة للمحافظة على النظام . وحدث ذلك أيضاً فى تونس بعد إجلاء قوات الجنرال باريه واحتلال بنزرت . ووضعت خطة لإنشاء طابور (فالانج) إفريقى يتكون من فرقة واحدة ، يقوم الألمان بتجهيزه وتدريبه والإشراف عليه[1]— وحينئذ أنشئ التشكيل المحارب الوحيد التابع لفيشى إلى جانب « الفرقة المعادية للبلشفيك » .

وفى ديسمبر ١٩٤٢ وصلت إلى تونس مجموعة من الضباط الفرنسيين الذين كان من المتوخى أن يشكلوا بعثة عسكرية فرنسية ملحقة بقيادة المحور . وقد عهدت فيشى إلى هذه البعثة من حيث المبدأ بمهام واسعة : كان على أعضائها أن يخدموا باعتبارهم ضباطاً فى وحدات موالية لفيشى ، وأن يؤثروا على الفصائل المتذبذبة وتلك التى انضمت إلى الحلفاء . كما كان عليهم أن يرسلوا مبعوثين إلى قوات الجنرال باريه وأن يجتذبوا إلى الوحدات المقاتلة فرنسيين وعرباً من سكان

---

(١) تم الاتفاق على هذه المسائل فى أثناء محادثة جرت بين لافال وهتلر فى ديسمبر ١٩٤٢ .

البلاد . ونتيجة للتسريح الذى جرى بعد احتلال بنزرت تلاشت معظم هذه المهمام. ولكن كان لايزال بالإمكان إرسال مندوبين للاتصال بأسرى الحرب الفرنسيين وإنشاء وحدات محاربة فى تونس . وكان أهم ما يعنى الألمان فيما يتعلق بإعداد مثل هذه الوحدات إضعاف الروح المعنوية فى الوحدات الفرنسية التى كانت تقاتل إلى جانب الحلفاء . وأصبح أحد الضباط الذين وصلوا حديثاً – واسمه جونشاى du Jonchay مديراً مؤقتاً لمكتب المقيم العام (فى ٥ يناير ١٩٤٣) .

وفى البداية رأس عملية التطوع اللفتنانت كولونل كرستوفينى Cristofini ولكن حل محله ، بعد أن جرح ، رئيس الفصيلة كورنييه Curnier . وكان هذان الضابطان على التوالى رئيسى البعثة العسكرية الفرنسية الملحقة بقيادة المحور فى تونس .

ولم تتمخض عملية التجنيد إلا عن نتائج متواضعة جداً . فقد فضل معظم الأشخاص الصالحين الانضمام إلى الميليشيا المسلحة التابعة لمنظمات المتعاونين وبخاصة حين تلقت هيئة حماة جوقة الشرف إذن الجنرال فون أرنيم (فى ١٢ ديسمبر) بإنشاء وحدات حرس وكتائب عمل وتزويدها بالهيئات اللازمة : فقد فضلوا حراسة المبانى المختلفة والقيام بدوريات فى الشوارع والإشراف على تصاريح الاتجار فى التبغ أو آثروا العمل فى معسكرات « معامل الشباب » . وقد أصدرت السلطات الألمانية أمراً بعدم القيام بدعاية واسعة النطاق للانضمام إلى الوحدات المحاربة .

وفى أول يناير ١٩٤٣ سمحت القيادة الألمانية بإنشاء فصيلة من المتطوعين فى تونس للاشتراك فى الحرب على الجبهة ، ووعدوا باحتمال سماحهم فى المستقبل بتشكيل فصيلة محاربة جديدة ، بل بأن يحضروا من فرنسا وحدة متطوعة أكبر من ذلك . وفى شهر يناير أعدت فصيلة تتكون من ١٥٠ رجلا وأرسلت إلى معسكر التدريب . وبدأ تشكيل فصيلة ثانية ، وجمعت عدة كتائب عمل للمنشآت العسكرية . وقد كتب الكولونل جونشاى إلى لافال أن « هؤلاء الجنود ، باستثناءات قليلة ، يجندون من المغامرين وأحط الفئات الاجتماعية »[١] . وحين صدرت أوامر الألمان

(١) تقرير جونشاى إلى لافال : Situation Générale en Tunisie, Feb. 3, 1943 =

وتحولوا إلى تشكيلات من المتطوعين العرب (١٣ فبراير ١٩٤٣) لم يبق فى كل من الفصيلتين سوى ١٠٠ من الفرنسيين . وبالتالى استلزم تشكيل فصيلة المتطوعين الأولى وقتاً طويلا . ولم يتم إعدادها إلا فى أواسط مارس حين أقسم ٢٠٦ رجل يمين الإخلاص لبتان ولافال ، وقد جرى ذلك بعد التعاون الوثيق الذى أبدته المنظمات المتعاونة مع الألمان ، وبخاصة هيئة حملة جوقة الشرف . وتوجهت هذه الفصيلة إلى الجبهة فى أوائل إبريل . وحينئذ بدأت البعثة العسكرية إعداد فصيلة أخرى ، وأتمت إعداد كتيبة من الرواد ، وقد حصلت هذه الفصائل الفرنسية على الصليب الحديدى من الدرجة الثانية يوم عيد ميلاد هتلر .

وفى هذه المرة قدم المتعاونون خدمات لسلطات النازى التى لم تقدم لهم شيئاً فى مقابل ذلك . فمن الصعب أن نطلق على التنازلات التى قدمها الألمان اسم «الجانب المضاد » — كتسليمهم إلى السلطات الفرنسية أشخاصاً اكتشف الفرنسيون أنهم يعملون مع الحلفاء ، أو إطلاق سراح أسرى الحرب الفرنسيين ونقلهم إلى فرنسا[1] . وتخلص الألمان من الموظفين الفرنسيين الذين لم يرضوا عنهم ، بالطريقة نفسها — أى بإرسالهم إلى فرنسا . وجاءت المبادرة فى هذه التنازلات المزعومة من الألمان الذين كانت لديهم أهداف محددة : كمكافحة أعمال الجاسوسية التى كان يقوم بها الحلفاء ، والتأثير على الفرنسيين الذين كانوا يحاربون مع الحلفاء لكى يهربوا أو يسلموا بصفتهم أسرى — إلى غير ذلك[2] .

=(٢٤٦٣٠٥/١٣٠٤ — ٨) . لم يتوقع جونشاى أن يقع التقرير فى أيدى الألمان . وقد حمل كرستوفينى مسئولية نتائج التعبئة ، واتهمه باتخاذ موقف سلبى من الجنود السابقين فى الجيش النظامى .

(١) استغلت صحافة فيشى فى فرنسا إطلاق سراح الأسرى وإعادتهم إلى أوطانهم ، واعتبرته دليلا على « سمو نفس الفوهور » .

(٢) يذكر ران (المرجع السابق ، ص ٢٠٨) أن الخطوة الأولى فى مسألة إطلاق سراح أسرى الحرب أتت من جلبو ، وأنه بهذه الطريقة قدم خدمة لوطنه — بأضيق معانى الكلمة « أى فرنسا لا الوطن الأوربى الكبير » . وكتب ران فى مذكراته : « وقد دهشت جداً حين قبلت القيادة الألمانية ذلك الاقتراح » . ورأت المحكمة الفرنسية العليا أن نداء الأميرال إستيفا إلى الفرنسيين المحاربين ، الذى ذكر لهم فيه الوعود الألمانية فى صالح الحلفاء ، وأنه إجراء يتضمن عملا يستحق العقاب . (لندن ، المرجع السابق ص ٣١ — ٣٢) .

وسنرى أن خضوع الإدارة الفرنسية والمساعدة الفعالة التى قدمها المتعاونون لم يحولا دون ضعضعة الحكم الفرنسى فى تونس بصورة منتظمة ، برغم أننا يجب أن نقر أنهم التزموا فى تحقيق أهدافهم بحدود معينة سبق تحديدها .

أطماع الإيطاليين فى تونس

وعند هذه المرحلة نجد أن لابد من الانتقال إلى الدور الذى لعبته إيطاليا فى أثناء احتلال تونس . وكما كان الحال بالنسبة إلى الفرنسيين كانت الجالية الإيطالية الكبيرة فى تونس على جانب كبير من الأهمية . هذا بالإضافة إلى القوات المسلحة والممثلين السياسيين والزعماء الحكوميين . وفى فترة ما بين الحربين تم دفع الجالية الإيطالية بطرق عدة إلى الاشتراك فى الحملة السياسية والدعائية الفاشستية لتقوية نفوذ نظام موسولينى فى البحر المتوسط وضم تونس فى نهاية الأمر .

وبعد نزول قوات المحور اقترح الجنرالات الإيطاليون القيام بتعبئة مباشرة للسكان الإيطاليين فى تونس البالغ عددهم ٢٠,٠٠٠ ؛ ولكن لم يتم هذا لانعدام العتاد . على أن من المشكوك فيه ما إذا كان من الممكن القيام بذلك على أساس التطوع . فحين طلبت القيادة الألمانية من القنصل الإيطالى العام سلمبانى Silimbani أن يعبئ الإيطاليين للعمل العسكرى العاجل تقدم ما يقرب من ثمانين شخصاً . وحين اتجه الألمان إلى تعزيز البوليس الفرنسى قليل العدد الذى لم يستطع مواجهة الموقف المترتب على القذف بالقنابل وتنظيم قوة إيطالية احتياطية ، رأى القنصل العام أن القيام بذلك أمر مستحيل . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الحكومة الإيطالية ألقت العقبات فى وجه الإجراءات المعادية لليهود فى تونس ، بأن طالبت بمعاملة استثنائية لرعاياها اليهود . وباستثناء بعض المظاهرات المتقطعة لايوجد ما يدل على قيام المدنيين الإيطاليين بنشاط سياسى فى تونس . ولم تصب جهود الحكومة الإيطالية فى سنوات ما بين الحربين لتنشيط الجالية الإيطالية هناك وتحويلها إلى أداة لتنفيذ أطماع روما الاستعمارية نجاحاً كبيراً ، وفى أثناء الاحتلال المحورى لتونس فشلت الجالية الإيطالية فى القيام بأى ضغط ، منظم أو تلقائى ، ضد الألمان بقصد مساندة المطالب الإيطالية الرسمية .

ولكن كان على الألمان أن يضعوا فى اعتبارهم مطالب إيطاليا ، من الناحية الرسمية على الأقل. وكانت الرغبة فى ضم تونس لفترة طويلة بنداً رئيسياً فى برنامج إيطاليا التوسعى . فقد أدى فرض الحماية الفرنسية على تلك البلاد فى عام ١٨٨١ إلى إغضاب الدوائر الحاكمة الإيطالية إلى حد كبير ، كما أنه لعب دوراً كبيراً فى عقد التحالف بين إيطاليا وألمانيا والنمسا – المجر فى عام ١٨٨٢ . واستقر فى تونس عدد كبير من الإيطاليين خلال السنوات القليلة التالية . وتم الاعتراف بحقوق إيطاليا الخاصة فى تلك البلاد بمقتضى اتفاق عام ١٨٩٦ واتفاقيات يناير ١٩٣٥. حينئذ قامت فرنسا بتقديم تنازلات بعيدة المدى، لإيطاليا فى إفريقيا، وأعلنت أنها ليست لها مطامع فى الحبشة[1] – على سبيل المثال – فى نظير وعد غامض من موسولينى بالتعاون مع فرنسا ضد ألمانيا الناهضة . أما فيما يتعلق بمسألة تونس فأهم ما احتوته هذه الاتفاقية نصوص تتصل برعوية الإيطاليين المقيمين هناك . وهكذا تقرر أن تبقى الإجراءات السابقة الخاصة بابقاء العلاقات بين الإيطاليين وبين وطنهم الأم فعالة حتى عام ١٩٤٥ . وكان من المتوخى أن يكون لأطفال الرعايا الإيطاليين المولودين فى تونس فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٥ حق اختيار جنسيتهم حين يصلون إلى سن الرشد ، كما كان من المتوخى أن يعترف بمن يولد منهم بعد عام ١٩٦٥ باعتبارهم مواطنين فرنسيين . وكان من المتوخى ألا تستولى سلطات التعليم الفرنسية على المدارس الإيطالية باعتبارها مدارس خاصة إلا بعد عام ١٩٥٥ . وكان من حق المواطنين والإيطاليين المسموح لهم بممارسة

---

(١) W.S. Asker, The Secret Agreement between France and Italy in Ethiopia, Jan. 1935, Journal of Modern History, Vol. XXV, no. I, pp. 47.48 & D.C. Watt, The Secret Laval - Mussolini Agreement of 1935 on Ethiopia, Middle East Journal, 1961, pp. 69-78.

لم ينشر إلا جزء من الاتفاقية فى عام ١٩٣٥ : التصريح العام ، المعاهدات الخاصة بالمنازعات بين فرنسا وإيطاليا فى شمال إفريقيا، بروتوكول خاص عن الأقلية الإيطالية فى تونس ، واقتراح عقد ميثاق جماعى خاص بالدانوب يضم حدود النمسا المعرضة للتهديد . وقد نشرد . س . وات الاتفاق الذى كان سرياً فى ذلك الوقت : بروتوكول خاص بالمشاورة التى تتم فى حالة قيام ألمانيا من طرف واحد بإلغاء القيود التى فرضتها معاهدة فرساى على التسلح ، بروتوكول خاص بإبقاء الحالة القائمة فيما يتعلق بالتحصينات ، والمنشآت الحربية فى منطقة باب المندب والمراسلات الخاصة بمسألة النفوذ الاقتصادى فى الحبشة وبسكة حديد أديس أبابا – جيبوتى ، وقد وجدت هذه الوثائق فى أرشيف وزارة الخارجية الألمانية .
(Moo 3178, Moo 3183, Moo 7188, Moo 3191-3)

المهن الحرة حتى عام ١٩٤٥ أن يحافظوا على حقوقهم بقية حياتهم . وهكذا نجد أن اتفاقية ٧ يناير ١٩٣٥ أجلت لوقت طويل اندماج الأقلية الإيطالية فى تونس .

وكان لنجاح ألمانيا فى تشيكوسلوفاكيا أثره على الإيطاليين ، فطالبوا منذ عام ١٩٣٨ بضم تونس وكورسيكا ونيس وسافوى . وقد سبق أن ذكرنا أنهم عادوا فتقدموا بهذه المطالب من جديد حين دخلوا الحرب ، فأصبحت جزءاً رسمياً من برنامج المحور الخاص بالتوسع الاستعمارى . وفى نوفمبر ١٩٤٢ ظهرت قوات إيطالية فى تونس ، وباشرت روما الضغط فى سبيل مطالبها .

وضع إيطاليا فى عامى ١٩٤٢ – ١٩٤٣

تأخر الجيش الإيطالى بضعة أيام – فقد نزلت الطائرات الألمانية الأولى فى تونس فى ليلة ٩ نوفمبر ، على حين وصلت القوات الإيطالية فى ١٣ نوفمبر . ومن المعروف أن شمالى إفريقيا كان يعتبر من الناحية الرسمية جبهة إيطالية ، ولكن كما حدث قبل ٢١ شهرا فيما يتعلق بروميل ، فكذلك أصبح جنرال ألمانى قائداً عاماً ، ولعبت القيادة العليا رقم – ٥ لجيش البانزر الدور الحاسم فى تلك الجبهة . وكانت فعالية الفرق الإيطالية الثلاث أقل من فعالية الفرقتين المصفحتين الألمانيتين والفرقة المصفحة من رجال المدفعية وفرقتى المشاه . كما كان الألمان متفوقين جواً .

وكان أحد موظفى وزارة الخارجية الألمانية هو الممثل الدبلوماسى الوحيد للمحور فى تونس . ولم يكن للإيطاليين سوى ممثلين قنصليين . ولم يصل بومبيرى – Pombieri – الذى كان برتبة مبعوث – إلى تونس إلا فى فبراير ليشغل وظيفة سلدباني الذى اتهمه الألمان بالجبن . وكان على حكومة روما أن تقتصر فى البداية على أن تطلب من الجنرال نيرنج أن يساعد القنصلية الإيطالية على رعاية مصالح الرعايا الإيطاليين . ويتضح من التعليمات الإيطالية أن روما كانت تتوقع من رعاياها أن يلعبوا دوراً هاماً فى العمليات الحربية . وكان على سلدباني أن يقيم علاقات وثيقة مع ممثلى ألمانيا ، ولم يخول سوى صلاحيات محدودة جداً . وكان عليه أن

يقنع بدور مستشار للقيادة الألمانية فى المسائل الثانوية أو فى حالات الضرورة ، وبالإضافة إلى ذلك كان لايمكنه أن يعمل إلا بعد الاتفاق مع ممثلى ألمانيا . وقد واجه الإيطاليون صعوبات خطيرة فى القيام باتصالات محلية بسبب الشكوك الفرنسية والعربية العميقة ، على حين رحب الألمان بالقيام بدور الوسطاء ، والمحكمين فى المنازعات التى كانت تنشب – مثلا – بين الجنود الإيطاليين والمدنيين التونسيين .

وهكذا لم يسيطر الألمان على تونس من الناحية العسكرية وحدها ، بل إنهم سيطروا عليها كذلك من الناحية السياسية . وحاولت القيادة الألمانية أن تحدد حرية الإيطاليين فى العمل فى مسائل الإدارة الداخلية وتموينات الجيش وعمليات القبض وغير ذلك – مما أثار سخط القيادة الإيطالية بطبيعة الحال . وأحياناً ما وقف الألمان فى وجه الإيطاليين والعرب دفاعاً عن الإدارة والبوليس الفرنسيين باعتبارهما القوات المحافظة على النظام فى البلاد[1]. وقد أدى عدم رضى الإيطاليين عن الأحوال فى تونس إلى القيام بالتدخل الدبلوماسى عدة مرات لدى السفارة الألمانية فى روما ولدى برلين[2] .

حينئذ تتبع القادة الألمان اتجاهات الإيطاليين السياسية بشىء من الخوف، وخاصة ما يتعلق منها بالدوائر الحاكمة . وقد كتب موظف بسفارة برلين فى مذكراته إلى السفير الإيطالى (١٦ نوفمبر) : « إنهم يدرسون هنا الموقف فى إيطاليا باهتمام كبير . ويعتقد (الألمان) أن قدرة إيطاليا على المقاومة قد تضعف فى اليوم الذى تتخلى فيه عن دور الركز بالنسبة إلى نظام الدفاع فى حدود الريخ الجنوبية » . وكان الألمان يخشون أن يواجههم الإيطاليون بمفاجأة ما . وكان هذا الموقف يتطلب أكبر قدر من الاهتمام بالإيطاليين فى تونس . وكان لدى ران تعليمات من ريبنتروب بهذا الصدد جاء فيها : « فى كل المسائل السياسية التى تلوح فى تونس لابد أن تكون الأولوية للإيطاليين ، وبدلاً من ذلك لابد أن نوجه نشاطنا السياسى الخاص

---

(١) حدث هذا – على سبيل المثال – بصدد حادثة وقعت فى قصور الصف فى ٢٣ مارس ١٩٤٣ حين أبدى الموظفون الإيطاليون رضاهم عن نشوب نزاع بين العرب والبوليس الفرنسى .

(٢) اعتقدت القيادة الإيطالية العليا وقصر شيجى أن الألمان لم يسمحوا باتخاذ قرارات بصدد المسائل السياسية فى تونس . وقد صرح المركيز داجيتا بذلك لفون بزمارك فى ٦ و ٧ ديسمبر ١٩٤٢ . (ريبنتروب إلى سفارة روما ، برلين فى ١٤ ديسمبر ١٩٤٢ – ٩٧٥ / ٣٠٣٠٠٠ – ٢) .

إلى تطوير الموقف فى الجزائر ومراكش » . وصدرت من ريبنتروب تعليمات إلى السفارة الألمانية فى روما — التى قدمت شكاوى إيطاليا إلى برلين — بأن تلفت نظر الإيطاليين إلى أن ألمانيا تقوم ببحث كل رغباتهم المتعلقة بتونس » .

انعقاد مؤتمر فى روما

سبق أن عرضنا لما قاله ريبنتروب — ولكن إلى أى حد كان ذلك ينطبق على الواقع ؟ كانت روما تسعى إلى إقامة نظام احتلال إيطالى — ألمانى فى تونس ولهذا طلبت أن ينتزع المحور الإدارة بالتدريج . ومن هنا فلا بد أن الإيطاليين قد اعتبروا تعاون ران مع الهيئات الفاشية الفرنسية أمراً خطيراً ، بحكم أنهم كانوا مهتمين بضعضعة مركز فرنسا فى تونس لا بإحلال نظام فرنسى محل آخر .

وتلبية لطلب إيطاليا عقد مؤتمر مشترك فى قصر شيجى (٢ يناير ١٩٤٣) لبحث المسألة التونسية . وكان يمثل ألمانيا فى هذا المؤتمر فون بزمارك ودورتنباخ نيابة عن سفارة الريخ فى روما ومولهاوزن باعتباره ممثلا لران . وكان الجانب الإيطالى يضم ڤيتى الذى كان يرأس مجموعة من المسئولين بوزارة الخارجية وممثلا عن القنصلية الإيطالية العامة فى تونس . ووفقاً لتعليمات فايزساكر تركت المبادرة للإيطاليين الذين اقترحوا جدول أعمال المؤتمر . وجرت مناقشة مستفيضة جداً لمسألة علاقة المحور بالحكم الفرنسى فى تونس .

وأصدر فايزساكر تعليماته بوجوب قبول موقف إيطاليا بصدد هذه المسألة وإجراء اتفاق حول ضرورة بقاء القطاعين السياسى والمدنى تحت النفوذ الألمانى — الإيطالى ، ولكن على أن يتم ذلك مع التحفظ الضرورى — ورأى ضرورة استغلال خبرة ران وسلمبانى — أى مواصلة العمل مع المتطرفين من المتعاونين الفرنسيين .

وأدت هذه الروح إلى التوفيق بين وجهات النظر فى مؤتمر روما . ووافق الإيطاليون على التعاون مع الفاشيين الفرنسيين ووعدوا بمساندة جلبو — وكانوا ، حتى قبل انعقاد المؤتمر ، قد وافقوا على أن يشكل ران خمس لجان فرنسية — إيطالية —

عربية[1] يعهد إليها بالإشراف على فروع الإدارة التونسية المخصصة لكل منها . وفى خلال المحادثات تقدم الإيطاليون بالاقتراح الخاص بالتفتيش على الجهاز الإدارى بترقية إيطاليين إلى المناصب العليا أو بأن يحل موظفون إيطاليون محل الفرنسيين جميعاً . ولكن الألمان رأوا استحالة تنفيذ ذلك ما دام الموقف العسكرى لم يتغير تغييراً حاسما لصالح المحور . لهذا بقى الجهاز الإدارى كما هو .

على أن الألمان قدموا تنازلات أكبر بكثير للإيطاليين فيما يتعلق بالمسائل العربية . وليس من قبيل الصدفة أن وجهات نظرهم الخاصة بهذه المسائل كانت تتمشى مع وجهات نظر الفرنسيين .

الدعاية الألمانية فى المغرب

قبل أن ينزل الإنجليز والأمريكان فى شمالى إفريقيا لم يبد الألمان — من الوجهة العملية — أى اهتمام بعرب المغرب . وكانت حدود النشاط الألمانى تقريباً تقع فى نطاق دعاية تتصف بالحرص الشديد وحرصت على تجنب اللهجات القومية التى تؤدى إلى إغضاب روما ومدريد وفيشى ، وضم العملاء .. ولكن لم يكن بالإمكان استمرار هذه الخطة بعد نزول قوات الجنرال أيزنهاور . ولما كانت الدعاية فى ذلك الوقت موجهة إلى المناطق التى يدور فيها القتال أو التى تقع فى المؤخرة المباشرة لقوات الحلفاء، فقد ازداد اهتمام السلطات الألمانية — مدنية وعسكرية — فى نوفمبر وديسمبر ١٩٤٢ بالدعاية الموجهة إلى المغرب إلى حد كبير . وأرسل إلى تونس « قطار » دعاية خاص يرأسه الميجر مهمنرت Mehmnert . وقام الدكتور مجرلى Megerle وقنصل ألمانيا فى الجزائر آور Auer بوضع توجيهات دعائية جديدة . وقد تضمن هذا مجهوداً دعائياً ضخماً جديداً ، وإن بقيت طريقة التفكير كما هى . ولم تتعد الخطوط العريضة للإذاعات والنشرات القالب المعروف لهجمات النازيين على الحلفاء واليهود والبلشفيك والماسونيين والجبهة الشعبية . وتسترعى الحدود التى فرضها الألمان على دعايتهم الانتباه من وجهة النظر السياسية .

---

(١) سنتناول اللجان فيما يلى .

فقد تقرر عدم القيام بدعاية بعيدة المدى وحذف أية إشارة إلى مستقبل شمالى إفريقيا ، وأن يوضع فى عين الاعتبار دائماً وقبل كل شىء الإبقاء على علاقات حسنة مع إيطاليا وعدم الإشارة إلى النزاع الإيطالى – الفرنسى . ووضعت خطة تقضى باستغلال كل تصريحات الحلفاء الخاصة بالاستقلال الوطنى لبلدان المغرب فى الإذاعات الموجهة إلى الفرنسيين ؛ على حين كان من المتوخى أن يلفت نظر العرب إلى أنهم عرضة للخداع . وهكذا تشهد التوجيهات الإذاعية على أن الحكام الألمان لم يتخذوا أى قرارات سياسية جديدة حول مستقبل بلدان شمالى إفريقيا . وعلى أى حال فإن النازيين لم يهدفوا إلى استغلال القومية العربية فى تونس والجزائر ومراكش. ولم تكد خطط تقسيم المغرب بين إيطاليا وفرنسا تعتبر مادة مناسبة للدعاية[1].

وطالب العرب المتعاونون مع المحور بأن يذكر لعرب الغرب شىء إيجابى فيما يتعلق بمستقبل بلادهم . وقد أثيرت هذه المسألة فى اجتماع عقدته « اللجنة العربية » الخاصة بالدعاية . ولكن تقرر أن « المصالح الإقليمية لإسبانيا وفرنسا تستلزم الامتناع عن إثارة مستقبل منطقة شمالى إفريقيا السياسى » . وتوضح الحدود العريضة التى جرى اقتراحها فى ذلك الاجتماع أنه كان من المتوخى أن تحتل الدعاية المعادية لأمريكا دور الصدارة .

رسالة إلى الباى

بعد الاتفاق مع زعماء المحور أرسل مفتى القدس السابق : الحاج أمين الحسينى ، إلى باى تونس رسالة تتصف بالتحفظ الشديد والحذر . وقد بعث بها من روما حيث كان موجوداً فى أثناء نزول الحلفاء فى شمالى إفريقيا . وكانت

---

(١) انظر ما سبق عن ادعاءات إيطاليا فى الأملاك الفرنسية فى شمالى إفريقيا . وفى بداية عام ١٩٤٢ وضعت وزارة الخارجية الألمانية خطة عامة لإعادة تقسيم إفريقيا بين ألمانيا وإيطاليا وفرنسا واتحاد جنوبى إفريقيا وإسبانيا والبرتغال – انظر :
خطة هتلر لتقسيم أفريقيا

Hirszowicz, Hitlerowski plan podzialu Afryki Sprawy Miedzynarodowe, no. 12/1961, pp. 70-79.

الرسالة إلى حد ما نتيجة للمحادثة التى جرت بين المفتى وبعض المسئولين الإيطاليين بشأن مسأله المغرب. وقد اتخذ الإيطاليون المبادرة السياسية حين طمأنوا الباى، ليس فقط بسبب الخوف من دعاية الحلفاء، بل لأنهم كانوا يريدون القضاء على الآمال التى يثيرها وصول القوات الألمانية لدى العرب. وقد عبر المفتى فى الرسالة عن عطف المحور على العرب، ووعد بالاعتراف بوضع الباى وحكومته من الناحيتين القانونية والسياسية. وكتب أن ألمانيا وإيطاليا فهمتا أمانى الأمة التونسية التى كانت ترغب فى الحرية المدنية والدينية والتقدم الاقتصادى. وكان هذا بمثابة وعد، جرت صياغته بحذر شديد، بعدم تغيير أوضاع الحماية إلى أسوأ. ومن المؤكد أن الإشارة إلى الحرية المدنية والدينية والتقدم الاقتصادى لم تكن وعداً بالاستقلال. كما طلبت الرسالة المساعدة من القوات الفرنسية التى تحارب مع المحور ضد العدو الذى سيعنى انتصاره نجاحاً لليهودية والشيوعية. وبهذه الطريقة جرى تذكير الباى بالحرب الدائرة هناك. وتم تحذيره من معارضة الفرنسيين فى تونس. وتدل الرسالة من جديد على موقف المحور ذى الوجهين فى تونس.

وقد جرى تقديم الرسالة إلى الباى عن طريق مبعوث المفتى الخاص الذى وصل إلى المدينة حين عمها الهلع بسبب تقدم قوات الحلفاء. وقد رجع إلى إيطاليا فوراً [١].

اقتراح المفتى

بارح المفتى روما إلى برلين بعد وقت قصير من نزول الحلفاء فى إفريقيا. وفى ١٨ نوفمبر قدم مذكرة مستفيضة إلى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية [٢]، كانت تحتوى على عدد من الاقتراحات الخاصة باستخدام عرب شمالى إفريقيا لصالح المحور. وقد ذكر أن هذا لم يكن ممكناً من قبل بسبب خوف روما وبرلين

---

(١) لم نعثر فى وثائق وزارة الخارجية الألمانية إلا على المسودة الإيطالية لرسالة المفتى إلى باى تونس، ولكن يتضح من النص الكامل أنه لم يكن باستطاعة الألمان إلا أن يجروا تعديلات طفيفة فى أحسن الأحوال.

(٢) مذكرة المفتى إلى القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٤٢ — ٩٧٥ / ٣٠٣٠٢٩ — ٣٢. وقد وصلت هذه الوثيقة إلى وزارة الخارجية الألمانية فى أول ديسمبر ١٩٤٢.

من احتمال انضمام حكومة فيشى إلى الحلفاء .

وقد تقدم الحاج أمين بالمقترحات الآتية : (١) احتلال تونس وإقامة منطقة دفاعية فيها ، (٢) تشكيل جيش تحرير مغربى من أسرى الحرب وعرب المغرب الذين يعملون فى فرنسا ، ومن التونسيين وغير ذلك (وقد ذهب المفتى إلى أن هذا سيجعل بحيز الإمكان إنشاء جيش تعداده نصف مليون) ، (٣) دعوة عرب شمالى إفريقيا العاملين فى الجيش الفرنسى وكل عرب المغرب إلى الانضمام إلى جيش التحرير هذا ، (٤) إثارة ثورات القبائل فى ظهر الحلفاء ، (٥) توجيه ذلك الجيش إلى جبهات أخرى بعد احتلال المغرب ، (٦) استعمال الوحدات العربية العاملة مع المحور فى تونس ، (٧) إقامة مركز سرى فى تطوان الإسبانية المحايدة لإقامة اتصالات مع أجزاء مختلفة من المغرب .

وصادفت المقترحات أرضاً خصبة . فلقد شعرت القيادة الألمانية بنقص خطير فى الرجال ، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان لديها عتاد ووقت كافيان لإنشاء جيش عربى فى شمالى إفريقيا .على أنه قد بدا أن القيام بمناورات تمويهية فى مؤخرة قوات الحلفاء يشغل قوات بريطانية وأمريكية وفرنسية كبيرة أمر مستحب جداً . لهذا فقد كان هذا الجانب من مقترحات المفتى موضع قبول تام من جانب العسكريين الألمان . وقد ذكر كايتل — القائد العام للقوات المسلحة الألمانية — فى رسالة له إلى وزارة الخارجية أن القيادة العليا ترى أن استدراج عرب شمالى إفريقيا إلى قتال القوات الأنجلو سكسونية ودفعها إلى القيام بالثورات أمر على جانب كبير من الأهمية . وفى ٨ ديسمبر اتصل كولونل وزارة الدفاع الألمانية لاهوزن شخصيا بوزارة الخارجية الألمانية بهذا الصدد . وفى اليوم التالى انعقد مؤتمر فى منزل الحاج أمين الحسينى حضره الأميرال كاناريس والكولونل لاهوزن والميجر سوبيرت Seubert من رجال وزارة الدفاع الألمانية . وناقش المؤتمر مسألة الثورات العربية فى المغرب . وفى ١٠ ديسمبر استقبل فايز ساكر المفتى ، وفى النهاية قدمت المقترحات لهتلر فى مركز قيادته .

وقد تضمنت مقترحات المفتى دلالات سياسية هامة بالنسبة إلى وزارة الخارجية الألمانية ومركز قيادة الفوهرر . وتمشياً مع سياسة المفتى الخاصة بالظهور بمظهر

قائد كل العرب والعالم الإسلامى ، نجده يتصل أكثر من مرة بالمحور بصدد مسائل المغرب ، وأحياناً ماكانت لديه مقترحات محددة . وذهب إلى أن المقصود من هذه المقترحات توفير الانسجام بين السياسة الألمانية والمحورية وبين حكومة فيشى ، بقصد الحصول على مساندة عرب شمالى إفريقيا . ومن الواضح أنه لم يمكن تنفيذ المقترحات . وفى المذكرة التى بعث بها المفتى بتاريخ ١٨ نوفمبر ، اقترح عدداً من المطالب السياسية ، وذهب إلى أنها لاغنى عنها إذا ما كان لابد للمحور من الحصول على المزايا العسكرية الضرورية . فقد طالب مثلا بتصريح يوضح مرامى المحور المحددة فى البلدان العربية فى شمالى إفريقيا . وكان على المحور أن يعترف بحرية وإستقلال هذه البلدان ، وأن يعقد معاهدات معها على نمط المعاهدة الإنجليزية — المصرية أو المعاهدة الإنجليزية — العراقية ، أى معاهدات تتضمن سلامة القواعد العسكرية المحورية القائمة فى أراضى دول المغرب . وكان من رأى الحسينى ضرورة البدء بتونس بإطلاق سراح رعاياها المسجونين فى السجون الفرنسية . أما بالنسبة إلى الإيطاليين فقد اقترح المفتى إقامة علاقات مع تونس تستند إلى نفس المبادئ التى وضعها السير ستافورد كريبس فى عام ١٩٤٢ بصدد العلاقات الإنجليزية الهندية ، وهى المبادئ التى رفضها المؤتمر القومى الهندى .

وبإمكاننا أن نلاحظ بسهولة أن المفتى السابق لم يبتعد فى الجوهر عن وجهة النظر التى أبداها القوميون العرب المعتدلون فى فترة ما بين الحربين ، مع الفارق الخاص بأنه كان على ألمانيا وإيطاليا الفاشيتين أن تلعبا الدور نفسه الذى لعبته الديمقراطيتان البرلمانيتان إنجلترا وفرنسا . وكانت خططه تستوجب بقاء البلدان العربية فى شمالى إفريقيا غير مستقلة ، مع الاختلاف الوحيد الخاص بعدم إمكان استعمارها استعماراً كاملا بشكل سافر مثل الجزائر وليبيا وفلسطين التى كانت تحكم حكماً مباشراً . ولكن لم يكن بإمكان المحور أن يطبق هذه الطريقة الخاصة بالحكم الاستعمارى وذلك بسبب خطط إيطاليا الخاصة بتوطين رعاياها ووضع فرنسا المرتبط بمصالح مستوطنيها فى المغرب . على أنه كان باستطاعة إنجلترا وفرنسا اتباع طريقة الحكم غير المباشر فى المشرق العربى .

وبالإضافة إلى ذلك فإن ألمانيا النازية ذاتها قد ظهرت بمظهر المناصرة

« للفكرة الأوربية » والمطالبة بإمبراطورية استعمارية خاصة بها فى أواسط إفريقيا . وكان المفتى يريد التوجه إلى شمالى إفريقيا لتنظيم النشاط الذى اقترحه وذلك فى حالة قبول شروطه السياسية . على أنه حين رأى أن إصدار التصريح الذى كان يرغب فيه محوط بالصعاب ، تنازل عن بعض مطالبه بحيث اقتصرت على رسالة موجهة إلى باى تونس ، مع وعود غامضة بالاستقلال. بل وصل به الأمر إلى الموافقة على التوجه إلى شمالى أفريقيا بدون أى وعود ، برغم أنه كان قد أشار إلى أن نتائج جهوده فى هذه الحالة ستكون أقل .

ألمانيا وإيطاليا وخطط المفتى

ويبدو أن الألمان لم يكونوا على اتفاق بصدد تقييم مقترحات المفتى . فلم تتبين وزارة الدفاع الألمانية أى احتمال لإشعال ثورات عربية فى مؤخرة الحلفاء ، وهو ما كان الجيش الألمانى شديد الرغبة فى حدوثه ، دون تعاون الحسينى . لهذا فإنهم شاركوا بعض وجهات نظر الحاج أمين ما دام أنه أكد قدرة عرب المغرب من الناحية العسكرية . ومن ناحية أخرى كان ران يشك فى الاقتراح الخاص بتشكيل جيش منهم . وقد أبرق من تونس مايلى : « إن القيام بدعاية أنشط بين العرب ضد اليهود أوبدعاية مباشرة ضد الحلفاء أمر غير مرغوب فيه ، لأنه لن يؤدى إلى نشوب اضطرابات خطيرة — فالعرب غير أكفاء فى القتال » . وأشار فى مناسبة أخرى إلى أن تشكيل وحدات عربية فى مناطق القواعد العسكرية المحورية ونقاط الشحن يؤدى إلى كثير من المخاطر الناتجة عن النهب والهجمات على المستوطنين الفرنسيين والإيطاليين والقلق العام .

وسواء أكانت برلين قد وافقت أم لم توافق على ما ذهب إليه ران ؛ فقد رئى — على أى حال — أن مجرد التصريح بتقديم تنازلات للقومية العربية قد يؤدى إلى قيام مشاكل مع الإيطاليين والفرنسيين المتعاونين مع ألمانيا . وهكذا حين جرت محادثات مع كولونل وزارة الدفاع الألمانية تبنت وزارة الخارجية الألمانية وجهة نظر شديدة الحذر ، بل سلبية إلى حد ما . ولم تبد وزارة الخارجية

الألمانية أى تحفظات حول استغلال المفتى فى تونس ، وهو ما كان الإيطاليون يرحبون به ، ووافقت على أن على السلطات العسكرية أن تقرر التوقيت المناسب لرحلته . ولكن الألمان لم يبدوا رغبة فى أن يعدوا عرب المغرب بالحرية والاستقلال ، إذ أن ذلك كان يناقض رسالة هتلر إلى بتان ، وكان مقيضاً له أن يكون له أثر سلبي فى إسبانيا[١]. ولكن فورمان قدم اقتراح المفتى الأكثر تواضعاً الخاص بإرسال خطاب سرى إلى باى تونس : وقد أرسل هذا الخطاب بسرعة إلى كاساردى Casardi ، السكرتير الأول فى السفارة الإيطالية ، مع طلب رأى حكومته . ولم تتمخض المحادثة التى جرت بين المفتى وفايز ساكر فى ١٠ ديسمبر عن أى نتائج محددة . وقد ذهب فايز ساكر إلى أن الألمان كانوا يديرون شئون تونس باتفاق تام مع الإيطاليين . وفى هذه المرة أيضاً نقلت برلين إلى روما اقتراح المفتى الخاص باستعداده للتوجه إلى تونس حتى فى حالة عدم قبول الشروط السياسية .

وفى اليوم نفسه كانت المذكرة الألمانية موضوع محادثة فى روما بين داجيتا وفيتى و برنس فون بزمارك . وقد بدا فى هذه المناسبة أن الإيطاليين كانوا يعارضون أى نوع من الوعود التى تتضمنها رسالة سرية موجهة إلى باى تونس . ورأى الإيطاليون أن إصدار تصريح يعد كل شمالى إفريقيا بالاستقلال يكاد يكون أمراً مستحيلا ، وتحججوا بالتزامات المحور إزاء بتان وصرحوا بأن تونس تتضمن جزءاً من مجال إيطاليا الحيوى — وكان الأمر يتطلب إجراء مفاوضات بين ألمانيا وإيطاليا قبل أن يتسنى إصدار تصريح من أى نوع . وكانت وزارة الخارجية الإيطالية بوجه عام ترى ألا معنى لمناقشة مستقبل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية مع المفتى . وفى اليوم التالى أخبر فون بزمارك بأن موسولينى صرح — على أثر اطلاعه على محتويات الرسالة التى حصلت عليها السفارة الإيطالية فى برلين — بأن ذلك ليس الوقت المناسب لإصدار مثل ذلك التصريح ، بحجة وجوب تأجيل مناقشة المشاكل ذات الأهمية الكبرى بالنسبة إلى إيطاليا وفرنسا إلى وقت آخر .

---

(١) مذكرة فورمان إلى ريبنتروب — برلين فى ٨ ديسمبر ١٩٤٢ . (٩٧٥ / ٣٠٣٠٢٥ — ٧).
وقد كتب سونهول Sonnenhol فى التقرير الذى بعث به من الدار البيضاء فى ٧ أغسطس ١٩٤٢ ما يلى : « تفرق إسبانيا فرنسا فى أن لديها فكرة ثابتة عن مسألة التدخل الألمانى فى سياستها إزاء السكان المحليين » .

وقد استشف مركز قيادة هتلر ما سيكون عليه رد فعل إيطاليا ، وأخبر كايتل بوجوب توقع نشوب مشكلات مع إيطاليا فيما لو أرسل المفتى إلى شمالى إفريقيا واحتفظ لنفسه بالقرار النهائى بصدد المسألة . وحينئذ بلغ كايتل كاناريس تليفونياً (فى ٩ أو ١٠ ديسمبر) بضرورة إرجاء مسألة قيام المفتى بالتمهيد لنشوب ثورات فى شمالى إفريقيا . وحين تحادث المفتى مع فايزساكر ، انتقل فحوى هذه المكالمة التليفونية إلى وزارة الخارجية الألمانية .

وفى ١٢ ديسمبر أبرق ران من تونس أن من السابق لأوانه أن يتوجه المفتى إلى شمالى إفريقيا . وقد أدرك مدى ضعف احتمالات نشوب ثورة عربية ، وأوضح أن وجود المفتى لن يساعد كثيراً .

وفى اليوم نفسه بلغ كاناريس فايز ساكر أوامر كايتل الخاصة بعدم محاولة إرسال المفتى إلى شمالى إفريقيا حتى يصدر مركز قيادة الفوهرر قراراً سياسياً بصدد هذه المسألة . وفى مذكرة بعث بها فايز ساكر إلى ريبنتروب نجده يعتبر الخطة بأسرها خيالية . وكان من رأيه أن الرسالتين الصادرتين من روما فى ١٠ و١١ ديسمبر أثبتتا استحالة إصدار تصريح محورى بخصوص تونس . وبرغم ذلك فإنه اقترح عدم التخلى عن فكرة إرسال المفتى إلى تونس ، ووافق ريبنتروب على ذلك .

وكان من الواضح أن « قراراً سياسياً » ما سيتخذ بصدد تونس فى ظل الظروف القائمة . وقد صرح كاناريس بأن « المبادرة السياسية فى تونس بخصوص مسألة الثورة العربية يجب أن تترك للإيطاليين » . وكان من الممكن تفسير ذلك على أنه إشارة للإيطاليين ببدء العمل ، ولكن الدوائر الحاكمة فى ألمانيا لم تكد تعول على ذلك .

لهذا فإن رحلة المفتى إلى برلين لم تتمخض عن أية نتائج ، وفى ١٩ ديسمبر ١٩٤٢ طلب الإيطاليون من الألمان أن يوافقوا على عودته إلى روما .

محاولة الاتفاق مع بورقيبة

وربما كان ران على حق حين أبرق إلى رؤسائه بأن المفتى لن يستطيع تعزيز قدرة المحور على استخدام العرب المحليين – إذ كانت للعرب التونسيين مراكزهم الوطنية الخاصة، وأهمها حزب الدستور الجديد . فبعد أن قام حزب الدستور الجديد فى عام ١٩٣٤ بصفته مركزاً لمعارضة تقليدية وسلبية حزب الدستور القديم (القائم منذ عام ١٩٢٠) سرعان ما احتل المركز الرئيسى فى الحركة الوطنية التونسية وأحرز شعبية عظيمة .

وكان أكثر زعماء هذا الحزب شعبية – وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة – فى سجون فرنسا . فبعد سقوط حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا وفشل حملة العصيان المدنى فى تونس (وهى الحملة التى بلغت قمتها فى مظاهرة ٩ أبريل ١٩٣٨) ، تم القبض على زعماء الحزب وجرت محاكمتهم فى محكمة عسكرية . وبعد اندلاع الحرب ، نقل الزعماء العرب إلى فرنسا وسجنوا فى مرسيليا . وحين دخلت القوات القوات الألمانية الجزء غير المحتل من فرنسا فى نوفمبر ١٩٤٢ ، وضعت خطة فى برلين لنقل السجناء التونسيين إلى أيدى الإيطاليين الذين كان من المتوخى أن يحتلوا ذلك الجزء من فرنسا – ولكن من المعروف أن العسكريين لم يحتلوا مرسيليا على الإطلاق .

وفى ٢٦ نوفمبر طلبت روما من الألمان أن يطلقوا سراح زعماء حزب الدستور الجديد . وفى ٨ ديسمبر أرسل فورمان خطاباً إلى سفير الريخ فى باريس يزكى الاتفاق مع القائد العام للجبهة الغربية (رونشتد) بشأن إطلاق سلطات الاحتلال الألمانية سراح زعماء حزب الدستور الجديد . وكان من المتوخى أن يتم الإفراج عنهم فى الحال . وقبل ذلك بأسبوع كان الألمان قد أطلقوا سراح الزعماء الوطنيين من السجون التونسية ، مما أثار حماسة شديدة لدى العرب جعلت ران يصر على إطلاق سراح الوطنيين المسجونين فى فرنسا فى الحال ، وإرجاعهم إلى تونس .

وتمت الموافقة على طلب برلين ، ولكن زعماء حزب الدستور الجديد لم يعودوا إلى تونس ، ربما بسبب المعارضة الإيطالية . ولكنهم لم ينقلوا إلى إيطاليا . وربما كان مكتب الأمن – الذى أطلق سراح بورقيبة ورفاقه – يريد استغلالهم ، ولم يوافق على تسليمهم للإيطاليين. ولما قلقت روما لتطور الأحداث بهذا الشكل، وجهت مذكرة فى ١٩ ديسمبر إلى وزارة الخارجية الألمانية، مقترحة مناقشة المسائل التونسية . وقد اقترح الإيطاليون ، فيما اقترحوه ، وضع سياسة محورية إزاء عرب شمالى إفريقيا ، وأن تناقش بوجه خاص مسألة استخدام حزب الدستور الجديد . ووافق الألمان على إجراء المناقشة . وكان معنى ذلك أنهم عدلوا عن الفكرة الخاصة بأن يكونوا الوحيدين الذين يستخدمون زعماء حزب الدستور الجديد وأنهم على استعداد لتسليمهم للإيطاليين .

وبهذا نكون قد عرضنا للشكل الذى وضح به فايز ساكر المسألة فى التعليمات التى أرسلها إلى الموظفين الذين كان من المتوخى أن يمثلوا ألمانيا فى مؤتمر روما الخاص بتونس[١]. فقد أصدر أمره بإخطار الإيطاليين بأنهم أحرار فى استخدام زعماء حزب الدستور الجديد ، لكن مع التحفظ الخاص بأن من المستحسن استغلال خبرة ران . وكان هذا الأخير خلال الأسابيع الأولى التى تلت إنشاء رأس الجسر التونسى قد عبر عن توقعه الكثير من حزب الدستور الجديد .

وبدا خلال المناقشة التى مست كل المسائل المتصلة بسياسة المحور الخاصة بتونس أن إيطاليا تعلق أهمية كبرى على العلاقات مع الوطنيين . وقد عبر مولما وزن عن اقتناعة بضرورة استغلال بورقيبة لإرضاء العرب والتغلب على ترددهم وتقريبهم من المحور . وأشار ممثلو إيطاليا بدورهم إلى المشكلات السياسية التى قد تنتج عن اتباع هذه السياسة . وأشاروا إلى تعليمات موسولينى الخاصة بعدم وعد تونس بالاستقلال أيًّا كانت الظروف ، وعبر عن الرأى الخاص بأن بورقيبة سيوافق على نشاط سياسى ما ولكن بشرط الموافقة على مطالبه . وأعربوا عن

---

(١) تعليمات فايز ساكر إلى سفارة روما ، برلين فى ٢ يناير ١٩٤٣ – ٢٢١٣ / ٤٧٤٦٩٧ – أن ناقشنا جزءاً آخر من هذه التعليمات .

سخطهم على عدم تسليم الزعماء الوطنيين — الذين أطلق سراحهم من السجون الفرنسية — لإيطاليا . ورد الألمان بأن استخدام هؤلاء الزعماء أمر يهم إيطاليا ، ووعدوا بإرسال بورقيبة إلى روما لإجراء المحادثات .

وبعد عدة أيام توجه زعماء حزب الدستور الجديد إلى إيطاليا حيث استقبلوا استقبالا رسمياً . ونزل بورقيبة وزميلان له — بن سليمان وبن يوسف — فى قصر رسبيجى على نهر التيبر ، ونزل الآخرون فى فندق الكونتننتال . ولكن المحادثات لم تتمخض عن أية نتائج . فقد اشترط بورقيبة — ثمناً لتعاونه — أن تنتقل السلطة إلى الباى على أن تعاونه حكومة وطنية . . ولكن كان من الواضح أن هذا المطلب يتناقض مع نيات إيطاليا فى تونس على المدى القريب والبعيد على حد سواء[1] .

ومن المشكوك فيه كثيراً ما إذا كان بورقيبة بوجه عام يرغب فى التعاون مع المحور . ومما لا شك فيه أنه كان على علم بأطماع إيطاليا . وكان قبل القبض عليه قد نادى بالديمقراطية البرلمانية وأبدى معارضته للدكتاتورية الفاشية . ولم يكن الموقف فى جبهات القتال فى ذلك الوقت يشجع على التعاون مع المحور ، ولا يوجد هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن بورقيبة كان يؤمن بانتصار المحور فى أواخر عام ١٩٤٢ وأوائل عام ١٩٤٣ . حقيقة أن الديماجوجية النازية المعادية للرأسمالية ولليهود قد وجدت استجابة لدى الوطنيين التونسيين ، وبخاصة لدى الجماهير الراديكالية من أتباع حزب الدستور الجديد وعلى رأسهم الشباب . إلا أن القوى التى بيدها الأمر ، كالباى والمحيطين به ، على سبيل المثال ، كانت تتوقع انتصار الحلفاء ؛ فآثرت عدم الانضمام إلى أى جانب . وبعد الحرب اتهمت بعض الدوائر الفرنسية بورقيبة بالتعاون مع المحور — وقد نشر التونسيون فى ذلك الوقت رسالة بعث بها بورقيبة إلى زعيم حزب الدستور الجديد البارز — دكتور تامر — فى ٨ أغسطس ١٩٤٢ . وقد جاء فى رسالة بورقيبة أن انتصار الحلفاء أمر مؤكد وطالب بالوقوف إلى جانبهم دون قيد أو شرط . وبرغم أننا لا يمكننا أن نقطع بصحة تلك الرسالة ، فإن سلوك

---

(١) فى ٢٠ يناير ١٩٤٢ بعث بورقيبة برسالة إلى المفتى يخبره فيها بمحادثاته مع الإيطاليين . وقد نشرت نصوص مختلفة لهذه الرسالة فى الفيجارو والموند ولاديش تونسيين . ولكن أيا ما كتب بورقيبة إلى الحاج أمين فى ذلك الوقت ، فهناك شىء أكيد — فبرغم النصوص المختلفة لرسالة بورقيبة ، فإنه لم يكن بإمكانه أن يعتقد أن الإيطاليين سيسهل عليهم تلبية مطالبه .

بورقيبة فى أثناء احتلال المحور لتونس لايدع مجالاً للاعتقاد بوجود أى تناقض بين وجهات النظر التى عبرت عنها الرسالة وتلك التى كان ينادى بها فى ذلك الوقت .

فى ذلك الوقت رفض بورقيبة التعاون مع المحور إلا إذا نفذت شروطه السياسية . وطالب بإرجاعه إلى تونس . وكان لابد أن يؤثر صمت وغياب زعيم له أهميته كبورقيبة على الموقف ، فبدأ أتباعه يبدون تحفظاً إزاء المحور[1]. واتضح للإيطاليين ، بحلول نهاية فبراير ، أنهم يجانبون الصواب فى علاقاتهم بالوطنيين التونسيين فبدءوا يفكرون فى إرسال بورقيبة إلى تونس . وكان من شأن القيام بذلك ، فى نهاية الأمر ، أن يتمشى مع مخططهم السياسى الخاص بعدم بذل وعود للعرب ، مع إبداء عطفهم عليهم والسماح بالنشاط الوطنى الذى يضعضع سلطة الإدارة الفرنسية . ولكن يتضح لنا من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أن بعض الساسة الإيطاليين رأوا ضرورة إبقاء بورقيبة فى روما حتى يوافق على مطالب المحور ، أو على الأقل حتى يصدر التصريح العلنى المطلوب منه[2].

المحور والوطنيون التونسيون

وفى تلك الأثناء ازداد التعاون فى تونس بين سلطات الاحتلال الألمانية والفرنسيين المتعاونين مع ألمانيا ، فى الوقت الذى حصل فيه الوطنيون العرب على قسط من حرية العمل . ولكن لم تقطع أى التزامات محددة لأى من الفريقين . وقد أفاد الوطنيون العرب من ضعف الإدارة الفرنسية وترددها فى القيام بأعمال قمع ضدهم ، فبدءوا نشاطهم من جديد . وأثار وجود القوات الألمانية ، التى

---

(١) وهكذا اشتكى موطاوزن من أن معارضة معينة كانت آخذة فى النمو بين هيئة تحرير جريدة « إفريقيا الفتاة » وذلك بسبب غياب بورقيبة . وفى أول فبراير ١٩٤٣ أبرق ران إلى وزارة الخارجية الألمانية ما يلى « يجب ان نلقى مسئولية غيابه على الإيطاليين ، ويعتبر الجميع سكوته دليلا على أنه سيكون من المستحيل الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا » .

(٢) موطاوزن إلى وزارة الخارجية الألمانية ، ٢٢ فبراير ١٩٤٣ – ١٢٧٦ / ٣٤٣٢٥٢ – ٣ . تحتوى هذه المكاتبة على تقرير عن محادثة موطاوزن مع اللفتنانت كولونل سيمن Simmen : ضابط الاتصال بالمخابرات الإيطالية بقصر شيجى .

ظهرت بمظهر أصدقاء العرب ، آمالا جديدة . وحين ظهر جنود عرب فى تونس ، سواء من أعضاء فرقة براندنبورج للمهام الخاصة التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ، أو من هيئة الاتصال الألمانية — العربية ، انتعش الشعور الوطنى إلى حد كبير . بل إن العناصر المعتدلة التفت حول الباى الذى بدأ قصره يحث على إجراء بعض التغييرات .

وكان التغيير الوحيد الذى أجراه الألمان هو تشكيل لجان للإشراف على الإدارة الفرنسية . وكانت كل من اللجان الخمس تتألف من عضو عربى وآخر فرنسى وثالث إيطالى . ولم تحدد صلاحيات الأعضاء بدقة ، ولكن اللجان سهلت استغلال ألمانيا للتناقضات القائمة بين شتى طوائف السكان التونسيين ، مما أدى إلى تنافس زعماء كل مجموعة قومية للحصول على رضى سلطات الاحتلال[1]. واقتصرت اللجان على أعمال الدفاع فى أثناء الغارات الجوية ورعاية اللاجئين والإدارة العامة للمدينة والأشغال العامة ومؤن الطعام والمشكلات الاقتصادية والنظام العام . وقد استغلت الدعاية المحورية الحقوق المتساوية ظاهريًا التى حصل عليها الأعضاء العرب فى اللجان استغلالاً واسع النطاق . وكانت المساواة شكلية — إذ كان يسمح لقنصل إيطاليا العام بالدخول مباشرة على سلطات الاحتلال الألمانية ، تماماً كممثلى المقيمية العامة أو لجنة وحدة العمل الثورى . وكانت ثمة شعارات دعائية أخرى كالسياسة المعادية لليهود وتخصيص جريدة « إفريقيا الفتاة » لحزب الدستور الجديد. على أن ذلك لم تكن له قيمة كبيرة — ولكن حين حاول الألمان استغلال الشعارات الوطنية فى دعايتهم على مدى أوسع ، ووجهوا بمعارضة الإيطاليين .

وبرغم أن الألمان لم يسمحوا بإجراء تغييرات دستورية فى أثناء الحرب ، وبرغم أن ران كان شديد الميل إلى إعطاء أولوية للتعاون مع الفرنسيين ، فلم يتم التخلى عن فكرة استغلال الوطنيين . وقد أوضح ران للعرب ، وبخاصة للشبان المتحمسين من أعضاء حزب الدستور الجديد ، أن الاستقلال لايقدم على طبق من فضة ، ومعنى ذلك إثارة النشاط الوطنى مع عدم الالتزام بأى شىء .

---

(١) كتب ران فى رسالته المؤرخة ٢ فبراير ١٩٤٣ ما يلى : « استطاع الألمان ، باستغلالهم الصراع الفرنسى — العربى ، أن يجعلوا كلا من الطرفين يبذل جهوداً أكبر فى مجال التعاون العسكرى » .

وكان هذا الاتجاه يتمشى مع جوهر السياسة الألمانية التى كانت تقوم على ضرب كل الأشخاص بعضهم ببعض . وكان من المتوخى لمطالب الباى من المقيمية أن تنكمش إلى الحد الأدنى ، ولكن القيام بذلك لم يكن أمراً صعباً ؛ لأن الباى ذاته لم يكن يرغب فى التقدم بمطالب بعيدة المدى فى ظل الوضع العسكرى القائم[١]. وكان الألمان يرغبون فى أن يوجهوا نشاط الشباب الوطنى المتحمس وغضبه ضد الحلفاء . وحين أشاروا إلى احتمال قيام النشاط الوطنى ، نجدهم يعمقون فى الوقت نفسه النضال القديم بين القصر ، الذى ادعى أنه الناطق الوحيد باسم الأمة ، وبين حزب الدستور الجديد الذى أحرز شعبية واسعة النطاق ، لأنه بوجه خاص قام بنشاطه السياسى مستقلا عن قصر الباى . وبهذا الأسلوب كان الألمان يأملون أن يبدوا عطفهم على العرب ، لأنهم كانوا حريصين على مساندة الجماهير للمجهود الحربى — بل إنهم حاولوا استغلال سخط الناس على صمت الحبيب بورقيبة وغيابه عن تونس لخدمة مصالحهم الخاصة . وملخص الأمر أن الألمان حاولوا خلق موقف تشعر فيه كل مجموعة من السكان بضغط المجموعات الأخرى بحيث تسعى كل مجموعة إلى الحصول على مساندة سلطات الاحتلال .

انتعاش الحركة الوطنية

وهكذا كانت استراتيجية الألمان تقوم على استغلال القومية العربية فى النضال ضد العدو ، وأن يقوموا فى الوقت نفسه بترك الإدارة الفرنسية فى الحكم بصفتها مساندة لنظام الحكم الألمانى ، وقائمة مقام الحماية الإيطالية المتوخى فرضها فى المستقبل — وبرغم ذلك فقد انتعشت الحركة الوطنية . فقد ضعفت الإدارة الفرنسية ، وكان على المحور أن يعمل حساب الحالة النفسية السائدة فى البلدان

---

(١) انظر على سبيل المثال : Barbour, : A Survey of North Africa, p. 301.
وقد استغل الألمان ذلك الظرف — فحين وجدوا أن الباى يشتط فى مطالبه ، ذهبوا إلى أن إلغاء المحور للحماية الفرنسية قد يؤدى إلى إعلان الحلفاء الحرب وضربهم مقر الباى (ران إلى وزارة الخارجية الألمانية — ٢٣ يناير ١٩٤٣) .

العربية ، وبخاصة فى الجزائر ومراكش . وقد أدى هذا إلى تمكين الوطنيين التونسيين من القيام بإضرابات واسعة النطاق لتوسيع صلاحيات الباى وإقامة حكومة تونسية تتألف من أشخاص يمثلون العرب . وفى أواخر عام ١٩٤٢ قرر الباى إقالة ثلاثة وزراء وإحلال ثلاثة آخرين محلهم . وكان من المتوخى أن يمثل الثلاثة الجدد التشكيلات السياسية الكبرى فى تونس . وسرعان ما ظهر الرشحون الآتية أسماؤهم : رئيس الوزراء محمد شنك — وهو من أثرياء كبار ملاك الأراضى ورئيس الغرفة التجارية فى شمالى إفريقيا وزعيم حزب الدستور القديم ، وزير العدل : صالح فرحات ، وهو محام وأحد كبار زعماء حزب الدستور القديم ، وزير الشئون الداخلية : دكتور مطيرى ، وهو طبيب كان من مؤسسى حزب الدستور الجديد وأول زعيم له ، وقد استقال فى عام ١٩٣٨ بسبب اختلافه مع السكرتير العام للحزب : الحبيب بورقيبة . وبعد أن أعيد تشكيل الوزارة طالب الباى بأن تخلع السلطات الحقيقية على وزير الداخلية الجديد وذلك بأن يتولى الإدارة المحلية والبوليس والشئون الصحية . ووافق الأميرال إستيفا على إعادة تشكيل الوزارة ، كما وافق على طلب الباى الخاص بالإدارة المحلية والشئون الصحية . ولكنه رفض — بمساندة المحور — الطلب الخاص بتفويض الأمن العام للدكتور مطيرى . وفى أواخر يناير عهد الباى إلى وزيره بإدارة الأوقاف ، دون أن يوافق على ذلك موظفو المحور . وحتى ذلك الوقت كانت المؤسسات الإسلامية فى يد لجنة تضم موظفاً فرنسياً .

ولم تؤد هذه الإجراءات التى تمت من أعلى إلى تعديل كبير فى التوازن الحقيقى للقوى فى البلاد — فقد ظل المحور يبدو بوجه عام بمظهر المدافع عن الأوضاع القائمة . وبرغم ذلك فإنها أثارت رد فعل واسع النطاق لدى السكان العرب . ومنذ الوقت الذى اختار فيه الباى قليلاً من الزعماء الوطنيين ليعينهم وزراء ، كتب قائد بوليس الميدان الألمانى فى صفاقس إلى الميجر سويبرت Seubert — أحد رجال وزارة الدفاع الألمانية — يخبره بأن الحركة انتعشت فى صفاقس والمناطق المجاورة لها : فقد أعاد حزب الدستور الجديد تنظيم نفسه وفتح أندية وبدأت عملية ضم أعضاء للحزب ، وجاب الشبان المتحمسون القرى لضم أعضاء جدد ، وعقدت عدة اجتماعات سمح للجماهير بحضور بعضها .. وارتدى قادة الحركة ومندوبوهم شعارات حمراء على أذرعهم ووضعوا على أكمامهم هلالا أحمر أو

أزرق أوشعارات حمراء . وقد تدخلوا فى كل نواحى الشئون الإدارية ، وبخاصة مسائل مؤن الطعام ، ولم يخفوا كرههم للسلطات التى كانوا يرغبون فى أن يباشروا عليها إشرافهم وأن يمنعوا الظلم المزعوم . وكانت إجراءات تدخلهم ومظاهراتهم السياسية تتضمن إقلاقاً للأمن العام . وفى بعض الأحيان رفض العزب أن يبيعوا الطعام للفرنسيين . ومن الواضح أن البوليس الحربى الألمانى لم يبد سروره للنشاط الوطنى .

ولم يكن الصدام الذى نشب بين السكان العزب وبين البوليس الفرنسى فى قصور الصف فى ٢٠ – ٢٣ مارس ١٩٤٢ أمراً عرضياً – وكذلك الحال بالنسبة إلى سلوك الألمان والإيطاليين . قد ساند الألمان – وبخاصة قوات العاصفة – الفرنسيين ، على حين دافع الإيطاليون عن مثيرى الاضطرابات بقصد ضعضعة سلطة البوليس الفرنسى والموظفين الفرنسيين . بل لقد وصل الأمر أحياناً إلى حد نشوب مصادمات مباشرة بين العرب والسلطات الألمانية ، ومن ذلك أن الموظفين العرب أضربوا فى أحد المطارات ، ربما من قبيل الاحتجاج على المعاملة الخشنة التى كان يعاملهم بها العسكريون .

المحور وبلاط الباى

حاول الألمان – الذين كانوا مهتمين بإحراز عطف ، أو على الأقل حياد ، العرب الودى ، وبحسن سير الإدارة الفرنسية – أن يتجنبوا التدخل الصريح فى مسائل الجدل الدستورى . فقد كان من شأن التدخل الصريح أن يؤدى إلى فشل لعبتهم السياسية الحساسة ، وأن يؤكد الشكوك الفرنسية والعربية الخاصة بربط الوعود الألمانية بإيطاليا فيما يتعلق بمسألة تونس[1]. ولهذا فحين حاول الباى فى أواخر فبراير أن يفرض تعيين أربعة وزراء إضافيين من العرب ، أصبح الألمان فى موقف حرج – إذ أن الباى كان فى طلبه هذا يعول على مساندة ألمانيا . وقد حاول زعماء حزب

(١) تلك هى الطريقة التى برر بها ران معارضته للطلب الخاص بأن على ألمانيا و إيطاليا أن توافقا على كل تغيير فى الإدارة والتنظيم التونسيين (ران إلى وزارة الخارجية الألمانية ، فى ٢ فبراير ١٩٤٣ – ١٢٧٦ / ٣٤٣٢٣٥ – ٧) .

الدستور الجديد والأميرال إستيفا أن يدفعوا الألمان إلى اتخاذ موقف رسمي إزاء هذه المسألة. وكان موقف الألمان من الأخير مخالفاً لموقفهم من الأول. وقد بلغ مولها وزن المقيم العام بصفة غير رسمية رفض المحور لمطالب العرب، كما رفضها إستيفا فتراجع الباى.

ووجد الباى نفسه فى مركز حرج. فهو فى رغبته فى توسيع سلطته والإبقاء على أهم رجل فى تونس العربية، كان عليه أن يضع فى عين الاعتبار كل الأخطار التى كان يتضمنها وضع العرب — ومن أكبر الأخطار ادعاءات إيطاليا والتغييرات التى كان بالإمكان أن تفرضها لمصلحتها. وقد أرغم نشاط إيطاليا السياسى الباى على اللجوء إلى مساندة المقيمية الفرنسية لدرجة ما. وكان هذا هو الموقف حين وصل المبعوث بومبيرى Bombieri إلى تونس فى ١٧ فبراير ١٩٤٣ — بصفته ممثلا لوزارة الخارجية الإيطالية — وكان ممثل إيطاليا السابق — القنصل العام سابيانى — قد أعفى من منصبه. ولم يكن بومبيرى غريباً على تونس: فقد كان قنصلا عاماً هناك خلال الثلاثينات حين حاول أن يمهد الطريق أمام التوسع الإيطالى. ولهذا فإن وصوله أثار مخاوف الدوائر العربية ورأى الباى، فى ظل هذه الظروف، أن من المستحسن تقوية مركزه. ولهذا فى المحادثة التى جرت بين الباى وإستيفا فى ٢٠ فبراير، برر مطالبه بأن الإيطاليين قد يواجهونه بأمر واقع — ولهذا يستحسن أن توضع الإدارة فى أيدى موظفين تونسيين مسئولين.

ومن الواضح أن الأميرال لم يبد ارتياحه لوجهة النظر هذه، على اعتبار أنها قامت على افتراض وضع حد للحكم الفرنسى على أى حال. ولكن الباى أكد للإيطاليين إخلاصه لمعاهدة الحماية الفرنسية. وحين زار بومبيرى الباى فى ٧ مارس — دون وساطة من المقيمية الفرنسية وفق مانصت عليه المعاهدة — أكد الباى إخلاصه للمعاهدة.

وفى الواقع أن حاشية الباى لم تكن مجمعة على الموافقة على وجهة نظره — فوفقاً لتقارير ران وشهادة الأميرال إستيفا أمام محكمة ليون، كان ابن الباى — الأمير رؤوف (المتزوج من سيدة إيطالية) — شديد العطف على المحور، وكان يسعى إلى الانضمام إلى الجيش الألمانى. كما أن الباى لم يقم إلا بمحاولات ضعيفة لتقوية سلطته — على أمل أن يتجنب إصدار تصريح واضح للمحور، فى الوقت الذى يحول فيه دون تحسن وضع إيطاليا. ولاشك أن الباى، منذ الوقت

الذى اعتلى فيه العرش (يونية ١٩٤٢) ، سار على سنن والده محمد الناصر باك ذى الميول الوطنية ، كما ساند المطالب الوطنية . ويبدو أن هذا هو السبب الذى جعل الجنرال جيرو يخلع المنصف باك حين احتل الحلفاء تونس . وكانت تهمة التعاون التى وجهت إلى الباى فى ذلك الوقت لاتعدو أن تكون تهمة تكتيكية . حقيقة أنه لم يفكر فى مقاومة المحور ، إلا أن البلاط لم يكن يشكل المركز الرئيسى للتعاون فى تونس .

عودة بورقيبة

أوضحت الحادثة التالية موقف النازيين الممعن فى التناقض والقائم على محاولة الإبقاء على عطف العرب مع تجنب مساندة مطالبهم الوطنية ، والعمل فى الواقع على إبقاء الإدارة الفرنسية . فحين وصل الاضطراب الوطنى قمته فى أواخر يناير ١٩٤٣ : عارض ران عودة بورقيبة إلى تونس ، خشية حدوث ارتباكات داخلية . وقد حدث هذا فى الوقت الذى كانت إيطاليا تفكر فيه — بالشكل الذى سبق أن عرضنا له — فى عودة زعماء حزب الدستور الجديد إلى تونس . ولم تبد وزارة الخارجية الألمانية ارتياحها لهذا الموقف المتطرف الذى وقفه الدكتور ران ، إذ يحتمل أنها كانت تنظر إلى مسألة بورقيبة على ضوء العلاقات الشاملة بين الريخ والزعماء العرب .

واستدعى ران إلى برلين . وكانت دوائر إيطالية معينة تود اعتقال بورقيبة فى إيطاليا لإرغامه على الموافقة على رغبات المحور مستفيدة فى ذلك من وجهة نظر ران .

ولم يترتب على هذا سوى تأخير عودة زعماء حزب الدستور الجديد . وفى نهاية فبراير وافقت روما وبرلين من حيث المبدأ على وجوب عودتهم ، وتوجه ران إلى روما لإعداد المسألة . ولم تنفذ على الإطلاق خطة إرسال المفتى مع بورقيبة ، وهى الخطة التى كان لها مغزى سياسى معين من الزاوية القومية — فلم يعد الألمان يتوقعون الكثير من زعماء حزب الدستور الجديد ، لأن طول غياب بورقيبة وصمته كانا بليغين جداً . وفى ظل هذه الظروف كان وجوب عودة

زعماء حزب الدستور الجديد إلى تونس مع المنفى على جانب كبير من الأهمية ، خاصة وأنه كان من المتوخى أن يؤدى دون شك إلى حملة دعائية كبيرة — وهذا بالتالى كان كفيلاً بتوجيه هجوم شديد إلى الإدارة الفرنسية وتهديد الأمن العام ، وهو ما كان الألمان شديدى الحرص على تجنبه . وقد صرح مولهاوزن للكولونيل سيمن — أحد رجل المخابرات الإيطالية — بأن عودة بورقيبة لم تكن ضرورية إلا لكى يضمن المحور على الأقل عطفاً معتدلا من جانب السكان العرب — إذ من شأن ذلك أن يؤدى إلى مساعدة العرب القيمة من الناحية الاقتصادية وزيادة عدد العمال والمتطوعين العرب فى الوحدات المحورية .

وفى ٢٦ فبراير أحضرت طائرة إيطالية إلى تونس ستة من زعماء حزب الدستور الجديد : على البهلوان ومنجى سليم وسليمان بن سليمان ومحمود بورقيبة (أخا الحبيب) وبشير بن يوسف ومحمد مزيغ . وبعد ذلك بوقت قليل عاد أحد كبار زعماء حزب الدستور الجديد : صالح بن يوسف الذى أصبح فيما بعد خصماً لبورقيبة . وقد عاد الحبيب ذاته فى ٩ أبريل بعد أن أذاع من راديو روما فى ٦ أبريل خطبة غير خطيرة . وفى أواخر مارس تم نقل أعضاء آخرين فى حزب الدستور الجديد من جنوبى فرنسا إلى إيطاليا ، وكانوا قد أقاموا فى جنوبى فرنسا بعد إطلاق سراحهم باعتبارهم أشخاصاً عاديين . وحين تم طرد قوات المحور من تونس أعلن حزب الدستور الجديد — بإيعاز من بورقيبة — انضمامه إلى الحلفاء . وحينئذ لم يتهمهم الحكام الفرنسيون بالتعاون »

الجنود العرب فى القوات المسلحة الألمانية

وهناك جانب هام من السياسة الألمانية فى تونس ، هو استخدام العرب فى العمليات الحربية . ولكن الألمان لم يستطيعوا القيام بالكثير بهذا الصدد بسبب القرار الخاص بترك « المبادرة الخاصة بمسألة الثورات العربية » للإيطاليين . على أن هذا لم يمنع إعداد مهام أكثر تواضعاً ، وبخاصة فى نطاق وزارة الدفاع الألمانية .

وبعد مضى وقت طويل على إقامة رأس الجسر التونسى أرسل إلى هناك ٦٠٠ رجل من وحدة كونن Koenen التابعة لفرقة براندنبورج للمهام الخاصة التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية . وكان هؤلاء الرجال « مدربين وعلى استعداد لتنفيذ كل المهام العسكرية الخاصة الواقعة فى دائرة نشاط وزارة الدفاع الألمانية – تخريب خطوط تموين العدو ومؤخرته – » . وأرسلت وحدة خاصة من الوحدات التابعة لوزارة الدفاع إلى تونس لتوجيه الأعمال التخريبية وتحطيم روح العدو المعنوية . كما نفذت عمليات فى مؤخرة الحلفاء من قواعد فى شمال إفريقيا الإسبانى . وقد ساهم فى هذه العمليات أعضاء عرب فى الوحدات النظامية الألمانية أو عرب محليون – ولكن لم يوجد الكثيرون منهم .

وكان الألمان يهدفون إلى تشكيل وحدات نظامية عربية مهمتها القتال فى شمال إفريقيا – وكان بإمكان هذه الوحدات أن تلعب دوراً سياسيًّا ودعائيًّا هامًّا – وكان بإمكان مثل هذه الوحدات أن تجعل استخدام الحلفاء وحدات وطنية أمراً صعباً – وكانت هذه الوحدات تشكل قدراً كبيراً من القوات الفرنسية التى كانت تحارب تحت قيادة أيزنهاور . كما كان بإمكان مثل هذه التشكيلات العربية أن تثير رد فعل واسع النطاق بين العرب فى مؤخرة الحلفاء فى الجزائر ومراكش . .

ومن الناحية الفنية كان يمكن تشكيل وحدات من هذا النوع – وكان بإمكان وحدة الاتصال الألمانية – العربية التى كانت حين وقع الغزو الإنجليزى الأمريكى لإفريقيا معسكرة على الجبهة السوفييتية باعتبارها جزءاً من قوات القيادة رقم ٦٨ للمهام الخاصة – أن تقدم مساعدتها بهذا الصدد . وقد تقرر انتقال وحدة الاتصال الألمانية – العربية إلى تونس لكى تشكل نواة لتجنيد المتطوعين العرب – ولكن أدى استخدامها كأداة لسياسة الريخ العربية إلى إثارة مخاوف خطيرة من جانب الإيطاليين .

وكان الإيطاليون مهتمين بتبين ما إذا كانت وحدة الاتصال الألمانية – العربية سترسل بوجه عام إلى تونس ، وفى هذه الحالة ما إذا كانت ستعمل باعتبارها وحدة عربية منفصلة أو جزءاً من الجيش الألمانى . كما تساءلوا عما إذا كانت

الحكومة الألمانية تهدف إلى إعلان اشتراك الوحدات العربية فى الحرب التونسية ، وعما إذا كانت ستستغل ذلك فى الدعاية . ومن الواضح أن فصل الوحدات العربية وإعلان اشتراكها فى القتال إلى جانب قوات المحور على نطاق واسع ، كان من شأنه أن يكون أكثر فاعلية من وجهة النظر الألمانية . وفى الواقع أن الألمان كانوا يريدون قبل كل شيء أن يستغلوا ذلك فى دعايتهم ، وقد وضعوا خطة لإعداد اجتماع يجمع بين المفتى ورشيد عالى ووحدة الاتصال الألمانية — العربية فى طريقهم إلى الجبهة التونسية . وكان من المفروض أن يتم هذا الاجتماع فى فينا ، وكان الزعيمان العربيان يهدفان بهذه المناسبة إلى توجيه بيان إلى عرب المغرب .

وفى هذه المناسبة أيضاً كان على الألمان أن يتخلوا عن خطتهم بسبب حليفتهم إيطاليا. فقد اتضح لروما أن وحدة الاتصال الألمانية — العربية ستعمل فى تونس باعتبارها جزءاً من الجيش الألمانى وأنها ستدخل هناك دون ضجة .

كما نوقشت فى روما فى ٢ يناير ١٩٤٣ تفاصيل نقل وحدة الاتصال الألمانية — العربية . واشترك فى المناقشات موظفون فى وزارتى خارجية الدولتين بالإضافة إلى الملحق العسكرى الألمانى فى روما والجنرال أمية عن القيادة العليا الإيطالية . وتم الاتفاق على أن تنتقل وحدة الاتصال الألمانية — العربية بالطائرات خلال ثلاثة أسابيع . ووضعت خطة خاصة ببدء حملة تجنيد بين العرب التونسيين على أثر وصول وحدة الاتصال الألمانية — العربية .

تجنيد العرب فى تونس

بعد أسبوع أصدرت القيادة العامة للجيش المدرع الألمانى الخامس أمراً بشأن التحاق عرب تونس بالخدمة العسكرية . وطبقاً لهذه الوثيقة نجد أن القيادة الألمانية كانت تريد استخدام العرب على نطاق واسع فى الحرب . ولهذا اقترحت أن تتضمن خطة عملها كل العرب الصالحين إما للقتال أو للعمل. وكان من المتوخى أن يستخدم الراغبون فى العمل فى بناء الاستحكامات . أما الراغبون فى الانضمام إلى القوات المحاربة فكان يجب على القيادات — بما فيها معسكرات المسجونين — أن

تخصصهم « لنقط تجمع خاصة بالجنود العرب » وهناك كان من المفروض أن تعنى بهم فصيلة من فرقة براندنبورج وأن يدربوا فى قاعة الحمامات . وكان من المتوخى أن يرتدوا سترات فرنسية تم الاستيلاء عليها ، وأن يحملوا على أذرعهم شارات تحمل شعار (فى خدمة الجيش الألمانى Im Dienste der Deutschen Wehrmacht) . وكان القصد من ذلك تمييزهم عن جنود وحدة الاتصال الألمانية — العربية الذين كانوا يرتدون حللا ألمانية ويضعون شعار (بلاد العرب الحرة Frei Arabien) . وكان من المتوخى أن يقبض الجنود ١٠ فرنكات يومياً وصف الضباط ١٥ فرنكاً والضابط ٢٠ فرنكاً . وقد بدأ التجنيد فى ١٠ يناير ١٩٤٣ ونقل إلى هذه الوحدات العربية فى ١٣ فبراير ١٣٢ ضابطاً وصف ضابط وجندى ، وكانت البعثة العسكرية الفرنسية قد جندتهم حين حاولت إعداد طابور إفريقى .

وتطوع قليل من العرب للعمل فى الوحدات المقاتلة . وكان الألمان يعولون فى البداية على ٦٠٠ رجل . ولقد لعبت هيئة الاتصال الألمانية — العربية والوحدات العربية الأخرى دوراً صغيراً فى الجبهة ، ولم يكن الألمان راضين عن روحها المعنوية . وحين قتل الكولونل ماير — ركس الذى كان خبيراً بقيادة هذه الوحدات ، تقرر فى الجبهة سحبهم من شمالى إفريقيا .

آمال الألمان فى تونس

لايمكننا أن نتجنب الانطباع الخاص بأن واضعى القرارات الألمانية فى تونس (على الأقل فى نوفبر / ديسمبر ١٩٤٢ وجزء من يناير ١٩٤٣ حين تم تقرير الخطط) لم تكن لديهم فكرة عن مدى اقتراب المحور من الكارثة فى شمالى إفريقيا — أو أنهم على الأقل قد تصرفوا كما لو لم تكن لديهم فكرة — ومن هنا عبر هتلر : فى مؤتمر عقده مع القيادة العسكرية فى أوائل يناير ١٩٤٣ ، عن اقتناعه بأن دولتى المحور لن تحافظا فقط على مواقعهما على رأس الجسر التونسى ، بل إنهما

ستقومان بهجوم مضاد صوب الغرب – أى صوب الجزائر ومراكش . وقد كتب الأميرال أسمان Assmann ، ملفتاً النظر إلى وضع هتلر ، ما يلى : « بعد أن قال من شأن قوات الأعداء ، تمسك أحياناً بالزعم الخاص بأنه سيكون باستطاعته أن يطرد العدو من الأراضى الإفريقية » . وقد اتهم روميل كسلرنج بالإسراف فى التفاؤل بصدد تقدير فرص المحور فى شمالى إفريقيا[1] .

ولم تقف المسألة عند حد الآمال والآراء . فبعد إقامة رأس الجسر التونسى ، تم حشد قوات ألمانية وإيطالية كبيرة هناك ، كانت تزود بانتظام بآخر الأسلحة . ولهذا تم نقل الرجال والعتاد بالطائرات على مدى واسع . ولقد أكد روميل الجهد الضخم الذى بذل لتموين قوات المحور فى تونس ، وذهب إلى أن تموين القوات كان يفوق بكثير ماتم خلال المعارك التى اشترك فيها فيلق إفريقيا فى الصحراء الغربية . ومما يوضح مدى ما كان يعلقه الزعماء الألمان من آمال على الجبهة التونسية أن القوات والعتاد كان يتم نقلها بالطائرات فى الوقت الذى كانت تبذل فيه الجهود لتموين قوات فون باولوس – المحاصرة فى ستالينجراد – عن طريق الجو . ويجب أن نلاحظ أن قوات المحور فى تونس كانت بحلول أواسط أبريل لا تزال تعزز ، وأن قرار الانسحاب قد اتخذ فى وقت متأخر جداً . وعلى أى حال فقد اتضحت فى ذلك الوقت استحالة إجلاء الأغلبية العظمى من الجنود . وفى ظل هذه الظروف جرت الاستعدادات لإجلاء البعثتين العسكريتين الألمانية والإيطالية – طبقاً لتعليمات ريبنتروب – فى سرية بالنسبة إلى عامة الجنود[2] الذين كان من المتوخى أن يتركوا لمصيرهم .

---

(١) Rommel: Krieg ohne Hass, p. 372

انظر أيضا ملحوظات روميل عن محادثته مع هتلر فى ١٠ مارس ١٩٤٣ (نفس الصفحة). ويذهب كسلرنج فى كتابه إلى أن الحرب الأفريقية كان من الممكن أن تستمر وقتاً أطول بكثير :

Kesselring: Gedanken Zum Zweiten Weltkrieg, p. 99.

(٢) ريبنتروب إلى هنكه Hencke سوندرزوج فى ٣ مايو ١٩٤٣ – ٣٠٢٩٨٩/٩٧٥ – ٩٠ . حل هنكه محل فورمان فى وزارة الخارجية الألمانية .

العمليات الحربية

ما لبث عامل المفاجأة – الذى أدى إلى حد كبير إلى نجاح نزول القوات الإنجليزية – الأمريكية فى شمالى إفريقيا[1]– أن انتهى . فحين هاجم جيش الحلفاء تونس من الجزائر كانت قوات المحور هناك بالفعل . ففى نهاية نوفمبر كان يوجد فى تونس من هذه القوات ١٥٠٠٠ جندى إلى جانب التفوق الجوى . وفى البداية قرر الحلفاء شن هجوم مباشر على تونس وبنزرت . وبعد بعض الإجراءات التمهيدية بدأ الهجوم باتجاه الشاطئ فى ٢٥ نوفمبر ١٩٤٢ . وفى خلال أيام قليلة وصلت القوات البريطانية والفرنسية والأمريكية إلى ما يقرب من ١٢ كيلو متر من تونس بعد أن احتلت ماطر وجديدة وطابورية . وبحلول ٢٧ نوفمبر كان هجوم الحلفاء قد تم إيقافه بعد الهجوم المضاد الذى شنته القوات البرية الألمانية تساندها قوات من الجو . وفى ٤ ديسمبر أوقف هجوم المحور المضاد بدوره .

حينئذ غيرت قيادة الحلفاء تكتيكاتها وحاولت الاستيلاء على تونس بالقيام بعملية التفاف من الجنوب والسيطرة على المرتفعات التى كانت تحمى مدخل السهل الساحلى . وقد تمخض القتال الذى نشب فى ديسمبر عن سيطرة الحلفاء على معظم الممرات الجبلية الهامة . وما حلت أواسط يناير ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء قد تغلغلوا فى الأراضى التونسية ، وأصبحوا يشغلون جبهة على شكل قوس منبعج فى اتجاه شرقى ؛ يرتكز فى الشمال على الساحل عند تامره (حوالى ٦٠ كيلو متر إلى الغرب من بنزرت) وفى الجنوب على طريق جفصه – قابس وعلى جناحه الأيمن بحيرة شط الجريد ؛ على أن الحلفاء كانوا عاجزين عن الاستيلاء على أى هدف

---

(١) يذكر كافاليرو Cavallero (فى كتابه Commando Supremo ص ٣٧١ – ٧) أنه قد تم فى ٦ نوفمبر ١٩٤٢ سماع مكالمة تليفونية جرت بين جورنج وكسلرنج يتضح منها أن الألمان لم يكونوا على يقين من المكان الذى سينزل فيه الحلفاء .

استراتيجي هام فى تونس . هذا إلى أن قوات الفيلد مرشال روميل كانت تقترب من ناحية الشرق بعد أن تراجعت أمام ضغط الجيش الثامن الذى كان يقوده مونتجومرى . وهكذا واجه الحلفاء خطر انضمام قوات الجنرال أرنيم إلى قوات روميل فى تونس .

وفى ١٩ يناير هاجمت قوات الجنرال أرنيم — التى كانت تضم وحدات مصفحة قوية — الحلفاء فى تونس فى اتجاه جنوبى وجنوبى شرقى . وبرغم المقاومة القوية التى أبدتها قوات الحلفاء ، فإنها زحزحت عن كثير من المواقع التى استولت عليها على قمم الجبال . وفى نفس الوقت نزلت ثلاث فرق ألمانية — إحداها مصفحة — فى صفاقس ، برغم الغارات الجوية القوية التى شنها الحلفاء . واحتل روميل مواقع محصنة على خط مارث الذى كان يمتد بين البحر وبين هضبة متماتا . وكان هذا الخط يتولى الدفاع عن مدخل تونس من الجنوب والشرق — وكان الفرنسيون قد بنوه لمواجهة احتمال شن هجوم إيطالى من ليبيا . وبعد أن احتلت قوات روميل هذا الخط ، أصبح يحمى تونس من الجيش الثامن . وكان من المتوقع حينئذ أن يسمح هذا الموقع الحصين بتعاون روميل فى الجنوب مع أرنيم فى الشمال ضد قوات الحلفاء التى كانت تضغط من ناحية الغرب .

وفى ٣١ يناير شنت قوات روميل هجوماً على موقع الحلفاء فى ممر فايد الذى كانت تحتله قوات أمريكية لاخبرة لها بالقتال . وبعد أن عزز روميل مراكزه فى هذا الممر ، قام فى ١٤ فبراير بشن هجوم واسع النطاق على الوحدات الأمريكية المدرعة . وفى نفس الوقت شن فون أرنيم هجوماً القصد منه عرقلة قوات الحلفاء ، وسجل بعض المكاسب المحلية . وقد أحرز هجوم روميل للمحور مكاسب هامة (وإن تكن وقتية) — إذ تم دفع قوات الحلفاء بعيداً إلى الخلف فى اتجاه الغرب خارج حدود الجزائر وفى الشمال إلى مدينتى تالا وسبيبه ، ولم يوقف العدو إلا الهجوم البريطانى المضاد الذى جرى فى ٢١—٢٣ فبراير . وتمخضت هذه العمليات عن توسيع رأس جسر الذى أقامه المحور فى تونس إلى حد كبير ، ولم يبق فى أيدى الحلفاء سوى الجزء الشمالى الغربى من البلاد .

وشن روميل هجوماً جديداً فى ٦ مارس ، كان هذه المرة ضد خصمه

القديم الجنرال مونتجومرى . وقد منى المحور بهزيمة نكراء من جراء هذا الهجوم، وخسر فيه جزءاً كبيراً من دباباته — وماحلت أواسط مارس حتى بدأ هجوم الحلفاء . وإلى جانب قيام قوات مونتجومرى بهجوم مباشر على خط مارث ، فإن جزءاً منها نفذ عملية تطويق هضبة مهاتا من الجنوب والغرب؛على حين شن الأمريكان بالاشتراك مع الجيش الثامن ، هجوماً فى اتجاه جفصة ومكناس . وكللت المرحلة الأولى من هجوم الحلفاء بالنجاح فى ٢٨ مارس : فقد تم اختراق خط مارث ودخلت القوات البريطانية المدينة الساحلية قابس ، واستعاد الأمريكان المواقع التى كانوا يحتلونها قبل الهجوم الذى شنه روميل فى فبراير ، بل عززوها إلى حدّ ما .

وأحرز الحلفاء فى المرحلة التالية من الهجوم (٨ — ١٠ أبريل) مزيداً من الانتصارات . وفى خلال هذه المرحلة انضمت وحدات أمريكية وبريطانية وفرنسية تابعة لقيادة الجنرال أيزنهاور إلى الجيش الثامن. وفى الأسبوع الأخير من فبراير أصبح الجنرال البريطانى ألكسندر قائداً على كل الجبهة، على حين كان روميل فى أوربا منذ ١٠ مارس، وتولى الجنرال فون أرنيم قيادة كل قوات المحور فى تونس . واخترق الجيش الثامن المواقع الحصينة الواقعة بين بحيرة الشط والبحر(وهو ما سمى بخط عكاره) واستولى على صفاقس . وفى الغرب اتصل الجيش الثامن بالقوات الأمريكية المهاجمة فى اتجاه جفصة وقابس ، وفى نفس الوقت حسنت القوات الفرنسية والبريطانية العاملة فى القطاعين الأوسط والشمالى من الجبهة مواقعها فى المنطقة الجبلية التى سرعان ما أصبحت قاعدة للمرحلة الثالثة من الهجوم .

وفى خلال هذه المرحلة (١٠ — ٢٠ أبريل) تم الهجوم على كل القطاعات بحيث حصرت قوات المحور فى منطقة صغيرة تقع حول تونس وبنزرت .

الأيام الأخيرة من الاحتلال المحورى

وفى ظل هذه الظروف كان من المحتم أن تحتل المشاكل السياسية الكبرى دوراً ثانوياً . فلم يقم القوميون بأى خطوات سياسية ، برغم أنهم عززوا قوتهم إلى حد كبير قبيل المرحلة الأخيرة من هجوم الحلفاء ، وذلك حين عاد بورقيبة وبقية زعماء حزب الدستور الجديد . حينئذ كانت مصلحة كل القوى السياسية تقتضى التزام الهدوء ، سواء فى ذلك حزب الدستور الجديد والبلاط وممثلو المحور والإدارة الفرنسية . ووفقاً لاقتراح المقيم أنعم الباى فى ٨ أبريل على عدد من العسكريين والممثلين الدبلوماسيين الألمان والإيطاليين برتب تونسية عالية[1] . وقد سبق أن ذكرنا أنه أنعم بالنياشين على كتيبة متطوعين فرنسيين قوامها ٢٢٠ رجلاً ، بارحت الجبهة فى أوائل أبريل .

وحتى فى ظل هذا الموقف جرت أحداث يستشف منها التنافس السياسى والشك المتبادل بين ألمانيا وإيطاليا . فعلى سبيل المثال كانت الحكومة الإيطالية شديدة القلق نتيجة لخطة إعلان الباى ملكاً على تونس (أواسط أبريل) وإعلان نجله الأمير رءوف ولياً للعهد . ووفقاً للتقرير الذى بعثه الوزير المفوض إلى روما — بومبيرى — كان يعتقد أن ران هو الذى وضع ذلك التقرير . ومن الواضح أن الإيطاليين كانوا يخشون رغبة ألمانيا فى إبداء كرمها للعرب ، طالما أنها كانت لاتخشى فقدان أى شىء فى المرحلة الأخيرة من معركة تونس . على أن هذه المخاوف لم تكن تستند إلى أساس — إذ كانت مبنية على ملحوظات أبداها ران فى دعابة له مع بومبيرى فى أثناء المحادثات التى جرت بينهما . وكما كان الحال فى الماضى ، نجد الألمان مهتمين قبل كل شىء بالتعاون مع الإدارة الفرنسية للمحافظة على النظام الداخلى ، لأن هجوم الحلفاء كان يتطلب من الريخ إمكانيات متزايدة . وقام ران فى ١٢ أبريل — بالاتفاق مع فون أرنيم — بتعبئة

---

(١) يشير ران (ص٢١٦) إلى الإنعام على الألمان وحدهم بميداليات . وهو يعتبر هذا الإجراء « خطوة تلقائية لم يعلها أى اعتبار عملى » من جانب الباى .

السكان للعمل الإجبارى فى التحصينات . وقد عمل الجنود الألمان الذين لم يكونوا فى الجبهة مع الفرنسيين الذين تمت تعبئتهم . وبعد أن تأكد الألمان من أن إجراءات التعبئة لم تجد قبولا من الناس ، اعتمدوا — فى هذه الحالة أيضاً — على سلطة الأميرال إستيفا وأفادوا من مساعدة أنصار التعاون[1] .

وفى أول إبريل ١٩٤٣ قررت السلطات الألمانية وجوب إجلاء كل الفرنسيين الذين خدموا الحلفاء إلى فرنسا وكتب ران إلى رؤسائه فى ١٧ أبريل أن أغلبية الفرنسيين والعرب الذين كان يمكن اتهامهم بالتعاون بارحوا تونس بالفعل ، وكان الألمان مهتمين قبل كل شيء بإبعاد الأميرال إستيفا — المقيم العام — عن تونس ، إذ لم يكونوا يودون أن يقع فى أيدى الحلفاء — وكانوا يخشون أن يبدأ هذا الممثل الوحيد لفيشى فى شمال إفريقيا — الذى بقى حتى النهاية مخلصاً لبتان — لعبة مختلفة تماماً بعد انتصار الحلفاء .

وفى ٢٢ أبريل بدأت المرحلة النهائية من هجوم الحلفاء . فى ٣ مايو استولى الأمريكان على بنزرت ، وفى ٧ مايو دخل الإنجليز تونس واستولى الفرنسيون على قنطرة الفحص ، وهى نقطة استراتيجية دارت بسببها معارك عنيفة فى أثناء الحرب التونسية . وفى ذلك اليوم تم ترحيل إستيفا عن تونس بالقوة . وانتقل ران إلى مركز قيادة الجنرال أرنيم ، وفى ١١ مايو بارح ران تونس ، وأسر فون أرنيم . وكان يجب نقل الباى بسرعة إلى إيطاليا . وفى ١٣ مايو استسلمت آخر وحدات المحور ، وأسر الحلفاء ربع مليون جندى نصفهم من الألمان . وهكذا انتهت مرحلة هامة من مراحل الحرب العالمية الثانية ، وتمهد السبيل لغزو إيطاليا .

وبينما الحرب تحتدم فى تونس طوق الجيش السوفييتى جيش الفيلد مرشال فون باولوس وقضى عليه (٢ فبراير ١٩٤٣) على نهر الفولجا ، وبذلك تلقى الجيش الألمانى ضربة لم يفق منها أبداً . وبحلول صيف ١٩٤٣ انتقلت المبادرة من الألمان إلى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا التى واصلت ضغطها فى طريق النصر .

---

(١) كان ران يرى وجوب إطلاق سراح أسرى الحرب أقرباء المتعاونين وذلك فى مقابل تلك الخدمات ، أو أن يسمح لهم بأن يصبحوا عمالا « أحراراً » .

خاتمة

البلاد العربية والمنفيون فى عام ١٩٤٣

أدت الهزيمة فى تونس إلى تعديل وضع ألمانيا فى العالم العربى تعديلا تاماً . وحينئذ لم يبق بلد عربى واحد داخل منطقة نفوذ الألمان أو حلفائهم أو الدائرين فى فلكهم . فقد أدت قوة التحالف المعادى للفاشية إلى القضاء على احتمال بقاء القوات الألمانية بأى شكل على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية أو الجنوبية . وأرغم النازيون على الدفاع أولا عن البلدان الأوربية المحتلة ثم عن الرايخ ذاته . كما أرغموا على تغيير شعاراتهم الدعائية . فبدلا من « النظام الجديد » والخطط الخاصة بتقسيم الإمبراطوريات الواقعة فى القارات الأخرى ، أخذوا يكتبون عن Festung Europa — الدفاع عن أوربا التى كان يتهددها غزو « البرابرة » الآسيويين وحلفائهم الغربيين الذين دب فيهم الوهن .

وأمسكت بريطانيا بزمام المبادرة السياسية فى البلدان العربية فى المشرق من ليبيا إلى العراق ومن سوريا إلى عدن . وفى عام ١٩٤٢ أخذ يلوح تحالف بين قطاع هام من الحركة الصهيونية وبين الولايات المتحدة . ودعمت شركات النفط الأمريكية مراكزها فى العربية السعودية ، كما كانت القوات السوفييتية تقف فى إيران إلى جانب البريطانيين والأمريكان . ولم يعد الموقف فى الشرق الأوسط يتشكل وفقاً للصراع بين المعسكر الفاشى وأعدائه — فقد بدأت فترة جديدة أصبحت فيها التطورات السياسية فى هذه المنطقة تحكمها التناقضات الكامنة بين الدولتين الأنجلو — سكسونيتين وبين الاتحاد السوفييتى .

وفى ظل الموقف الجديد قام البريطانيون بمحاولات لإنشاء كتلة عربية موجهة ضد الاتحاد السوفييتى من الناحيتين السياسية والعسكرية وضد الولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية . وفى لندن والقاهرة وضع الساسة البريطانيون برنامجاً متواضعاً للوحدة العربية القصد منه ضمان مساندة الدوائر العربية الحاكمة . ولكن سياسة

بريطانيا العربية اختلفت هذه المرة عنها فى فترة الحرب العالمية الأولى — إذ أنها لم تقتصر على بلدان الهلال الخصيب ، بل امتدت أيضاً إلى مصر . ونتيجة لهذه الجهود التى ساندها ساسة عرب على جانب من الأهمية ، قامت الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ .

وماحل عام ١٩٤٣ حتى وضع ساسة عرب كانوا يميلون إلى المحور حداً لسياسة الانتظار والترقب وبدءوا ينحازون إلى الحلفاء . فنى أوائل هذا العام أعلن العراق الحرب ضد المحور وتلته مصر بعد عامين . وفى فلسطين بدأ الساسة العرب المعتدلون ينظمون قواهم للتصدى لحزب الحسينى ، برغم أن السلطات البريطانية لم تساندهم مساندة تامة . وفى سوريا ولبنان ساند الإنجليز الهيئات والساسة المعادين للفاشية . وكان تدخلهم فى عامى ١٩٤٣ و١٩٤٥ هو الأساس الذى قام عليه إنهاء الحكم الفرنسى فى هذين البلدين . وبموافقة إنجلترا عمل نورى السعيد والأمير عبد الله ثم رئيس الوزراء المصرى مصطفى النحاس على إنشاء منظمة للدول العربية .

وفى الوقت نفسه فترت العلاقات بين الزعماء العرب المنفيين وبين الألمان . وفى يونية ١٩٤٣ سجل بروفر Prufer — سفير ألمانيا السابق فى البرازيل الذى اضطلع بمهمة الاتصال بالساسة العرب فى أواخر عام ١٩٤٢ وأوائل عام ١٩٤٣ — حالة الانقباض التى خيمت على الشرقيين المقيمين فى سويسرا نتيجة لهزيمة المحور فى إفريقيا . وقد انتقد عباس حلمى خديو مصر السابق أمام بروفر سياسة ألمانيا فى شمالى إفريقيا وسوريا . وقد عبر شكيب أرسلان وعزيز عزت (باشا) — والأخير سياسى مصرى كان على قرابة وثيقة بالأسرة المالكة — عن رأيهما القائل بأنه لايمكن تحسين وضع ألمانيا إلا باتفاقها مع الاتحاد السوفييتى ضد الأنجلو سكسون . رفض عادل أرسلان أن يلبى الدعوة التى وجهت إليه فى نهاية عام ١٩٤٢ لزيارة ألمانيا — وقد ذكر السفير الألمانى فى أنقرة أنه رفض الدعوة لسبب معارضته للنشاط الذى كان يقوم به المفتى والكيلانى[1] ، خاصة وأنه كان

---

(١) أبدى الأمير عادل أرسلان وجهة النظر هذه حتى قبل ذلك (انظر رسالة الدكتور ألارت Allardt إلى جروبا – طرابية فى ١٥ أكتوبر ١٩٤٢ – ٩٢٢ / ٣٠٤٤٣٧ – ٣٩) .

متشائماً من وضع المحور العسكرى والسياسى . كما وصلت أنباء من أنقرة مفادها أن عادل أرسلان كان على اتصال بالحلفاء وأنه رئى مرات متزايدة مع أصدقائه البولنديين . وأهم من هذا أنه قابل كذلك موظفين بالقنصلية البريطانية العامة فى إستنبول .

ولكن أبرز الزعماء العرب الذين كانوا يعيشون فى أوربا — الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى الكيلانى — كانا قد انحازا بقوة إلى ألمانيا بحيث لم يكن باستطاعتهما أن يعدلا موقفهما — كما لايوجد دليل على أنهما كانا يرغبان فى القيام بذلك . وفيما يتعلق بالمفتى السابق بإمكاننا أن نستشف من الوثائق الألمانية أنه كان يقوم بنشاط واسع النطاق فى عامى ١٩٤٣— ١٩٤٤ وبإمكاننا أن نستخلص أن أنصار المفتى كانوا يقومون بنشاط بين « المهاجرين » محاولين تعويض النفوذ الذى فقده زعيمهم . وفى نفس الوقت غدا موقف المنفيين العرب فى البلدان المحايدة أكثر صعوبة . فحين تغير الموقف على جبهات القتال بدأت الحكومة التركية تعدل موقفها . وفى سبتمبر ١٩٤٣ اعتقل البوليس التركى إسحق درويش عميل المفتى وموضع ثقته ، وذلك مباشرة بعد نزول قوات الحلفاء فى شبه جزيرة الأپنين — وفى أكتوبر صدر إليه الأمر بمبارحة البلاد . وفى ذلك الوقت طرد كثير من المهاجرين العرب الآخرين ؛ ولكن السلطات التركية لم تطبق مثل هذه الإجراءات على كل الأشخاص[1] . وبدأت سويسرا تقيم العراقيل أمام شكيب أرسلان وتحدد حريته فى الحركة .

وبعد الهزيمة التى حلت بالألمان فى تونس اقتصروا ، بالاتفاق مع الساسة العرب — وبخاصة المفتى — على ميدانين للنشاط : الدعاية وتنظيم وحدات عسكرية عربية . فبعد انهيار القوات الألمانية فى شمالى إفريقيا كان على النازيين أن يقنعوا بالقيام بالدعاية من بعيد : أى بالراديو وذلك بسبب صعوبة توزيع المنشورات عن طريق الجو ، ولأنه كان يستلزم استعداداً سابقاً . ولم يعد ثمة مجال لتنظيم وحدات عربية لاستعمالها فى البلدان العربية ، بل خصصت لها فى ذلك الوقت مهام ثانوية فى نطاق الجيش الألمانى .

---

(١) إيتل إلى ملشرز ، برلين فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٣. وهناك قائمة بالمطرودين (٩٣٠ / ٩٨٠٩٠) فمثلا لم يقم الألمان صعاباً فى وجه الأخوين عدى وذبيه العظمة (السوريين) وعادل وأمين أرسلان (اللبنانيين) ومعين المهدى (فلسطين) .

مسألة إصدار تصريح

أثيرت من جديد مسألة إصدار تصريح يتضمن مساندة المحور للمطالب العربية ، وذلك لأسباب تتصل بالنشاط الدعائى . فقد رئى أن مثل هذا التصريح قد يعرقل قيام مفاوضات بين البريطانيين والزعماء العرب ، وأنه قد يكون له تأثير ما على مشاعر الجماهير . وبعد أن اتفق المفتى مع رشيد عالى عاد فطالب فى مارس ١٩٤٣ بإصدار التصريح ، وقدم مسودة له[١]. وقد أصر المفتى على أن من واجب المحور أن ينهى صمته إزاء المشكلة العربية ، وبرر اقتراحة بالحاجة إلى القيام بعمل مضاد لسياسة الحلفاء وبخاصة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية التى كان لها نفوذ كبير فى الدوائر العربية . وأشار إلى أن سبب عدم استعداد المحور لإصدار مثل هذا التصريح العلنى فى الماضى لم يعد قائماً — فقد أشار إلى أن « فرنسا كانت تريد أولا أن تستغل ورقتين — هما شمالى إفريقيا وأسطولها — ضد المحور ثم فقدتهما نهائياً . وقد اقترحت المسودة أن يعلن المحور :

(١) أن من أهدافه استقلال وحرية البلدان العربية التى تستغلها إنجلترا ، (٢) استعداده لأن يقدم لهذه البلدان كل مساعدة فى نضالها من أجل الحرية ، وأن يعترف باستقلالها وسيادتها ،(٣) اعترافه باستقلال وسيادة البلدان الخمسة الداخلة فى الهلال الخصيب (سوريا — لبنان — فلسطين — شرق الأردن — العراق) والموافقة على اتحادها ، (٤) استعداده لتصفية الوطن القومى لليهود فى فلسطين. وقد بنيت صيغة مسودة تصريح المفتى على تصريحات سابقة علنية وسرية كان المحور قد أدلى بها .

---

(١) مذكرة الحاج أمين الحسينى بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٤٣ . وتلقى ملاحق المذكرة ضوءا على أساسها السياسى ومقاصد الاقتراح . فإلى جانب مسودة التصريح (الملحق الأول) والتصريح اليابانى الخاص باستقلال البلدان العربية والهند (الملحق السابع) ألحق المفتى بالمذكرة نص تصريحات إيدن التى أدلى بها فى ٢٩ مايو ١٩٤١ (الملحق الثانى) وفى ٢٣ فبراير ١٩٤٣ (الملحق الثالث) ومقتطفات من المعاهدة الفرنسية — السورية الموقعة فى ١٩سبتمبر ١٩٣٦ (الملحق الرابع) وتصريح ديجول الخاص باستقلال سوريا ولبنان (الملحق الخامس) وتصريح الولايات المتحدة الخاص باستقلال لبنان (الملحق السادس) . وكان المفتى يود أن يؤثر على دولتى المحور بحيث تقطعان وعدا يفوق وعود الحلفاء .

وكان الإيطاليون — من حيث المبدأ — يميلون إلى إصدار التصريح على اعتقاد أنه أمر ضرورى — إذا لم يكن من الممكن القيام فى البلدان العربية بما هو أكثر من الدعاية . وكان المسئولون الإيطاليون يشبهون المفتى فى إشارتهم إلى ضرورة القيام بعمل مضاد للإجراءات التى كان يتخذها الحلفاء ، مع الاختلاف — على أى حال — الخاص بأنهم كانوا يرون أن الخطر الرئيسى كامن فى السياسة الإنجليزية المناصرة للوحدة العربية. وبعد مرور أسبوعين على الهزيمة التى حلت بالمحور فى تونس، اتصل الإيطاليون ببرلين بشأن إصدار تصريح فى أسرع وقت ممكن . ولكنهم اقترحوا بدلا من ذلك نشر رسالة ريبنتروب وشيانو المشتركة التى وجهت إلى الحاج أمين فى العام السابق حين كان المحور قد سجل انتصارات على كل الجبهات ، أو على الأقل الإشارة إلى تلك الخطابات . وبهذا كانوا يأملون أن يتجنبوا الانطباع الخاص بأن إصدار تصريح يساند المطالب العربية أمر جديد بالنسبة إلى سياسة المحور . وفى نهاية يونيه قدم الإيطاليون المسودة التى وضعوها للتصريح — ولم تشر هذه المسودة إلا إلى بلدان الهلال الخصيب مع صياغة مسألة فلسطين بصورة تختلف عما جاء فى الوثائق السابقة .

وقد اقترح الإيطاليون إضافة وعد خاص بأن المحور سيرفض كل حل لمسألة فلسطين لايتمشى مع أمانى الأمة العربية أو مصالحها . ولم يذكر فى هذه المرة شىء عن تصفية الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

ولكن كان من رأى الألمان أن وقت الهزيمة ليس مناسباً لإصدار مثل تلك التصريحات ، واقترحوا تأجيل المسألة إلى أجل غير مسمى . ومرة أخرى نشبت الخلافات حول مدى الوعود الواجب قطعها للعرب . وقد وافق بعض المسئولين الألمان على تحذير الكيلانى الخاص بأنه سيكون من الخطأ تضييق نطاق الوعود المبذولة لبلدان الهلال الخصيب فى الوقت الذى يتسع فيه مدى النشاط الإنجليزى . ولكن هذه الصعوبات لم تكن هى السبب الذى أدى إلى عدم إصدار التصريح . فمن المؤكد أن المسألة العربية فى ذلك الوقت كانت ثانوية بالنسبة إلى الألمان . وبخاصة بعد سقوط موسولينى فى يولية وتسليم إيطاليا فى سبتمبر ١٩٤٣ .

وبعد بضعة أيام من سقوط حكومة المرشال بادوليو اقترح الدكتور فرتز جروبا – الذى كان حينئذ يعمل فى أرشيف سفارة الريخ فى باريس – على رؤسائه بوزارة الخارجية الألمانية وجوب تكريس اهتمام أكبر بالشئون العربية وصدور التصريح الذى كان الزعماء العرب باستمرار يسعون إلى الحصول عليه . واعتقد جروبا أن من الممكن القيام بذلك فى ذلك الوقت لأن « خيانة إيطاليا » حررت الألمان من الالتزام الخاص بمراعاة أهدافها فى العالم العربى . ولكن لم يصدر التصريح . على أنه تم فى ٢ نوفمبر ١٩٤٣ – وهو ذكرى وعد بلفور – عقد اجتماع استنكارى فى برلين قرأ فيه المفتى ، وسط حماسة كبيرة ، رسالة بعث بها ريبنتروب . وقد صرح وزير خارجية الريخ الثالث بأن ألمانيا حليف للعرب « الآن أكثر منها فى أى وقت» وأن « إزالة الوطن القومى لليهود من على وجه الأرض» و« تحرير الأمم العربية من الطغيان والاستغلال الأجنبيين من المبادئ الأساسية للسياسة الألمانية » . كما قرئت فى ذلك الاجتماع رسالة بعث بها هملر ، اقتصرت – على أى حال – على التنديد باليهود. وكانت رسالة ريبنتروب دليلا آخر على التحفظ الكبير بصدد بذل وعود للعرب .

ولم يكن ثمة سبب خاص يدعو الألمان إلى اعتبار إصدار « تصريح للعرب » أمراً ضروريا أو مرغوباً فيه . وقد جرت السياسة الألمانية على عدم الارتباط بمثل هذه التصريحات ، على اعتبار أن هدفها هو خلق المنازعات فى معسكر العدو دون التقدم ببرامج إيجابية . وفى الدعاية التى كان الألمان يوجهونها باللغة العربية ، اقتصروا على مهاجمة التحالف المعادى للفاشية والتحريض ضد اليهود (اقتلوا اليهود حيثما تجدونهم ، من أجل الله والتاريخ والدين) والإشادة بهتلر ، والقول بأن ألمانيا واليابان أصدقاء العرب ، والدعوة إلى رفع لواء الثورة فى فلسطين – إلى غير غير ذلك . وفى المناسبات الخاصة ، كالأعياد الإسلامية أو الاحتفالات السنوية أو الأحداث السياسية الهامة ، تحدث الحاج أمين فى الراديو الألمانى ، واشترك معه رشيد عالى فى بعض الأحيان .

وبرغم أن تجنيد فصائل عربية فى فلسطين لم يتمخض عن أى شىء ، فقد

واصل الألمان تشكيل وحدات عربية . وحينئذ استخدم عرب شمالى إفريقيا على نطاق أوسع لهذا الغرض . وفى يونيه ١٩٤٣ كانت مجموعة جديدة من وحدة الاتصال الألمانية — العربية — أغلبها من المراكشيين— تتلقى تدريباً فى اليونان . وكان ثمانون من رجال هذه المجموعة يتدربون على العمل كمظليين ، على حين أن معظم الرجال البالغ عددهم ٦٠٠ كان يتم تدريبهم على القيام بأعمال الحراسة فى اليونان. ومن الواضح أن هذا الهدف قد تحقق ، إذ كشفت « محاكمة البلقان » فى نورمبرج عن أن الحرس العربى أطلقوا القبض على مظليين بريطانيين أرسلوا إلى اليونانيين الموالين للحلفاء . كما تم إنزال مظليين عرب فى فلسطين والعراق فى أواخر عام ١٩٤٤ . وفى نهاية الحرب كان من المحتمل وجود جنود عرب على الجبهة الإيطالية أو الغربية . وقد ذكر عضو الكونجرس عمانوئيل سلر Celler فى ١٠ أبريل ١٩٤٦ أنه كان يوجد ٢,٠٠٠ جندى عربى فى معسكر أسرى الحرب فى أوبليكا Opelika بألباما . وفى أول نوفمبر ١٩٤٤ كان قد أعيد تشكيل الوحدات العربية فى الجيش الألمانى فى فصيلة عربية مستقلة — وكان قصد النازيين من هذا هو الرد على قرار الحكومة البريطانية الصادر فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٤ والخاص بإنشاء فصيلة مشاة يهودية منفصلة يقودها بريجادير جنرال يهودى وترتدى شعاراً يهودياً ، وذلك بعد مساومات استمرت عدة سنوات مع الوكالة اليهودية . وقد استخدم الألمان هذه الواقعة على نطاق واسع فى دعايتهم العربية .

نشاط آخر للمفتى

حينئذ لم يكن للنشاط الدعائى الذى شارك فيه الحاج أمين مشاركة فعالة أو للمكتب العربى الذى كان هو رئيساً له أهمية كبيرة ، إذ أنهما لم يهددا وضع بريطانيا فى البلدان العربية بأى شكل . ولكن فائدة المفتى السابق للألمان لم تقتصر على المجال العربى — إذ كان له نشاط فى مجالات أخرى حتى فى الوقت الذى شهد الانتصارات المحورية فى الاتحاد السوفييتى وشمالى إفريقيا . وتدل الوثائق على أنه كان وثيق الصلة بمنظمات الخونة المسلمين فى القرم وشمالى القوقاز وأذربيجان ووسط آسيا . كما

شارك فى الدعاية الموالية لألمانيا والموجهة إلى الهند . ومن المحتمل جداً أن المفتى ساعد على إنشاء وحدات عسكرية من المسلمين السوفييت وقام بنشاط واسع بين مسلمى البلقان . وقد افتخرت الدعاية النازية بمساهمته فى تشكيل وحدات سلاح العاصفة من مسلمى البوسنة . وتزودنا قائمة الأسئلة التى كان المفتى يرغب فى طرحها على وزارة الخارجية الألمانية فى مايو ١٩٤٣ بفكرة عن مدى اهتمامه ونشاطه . فإلى جانب مسألة التصريح الموجه إلى العرب كان المفتى يريد مناقشة مشاكل كرواتيا وإنشاء كتيبة من قوات العاصفة تضم المسلمين، ومشاكل السكان المسلمين فى بلغاريا، والتدخل لدى ذلك البلد لمنع هجرة ٤,٥٠٠ يهودى (٤٠٠ منهم أطفال) إلى فلسطين ومسألة تحويل المساكن اليهودية السابقة فى برلين إلى المعهد الإسلامى، واقتراح إنشاء قسم عربى – إسلامى خاص فى وزارة الخارجية الألمانية . وكان جهود المفتى لإيقاف الهجرة اليهودية من أوربا جزءاً لايتجزأ من نشاطه فى أثناء الحرب العالمية الثانية. وتحتوى الوثائق التى نشرت بعد الحرب على بعض الخطابات التى أرسلها إلى حكومات بلغاريا (٦ مايو ١٩٤٣) وإيطاليا (١٠ يونية ١٩٤٣) – ورومانيا (٢٨ يونية ١٩٤٣) والمجر (فى نفس التاريخ) طالباً منها إلغاء السماح بالهجرة اليهودية ، والاستعاضة عن ذلك بإرسال اليهود إلى بولندة حيث يتم وضعهم تحت رقابة فعالة ، ويؤكد اعتراف أحد معاونى أيخمان – واسمه ديتر فسلسنسى Dieter Wislicency (وقد تم شنقه فى براتسلافا) كما تؤكد شهادة كازتنر R, Kasztner – أحد زعماء اليهود المجريين – الدور الذى قام به المفتى فى منع الهجرة اليهودية من البلدان الأوربية التى كان يحتلها النازيون. ويتضح من الشهادة أن المفتى عمل بالتعاون مع الجهاز النازى المسئول عن القضاء على اليهود . وفى عام ١٩٤٤ اشترك الحاج أمين فى تنظيم المؤتمر المعادى لليهود الذى كان من المتوخى أن ينعقد فى كراكاو [١].

وفى خلال الأشهر الأخيرة من الحرب تنقل الحاج أمين الحسينى ورشيد عالى الكيلانى أحياناً من مكان إلى مكان – فى البداية خوفاً من الغارات، ثم بعد ذلك من

---

(١) PS-1752 IMT, Vol. XXVIII لم ينعقد المؤتمر . انظر :

Eisenbach: Hitlerowska Polityka Zaglady Zydow, Warsaw, 1962, p. 614.

(سياسة هتلر الخاصة بالقضاء على اليهود) .

اقتراب جيوش الحلفاء من ألمانيا من الشرق والغرب . وحين استسلمت ألمانيا توجه إلى الحدود السويسرية ، وحين لم يسمح للكيلانى بالدخول توجه إلى بلجيكا ثم إلى فرنسا . وفى أواسط يولية هرب من مرسيليا قاصداً إلى بيروت ؛ ومنها اتجه إلى دمشق ، ووصل فى النهاية إلى الرياض حيث منحه الملك ابن سعود حق اللجوء السياسى . ولم يعد إلى العراق إلا فى أعقاب ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ . وحين حاول أن يتزعم التيار السياسى المنادى بالوحدة العربية ؛ تم القبض عليه فى عام ١٩٥٨ ، ولم يطلق سراحه إلا فى ١٤ يولية ١٩٦١ مع مجموعة من رؤساء الوزراء العراقيين السابقين .

وتوجه الحاج أمين إلى برن ، ولكن لم يسمح له بالإقامة فى سويسرا ، وتم القبض عليه فى أثناء عبوره الحدود الفرنسية ، ووضع فى فيلا بالقرب من باريس سمح له فيها بحرية الحركة بحيث كان باستطاعته أن يستقبل الساسة العرب وأن يستأنف دوره باعتباره زعيماً لعرب فلسطين . وحين أحس باحتمال اتهامه بأنه مجرم حرب هرب فى مايو ١٩٤٦ بجواز سفر صدر باسم معروف الدواليبى الذى نشط فيما بعد فى مجال السياسة السورية ، ووصل إلى القاهرة على متن طائرة حربية أمريكية عن طريق روما وأثينا ، وهناك حل ضيفاً على الملك فاروق . وكان لايزال أمامه دور هام فى المرحلة الأخيرة من النضال فى سبيل فلسطين ، وهو النضال الذى تمخض فى النهاية عن ظهور دولة إسرائيل وخروج عدة آلاف من عرب فلسطين . وفى عام ١٩٦٢ كان يعيش فى بيروت وفى خلال المرحلة الأولى من الحرب الفلسطينية لعب بعض الزعماء العرب الآخرين — الذين سبق أن عرضنا لهم — دوراً هاماً ، ولكن لايحسدون عليه — فقد كان فوزى القاوقجى — على سبيل المثال — قائداً « بلجيش الإنقاذ » العربى .

السياسة الدولية والحركة القومية

لايزال من السابق لأوانه أن نلم بتفاصيل مدلول سياسة ألمانيا النازية فى البلدان العربية . وكثير ممن لعبوا دورهم لايزالون أحياء ، وكثيراً ما شغل بعض من تشكلت آراؤهم خلال تلك الفترة وظائف عامة ، بل مراكز رئيسية ، فى البلدان العربية . ولم تنقطع الروابط التى نشأت حينئذ ، وحذت بعض البلدان العربية حذو ألمانيا الغربية والأرجنتين وأسبانيا فيما يتعلق بحماية المجرمين النازيين . وقد دخلت جمهورية ألمانيا الاتحادية فى مجال المنافسة الإمبريالية فى سبيل الاستحواذ على النفوذ فى المشرق العربى . ومن الصعب أن نقيم أثر التطورات المعاصرة فى توسع جمهورية بون فى الحاضر والمستقبل .

على أن بإمكاننا أن نلخص الفترة التى عرضنا لها فى هذا الكتاب تلخيصاً وجيزاً وأن نحدد معالمها — فهى فترة تشكلت فى خلالها أحداث الشرق الأوسط تحت تأثير ازدياد قوة المحور . فقد كان بإمكان المحور ، وبخاصة ألمانيا ، أن يستغل الحركة القومية العربية لخدمة أهدافه ، وقد استغلها بالفعل . وكانت العلاقات النازية بالقومية العربية وزعمائها عاملا مساعداً للسياسة الألمانية إزاء الدول العظمى الأخرى ؛ وعلى رأسها بريطانيا أكبر خصوم ألمانيا فى البحر المتوسط وغربى أوربا وما دامت ألمانيا كانت تسعى إلى الاتفاق مع بريطانيا ، فإنها حددت نشاطها إلى حد كبير فى المشرق العربى . حقيقة أن خطة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية هناك (١٩٣٧)قد جعلت الدوائر الألمانية الحاكمة تهتم بالشئون العربية ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى تغيير حاسم فى السياسة الألمانية .

وقد جاء التغير فى العلاقات الإنجليزية — الألمانية نتيجة لأزمة تشيكوسلوفاكيا ومؤتمر ميونخ — إذ أن الألمان اتخذوا حينئذ إجراءات بعيدة المدى فى البلدان العربية : فزودوا ثوار فلسطين بالمال والأسلحة ، وأقاموا اتصالات

دبلوماسية مع ابن سعود ، وعقدوا اتفاقية بهدف إهدائه الأسلحة وبيعها له .
ولكن عوامل جديدة كانت تفرض نفسها وعرقلت نشاط ألمانيا — أهمها أن الريخ
كان عليه أن يضع فى عين الاعتبار مصالح إيطاليا أقرب حلفائه إليه . وقد رأى
زعماء برلين أن الدول الكبرى المنافسة لإنجلترا وفرنسا تلعب فى النضال ضد الدول
الاستعمارية الكبرى — المساندة الكبرى للنظام الذى أوجدته تسوية فرساى — دوراً
أكبر من ذلك الذى تلعبه حركات التحرر الوطنى .

وفى التصريحات التى أدلى بها هتلر لخلال الأشهر الأخيرة من الحرب ،
وهى التصريحات التى علق عليها مارتن بورمان ونشرت بعد الحرب باعتبارها وصية
هتلر السياسية ، أشار زعيم الريخ إلى الاحتمالات الجديدة التى كانت تواجه
ألمانيا على أثر الهزيمة . وذهب هتلر إلى أن أمل ألمانيا معقود على تعميق التناقضات
الكامنة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ، وعلى قيام التحالف بين ألمانيا
وشعوب المستعمرات المستغلة فى آسيا . كما أنه عبر عن أسفه لعدم استغلاله كل
إمكانيات الحركات الوطنية فى الممتلكات الفرنسية ، وبخاصة فى سوريا وتونس .
ويبدو أن هذه التصريحات كانت تعبر عن سخطه على التحالف مع إيطاليا
والتعاون مع فيشى . كما أنها تعكس ظهور الاشتراكية الوطنية بمظهر شبه ثورى ،
وهو مابدت عليه فى كثير من الأحيان ، وبخاصة بعد محاولة اغتيال هتلر فى ٢٠
يوليه ١٩٤٤ . على أن هذه التصريحات لاتعكس الاتجاه الحقيقى لهتلر ومعاونيه .
وفى المؤتمر الذى انعقد فى نوفمبر ١٩٣٧ (الذى تبرز لنا بروتوكولات هوزباخ
Hossbach المشهورة مضمونه) ، أعلن هتلر دون مواربة أن « أكبر أعداء الدول
الغنية ليست حركات التحرير فى المستعمرات ، بل خصومها الاستعماريون » .
وتلقى مذكرة ملشرز التى كتبها فى ديسمبر ١٩٤٠ ضوءاً هامًّا على موقف ألمانيا النازية
من الحركات الوطنية فى المستعمرات . وقد أشار مدير القسم السياسى السابع
فى ذلك الوقت — الذى أصبح بعد الحرب سفيراً لألمانيا الغربية فى عمان وبغداد
ونيودلهى — إلى أن الألمان لم يكن لديهم من الأسباب مايدعوهم إلى العطف على
الشعب العربى ، لأن العرب — وفقاً لقوله — كانوا معادين لأوربا من حيث
المبدأ . لهذا ذهب إلى أن على الريخ أن يساند المطالب القومية العربية بالقدر

الذى يخدم أغراضه دون أن يصل به الأمر إلى العطف عليها . ومن هنا نجد أن كره الحركات الوطنية فى المستعمرات قد نما نمواً طبيعياً من ثنايا الفلسفة السياسية التى كانت تعتنقها ألمانيا النازية ، دون أن يتأثر بالاعتبارات السياسية الطارئة — وكان ذلك يختلف عن الفلسفات السياسية التى كانت تعتنقها اليابان والولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الاشتراكية بطبيعة الحال .

فلسفة الأجناس (Racism)
والفكرة الأوربية

كانت الفلسفة السياسية النازية تتصل بفلسفة الأجناس وما سمى « بالفكرة الأوربية » — وقد بدت الفلسفة الجنسية النازية باستمرار فى علاقات ألمانيا بالزعماء القوميين العرب . حقيقة أن المظهر الرئيسى لفلسفة الأجناس النازية — اللاسامية — كان يتجه إلى تدعيم هذه العلاقات بسبب الصراع اليهودى — العربى فى فلسطين ، وفى الواقع أن اضطهاد ألمانيا لليهود كانت له آثار سلبية بالنسبة إلى العرب الفلسطينيين . إلا أن الأمر لم يقتصر على اليهود ، بل إنه امتد كذلك إلى شعوب آسيا وإفريقيا التى كانت بوجه عام تحتل موضعاً أدنى فى سلم هتلر الخاص بالأجناس . ويتضح من كثير من التصريحات التى أدلى بها الزعماء والمسئولون الألمان أن ثمة اتجاهاً إلى الغض من قيمة العرب وبغض صفاتهم وسلوكهم السياسى وعدم الاعتقاد بقدرتهم على إقامة دولة وبإخلاصهم كحلفاء . ولم يستثن من ذلك سوى قليل من الساسة العرب ، وبخاصة الحاج أمين الحسينى وذلك على زعم أن بهم دماء آرية . وأياً كانت الوعود التى قطعت للعرب — ولم يبذل كثير من هذه الوعود — فإن الألمان لم يشكوا إطلاقاً فى أى وقت من الأوقات فى أن العرب سيظلون تابعين للسادة الأوربيين وخاضعين لهم بعد النصر النهائى للمحور .

وكانت « الفكرة الأوربية » هى الشعار الذى قصد به الألمان أن يتم التعاون بينهم وبين الدول الأوربية المقربة التى كانت تعتمد عليهم فيما يتعلق بتقسيم المستعمرات ومناطق النفوذ بين واضعى ذلك « النظام الجديد » فى أوربا . وكان

الألمان يطالبون لأنفسهم بإمبراطورية استعمارية فى وسط إفريقيا تمتد بين المحيطين الهندى والأطلنطى وكان من المتوخى أن تمتد إلى جنوب هذه الإمبراطورية منطقة نفوذ اتحاد جنوبى إفريقيا ، وأن تمتد إلى شمالها المنطقة الإيطالية وإلى شمالها الغربى المنطقة الفرنسية . وكان من المتوخى أن تكون مناطق هامة من نصيب إسبانيا والبرتغال . وكان من الواجب أن تدخل البلدان المجاورة الواقعة فى المشرق العربى فى مناطق النفوذ الأوربية . وقد أقر الألمان من الناحية الرسمية وجوب وقوعها تحت النفوذ الإيطالى ، ولكنهم كانوا فى الواقع يقصدون أن يحتفظوا لأنفسهم بمصالح اقتصادية وسياسية كبيرة هناك . ومن المؤكد أن مطامع ألمانيا الاستعمارية واتفاقها المرتقب مع دول استعمارية أخرى قد أدت إلى تحديد تحركاتها فى البلدان العربية إلى حد كبير . أما فى سوريا وتونس حيث كانت أمامها فرص لإجراء بعض التغييرات الدستورية لصالح العرب ، فإنها لم تقم بشىء فى هذا المضمار . وقد يكون من المفيد أن نقارن هذه السياسة الألمانية ، وبخاصة فيما يتعلق بتونس ، بالسياسة التى اتبعتها اليابان فى إندونيسيا وفيتنام وبورما . ففى أثناء المراحل الأخيرة من الحرب حول اليابانيون قسطاً كبيراً من الحكم إلى الوطنيين المحليين ، وبذلك ساعدوا على قيام حكومات وطنية . أما الألمان فإنهم ، على العكس من ذلك ، أبقوا على الوضع الاستعمارى القائم فى تونس حتى اللحظة الأخيرة — إذ أن سياسة ألمانيا النازية إزاء العرب قامت على أسس الاستعمار القديم بالمعنى التقليدى للكلمة ، وذلك برغم كل الديماجوجية الخاصة بالاستقلال والحرية .

مقتضيات الحرب

أحياناً ما تفرض متطلبات الحرب سلوكاً يتناقض مع الفلسفة السياسية لنظام الحكم . ومن هنا نجد القيصر الألمانى ينادى فى أثناء الحرب العالمية الأولى بحفز الثورات داخل أراضى العدو ، وأن البريطانيين يساندون القومية العربية برغم اتجاهات حكومة مستعمرة الهند التابعة لهم . وقام الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية بمساندة حرب العصابات التى كان يشنها الشيوعيون فى الملايو ويوغوسلافيا ،

على حين أن متطلبات الحرب أملت على الأمريكان أن يصروا على اتفاق حزب الكومنتانج مع الشيوعيين فى الصين . ولكن كيف كانت متطلبات العمليات الحربية تشكل سياسة ألمانيا إزاء القومية العربية ؟

كانت مقتضيات الحرب بالنسبة إلى ألمانيا النازية تتطلب قبل كل شيء النظر بعين الاعتبار إلى مصالح الدول الأخرى التى كانت قواتها المسلحة تستطيع تسهيل انتصارها أو عرقلته . وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه الدول هى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وتركيا : الإيطاليون باعتبارهم حلفاء لألمانيا فى الحرب ، وفرنسا وإسبانيا على أساس أنهما تسيطران على أراض شاسعة فى شمالى إفريقيا تضم المناطق المجاورة لقوات المحور المسلحة ، وتركيا (وقبل يوليه ١٩٤١ فرنسا أيضاً) باعتبارها دولة كان تعاونها ضرورياً لتنفيذ خطط الريخ فى بلدان الهلال الخصيب. وكانت مصالح كل هذه الدول تتعارض مع الأمانى العربية ، وكان على الألمان أن يحسبوا حسابها فى عملياتهم فى البحر المتوسط ..

وأهم من هذا أن ألمانيا لم تحاول على الإطلاق أن تحسم الحرب العالمية الثانية فى الشرقين الأدنى والأوسط . وكانت الانتصارات الضخمة التى سجلتها هناك فى عامى ١٩٤١ — ١٩٤٢ ترجع قبل كل شيء إلى ضعف الحلفاء . وليس معنى هذا أن القتال الذى نشب هناك لم يلعب دوراً هاماً من زاوية مجموع العمليات الحربية . ويبدو أن فقدان شمالى إفريقيا فى عامى ١٩٤٢ — ١٩٤٣ قلل بشكل خطير قدرة ألمانيا على المناورة بعد ذلك ، أى فى مرحلة الهزيمة النهائية . وقد عبر هتلر فى وجهته السياسية عن ضيقه العميق وسخطه الشديد على تحالفه مع موسولينى : برغم أنه — كما رأينا — لم يحسن استغلال تحالفه فى الشرقين الأدنى والأوسط .

فبعد سقوط فرنسا كانت قوات الحلفاء فى تلك المنطقة شديدة الضعف سيئة التنظيم بحيث كانت ثلاث فرق ألمانية : إحداها مصفحة واثنتان من قوات المشاة ، تكفى (وفقاً لرأى لبعض الاستراتيجيين) لإحراز انتصار حاسم : الاستيلاء على قناة السويس والالتفاف حول الحدود الجنوبية للاتحاد السوفييتى ، ولكن الألمان كانوا فى البداية يتوقعون أن تطالب بريطانيا بالصلح بعد سقوط فرنسا ، ثم اعتقدوا بعد ذلك أنها ستستسلم أمام خطر تعرضها للغزو ، أو أن

سلاح الطيران الألمانى سيجعل هذا الغزو ممكناً . ولكن حين لم يتحقق أحد هذه الاحتمالات ، اكتسب البريطانيون وقتاً يكفى لحشد قوات كافية فى مصر وتدمير جيش جراتسيانى فى الصحراء الغربية . وهكذا يتضح لنا أن سياسة ألمانيا العربية لم تكن تتصف بالمبادرة العسكرية . ومن الناحية العملية لم يقم الألمان بما يزيد على شن حملة دعائية . وكانت الاتصالات التى أقاموها مع الزعماء والقوى السياسية ناتجة فى جوهرها عن المبادرة العربية .

وفى الفترة التالية ، أى منذ خريف عام ١٩٤٠ ، أخذت القيادة العسكرية النازية تهتم بالشرق الأوسط . فقد ترتب على غزو موسولينى لليونان وفشله فى شمالى إفريقيا ، ومن المحتمل أيضاً مخططات ألمانيا فى البلقان ، أن تحول اهتمام ألمانيا إلى البلدان العربية . ولاعتبارات جغرافية ، ولأن بريطانيا لم تكن لديها سوى قوات محدودة ؛ نجد أن البلقان والشرق الأوسط يشكلان بالنسبة إليها منطقة للعمليات . ولكن القيادة الألمانية وضعت نصب عينيها فى ذلك الوقت مهاما محدودة فى شمالى إفريقيا . وكان أهم ما يعنيها الحصول على قواعد تستطيع منها بث الألغام فى قناة السويس وقذفها بالقنابل . ولم يحدث إلا بعد أن منى الإيطاليون بهزيمة خطيرة (ديسمبر ١٩٤٠ — يناير ١٩٤١) — أن أرسل هتلر روميل إلى شمالى إفريقيا لأغراض دفاعية . وكان عليه أن يحول دون فقدان الإيطاليين لكل مستعمراتهم فى شمالى إفريقيا وأن يمنع القوات البريطانية من الاتصال بالقوات الفرنسية فى المغرب . وقد أجل هتلر المواجهة النهائية فى تلك المنطقة إلى أن تكتمل عملية برباروسا . وكان الإعداد لغزو الاتحاد السوفييتى — لا عملية شمالى إفريقيا — هو شغل ألمانيا الشاغل .

وقد اتخذت القرارات الخاصة بعدد القوات الألمانية الواجب إرسالها إلى شمالى إفريقيا على ضوء الفكرة السابق ذكرها . حقيقة أن ضعف إيطاليا ووجود القوات الألمانية فى شمالى إفريقيا قد جعلا القيادة النازية تنشغل بالشئون العربية بصورة أكثر فعالية ، وبخاصة حين لاحت الحركة المعادية لبريطانيا فى العراق . ولكن برغم القرار الخاص بإشعال الثورة ضد البريطانيين فى العراق ، وهو القرار الذى اتخذ إزاء إصرار ريبنتروب ، نجد أن اتخاذ قرارات هامة بشأن البلدان العربية قد تأخر

بشكل خطير ، على حين أن عدم الوضوح قد ساد حتى النهاية بصدد شكل النشاط الألمانى ونوعيته ومداه .

ومن المحتمل أن السبب الرئيسى فى ذلك هو أن كل اهتمام القادة العسكريين كان منصباً على القيام بالاستعدادات الخاصة بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ، وأنهم لم يكونوا متحمسين للقيام بمغامرات جديدة فى الشرق الأوسط .

ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن هتلر أرغم على تغيير تاريخ شن الهجوم على الاتحاد السوفييتى بسبب التغيرات التى طرأت على الموقف — وحدث ذلك أيضاً فيما يتعلق بالحرب فى يوغوسلافيا. ومما لاشك فيه أن من الممكن ربط كل الافتراضات : ما الذى كان يحدث لو استطاع الألمان إنهاء معاركهم فى البلقان فى وقت مبكر ، ولو أن ألمانيا لم تمن بمثل هذه الخسائر الضخمة فى كريت ؟ . الذى كان يمكن أن يكون عليه مصير الحرب لو فشلت الحكومة البريطانية فى التغلب على مقاومة القيادة العسكرية فى الشرق الأوسط ، أو لو أن لندن لم تلجأ إلى التدخل المسلح فى العراق ، أو لو أن الجيش العراقى أبدى قدرة أكبر — على القتال ، أو حتى لو كانت لدى الألمان اتصالات أكثر تنظيماً ومعلومات أدق عن مجرى القتال والموقف فى العراق ؟ ويتفق الاستراتيجيون على أنه كان بإمكان قوات ألمانية صغيرة أن تعدل مجرى الأحداث هناك تعديلا جذرياً . وأياً كان الأمر فإن السبب الرئيسى الذى أدى إلى تصرفهم بالشكل الذى تصرفوا به — لاالعكس — فى البلدان العربية خلال النصف الأول من عام ١٩٤١ هو هجومهم المدبر على الاتحاد السوفييتى . وقد تم التعبير عن هذه الخطة فى التعليمات رقم ٣٠ الصادرة فى ٢٣ مايو ١٩٤١ التى سبقت الإشارة إليها — وفحواها وجوب تأجيل المواجهة النهائية مع بريطانيا فى البحر المتوسط والخليج (العربى) إلى ما بعد برباروسا .

وكانت ألمانيا تزمع الإفادة بصورة أكبر من القومية العربية بعد إحراز النصر على الاتحاد السوفييتى — أى فى خريف عام ١٩٤١ طبقاً لخطط هتلر . وقد خصصت التعليمات رقم ٣٢ الصادرة فى ١١ يونيه ١٩٤١ بصدد إعداد الخطط للعمليات الحربية التى كان من المتوخى أن تتلو برباروسا بنداً خاصاً باستغلال حركة التحرير العربية ، وصدرت إلى سوندرستاب ف تعليمات عمل فى ملحق خاص بهذه التعليمات . وقد قامت أركان الحرب الألمانية ووزارة خارجية الريخ باستعدادات

لاستغلال الشعب العربى والدوائر السياسية العربية فى الخطط الألمانية الخاصة بالقيام بهجوم عبر مصر وتركيا وسوريا وفلسطين ، وكذلك عبر القوقاز وإيران والعراق . وقد أدى فشل هتلر فى تحقيق أهدافه فى الاتحاد السوفييتى إلى حسم مجرى الأحداث فى جبهة شمالى إفريقيا وفى الشرق الأوسط بوجه عام . وقد فشل الألمان من جديد فى إرسال قوات كافية إلى هذه الجبهة ، على حين استطاعت بريطانيا أن تقوم بحشد جيش قوى مزود بأحدث الأسلحة فى الشرق الأوسط . وكان يبدو فى صيف وأوائل خريف عام ١٩٤٢ أن نجاح الخطط النازية فى هذه المنطقة أمر وشيك الوقوع . ولكن الكارثة التى حلت بالألمان على نهر الفولجا وهزيمة المحور فى العلمين قد أديا إلى فشل كل الخطط الألمانية الخاصة بالعالم العربى . ومنذ ذلك الوقت ، وبخاصة بعد طرد قوات المحور من شمالى إفريقيا ، لم تكد الشئون العربية تلعب أى دور فى خطط النازيين العسكرية وسياستهم .

وقد سبق أن رأينا أن المتطرفين من الساسة العرب القوميين رأوا أن الحرب أنسب فرصة للقيام بتحرير العرب ، وهى فرصة « لايعلم إلا الله متى تتكرر » . وقد سبق أن حاولنا أن نوضح أن هذه الفرصة كانت وهمية ، بحيث لم يكن من واجب أى سياسى مسئول أن يعتمد عليها . ولم يتمخض ارتباط العرب بالمحور عن إحرازهم أى مكاسب إيجابية . وفى الواقع أن بإمكانهم أن يعتبروا أنفسهم حسنى الحظ لأنهم لم يتعرضوا بشكل أو بآخر لمصير البلدان الأوربية التى رزحت تحت السيطرة الألمانية أو الإيطالية فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

لقد كانت الحرب ، وبخاصة السنوات ١٩٣٩ — ١٩٤٢ ، فترة متأزمة بالنسبة إلى الحركة القومية العربية . ولم تظهر القوى التى خلعت على القومية العربية اتجاهاً جديداً إلا بعد الحرب — وحينئذ انفسح المجال أمام النضال العربى فى سبيل الحرية ، برغم أن ذلك لم يكن نتيجة لجهود برلين وروما . فقد سنحت الفرصة أمام حركة التحرير العربية بعد هزيمة « أكثر عناصر رأس المال رجعية وشوفينية وإمبريالية » ، التى كانت تمسك بزمام الحكم فى برلين وروما — إذ أنها ارتبطت بانتصار التحالف المعادى للفاشية ، وظهور توازن جديد فى القوى العالمية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

المصادر

مادة وثائقية (أصول ، ميكروفيلم وفوتوستات)

١ — وثائق وزارة الخارجية الألمانية
التي استولى عليها الحلفاء الغربيون

Ser. No. 59 Chef AD, Irak, 1937 - 1941.
65 RAM, Iran 1939 - 1943; StS., Iran 1939 - 1944.
70 StS., Syrien 1940 - 1944 - UstS., Telegramme Rahn 1941.
71 StS., Saudisch Arabien, Arabien 1939 - 1944.
72 Chef Ao, Rassengesetzgebung 1935-1937:; Haavara 1938; Judenstaat 1937 - 1938.
83 RAM, Iraq 1938 - 1943; StS., Irak 1939 - 1944.
86 Botaschaft Rom (Qui), Indische und arabische Legion 1942.
90 RAM, Palästina 1937 - 1941.
109 StS., Krieg in Afrika 1942 - 1943.
116 RAM, Afrika 1939 - 1941.
266 StS. Ägypten 1939 - 1943.
345 Hapol Wiehl, Ägypten 1942.
467 Material der Wako Wiesbaden 1941.
468 ,, ,, ,, ,, 1941 - 1942.
469 ,, ,, ,, ,, 1941.
470 ,, ,, ,, ,, ,,
471 ,, ,, ,, ,, ,,
540 StS., Afrika 1939 - 1943.
541 StS. Afrika 1943 - 1944.
647 USTS., Arabien - Syrien - Irak 1940 - 1941.
653 Pol. II, Frankreich - Syrien 1936 - 1938.
658 USTS., Syrien : Rahn Telegramme 1941.
699 USTS., Irak III 1941.
792-Irak II, 1941.
794 USTS., Irak IV 1941 - 1942.
826 Briefwechsel Ciano Grossmufti etc . . 1942.
930 Büro Gesandter Ettel. Handakten.
992 ,, ,, ,, ,,
993 ,, ,, ,, ,,
995 ,, ,, ,, ,,

Ser. No. 974 USTS., Nordafrika I.
975 USTS., Nordafrika II.
1000 Ägypten.
1155 Gesandter v. Hentig. Korrespondenz.
1225 Pol. II. Politische Bezeihungen Grossbritaniens zu Palästina.
1246 Rahn. Eingehende Telegramme 1942.
1260 ,, ,, ,, 1943
1276 ,, Ausgehende Telegramme 1942 - 1943.
1290 ,, Ausgänge, Weiterleitung der Telegrammen der Residence.
1304 Rahn, Tunis, Schriftverkehr.
1319 V. Hentig. Syrienreise 1940 - 1941.
1428 Ettel. Ägypten.
1442 Ritter. Ägypten 1942.
1446 Ettel. Handakten, König Faruk.
1473 Ettel. Handakten, Grossmufti.
1475 Ettel. Politik und Propaganda in Arabien.
1495 USTS., STS., Chef AO. Palästinafrage 1937-1939.
1520 Pol.VII. Palästina, Judenfragen 1936 - 1943.
1525 ,, ,, Dreiteilungsplan Palästinas 1937.
1526 ,, ,, ,, ,, ,,
1541 ,, ,, ,, ,, 1937-1938.
1542 ,, ,, Politische Beziehungen Palästinas zu Deutschland 1936 - 1938.
1560 Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1936.
1581 H Pol. VII. Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1937 - 1938.

Ser. No. 1582 H Pol. VII. Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1937 - 38.
1605 Pol VII. Politische Beziehungen Saudisch-Arabiens zu Deutschland 1937 - 1939.
1626 H Pol. VII. Arabien 1936 - 1939.
1806 Ettel Weiterleitung Post für Grossmufti 1943-1944.
1947 H Pol. VII. Judenfragen und Beziehungen Indiens und Irans 1936 - 1941.
2029 Inl. II. A/B. Gründung eines Palästina-Staates 1937 - 1944.
2150 H Hapol Wiehl. Irak 1932 - 1941.
2151 H ,, ,, ,, 1941.

Ser. No. 2160 H Rahn, Verschiedenes 1942 - 1943.
2207 Hapol Wiehl. Syrien 1927 - 1941.
2212 H USTS. Syrien, Telegramme Rahn 1941.
2213 H USTS. Nordafrika 1942 - 1943.
2309 H RAM. Afrika 1939 - 1941.
2826 H Chef AO. Irak 1937 - 1941.
2827 H Pol. VII. Irak, Innere Politik, Parlaments - und Parteiwesen 1936 - 1939.
3493 H Pol. VII. Arabien 1936 - 1939.
3496 H Pol. VII. Politische Bezeinhungen Palästinas zu Deutschland 1936 - 1938.
3861 H Pol. II Politische Bezeihungen Englands zu Palästina 1936 - 1937.
3864 H Botschaft Ankara, Syrien.
4513 H Inl. II A/B. Grundung eines Palästina Staates 1937 - 1939.
4648 H Botschaft Paris. Afrika 1940 - 1944.
4739 H Kult Pol. (g). Material betr. Orient 1942.
4740 H Hapol Wiehl. Irak 1932 - 1941.
4741 H ,, ,, ,, 1941.
4744 Pol. VII. Nachlass v. Hentig. Länder des Vorderen Orients 1939 - 1942.
4756 H Hapol Wiehl, Syrien 1927 - 1941.
4759 H Botschaft Ankara. Syrien; Italienische Waffenstillstand - Kommission insb. Nachrichten aus Syrien 1940 - 1941.
5237 H Ettel. Handakten, Grossmufti.
5774 H Inl. II A/B. Gründung eines Palästina - Staates 1938 - 1944.
6354 H Reichskanzlei. Berichte v. Papen, Krieg 1941 - 1944.
6666 H Handel mit Kriegsgerät Irak 1937.
6667 H ,, ,, ,, ,, ,,
7057 H Pol. VII Saudisch - Arabien 1937 - 1939.
7058 H ,, ,, Palästina 1937 - 1938.
7059 H ,, ,, ,, 1936 - 1938.
7060 H ,, ,, ,, 1936 - 1939.
7061 H ,, ,, ,, 1937
7256 H STS Arabien 1942 - 1944.

Ser. No. 7515 H Pol. II Politische Bezeihungen Englands zu Irak 1932 - 1936.

8362 H Pol. VII. Politische Bezeihungen Saudi Arabiens zu Deutschland 1937 - 1939.

K 854 Pol. VII. Politische Bezeihunjen Ägyptiens zu England, Indien, Irak, Innere Politik, Parlaments und Parteiwesen. Politische Bezeihungen Irans zu Deutschland. Politische Bezeihungen Indiens zu Deutschland.

K 855 Pol. VII Orient.

K 856 ,, ,, ,,

K 857 ,, ,, Politische Bezeihungen Palästinas zuDeutschland.

K 858 Pol. B VII Palästina, Innere Politik.

K 859 ,, ,, ,, ,, ,,

K 859 ,, ,, Palästina

K 861 ,, ,, ,,

K 862 Pol. VII. Politische Bezeihungen Syriens zu Türkei.

K 863 ,, ,, ., ,, Saudi Arabiens zu Deutschland.

K 868 Pol. VII. Arabien.

K 869 ,, ,, Islam.

K 871 Pol. VII. Privata Ägypten.

K 873 ,, ,, ,, Irak.

K 879 ,, ,, Aufzeichnungen Botschafter Prüfer über Verbindungen mit prominenten in der Schweiz 1942-1943.

K 880 Pol. VII. Dienstelle Botschafter Dr. Prüfer, Brief-wechsel mit prominenten Orientalen in der Schweiz 1942-1943.

وثائق مستقاة من الأرشيف المركزى الألمانى بپوتسدام

Deutsches Zentral Archiv Postsdam.

وثائق وزارة الخارجية الألمانية :

48004 Kulturpolitische Abt. Berichte über die Lage in Indien und Zuweisungen und Pläne für die Indienpropaganda.

48037 Kulturpolitische Abt. Verschiedenes.

48039 ,, ,, ,,

48061 ,, ,, Rundfunksendungen.

48064 ,, ,, Berichte über die Lage in Indien und Zuweisungen und Pläne für die Indienpropaganda.

48065 Kulturpolitische Abt. Berichte über die Lage in Indien und Zuweisungen und Pläne für die Indien propaganda.

58510 Zeitungssammlung. Beirichte über die türkische, irakische, syrische arabische und Palastinapresse.
60658 Hauptreferat Presse. Graf Ciano in Berlin 1940.
60966 Büro RAM Aufzeichnungen über politische Gespräche.
60967 ,, ,, ,, ,, ,,
60968 ,, ,, ,, ,, ,,
60969 Büro RAM Aufzeichnungen des RAM über seine Gespräche mit fremden Diplomaten 1936.
60970 Büro RAM Aufzichnungen des RAM über seine Gespräche mit fremden Diplomaten 1937.
60971 Büro RAM Aufzeichnungen des RAM über seine Gespräche mit frenden Diplomaten 1938.
60972 Büro RAM Aufzeichnungen über politische Gespräche.
68425 Kriegsgerät Ägypten.
68445 ,, Palästina.
68464 ,, Transjordanien. F
68470 ,, Yemen.

وثائق وزارة الاقتصاد الألمانية :

5433 Luftverkehrgesellschaft Iratra im Irak 1931 - 1932.
11863-11863 British Oil Development Co. Irak, Finanzierung der deutschen Beteiligung.

وثائق وزارة التربية والدعاية الألمانية :

1 a - h Ministerbüro Protokoll der täglichen Konferenzen des Ministers Dr. Goebbels mit den Abteilungsleitern 1939-1941.
43 Kolonialfrage in der Presse, 1936 - 1937.
110 Personalakten Dr. Karl Megerle 1933 - 1938.
552 Abt. IV Theater. Ägypten 1935 - 1939.
561 ,, ,, ,, Irak 1936 - 1939.
565 ,, ,, ,, Iran 1933 - 1935
646 Abt. Rundfunk. Deutsche Sendungen in maghrebinischer Spräche.
712 Flugblattpropaganda in arabischen Ländern 1944.
720 Tagung des grossen Zionistenrates in New York 1944.
822 Deutsche Rundfunkpropaganda zur Unterstützung von Subhas Chandra Bose (Concordia Plan H) 1941 - 1942.
827 Büro G. Aufbau der Deutschen Geheimsender.
851 Aufstellung der einzelnen Concordia Sendungen.
890 Internationaler Kongress "Das Weltjudentum in der Weltpolitik", Krakau Juli 1944.
932 Hintergründe des Irakischen Regierungsputsches 1937.
6969 Abt. VI. Irak.

المصادر المنشورة
(مجموعات من الوثائق والمذكرات وسجلات المحاكمات والمنشورات الرسمية)

Abd Allah Ibn Husein, Memoirs of King Abdallah of Transjordan, London, 1950

, My Memoirs Completed, Washington, 1954.

Abetz, Otto, Das offene Problem. Ein Rückblick auf zwei Jahrzehnte deutscher Frankreichpolitik (Cologne, 1951).

(مسألة مفتوحة ـ أضواء على عقدين من سياسة ألمانيا إزاء فرنسا) .

, D'Une prison, Paris, 1949.

Alanbrooke, Lord, The Turn of the Tide, London, 1957.

Alexander, H., The African Campaign from El-Alamein to Tunis, from 10th August 1942 to 13th May 1943. Supplement to London Gazette, February 5th, 1948.

, The Alexander Memoirs, London, 1962.

Les Allemands en Syrie sous le gouvernement de Vichy, London, 1942. Publications de la France Combattante.

American Christian Palestine Committee, The Arab War Effort : a Document Account, New York, 1947.

Amery, L.S., My Life, 3 Vols., London, 1955.

The Arab Office, The Future of Palestine, Geneva, 1947.

Assmann, K., Deutsche Schicksalsjahre Wiesbaden, 1950. (عام مصير ألمانيا)

Auchinleck, C., Operations in the Middle East, 5th July 1941 - 31st. October 1941. Supplement to London Gazette, January 15th, 1948.

Aujol, J - L., Le Procès Benoist - Mechin, Paris, 1948.

Bourguiba, H., La Tunisie et la France, Paris, 1954.

Bullard, R., The Camels must Go, London, 1961.

Butcher, H.S., My Three Years with Eisenhower, New York, 1946.

Butler, J.R.M., Grand Strategy, Vol. II, London, HMSO, 1957.

Cavallero, U., Commando Supremo. Diario 1940 - 1943 del Capo di SMG, Milan, 1948.

Catroux, G., Dans la Bataille de la Méditerranée : Egypte - Levant - Afrique du Nord 1940 - 1944, Paris, 1949.

De Chair, S., The Golden Carpet, London, 1944.

Churchill, W.S., The Second World War, Vols. III, IV, London, 1951.

(Ciano, G.) Ciano's Diairy 1939 - 1943, London, 1947.

—,Ciano's Diplomatic Papers, London, 1948.

Davis, H.M., Constitutions, Electoral Laws, Treaties of States in The Near and Middle East, Durham, N.C., 1947.

Dekel, E., SHAI, The Exploits of the Hagana Intelligence, New York, 1959.

La Délégation Française Auprès de la Commission Allemande d'Armistice. Recueil de documents publiés par le Gouvernement Français, Vols, I-V, Paris, 1947 - 59.

I Documenti Diplomatici Italiani, Ottava Serie, Vols. XII - XIII; Nona Serie, Vols, I - IV, Rome, 1952 - 60.

Documents on British Foreign Policy, Ser. D., Vols. III, V, VI, VIII-XIII, London,-Washington, 1950 - 64.

Documents on International Affairs, 1936, 1937, 1938, 1939, - 1946, London, RIIA, 1938 - 51.

Dokumenty S : Materialy Kanuna vtoroi mirovoi voiny

(وثائق ووواد خاصة بمقدمات الحرب العالمية الثانية) جا ، ج۲ (موسكو ١٩٤٨) .

Dokumenty ministerstva inostrannykh del Germanii, Uypusk 1 - 3

(وثائق وزارة الخارجية الألمانية . المجموعات ١ — ٣)،وسكو ١٩٤٦ .

Eppler, J.W., Rommel ruft Kairo. Aus dem Tegebuch eines Spiones. Bielefeld, 1959.

(روميل ينادى القاهرة . من يوميات جاسوس)

Gamelin, M.G., Servir, Paris, 1946 - 7.

De Gaulle, Ch., Mémoires de Guerre 1940 - 1946, 3 Vols. Paris, 1954-9.

Die Geheimakten des französischen Generalstabes.

(السجلات السرية للأركان العامة الفرنسية ، برلين ١٩٤١) .

Gelberg, L., Prawo miedzynarodowe i historia dyplomatyczna, Wybôr dokumentów

(القانون الدولى وتاريخ الدبلوماسية . مختارات من الوثائق) الجزء الثانى ، وارسو ١٩٥٨ .

Glubb, J.B., The Story of the Arab Legion, London, 1948.

Great Britain, Admiralty, Führer Conferences on Naval Affairs, London, 1947.

—, Central Office of Information, Paiforce: the Official Story of the Persia and Iraq Command, London, 1948.

—, Foreign Office, Statements of Policy in Respect of Syria and the Lebanon, 8th June - 9th Se ptember 1941, Cmd. 6600, London, 1945.

—, Palestine Land Transfer Regulations. Letter to the Secretary General of the League of Nations, 28th February 1940, Cmd. 6180, London, 1940.

--, Palestine Partition Commission Report, Cmd. 5854, London, 1938.

—, Palestine Royal Commission Report, Cmd., 5479, London 1937.

—, Palestine Statement of Policy, Cmd. 5513, London, 1937.

—, Palestine, Statement of Policy (The White Paper of May, 1939 Cmd. 6019, London, 1939.

Guingand, F., Operation Victory, London, 1947.

Halder, F., Kriegstagebuch, Vols. 1-2, Stuttgart, 1962-3.

Von Hentig, O.W., Mein Leben. Eine Dienstreise-Göttingen, 1962.

(حياتى — رحلة خدمة)

(Hitler, Adolf), Hitler e Mussolini. Lettere e documenti;

(هتلر وموسولينى — خطابات ووثائق) ميلانو ١٩٤٦ .

—, Hitlers Tischgespräche im Fuhrerhauptquartier 1941 - 1942

(خطبة هتلر من على المنضدة فى مقر قيادة الفوهرر ، ١٩٤١ — ١٩٤٢) بون ، ١٩٥١ .

(English Translation published under title Hitler's Table Talk 1941 - 1942, London 1953.)

Hitler's Lagebesprechungen. Die Protokolfragmente seiner militärischen Konferenzen 1942 - 1945.

(هتلر يناقش الموقف الحربى ، مقتطفات من مؤتمراته العسكرية ، ١٩٤٢ — ١٩٤٥) شتوتجارت ، ١٩٦٢ .

Hitlers Weisungen für die Kriegsführung 1939 - 1945.

(تعليمات هتلر الخاصة بإدارة الحرب) نشرها W. Hubatsch — فرانكفورت على الماين ، ١٩٦٢ .

Les Lettres secrètes échangées par Hilter et Mussolini, Paris, 1946.

—, Le Testament politique de Hitler, Notes recueillies par Martin Bormann, Paris, 1959.

Hull, C., The Memoirs of Cordell Hull, 2 Vols. New York, 1948.

Hurewitz, J.C., Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. II, 1914 - 1956, Princeton, N.J., 1956.

Jewish Agency for Palestine, Documents and Correspondence Relating to Palestine, August 1939 - March 1940, London, 1940.

—, The Jewish Case before the Anglo-American Commission of Enquiry on Palestine, Jerusalem, 1947.

Juin, A.P., Memoires, Alger, Tunis, Rome, Vol. I, Paris, 1959.

Kesselering, A., Gedanken, zum zweiten WeltKrieg.

(تأملات عن الحرب العالمية الثانية) ، بون ١٩٥٥ .

—, Soldat bis zum letzten Tag

(جندى إلى النهاية) : بون ، ١٩٥٣

Kirkbride, A.S., A Crackle of Thorns, London, 1956.

Knatchbull-Hugessen H., Diplomat in Peace and War, London, 1949.

Leverkühn, P., Der Geheime Nachri ch tendienst, der deutschen Wermacht im Kriege.

(المخابرات السرية التابعة للجيش الألمانى أثناء الحرب)

Frankfurt, a/M., 1957.

London, G. L'Amiral Estéva et le Géneral Dentz devant la Haute Cour de Justice, Lyons, 1945.

Long, G., Greece, Crete and Syria, Canberra, 1953.

Magen b'seter (الدرع المخبوء) Tel Aviv, 1948.

Messe, G. and Sogno, V., Operazioni Italo Tedesche in Tunisia, 11, Novembre 1942 - 13 Maggio 1943.

2 Vols. Rome, 1950, 1952.

(العمليات الإيطالية — الألمانية فى تونس)

Messe, G., La mia armata in Tunisia.
Milan, 1960.

(جيشى فى تونس)

Montgomery, B.L., The Memoirs of Field Marshal Viscount Montgomery of Alamein, London, 1958.

The Nation Associates, The Arab Higher Committee, Its Origin, Personnel and Purpose, New York, 1947.

The Record of Collaboration of King Farouk of Egypt with the Nazis and their Ally, The Mufti, New York, 1948.

Nazi Conspiracy and Aggression, 8 Vols. with Supplement A and B., Washington, 1964 - 7.

Nazi-Soviet Relations 1939 - 1941, Documents from the Archives of the German Foreign Office, Washington, 1948.

Palestine Government, A Survey of Palestine prepared in December 1945, for the Information of the Anglo-American Committee of Inquiry, 2 vols., Jerusalem, 1946.

Von Papen, F., Die wahrheit eine Gasse (نافذة على الحقيقة)
Munich, 1952.

Peterson, M., Both Sides of the Curtain. An Autobiography. London, 1950.

Playfair, I.S.O., and others, the Mediterranean and the Middle East, Vols, 1 - 3 London, H.M.S.O., 1954 - 9.

Le Procés du Maréchal Pétain : compte rendu sténographique, 2 vols, Paris, 1945,

Prozess VII (Trial VII, the so called Balkan Trial), mimeographed.

Prozess XI (Trial XI, the so called Wilhelmstrasse trial), mimeographed.

Rahn, R., Ruheloses Leben, Aufzeichnungen und Erinnerungen

(حياة قلقة — سجلات ومذكرات) — دسلدورف ، ١٩٤٩ .

Reynaud, P., Au coeur de la mêlée, Paris, 1951.

Rintelen, E., Mussolini als Bundesgenosse (موسوليني حليفا)
Tubingen and Stuttgart, 1951.

Rommel, E., Krieg ohne Hass, (حرب بدون كراهية)
Heidenheim, 1950.

Roosevelt, F.D., The Roosevelt Letters, London, 1949-52.

El-Sadat, A., Revolt on the Nile, London, 1957.

As-Said, N., Arab Independence and Unity, Baghdad, 1943.

Sherwood, R.E., Roosevelt and Hopkins : An Intimate History, New York, 1948.

Simonini, L., Berlino, ambasciata d'Italia, 1939 - 43.

(سفارة إيطاليا فى برلين ، ١٩٣٩ — ١٩٤٣) — روما ، ١٩٤٦ .

Soustelle, J., Envers et contre tout, Vols. 1 - 2, Paris, 1947 - 1950.

Stark, F., East is West, London, 1945.

Von Steffen, H., Salaam, Gaheimkommando zum Nil - 1942. Neckargemünd, 1960.

(سلام — قيادة النيل السرية) .

Trial of the Major War Criminals before the International Military Tribunal, 42 vols., Nuremberg, 1947 - 9.

U.S. Department of State, Papers relating to the Foreign Relations of the United States, 1937, Vol. 2; 1938, vol. 2, 1939, Vol. 4, 1940. Vol. 3, 1941, Washington, 1954 - 1959.

Wavell; A.P., Operations in the Middle East from August 1939, to November 1940, Supplement to London Gazette, June 13th, 1946.

—, Operations in the Western Desert from December 7th, 1940 to February 7th, 1941, Supplement to London Gazette, June 26th, 1946.

—, Operations in the Middle East from 7th. February 1941, to 15th July 1941, Supplement to London Gazette, July 3rd. 1946.

—, Dispatch on operations in Iraq, East Syria and Iran from 10th April 1941, to 12th. January 1942, Supplement to London Gazette, August 8th, 1946.

Weizmann, Ch., Trial and Error, New York, 1949.

Weizsäcker, E., Erinnerungen; Munich, 1950 (English Translation entitled Memoirs, Chicago, 1951.)

Wells, S., We Need Not Fail, Boston, ı1948.

Weygand, M., Mémoires, Paris, 1950.

Wilson ,H.M., Eight Years Overseas 1939 - 1947, London 1950.

—, Operations in the Middle East from 16th. February, 1943 to 8th January 1944, Supplement to London Gazette, November 12th, 1946.

Yalman, A.E., Turkey in My Time, University of Oklahoma Press, 1956.

عبد اللطيف البغدادى ، ما قبل الضباط الأحرار — هذه الثورة . القاهرة ، ١٩٥٣ .

عثمان كمال حداد ، حركة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤١ . صيدا ، ١٩٥٠ .

الحسينى ، محمد أمين ، مذكرات مفتى فلسطين . أخبار اليوم — القاهرة ٢٨ سبتمبر ١٩٥٧

الصباغ ، صلاح الدين ، فرسان العروبة فى العراق . دمشق ، ١٩٥٦ .

الفاسى ، علال ، الحركة الاستقلالية فى المغرب العربى . القاهرة ، ١٩٤٨ .

مفاجأة بعد نشر الوثائق السرية . الأخبار — القاهرة : ٢ سبتمبر ١٩٥٧ .

وثائق هتلر تثير ضجة . الأخبار — القاهرة : أول سبتمبر ١٩٥٧ .

٢ ـ أبحاث هامة

Antonius, G., Arab Awakening, The Story of the Arab National Movement, London, 1945.

Aron, R., Histoire de Vichy, Paris, 1954.

De Belot, R., La Guerre aéronaval en Mediterrannée, 1939 - 1945, Paris, 1950.

Bernotti, R., Storia della guerra nel Mediterraneo, 2nd? ed., Rome, 1960.

De Bourbon, X., Les Accords secrets franco-anglais, Paris, 1949.

Bragadin, M.A., Che he fatto la marina?

(ما الذى قامت به البحرية ؟) . الطبعة الرابعة ، ميلانو ١٩٥٩ .

Bullard, R., Britain and the Middle East, London, 1951.

Cambon, H., Histoire de la Guerre de Tunis, Paris, 1948:

Earle, E.M., Turkey, the Great Powers and the Baghdad Railway, New York, 1923.

Von Esebeck, H.G., Afrikanische Schicksalsjahre. Geschichte des Deutschen Afrika - Korps unter Rommel.

(سنوات مصيرية فى إفريقيا ـ تاريخ فيلق إفريقيا الألمانى تحت قيادة روميل) قايسبادن ، ١٩٤٢ .

Falsifikatory istorii (مزيفو التاريخ) Moscow, 1948.

Farmer, P., Vichy Political Dilemma, Columbia U.P., 1955.

Fischer, F., Griff nach der Weltmacht, (السعى وراء السيطرة على العالم) Dusseldorf, 1961.

Fisher, S.N., The Middle East. A History, London, 1959.

Fuller, J.F.C., The Second World War 1939 - 1945, London, 1948.

Garas, F., Bourguiba et la naissance d'une nation, Paris, 1956.

Gorlitz, W., Der Zweite Weltkrieg 1939 - 1945. 2 vols, Stuttgart, 1951.

Great Britain and Egypt 1914 - 1951, London, RIIA, 1952.

Hart, Liddell, The Other side of the Hill, London, 1948.

Hinsley, F.H., Hitler's Strategy. Cambridge, 1951.

Hourani, A.H., Syria and Lebanon, A Political Essay, London, 1946.

Hüber, R., Arabisches Wirtschaftsleben (الاقتصاد العربى)
Heidelberg, 1943.
, Deutschland und der Wirtschafsaufbau des Orients
(ألمانيا والتطور الاقتصادى فى الشرق) Stuttgart, 1937.

Hurewitz, J.C., The Struggle for Palestine, New York, 1950.

Istorya diplomatii (تاريخ الدبلوماسية) Vol. III, Moscow, 1945.

Istoriya Velikoi Otechestvennoi voiny Sovetskogo Soyuza.

(تاريخ الحرب الوطنية للاتحاد السوفييتى) ، الأجزاء ١ – ٣ . موسكو ١٩٦٠ – ١٩٦١ .

Jacobsen, H.A., and Rohwer, A., Entscheidungsschlachten des zweiten Weltkriges. Frankfurt a/M., 1960.
(المعارك الحاسمة أثناء الحرب العالمية الثانية) .

Jones, F.C., Borton, H., and Rearn, B.R., The Far East 1942 - 1946. (Survey of International Affairs, 1939 - 1946 Series) London, 1955.

Kedourie, E., England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire : 1914 - 1921, London, 1956.

Khadduri, M., Independent Iraq 1932 - 1958. A Study in Iraqi Politics, London, 1960.

Kirk, G., The Middle East in the War (Survey of International Affairs 1939 - 1946) Series, London, 1954.
, A Short History of the Middle East from the Rise of Islam to Modern Times, London, 1948.

Laffargue, A., Général Dentz. Paris - Syrie 1941. Paris undated.

Langer, W.L., Our Vichy Gamble, New York, 1947.
, and Gleason, S.E., The Undeclared War, New York, 1947.

Levin, I., Podgotovka voiny na arabskom Vostoke.
(الاستعدادات للحرب فى المشرق العربى) . موسكو ، ١٩٣٧ .

Longrigg, S.H., Iraq 1900 - 1950, London, 1953.
, Oil in the Middle East, 4th ed., London, 1960.
, Syria and Lebanon under the French Mandate, London, 1958.

Lugol, J., Egypt and World War II, Cairo, 1945.

Marinucci de Reguardati, C., Irak, 2 vols, Rome, 1955 - 6.

Marlowe, J., Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953, London, 1954.
, The Seat of Pilate. An account of the Palestine Mandate, London, 1959.

Mirskii, G.I., Irak w smutnoe vremya 1930 - 1941.

(عهد القلاقل فى العراق) . موسكو ، ١٩٦١ .

Monroe, E., The Mediterranean in Politics, London, 1938.
Pajewski, J., 'Milteleuropa' Studia z dziejów imperializmu nienieckiego. Poznán, 1959.

(وسط أوربا ، دراسات عن الإمبريالية الألمانية) .

Pearlman, M., Mufti of Jerusalem, London, 1947.

Philby, H. St., Arabian Jubilee, London, 1954.

-,Saudi Arabia, London, 1955.

Piwarski, K., Monachium 1938. Polityka rzadow Anglii i Francji wobec faszystowskich Niemiec.

(ميونخ ١٩٣٨ . سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية إزاء ألمانيا الفاشية)
وارسو ١٩٥٧ .

-,Polityka europejska w okresic pomonachijskim X. 1938 - III. 1939.

(السياسة الأوربية فى أعقاب ميونخ أكتوبر ١٩٣٨ — مارس ١٩٣٩).
وارسو ، ١٩٦٠ .

Reisner, I.M. (ed.), Noveishaya isotoriya stran zarubezhnogo Vostoka Moscow, 1954 - 5.

(التاريخ الحديث للشرق غير السوفييتى)

Siebert, F., Italiens Weg in den Zweiten Weltkrieg

(كيف دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية) . فرانكفورت على المين ،
١٩٦٢ .

Temperley, H.W.V. (ed.), A History of the Peace Conference in Paris, Vol. VI. London, 1926.

Von Tippelskirch, K., Geschichte des zweiten Weltkrieges.

(تاريخ الحرب العالمية الثانية) بون ، ١٩٥١ .

Toynbee, A.J., and Toynbee, V. (ed.), Survey of International Affairs 1939 - 1946 Series :

The Eve of War, London, 1958.

Hitler's Europe, London, 1958.

Initial Triumph of the Axis, London, 1958.

The War and the Neutrals, London, 1956.

The World in March 1939, London, 1952.

Twitchell, K.S., Saudi Arabia, Princeton, 1953.

Vernier, B., La Politique islamique de l'Allemagne, Paris, 1939.

Vatolina, L., Sovremmenny; Egipet . (مصر المعاصرة)
Moscow, 1949.

Weinberg, G.L., Germany and the Soviet Union 1939 - 1941. Leiden, 1954.

Wiskemann, E., The Rome-Berlin Axis, London, 1949.

الفهرس

صفحة

صفحة

التصميم الاساسى للغلاف: أسـامـة العـبـد
الإشـــراف الـفـنـى: حـسـن كـامـل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة